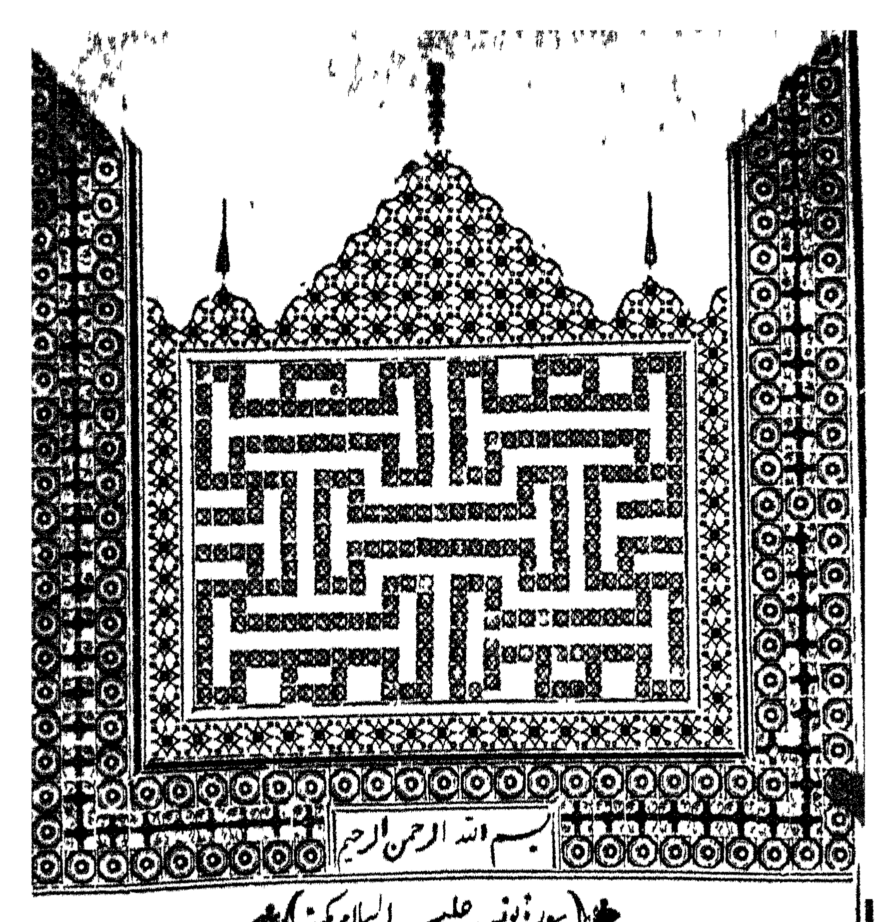


﴿سورة يونس عليه السلام مكية﴾

...فان كنت فى شك الا يتين أو الثلاث أو ومنهم من يؤمن به الا ية مائة وتسع أو عشر آيات ...دد كلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا وهى أول المثين ان جعلنا براءة مع الانفال من الطوال والافبراءة أولاهن (بسم الله) جامع العباد بعد تفريقهم بماله من العظمة والامتنان (الرحمن) الذى عمهم بالايجاد وخص منهم من شاء بالايمان (الرحيم) الذى خص أولياءه بالرضوان المبيح للجنان (الر) قال ابن عباس والضحاك الر أنا الله أرى والمر أنا الله أعلم وأرى وقيل أنا الرب لارب غيرى وقال سعيد بن جبير الر وحم ون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام على حروف الهجاء أول البقرة واتفقوا على ان الر وحده ليس آية واتفقوا على أن قوله طه وحده آية والفرق أن قوله تعالى الر لايشاكل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشاكل مقاطع الآى التى بعده وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون بالامالة المحضة (تلك) اى الآيات العظيمة جدا التى اشتملت عليها هذه السورة أو السورة التى تقدمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة الى أن القرآن كلام الله تعالى قد أعجز القادرين عن التلفظ بهذه الاحرف (آيات الكتاب) اى الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القرآن الذى وافق كل مافيه من القصص كل مافى التوراة والانجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا لانه لم يكن يعرف شيأ من الكتابين ولا جالس أحدا يعلمه


﴿سورة يونس عليه السلام﴾

(قوله اليه مرجعكم ... الى ... ذلك هنا ... لان ... هنا ... الله ... والكفار خطاب للمؤمنين والكفار بقرينة ذكرهما بعد وما

(الحكيم) أى المحكم وقوله تعالى (أكان للناس) أى أهل مكة استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى (عجبا) خبر كان والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم كان بقوله تعالى (أن أوحينا) أى العجب إيحاؤنا (الى رجل منهم) أى من أهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله تعالى لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبي طالب وهو من فرط جهلهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال وخفة المال أعون شيء في هذا الباب ولذلك كان أكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى (أن أنذر الناس) عامة أى أعلمهم مع التخويف ما أمامهم من البعث وغيره وأن هي المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا) أتباعهم في الانذار لانه قل ان يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح ان يبشر به (أن) أى بأن (لهم قدم) أى سابق (صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال أبو عبيدة كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر

صل لذي العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم العثار والندم

وهو مؤنث فيقال قدم حسنة وقدم صالحة وقوله تعالى (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على ان الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم (ان ربكم) الموجد لكم والمربي والمحسن هو (الله الذي خلق) أى قدر وأوجد (السموات والارض) على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع (في ستة أيام) من أيام الدنيا أى في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء لخلقهما في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت (فان قيل) ان اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد (أجيب) بأن الغالب في اللغة انه يراد باليوم اليوم بليلته ولما أوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيرا الى عظمته بأداة التراخي (ثم استوى) أى عمل في تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المعتني بذلك (على العرش) المتقدم وصفه في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ثم بين ذلك الاستواء بقوله (يدبر الامر) كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الامور ولان التدبير أعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) تقرير لعظمته جل وعلا ورد على من

في هود خطاب للكفار فقط بقرينة قوله قبله وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير (قوله يفصل الآيات لقوم يعلمون) خص التفصيل بالعلماء مع انه تعالى

زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه اثبات الشفاعة لمن أذن له (ذلكم الله) اى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية (ربكم) اى الذى يستحق العبادة منكم (فاعبدوه) اى وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع الشريك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن زل أدنى زلة طاعة وقوله تعالى (أفلا تذكرون) قرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال اى فلا تتفكرون أدنى تفكر فينبئكم عن انه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه (اليه) تعالى (مرجعكم) اى رجوعكم بالموت والنشور وحالة كونكم (جميعا) لا يتخلف منكم احد فاستعدوا للقائه وقوله تعالى (وعد الله) مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى (حقا) اى صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله (انه يبدأ الخلق) اى يحييهم ابتداء (ثم يعيده) اى ثم يميتهم ثم يحييهم وفى هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة أخرى فاذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) اى بالعدل لا ينقص من اجورهم شيأ (والذين كفروا لهم شراب من حميم) وهو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) اى بالغ فى الايلام (بما كانوا يكفرون) اى بسبب كفرهم (هو الذى جعل الشمس ضياء) اى ذات ضياء (والقمر نورا) اى ذا نور وخص الشمس بالضياء لانه أقوى وآكد من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء لان الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد والباقون بياء مفتوحة والضمير فى قوله تعالى (وقدره منازل) يرجع الى الشمس والقمر اى قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل او يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله واناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) اى حساب الاوقات من الاشهر والايام فى معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله * (فائدة) * منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فلكل

فصل الآيات للجهلاء أيضا لان انتفاعهم بالتفصيل أكثر (قوله وما كانوا ليؤمنوا) قاله هنا بالواو تبعا لما فى قوله وجاءتهم رسلهم بالبينات وقاله فى موضع أخر بالفاء

برج منزلان وثلث منزل والقمر كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان
كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام
الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء
الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس
تنفصل السنة الى هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب
الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا للتكسب وللطلب والليل يكون زمانا
للراحة (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا بالحق) اي لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك
اظهارا لقدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى في آل عمران ويتفكرون في خلق
السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى في سورة أخرى وما خلقنا السماء
والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (يفصل) اى يبين (الآيات) اى الدلائل الباهرة
واحدة في اثر واحدة بيانا شافيا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير وأبو
عمرو وحفص بالياء والباقون بالنون* ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد
بقوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وثانيا باحوال الشمس
والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى (ان فى اختلاف الليل والنهار) اى بالمجيء والذهاب والزيادة
والنقصان ورابعا بقوله تعالى (وما خلق الله فى السموات) من ملائكة وشمس وقمر ونجوم
وغير ذلك (و) ما خلق الله في (الارض) من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك
(فائدة) أقسام الحوادث فى هذا العالم محصورة فى اربعة أقسام احدها الاحوال الحادثة
فى العناصر الاربعة ويدخل فيها احوال الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها أيضا
أحوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها احوال المعادن وهى عجيبة كثيرة
وثالثها اختلاف احوال النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام
الاربعة داخلة فى قوله تعالى وما خلق الله فى السموات والاستقصاء فى شرح هذه الاحوال
لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكر العقلاء فى احوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من
هذا الباب (لآيات) اى دلالات على قدرته تعالى (لقوم يتقون) الله فانه يحملهم على التفكر
والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم ان الدنيا
مخلوقة لشقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان
كذلك فلابد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسيء فهذه الاحوال فى
الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدا واثبات المعاد* ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل
القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحمن وعلى صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم وعلى
صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع فى شرح احوال من يكفر بها وشرح احوال من
يؤمن بها وقد ابتدأ باولها ووصفه باربع صفات مبتدئا باولها بقوله تعالى (ان الذين لا يرجون
لقاءنا) اى لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون
بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول العرب فلان
لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبي ذؤيب

لتعقيب على أصلها (قوله
قل لو شاء الله ما تلوته عليكم)
كيف قال النبي
(ان قلت) ذلك مع
صلى الله عليه وسلم
أن الله تعالى أنكر على
الكفار اختصاصهم
بمشيئته فى قولهم

الهذلي * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها اى لم يخفها ومن الثانى قولهم فلان لا يرجو فلانا أى لا يطمع فيه والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى (ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها) فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها متمكنين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا اليها سكون من لا ينزع عنها والصفة الرابعة قوله تعالى (والذين هم عن آياتنا) اى دلائل وحدانيتنا (غافلون) تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشئ الذى لا يخطر ببالهم طول عمره ذكر ذلك الشئ وبالجملة فهذه الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية ويحتمل أن الصفة الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخر من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) من الشرك والمعاصى * ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك (يهديهم) اى يرشدهم (ربهم بايمانهم) اى بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة أولما يريدونه فى الجنة أو لادراك الحقائق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقال مجاهد المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم الى الجنة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف * ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة الاولى قوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم) اى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا فهى ما كانت قاعدة عليه ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى اى بين يدى فكذا هنا الثانية قوله تعالى (دعواهم فيها) قال بعض المفسرين اى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا (سبحانك) اى تنزهك من كل سوء ونقيصة (اللهم) اى يا الله فاذا ما طلبوه بين أيديهم على موائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك قوله تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أو أن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ويدل عليه ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس اى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى (وتحيتهم)

لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وامثال هذا الا ينبغى ان تجعل حجة ان يحتج لوشاء الله ما فعلناه (قلت) انما قال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بأمر الله تعالى له فيه بقوله قل الى آخره والعاصى

فيما بينهم وتحية الملائكة لهم (فيها) أى الجنة (سلام) وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى (وآخر دعواهم) أى وآخر دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) اى ان يقولوا ذلك وأن هى المخففة من الثقيلة وقد ذكرنا أن بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشئ فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك قال الرازى وهذا القائل ما رقى نظره فى دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان أن يعد فى زمرة البهائم وأما المحققون فقد تركوا ذلك اه ولا تنبغى هذه المبالغة فقد قاله البغوى وتبعه جماعة من المفسرين وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوى المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الاكرام * ولما وصف الله تعالى الكفار بانهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) أى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه (استعجالهم بالخير) أى كما يحبون أن يعجل لهم اجابتهم بالخير (لقضى اليهم اجلهم) اى لاهلكهم ولكن يمهلهم نزلت فى النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ويدل عليه قوله تعالى (فنذر) اى فنترك (الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم) أى فى تمردهم وعتوهم (يعمهون) أى يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا فى قول الرجل عند الغضب لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم انى أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما انا بشر فاى المؤمنين اذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة (فان قيل) قابل التعجيل فى الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال (اجيب) بان تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه وقال فى الكشاف أصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا انه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم * ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون فى نزول العذاب بين انهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أى الكافر (الضر) أى المرض والفقر (دعانا لجنبه) اى على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال أو لاصناف المضار والمعنى انه لو نزل بالانسان أدنى شئ يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى فى ازالته عنه

أن يحج بذلك اذا أمره الله به (قوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) ان قلت كيف نفى عن الاصنام الضر والنفع هنا وأثبتهما له فى قوله فى الحج يدعو لمن ضره

وفى دفعه عنه وذلك يدل على انه انما كان صادقا فى طلب الاستعجال (فلما كشفنا عنه ضره) اى
أزلنا عنه ما نزل به (مر) اى مضى على ما كان عليه من الكفر (كأن لم يدعنا) اى كانه فاسقط
الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كأن لم يلبثوا (الى ضر مسه) قال الحسن نسى
ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان فى هذه الآية على
الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع فى القرآن ورد فيه ذكر
الانسان فالمراد هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر وقال
تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم
ما توسوس به نفسه وأما المؤمن اذا ابتلى ببلية أو محنة وجب عليه رعاية أمور أولها ان يكون
راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالك
على الاطلاق ومالك بالاستحقاق فله ان يفعل فى ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو
منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فان أبقى
عليه تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل وثانيها انه فى ذلك الوقت ان اشتغل بذكر
الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى
من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته أفضل ما أعطى السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال
بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك أن الاول أفضل وثالثها انه تعالى
اذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء
والضراء وأحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون
المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك فى الشهوات والاعراض عن العبادات كما
قال تعالى (كذلك) اى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح (زين للمسرفين) اى
المشركين (ما كانوا يعملون) من القبائح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمى
الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الاوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة
والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف شاء وقيل
هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والا فهو أخس واحقر (ولقد أهلكنا
القرون) اى الامم الماضية (من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) اى حين أشركوا وقوله تعالى
(وجاءتهم رسلهم بالبينات) اى بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد أو عطف على
ظلموا (وما) اى والحال انهم ما (كانوا ليؤمنوا) اى وما استقام لهم ان يؤمنوا ولو جاءتهم كل
آية لعلمه تعالى بانهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفى (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء
العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم (نجزى القوم المجرمين) اى نجزيكم يا أهل مكة
بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم
أعلام فيه (ثم جعلناكم) اى أيها المرسل اليهم أشرف رسلنا (خلائف) جمع خليفة (فى الارض
من بعدهم) اى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر (لننظر) ونحن
اعلم بكم من أنفسكم فى علم الشهادة لاقامة الحجة (كيف تعملون) من خير أو شر فنجازيكم به
وقد مر نظائر هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا
خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا

(قلت) أقرب من نفعه
نفيهما عنه باعتبار الذات
وإثباتهما له باعتبار
السبب (قوله فلما أنجاهم
إذا هم يبغون فى الارض
بغير الحق)* ان قلت
ما فائدة قوله بغير الحق

خلفاء الا لينظر الى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون اى لا بقوله لننظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه ان كيف معمول لتعملون وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون (واذا تتلى عليهم) اى واذا قرئ على هؤلاء المشركين (آياتنا) اى القرآن الذى أنزلناه اليك يا محمد حالة كون تلك الآيات (بينات) اى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) اى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت) اى من عندك (بقرآن) اى كلام مجموع جامع لما تريد (غير هذا) فى نظمه ومعناه (او بدله) بألفاظ أخرى والمعانى باقية وقد كانوا عالمين بانه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا ان يأخذ فى التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك واختلف فى هذا القائل فقال قتادة هم مشركو أهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو ابن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله فقل أنت من عند نفسك او بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة او مكان حرام حلالا او مكان حلال حراما ولما كان كأنه قيل فماذا أقول لهم قال الله تعالى (قل) لهم (ما يكون) اى ما يصح (لى) ولا يتصور بوجه من الوجوه (ان ابدله من تلقاء) اى قبل (نفسى) وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ان) اى ما (اتبع الا ما يوحى الى) فيما آمركم به أو أنهاكم عنه اى لا آتى بشئ ولا اذر شيأ من نحو ذلك الا متبعا لوحى الله تعالى وأوامره ان نسخت آية تبعت النسخ وان بدلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس الى تبديل ولا نسخ (انى أخاف ان عصيت ربى) اى بتبديله (عذاب يوم عظيم) فانى مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيرى ممن يتكلم الهذيان بالا يخاف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لى وانى بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) اى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) اى ولا اعلمكم به على لسانى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو اى لا علمكم به على لسان غيرى والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى (فقد لبثت) اى مكثت قراءة نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام (فيكم عمرا) سنين أربعين (من قبله) اى قبل ان يوحى الى هذا القرآن لا أتلوه ولا اعلمه ففى ذلك اشارة الى ان هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره ان أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين باحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من احد ثم بعد انقراض اربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الاصول ودقائق

قوله لانها حرف استفهام كذا فى النسخ وظاهر ان كيف اسم لا حرف اه مصححه

بعد قوله يبغون مع ان البغى وهو الفساد من قولهم بغى الجرح اى فسد لا يكون الا بغير الحق (قلت) قد يكون الفساد بحق كاستيلاء المسلمين على ارض الكفار وهدم

في الاحكام ولطائف علم الاخلاق وأسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف أن مثل هذا لا يحصل الا بالوحي والالهام من الله تعالى (أفلا تعقلون) أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة أنه لا يكون الا على سبيل الوحي من الله تعالى لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه *(تنبيه)* أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحي اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووي وورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها أنه توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها وتأولوا رواية ستين بأن راويها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس أيضا متأولة وحصل فيها اشتباه ولما قويت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال انه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى (فمن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى) أي تعمد (على الله كذبا) أي أي كذب كان من شريك أو ولد أو غير ذلك وكان الاصل مبني على تقدير أن لا يكون هذا القرآن من عند الله والمنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (أو كذب بآياته) أي دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم وذلك من أعظم الكذب وقوله تعالى (انه) أي الشأن (لا يفلح) وجه من الوجوه (المجرمون) أي المشركون تأكيد لما سبق من هذين الوصفين (ويعبدون) أي هؤلاء المشركون (من دون الله) أي غيره (ما لا يضرهم) أي ان لم يعبدوه (ولا ينفعهم) أي ان عبدوه وهو الاصنام لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافساد واذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة أعظم انواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بأن يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل واسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء) أي الاصنام التي نعبدها (شفعاؤنا عند الله) ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازي ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد أنهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله اه ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار وفي هذه الشفاعة قولان أحدهما انهم يزعمون أنها تشفع لهم في مصالحهم من أمور الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعث الموتى والثاني أنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة ان يكن بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (أتنبئون) أي أتخبرون (الله) وهو العالم بكل شئ

دورهم واحراق زروعهم وقطع اشجارهم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ببني قريظة (قوله انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) ان قلت لم شبه الحياة الدنيا بماء السماء

المحيط بكل محيط (بما لا يعلم) أى لا يوجد له به علم فى وقت من الاوقات استفهام انكار تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الاصنام واعلام بأن الذى انبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما موجودا وهذا مثل مشهور فى العرب فان الانسان اذا أراد نفى شئ عن نفسه يقول ما علم الله ذلك منى ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه) اى تنزيها له عن كل شئ فيه شائبة نقص (وتعالى عما يشركون) ما مصدرية أو موصولة اى عن اشراكهم او عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لقوله تعالى أتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم قل أنت سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون * ولما أقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله (وما كان الناس الا امة واحدة) أى جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال فى فترة الرسل واختلف القائلون بالاول أنهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام من لدن آدم الى أن قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون ثم اختلفوا فى عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى أن ظهر الكفر فيهم وقال آخرون من عهد ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحى وهذا القائل قال المراد من الناس فى قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة (فاختلفوا) بأن ثبت بعض وكفر بعض (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هى قوله سبحانه سبقت رحمتى غضبى فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان (لقضى بينهم) اى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة (فيما فيه يختلفون) من الدين باهلاك المبطل وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم (ويقولون) اى كفار مكة (لولا) اى هلا (انزل عليه) اى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) اى غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد (فقل) يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين (انما الغيب) اى ما غاب عن العباد أمره (لله) اى هو المختص بعلمه ومنه الآيات فلا يأتى بها الا هو وانما على التبليغ (فانتظروا) اى نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب ان لم يؤمنوا (انى معكم من المنتظرين) اى لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة فى الآيات رفيعة المسلك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل او غيره فاى عناد أعظم من هذا (واذا اذقنا الناس) اى كفار مكة (رحمة) اى صحة وسعة (من بعد ضراء) اى شدة وبلاء (مستهم) سلط الله تعالى القحط سبع سنين على اهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى

(قال) دون ماء الارض لان ماء السماء وهو المطر لا أثر لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص او لانه يستوى فيه جميع الخلائق بخلاف ماء الارض فيهما فكان شبيها بالمباح

خصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى العناد والكفر كما قال
تعالى (اذا لهم مكر في آياتنا) بالاستهزاء والتكذيب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله انما
يقولون سقينا بنوء كذا وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
ان الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا
بنوء كذا والنوء عند العرب هي منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره (قل الله) أي قل لهم
يا محمد الله (أسرع مكرا) منكم أي أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ومعنى الوصف
بالاسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى
اما الاستدراج أو الجزاء على المكر فاسم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بما هو أشد منه وهو
امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا) أي الحفظة الكرام الكاتبين (يكتبون ما تمكرون)
لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد علمه وكلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون
مكركم الا بعد اطلاعهم عليه واما هو سبحانه وتعالى فانه اذا اقتضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه
رسله الا بعد اطلاعه فكيف بغيرهم واذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لا يدعهم
يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون
بالرفع ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره في مثال دال على ما في الآية قبلها
لان المعنى الكلي لا يصل الى أفهام السامعين الا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة
ذلك المعنى الكلي فقال (هو الذي يسيركم) اي يحملكم على السير في كل وقت تسيرون فيه
لا تقدرون على الانفكاك عنه ويمكنكم منه (في البر والبحر) اي يسبب لكم اسبابا توجب
سيركم فيهما وقرأ ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة والباقون
بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أن
السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات خصه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى (حتى اذا
كنتم) أي كونا لا براح لكم منه (في الفلك) اي السفن (فان قيل) كيف جعل الكون في
الفلك غاية للتسيير في البحر مع أن الكون في الفلك متقدم لا محالة على التسيير في البحر
(أجيب) بانه لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذي يسيركم
حتى اذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على
الواحد وعلى الجمع فان اريد الواحد كان كبناء قفل أو الجمع كان كبناء حمر والمراد هنا الجمع
لقوله تعالى (وجرين بهم) اي جرين فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كأنه يذكر لغيرهم
حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح والالتفات في الكلام عن الغيبة الى
الحضور والعكس في فصيح كلام العرب (بريح طيبة) اي لينة الهبوب (وفرحوا بها) اي
بتلك الريح وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى (جاءتها) جواب اذا والضمير للفلك او للريح
الطيبة بمعنى تلقتها (ريح عاصف) اي شديدة الهبوب فازعجت سفينتهم واساءتهم (وجاءهم
الموج) اي وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من ضراب الماء في البحر وقيل هو
شدة حركة الماء واختلاطه (من كل مكان) اي يعتاد مجيء الموج منه فارجف قلوبهم (وظنوا
انهم احيط بهم) اي ظنوا ان الهلاك قد احاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن

انسب (قوله قل من يرزقكم من السماء والارض) الى قوله فسيقولون الله (ان قلت) هذا يدل على انهم معترفون بان الله هو الخالق الرازق المدبر فكيف عبدوا الاصنام (قلت) كلهم كانوا

احاط بهم العدو (دعوا الله مخلصين) اى من غير اشراك شيء (له الدين) اى الدعاء لانهم لا يدعون حينئذ غيره لان الانسان فى هذه الحالة لا يطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع اجزائه متضرعا الى الله تعالى وقوله تعالى (لئن انجيتنا من هذه) الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) على ارادة القول او مفعول دعوا لانه من جملة القول اى لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما انجاهم) اى هؤلاء الذين ظنوا انهم احيط بهم من الشدة التى كانوا فيها اجابة لدعائهم (اذا هم يبغون) اى فاجؤا الفساد وسارعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى (فى الارض) اى جنسها (بغير الحق) * فان قيل البغى لا يكون بحق فما معنى قوله بغير (اجيب) بانه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقطع اشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب المفردات البغى على ضربين احدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة والآخر كفعل المسلمين ماذكر (يا ايها الناس انما بغيكم) اى ظلمكم (على انفسكم) لعوده بالعذاب عليها خاصة قال صلى الله عليه وسلم اسرع الخير ثوابا صلة الرحم واعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين فى اخيه

يا صاحب البغى ان البغى مصرعة * فاربع فخير فعال المرء اعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه اعاليه واسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل كما قال تعالى (متاع الحيوة الدنيا) اى لا يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها (ثم الينا) بعد البعث (مرجعكم) فى القيامة (فننبئكم) اى فنخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها وقرأ حفص متاع بنصب العين على انه مصدر مؤكد اى تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى انفسكم صلته او خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا اتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغى فى الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى اعراضه عن امر الآخرة والتأهب لها بقوله تعالى (انما مثل الحيوة الدنيا) اى حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول (كماء انزلناه) وحقق امره وبينه بقوله تعالى (من السماء فاختلط به) اى بسببه (نبات الارض) اى اشتبك بعضه ببعض والاختلاط تداخل الاشياء بعضها فى بعض (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار ونحو ذلك (و) مما يأكل (الانعام) من الحشيش ونحوه (حتى اذا اخذت الارض زخرفها) اى حسنها وبهجتها من النبات (وازينت) باظهار الوان زهرها من ابيض واصفر واحمر وغير ذلك من الزهر وكالعروس اذا

يعتقدون بعبادتهم الاصنام عبادة الله تعالى والتقرب اليه لكن بطرق مختلفة متفرقة فالت اليه لنا اهلية العبادة لله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها ليقربونا الى الله زلفى وفرقه

خذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتسيتها وتزينت بغيرها من الوان الزين واصل ازينت
تزينت ابدلت التاء زايا وادغمت في الزاي (وظن اهلها) اي اهل تلك الارض (انهم قادرون
عليها) اي متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها (اتاها امرنا) اي قضاؤنا من البرد والحر
المفرط اوغيره (ليلا او نهارا) اي في الليل او في النهار (فجعلناها) اي زرعها (حصيدا) اي
كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى (كان) مخففة اي كأنها (لم تغن) اي لم تكن (بالامس) تلك
الزروع والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كان لم تغن
للمبالغة * (تنبيه) * تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه
الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع
الياس منه لان الغالب ان المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها ياتيه الموت
وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون اي خاسرون
الدنيا وقد انفقوا اعمارهم فيها وخاسرون من الآخرة مع انهم توجهوا اليها الثاني انه تعالى
بين انه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة
محمودة مع ان المنافع التي تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فان سعادة الدنيا غير خالصة من
الآفات بل هي ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب
ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول الله وما هو قال سرور يوم بتمامه الثالث ان مالك
ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع به فاذا حصل ذلك
السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببا لحصول الشقاء الشديد له في
المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات فكذا حال من وضع قلبه على الدنيا واتعب
نفسه في تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذي تحمله في تحصيل اسباب الدنيا
سببا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة (كذلك) اي مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه
(نفصل الآيات) اي نبينها (لقوم يتفكرون) لانهم المنتفعون بها ولما نفر تعالى الغافلين عن
الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم في الآخرة بقوله تعالى (والله يدعوا) اي يعلق دعاءه على
سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين (الى دار السلام) قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة
وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم من
احتياجه في ذاته وصفاته ومن الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال تعالى
والله الغني وانتم الفقراء وقال تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى
السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة سميت الجنة دار السلام لان اهلها يحيي بعضهم بعضا
بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم
ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى الجنة التي هي دار السلام وفيه دليل
على ان فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم
ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت
ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان صاحبكم هذا مثله كمثل رجل بنى
دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن اجاب الداعي دخل الدار واكل من المائدة ومن لم يجب

قالت الملائكة ذو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا الى الله وفرقة قالت جعلت الاصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى كما كان

الداعي ليدخل الدار ولم يأكل من المائدة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم (و) الله
(يهدي من يشاء) من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية (الى صراط مستقيم) وهو دين
الاسلام عم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا اظهار الحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للقدرة لان
الحكم له في خلقه وقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة
بل الصحبة عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالآيات ويهدي للحقائق والمعارف وقيل الدعوة
لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية (للذين
احسنوا) اى بالايمان (الحسنى) وهي الجنة (وزيادة) وهي النظر اليه تعالى في الآخرة كما في
الحديث الصحيح اذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون
اليه فوالله ما أعطاهم الله شيأ هو احب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال في هذا وزعمت
المشبهة والمجبرة لان المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة
الى ربها ناظرة فاثبت الله لاهل الجنة امرين أحدهما النضارة وهي حسن الوجوه وذلك
من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحسنى
الحسنة والزيادة عشر أمثالها وعن الحسن عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد
الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة باهل الجنة فتقول
ما تريدون ان امطركم فلا يريدون شيأ الا امطرتهم ولا مانع من ان تفسر الزيادة بذلك كله اذ
لا تنافي فيها والفضل واسع (ولا يرهق) اى يغشى (وجوههم قتر) اى سواد (ولا ذلة) اى
كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان (أولئك) اى هؤلاء الذين وصفهم الله هم
(أصحاب الجنة) وقوله تعالى (هم فيها خالدون) اشارة الى كونها دائمة آمنة من الانقطاع ولا
زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها ولما بين تعالى حال الفضل فيمن احسن بين
حال العدل فيمن اساء بقوله تعالى (والذين كسبوا السيآت) اى الشرك (جزاء سيئة) منهم
(بمثلها) بعدل الله من غير زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين السيآت والحسنات لان
الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة
تفضلا منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازي عليها بمثلها عدلا منه تعالى (وترهقهم) اى
تغشاهم (ذلة) عكس اهل الجنة (ما لهم من الله من عاصم) اى مانع يمنعهم من عذاب الله اذا
نزل بهم (كأنما اغشيت) اى البست (وجوههم قطعا من الليل مظلما) لفرط سوادها وظلمتها
وقرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء اى جزأ والباقون بفتحها جمع قطعة اى اجزاء
(اولئك) اى هؤلاء الاشقياء (اصحاب النار هم فيها خالدون) لا يتمكنون من مفارقتها
(و) اذكر (يوم نحشرهم) اى الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل
جانب وناحية الى موقف الحساب حال كونهم (جميعا) لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيامة
والحشر الجمع بكره الى موقف واحد (ثم نقول للذين اشركوا مكانكم) اى الزموا مكانكم
لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى (انتم) تأكيد للضمير المستتر في الفعل المقدر
ليعطف عليه (وشركاؤكم) اى من كنتم تعبدونه من دون الله (فزيلنا) اى فرقنا (بينهم) اى
بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من

الكعبة قبلة في عبادته
وفرقة اعتقدت ان على كل
صنم شيطانا موكلا بامر
الله فمن عبد الصنم حق
عبادته قضى الشيطان
حوائجه بامر الله والا

دون الله من عبده وليس فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون والاول انسب بقوله تعالى (وقال شركاؤهم) اي هؤلاء المشركين (ما كنتم ايانا تعبدون) اي انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم ان تتخذوا لله اندادا فاطعتموهم واختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هي الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم جعلوا نصيبا من اموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا في هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال آخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير ان يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول أظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال شركاؤهم يقتضي ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء (فان قيل) اذا أحياها الله تعالى هل يبقيها او يفنيها (أجيب) بان الكل محتمل فان الله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء واحوال القيامة غير معلومة الا القليل الذي أخبر الله تعالى عنه في القرآن وعلى لسان أنبيائه وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انس وملك وجن وشمس وقمر وصنم وهذا أظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صاروا شركاء في هذا الخطاب • ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا بل كنا نعبدكم فقال شركاؤهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) فانه تعالى العالم بكنه الحال (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) اي لم نامركم بها ولم نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فتقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فانها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور البتة • (تنبيه) • ان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المخففة والنافية (هنالك) اي في ذلك الموقف من المكان العظيم الاهوال المتوالي الزلازل (تبلوا) اي تختبر (كل نفس) طائعة وعاصية (ما اسلفت) اي ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدي الى سعادة او شقاوة وقرأ حمزة والكسائي بتاءين من التلاوة اي تقرأ ذكر ما قدمت او من التلو فيتبع كل شخص عمله فيقوده الى الجنة او الى النار والباقون بعد التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار (وردوا الى الله) اي الى جزائه اياهم عما اسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره (مولاهم الحق) اي ربهم ومتولي امرهم على الحقيقة ولا التفات الى ما سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه في الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (وضل عنهم) اي ذهب وبطل وضاع (ما كانوا يفترون) اي يتعمدون كذبه من ان معبوداتهم شركاء وتيقنوا في ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلا غير حق • ولما بين فضائح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلائل على فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى (قل) اي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات فانحصر الرزق في ذلك أما من السماء فبتنزل الامطار وأما من الارض فلان الغذاء اما ان يكون نباتا أو حيوانا اما النبات فلا ينبت الا من الارض واما الحيوان فهو يحتاج ايضا الى الغذاء ولا يمكن ان يكون غذاء

أصابه الشيطان بنكبة
فامر الله (قوله قل هل من
شركائكم من يبدؤا الخلق
ثم يعيده) ان قالت
كيف قال ذلك مع
انهم غير معترفين بوجود

كل حيوان حيوانا آخر والا لزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال فثبت ان أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات وثبت ان تولد النبات من الارض فثبت القطع بأن الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض (أمن يملك السمع) أى الاسماع (والابصار) أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة * عن على رضى الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم أو جعلهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما اللطيفان يؤذيهما أدنى شئ بكلائه وحفظه (ومن يخرج الحى من الميت) كان يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة (ويخرج الميت من الحى) كان يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى ميت فى الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشددة والباقون بعد الميم بسكون الياء (ومن يدبر الامر) أى ومن يلى تدبير أمر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان أقسام تدبير الله تعالى فى العالم السفلى وفى العالم العلوى وفى عالم الارواح والاجساد أمور لا نهاية لها وذكر كلها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك الافاصيل عقبها بالكلام الكلى ليدل على الباقى ثم بين تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم عن مدبر هذه الاحوال (فسيقولون الله) اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) لهم يا محمد (أفلا تتقون) الشرك مع اعترافكم بان كل الخيرات فى الدنيا والآخرة انما تحصل بفضل الله تعالى واحسانه (فذلكم الله ربكم الحق) أى الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه واذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا لان النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فاذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا كما قال تعالى (فماذا بعد الحق الا الضلال) اذ لا واسطة بينهما انه واستفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن اخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فانى) أى فكيف ومن أى جهة (تصرفون) أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بان الله هو الحق (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو ان الحق بعده الضلال أو انهم مصروفون عن الحق (حقت كلمة ربك) فى الازل (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة اى حق عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لأملأن جهنم الآية وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى لانهم لا يؤمنون أو ذلك تفسير الكلمة التى حقت وقرأ نافع وابن عامر كلمات بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الالف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء (هل من شركائكم) الذين زعمتموهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزرعكم (من يبدأ الخلق) كما بدأه ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة (ثم يعيده) كما كان (فان قيل) هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء فى الالزام بها (أجيب) بانها لظهور برهانها وان لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا راد الظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه دلالة على أنهم فى انكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك أمر رسول الله صلى الله

لما كانت الاعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها وهو القدرة على ابتداء الخلق والاعادة أهون بالنسبة الينا لزمهم الاعتراف بها فكانهم الاعادة أصلا (قلت)

عليه وسلم أن ينوب عنهم في الجواب بقوله تعالى (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها (فأنى) أي فكيف (تؤفكون) عن عبادته مع قيام الدلائل (فان قيل) ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام (أجيب) بأن الكلام اذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب * الحجة الثالثة قوله تعالى (قل) أي قل يا محمد لهم (هل من شركائكم من يهدي الى الحق) بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا اما جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله تعالى (قل الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة (يهدي للحق) من يشاء لا أحد ممن زعمتم شركاءه فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله تعالى من يهدي الى الحق وفي قوله تعالى قل الله يهدي للحق وقوله تعالى (أفمن يهدي الى الحق) أي وهو الله تعالى (أحق أن يتبع أمن لا يهدي) أي يهتدي (الا أن يهدى) أحق أن يتبع استفهام تقرير وتوبيخ أي الاول أحق (فما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى (وما يتبع أكثرهم) فيه تفسيران الاول وما يتبع أكثرهم في اقرارهم بالله تعالى (الا ظنا) لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم الثاني وما يتبع أكثرهم الا ظنا في قولهم للاصنام آلهة وانها شفعاء عند الله تعالى الا الظن حيث قلدوا فيه آباءهم قال الرازي والقول الاول أقوى لان القول الثاني يحتاج الى تفسير الاكثر بالكل (ان الظن لا يغني من الحق) فيما المطلوب فيه العلم (شيئا) من الاغناء فدلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا في مسائل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مؤمنا (فان قيل) قول أهل السنة أنا مؤمن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر (أجاب) الرازي بأن هذا ضعيف من وجوه الاول أن مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه أن الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل في أن هذه الاعمال هل هي موافقة لامر الله تعالى والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية الثاني ان الغرض من قوله ان شاء الله تعالى بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها (ان الله عليم) أي بالغ العلم (بما يفعلون) أي من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى (وما كان) عطف على قوله ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي الخ فهو حينئذ مقول القول أي قل لهم ذلك الكلام (هذا القرآن) أي الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق (أن يفترى) أي افتراء (من دون الله) أي غيره لان المفترى هو الذي تأتي به البشر وكفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى به من عند نفسه فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحي أنزله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه أحد الا الله ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى (ولكن) أنزل (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك أنه وحي من الله أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وانه معجزة له فانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا

صادقون وجوداً من حيث
ظهور الحجة ووضوحها
(قوله فالينا مرجعهم ثم
الله شهيد على ما يفعلون)
رتب شهادته على فعلهم
على رجوعهم اليه في
القيامة مع انه شهيد عليهم

القرآن العظيم المعجز وفيه اخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث (وتفصيل الكتاب) اى تبيين ما كتب الله من الاحكام وغيرها (لا ريب) اى لا شك (فيه) وقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بتصديق أو بانزل المحذوف (أم) اى بل (يقولون افتراه) اى اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار (قل) اى قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانتم عرب مثلى فى البلاغة والفطنة (فان قيل) هل يتناول ذلك جميع السور والصغار والكبار أو يختص بالسور الكبار (أجيب) بان هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة لانها أقرب ما يمكن أن يشار اليه هكذا أجاب الرازى والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا باقصر سورة (فان قيل) لم قال فى البقرة بسورة من مثله وهنا بسورة مثله (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم اى فليأت انسان يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة وحيث ظهر العجز ظهر المعجز فهذا لا يدل على ان السورة فى نفسها معجزة ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتلمذ معجز ثم بين تعالى فى هذه السورة ان تلك السورة فى نفسها معجزة فان الخلق وان تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا فلا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى (وادعوا من استطعتم) اى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به (من دون الله) اى غيره فانه تعالى وحده قادر على ذلك (ان كنتم صادقين) اى فى انى أتيت به من عندى لان العاقل لا يجزم بشئ الا اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر *(تنبيه)* مراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة أولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم بعشر سور فقال تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة من مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله خامسها ان فى تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم ان يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذة والتعلم ثم فى هذه السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من اى انسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها سادسها ان فى المراتب المتقدمة تحدى واحدا من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز ان يستعين البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذى لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى (بل كذبوا) اى أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب اشنع منه مسرعين فى ذلك (بما لم يحيطوا بعلمه) اى القرآن أول ما سمعوه وقبل ان يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا عما يخالف دينهم فهو من باب من جهل شيأ عاداه والاحاطة ادارة ما هو كالحائط حول الشئ

ف الدنيا أيضا الا ان المراد بما ذكر تقييده وهو العذاب والجزاء كما انه قال او مجاز ثم الله معاقب على ما يفعلون (قوله بياتا او نهارا) ان قلت لم قال بياتا ولم يقل ليلا مع انه

واحاطة العلم بالشئ العلم به من جميع وجوهه (ولما يأتهم) اى الى زمن تكذيبهم (تأويله) اى تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم انه صدق ام كذب ومعنى التوقع فى لما انه قد ظهر لهم بالآخرة اعجازه لما كرر عليهم التحدى بخبر وا عقولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا (كذلك) اى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر المعجزة (كذب الذين من قبلهم) اى من كفار الامم الماضية فظلموا فاهلكناهم بظلمهم (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) بتكذيب الرسل اى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك نهلك من كذبك من قومك وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله (ومنهم) اى من قومك يا محمد (من يؤمن به) اى القرآن اى يصدق به فى نفسه ويعلم انه حق ولكنه يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) فى نفسه لغباوته وقلة تدبره أو منهم من يؤمن به فى المستقبل بان يتوب من الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الآية بهذين التأويلين لان كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال (وربك أعلم بالمفسدين) اى المعاندين على التفسير الاول والمصرين على التفسير الثانى وفى ذلك تهديد لهم (وان كذبوك) اى وان يكذبوك يا محمد بعد الزام الحجة (فقل) لهم (لى عملى) من الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) من الشرك وجزاء عقابه اى تبرأت منهم فقد أعذرت والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم واختلف فى معنى ذلك فقيل معنى الآية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الرازى وهذا بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضى حرمة القتال وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا انتهى ولا تنبغى هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من يكون فى نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول فى قوله تعالى (ومنهم) أى من هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا قوى بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه (أفأنت تسمع الصم) أى أتقدر على اسماعهم (ولو كانوا) مع الصمم (لا يعقلون) أى لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما أنك لا تقدر على اسماع الاصم الذى لا يعقل لا تقدر على اسماع من أصم الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى (ومنهم من ينظر

اكثر استعمالا والظهر قلت مطابقة مع النهار لان المعهود فى الاستعمال عند ذكر الاهلاك والتهديد ذكر البيات وان قرن به النهار (قوله الا ان لله ما فى السموات والارض) قاله

البيّن) أي وما ينوب دلائل نبوّتك ولا يصدقونك (أفأنت تهدي العمي) أي أتقدر على هدايتهم (ولو كانوا) مع العمى (لا يبصرون) أي لا بصيرة لهم لأن الأعمى الذي في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهدايتهم إلا الله تعالى * (تنبيه) * اختلف في أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بأمور منها ما تقدم في الآية ومنها أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئي إلا من جهة واحدة وهي المقابل ومنها أن الانسان إنما يستفيد العلم من التعلم من الاستاذ وذلك لا يكون إلا بقوة السمع فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل إلا بقوة السمع ومنها أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وإنما حصلت بسبب ما معهم من الأحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام ومنها أن المعنى الذي يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وإنما ينتفع بذلك القوة السامعة فمتعلق السمع النطق الذي يحصل به شرف الانسان ومتعلق البصر ادراك الألوان والأشكال وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بأمور منها أن آلة القوة الباصرة هي النور وآلة القوة السامعة هي الهواء والنور أشرف من الهواء ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا في جمال وجهه والعرب تسمي العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفي الحديث يقول الله تعالى من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ومنها أنهم قالوا في المثل المشهور ليس وراء العيان بيان وذلك يدل على أن أكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها أن كثيرا من الأنبياء سمع الله واختلفوا في أنه هل رآه منهم أحد أم لا وأيضا فان موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن تراني وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أن تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا) أي لأنه تعالى في جميع أحواله متفضل وعادل فيتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وإنما قال تعالى (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) لأن فعلهم منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففي ذلك دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت الجبرة وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بنصب النون مشددة ونصب السين ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) أي واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم (كأن) أي كأنهم (لم يلبثوا) في دنياهم والجملة في موضع الحال من

هنا بلفظ ما ولم يكرره وقاله بعد بلفظ من وكرره لأن ما الخبر العقلاء وغيرهم فالمال المأخوذ من الأول قوله لا قسمة به ولم يكرر ما كرره بقوله قبله ولو أن

ضمير نحشرهم العائد (أى مشبهين بمن لم يلبثوا (الا ساعة) صغيرة (من النهار) أى يستقصرون مدة مكثهم في الدنيا وفي القبور لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) أى يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى بالبعث يحتمل وجهين الاول ان يكون على ارادة القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثاني ان يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى ان من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لانه اعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ القليل الخسيس الفاني (وما كانوا مهتدين) أى الى رعاية مصالح التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن رأى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فاذا عرضها على النافذين خاب سعيه وفات أمله ووقع في حرقة الروح وعذاب القلب وقوله تعالى (واما) فيه ادغام ان الشرطية في ما الزائدة (نرينك) يا محمد (بعض الذي نعدهم) به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أى فذاك (أو نتوفينك) قبل ان نريك ذلك الوعد في الدنيا فانك ستراه في الآخرة وهو قوله تعالى (فالينا) بعد البعث (مرجعهم) فنريك هنالك ما هو أقر لعينك وأسر لقلبك وقوله تعالى (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم أى انه تعالى شهيد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال كل الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك بقوله تعالى (ولكل أمة) أى من الامم التي خلت من قبلك (رسول) يدعوهم الى الله تعالى وقوله تعالى (فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط) فيه اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضي أى حكم وفصل بينهم بالقسط أى بالعدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما انه في الدنيا بان يهلك الكافرين وينجي رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثاني في الآخرة وذلك ان الله تعالى اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم والمراد منه المبالغة في اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) في جزاء أعمالهم شيأ بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء (ويقولون متى هذا الوعد) الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) أى فيما تعدوننا به وانما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم أو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وان كان كل أمة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل أمة رسول قال الله تعالى (قل) أى قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسي ضرا) من مرض أو فقر أدفعه (ولا نفعا) من صحة أو غنى أجلبه (الا ما شاء الله) ان يقدرني عليه فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام الساعة ولا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى (لكل أمة أجل) أى مدة مضروبة (اذا جاء أجلهم) أى انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون) أى لا يتأخرون (عنه ساعة) ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها (ولا يستقدمون) أى ولا يتقدمون أى ولا

لكل نفس ظلمت ما في الارض ومن للعقلاء وهم في الثاني قوم آذوا النبي صلى الله عليه وسلم فنزل فيهم ولا يحزنك قولهم وكرر من لان المراد من في

يستعجلون فان الوفاء بالوعد لابد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان اى لا يوجد لهم المعنى الذى منع منه الفعل ويجوز ان يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا فى الطلب فيكون فى السين معنى الطلب وتدل الآية على ان أحدا لا يموت الا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلها أيضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى (قل) اى قل لهم يا محمد أيضا (أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) اى فى الليل بغتة كما يفعل العدو (أو نهارا) اى وقت أنتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا) اى اى شئ (يستعجل منه) اى من عذابه وعذابه كل مكروه ولا يحتمل شئ منه (المجرمون) اى المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على انهم لجرمهم ينبغى ان يفزعوا من مجئ الوعيد لا أن يستعجلوا وجملة الاستفهام متعلقة بأرأيتم وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه (أثم اذا ما وقع) اى حل بكم (آمنتم به) اى آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس والهمزة لانكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى (آلآن) على ارادة القول اى قيل لهم اذا آمنوا وقت نزول العذاب آلآن (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء * (تنبيه) * اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التى بعد همزة الاستفهام ان فيها وجهين وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المقدر اى من اى قائل كان استهانة بهم وقرأ هشام والكسائى باشمام القاف وهو ان تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (ذوقوا عذاب الخلد) اى الذى تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخى ذلك عن الاهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ أو الى ان عذابه أدنى من عذاب يوم الدين (هل) اى ما (تجزون الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى (ويستنبؤنك) اى يستخبرونك يا محمد (أحق هو) اى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قاله حيى بن أخطب لما قدم مكة (قل) لهم فى جوابهم (اى وربى انه لحق) اى كائن ثابت لابد من نزوله بكم * (تنبيه) * اى بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك توصل بواوه فى التصديق فيقال اى والله ولا ينطقون به وحده (وما أنتم بمعجزين) اى بفائتين العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو ان لكل نفس ظلمت) اى أشركت (ما فى الارض) من الاموال (لافتدت به) من عذاب يوم القيامة ولم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) اى حين عاينوه وأبصروه وصاروا مبهوتين متحيرين لم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم أخلصوا والله فى تلك الندامة ومن أخلص فى الدعاء أسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم لانهم انما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ

الارض وهم القوم المذكورون وانما قدم عليهم من فى السماء اهتماما ولموافقته سائر الآيات سوى ما قدمته فى آل عمران وذكر قوله بعده ما فى السموات وما فى

الرياسة وفى القيامة بطل هذا فوجب الاظهار وليس هناك تجلد (فان قيل) أسروا جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة (أجيب) بانها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى (وقضى بينهم) اى بين الخلائق (بالقسط) اى بالعدل (وهم لا يظلمون) (فان قيل) هذه الآية مكررة (أجيب) بان الاولى فى القضاء بين الانبياء وتكذيبهم وهذه عامة وقيل بين المؤمنين والكفار وقيل بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فلا بد ان يقضى الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى ان ينتصف المظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا ان يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين وقوله تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب (ألا ان وعد الله) اى ما وعد به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب العاصى (حق) لا شك فيه (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يعلمون) اى جاهلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا (هو) اى الذى يملك ما فى السموات والارض (يحيى ويميت) اى قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شئ مما أراد (واليه ترجعون) بعد الموت للجزاء وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب عام وقيل لاهل مكة (قد جاءتكم موعظة من ربكم) اى كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن (وشفاء) اى دواء (لما فى الصدور) اى القلوب من داء الجهل لان داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة والقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو أعز موضع فى الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) من الضلالة (ورحمة) اى اكرام عظيم (للمؤمنين) لانهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف فى تفسير قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) فقال مجاهد وقتادة فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن ولا مانع من ان تفسر الآية بجميع ذلك اذ لا تنافى بين هذه الاقوال والباء فى بفضل الله وبرحمته متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (فبذلك فليفرحوا) والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشئ فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به أحق منهما (هو) أى المحدث عنه من الفضل والرحمة (خير مما يجمعون) أى من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قل) يا محمد للكفار

الارض بلفظ ما وكرر لان بعض الكفار قالوا اتخذ الله ولدا فقال تعالى له ما فى السموات وما فى الارض أى اتخاذ الولد انما يكون لدفع أذى أو جذب منفعة والله مالك ما فى

مكة (أرأيتم) أي أخبروني (ما أنزل) أي خلق (الله لكم من رزق) وانه تعالى جعل الرزق منزلا لانه مقدر في السماء يحصل بأسباب منها (فجعلتم منه) أي من ذلك الرزق (حراما وحلالا) وهو مثل ما ذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه أنعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل قولهم ثمانية أزواج من الضأن اثنين (قل) لهم يا محمد (آلله أذن لكم) في هذا التحريم والتحليل (أم) اي بل (على الله تفترون) اي تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه (وما ظن الذين يفترون) اي يتعمدون (على الله الكذب) اي اي شئ ظنهم به (يوم القيامة) أيحسبون أن لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) بنعم كثيرة لا تحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها بما يحتمله عقول الخلق منها ومنها طول امهالهم على سوء أفعالهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان شكره واجبا عليهم (ولكن أكثرهم) اي الناس (لا يشكرون) هذه النعم ولا يستعملون العقل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبيائه ولا ينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى (وما تكون) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (في شان) أي عمل من الاعمال وجمعه شؤن والضمير في قوله تعالى (وما تتلو منه) اما للشأن لان تلاوة القرآن شان من شان رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شانه واما للتنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالى والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى (ولا تعملون من عمل) اي اي عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير وقيل ان الكل داخلون في الخطابين الاولين أيضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب كما في قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء (الا كنا عليكم شهودا) اي رقباء نحصى عليكم أعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شئ وعالم بكل شئ اذ لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وشاهد عليه (اذ تفيضون) اي الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون (فيه) اي ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال افاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب) اي يغيب (عن ربك) يا محمد (من مثقال) اي وزن (ذرة) وهي النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل المراد بها الهباء وهو الشئ المنبث الذي تراه في البيت في ضوء الشمس وقرأ الكسائي بكسر الزاي والباقون بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيد بقوله تعالى (في الارض ولا في السماء) تقريبا للعقول العامة (فان قيل) لم قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض في سورة سبأ حيث قال تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في

الارض (فان قلت) لم خص ما في السموات وما في الارض بالذكر مع أنه تعالى ما لك أيضا السموات والارض وما في الارض السموات فكان العقل يحمل ما يحمل التكرار للتعميم والتوكيد

الارض فما فائدة ذلك (أجيب) بان الكلام هنا فى حال أهلها والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية (ولا اصغر من ذلك) اى الذرة (ولا أكبر) اى منها (الا فى كتاب مبين) اى بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة برفع الراء من أصغر وأكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفى كتاب خبرها (الا ان اولياء الله) أى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (لا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات مأمول وفسرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) الله بامتثال أمره ونهيه وهذا الذى فسر الله تعالى به الاولياء لامزيد عليه وعن على رضى الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم يعنى السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات والسكينة وعن عمر رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ماهم بانبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى قالوا يارسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية ونقل النووى فى مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعى وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى وذلك فى العالم العامل بعلمه وقال القشيرى من شرط الولى أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبى أن يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع فالولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف والحزن زادهم فقال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد أن شرع بتوليتهم له (لهم البشرى) أى الكاملة (فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) اما البشرى فى الدنيا ففسرت باشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او ترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه فى الثناء الحسن وعن أبى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم وما يقرؤن منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من المبشرات بما بشر الله تعالى به عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر اثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ثم انه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال تعالى (لا تبديل) اى بوجه من الوجوه (لكلمات الله) اى لا تغيير لاقواله ولا اخلاف

وماوراءهما (قلت) لان ما فى السموات والارض الانبياء والملائكة والعلماء والاولياء ومن يعقل فيهم أحق بالذكر مع ان غيرهم مقصود بالاولى (قوله وما ظن الذين يفترون على الله

لمواعيده والكلمة والقول سواء ونظيره قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين في الدارين (هو الفوز العظيم) هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام يتصل بما قبله (ولا يحزنك) يا محمد (قولهم) اي هؤلاء المشركين اي لا يهمك تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاي وكلاهما بمعنى وقوله تعالى (ان العزة) اي القوة (لله جميعا) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالي لا أحزن فقيل ان العزة لله جميعا اي ان الغلبة والقهر في مملكة الله لله جميعا لا يملك أحد شيأ منها لاهم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على ان يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) أي البليغ السمع لأقوالهم (العليم) اي المحيط العلم بضمائرهم وبجميع أحوالهم فهو البالغ القدرة على كل شيء فيجازيهم وهو تعليل لتفرده بالعزة لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فأنى يكون له عزة (فان قيل) قوله تعالى ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بالمنع لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله (ألا ان لله من في السموات ومن في الارض) ملكا وخلقا (فان قيل) لقد ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة ألا ان لله ما في السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فائدة ذلك (أجيب) بانه تعالى غلب في الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفي هذه غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد بمن في السموات الملائكة ومن في الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء في ملكه وتحت قهره فالذي لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ندا وشريكا فهو كالدليل على قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون) اي يعبدون (من دون الله) أي غيره اصناما (شركاء) على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركاء تعالى الله عن ذلك (ان) اي ما (يتبعون) في ذلك (الا الظن) اي ظنهم انها آلهة تشفع لهم وانها تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا الظن لا حكم له بقوله تعالى (وان) أي ما (هم الا يخرصون) أي يكذبون في ذلك ويجوز ان يكون وما يتبع في معنى الاستفهام أي وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة وقوله تعالى (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) اي ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون في نهاركم من تعب التردد في المعاش (والنهار مبصرا) اي مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بها ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافة الابصار الى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقولهم ليل نائم لان الليل سبب للسكون قال قطرب تقول العرب أظلم الليل اي صار ذا ظلمة وأضاء النهار اي صار ذا ضياء (ان في ذلك) المذكور

الكذب يوم القيامة) ان قلت هذا تهديد فكيف ناسبه قوله بعد ان الله لذو فضل على الناس (قلت) هو مناسب لان معناه انه متفضل على الناس حيث انعم عليهم بالعقل وارسال

(لآيات) أى دلالات على وحدانيته تعالى (لقوم يسمعون) سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق الأشياء كلها هو الاله المعبود المتفرد بالوحدانية فى الوجود * ثم ذكر الله تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى (قالوا) أى اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله (اتخذ الله ولدا) قال الله تعالى (سبحانه) أى تنزيها له عن الولد (هو الغنى) عن كل أحد وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض) من ناطق وصامت ملكا وخلقا * ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف بالانكار والتوبيخ فقال (ان) أى ما (عندكم من سلطان) أى حجة (بهذا) أى الذى تقولونه ثم بالغ تعالى فى ذلك الانكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته اليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون ان له ولدا (ان الذين يفترون) أى يتعمدون (على الله الكذب لا يفلحون) أى لا ينجحون فى سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا فانهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ومن الناس من اذا فاز بشئ من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال (متاع فى الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا على انه مبتدأ خبره محذوف ويصح أن يكون خبر المبتدأ محذوف تقديره افتراؤهم متاع فى الدنيا يقيمون به رياستهم فى الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع فى الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة لى طول بقائهم فى العذاب (ثم الينا مرجعهم) بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد) بعد الموت (بما) أى بسبب ما (كانوا يكفرون) * ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة من أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك فى قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم وذكر الله تعالى منهم فى هذه السورة ثلاث قصص * القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (واتل) يا محمد (عليهم) أى كفار قريش (نبأ) أى خبر (نوح) وذلك ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء فانه كان صلى الله عليه وسلم اذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهال وان بالغوا فى ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل فى صدورهم ولان الكلام اذا طال تقريرا فى نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد فى نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا ولانه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحى والتنزيل ويبدل من نبأ نوح (اذ قال لقومه) وهم بنو قابيل (يا قوم ان كان كبر) أى شق وعظم (عليكم مقامى) أى ابقى فيكم ألف سنة الا خمسين عاما (وتذكيرى) أى وعظى اياكم (بآيات الله) أى بحججه

الرسل وتاخير العذاب وفتح باب التوبة أى كذب تفترون على الله الكذب مع تظافر نعمه عليكم (قوله ولا تعملون من عمل) انتفات كذب جمع الضمير مع انه افرد قبل فى قوله وما

وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي (فعلى الله توكلت) أي فهو حسبي وثقتي أو قيامي على الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود (فأجمعوا أمركم) اى فاعزموا على أمر تفعلونه في أذاي بالاهلاك أو غيره (وشركاءكم) اى وادعوا شركاءكم أو الواو بمعنى مع اى مع شركائكم وهي الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم (ثم لا يكن أمركم) اى الذي تقصدونني به (عليكم غمة) اى مستورا من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهروني مجاهرة فانه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والجهر (ثم اقضوا الي) أي أمضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الى بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض ما أنت قاض اى اعمل ما أنت عامل (ولا تنظرون) أى ولا تؤخرون بعد اعلامكم اياي ما أنتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا (فان توليتم) أي أعرضتم عن تذكيري (فما سألتكم من أجر) أى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عني وتتهموني لاجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب (ان اجري الا على الله) وهو الثواب الذي يبقى به في الآخرة أي ما نصحتكم الا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل من ينفع الناس بعلم أو ارشاد الى طريق الله تعالى (وأمرت ان اكون من المسلمين) اى اني مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل الي منكم لاجل هذه الدعوة وقيل بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له قبلتموه أو لم تقبلوه (فكذبوه) اى اصروا على تكذيبه بعدما لزمتهم الحجة وبين أن توليتهم ليست الا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه) من الغرق (ومن معه في الفلك) أى السفينة وكانوا ثمانين (وجعلناهم) أى الذين أنجيناهم معه في الفلك (خلائف) في الارض يخلفون الهالكين بالغرق (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان وقوله تعالى (فانظر) أي أيها الانسان أو يا محمد (كيف كان عاقبة المنذرين) تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له وهذه القصة اذا سمعها من صدق النبي صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا للمكذبين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ ولهذا الوجه أكثر تعالى ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام (ثم بعثنا من بعده) أي نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم (فجاؤهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحات التي تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا) أى فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان الله تعالى اياهم (بما) أي بسبب ما (كذبوا به من قبل)

تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (فائدة) جمع ليدل على ان الامة داخلون مع النبي صلى الله عليه وسلم فيما خوطب به قيل أو جمع

أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل إليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد (كذلك) أى مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) فى كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحل له فلا يقبل الإيمان لانهماكهم فى الضلال واتباعهم المألوف وفى أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد * القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى هؤلاء الرسل (موسى وهرون إلى فرعون وملئه) أى أشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل إلى الجميع (بآياتنا) التسع (فاستكبروا) عن اتباعها والإيمان بها وهو أعظم الكبر أن تهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) أى كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق) أى جاء فرعون وقومه (من عندنا) أى الذى جاء به موسى من عند ربه وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك (قالوا) أى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمردهم (إن هذا لسحر مبين) أى بين ظاهر يعرفه كل أحد وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر الذى لا يظهر إلا على يد كافر أو فاسق وقوله تعالى (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الإنكار بمعنى أنه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال (ولا يفلح الساحرون) فإنه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم بالضرورة أنه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت أنه ليس بسحر (قالوا) أى قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) أى لتردنا وتصرفنا واللفت والفتل أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من الدين وعبادة الأصنام ثم قالوا لموسى وهرون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك والعز (فى الأرض) أى أرض مصر قال الزجاج سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا فى قوله

ملكه ملك رأفة ليس فيه * جبروت منه ولا كبرياء

ينفى ما عليه الملوك من ذلك ويجوز أن يقصدوا بذلك ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطى لموسى عليه السلام إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به (وقال فرعون) لقومه إرادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام (ائتونى بكل ساحر عليم) أى بالغ فى علم السحر لا يفوته شئ من السحر بناظر البصر وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين السين والحاء وتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها بصيغة فعال الدال على زيادة قاق فرعون والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة ولا ألف بعدها (فلما جاء السحرة) أى كل من فى أرض مصر منهم قالوا لموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى ألقوا) جميع (ما أنتم ملقون) (فإن قيل)

تعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات (قوله ولا يحزنك قولهم) أى لأنك أنت مرسل فالقول محذوف كنظيره فى يس والوقف على قولهم تاما

كيف أمرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر كفر (أجيب) بأنه انما أمرهم بالقاء ما معهم من الحبال والعصي التي معهم ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر (فلما ألقوا) ما معهم من الحبال والعصي وخيلوا بسحرهم أعين الناس أنها تسعى (قال موسى) منكرا عليهم (ما جئتم به السحر) قرأه أبو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية همزة وصل وله فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبرها والسحر بدل منه وقرأ الباقون بهمزة وصل فتسقط في الوصل اى الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ثم أخبر موسى عليه السلام بقوله (ان الله سيبطله) اى يمحقه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أى لا يثبته ولا يقويه وقول البيضاوي وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والادوية والا فله حقيقة عند أهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير في عالم العناصر (ويحق) اى يثبت ويظهر (الله الحق بكلماته) اى بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى في غير هذه السورة انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصي (ولو كره المجرمون) ذلك * ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر بين تعالى أن له في هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذي ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والهاء التي في قومه راجعة الى موسى أى فما آمن من قومه الا طائفة من ذراري بني اسرائيل كانه قيل الا أولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته (على خوف من فرعون وملئهم) أى خوف منه لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى وانما علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ في ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظمة لانه ذو أصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر (أن يفتنهم) أى يصرفهم ويصدهم عن الايمان (وان فرعون لعال) أى متكبر قاهر (في الارض) أى أرض مصر (وانه لمن المسرفين) أى المجاوزين الحد فانه كان من أخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل (وقال موسى) لقومه (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله) أى صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) أى ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) أى مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر (فقالوا) مجيبين له (على الله توكلنا) أى عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تسلطهم

لازم ويمتنع الوصل لانه صلى الله عليه وسلم منزه عن ان يخاطب بذلك (قوله ان العزة لله جميعا) قال ذلك هنا وقال في سورة المنافقين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين لان المراد هنا

علينا فيفتنونا (ونجنا) أي خلصنا (برحمتك من القوم الكافرين) اي من أيدي قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة واتباعا قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لاجرم ان الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في الارض وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعي ينبغي ان يتوكل أولا لتجاب دعوته ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بان أمر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه) اي الذي طلب موازرته ومعاضدته (أن تبوآ) اي اتخذا (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها او ترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) اي تلك البيوت (قبلة) مصلى أو مساجد كما في قوله تعالى في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة أي الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلي اليها وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض (وأقيموا الصلوة) فيها ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة الاول أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بان يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة في أول الاسلام بمكة الثاني انه قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى أن يصونهم من شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون في أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى أن تبوآ لقومكما لان التبوؤ للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم للتشاور ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد واقامة الصلاة مما ينبغي أن يفعله كل أحد ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى (وبشر المؤمنين) أي بالنصر في الدنيا والجنة في العقبى لان الغرض الاصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الاصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ في اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لاجل حبهم الدنيا ذكر لهذا السبب (قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه) أي أشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر (زينة) أي عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر ونحو ذلك (وأموالا) أي كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما (في الحيوة الدنيا) روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر الى أرض الحبشة جبال فيها معادن

العزة الخاصة بالله وهي عزة الالهية والخلق والاماتة والاحياء والبقاء الدائم وشبههما وهناك العزة المشتركة وهي في حق الله تعالى القدرة والغلبة وفي حق رسوله صلى الله عليه

من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتهم الهم فقال مفتتحا بالنداء باسم الرب ليعبده واتباعه من مثل حالهم (ربنا) أي يا ربنا آتيتهم ذلك (ليضلوا) أي في خاصة أنفسهم ويضلوا غيرهم (عن سبيلك) أي دينك واللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كي أي آتيتهم كي تفتنهم وقيل هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بالفتح (ربنا اطمس على أموالهم) أي امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وأرباعا ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وانها كالحجر قال السدي مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والاطعمة فكانت احدى الآيات التسع (واشدد على قلوبهم) أي اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للايمان وقوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقوله تعالى (قال قد أجيبت دعوتكما) فيه وجهان الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما وذلك أن من يقول عند دعاء الداعي آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما ان الداعي سائل أيضا الثاني أن يكون كل منهما ذكر هذا غاية ما في الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا وهذا لا ينافي أن يكون هرون قد ذكر الدعاء أيضا وأما قوله تعالى (فاستقيما) فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أي الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء الانسان في مطلوبه الا انه ربما يوصله اليه في وقته المقدور والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها الا ان نون التوكيد تثقل وتخفف ولما أجاب الله تعالى دعاءهما أمر بني اسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى (وجاوزنا) أي قطعنا (ببني اسرائيل) أي عبدنا المخاص لنا (البحر) حتى بلغوا الشط حافظين لهم (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي لحقهم وأدركهم يقال تبعه وأتبعه اذا أدركه ولحقه (بغيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في القول وعدوا في الفعل فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله تعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عن وجه

وسلم علو كلمته واظهار دينه وفي حق المؤمنين نصرتهم على الاعداء (قوله أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) ان قلت كيف قال موسى عنهم انهم قالوا أسحر هذا بطريق الاستفهام مع

لارض وانتشر لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون على حصان دهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بني اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا تكاملوا جميعا في البحر وهموا بالخروج التطم البحر عليهم فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى (حتى اذا أدركه الغرق) أي لحقه (قال آمنت أنه) أي بأنه (لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين) * (فان قيل) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب في عدم القبول (اجاب) العلماء عن ذلك بأجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ودس جبريل في فيه من حمأ البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له (الآن) تؤمن (وقد عصيت قبل) وضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية (وكنت من المفسدين) بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين في مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما قال في ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته الا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ما روي في بعض الكتب أن بعض أقوام بني اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقه سببا لزيادة الكفر ومنها أن الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا هنا ومنها أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتوى ما قول الامير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته أن يغرق في البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه (فان قيل) فما فائدة دس جبريل في فم فرعون ذلك لانه في تلك الحالة اما أن يكون التكليف ثابتا أم لا فان كان فكيف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فائدة في ذلك (أجيب) بأن التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فانه عبد مأمور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الحمأ في فم فرعون

انهم انما قالوه بطريق الاخبار المؤكد في قوله تعالى فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين (قلت) فيه اضمار تقديره أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين

من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قائل هذا القول هو الله تعالى لأنه ذكر بعده (فاليوم ننجيك) أي نخرجك من البحر (ببدنك) أي جسدك الذي لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس أو أن المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف (لتكون لمن خلفك) أي بعدك (آية) أي عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس أن بعض بني اسرائيل شكوا في موته فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الأعلى ليعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره الى ما يرون لعصيانه ربه (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أي لا يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الأول أشهر (ولقد بوأنا) أي أنزلنا (بني اسرائيل مبوأ صدق) أي منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ أضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء اذا كان كاملا صالحا لا بد أن يصدق الظن فيه وقيل أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أي الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فأورث تعالى بني اسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها (فما اختلفوا) أي هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرائيل في أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أي جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة وانهم ما اختلفوا في دينهم الا من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا أحكامها (ان ربك) يا محمد (يقضي بينهم يوم القيامة) أي الذي هو أعظم الأيام (فيما كانوا) أي بأفعالهم الجبلية (فيه يختلفون) أي فيميز الحق من الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فيمن المخاطب بقوله تعالى (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب) أي التوراة (من قبلك) أي فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمراد أمته كقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ومن الأمثلة المشهورة * اياك أعني واسمعي يا جارة * والذي يدل على صحة ذلك وجوه الأول قوله تعالى في آخر السورة يا أيها الناس فبين أن ذلك المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح الثاني أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث اذا قدر أن يكون شاكا

ثم قال لهم أسحر هذا انكارا لما قالوه فالاستفهام للانكار من قول موسى لا من قولهم (قوله من فرعون وملائهم) قاله هنا بضمير الجمع لعوده الى الذرية أو القوم لتقدمهما عليه بخلاف

فى نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم فى الاكثر كفار فثبت أن الخطاب وان كان فى الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له أمير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أشد تأثيرا فى قلوبهم وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك فى ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ونظير هذا قوله للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك ههنا وقرأ ابن كثير والكسائى بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب لكل من يسمع أى ان كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وأظهر هذه الاقوال أولها وهذه الاقوال تجرى فى قوله تعالى (لقد جاءك الحق من ربك) أى الآيات القاطعة لامدخل للمرية فيه (فلا تكونن من الممترين) أى الشاكين فيه وفى قوله تعالى (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى الذين خسروا أنفسهم (ان الذين حقت عليهم كلمت ربك) أى ثبت عليهم قوله تعالى الذى كتبه فى اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم (لا يؤمنون) أى يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه (ولو جاءتهم كل آية) فان السبب الاصلى لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود فان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى واذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمات بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد

• القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (فلولا) أى فهلا (كانت قرية) واحدة من قرى الامم الماضية أى أهلكناها (آمنت) أى آمن أهلها عند اتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب (فنفعها) أى فتسبب عن ايمانها ذلك أنه نفعها (ايمانها) بأن تقبله الله تعالى منها أو كشف العذاب عنها وقوله تعالى (الا قوم يونس) استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس (لما آمنوا) أى لما أخلصوا الايمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا) ويجوز أن يكون متصلا والجملة فى معنى النفى لتضمن حرف التحضيض معناه كأنه قيل ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس (ومتعناهم الى حين) أى الى انقضاء آجالهم روى عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل فأرسل الله تعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم فأبوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاثة أيام فأخبرهم بذلك فقالوا انا لم

نجرب

بقية الآيات فانه بضمير المفرد لعوده الى فرعون (قوله وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ) الآية فى ضمير الاثنين ونسبة العود الى موسى وأخيه بالتصريح بهما وبجمعه ثانيا لعوده

تجريب عليك كذبا فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشئ وان لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان فى جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله تعالى فى قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وأولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من النساء والدواب فحن بعضها الى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم وعجوا وتضرعوا الى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى ويا حى محيى الموتى وياحى لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله وستأتى بقية القصة ان شاء الله تعالى فى سورة والصافات (فان قيل) قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب فى آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين (أجيب) بأن فرعون انما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت أمارات دالت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم صدق نياتهم فى التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق فى ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه قال الله تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد (لآمن) بك وصدقك (من فى الارض كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (جميعا) أى مجتمعين على ذلك فى آن واحد لا يختلفون فى شئ منه ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة فى الازل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى (أفأنت تكره الناس) أى الذين لم يرد الله ايمانهم (حتى يكونوا مؤمنين) أى ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لاحد ذلك سواه كما قال تعالى (وما كان) أى وما ينبغى وما يتأتى (لنفس) أى واحدة فما فوقها (أن تؤمن) أى يقع منها ايمان فى وقت ما (الا باذن الله) أى بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله فهو الهادى والمضل وقال ابن عباس بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله (ويجعل) الله (الرجس) أى العذاب والخذلان فانه سببه وقرأ شعبة وحده بالنون (على الذين لا يعقلون) أى لا يتدبرون فى آيات الله تعالى فينتفعوا بها وهم يدعون انهم أعقل الناس ويتساقطون فى مساوى الاخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أن الايمان

قوله تجريب عليك الخ كذا فى النسخ والذى فى الجمل عليه اه مصححه

الجامع قوله الآن كلا منهم مأمور بجعل يتعقبه يصلى اليها خوفا من ظهورها لفرعون وأفرده ثالثا لعوده الى موسى لانه الاصل المناسب لتخصيصه بالبشارة لشرفها

لا يحصل الا بتوفيق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل بقوله تعالى (قل انظروا) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات (ماذا) أى الذى (فى السموات والارض) من الآيات وأوضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ففى العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفى العالم السفلى الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان وأخصها حال الانسان كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال القائل

وفى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

وقرأ عاصم وحمزة فى الوصل بكسر اللام والباقون بضمها وأما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤن بالضم (وما تغنى الآيات) أى وان كانت فى غاية الوضوح (والنذر) جمع نذير أى الرسل (عن قوم لا يؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه * (تنبيه) * قال الله ويونس ما هنا تحتمل وجهين الاول أن تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة فى حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لا يؤمن كقولك لا يغنى عنك المال اذا لم تنفق والثانى أن تكون استفهاما كقولك أى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (فهل) أى فما (ينتظرون) أى أهل مكة بتكذيبك (الا) أياما أى وقائع (مثل أيام) أى وقائع (الذين خلوا من قبلهم) أى من مكذبى الامم كالقبط وقوم نوح وما انطوى بينهما من الامم أى مثل وقائعهم من العذاب (قل) أى قل لهم يا محمد (فانتظروا) أى العذاب (انى معكم من المنتظرين) أى لنزول العذاب بكم وقوله تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل انا نهلك الامم ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ أبو عمرو وحده بسكون السين (كذلك) أى كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك (حقا علينا ننج المؤمنين) أى ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب (فان قيل) قوله تعالى حقا يقتضى الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شئ (أجيب) بان ذلك حق بحسب الوعد والحكم لا أنه حق بحسب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيأ وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدر وقيل بدل من ذلك وقرأ حفص والكسائى بسكون النون الثانية والباقون بفتحها وأما الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة فى المصحف بالجيم بلا ياء فهى فى القرآن وقفا ووصلا بلا ياء لجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم فى شك من دينى) أى الذى أدعوكم اليه انه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الاصنام التى لا تضر ولا تنفع (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أى غيره وهو الاصنام التى لا قدرة لها على شئ (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) بقبض أرواحكم التى لا شئ عندكم بعدها فانه الذى يستحق العبادة وانما خص الله تعالى هذه الصفة لانها تهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم ونصرى عليكم

(قوله قد أجيبت دعوتكما) (ان قلت) لم أضاف الدعوة اليهما مع أن الداعى موسى عليه السلام ... وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه

(وأمرت أن) أى بأن (أكون من المؤمنين) أى المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهى من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (فان قيل) كيف قال فى شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به (أجيب) بأنه كان فيهم شاكون أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون غير أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا فرق بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستعداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو فى الصلاة باستقبال القبلة وقوله (حنيفا) حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ومعناه مائلا مع الدين غير معوج عنه الى دين آخر وقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى ولا تكونن أيها الانسان وكذا قوله تعالى (ولا تدع) أى تعبد (من دون الله) أى غيره (ما لا ينفعك) أى ان عبدته (ولا يضرك) ان لم تعبده (فان فعلت) ذلك (فانك اذا من الظالمين) لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها والظلم وضع الشئ فى غير محله فاذا كان ما سوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة التصرف الى ما سوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما * ولما ذكر تعالى الاوثان وبين أنها لا تقدر على ضر ولا نفع بين تعالى أنه هو القادر على كل شئ وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى (وان يمسسك) أى يصبك (الله بضر) كفقر ومرض (فلا كاشف) أى لا دافع (له الا هو) لانه الذى أنزله بك (وان يردك بخير) كرخاء وصحة (فلا راد) أى دافع (لفضله) أى الذى أرادك به (يصيب به) أى بالخير (من يشاء من عباده وهو الغفور) أى البليغ الستر للذنوب (الرحيم) أى البالغ فى الاكرام وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه الاول أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتى غضبى الثانى أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب الثالث أنه تعالى قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه وأن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة فالايدى مرفوعة اليه والحاجات منتهية اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود فائض منه * ولما قرر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدئا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لاحد عذر بقوله تعالى (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم (قد جاءكم الحق من ربكم) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق

زينة (قلت) أضافها اليهما لان هرون كان يؤمن على دعاء موسى والتأمين دعاء فى المعنى أو لان هرون دعا أيضا مع موسى الا أنه تعالى خص موسى بالذكر لانه

لكم عذر (فمن اهتدى) أى آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب (فانما يهتدى لنفسه) لانه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فانقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة نثواب اهتدائه له (ومن ضل) أى كفر بهما أو بشئ منهما (فانما يضل عليها) أى على نفسه لان وبال ضلاله عليها لان من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شئ فقد غر نفسه ثم قال صلى الله عليه وسلم (وما أنا عليكم بوكيل) أى حفيظ أى موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير قال ابن عباس وهذه الآية منسوخة بآية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (واتبع) يا محمد (ما يوحى اليك) بالامتثال والتبليغ (واصبر) أى على دعوتهم وتحمل أذيتهم (حتى يحكم الله) أى بنصرك عليهم واظهار دينك أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون وأنشد بعضهم فى الصبر

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى
سأصبر حتى يعلم الصبر أنى * صبرت على شئ أمر من الجمر ٣

وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل المدينة فقال له مالك لم تتلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال وأين النواضح قال اقطعناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدى أثرة قال معاوية فماذا قال قال فاصبروا حتى تلقونى قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير الظالمين نثا كلامى
بأنا صابرون فمنظروكم * الى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

(سورة هود عليه السلام مكية)

الا وأقم الصلاة الآية والا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية مائة وثنتان أو ثلاث وعشرون آية وكلماتها ألف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة أحرف وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية (بسم الله) أى الذى له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة (الرحمن) لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) لاهل ولايته بالحفظ فى سلوك سبيله وقوله تعالى (الر كتاب) مبتدأ أو خبر أو كتاب خبر مبتدا محذوف وتقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى (أحكمت آياته) صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع أحد

كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها (قوله فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) ان قلت ان الشك والشك فى القرآن منتف عنه صلى الله عليه وسلم

٣ قوله أمر من الجمر هكذا فى الاصول التى بايدينا ولعل المناسب أمر من الصبر أو أحر من الجمر اه مصححه

تنقض شئ منه ولا الطعن فى شئ من بلاغته أو فصاحته الثانى ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله أحكمت آياته أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال ابن عباس الثالث أنها أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما لانه مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى (ثم فصلت) صفة أخرى للكتاب أى بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار وبالانزال نجما نجما أو فصل فيها ولخص مايحتاج اليه أو جعلها سورا وقال الحسن أحكمت بالامر والنهى ثم فصلت بالوعد والوعيد * (تنبيه) * معنى ثم فى قوله تعالى ثم فصلت ليس للتراخى فى الوقت لكن فى الحال كما تقول هى محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم الفعل وقوله تعالى (من لدن حكيم خبير) أى الله تعالى صفة أخرى للكتاب والتقدير الر كتاب من حكيم خبير أو خبر بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير أو صلة لاحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين اخرها مناسبة لطيفة كأنه يقول تعالى أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى (أن لا تعبدوا الا الله) يحتمل وجوها الاول أن تكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل أن لا تعبدوا الا الله الثانى أن تكون مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول قال الرازى والحمل على هذا أولى لان قوله تعالى وأن استغفروا معطوف على قوله تعالى أن لا تعبدوا فيجب أن يكون معناه أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث أن يكون كلاما مبتدأ منقطعا عما قبله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم اغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (اننى لكم منه) اى الله (نذير) بالعقاب على الشرك (وبشير) بالثواب على التوحيد كأنه قيل ترك عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها اننى لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب * (تنبيه) * هذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة الاول أنه تعالى أمر أن لا تعبدوا الا الله لان ماسواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غير الله تعالى منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى (وأن استغفروا ربكم) المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم توبوا اليه) واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول أن معنى قوله وأن استغفروا أى اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من مهمات الاستغفار وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة الثانى وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا أى ارجعوا اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة مالا ينبغى والتوبة سعى من الانسان فى ازالة مالا ينبغى فقدم الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشئ

فطها فكيف قال الله ذلك له (قلت) لم يقل له بل لمن كان شاكا فى القرآن وفى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينافيه قوله تعالى أنزلنا اليك نورا وقوله فى قوله وأنزلنا اليكم نورا مبينا

الامين مولاه فانه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتي به الانسان ليتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم على الاستعانة بسعي النفس * ثم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة في نوعين لانه انما يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة أما المنافع الدنيوية فهي المراد من قوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أي بطيب عيش وسعة رزق (الى اجل مسمى) وهو الموت (فان قيل) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكلما كان امعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه وأما من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى في صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية وأما المنافع الاخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى (ويؤت) أي في الآخرة (كل ذي فضل) أي في العمل (فضله) أي جزاءه لان مراتب السعادة في الآخرة مختلفة لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذي فضل فضله وقال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت سيآته وحسناته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقي له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب آحاده أعشاره وقوله تعالى (وان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أي وان تعرضوا عما جئتكم به من الهدى (فاني) أي فقل لهم اني (أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة ووصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف (الى الله مرجعكم) أي رجوعكم في ذلك اليوم فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته (وهو على كل شيء قدير) أي قادر على جميع المقدورات لا دافع

وقوله يعقد المنافقون ان نزل عليهم سورة وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره كما في قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين أو المراد الزام

اقتضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفي ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالي اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح أي فاعف يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمري في خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجاء لي في شيء الا أني في غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر عفا فأسألك يا أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين أن تفيض سجال رحمتك على وعلى والدي وأولادي واخواني وأحبابي وأن تخصني واياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى (ألا انهم يثنون صدورهم) فقال ابن عباس نزلت في الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت في بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كي لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره وروى البخاري عن ابن عباس أنها نزلت فيمن كان يستحي أن يتخلى أو يجامع فيفضي الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي وقال السدي يثنون صدورهم أي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني (ليستخفوا منه) أي من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت في طائفة من المشركين قالوا ان أرخينا علينا ستورا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم (ألا حين يستغشون ثيابهم) أي يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم (يعلم) تعالى (ما يسرون) في قلوبهم (وما يعلنون) بأفواههم أي أنه لا تفاوت في علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاخفاء (انه) تعالى (عليم بذات الصدور) أي بالقلوب وأحوالها ولما أعلم تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون أردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم كل حيوان دب على وجه الارض ولا شك ان أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهي الاجناس التي تكون في البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها ومساكنها وما يوافقها ويخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض ولطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما بأحوالها روي أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع ان الدودة كانت تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني

الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لالزام الحجة على

ويذكرني ولا ينساني (فان قيل) ان كلمة على للوجوب فيدل على ان ايصال الرزق الى الدابة
واجب على الله تعالى (أجيب) بأنه تعالى انما أتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والفضل
والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الآية دليل على ان الرزق قد يكون حراما لانه ثبت
ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخلفه ثم
قد نرى ان انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما
أوصل رزقه اليه فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا
(ويعلم) تعالى (مستقرها) قال ابن عباس هو المكان الذي تأوي اليه وتستقر فيه ليلا
ونهارا (ومستودعها) هو الذي تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله بن مسعود المستقر ارحام
الامهات والمستودع المكان الذي تموت فيه وقال عطاء المستقر أرحام الامهات والمستودع
أصلاب الآباء وقيل الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار
حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما ولا مانع أن يفسر الشيء بذا كله (كل) أي كل واحدة
من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (في كتاب) أي ذكرها مثبت في اللوح المحفوظ
(مبين) أي بين كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما أثبت تعالى بالدليل
المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى
(وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام) أي من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها
الجمعة وتقدم الكلام على تفسير ذلك في سورة الاعراف (وكان عرشه على الماء) قال كعب
خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها
ثم وضع العرش على الماء وقال أبو بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم
السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وقال حمزة ان الله
عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالقه
وما هو كائن من خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من
خلقه وفي هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض
كان على الماء وقد أمسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى (ليبلوكم)
متعلق بخلق أي خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم
أحسن عملا) أي أطوع لله وأورع عن محارم الله وهذا لقيام الحجة عليهم وقد مر أمثال ذلك
ولما بين تعالى أنه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب القطع
بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب
وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة خاطب تعالى محمدا
صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا (ولئن قلت) يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم
مبعوثون من بعد الموت) أي للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان) أي ما (هذا) أي
القرآن بالبعث أو الذي تقوله (الا سحر مبين) أي بين وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وألف
بعدها وكسر الحاء فيكون ذلك راجعا للنبي صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين
وسكون الحاء ولما حكى تعالى عن الكفار أنهم يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم حكى

النصارى (قوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) فائدة ذكر جميعا بعد كلهم مع ان كلا منهما يفيد الاحاطة والشمول الدلالة على وجود الايمان منهم بصفة

عنهم نوعا آخر بقوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى) مجيء (أمة) أى جماعة من الاوقات (معدودة) أى قليلة (ليقولن) أى استهزاء (ما يحبسه) أى ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى (ألا يوم يأتيهم) كيوم بدر (ليس مصروفا) أى مدفوعا العذاب (عنهم وحاق) أى نزل (بهم) من العذاب (ما كانوا به يستهزؤن) أى الذى كانوا يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء (فان قيل) لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع (أجيب) بأنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتقرير والتهديد * ولما ذكر تعالى أن عذاب الكفار وان تأخر الا أنه لابد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى (ولئن أذقنا) أى أعطينا (الانسان) أى الكافر (منا رحمة) أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها) أى سلبنا تلك النعمة (منه انه ليؤس) أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به (كفور) أى جحود لنعمتنا عليه وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت (ولئن أذقناه) أى الكافر (نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفى اختلاف الفعلين وهما أذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى فى الاول والى الضراء فى الثانى نكتة عظيمة وهى أن النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا والضر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه بابتلائه اياه بالمعاصى غالبا لقوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافى ذلك قوله تعالى قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا غير أن الحسنة احسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام لخبر ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله أكثر (ليقولن) أى الذى أصابه الصحة والغنى (ذهب السيئات) أى المصائب التى أصابتنى (عنى) ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها (انه لفرح) أى فرح بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما أن يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات كالقسم الاول واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم الثانى * ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى (الا) أى لكن (الذين صبروا) على الضراء (وعملوا الصالحات) أى فى النعماء أى فانهم ان أصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين أحدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى وأجر كبير (فلعلك) يا محمد (تارك بعض ما يوحى اليك) فلا تبلغهم اياه لتهاونهم به فانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة ...

الاجتماع الذى لا بدل كقولك جاء القوم عليه كلهم جميعا أى مجتمعين ونظيره قوله تعالى فسجد الملائكة كلهم أجمعون (قوله وأمرت ان أكون من المؤمنين) قال ذلك

القطن والياقوت بالفحم (وضائق به صدرك) أى بتلاوته عليهم لاجل (أن يقولوا لولا) أى هلا (أنزل عليه كنز) ينفقه فى الاستمتاع كالملوك (أو جاء معه ملك) يصدقه كما اقترحنا وروى عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزل (انما أنت نذير) فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه (والله على كل شئ وكيل) فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم (أم) أى بل (يقولون) كفار مكة (افتراه) أى اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله) فى البيان وحسن النظم (مفتريات) فانكم عربيون مثلى قال ابن عباس هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى بسورة واحدة والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية وأما فى سورة يونس فلان كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس كما قاله الرازى وأنكر المبرد هذا وقال بل سورة يونس أولا وقال معنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله أى مثله فى الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله فى الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هى مجرد البلاغة (وادعوا) أى وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك (من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فى أنه مفترى والضمير فى قوله تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى باتيان ما دعوتموهم اليه للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم (فاعلموا أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) أى بما لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى (وأن) مخففة من الثقيلة أى وانه (لا اله الا هو) وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم (فهل أنتم مسلمون) اى ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون فيه اذ تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون أى أسلموا وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) أى بعمله الذى يعمل من أعمال البر (نوف اليهم أعمالهم) أى التى عملوها من خير كصدقة وصلة رحم (فيها) أى فى الدنيا (وهم فيها لا يبخسون) أى نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا

هنا موافقة لقوله قبل نفعى المؤمنين وقال فى النمل من المسلمين موافقة لقوله قبل فهم مسلمون (قوله وان عسيت الله) أى بسبب بعض الآية (فان قلت) لم ذكر الناس فى

النار وحبط) أي بطل (ما صنعوا) أي عملوا (فيها) أي الآخرة فلا ثواب لهم (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت في أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء هو أن يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا هو العمل الذي لغير الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان وقال أكثر المفسرين انها نزلت في الكافر وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازي بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزي بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطي بها خيرا وقيل نزلت في المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها وقيل في اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) قيل هو النبي صلى الله عليه وسلم والبينة هي القرآن (ويتلوه) أي يتبعه (شاهد) يصدقه (منه) أي من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام (ومن قبله) أي القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة شاهد له أيضا وقوله تعالى (اماما) أي كتابا مؤتما به في الدين (ورحمة) أي على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بسعادة الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف لظهوره والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه أي من الله ومن قبله كتاب موسى أي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القرآن كتاب موسى أي في دلالته على هذا المطلوب لا في الوجود قال الرازي وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) وهذه صيغة جمع ولا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز أن تكون للتعظيم أوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا أولى كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على بينة والضمير في به للقرآن واذا كان هذا الفريق ليس له في الآخرة الا النار فهذا الفريق ليس له في الآخرة الا الجنة (ومن يكفر به) أي بالنبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن (من الاحزاب) أي أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس (فالنار موعده) يعني في الآخرة روى سعيد بن جبير عن أبي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بي يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القران فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلماء ولما دلت الآية على أن من يكفر به كانت النار موعده دل على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده وقوله تعالى (فلا تك في مرية) أي شك (منه) أي القرآن أو الموعد (انه الحق من ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويزيد

الضر والارادة في الخير
(قوله) لاستعمال كل
من المس والارادة في كل
من الضر والخير وانه
لا مزيل لما يصيب به منهما
ولا راد لما يريده فيهما

ذلك قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى لا يصدقون بها أو حينا السلك أو بان موعد الكفار النار * ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم * الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى (ومن) أى لا أحد (اظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك والولد اليه أو أسند اليه مالم ينزله أو نفى عنه ما أنزله * الصفة الثانية أنهم يعرضون على الله تعالى فى موقف الذل والهوان كما قال تعالى (أولئك يعرضون على ربهم) أى يوم القيامة (فان قيل) هم لا يختصون بهذا العرض لان العرض عام فى كل العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا (أجيب) بأنهم يعرضون فيفتضحون بشهادة الاشهاد عليهم كما قال تعالى (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فيحصل لهم من الخزى والنكال مالا مزيد عليه وهذه هى الصفة الثالثة واختلف فى هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال على رؤس الاشهاد أى على رؤس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة (فان قيل) العرض على الله يقتضى أن يكون الله تعالى فى حيز وهو تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال أو يكون ذلك عرضا على من يوبخ بأمر الله تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب أو جمع شهيد كشريف وأشراف قال أبو على الفارسى وكان هذا أرجح لان ما جاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا على هؤلاء وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يدنى المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول أى عبدى تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا أقر بذنوبه قال تعالى سترتها عليك فى الدنيا وقد سترتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فتقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم * ولما أخبر الله تعالى عن حالهم فى عذاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال بقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) فبين تعالى انهم فى الحال ملعونون من عند الله وهذه هى الصفة الرابعة * ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) أى دينه * ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى (ويبغونها) أى يطلبون السبيل (عوجا) أى معوجة أى لانهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال فى العاصى انه يبغى عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات * ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى (وهم) أى والحال انهم (بالآخرة هم كافرون) وتكرير لفظ هم لتأكيد كفرهم وتوغلهم فيه * الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله تعالى كما قال تعالى (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض) أى ما كانوا معجزين الله فى الدنيا أن يعاقبهم اذ لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف * الصفة التاسعة انهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى (وما كان لهم من دون الله) أى

فاوجز الكلام بان ذكر المس فى احدهما والارادة فى الآخر ليدل بما ذكر على مالم يذكر مع انه قد ذكر المس فيهما فى سورة الانعام

(سورة هود عليه السلام)

(قوله وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه الآية) ثم للترتيب الاخبارى

غيره (من أولياء) أي أنصار يمنعونهم من عذابه * الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) أي بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور * الصفة الحادية عشرة قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع) قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به (وما كانوا يبصرون) خيرا فيأخذوا به قال ابن عباس أخبر الله تعالى انه حال بين أهل الشرك وبين طاعته تعالى في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فانه قال فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم الصفة الثانية عشرة قوله تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم) فانهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك أعظم وجوه الخسرانات الصفة الثالثة عشرة قوله تعالى (وضل) أي غاب (عنهم ما كانوا يفترون) على الله تعالى من دعوى الشريك وان الآلهة تشفع لهم الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى (لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) أي لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم * (تنبيه) * قال الفراء ان لا جرم بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا أنه ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة قال الازهري وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب وقال سيبويه لا رد على أهل الكفر كما مر وجرم معناه أحق والمعنى انه أحق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا

أراد أحقت الطعنة فزارة ان يغضبوا * ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم اتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة بقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أي اطمأنوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالى وباللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع لله تعالى وان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة الا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع (أولئك) أي الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) فأخبر تعالى عن حالهم في الآخرة بانهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالى (مثل) أي صفة (الفريقين) أي الكفار والمؤمنين (كالاعمى والاصم) هذا مثل الكافر شبه بالاعمى لتعاميه عن آيات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه (والبصير والسميع) هذا مثل المؤمن شبه بالبصير والسميع لان امرهما بالضد من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه

لا الوجودي اذ التوبة سابقة على الاستغفار او المعنى استغفروا ربكم من الشرك ثم توبوا اى ارجعوا اليه بالطاعة (فان قلت) نجد من لم يستغفر الله ولم يتب يمتعه

الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما على أن تكون الواو في الاصم وفي السميع لعطف الصفة على الصفة بخلافه على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات على الذات (هل يستويان) أي هل يستوي الفريقان (مثلا) اى تشبيها الاستويان ويصح أن يكون مثلا صفة لمصدر محذوف أي استواء مثلا وان يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى (أفلا تذكرون) فيه ادغام التاء في الاصل في الذال اى تتعظون بضرب الامثال والتأمل فيها وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وقد جرت عادة الله تعالى بانه اذا أورد على الكفار أنواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل وفي هذه السورة ذكر أنواعا من القصص

*القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) وقوله (انى لكم) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الهمزة اى بانى والباقون بكسرها على ارادة القول (نذير مبين) اى بين النذارة أخوف من العقاب لمن خالف أمر الله تعالى وقوله (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من انى لكم أو مفعول مبين (انى أخاف عليكم) اى ان عبدتم غيره (عذاب يوم أليم) اى مؤلم موجع في الدنيا أو الآخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألف سنة وأربعمائة وخمسين *ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات بقوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) وهم الاشراف (ما نراك الا بشرا مثلنا) هذه الشبهة الاولى اى انك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أي أسافلنا كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة وهو جمع أرذل بفتح الهمزة كقوله تعالى أكابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم أحاسنكم أخلاقا أو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى الثاني جمع جمع ثم قالوا لو كنت صادقا لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال (بادى الرأى) اى اتبعوك في أول الرأى من غير تثبت وتفكر في أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصبه على الظرف أى وقت حدوث أول رأيهم وقرأ أبو عمرو بادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة وأبدل السوسي همزة الرأى ألفا وقفا ووصلا وأما حمزة فابدلها وقفا لا وصلا الشبهة الثالثة ما ذكره الله تعالى عنهم في قوله تعالى (وما نرى لكم) أى لك ولمن اتبعك (علينا من فضل) اى بالمال والشرف والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة وقولهم (بل نظنكم كاذبين) خطاب لنوح عليه

متاعا حسنا الى اجل مسمى كما اى يرزقه ويوسع عليه قال ابن عباس او يعمره كما قال ابن قتيبة فائدة التقييد بالاستغفار والتوبة (قلت) قال غيرهما المتاع الحسن المقيد

السلام في دعوى الرسالة وأدرجوا قومه معه في الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه في دعوى النبوة وكذبوا قومه في دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام (قال) لهم (يا قوم أرأيتم) اي أخبروني (ان كنت على بينة) اي نبوة ورسالة (من ربي وآتاني رحمة) اي نبوة ورسالة (من عنده) من فضله واحسانه (فعميت) اي خفيت والتبست (عليكم) ووحد الضمير اما لان البينة في نفسها هي الرحمة واما لانه لكل واحد منهما وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم (أنلزمكموها) اي أنكرهكم على قبولها (وأنتم لها كارهون) اي لا تختارونها ولا تتأملون فيها الا نقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق القراء على ضم النون من أنلزمكموها لاتصالها باللام رسما وحيث اجتمع ضميران وليس احدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز في الثاني الوصل كما في الآية والفصل كان يقال أنلزمكم اياها (ويا قوم لا أسألكم عليه) اي على تبليغ الرسالة وهو وان لم يذكر معلوم مما ذكر (مالا) اي جعلا تعطونيه (ان) اي ما (اجري الا على الله) اي ما ثواب تبليغي الا عليه فانه المأمول منه تعالى وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين طلبوا طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل ان يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك (انهم ملاقوا ربهم) اي بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم او انهم بلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم (ولكني أراكم قوما تجهلون) اي ان هؤلاء المؤمنين خير منكم أو عاقبة امركم أو تسفهون عليهم بان تدعوهم أراذل (ويا قوم من ينصرني) اي يمنعني (من الله) أي من عقابه (ان طردتهم) عني وهم مؤمنون مخلصون (افلا) أي فهلا (تذكرون) أي تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء في الاصل في الذال (ولا اقول لكم عندي خزائن الله) أي خزائن رزقه فكما أني لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعي اني املك مالا ولا غرض لي في المال لا أخذا ولا دفعا وقوله (ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملك) فانما ظهر به عليكم حتى تقولوا ما أنت الا بشر مثلنا بل طريقي التواضع والخضوع ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين ثم أكد ذلك بقوله (ولا اقول للذين تزدري) اي تحتقر (اعينكم) أي لا أقول في حقهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فان ما أعده الله تعالى لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا (الله اعلم بما في انفسهم) وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق (اني اذا) اي ان فعلت ذلك (لمن الظالمين) لنفسي ومن الظالمين لهم (فان قيل) هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان الانسان اذا قال لا أدعي كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل (اجيب) بان نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا في اتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم عندي خزائن الله

بالاستغفار والتوبة وهو اطناب في الطاعة والقناعة ولا يكون ذاك الا للمستغفر التائب (قوله وما من دابة في الارض) لم يقل على الارض مع انه انسب بتفسير الدابة لغة بانها

حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بأنهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية باطنهم وإنما أبني الأحوال على الظاهر وطعنوا فيه أنه من البشر فقال ولا أقول إني ملك حتى تنفروا عن ذلك وحينئذ فالآية ليس فيها ذلك (فإن قيل) في هذه الآية دلالة على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي (أجيب) بأن الطرد المذكور في هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد في أوقات معينة رعاية للمصلحة * ولما أن الكفار أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلامين الأول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (قالوا يا نوح قد جادلتنا) أي خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أي فأطنبت فيه وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى أن التقليد والجهل حرفة الكفار والثاني ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله (فأتنا بما تعدنا) أي من العذاب (إن كنت من الصادقين) في الدعوى والوعيد فإن مناظرتك لا تؤثر فينا (قال) لهم نوح عليه السلام في جواب ذلك (إنما يأتيكم به الله إن شاء) تعجيله لكم فإن أمره إليه إن شاء عجله وإن شاء أخره لا إلي (وما أنتم بمعجزين) أي بفائتين الله تعالى ولما أجاب نوح عليه السلام عن شأنهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) أي يضلكم وجواب الشرط محذوف دل عليه ولا ينفعكم نصحي وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظير ذلك ما لو قال رجل لزوجته أنت طالق إن دخلت الدار إن كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق فيشترط في وجوب الحكم وقوع الشرط الثاني قبل وقوع الأول وفي الآية دليل على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فإنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه (هو ربكم) أي خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته (وإليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم قال تعالى (أم) أي بل (يقولون افتراه) أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع إلى الوحي الذي بلغه إليهم (قل) لهم (إن افتريته فعلي إجرامي) وهذا من باب حذف المضاف لأن المعنى فعلي إثم إجرامي والإجرام اقتراف المحظور وفي الآية محذوف آخر وهو أن المعنى إن كنت افتريته فعلي عقاب جرمي وإن كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها (وأنا بريء مما تجرمون) أي من عقاب جرمكم في إسناد الافتراء إلي * (تنبيه) * أكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل أم يقولون أي المشركون من كفار مكة افتراه أي محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه وهذه الآية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في أثناء قصة نوح عليه السلام قال الرازي وقوله بعيد جدا (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك)

دابة ما يدب على الارض لانه في
أعم من على لانها تتناول
ما على ظهر
الارض وما في بطنها وقيل
في بمعنى على كما في قوله
لاصلبنكم في جذوع
النخل وقوله أم لهم سلم

اى ان يستمرعلى الايمان لقوله تعالى (الامن قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد و يلقونه فى بيت يظنون انه قدمات فيخرج فى اليوم الثانى و يدعوهم الى الله تعالى روى ان شيخا منهم جاء متوكئا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال يا ابتاه مكنى من العصا فاخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى الله تعالى اليه انه ان يؤمن من قومك الامن قد آمن (فلا تبتئس) اى لا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يفعلون) من الشرك وتتذلك منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر من الجيل الى الجيل فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذين قبلهم ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكا الى الله تعالى فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا حتى قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فاوحى الله تعالى اليه (واصنع الفلك) اى السفينة (باعيننا) قال ابن عباس بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) اى بامرنا لك كيف تصنعها (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) اى ولا تراجعنى فى الكفار ولا تدعنى فى استدفاع العذاب عنهم (انهم مغرقون) اى محكوم عليهم بالاغراق فلا سبيل الى كفه وقيل لا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم ويروى ان جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال ان ربك يأمرك ان تصنع الفلك قال كيف أصنع ولست بنجار قال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم فجعل ينجر ولا يخطئ وصنعها فجعلها مثل جؤجؤ الطير وفى قوله تعالى (ويصنع الفلك) قولان أحدهما انه حكاية حال ماضية اى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك الثانى التقدير فاقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ثم ان نوحا عليه السلام أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى (وكلما مر عليه ملأ) اى جماعة (من قومه سخروا منه) اى استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعدما كنت نبيا فاعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم قال ابن عباس رضى الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل فى البطن الاول الوحوش والهوام وفى البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها فى عرضها وروى عن أنس كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال كعب بن حام قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن رأسه التراب وقد شاب فقال له عيسى عليه

يسقون فيه وظاهر ان تفسير الدابة بما يدب على الارض يتناول الطير فلا يرد أن الآية لا تتناول الطير فى ضمان رزقه (فان قلت) على الوجوب والله الا لا يجب عليه شئ

السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة الى ثم ثبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال له عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا قال البغوى والمعروف ان طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يعمل الفلك وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة في ثلاثين سنة وروى أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الانس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما أفسد الفار في السفينة فجعل يقرض حبالها أوحى الله تعالى اليه أن اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فاقبلا على الفار فاكلاه قال الرازى واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني لانها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لاسيما مع القطع بانه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه انها كانت في السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القرآن وما آمن معه الا قليل فاما تعيين ذلك القدر فغير معلوم (قال) انهم لما سخروا منه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اذا نجونا وغرقتم (فان قيل) السخرية لا تليق بمنصب النبوة (أجيب) بان ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) اى يهينه في الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) في الآخرة (عذاب مقيم) وهو النار التي لا انقطاع لها وقوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا) اى باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام واختلف في التنور في قوله تعالى (وفار التنور) فقال عكرمة والزهرى هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء فار على وجه الارض فاركب السفينة وروى عن على رضى الله عنه أنه قال فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبى انه التنور الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقته هو الموضع الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح ومنهم من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة أنت وأصحابك واختلفوا أيضا في موضعه فقال مجاهد والشعبى كان في ناحية الكوفة وكان الشعبى يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم عليه السلام وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة

(قلت) المراد بالوجوب هنا وجوب اختيار لا وجوب الزام كقوله صلى الله عليه وسلم غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وكقول الانسان لصاحبه حقك واجب علي أو علي عوض من

وروى عن ابن عباس انه كان بالهند ومعنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الماء من التنور فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء الاول قوله تعالى (قلنا احمل فيها) اى السفينة (من كل زوجين اثنين) والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر انثى والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد انثى وفى القصة ان نوحا عليه السلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيحملهما فى السفينة وقرأ حفص بتنوين لام كل اى واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج (فان قيل) ما الفائدة فى قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين (اجيب) بان هذا على مثال قوله تعالى لا تتخذوا الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين فهذا السؤال غير وارد النوع الثانى من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحملها فى السفينة قوله تعالى (وأهلك) وهم أبناؤه وزوجته وقوله تعالى (الا من سبق عليه القول) بانه من المغرقين وهو ابنه كنعان وامه واعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة (فان قيل) الانسان اشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوانات (اجيب) بان الانسان عاقل فهو لعقله مضطر الى دفع اسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى (ومن آمن) اى واحمل معك من آمن معك من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة ناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان فى سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبرى والصواب من القول فى ذلك ان يقال كما قال الله تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى ان يجاوز فى ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد فى كتاب الله تعالى ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازى وقال مقاتل حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار أدخل صدره وتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما أدخلك على يا عدو الله قال ما لك بد أن تحملنى معك فكان معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى قال الرازى وأما الذى

كما فى قوله تعالى اذا كالوا على الناس يستوفون (قوله ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) قاله هنا وقال فى فصلت ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته بزيادة منا ومن لانه ثم بين

يروى ان ابليس دخل السفينة بعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد فى ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فى ذلك قال البغوى وروى ان بعضهم قال ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فانا نضمن لك ان لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح فى السفينة الا ما يلد و يبيض فاما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ (وقال) نوح لمن معه (اركبوا) أى صيروا (فيها) أى السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها فى الماء كمركوب فى الارض وقوله تعالى (بسم الله مجراها ومرساها) متصل باركبوا حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا أراد ان تجرى السفينة قال بسم الله فجرت واذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنصب الميم من جرت ورست أى جريها ورسوها وهما مصدران والباقون بضم الميم من أجريت وارسيت اى بسم الله اجراؤها وارساؤها وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائى محضة و ورش بين اللفظين والباقون بالفتح وذكروا فى عامل الاعراب فى بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثانى ابدؤا بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها (ان ربى لغفور رحيم) أى لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم وقوله تعالى (وهى تجرى بهم) متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا اى فركبوا مسمين الله تعالى وهى تجرى وهم فيها (فى موج) وهو ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح (كالجبال) فى عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير أرسل الله تعالى المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شئ وروى انه لما كثر الماء فى السكك خافت امرأة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبى بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله تعالى منهم أحدا لرحم هذه المرأة وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت قال البيضاوى والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح أى انه طبق ما بين السماء والارض فلعل ذلك أى ما ذكر من علو الموج قبل التطبيق (ونادى نوح ابنه) كنعان وكان كافرا كما مر وقيل كان اسمه يام (وكان فى معزل) عزل فيه نفسه اما عن أبيه أو دينه ولم يركب معه واما عن الكفار كأنه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام ان ذلك انما كان لانه أحب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله (يا بنى اركب معنا) فى السفينة وقرأ عاصم بفتح الياء اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يا بنيا والباقون بالكسر فى الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر

جهة الرحمة بقوله لا يسأم الانسان من دعاء الخير فناسب ذكرهما وحذفه هنا اكتفاء بقوله قبل ولئن أذقنا الانسان منا رحمة وزاد من ثم لانه لما حد

(١) قوله ورست يتبادر منه ان حفصا وحمزة والكسائى يقرؤن بفتح ميم مرساها والذى فى الجلال وقرأ الاخوان وحفص مجراها بفتح الميم والباقون بضمها واتفق السبعة على ضم ميم مرساها فانظره

* يا ابنة عم لا تلومي واهجعي * ثم حذف الالف للتخفيف (ولا تكن مع الكافرين) أي في دين
ولا مكان فتهلك ولما قال له ذلك (قال سآوى) أي ألتجئ وأصير (الى جبل يعصمنى) أي
يمنعنى (من الماء قال) له نوح عليه السلام (لا عاصم) أي لا مانع (اليوم من أمر الله) أي من
عذابه وقوله (الا من رحم) استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله
تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل الا من رحم أي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل
الا مكان من رحمه الله تعالى فانه مانع من ذلك وهو السفينة (وحال بينهما) أي بين نوح وابنه
أو بين ابنه والجبل (الموج) المذكور فى قوله موج كالجبال (فكان) ابنه (من المغرقين) أي
فصار من المهلكين بالماء (و) لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح (قيل) أي قال الله تعالى
أو ملك بأمره تعالى (يا أرض ابلعي ماءك) أي تشربيه (ويا سماء أقلعي) أي أمسكي ماءك
ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر
المخلوقات ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه
فيهما وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة قرأ أبو عمرو ونافع
وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة والباقون بالتحقيق (وغيض الماء) أي نقص وذهب وقرأ
هشام والكسائي باشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل (وقضي
الامر) أي وأنجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين (واستوت) أي استقرت
السفينة (على الجودي) وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل (وقيل) أي قال الله تعالى
أو ملك بأمره تعالى (بعدا) أي هلاكا (للقوم الظالمين) ومجيء اخباره على الفعل المبني
للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر
وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك فى أفعاله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره
يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يقضي ذلك الامر الهائل غيره ولا أن تستوي على متن
الجودي وتستقر عليه الا بتسويته واقراره وروي ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه
السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون
في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نقص فقيل انه دعا على الغراب بالخوف
فلذا لا يألف البيوت وطوق الحمامة الخضرة التي فى عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت
وروي ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت
بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه فطافت به السفينة سبعا وأودع
الحجر الاسود فى جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح
وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهي أول
قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج
ابن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وهذا لا يأتي على القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب
نجاته أن نوحا احتاج الى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشام فنجاه
الله تعالى من الغرق بذلك (فان قيل) كيف أغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال
(أجيب) بأنه تعالى يتصرف فى خلقه لا يسئل عما يفعل وقيل ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم

الرحمة وجهها احد الطرف
بعد الانشا كلاذ فى التصيد
وهنا لما أهمل الاول
أهمل الثاني انشا كلا
(قوله وضاق به صدرك)
انما قال ضاق ولم يقل
ضيق لموافقة قوله قبله

أو بمائة سنة قرية لهم تلك المدة (ونادى نوح ربه) أى دعاه وسأله (فقال رب ان ابنى من أهلى) وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى (وان وعدك الحق) أى الصدق الذى لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم (فان قيل) اذا كان النداء هو قوله رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء (أجيب) بان الفاء تفصيل لمجمل نادى مثلها فى توضأ فغسل وقيل نادى أى أراد نداءه فقال رب (قال) الله تعالى له (يا نوح انه) أى هذا الابن الذى سألت نجاته (ليس من أهلك) أى المحكوم بنجاتهم لايمانهم وكفره وعلله تعالى بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) وقرأ الكسائى بكسر الميم ونصب اللام بغير تنوين ونصب الراء أى عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء أى ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع فانما هى اقبال وادبار * واختلف علماء التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح أولا على أقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرين أنه ابنه حقيقة ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يا بنى وصرف هذا اللفظ الى أنه رباه وأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة القول الثانى أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى القول الثالث هو قول مجاهد والحسن أنه ولد حنث وولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا القائل بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازى وهذا قول واجب يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به (فلا تسألن ما ليس لك به علم) أى بما لا تعلم أصواب هو أم لا لان اللائق بأمثالك من أولى العزم بناء أمورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون وأثبت الياء بعد النون فى الوصل دون الوقف ورش وأبو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا (انى أعظك) أى بمواعظى كراهة (أن تكون من الجاهلين) فتسأل كما يسألون وانما سمى نداءه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله واستنجازه فى شأن ولده (قال) نوح (رب انى أعوذ بك أن) أى من أن (أسألك) فى شئ من الاشياء (ما ليس لى به علم) تأدبا بأدبك واتعاظا بوعظك (والا تغفر لى) أى الآن ما فرط منى وفى المستقبل ما يقع منى (وترحمنى) أى تتفضل على وتنعم على وتكرمنى (أكن من الخاسرين) أى العريقين فى الخسارة فان قيل هذا يدل على عدم عصمة الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام (أجيب) بأن الزلة الصادرة من نوح انما هى كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره لان قومه كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه ومنافق لا يعلم حاله فى نفس الامر وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقى أمرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون للاب فى حق الابن تحمله على حمل أفعاله وأقواله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فأخطأ فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام فى الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطأ فى الاجتهاد فلم تصدر منه معصية فطلبا الى ربه تعالى

تارك وايدل على انه ضيق
عارض لا ثابت لانه صلى
الله عليه وسلم أوسع الناس
صدرا ونظيره قولك زيد
سائد وجائد تريد حدوث فيه
السيادة والجود فان أردت
وصفه بثبوتهما قلت زيد

وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيآت المقربين (قيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يا نوح اهبط) أي انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض المستوية (بسلام) أي بعظم وأمن وسلامة (منا) وذلك ان الغرق لما كان عاما في جميع الارض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس في الارض شئ مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وأنه لا يكون الامع الامن وسعة الرزق ✽ ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بان وعده بالبركة بقوله تعالى (وبركات عليك) وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان الله تعالى صير نوحا عليه السلام أبا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله أو انه لم يكن معه في السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت أن نوحا كان آدم الاصغر فكان أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد وقوله تعالى (وعلى أمم ممن معك) يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه في السفينة لانهم كانوا جماعات أوقيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم وأن تكون لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الامم الى آخر الدهر قال في الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى (وأمم) بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (سنمتعهم) أي في الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك يدل عليه والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى امم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون في الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) في الآخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ✽ ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى (تلك) أي قصة نوح التي شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء وخبرها (من أنباء الغيب) أي من الاخبار التي كانت غائبة عن الخلق وقوله تعالى (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أي موحاة اليك وقوله تعالى (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أي نزول القرآن خبر آخر والمعنى أن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليك ونظير هذا ان يقول انسان لآخر لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل بلدك (فان قيل) قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند أهل العلم (أجيب) بان ذلك كان بحسب الاجمال وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة أو بانه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاصبر) أي أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار (ان العاقبة للمتقين) الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على ان عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر والفرج أي السرور كما كان لنوح ولقومه (فان

سيد وجواد (قوله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) أي مثله في الفصاحة والبلاغة والاقا باتون بمفترى والقرآن ليس بمفترى أو معناه مفتريات كما أن القرآن في زعمكم

قيل) هذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة والفائدة في اعادتها (أجيب) بأن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففي السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكرت لاجل أن الكفار كانوا يبالغون في الايحاش فذكرها الله تعالى لبيان أن اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا في زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد كذلك تنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة • والقصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (والى عاد) أي وأرسلنا الى عاد (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا وقوله تعالى (هودا) عطف بيان ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت في الدين وانما كانت في النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن (فان قيل) انه تعالى قال في ابن نوح انه ليس من أهلك فبين أن قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وهنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف في الدين (أجيب) بأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله تعالى مع انه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وأن صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد • ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع الى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أولا فاستأنف الجواب بقوله (قال يا قوم اعبدوا الله) أي وحدوه ولا تشركوا معه شيأ في العبادة (ما لكم من اله غيره) أي هو الهكم لان هذه الاصنام التي تعبدونها حجارة لا تضر ولا تنفع (فان قيل) كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل اقامة الدليل على ثبوت الاله (أجيب) بان دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلائل الآفاق والانفس وقلما يوجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله ولذلك قال تعالى في صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرأ الكسائي بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة (ان أنتم الا مفترون) أي كاذبون في عبادتكم غيره وكرر قوله (يا قوم) للاستعطاف وقوله (لا أسألكم عليه أجرا ان أجري الا على الذي فطرني) أي خلقني خاطب به كل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحيضا للنصيحة فانها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع (أفلا تعقلون) أي أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطا فتعقلون ثم قال (ويا قوم) أيضا لما ذكر (استغفروا ربكم) أي آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) أي كثير الدر (ويزدكم قوة الى قوتكم) أي ويضاعف قوتكم وانما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات حراصا عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شئ الى الماء وكانوا مدلين بما هم عليه أوتوا من شدة القوة والبطش والباس والنجدة مهابين في كل ناحية وقيل أراد القوة في المال وقيل القوة على النكاح وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال اني رجل ذو مال

مفترى (فان قلت) كيف أفرد في قوله قل ثم جمع في قوله فان لم يستجيبوا لكم (قلت) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيهما لكنه جمع في لكم تعظيما وتفخيما له ويعضده قوله في سورة

ولا يولد لي فعلني شيأ أعمل الله يرزقني ولداً فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد مرة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) أي ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حالة كونكم (مجرمين) أي مشركين * ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى أيضاً ما ذكره قومه له وهو أشياء أولها ما ذكره تعالى بقوله (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أي بحجة تدل على صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات الا ان القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات وثانيها قولهم (وما نحن بتاركي آلهتنا) أي عبادتها وقولهم (عن قولك) أي صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي وهذا أيضاً من جهلهم فانهم كانوا يعرفون ان النافع والضار هو الله تعالى وأن الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم (وما نحن لك بمؤمنين) أي مصدقين وفي ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم (ان) أي ما (نقول) في شأنك (الا اعتراك) أي أصابك (بعض آلهتنا بسوء) لسبك اياها فجعلتك مجنوناً وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك (قال) هود عليه السلام مجيباً لهم (اني أشهد الله) على (واشهدوا) أنتم أيضاً على (أني بريء مما تشركون من دونه) أي الله وهو الاصنام التي كانوا يعبدونها (فكيدوني) أي احتالوا في هلاكي (جميعاً) أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع * (فائدة) * اتفق القراء على اثبات الياء في كيدوني هنا وقفاً ووصلاً لاثباتها في المصحف (ثم لا تنظرون) أي تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان وحيداً في قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى (اني توكلت على الله ربي وربكم) أي فوضت أمري اليه واعتمدت عليه (ما من دابة) تدب على الارض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) أي مالكها وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهري عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس وسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا انساناً بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا أسروا الاسير وأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون من كلامهم (ان ربي على صراط مستقيم) أي طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازي المحسن باحسانه والمسيء بعصيانه وقوله تعالى (فان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أي تعرضوا (فقد أبلغتكم) جميع (ما أرسلت به اليكم) فان قيل الابلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط أجيب بان معناه فان تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتي وصرتم محجوجين لانكم أنتم الذين أصررتم على التكذيب وقوله (ويستخلف ربي قوماً غيركم) استئناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم يوحدونه ويعبدونه تعالى (ولا تضرونه) أي الله باشراككم (شيئاً) من الضرر انما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيئاً اذا أهلككم لان

القصص فان لم يستجيبوا لك أن الخطاب في الثاني للمشركين وفي يستجيبوا لمن استطعتم والمعنى فأتوا أيها المشركون بعشر سور مثله الخ فان لم يستجب لكم من تدعونه الى المظاهرة

وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربي على كل شيء) صغير أو كبير حقيرا وجليل (حفيظ) أي رقيب عالم بكل شيء وقادر على كل شيء يحفظني أن تنالوني بسوء أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها أو حفيظا على كل شيء يحفظه من الهلاك اذا شاء ويهلكه اذا شاء (ولما) لم يرجعوا ولم يرعووا ببينة ولا رغبة ولا رهبة (جاء أمرنا) أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوما تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضربهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الاولى وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (نجينا هودا والذين آمنوا معه) أي من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) لان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) هو عذاب الآخرة ووصفه بالغلظ لانه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجينا هودا والذين آمنوا معه من أن يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة * ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال (وتلك عاد) وهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيحوا في الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة أما أوصافهم فثلاثة الصفة الاولى قوله تعالى (جحدوا بآيات ربهم) أي بالمعجزات التي أتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى (وعصوا رسله) أي هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أو لان من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله الصفة الثالثة قوله تعالى (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا الا بشر مثلكم فأطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم الى الايمان ولا يرديهم والجبار المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض * ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أي جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا في الدنيا والآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس وفي الآخرة لعنة على رؤس الاشهاد * ثم انه تعالى بين السبب الاصلي في نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى (ألا ان عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم فحذف الباء أو أن المراد بالكفر الجحد أي جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أي كفروا نعمة ربهم * (تنبيه) * ألا أداة استفتاح لا تذكر الا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم وانما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى (قوم هود) عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد ارم والايماء الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود * القصة الثالثة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (والى ثمود) وهم سكان الحجر أي وأرسلنا الى ثمود (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد

...لى معارضته لعجزهم
...ماعلموا أنما أنزل بعلم الله
...د بالنظر الى هذا الجواب
...مع الضعف فلم يستجيبوا
...كم هنا وأفرد في القصص
...فأتوا) قد قال في سورة
...ونس فأتوا بسورة مثله وقد

وقوله تعالى (صالحا) عطف بيان وتلك الاخوة كانت فى النسب لا فى الدين كما مر فى هود ثم أخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) أي يا من يعز على أن يحصل لهم سوء (اعبدوا الله) أى وحدوه وخصوه بالعبادة (ما لكم من اله غيره) هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله (هو أنشأكم) أى ابتدأ خلقكم (من الارض) وذلك انهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض أو ان الانسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية فاما الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات والنبات متولد من الارض فثبت أنه تعالى أنشأ الانسان من الارض وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها او قال الضحاك أطال اعماركم فيها حتى ان الواحد منهم كان يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذا كان قوم عاد وروى ان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فاوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى وأخذ معاوية فى احياء الارض فى آخر عمره فقيل له فى ذلك فقال ما حملنى عليه الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له فى الارض آثار

وقال مجاهد استعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم * ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله (فاستغفروه) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك (ان ربى قريب) من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة الى حركة (مجيب) لكل من ناداه لا كمعبوداتكم فى الامرين * ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل (قالوا) له (يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى القول الذى جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أن تنصر ديننا فكيف أظهرت العداوة * ثم انهم أضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا (أتنهانا أن نعبد ما) كان (يعبد آباؤنا) من الآلهة ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب ثم قالوا (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاصنام (مريب) أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين والرجاء تعلق النفس بمجىء الخير على جهة الظن ونظيره الامل والطمع والنهى المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة فى تزييف كلامه (قال) صالح عليه السلام مجيبا لهم (يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت على بينة) أى بيان وبصيرة (من ربى) وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم لملائمة الخطاب حال المخاطبين (وآتانى منه رحمة) أى نبوة ورسالة (فمن ينصرنى) أى يمنعنى (من الله) أى عذابه (ان عصيته) أى ان خالفت أمره فى تبليغ رسالته والمنع عن الاشراك به (فما تزيدوننى) أى بامركم لى بذلك (غير تخسير) أى غير

عجزوا عنه فكذب قال هنا فأتوا بعشر سور مثله (قالت) فلم نزلت سورة هود أولا لكن أنكره المعيد وقال بل سورة يونس أولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله

تضليل قال الحسين بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي اياكم الى الخسارة * ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الاصنام أن يطلبوا المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم باية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا ربه فخرجت كما سألوا أشار اليها بقوله (ويا قوم هذه ناقة الله) واضافتها الى الله اضافة تشريف كبيت الله (لكم آية) أي معجزة من وجوه أحدها أنه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ما روي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر سادسها أنه كان يحصل منها لبن كثير فيكفي الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن الا أن هذه الناقة كانت آية معجزة وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه *(تنبيه)* آية نصب على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال لهم (فذروها) أي اتركوها على أي حالة كان تركها (تأكل) مما أرادت (في أرض الله) من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى في اخفائها وابطالها باقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال (ولا تمسوها بسوء) أي بعقر أو غيره ثم توعدهم بقوله (فيأخذكم) ان مسستموها بسوء (عذاب قريب) أي في الدنيا لا يتأخر عن مسكم لها الا يسيرا وذلك تحذير شديد لهم في الاقدام على قتلها فخالفوه (فعقروها) وذبحوها (فقال لهم) عند بلوغه الخبر (تمتعوا) أي عيشوا (في داركم) والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل الا للحي وفي المراد من الدار وجهان أحدهما البلد وتسمى البلد الديار لانه يدار فيها أي يتصرف فيها يقال ديار بكر لبلادهم الثاني دار الدنيا أي تمتعوا في الدنيا (ثلاثة أيام) وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم في الايمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الاول مصفرة وفي الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى (ذلك) أي الوعد العالي الرتبة في الصدق (وعد غير مكذوب) أي فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله * ويوم شهدناه (أي ورب يوم شهدنا فيه) سليما وعامرا * أو غير مكذوب على المجاز أو وعد غير كذب على أنه مصدر وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) في تفسيره وقراءة الهمزتين وعدد الذين آمنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد (و) نجيناهم (من خزي يومئذ) وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم

أى فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم فى سورة هود ان عجزتم عن ذلك فأتوا بعشر سور مثله فى البلاغة لا فى غيره مما ذكروها قاله هو التحدى هذا وتحرير

القيامة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافته الى مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول أكثر (ان ربك هو القوي) فهو يغلب كل شئ (العزيز) أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله (وأخذ الذين ظلموا) أي انفسهم بالكفر (الصيحة) أي صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) أي باركين على الركب ميتين * (تنبيه) * انما قال تعالى وأخذ ولم يقل وأخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقوله تعالى (كأن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اي كأنهم (لم يغنوا) أي يقيموا (فيها) أي ديارهم ولم يسكنوا مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به وقوله تعالى (ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) تفسيره ما تقدم في قوله تعالى ألا ان عادا كفروا ربهم الآية وقرأ حفص وحمزة ألا ان ثمود بغير تنوين للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب الى الحي او الى الأب الاكبر ومن نون وقف على ألف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرأ الكسائي بعدا لثمود بتنوين ثمود مع الكسر لما مر والباقون بغير تنوين مع الفتح لما مر أيضا * القصة الرابعة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أي باسحق ومن وراء اسحق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة واختلف في الزائد على ذلك وأجمعوا على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطاء على أقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر (قالوا سلاما) اي سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاما أي سلموا (قال سلام) أي أمركم أو جوابي سلام أو وعليكم سلام * (تنبيه) * قوله سلام أكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام ولهذا صح وقوعه مبتدأ لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ وأما لفظ السلام فانه لا يفيد الا الماهية (فان قيل) فلأي شئ ما كفى الاول في التحلل من الصلاة عند النووي (أجيب) بان ذلك سنة متبعة وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام ولا ألف بعدها والباقون بفتح السين واللام وبعدها ألف قال الفراء ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح أي نحن سلم صلح غير حرب (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أي فما أبطأ مجيئه به والحنيذ المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى في موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال ابراهيم

الاول مع زيادة ان يقال ان الاعجاز وقع أولا بالتحدي بكل القرآن في آية قل لئن اجتمعت الانس والجن فالعجزوا فتحداهم بعشر سور فالعجزوا فتحداهم بسورة فالعجزوا

اليغوردى أن ابراهيم عليه السلام مكث خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءته الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) أى الاضياف (لا تصل اليه) أى لا يمدون أيديهم اليه (نكرهم) أى أنكرهم واستنكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس) أى أضمر فى نفسه (منهم خيفة) أى خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وانما جاء بشر (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما لم نمد أيدينا الى طعامك لانا لا نأكل (وامرأته) أى امرأة ابراهيم سارة وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التى دل عليها فحوى قوله بالبشرى (فضحكت) سرورا من تلك البشرى لزوجها مع كبره وكبرها وبطلانها من غيرها لانها كانت عجوزا عقيما فاز بل ذلك الظن عنها بقوله تعالى (فبشرناها) اى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما لشأنها (باسحق) تلده (ومن وراء اسحق يعقوب) اى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لاسحق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها قال البقاعى والذى يدل على هذا التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت ما يأتى عن نص التوراة وساق عن التوراة عبارة مطولة وقيل سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد وقيل فضحكت فحاضت كما قال الشاعر

عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة ۞ اى حائضا فى جماعة من النساء وهذا رد على الفراء حيث قال ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال آخر ۞ تضحك الضبع لقتلى هذيل ۞ أراد انها تحيض فرحا ۞ (تنبيه) ۞ ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين قرأ قالون والبزى بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها أيضا حرف مد وقرأ أبو عمرو باسقاط أحدهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما (قالت يا ويلتا) هذه كلمة تقال عند أمر عظيم والالف مبدلة من ياء الاضافة (أألد وأنا عجوز) وكانت ابنة تسعين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) اى زوجى سمى بذلك لانه قيم أمرها وقولها (شيخا) نصب على الحال قال الواحدى وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة (ان هذا لشئ عجيب) أى ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك (قالوا) أى الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) منكرين عليها ذلك أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شئ واذا أراد شيأ كان سريعا فان خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بمستغرب (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى بيت ابراهيم وأهل منصوب على المدح والنداء لقصد التخصيص كقولهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من أهل بيته (انه) تعالى (حميد) أى محمود على كل حال أو فاعل ما يستوجب به الحمد

قوله فلما توا
[illegible] بقوله
قد اهم بدوانها
جد بشمله (قوله لا جرم
انهم [illegible] فى الآخرة هم
الاخسرون) قال ذلك
هنا وقال فى النحل هم
الخاسرون لان ما هنا نزل
فى قوم صدوا عن سبيل

(مجيد) أى كثير الخير والاحسان • القصة الخامسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أى الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم (وجاءته البشرى) بدل الروع بالولد أخذ (يجادلنا) أى يجادل رسلنا (فى) شأن (قوم لوط) وجواب لما أخذ يجادلنا الا أنه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا (فان قيل) كيف جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بأنهم لا يمكنهم مخالفة أمر الله وهذا منكر (أجيب) بأن المراد من هذه المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى لان الملائكة قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية أو ان مجادلته انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال أو أربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان فى قرى لوط أربعة آلاف ألف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى (ان ابراهيم لحليم) اى لا يتعجل مكافأة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر او يعفو ومن هذا حاله يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى (أواه) اى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) اى رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له (يا ابراهيم أعرض عن هذا) أى الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه (انه قد جاء أمر ربك) أى قضاؤه الازلى بعذابهم وهو أعلم بحالهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) اى لا سبيل الى دفعه ورده (ولما جاءت رسلنا لوطا) أى هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن أخى ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بنى آدم وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله تعالى (سىء بهم) أى حزن بسببهم (وضاق بهم ذرعا) أى صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع فى مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالآخرة انهم ملائكة الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى تشد بها الرأس قال قتادة خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها وروى أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم من أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات وروى أن الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك

فضلوا
وأضلوا غيرهم
الله وصدوا
وأضلوا وأما هنا الذى نزل فى
قوم صدوا عن سبيل الله
فناسب فى الاول الاخسرون
وفى الثانى الخاسرون (قوله
وآتانى رحمة من عنده) قاله
هنا بتقديم رحمة على الجار

أحد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وجاءه قومه) لما علموا بهم (يهرعون) اي يسرعون (اليه) قاله ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشي بين مشيين (ومن قبل) اي قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجيء الرسل اليهم (كانوا يعملون السيئات) اي الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في أدبارهم (قال) لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بني آدم (يا قوم هؤلاء بناتي) قال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبي هو أبو امته كالوالد لهم اي تزوجوا منهن وقيل أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) اي أنظف فعلا (فان قيل) افعل التفضيل يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لا طهارة في اتيان الرجال (أجيب) بان هذا جار مجرى قوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله أعلى وأجل ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا انظائر كثيرة (فاتقوا الله) وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي (ولا تخزون) اي تفضحوني (في ضيفي) اي أضيافي (أليس منكم رجل رشيد) يهتدي الى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) اي حاجة (وانك لتعلم ما نريد) اي من اتيان الذكور وما لنا فيه الشهوة فعند ذلك (قال) اي لوط عليه السلام (لو ان لي بكم قوة) أي طاقة (أو آوي الى ركن شديد) أي عشيرة تنصرني شبهت بركن الجبل في شدته وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي لوطا كان يأوي الى ركن شديد والركن الشديد نصر الله ومعونته فكان النبي صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله أو آوي الى ركن شديد وعده نادرة اذ لا ركن أشد من الركن الذي كان يأوي اليه وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم أو لدفعتكم روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه في عقوبتهم فأذن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما سحرة *(تنبيه)* ان يصلوا اليك جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا على ضرره ثم قالوا له (فاسر بأهلك بقطع) أي طائفة (من الليل) وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السري والباقون بهمزة قطع من الاسراء (ولا يلتفت منكم أحد) اي لا ينظر الى ورائه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم وقوله (الا امرأتك) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء على انه بدل من أحد والباقون بالنصب على انه

قوله والمجرور وعكس بعد في قوله وآتاني منه رحمة وفي قوله ورزقني منه رزقا حسنا ليوافق كل منهما ما قبله اذ الافعال المتقدمة هنا وهي نرى وترى ونظن لم يفصل بينها وبين

قوله ابن الربيع هو كذلك في متن المواهب قال شارحه على الصواب ورواه يحيى بن بكير ومعن بن عيسى وأبو مصعب وغيره عن مالك وروى الجمهور عنه انه ابن ربيعة وادعى الاصيلي انه ابن الربيع بن ربيعة اه

استثناء من الاهل اى فلا تسر بها (انه مصيبها ما أصابهم) فلم يخرج بها وقيل خرجت
والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له
(ان موعدهم الصبح) قال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) اى فأسرع
الخروج بمن أمرت بهم (فلما جاء أمرنا) اى عذابنا باهلاكهم (جعلنا عاليها) اى قراهم
(سافلها) روى ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكة كان
المذكورة فى سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف
فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهيق الحمار ونباح الكلاب لم يكفأ لهم
اناء ولم ينتبه نائم ثم اسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليها) اى المدن بعد قلبها او قيل على
شذاذها وهو بضم الشين المعجمة وبذالين معجمتين أولاهما مشددة وهم الذين ليسوا من أهلها
يكونون فى القوم وليسوا منهم (حجارة من سجيل) اى من طين طبخ بالنار كما قال تعالى فى
موضع آخر من طين وقيل مثل السجل وهو الدلو العظيمة (منضود) اى متتابع يتبع بعضها
بعضا (مسومة) اى معلمة عليها اسم من يرمى بها وقال أبو صالح رأيت منها عند أم هانئ وهى
حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم وقال ابن جريج
كان عليها سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض وقوله تعالى (عند ربك) ظرف لها (وما
هى) أى تلك الحجارة (من الظالمين) أى مشركى مكة (ببعيد) اى بشئ بعيد أو بمكان بعيد لانها
وان كانت فى السماء وهى مكان بعيد الا انها اذا هويت منها فهى أسرع شئ لحوقا بالمرمى
فكأنها بمكان قريب منه وفيه وعيد لهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل فقال
يعنى ظالمى مكة ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة
وقيل الضمير للقرى اى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى مسيرهم * القصة السادسة
التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى
مدين) أى وأرسلنا الى مدين وهم قبيلة أبوهم مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو
اسم مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف المضاف
لدلالة الكلام عليه (أخاهم) اى فى النسب لا فى الدين و(شعيبا) عطف بيان وكأن قائلا قال
فما قال لهم فقيل (قال) ما قال اخوته من الانبياء فى البداءة باصل الدين (يا قوم) مستعطفا
لهم مظهرا غاية الشفقة (اعبدوا الله) اى وحدوه ولا تشركوا به شيئا (ما لكم من اله غيره)
فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا وحده قاطع الدلالة على
صدق كل منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم وتنائى ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا
عرف أخبار الناس الا من الحى القيوم * ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم
الى العدل فيما بينهم وبين عبيده فى أقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك ديدنا فقال (ولا تنقصوا)
بوجه من الوجوه (المكيال والميزان) اى لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل
تعديل الشئ بالآلة فى القلة والكثرة والوزن تعديله فى الخفة والثقل فالكيل العدل فى
الكمية والوزن العدل فى الكيفية ثم علل ذلك بقوله (انى اراكم بخير) أى بثروة وسعة
تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب

صفة لحجارة وجار ومجرور
والفصل المتقدم بعده وهى
كان فى الثانى وتفاؤل فى
الثالث فصل بينه وبين
صفة وله جار ومجرور واذ حسب
مكان كالمعمول (فانزلت)
لم قال فى الاولين وآتانى وفى

وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا ويتوبوا وهو قوله (وانى اخاف عليكم) ان لم تؤمنوا (عذاب يوم محيط) اى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة ومثله قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (ويا قوم اوفوا) اى أتموا اتماما حسنا (المكيال والميزان) اى الكيل والوزن وآلتهما (فان قيل) النهى عن النقصان أمر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى اوفوا (أجيب) بانهم نهوا أولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لان فى التصريح بالقبيح نعيا على المنهى وتعييرا له ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجىء به مقيدا (بالقسط) اى ليكون الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمرا بما هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب اليه غير المأمور به وقد يكون محظورا كما فى الربا وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) تعميم بعد تخصيص فانه أعم من ان يكون فى المقدار أو فى غيره فانهم كانوا يأخذون من كل شئ يباع كما تفعل السماسرة وكانوا يمكسون الناس وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة والحاصل انه تعالى نهى فى الآية الاولى عن النقصان فى المكيال والميزان وفى الثانية أمر باعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من الرأس فكانه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانى أمر بان يسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة كما نبه بقوله تعالى بالقسط وفى الآية الثالثة نهى عن النقص فى كل الاشياء وكذا قوله تعالى (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام (بقيت الله) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن (خير لكم) مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) اى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به *(فائدة)* بقيت رسمت هنا بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون وقفوا عليها بالهاء (وما انا عليكم بحفيظ) أعلم بجميع اعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فساد ولما أمرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك البخس (قالوا) له (يا شعيب) منهو باسمه استخفافا وغلظة وانكارا واعلاما بأنهم مستهزئين به (أصلواتك تأمرك) اى تفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا (ان نترك ما يعبد) اى على سبيل المواظبة (آباؤنا) من الاصنام فحذف الذى هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا له ذلك فى جواب أمره لهم بالتوحيد (او) نترك (أن نفعل) أى دائما (فى أموالنا ما نشاء) من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون افساد المال قالوا له ذلك فى جواب النهى عن

الثالث ورزقنى (قلت) لان الثالث تقدمه ذكر الاموال وتأخر عنه قوله ورزقا حسنا وهما خاصان فناسبهما قوله ورزقنى بخلاف الاولين فانه تقدمهما أمور عامة

التطفيف والامر بالايفاء وانما أضافوا ذلك الى صلاته تهكما واستهزاء بها واشعارا بان مثل
هذا لا يدعو اليه داع عقلى وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه
وكان شعيب عليه الصلاة والسلام كثير الصلاة فى الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلى
تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزء كما انك اذا رأيت
معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا فائدة مطالعة تلك الكتب على سبيل
الهزء فكذا ههنا وقرأ حفص وحمزة والكسائى أصلاتك بالافراد والباقون بالجمع والتاء
بالرفع فى القراءتين وغلظ ورش اللام فى أصلواتك وقولهم له (انك لانت الحليم الرشيد) تهكموا
به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار
ما سمعوه منه واستبعدوه بانه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة الى مثل ذلك ثم أخرج
قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) مستعطفا لهم لما بينهم من
عواطف القرابة منبها لهم على أحسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون
أدعى الى سبيل الوفاق والانصاف (أرأيتم) اى أخبرونى (ان كنت على بينة) اى برهان (من
ربى) وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله (ورزقنى) والضمير فى (منه) لله تعالى أى من
عنده باعانته بلا كد منى فى تحصيله وعظم الرزق بقوله (رزقا حسنا) جليلا وما لا حلالا لم أظلم
فيه أحدا وجواب الشرط محذوف اى فهل يسوغ مع هذا الانعام الجامع للسعادات
الروحانية والجسمانية ان أخون فى وحيه فاخالفه فى امره ونهيه وهذا اعتذار عما انكروا
عليه من تغيير المألوف والنهى عن دين الآباء (وما أريد ان اخالفكم) اى واذهب (الى
ما انهاكم عنه) فارتكبه (ان) اى ما (اريد) اى فيما آمركم به وانهاكم عنه (الا الاصلاح)
اى ما أريد الا ان اصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر
(ما استطعت) اى وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى
الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء (وما توفيقى) اى لاصابة الحق والصواب (الا
بالله) اى الا بمعونته وتأييده (عليه) لا على غيره (توكلت) اى اعتمدت فى جميع أمورى فانه
القادر على كل شىء وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغى للانسان أن يتوكل
على أحد الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذى هو أقصى مراتب المبدا وأما
قوله (واليه انيب) ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه انيب
يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر
شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه (ويا قوم لا يجرمنكم) اى لا يكسبنكم
(شقاقى) اى خلافى وهو فاعل يجرم والضمير مفعول أول والمفعول الثانى (ان يصيبكم)
عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة قال فى الكشاف جرم مثل كسب فى تعديه
الى مفعول واحد والى مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله
تعالى لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من
الريح العقيم (أو قوم صالح) من الرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) لا فى الزمان ولا فى المكان
لانهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان

فناسبها قوله وآثانى (ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا) ان قلت لم قال ههنا مالا حكاية عن نوح بلفظ مالا وقال بعد حكاية عن هود بلفظ أجرا (قلت) توسعة فى التعبير عن المراد بعبارتين

القرب في الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا باحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب (فان قيل) لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين (أجيب) بان التقدير وما اهلاكهم بشيء بعيد وأيضا يجوز أن يسوى في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما انتهى (واستغفروا ربكم) أي آمنوا به (ثم توبوا اليه) عن عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك (ان ربي رحيم) أي عظيم الرحمة للتائبين (ودود) أي محب لهم ❊ ولما بالغ عليه السلام في التقرير والبيان أجابوه بانواع فاسدة الاول (قالوا) له (يا شعيب ما نفقه) أي ما نفهم (كثيرا مما تقول) (فان قيل) انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه (أجيب) بانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم من كلامه وهو قوله تعالى وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه أو انهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدري ما تقول ❊ النوع الثاني قولهم له (وانا لنراك فينا ضعيفا) أي لا قوة لك فتمتنع منا ان أردناك بسوء أو ذليلا لا عز لك وقيل أعمى بلغة حمير قاله قتادة وفي هذا تجويز العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في اثبات هذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله الحسن ❊ النوع الثالث قولهم له (ولولا رهطك) أي عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم (لرجمناك) بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل الى السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا له انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وانهم انما لم يقتلوه لاجل احترام رهطه ❊ النوع الرابع قولهم له (وما انت علينا بعزيز) أي لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ❊ ولما خوف الكفار شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنهم ما ذكره[٣] في هذا المقام وهو نوعان الاول (قال) لهم (يا قوم) مستعطفا لهم مع غلظهم عليه (أرهطي أعز عليكم من الله) المحيط بكل شيء قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم في قرابتي منهم ولم تنظروا الى الله تعالى في قربي منه لما ظهر علي من كرامته تعالى (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أي جعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر باشراككم به والاهانة لرسوله قال في الكشاف والظهري منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم في النسبة الى الامس امسي بكسر الهمزة وقوله (ان ربي بما تعملون محيط) أي انه عليم باحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها ❊ النوع الثاني قوله (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) والمكانة الحالة التي يمكن صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الي (اني) أيضا (عامل) بما آتاني الله من القدرة والطاعة (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) فمن موصولة مفعول العلم (فان قيل) لم لم يقل فسوف تعلمون (أجيب) بان ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وأما حذف الفاء فجعله

ولان قصة نوح وقع بعدها التراخي والمال ثم أنسب (فان قلت) لم قال في الاولى ويا قوم بالواو وفي الثانية يا قوم بدونها (قلت) لطول الكلام الواقع بين النداءين في قصة نوح وقصره بينهما

٣ قوله حكى الله تعالى عنهم ما ذكره سبق قلم والصواب حكى الله عنه ما ذكره اه مصححه

جواباعن سؤال مقدروهو المسمى فى علم البيان بالاستئناف البيانى تقديره انه لما قال يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى بيان الفصاحة والتهويل لانه استئناف (وارتقبوا) اى انتظروا عاقبة أمركم (انى معكم رقيب) اى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع (ولما جاء أمرنا) بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة) اى بفضل (منا) بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (فان قيل) لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء (أجيب) بان قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجرى مجرى السبب لها بخلاف قصتى صالح ولوط فانهما ذكرا بعد الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاء بفاء السببية (وأخذت الذين ظلموا) اى ظلموا انفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) اى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة خرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) اى باركين على الركب ميتين (كأن لم يغنوا) اى كأنهم لم يقيموا (فيها) اى ديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (الا بعدا) اى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) اى شبههم بهم لان عذابهم كان أيضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم * القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها قصة موسى عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) اى التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام (وسلطان مبين) اى برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصا لانها اظهر الآيات وذلك لان الله تعالى اعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من ابدل نقص الثمرات والسنين باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة العلماء أكمل واقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء لان سلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة (الى فرعون) طاغية القبط (وملئه) اى أشراف قومه الذين تتبعهم الاذناب لان القصد الاكبر رفع أيديهم عن بنى اسرائيل (فاتبعوا أمر فرعون) اى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى الى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادى الى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم (وما أمر فرعون برشيد) اى بسديد ولا

ذكر الواو فى قصة هود فناسب ذكر
الواو فى الاول لتوصل ما
بعدها بما قبلها (قوله
لا عاصم اليوم الآية)
الاستثناء فيه منقطع لان
من رحمه الله معصوم
لا عاصم أو متصل لان معنى

حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد بمعنى ذي رشد وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد ان يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد في عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية (يقدم قومه يوم القيامة) الى النار كما كان يقدمهم في الدنيا الى الضلال أو كما تقدم قومه في الدنيا فادخلهم البحر وأغرقهم فكذا يتقدمهم في القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى (فاوردهم النار) فان قيل لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل أتى بلفظ الماضي (أجيب) بانه انما أتى بلفظ الماضي مبالغة في تحققه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى اتيانها موردا ولهذا قال تعالى (وبئس الورد المورود) وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده (فان قيل) لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك ان يقال وبئست الورد المورود (أجيب) بان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار (واتبعوا في هذه) اى الدنيا (لعنة) اى طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) اى واتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون في الدنيا والآخرة ونظيره قوله تعالى في سورة القصص وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (بئس الرفد) اى العون (المرفود) رفدهم سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن ذلك فقال هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شئ جعلته عونا لشئ فقد رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها اذا تبعتهم في الدنيا ابعدتهم عن الرحمة واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا اى عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القائل ❊ تحية بينهم ضرب وجيع ❊ وسميت معانا لانها اردفت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين الى طريق الجحيم ❊ ولما ذكر تعالى قصص الاولين قال تعالى (ذلك) اى المذكور وهو مبتدأ خبره (من انباء القرى) اى اخبار اهل القرى وهم الامم السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى (نقصه عليك) اى نخبرك به يا محمد خبر بعد خبر وفائدة ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة وان الكافر يخرج مع اللعنة في الدنيا والعقاب في الآخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد وان يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال وفي اخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ لاحد دليل على نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحي من الله تعالى (منها) اى القرى (قائم) اى باق كالزرع القائم هلك أهله دونه (و) منها (حصيد) اى عافي الاثر كالزرع المحصود هلك مع أهله (وما ظلمناهم) اى باهلاكهم بغير ذنب (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي وقال ابن عباس يريد وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى (فما أغنت) اى دفعت (عنهم آلهتهم) اى اصنامهم (التي يدعون) اى يعبدون (من دون الله)

من رحم الراحم وهو الله فكأنه قيل لا عاصم الا الله أو لان عاصما بمعنى معصوم كما في دافق وعيشة راضية (قوله يا أرض ابلعي ماءك) ويا سماء أقلعي) ان قلت هما لا يعقلان فكيف أمرا

أي غيره (من شيء) أي شيئاً من مزيدة (لما جاء أمر ربك) أي عقابه (وما زادوهم) بعبادتهم (غير تتبيب) أي غير تخسير وقيل تدمير ✽ ولما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال تعالى بعده (وكذلك) أي ومثل ذلك الأخذ العظيم (أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي) أي القرى (ظالمة) والمراد أهلها ونظيره قوله تعالى وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة فبين تعالى أن عذابه ليس مقصوراً على من تقدم بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك ✽ ولما بين تعالى كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين تعالى أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيداً وتقوية بقوله تعالى (إن أخذه أليم) أي مؤلم (شديد) أي صعب مفتت القوى وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد وفي هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على أن من أقدم على ظلم فإنه يتداركه بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية مختصة بظالمي الأمم الماضية بل هي عامة في كل ظالم ويعضده الحديث (إن في ذلك) أي ما ذكر من عذاب الأمم الماضية وإهلاكهم (لآية) أي لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب) يوم الحياة (الآخرة) لأنه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين في الدنيا وما هو إلا نموذج لما أعد لهم في الآخرة فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى وقوله (ذلك) إشارة إلى يوم القيامة لأن عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له) أي فيه (الناس) أي إن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى (وذلك يوم مشهود) أي يشهده أهل السموات وأهل الأرض (وما نؤخره) أي ذلك اليوم وهو يوم القيامة (إلا لأجل) أي لوقت (معدود) أي معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه إلا الله تعالى (يوم يأتي) ذلك اليوم (لا تكلم) فيه حذف إحدى التاءين أي لا تتكلم (نفس إلا بإذنه) تعالى وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء بعد التاء من يأتي وصلاً ووقفاً وحذفها الباقون وأما التاء من تكلم فشددها البزي في الوصل وخففها الباقون (فإن قيل) كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بأن ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن لهم وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم (فمنهم) أي الناس (شقي و) منهم (سعيد) أي فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد وعن علي رضي الله تعالى عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الأرض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة

(قلت) الأمر هنا أمر إيجاد لا أمر إيجاب فلا يشترط فيه فهم ولا عقل لأن الأشياء كلها منقادة لله تعالى ومنه قوله تعالى إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وقوله فقال لها

الا قد كتب مكانها من الجنة أو النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية وبقيع الغرقد هو مقبرة اهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشئ بتلك المخصرة او باليد او نحو ذلك حتى يؤثر فيه (فاما الذين شقوا) في علمه تعالى (ففي النار لهم فيها زفير) وهو صوت شديد (وشهيق) وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق رده وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ردده في صدره وقيل الزفير في الحلق والشهيق في الصدر وعلى كل فالمراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم (خالدين فيها) وقوله تعالى (مادامت السموات والارض) فيه وجهان احدهما سموات الآخرة وارضها وهي مخلوقة دائمة للابد والدليل على ان لها سموات وارضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ولانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء يخلقها الله تعالى او يظلهم العرش وكل ما اظلك فهو سماء وكل ما استقر قدمك عليه فهو ارض والوجه الثاني ان المراد مدة دوامهما في الدنيا (الا) اي غير (ماشاء ربك) من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها ابدا (ان ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض (واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) كما تقدم ودل عليه قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) اي مقطوع وقيل الاستثناء في اهل الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء لما روى عن جابر انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية ان الله تعالى يخرج ماشاء من النار فيدخلهم الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب اصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد اي من أهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم بان تخلى طبقتهم التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من ان أهل الكبائر يخلدون في النار واما الاستثناء في اهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة أو ان الاستثناء راجع الى الفريقين فانهم مفارقوا الجنة ايام عذابهم وان التأبيد من مبدا معين ينقص باعتبار الابتداء كما ينقص باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيما صحيحا لان شرطه ان تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي او مانع من الجميع من الجنة

قوله ونادى نوح ربه فقال رب قال هنا بالفاء وقال في مريم في قصة زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا قال رب بلا فاء لانه أريد بالنداء هنا ارادته

ولارض ائتيا طوعا او كرها قالتا آتينا طائعين

والنار مدة تعميرهم فى الدنيا واحتباسهم فى البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فيكون المعنى خالدين فى الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لا يشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا الاستثناء استثناء الله تعالى ولا يفعله كقولك والله لاضربنك الا ان أرى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال اهل المعانى هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا آتيك ما دامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبدا وقيل ان اهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب أحيانا وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائى سعدوا بضم السين على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد أى أعطوا اعطاء أو الحال من الجنة * ولما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك) يا محمد (فى مرية) أى شك (مما يعبد هؤلاء) المشركون من الاصنام أنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) أى كعبادتهم (من قبل) وقد عذبناهم (وانا لموفوهم) مثلهم (نصيبهم) أى حظهم من العذاب (غير منقوص) أى كاملا غير ناقص * ولما ذكر تعالى فى هذه الآية اعراضهم عن الاتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب سلاه باخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة الجامعة للخير (فاختلف فيه) أى الكتاب فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضى) أى لوقع القضاء (بينهم) أى بين من اختلف فى كتاب موسى فى الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيامة كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الآية * ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أنه به لان كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى مؤكدا (وانهم لفى شك) أى عظيم محيط بهم (منه) أى من الكتاب والقضاء (مريب) أى موقع فى الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التى منها اسماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى فى جبل الطور من خوارق الاحوال وقيل الضمير فى وانهم راجع لكفار مكة وفى منه للقرآن (وان كلا) أى كل الخلائق وقوله تعالى (لما) ما زائدة واللام موطئة لقسم مقدر تقديره والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف * (فائدة) * قال بعض الفضلاء انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات أولها كلمة ان وهى للتأكيد وثانيها النقطة

فهى سبب له وناسبت الفاء الدالة على السببية وهنالك لم يرد ذلك فناسب تركت الفاء (قوله قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) * ان قلت هود كان رسولا فكيف لم يظهر معجزة (قلت) قد

كل وهي أم الباب في التأكيد وثانيها اللام الداخلة على خبران تفيد التأكيد أيضا ورابعها حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة على جواب القسم وسابعها النون المذكورة في قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على ان أمر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله تعالى (انه بما يعملون خبير) وهو من أعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شئ من أعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين * ولما بين تعالى أمر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم) أى على دين ربك والعمل والدعاء اليه (كما أمرت) والامر في ذلك للتأكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها دهو كقولك للقائم قم حتى آتيك أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك وتوطئة لقوله تعالى (ومن تاب معك) أى وليستقم أيضا على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الاستقامة أن تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ عنه روغان الثعلب وأشار صلى الله عليه وسلم الى شدة الاستقامة بقوله شيبتنى هود وأخواتها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية وعن بعضهم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له روى عنك انك قلت شيبتنى هود فقال نعم فقلت بأى آية قال قوله تعالى فاستقم كما أمرت وعن سفيان ابن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازى ان هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر في الزكاة باداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به انتهى * ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى (ولا تطغوا) اى لا تجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان الله تعالى انما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين متين لم يشاده أحد الا غلبه كما ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر أراد به التسهيل في الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى وقوله وسددوا أى اقصدوا السداد في الامور وهو الصواب وقاربوا أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله واستعينوا بشئ من الدلجة اشارة الى تقليله * ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهى عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ثم علل ذلك مؤكدا تنزيلا لهم بفرط أو بقرط منزلة المنكر فقال (انه بما تعملون بصير) أى عالم باعمالكم كلها لا يخفى عليه شئ منها

وهي الرجح انظهر ها ولا يقبل قول المدعي فقال الكفار في حقه بعضهم أو ان الرسول انما يحتاج الى المعجزة اذا كان صاحب شريعة لتنقاد امته اليها اذ كل شريعة

فيجازيكم عليها (ولا تركنوا) أي تميلوا (الى الذين ظلموا) أدنى ميل (فتمسكم النار) أي تصيبكم بحرها والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين الى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتأمل قوله تعالى ولا تركنوا فان الركون هو الميل اليسير وحكي أن الموفق صلى خلف الامام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه فلما أفاق قيل له في ذلك فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهري السلاطين كتب اليه أخ له في الدين عافانا الله واياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك أصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى لتبيننه للناس ولا تكتمونه واعلم ان أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت انك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا يعبرون عليك الى بلائهم وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء والسلام وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعي ما من شيء أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا أي من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء وقال صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت وقوله تعالى (وما لكم من دون الله من أولياء) أي أعوانا وأنصارا يمنعونكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار أي فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة (ثم لا تنصرون) أي لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله في القيامة ففي هذه الآية وعيد لمن ركن الى الظلمة بأن تمسه النار فكيف يكون حال الظالم في نفسه ولما أمر تعالى بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالى (وأقم الصلوة) وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى (طرفي النهار) الغداة والعشي أي الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى (وزلفا) جمع زلفة أي طائفة (من الليل) أي المغرب والعشاء (ان الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن) أي يكفرن (السيئات) أي الذنوب الصغائر لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وزاد في رواية أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء فقال ذلك مثل

أحكام غير معقولة ويحتاج الرسول الا في بعثها الى معجزة تثبت صدقه وهو لم يكن له شريعة وانما كان يأمر بالعقل فلا يحتاج الى معجزة لان الناس ينقادون الى ما يأمرهم به

الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي اليسر بن عمرو قال أتتني امرأة وزوجها بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في بعث فقالت بعني بدرهم تمرا قال فأعجبتني فقلت ان في البيت تمرا هو أطيب من هذا فالحقيني فدخلت معي البيت فأهويت اليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى اليه وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى (ذلك ذكرى للذاكرين) اى عظة للمتقين قال أبو اليسر فأتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت فقال رجل يا رسول الله ألهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقي امرأة ليس بينهما معرفة وليس يأتي الرجل الى امرأته شيأ الا قد أتى هو اليها الا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلي فقال معاذ بن جبل فقلت يا رسول الله أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة قال بل للمؤمنين عامة قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام على أن لا يعود اليه في المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة في قوله تعالى ذلك ذكرى الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما أمرت الى ههنا وقيل هو اشارة الى القرآن وقوله تعالى (واصبر) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي واصبر يا محمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان وايماء بانه لا يعتد بهما دون الاخلاص * ولما بين تعالى أن الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين ان السبب فيه أمران السبب الاول انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الارض فقال تعالى (فلولا) اى فهلا (كان من القرون) أي من الامم الماضية (من قبلكم أولوا بقية) اى اصحاب دين وخير وفضل (ينهون عن الفساد في الارض) وسمي الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وافضله فصار مثلا في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة

لموافقته للعقل والمعقد ولا يلزم من الجواب الاول عدم اظهاره معجزة عدمها في نفس الامر فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي الا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن

* ان تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم * ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى اى فهلا كان منهم ذو و بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه * (فائدة) * حكى عن الخليل أنه قال كل ما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التي في الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك انتهى وقوله تعالى (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع معناه ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي السبب الثاني لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) اى ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك (وكانوا مجرمين) اى كافرين * (تنبيه) * قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لأن المعنى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكأنه قيل أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على أترفوا اى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام أو على اتبعوا اى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) اى بشرك (وأهلها مصلحون) فيما بينهم والمعنى انه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحال ان عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الايذاء والظلم ولهذا قيل ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) اى أهل ملة واحدة وهي الاسلام كقوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وفي هذه الآية دليل على ان الامر غير الارادة وأنه تعالى لم يرد الايمان من كل أحد وان ما أراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشري يعني لاضطرهم الى ان يكونوا أهل ملة واحدة (ولا يزالون مختلفين) اى على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان اختلفوا في دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفي رواية ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة والمراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هي ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله (فان قيل) ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان

علیه الشر وقولهم ما جئتنا
ببينة كقول غيرهم ان هو
الا رجل به جنة ان هذا
لساحر عليم (قوله ولما جاء
أمرنا نجينا هودا) قاله في
قصة هود وشعيب بالواو
وفي قصة صالح ولوط بالفاء

قلم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال (أجيب) بان الدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى (الا من رحم ربك) اى أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك وفى هذه الآية دلالة على ان الهداية والايمان لا تحصل الا بخلق الله تعالى لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا ان يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه وتعالى خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة (ولذلك خلقهم) اى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق أهل الرحمة للرحمة روى عن ابن عباس انه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والحاصل ان الله تعالى خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى (وتمت كلمة ربك) وهى (لأملأن جهنم من الجنة) اى الجن (والناس أجمعين) وهذا صريح بان الله تعالى خلق أقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة أولهما تثبيت الفؤاد بقوله تعالى (وكلا) اى وكل نبأ (نقص عليك) وقوله تعالى (من أنباء الرسل) اى نخبرك به بيان لكل وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه * الفائدة الثانية قوله تعالى (وجاءك فى هذه الحق) اى فى السورة وعليه الاكثر أو فى هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن فى هذه الدنيا قال الرازى وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها (فان قيل) قد جاءه الحق فى غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق (أجيب) بانه انما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار فذكر تعالى أمورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى أما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وأما الموعظة فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح أحوالها وأما الذكرى فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافذة الصالحة فى الدار الآخرة * ولما بلغ تعالى الغاية فى الانذار والاعذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بان قال لرسوله صلى الله عليه وسلم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) اى حالتكم وفيه وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت

لان العقاب فى قصة الاولين تأخر عن وقت الوعيد فناسب الاتيان بالواو وفى قصة الآخرين وقع العذاب عقب الوعيد فناسب الاتيان بالفاء الدالة على التعقيب (قوله فان تولوا) ...

منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وقرأ شعبة بعد النون بألف على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (انا عاملون) اى على حالتنا التى أمرنا بها ربنا (وانتظروا) اى ما يعدكم الشيطان به من الخذلان (انا منتظرون) اى ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على أمثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والارض) اى علم ما غاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ فى جميع مخلوقاته خفيها وجليها (واليه) اى لا الى غيره (يرجع الامر كله) اى اليه يرجع أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الجيم ولما كان أول درجات السير الى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه قال تعالى (فاعبده) ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) اى ثق به فى جميع أمورك فانه كافيك (وما ربك بغافل عما تعملون) فيحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه شئ منها فيجزى المحسن باحسانه والمسئ باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة *(فائدة)* قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء حديث موضوع

سورة يوسف عليه السلام مكية

مائة واحدى عشرة آية وعدد كلماتها ألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى وسع كل شئ قدرة وعلما (الرحمن) لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى (الرحيم) الذى خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى (الر) تقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ ورش بالامالة بين بين وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة محضة والباقون بالفتح واختلف فى سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير أنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة اى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة المسماة بالر هى (آيات الكتاب) اى القرآن (المبين) اى المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذى ثبت فيه قصص الاولين والآخرين وشرحت فيه أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) اى الكتاب (قرآنا عربيا) اى بلغة العرب لكى يعلموا معانيه ويفهموا ما فيه روى ان علماء اليهود قالوا لكبراء

(قوله فقد ابلغتكم) جواب الشرط محذوف ان الابلاغ ليس هو الجواب لتقدمه على توليهم وانما هو متعلق الجواب والتقدير فلا لوم (قوله ونجيناهم من عذاب غليظ)

المشركين اسألوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف حال كونه قرآناً عربياً وسمي بعض القرآن قرآناً لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض (لعلكم) يا أهل مكة (تعقلون) اي ارادة ان تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته واختلف العلماء هل في القرآن شيء بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم ان في القرآن لساناً غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآناً عربياً وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة واليم واستبرق وجمع بعض المفسرين بين القولين بان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة وهو جمع حسن (نحن نقص عليك أحسن القصص) اي أحسن الاقتصاص لانه اقتص على أبدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة من قص الاثر اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً والمعنى انا نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان أو قصة يوسف عليه السلام خاصة وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على ايذاء الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان في سورة يوسف ومريم يتفكه فيهما أهل الجنة في الجنة وقال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها (بما) اي بسبب ما (أوحينا) اي بايحائنا (اليك) يا محمد (هذا القرآن) الذي قالوا فيه انه مفترى فنحن نتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يشك شاك ولا يمتري ممتر أنه من عند الله (وان كنت من قبله) اي ايحائنا اليك او هذا القرآن (لمن الغافلين) اي عن قصة يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحي وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة وان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى (اذ قال يوسف لابيه) بدل من أحسن القصص أو منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبري وقيل عربي ورد بانه لو كان عربياً لصرف وسئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف في اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله (يا أبت) أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء في الوقف ووقف الباقون بالتاء كالرسم وفي الوصل بالتاء للجميع وفتح التاء في الوصل ابن عامر وكسرها الباقون (اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر) قال أهل التفسير رأى يوسف عليه الصلاة والسلام في منامه وكان ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كأن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وفسروا الكواكب باخوته وكانوا أحد عشر

كرر التعذيب ... بالاولى تعذيبهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود وهي سموم أرسلها الله تعالى اليهم فقطعهم الله عضواً عضواً وبالثانية تعذيبهم من عذاب الآخرة الذي

تضائهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بأبيه وأمه بجعل الشمس للام لانها مؤنثة
والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيضاوي تبعا للكشاف عن جابر من ان يهوديا قال
للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فاخبره باسمائها فقال اليهودي
اي والله انها الاسماء أوّها قال ابن الجوزي انه موضوع وقوله (رأيتهم لي ساجدين) استئناف
لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرار لان الرؤية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب
والشمس والقمر والثانية تدل على انه شاهد كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني
رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون
يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل
على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا قال الرازي فذكر قولا مجملا غير مبين (فان قيل) قوله
رأيتهم وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة
المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات (أجيب) بأنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل
وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم
لا يبصرون وكما في قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم (فان قيل) لم أفرد الشمس
والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب (أجيب) بانه أفردهما لفضلهما وشرفهما على
سائر الكواكب كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وهل المراد بالسجود نفس
السجود حقيقة أو التواضع كلاهما محتمل والاصل في الكلام حمله على الحقيقة قال أهل
التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده اخوته لهذا
السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن أبويه واخوته
يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم (قال) له أبوه (يا بني) بصيغة التصغير الشفقة أو لصغر
سنه على ما تقدم وقرأ حفص في الوصل بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد للجميع
(لا تقصص رؤياك على اخوتك) أي لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تاويلها (فيكيدوا لك
كيدا) أي فيحتالوا في هلاكك (فان قيل) لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني (أجيب) بان
هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحتك ونصحت لك وشكرتك
وشكرت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون (ان الشيطان للانسان عدو مبين) أي ظاهر
العداوة كما فعل بآدم وحواء فلا يألو جهدا في تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على
الكيد وعن أبي قتادة قال كنت ارى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدث به الا من
يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان
الرجيم وشرها فانها لا تضره وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا
رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما
يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن أبي
رزين العقيلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزأ من النبوة
وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا احدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا

لعنة قوم هود بالكفر (قوله وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) قال هنا بذكر الدنيا وقال في قصة موسى بعد في هذه لعنة بحذفها اختصارا واكتفاء بما هنا (قوله وأخذ

نبيا أو حبيبا وانما أضيفت الرؤيا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله تعالى وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الشخص فى منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكرهه فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول عن جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال قال الحكماء ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضى أن لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام الا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصرى كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع عليه أبواه واخوته وخروا له ساجدين (وكذلك) اى وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس (يجتبيك) اى يختارك ويصطفيك (ربك) بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بفيض الهى يحصل منه أنواع الكرامات بلا سعى من العبد وذلك مخصوص بالانبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وقوله (ويعلمك) كلام مستأنف خارج عن التشبيه والتقدير وهو يعلمك (من) اى بعض (تأويل الاحاديث) من تأويل الرؤيا وغيرها من كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين وكان يوسف عليه السلام فى تعبير الرؤيا وغيرها غاية والتأويل ما تؤول اليه عاقبة الامر (ويتم نعمته عليك) بالنبوة قال ابن عباس لان منصب النبوة اى مع الرسالة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من تمام النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والاجلال فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى (وعلى آل يعقوب) اى أولاده وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر فلزم حصولها لآل يعقوب وأيضا ان يوسف عليه السلام قال انى رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضىء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لا شىء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضى أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا (فان قيل) كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام (أجيب) بان ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المعاصى انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه (كما أتمها على أبويك) بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح

الذين ظلموا الصيحة) قاله هنا فى قصة صالح بلا تاء وقاله بها بعد فى قصة شعيب وكل صحيح لكن اختص الثانى بها لان قوم شعيب وقع الاخبار عن عذابهم

عظيم على قول ان اسحق هو الذبيح (من قبل) أى من قبل هذا الزمان وقوله (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله (ان ربك عليم) أى بليغ العلم (حكيم) أى بليغ الحكمة وهى وضع الاشياء فى أتقن مواضعها (لقد كان فى) خبر (يوسف واخوته) وهم أحد عشر يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبلون قال البقاعى بزاى وباء موحدة ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفى والاخرى بلهم كذا قاله البغوى وقال الرازى والاخرى بلهة أربعة اولاد وأسماؤهم دان ونفتالى قال البقاعى بنون مفتوحة وفاء ساكنة ومثناة فوقية ولام بعدها ياء وجاد وأشر ثم توفيت ليا فتزوج باختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ (آيات) أى علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته فى كل شئ (للسائلين) عن قصصهم قال الرازى ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى فى أربعة أيام سواء للسائلين وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود سألوه عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى ارض مصر فذكرلهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما فى التوراة فعجبوا منه فكان دلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء واصحاب الاخبار ولم يأخذ عنهم شيأ فدل ذلك على أن ما يأتى به وحى سماوى أوحاه الله تعالى اليه وعرفه به وهذه السورة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها من حسد اخوانه وما آل اليه امره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التى اذا فكر فيها الانسان اعتبر وقرأ ابن كثير آية على التوحيد والباقون على الجمع (اذ) أى واذكر اذ (قالوا) أى بعض اخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤيا وقالوا ما يرضى أن تسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه (ليوسف واخوه) أى بنيامين (أحب الى ابينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وخبر المبتدأ أحب ووحد لان أفعل يستوى فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا اذا لم يعرف ولم يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا وأخوه وهم جميعا اخوته لان أمهما كانت واحدة والواو فى قولهم (ونحن عصبة) واو الحال أى يفضلهما فى المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ويستكفى بهم النوائب (ان أبانا لفى ضلال) أى خطأ (مبين) أى بين فى ايثاره حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضى للحب فى كلنا واحد لانا فى النبوة سواء والمزية تقتضى تفضيلنا وهى أنا عصبة لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس لهما * (تنبيه) * ههنا سؤالات * الاول ان من المعلوم أن تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك (أجيب) بانه انما فضلهما فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيها ولا يلحقه

بثلاثة ألفاظ مؤنثة فى الاعراف والعنكبوت فأخذتهم الرجفة وهنا الصيحة وفى الشعراء الظلة وقعت لهم الثلاثة فى ثلاثة أوقات (قوله فاسر باهلك بقطع

في ذلك لومه الثاني كيف اعترضوا على أبيهم وهم يعلمون أنه نبي وهم مؤمنون به وأجيب بأنهم وان كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا وغاب عنهم أن تخصيصهما بالبر كان لوجوه أحدها أن أمهما ماتت ثانيها أنه كان في يوسف من آثار الرشد والنجابة ما لم يجده في سائر أولاده ثالثها أنه وان كان صغيرا الا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر أولاده والحاصل أن هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر الثالث أنهم نسبوا أباهم الى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال في الدين * الرابع أن قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض حسد والحسد من أمهات الكبائر لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة منها قولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أي بعيدة يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه ومنها القاؤه في ذل العبودية ومنها أنهم أبقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف العظيم ومنها اقدامهم على الكذب وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة (أجيب) بما تقدم أن ذلك كان قبل النبوة وقرأ نافع وابن كثير وهشام والكسائي بضم التنوين من مبين في الوصل والباقون بالكسر فان وقف القارئ على مبين وامتحن في الابتداء يبتدئ بالضم للجميع وقولهم (يخل لكم وجه أبيكم) جواب الأمر أي يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد وقولهم (وتكونوا) مجزوم بالعطف على يخل لكم أو منصوب باضمار أن (من بعده) أي قتل يوسف أو طرحه (قوما صالحين) بأن تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم فانه يتوب عليكم وقال مقاتل يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه وهو الذي قال فلن أبرح الأرض وقيل روبيل وكان أكبرهم سنا (لا تقتلوا يوسف وألقوه) أي اطرحوه (في غيابت الجب) أي في أسفله وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر قال القائل

فان أنا يوما غيبتني غيابتي * فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها والجب البئر الكبيرة التي ليست مطوية سميت جبا لأنها قطعت قطعا ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبهه وانما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض أهل العلم انهم عزموا على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعين واختلف في موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس وقال وهب هو بأرض الأردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرأ نافع بألف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير ألف على التوحيد (يلتقطه) أي يأخذه (بعض السيارة) جمع سيار أي المبالغ في السير وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا أخذوه ذهبوا به الى ناحية أخرى فتستريحوا منه (ان كنتم فاعلين) أي ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما أجمعوا على التفريق بين

من الابل) الآية استثنى فيها الا امرأتك ولم يستثنها منه الى الخبر اكتفاء باستثنائها ثم قبله في قوله انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته (قوله ولا

يوسف وأبيه بضرب من الحيل (قالوا) اعمالا للحيلة فى الوصول اليه مستفهمين على وجه
التعجب لانه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف
و) الحال (انا له لناصحون) أى قائمون بمصلحته وحفظه * (تنبيه) واتفق القراء على اخفاء
النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا أيضا على ادغامها مع الاشمام (أرسله معنا
غدا) أى الى الصحراء (نرتع) أى نتسع فى أكل الفواكه ونحوها وأصل الرتع أكل البهائم فى
الخصب فى زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) روى أنه
قيل لابى عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون
المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال
لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه
المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه
فى صورته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين
أبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وكسرها الباقون فى الوصل ولقنبل وجه آخر
وهو انه يثبت الياء فى نرتع بعد العين وقفا ووصلا (وانا له لحافظون) أى بالغون فى الحفظ له
حتى نرده اليك سالما قال أبو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق
على اليوم الذى يلى يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد وأصل غد غدو فحذفت الواو
انتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله
(قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب لانه كان
لا يقدر أن يصبر عنه ساعة وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى
والثانى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به
وكان يعقوب عليه السلام رأى فى النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن أجل
هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العلة وفى أمثال العرب البلاء موكل بالمنطق والمراد به الجنس
وكانت أرضهم كثيرة الذئاب (قالوا) مجيبين عن الثانى بما يلين الاب لارساله مؤكدين
لتطييب خاطره دالين على القسم بلامه (لئن أكله الذئب ونحن) أى والحال انا (عصبة) أى
جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب وأجابوا عن القسم بما أغنى عن
جواب الشرط بقولهم (انا اذا) أى اذا كان هذا (لخاسرون) أى كاملون فى الخسارة لانا اذا
ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعا وأعرضوا عن جواب الاول لان حقدهم
وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه وأقله
أن يقولوا اما وجه الشح بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم وقرأ الذيب ورش والسوسى
والكسائى بابدال الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا والباقون بالهمزة وقفا ووصلا
وقوله تعالى (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا
أن يجعلوه فى غيابت الجب) أى وعزموا على القائه فيها ولا بد من تقدير جواب وهو فعلوه
فيها وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دالا عليه وهنا كذلك قال
وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له ما تشتاق أن تخرج معنا الى

تنقصوا المكيال والميزان) هذا النهى يتضمن الامر بالايفاء وصرح به بعد فى قوله ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط وهو يتضمن النهى عن النقص ففى ذلك تأكيد على الحث

مواشينا فتصيد ونستبق قال بلى قالوا فاسأل اباك أن يرسله معنا قال يوسف أفعل فدخلوا جميعا الى ابيهم وقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بني قال نعم يا أبت اني أرى من اخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي وكان يعقوب عليه الصلاة والسلام يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له فأرسله معهم فلما خرجوا به من عند ابيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض واظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به يضربه فلم يرحمه منهم احد فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لاحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وجعل يبكي بكاء شديدا فأخذه روبيل فجلد به الارض ثم جلس على صدره واراد قتله فقال له مهلا يا أخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله في وحل بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة ورقة فقال يهوذا يا اخوتاه ما على هذا عاهدتموني فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه فجاؤا به على بئر على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه في البئر فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا اخوتاه ردوا علي قميصي استتر به في الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخاصمك وتؤنسك فقال اني لم أر شيئا فألقوه فيها وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت في البئر فقام عليها يبكي وهو يظن أنها رحمة أدركتهم فناداهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقي فيها ثلاث ليال (وأوحينا اليه) في الجب في صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أو دونها كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام في صغرهما وفي القصص ان ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه ودفعه ابراهيم عليه السلام الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه اياها (لتنبئنهم) أي لتخبرنهم بعد هذا اليوم (بأمرهم) أي بصنعهم (هذا وهم لا يشعرون) اي انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيآت كما قال تعالى فعرفهم وهم له منكرون والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره روي انهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة عرفهم وهم له منكرون ودعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم أخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لابيكم أكله الذئب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وأنت في البئر بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة في اخفاء ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل ان المراد من هذا الوحي الالهام كما في قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله تعالى وأوحى ربك الى النحل (و) لما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذي فعلوه الا الاعتذار (جاؤا أباهم) دون يوسف (عشاء) في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم اذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤا

على الزجر عن البغي وعلى الحث على العدل وقدم النهي على الامر لان دفع المفاسد آكد من جلب المصالح (قوله يوم يأتي لا تكلم نفس الا باذنه) مقيد لقوله كل نفس تجادل عن

به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة في الليل فان الحياء في العينين ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتلجلج في الاعتذار (يبكون) والبكاء جريان الدمع من العين والآية تدل على أنه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع روى ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبي يا أبا أمية أما تراها تبكي فقال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان أن يقضي الا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال هل أصابكم في غنمكم شئ قالوا لا قال فما فعل يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف أو نصل أو حافر يعني بالنصل الرمي وقيل العدو لنتبين أينا أسرع عدوا (وتركنا يوسف) أخانا (عند متاعنا) أي ما كان معنا مما نحتاج اليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك (فأكله) أي تسبب عن انفرادنا أن أكله (الذئب وما) أي والحال انك ما (أنت بمؤمن) أي بمصدق لنا علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (لنا ولو كنا صادقين) في هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله تعالى (و) لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (جاؤا على قميصه) أي يوسف عليه السلام (بدم كذب) قال الفراء أي مكذوب فيه الا انه وصفه بالمصدر على تقدير ذي كذب أو مكذوب أطلق على المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك الدم قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم اذ يبعد ان يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الاتهام أقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحا علم كذبهم روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق قميصه *(تنبيه)* على قميصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحماله ولا يصح أن يكون حالا متقدمة لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك أنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على ابيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب وألقي على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سولت) أي زينت (لكم أنفسكم أمرا) ففعلتموه واختلف في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم الثاني كان عالما بأنه حي لانه عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث أنه لما رأى قميصه صحيحا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منهم الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله (فصبر جميل) مرفوع بالابتداء لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولى من الجزع ومنهم من أضمر المبتدا

نفسها أي باذنه ولا ينافي ذلك قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون لان في يوم القيامة مواقف ففي بعضها لا يؤذن لهم في الكلام فيكفون عنه

قال الخليل الذي أمري صبر جميل وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه ان يبث لم يصبر كما قال يعقوب انما أشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل من غير جزع وقال الثوري ان من الصبر ان لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وروى ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكوني فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فانزل الله تعالى في عذرها ما أنزل وقوله فصبر جميل يدل على ان الصبر على قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل ان يتكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل وأما الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا (فان قيل) الصبر على قضاء الله تعالى واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته بحسب الضرر العائد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ في البحث مع شدة رغبته في حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه (اجيب) بانه يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحي تشديدا للمحنة عليه زيادة في اجره أو أنه لو بالغ في البحث لرعا اقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والتفحص ورأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال (والله المستعان) اي المطلوب منه العون (على ما تصفون) أي تذكرون من امر يوسف والمعنى ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر فكأن المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجري مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجري مجرى قوله واياك نستعين ❊ ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون في الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على ارض فيها جب يوسف وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران اي لم يكن الا للرعاة روى ان ماءه كان ملحا فعذب حين القي يوسف فيه فلما نزلوا ارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر لطلب الماء فذلك قوله تعالى (فأرسلوا واردهم) اي الذي يريد الماء ليستقي منه والوارد هو الذي يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء (فأدلى) اي أرسل (دلوه) في البئر يقال أدليت الدلو اذا ارسلتها في البئر ودلوتها اذا اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما أرسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام احسن ما يكون قال صلى

وفي بعضها يؤذن لهم فيه فيتكلمون (قوله فمنهم شقي وسعيد) ان قلت من للتبعيض ومعلوم ان الناس كلهم اما شقي أو سعيد فما معنى التبعيض (قلت) لان أهل التبعيض صحيح

الله عليه وسلم أعطي يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد أعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق ذهب يوسف وامه بثلثي الحسن وحكى الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه لا يستطيع احد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره قبل ان يصيب الخطيئة فلما رآه مالك بن ذعر (قال يا بشراي هذا غلام) نادى البشرى بشارة لنفسه كأنه قال تعالى فهذا أوانك وعن الاعمش انه قال دعا امرأة اسمها بشرى فقال يا بشرى وعن السدي أن المدلي نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما قرأ حمزة وعاصم والكسائي فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك وروي ان جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها واختلف في ضمير (وأسروه بضاعة) الى من يعود وفيه قولان الاول انه عائد الى الوارد واصحابه أخفوا من الرفقة انهم وجدوه بالجب وذلك أنهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب ان نقول ان اهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر والثاني ونقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه يعني اخوة يوسف أسروا شأنه وذلك انيهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فلم يجده في البئر فاخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر واصحابه نزول فأتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا أبق منا وتابعهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازي والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم أسروه حال ما حكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف *(تنبيه)* البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه قال وأسروه حال ما جعلوه بضاعة* ولما جعل تعالى هذا البلاء سببا لوصوله الى مصر ثم صارت وقائعه الى ان صار ملكا بمصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى (والله عليم) أي بالغ العلم (بما يعملون) اي لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف وأبيهم (وشروه) اي باعوه اذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وانما حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في شروه وفي كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن ذعر وصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحق ربك اعلم أاخوته باعوه ام السيارة واختلفوا في معنى قوله تعالى (بثمن بخس) فقال الضحاك اي حرام لان ثمن الحر حرام وسمي الحرام بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود اي زيوف وقال عكرمة اي بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى (دراهم معدودة) لانهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من اربعين درهما انما كانوا يأخذون ما دونها عدا فاذا بلغتها وهي اوقية

القيامة الا ثلاثة اقسام قسم شقي وهم اهل النار وقسم سعيد وهم اهل الجنة وقسم لا شقي ولا سعيد وهم اهل الاعراف وان كان مصيرهم الى الجنة كما قال البارزي وغيره

وزنوها واختلفوا فى عدة تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم يأخذ أخوه بنيامين شقيقه منها شيأ وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة أربعين درهما (وكانوا) اى اخوته (فيه) اى يوسف (من الزاهدين) لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا فى الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه وقيل الضمير فى كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل فى بيعه لاجرم باعوه باوكس الاثمان روى فى الاخبار ان مالك بن ذعر انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه آبق فذهبوا به حتى اتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى ايامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) واسمها زليخا وقيل راعيل (أكرمى مثواه) قال الرازى اعلم ان شيأ من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت ايضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فالاليق بالعاقل ان يحترز من ذكرها انتهى ولكن البغوى ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام فى امرأته متعلقة بقال لا باشتراه والمثوى موضع الاقامة اى اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما اى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف انه ربى احسن مثواى والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة فى كنفنا قال المحققون امر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما امرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال (عسى أن ينفعنا) اى يقوم باصلاح مهماتنا أو نبيعه بالربح ان اردنا بيعه (أو نتخذه ولدا) اى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى ان ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لابيها فى موسى استأجره وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه (وكذلك) اى وكما

(قوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض) ان قلت كيف قال ذلك مع أن السموات والارض تفنيان وذلك ينافى الخلود الدائم (قلت) هذا خرج مخرج الالفاظ التى تعبر العرب بها

نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز (مكنا ليوسف في الارض) اى أرض مصر
قال البقاعي التي هي كالارض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها لنمكنه من الحكم بالعدل
والنبوة وقوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) اى تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق
بمكنا اى لنمكنه أو الواو زائدة (والله غالب على أمره) اى الامر الذي يريده لانه تعالى فعال لما
يريد ولا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في ارضه وسمائه أو على امر يوسف اراد اخوته
قتله فغلب امره عليهم وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه فغلب امره وظهر
اسمه واشتهر ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب الله امره حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ثم أرادوا
أن يضروا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب امره تعالى فاظهره على مكرهم
واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب امره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل
هرب منه غاية الهرب ثم بذلت جهدها في اذلاله والقائه الشر سعة عليه فابى الله تعالى الا اعزازه
وبراءته ثم اراد يوسف عليه السلام ذكر الساقي له فغلب امره تعالى فانساه ذكره حتى مضى
الاجل الذي ضربه الله تعالى له وكم من امر كان في هذه القصة وفي غيرها رشد الى أنه لا امر
لغيره (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) أن الامر كله بيد الله تعالى أو أن أكثر
الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تأمل في الدنيا وعجائب احوالها عرف
وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب * ولما بين تعالى ان اخوته أساؤا اليه وصبر
على تلك الشدائد والمحن ومكنه في الارض أتبعه الامر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى (ولما
بلغ أشده) اى منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه في
شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ فلان اشده وبلغوا اشدهم
وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدي بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال
الكلبي الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان
الانسان يحدث في اول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى ان ينتهي الى غاية الكمال ثم يأخذ
في التراجع الى ان ينتهي الى العدم والمحاق كالقمر (آتيناه حكما) اى حكمة وهو العلم المؤيد
بالعمل او حكما بين الناس (وعلما) اى علم تأويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة
والرسالة وتقدم أن قوله تعالى وأوحينا اليه وحي حقيقة قال الرازي فلا يبعد ان يقال ان ذلك
الوحي اليه في ذلك الوقت لا لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن
صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام (وكذلك) اى ومثل ذلك الجزاء
الذي جزيناه به (نجزي المحسنين) قال ابن عباس يعني المؤمنين وعنه ايضا يعني المهتدين
وقال الضحاك يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام وعن الحسن من
أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله * ولما اخبر تعالى ان سبب النعمة
عليه احسانه اتبعه دليله فقال تعالى (وراودته التي هو في بيتها) اى امرأة العزيز راودت
يوسف (عن نفسه) لانها لما رأته في غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان
عاجزا والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت

عن ارادة الدوام دون
التأقيت كقولهم لا افعل
هذا ما اختلف الليل
والنهار وما دامت السموات
والارض تريد لا افعله
ابدا وانهم خوطبوا على

ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد ان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) اى أطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الايثاق لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في ستر وخفية لا سيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد (وقالت) له (هيت) اى تهيأت وتصنعت (لك) خاصة فاقبل الى وامتثل أمرى قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة وقرأ نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرأ هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح (قال) لها يوسف عليه السلام (معاذ الله) اى أعوذ بالله واعتصم به وألجأ اليه مما تدعيني اليه (انه) أى الذي اشترانى (ربى) اى سيدى (أحسن مثواى) اى اكرم منزلى ولا اخونه في أهله وقيل انه اى الله ربى احسن مثواى اى آوانى ومن بلاء الجب أنجانى (انه لا يفلح الظالمون) اى ان فعلت هذا الفعل فانا ظالم ولا يفلح الظالمون (ولقد همت به وهم بها) اى قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشيء قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي اذا هم بشيء امضاه والمراد بهمته ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض أهل الحق الهم همان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل كما روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اذا تحدث عبدى بان يعمل حسنة فانا أكتبها حسنة ما لم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بعشرة امثالها واذا تحدث بان يعمل سيئة فانا اغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بمثلها قال في الكشاف ويجوز ان يريد بقوله وهم بها شارف ان يهم بها كما يقول الرجل قتلته لو لم اخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كانه شرع فيه (لولا ان رأى) اى بعين قلبه (برهان ربه) اى الذي آتاه اياه من الحكم والعلم أى لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا له بحضور من يراه بالعين فلم يهم اصلا مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه في سن الشباب فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الدواعى غير أن نور الشهود محاها أصلا وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع انه الذى تدل عليه اساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وان السجن احب اليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما قضيته قولها ما جزاء من اراد باهلك سوأ الآية من مطلق الارادة ومع ما يحتم من تقدير ما ذكر بعد لولا في خصوص هذا التركيب من اساليب كلام العرب فانه يجب ان يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها أى لابدت به وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم همه بها بانه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهي مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بانه سمع

معتقدهم ان السموات والارض لا تفنيان اوان المراد سموات الآخرة وأرضها قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وتلك دائمة لا تفنى (قال قاله)

صونا ايانك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعمل به فسمعه ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل كل ولد يعقوب ولد له اثناعشر ولدا الا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي قبل أن يدرك الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة الى صنم كان هناك فسترته وقالت أستحي أن يرانا فقال يوسف استحيت مما لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع العليم بذات الصدور فلم يصح منه شئ عن أحد منهم مع أن هذه الاقوال التي وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت قال الزمخشري وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وأنبيائه فأخزى الله أولئك في ايرادهم ما يؤدي الى أن يكون انزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء الله تعالى فيما ذكروه وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل وأطال في رد ذلك وكذا فعل الرازي وقيل وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي غمه امتناعه منها وقيل هم بها أي نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم مازال النساء يملن الى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى نبأه الله تعالى فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه (كذلك) أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه في كل أمر (لنصرف عنه السوء) أي الهم بالزنا وغيره (والفحشاء) أي الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هي الزنا فكأنه قيل لم فعل به هذا فقيل (انه من عبادنا) أي الذين عظمناهم (المخلصين) أي في عبادتنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم غش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازي فوروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا القطين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين شهادة من ابليس أن يوسف عليه السلام بريء من الهم فمن نسبه الى الهم ان كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من أتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته قال ولعلهم يقولون كنا في أول الامر تلامذة ابليس الا أنا زدنا وبجرنا عليه في السفاهة كما قال الجزوري

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بي الامر حتى صار ابليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغة في الامتناع بالجد في الهرب دليلا على اخلاصه وأنه لم يهم أصلا

اذا كان المراد بما ذكر الخلود الدائم فما معنى الاستثناء في قوله الا ما شاء ربك (قلت) هو استثناء من الخلود في عذاب اهل النار ومن الخلود في نعيم اهل الجنة لان أهل النار

فقال (واستبقا الباب) أى أوجدا المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا الهرب منها وهذه لاتباعه فبذل كل منهما ما بذل أقصى جهده فى السبق فلحقته عند الباب الاقصى مع أنه قد كان سبقها بقوة رجوليته وقوة الداعية الى الفرار الى الله تعالى ولكن عاقه اتقانها المكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فواته فاشتدت تعلقها به مع اعراضه هو عنها وهربه منها لقصده وإرادة الخروج فتبعته (و) لم تزل تنازعه حتى (قدت) أى شقت (قميصه) وكان القد (من دبر) أى الناحية من الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت فى يدها (وألفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها قطفير وهو العزيز تقول المرأة لبعلها سيدى ولم يقل سيدهما لأن ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداله على الحقيقة (لدى) أى عند (الباب) جالسا مع ابن عم المرأة (فان قيل) كيف وحد الباب وقد جمعه فى قوله وغلقت الابواب (أجيب) بانه أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار فقد روى كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رأت المرأة ابن عمها ابنه وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و(قالت) لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) أى فاحشة زنا أو غيره ثم خافت عليه أن يقتل وذلك اشدة حبها له فقالت (الا أن يسجن) أى يحبس فى السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) أى مؤلم بأن يضرب بالسياط ونحوها وانما بدأت بالسجن قبل العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها (قال) مبرئا نفسه (هى) بضمير الغيبة لاستحيائه بمواجهتها باشارة أو ضمير خطاب (راودتنى عن نفسى) أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمرى فيما قال لا يحتاج الى بيان اكثر من الحال الذى كان فيه وهو أتم ما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان الا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه وأيضا هو عبد لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحال وأيضا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء من الريب وأن المرأة هى المذنبة وهو قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها) أى وحكم حاكم من اهل المرأة واختلفوا فى هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال تكلم فى المهد أربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى ابن مريم وصاحب جريج الراهب رواه الامام أحمد وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبى كان يرضع أمه فمر راكب حسن

لا يخلدون فى عذابهم وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع أخر من العذاب وما هو أشد من ذلك وهو سخط الله عليهم وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده بل ينعمون بالرضوان

الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله وبهذا الاعتبار صار واخمسة وزاد الثعلبي سادسا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك واهل الحصر فيما ذكر في الحديث كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وأوصلهم السيوطي الى أحد عشر ونظمهم فقال

تكلم في المهد النبي محمد * ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف * وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التي * يقال لها تزني ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون طفلها * وفي زمن الهادي المبارك يختم

وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انما كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه ولكن (ان كان قميصه قد من قبل) أي من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) أي من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) لانه لولا ادباره منها واقبالها عليه لما وقع ذلك فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى (فلما رأى) أي سيدها (قميصه) أي يوسف عليه السلام (قد من دبر قال) لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكدا لاجل انكارها (انه) أي هذا القذف له (من كيدكن) معشر النساء والكيد طلب الانسان بما يكره (ان كيدكن عظيم) والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا أو معنى (فان قيل) كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أقوى من مكر النساء (أجيب) بأن الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو أعظم منه كخلق السموات والارض وبأن كيدهن أدق من كيد الرجال وألطف وأخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن أقدر ومكرهن في هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب ولان كيدهن في هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال * ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال (يوسف) أي يا يوسف (أعرض) أي انصرف بكليتك متجاوزا (عن هذا) الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم التفت الى المرأة وقال لها (واستغفري لذنبك) أي توبي الى الله تعالى مما رميتي يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها (انك كنت من الخاطئين) أي الآثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل المذكور هو الشاهد (فان قيل) كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير (أجيب) بأنه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث أو أن المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك * ثم شاع الخبر واشتهر (وقال نسوة) أي وقال جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث وقوله (في المدينة) أي مدينة مصر ظرف أي أشعن الحكاية في مصر او صفة نسوة وقيل مدينة عين شمس (امرأت العزيز) وانما

والنظر الى وجهه الكريم وغير ذلك كما دل عليه عطاء غير مجذوذ أو والا بمعنى غير أي خالدين فيها ما دامت السموات والارض غير ما شاء الله من الزيادة عليهما الى ما لا نهاية لها أو والا بمعنى

أضافوها الى زوجها العادة لاشاعة الخبر لان النفس الى سماع أخبار أولى الاخطار أميل ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأما الوصل فهو بالتاء للجميع (تراود فتاها) أى عبدها الكنعانى يقال فتاى وفتاتى أى عبدى وجاريتى (عن نفسه) أى تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها وحبا نصب على التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة

وقد حال هم دون ذلك والج * مكان الشغاف تبتغيه الاصابع

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين والباقون بالادغام (انا لنراها) أى نعلم أمرها علما هو كالرؤية (فى ضلال) أى خطإ (مبين) أى بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه (فلما سمعت) زليخا (بمكرهن) أى قولهن وانما سمى ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن لتمهد عذرها عندهن الثانى ان زليخا أسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن فى غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (أرسلت اليهن) تدعوهن لتقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن الخمس (وأعتدت) أى أعدت (لهن متكأ) أى طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمى الطعام متكأ لانه يتكأ عنده قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا * وشربنا الحلال من قلله

والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث أن يأكل الرجل متكئا وقال صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل انها زينت البيت بألوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف عليه السلام (وآتت) أى أعطت (كل واحدة منهن سكينا) أى لتأكل بها وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت) زليخا ليوسف عليه السلام (اخرج عليهن) أى النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر التاء فى الوصل والباقون بالضم وأما الابتداء فجميع القراء يبتدئون الهمزة بالضم (فلما رأينه) أى النسوة (أكبرنه) أى أعظمنه ودهشن عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بجعيتين الجمال الفائق والحسن الكامل وكان يوسف قد أعطى شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت يوسف ليلة أسرى بى الى السماء كالقمر ليلة البدر ذكره البغوى بغير سند وقال ابن اسحق كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال انه ورث حسن آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل أن

الواو كقوله انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم (قوله وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) قال هنا بصيغة ليهلك لانه لما ذكر قوله تعالى نفى الظلم عن نفسه بالغ لانه يستعمل

يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرنه بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

وقيل أمنين قال الكميت

ولما رأته الخيل من رأس شاهق * صهلن وأمنين المنى المدفقا

وقال الرازى انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن (وقطعن أيديهن) أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب مات جماعة منهن (وقلن حاش لله) أى تنزيها له الرسم بغير ألف بعد الشين وقرأ أبو عمرو فى الوصل دون الوقف بألف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا ووصلا (ما هذا) أى يوسف عليه السلام (بشرا) واعمال ما عمل ليس هى اللغة القدمى الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى ما هن أمهاتهم (ان) أى ما (هذا الا ملك كريم) أى على الله لما حواه من الحسن الذى لا يكون عادة فى النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة (قالت) أى زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته (فذلكن) أى فهذا هو (الذى لمتننى فيه) اى فى محبته قبل ان تتصورنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتننى ثم انها صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) اى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن قد اصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) اى وان لم يطاوعنى فيما ادعوه اليه (ليسجنن) اى ليعاقبن بالحبس (وليكونا من الصاغرين) اى الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت اليه فلذلك (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان الاول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة (فان قيل) ان الدعاء كان منها فلم اضافه اليهن جميعا (اجيب) بأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى انفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن احب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الله الصبر بقوله سألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذى (والا) اى وان لم (تصرف عنى كيدهن) اى فيما اردن منى بالتثبيت على العصمة (اصب) اى امل (اليهن) يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (واكن) اى أصر (من الجاهلين) أى من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة والقصد بذلك الدعاء ولذلك قال تعالى (فاستجاب له ربه) اى فاجاب الله

فى النفى لان الاثم فيه لام الجحود والمضارع بعد الاستقرار فهنا ما نفت الظلم فيما مضى ولا انه فى الحال ولا فى المستقبل فكان غاية فى النفى وقاله فى القصص بدون ذكر ظلم

تعالى دعاءه الذى تضمنه هذا الثناء لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل

اذا اثنى عليك المرء يوما * كفاه من تعرضه الثناء

(فصرف عنه كيدهن) اى ثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان (انه هو السميع) اى لدعاء الملتجئين اليه (العليم) اى للضمائر والنيات فيجيب ما صح فيها القصد وطاب منه العزم (ثم بدا) اى ظهر (لهم) اى العزيز واصحابه (من بعد ما رأوا الآيات) اى الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء ايديهن واستعصامه عنهن (ليسجننه حتى) اى الى (حين) ينقطع فيه كلام الناس وذلك أن المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا اقدر على اظهار عذرى فاما ان تاذن لى فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز أن الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه * (تنبيه) * فى فاعل بدا اربعة اوجه احسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين اى ظهر لهم حبسه والثانى ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اى بدا لهم بداء والثالث انه مضمر يدل عليه السياق اى بدا لهم رأى والرابع انه محذوف وليسجننه قائم مقامه اى بدا لهم السجن فحذف واقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجملة لا تكون كذلك وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة وقال الرازى والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم أنه بقى مسجونا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد امة وعن عكرمة قال قال رجل ذو راى للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم امره فاتركه فى بيت لا يخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا الملك فامر به فسجن (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر احدهما خبازه صاحب طعامه والآخر ساقيه صاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه أن جماعة من أشراف مصر ارادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك فى طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز ولا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى فنتراءى له رؤيا قال ابن مسعود ومارأيا شيأ وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما فقال يوسف قصا على مارأيتما (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) * فان قيل كيف يعقل عصر الخمر (أجيب) عن ذلك بثلاثة أقوال أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثانى ان العرب تسمى الشئ باسم مايؤل اليه تقول فلان يطبخ دبسا

فاكتفى بذكر اسم الفاعل المفيد للحال فقط وان كان يستعمل فى الماضى والمستقبل مجازا (قوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) ان قلت ما الجمع فيه

وهو يطبخ عصيرا الثالث قال أبو صالح أزد عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الطعام وسباع الطير تنهش منه (نبئنا) أى أخبرنا (بتاويله) أى بتفسيره (انا نراك من المحسنين) أى فى علم التفسير لانه متى عبر لم يخطئ كما قال وعلمتنى من تاويل الاحاديث وقيل فى أمر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل فى حق الشركاء والاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم واذا ضاق على أحدهم وسع عليه واذا احتاج أحدهم جمع له شيأ قيل انه لما دخل السجن وجد قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول اصبروا وأبشروا وانؤجروا فقالوا بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى قال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فكن فى اى بيوت السجن شئت وروى ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا لقد احببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف انشدكما الله ان لاتحباني فوالله ما احبنى احد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على بلاء ثم احبنى ابى فالقيت فى الجب واحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبرلهما ما سألاه لما علم فى ذلك من المكروه على احدهما (قال) معرضا عن سؤالهما آخذا فى غيره من اظهار المعجزة فى الدعاء الى التوحيد (لايأتيكما طعام ترزقانه) اى فى منامكما (الا نبأتكما بتاويله) اى فى اليقظة (قبل ان يأتيكما) تاويله وقيل اراد به فى اليقظة يقول لايأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا نبأتكما بتاويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما قبل أن يصل وأى طعام اكلتم ومتى اكلتم وهذه كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن (ذلكما) اى هذا التاويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وفى ذلك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله (انى تركت ملة) اى دين (قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة انكارهم للمعاد ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت النبوة بقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) ليسمعوا قوله ويطيعوا امره فيما يدعوهم اليه من التوحيد فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكمال درجة ابراهيم واسحق ويعقوب أمر مشهور فى الدنيا فاذا أظهر أنه من أبنائهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثرقلوبهم بكلامه أكمل (فان قيل) انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة آبائى والنبى لابد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه (أجيب) بان مراده التوحيد الذى لايتغير ولعله كان رسولا من عند الله

ويبين قوله ورسلا قد قصصناهم عليه من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك (قلت) معناه ...كل نبى نقصه عليك من أنباء الرسل هو مانثبت به فؤادك فانى موضع رفع

تعالى الا انه كان نبيا على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون
ياء آبائي والباقون بالفتح (ما كان) اى ما صح (لنا) معشر الانبياء (أن نشرك بالله من شيء) لان
الله تعالى طهرنا وطهر آباءنا عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله ان يتخذ من ولد وانما قال
من شيء لان اصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد
الكواكب ومنهم من يعبد الملائكة فقوله من شيء رد على هؤلاء الطوائف وارشاد الى الدين
الحق وهو انه لا موجد ولا خالق ولا رازق الا الله (ذلك) اى التوحيد (من فضل الله علينا)
بالوحي (وعلى الناس) اى سائرهم ببعثنا لارشادهم وتنبيههم عليه (ولكن اكثر الناس) اى
المبعوث اليهم (لا يشكرون) هذه النعمة التي انعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا
غيره ثم دعاهم الى الايمان فقال (يا صاحبي السجن) اى يا صاحبيّ في السجن فاضافهما الى
السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما ان الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن
مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام او يا ساكني السجن كما
قيل لسكان الجنة اصحاب الجنة ولسكان النار اصحاب النار (أأرباب) اى آلهة (متفرقون)
اى متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك
(خير) اى اعظم في صفة المدح واولى بالطاعة (أم الله الواحد القهار) اى المتوحد بالالوهية
الذي لا يغالب ولا يشارك في الربوبية غيره خير والاستفهام للتقرير وفي الهمزتين في أأرباب
من القراآت ما في أأنذرتهم وقد مر (فان قيل) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى
حتى يقال انها خير ام الله (اجيب) بان ذلك خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا انه حصل
منها ما يوجب الخير فهي خير ام الله الواحد القهار ثم بين عجز الاصنام فقال (ما تعبدون) وانما
خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة لانه أراد جميع من في السجن من المشركين
والعبادة خضوع القلب في اعلى مراتب الخضوع وبين حقارة معبوداتهم وسفالتها بقوله
(من دونه) اى الله الذي قام البرهان على الهيته وعلى اختصاصه بذلك (الا اسماء) وبين ما يريد
واوضحه بقوله (سميتموها) اى ذوات اوجدتم لها اسماء (انتم) سميتموها آلهة وارباباً وهي
حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها (وآباؤكم) من قبلكم سموها كذلك (ما انزل الله بها)
اى بعبادتها (من سلطان) اى حجة وبرهان (ان الحكم) أى ما الحكم (الا لله) أى المختص
بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة (أمر) وهو النافذ الامر المطاع
الحكم (ألا تعبدوا الا اياه) لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التي سميتموها آلهة * ولما
أقام الدليل على هذا الوجه الذي كان جديرا بالاشارة الى فضله اشار اليه بأداة البعد تنبيها على
علو مقامه وعظيم شانه فقال (ذلك) أى الشان الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه (الدين
القيم) اى المستقيم الذي لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون)
ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون * ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة
عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكراه فقال (يا صاحبي السجن) اى الذي يحصل فيه
الانكسار للنفس والرقة في القلب فتخلص فيه المودة ولما كان في الجواب ما يسوء الخباز

خبر مبتدا محذوف ولا
يقتضي الانتفاء أنباء
(قوله جميع الرسل)
وجاءك في هذه الحق) اى
هذه الانباء او الآيات او
السورة خصها بالذكر
تشريفا لها وان كان قد
جاءه الحق في جميع السور

أبهم ليجوز كل منهما أنه الفائز فان ألجاه الى التعيين كان ذلك عذراً له فى الخروج عن اللائق فقال (أما أحدكما) وهو صاحب شراب الملك (فيسقى ربه) أى سيده (خمراً) على عادته والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك فيرده الى رتبته التى كان عليها هذا تأويل رؤياه (وأما الآخر) وهو صاحب طعام الملك (فيصلب) والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) هذا تأويل رؤياه قال ابن مسعود فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيئاً انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام (قضى) أى تم (الأمر الذى فيه تستفتيان) أى تطلبان الافتاء فيه عملا الفتوة فسألتما عن تأويله وهو تعبير رؤيا كما كذبتما أو صدقتما لم أقله عن جهل ولا غلط (وقال) يوسف عليه السلام (للذى ظن) أى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحى لقوله قضى الامر ويجوز أن يكون ضمير ظن للساقى فهو حينئذ على بابه (أنه ناج منهما) وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) أى سيدك ملك مصر بما رأيت منى من معالى الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدى عما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به فى قوله أأرباب متفرقون فنجا الساقى وصلب صاحبه ووفى ما قال لهما يوسف عليه السلام واختلف فى ضمير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) على قولين أحدهما أنه يعود الى الساقى وهو قول جماعة من المفسرين أى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف والقول الثانى وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع الى يوسف عليه السلام وقال الرازى انه الحق أى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى رفع الظلم جائزة فى الشريعة الا أن حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزاً لعامة الخلق الا أن الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بسبب الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى فى تلك القصة البتة بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه (فان قيل) كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه (أجيب) بان ذلك انما كان شغل خاطر وأما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف فى قدر البضع فى قوله تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوى وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا بلاء فزعنا الى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقال

كقوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى والتعريف فى الحق اما للجنس أو للعهد والمراد به البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة وانما عرفه ونكر تاليه تفخيما له لكونه

الحسن أيضاً دخل جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر يا ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحييت مني واستشفعت بالآدميين فوعزتي لألبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال اذاً لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله تعالى قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن أنجاك من كرب البئر قال الله تعالى قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استشفعت بآدمي مثلك قال محمد بن عمر الرازي في تفسيره والذي جربته من أول عمري الى آخره ان الانسان كلما عول في أمر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سبباً للبلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري الى هذا الوقت الذي بلغت الى السابع والخمسين فعند ذلك استقر قلبي على انه لا مصلحة للانسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى واحسانه * ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته كما قال تعالى (وقال الملك اني أرى) اي رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة ما هاله من ذلك (سبع بقرات سمان) اي خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم وسمان جمع سمينة ويجمع سمين أيضاً عليه يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام (يأكلهن) اي يبتلعهن (سبع) اي من البقر (عجاف) جمع عجفاء اي مهازيل خرجن من ذلك النهر *(تنبيه)* جمع عجفاء على عجاف والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملاً على سمان لانه نقيضه ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض (و) اني ارى (سبع سنبلات خضر) اي قد انعقد حبها (و) اني أرى سبع سنبلات (أخر يابسات) اي قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات والسنبلة نبات كالقصبة فيها جملة حبوب منتظمة فكأنه قيل فكان ماذا فقيل قال الملك بعد ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين (يا أيها الملأ) اي الاشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم (أفتوني في رؤياي) اي أخبروني بتأويلها (ان كنتم للرؤيا تعبرون) اي ان كنتم عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها *(تنبيه)* اللام في الرؤيا مزيدة فلا تعلق لها بشيء وزيدت لتقدم المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعاً كقوله تعالى فعال لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذلك الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا وقيل متعلقة بمحذوف على انها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين تقديره أعني فيه وكذلك هذا تقديره أعني للرؤيا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوفاً تقديره تعبرونها وفي الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكأنه قيل لنا قالوا فقيل (قالوا) هذه الرؤيا (أضغاث) اي اخلاط (أحلام) مختلطة مختلفة مشتبهة جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهي قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم بضم الحاء واسكان اللام وضمها وهو الرؤيا فقيدوها بالاضغاث وهو ما يكون من الرؤيا باطلاً لكونه من

حديث

يطلق على الله تعالى بخلاف تأليه

(قوله فانهم لي ساجدين) ذكر الرؤية ثانياً جواباً لسؤال مقدر من يعقوب

حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها تشبه اخلاط الضغث التى لا تناسب بينها لان الرؤيا تارة تكون من الملك وهى الصحيحة وتارة تكون من تخييل الشيطان وتخليطاته وتارة من حديث النفس ثم قالوا (وما نحن) اى بأجمعنا (بتأويل الاحلام) اى المنامات الباطلة (بعالمين) اى ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر * ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف عليه السلام لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم كما قال تعالى (وقال الذى نجا) اى خلص (منهما) اى من صاحبى السجن وهو الشرابى ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى كل ما ذكر وما أخطأ فى حرف فكانت هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام ولم يتذكر الشرابى الا بعد طول المدة كما قال تعالى (وادكر) بالدال المهملة اى طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل (بعد أمة) اى وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة اى مدة طويلة والجملة اعتراض ومقول القول (أنا أنبئكم بتأويله فارسلون) اى الى يوسف عليه السلام فانه أعلم الناس فارسلوه اليه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فأتاه فقال الساقى المرسل اليه مناديا له نداء القرب تحببا اليه (يوسف) وزاد فى التحبب بقوله (أيها الصديق) اى البليغ فى الصدق والتصديق لانه جرب أحواله وعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيأ فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك فقال (أفتنا) اى اذكر لنا الحكم (فى سبع بقرات سمان) اى رآهن الملك (يأكلهن سبع) من البقر (عجاف و) فى (سبع سنبلات) جمع سنبلة وهى مجمع الحب من الزرع (خضر و) فى سبع (أخر) من السنابل (يابسات) أى فى رؤيا ذلك ونعم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ فان تفسير الرؤيا قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور فى ذلك العلم ثم قال (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك وجماعته بفتوى قبل مانع يمنعنى (لعلهم يعلمون) أى بتأويل هذه الرؤيا وقيل بمنزلتك فى العلم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (قال) يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله (تزرعون سبع سنين) وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذروه فى سنبله وقوله (دأبا) نصب على الحال أى دائبين أى سبع سنين متتابعة على عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر وقرأ حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون وأبدلها السوسى ألفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط (فما حصدتم فذروه) أى اتركوه (فى سنبله) لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) أى ادرسوا

عليه السلام كأنه قال ليوسف بعد قوله رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر كيف رأيتها فلا عن حال رؤيتها فقال مجيبا لها رأيتهم لى ساجدين وقيل ذكره توكيدا وجمع

فليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة أمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال (ثم يأتي من بعد ذلك) أي السبع المخصبات (سبع شداد) أي مجدبات صعاب وهي تأويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) أي يأكل أهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند الاكل اليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر والمعبر به وهو يأكلهن سبع عجاف وهو يأكل ما قدمتم لهن (الا قليلا مما تحصنون) أي تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتي من بعد ذلك) أي السبع المجدبات (عام فيه يغاث الناس) أي يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت فاغاثني (وفيه يعصرون) من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا وأراد بذلك كثرة النعم والخير وقال أبو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ردا الى الناس * ولما رجع الشرابي الى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه (وقال الملك) أي الذي العزيز في خدمته (ائتوني به) لاسمع ذلك منه وأكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فأتاه الرسول ليأتي به الى الملك (فلما جاءه) أي يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان (الرسول) بذلك وهو الساقي وقال له أجب الملك (قال) له يوسف عليه السلام (ارجع الى ربك) أي سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى المسئلة أي اسأله عن شأنهن وأن يكون بمعنى الطلب وهو أن يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التي يسئل بها عن حقيقة الشئ ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشئ ويستنكف أن ينسب الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله أن يفتش أي اطلب منه فانه لا يبالي بهذا الطلب ولا يلتفت اليه لاسيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما ومراعاة للادب وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج في الحال لربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثر فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوصل بها الى الطعن فيه وفي ذلك دليل على أنه ينبغي للشخص أن يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث في الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لانه صلى الله عليه وسلم كان في الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذي حق

الكواكب في قوله رأيتهم لي ساجدين جمع العقلاء لوصفها بما هو من صفات العقلاء وهو السجود كقوله قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان

حقه لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى ورضى الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامى وقوله ان كان حليما هى المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التأنى فى الامور وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ان ربى) أى الله (بكيدهن عليم) حين قلن أطع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وأنه برىء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربى الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربياله وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فأخبره بما قال عليه السلام فكأنه قيل فما فعل الملك فقيل (قال) للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة العزيز معهن (ما خطبكن) أى ما شأنكن العظيم وقوله (اذ راودتن) أى خادعتن (يوسف عن نفسه) دليل على أن براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكأنه قيل فما قلن قيل (قلن حاش لله) أى عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر (ما علمنا عليه) أى يوسف عليه السلام وأعرقن فى النفى فقلن (من سوء) أى من خيانة فى شىء من الاشياء ولما أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة وعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عنها أرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء فلذلك (قالت امرأت العزيز) مصرحة بحقيقة الحال (الآن حصحص الحق) أى ظهر وتبين (أنا راودته) أى خادعته (عن نفسه) وأكدت ما أفصحت به مدحا ونفيا لكل سوء به ولها مؤكدا لاجل ما تقدم (وانه لمن الصادقين) أى العريقين فى هذا الوصف فى نسبة المراودة الى وتبرئة نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما ينسب به الى شىء من السوء البتة فمن نسب بعد ذلك همّا أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى فى نبى من المخلصين قال الرازى رأيت فى بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضى وادعت عليه المهر فأمر القاضى بان تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فانى مقر بصداقها فى دعواها فقالت المرأة لما أكرمتنى الى هذا الحد فاشهدوا انى ابرأت ذمتك من كل حق لى عليك ٭ ولما رجع الرسول الى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال (ذلك) أى الخلق العظيم فى تثبتى فى السجن الى أن تبين الحق (ليعلم) العزيز باقرارها وهى فى الامن وأنا فى محل الضيق والخوف علما مؤكدا (أنى لم أخنه) أى فى أهله ولا فى غيرها (بالغيب) أى والحال أن كلا منا غائب عن صاحبه هذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله

وجنوده (قوله اقتلوا
يوسف أو اطرحوه أرضا
يخل لكم وجه أبيكم) هذا
قول اخوة يوسف (فان
قلت) كيف قالوا ذلك وهم
أنبياء (قلت) لم يكونوا
أنبياء على الصحيح وبتقدير

تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه كلام الداعى ثم قال الله تعالى ان الله لايخلف الميعاد ثم ختم الكلام بقوله (وان الله لايهدى) أى يسدد و ينجح بوجه من الوجوه (كيد الخائنين) أى ولو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصنى منها ظهر انى برىء عما نسبونى اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى انى وان كنت أحلت عليه الذنب فى حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه فى غيبته اى لم تقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق ثم انها بالغت فى تأكيد هذا القول وقالت وان الله لايهدى كيد الخائنين يعنى انى لما أقدمت على الكيد والمكر لاجرم افتضحت وانه لما كان بريأ من الذنب لاجرم طهره الله تعالى منه * واعلم ان هذه الآية على القول الاول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة الاول قولها أنا راودته عن نفسه والثانى قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى أنه صادق فى قوله هى راودتنى عن نفسى والثالث قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت بها قال الرازى وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية فى كتاب معتمد اى وانما أسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى تحريف ظاهر القرآن وبيان أن اقدامه على قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لايليق بأحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى نبى مرسل من سلالة الانبياء الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقول الجهال والحشوية * واختلفوا فى تفسير قوله (وما أبرئ نفسى) لان ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه السلام وقد مر أنه قول الاكثرين فهو أيضا كلامه وان كان من كلام المرأة فهذا أيضا كلامها فعلى الاول قد تمسك به الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما أبرئ نفسى (ان النفس لامارة بالسوء) أى بالزنا (الا ما رحم) اى عصم منه (ربى ان ربى غفور) اى للهم الذى هممته (رحيم) أى لو فعلته لتاب على وهذا ضعيف كما قاله الرازى لما تقدم ان الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته من الذنب وانما قال ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما أبرئ نفسى والمعنى وما أزكى نفسى ان النفس لامارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة فى المعصية وعلى الثانى أنها لما قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قالت وما أبرئ نفسى من الخيانة مطلقا فانى قد خنته حين أحلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن وأودعته فى الحبس كأنها أرادت الاعتذار مما كان * واختلف فى قوله (وقال الملك) فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذى هو الملك الاكبر قال الرازى وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلنى على خزائن الارض يدل عليه الثانى قوله أستخلصه لنفسى يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك

ثم كانوا أنبياء انما قالوا ذلك قبل نبوتهم والجواب بان ذلك من الصغائر أو بانهم قالوه فى صغرهم ضعيف (قوله نرتع ونلعب) (ان قلت) كيف قالوا ذلك مع انهم كانوا بالغين

خالصا للعزيز فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الاكبر انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الالباس لما تخلل بينه و بين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج الى ابرازه (ائتونى به استخلصه لنفسى) أى اجعله خالصا لى دون شريك قال ابن عباس فأتاه الرسول فقال له ألق عنه ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة واغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ثم أقعده قدامه وقال له لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وروى ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو فى الحبس وقال قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن وروى أن يوسف لما دخل عليه قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان عمى اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان آبائى قال وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية (فلما كلمه) أى كلم الملك يوسف عليه السلام وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة أقبل عليه وقال انى أحب ان أسمع منك تأويل رؤياى شفاها فاجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك (قال) له (انك اليوم لدينا مكين أمين) اى ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق (قال) أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلنى على خزائن الارض) جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والاموال والارض أرض مصر أى خزائن أرض مصر وقال الربيع بن أنس اى خرج مصر ودخله روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية قال رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فأقام فى بيته سنة مع الملك قال الرازى وهذا من العجائب لانه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه * ولما سارع فى ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف أتم والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى ثم قال (انى حفيظ عليم) أى ذو حفظ وعلم بأمرها وقيل كاتب وحاسب (فان قيل) لم طلب يوسف عليه السلام الامارة والنبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ولم طلب الامارة من سلطان كافر ولم يصبر مدة ولم اظهر الرغبة فى طلبها فى الحال ولم طلب أمر الخزائن فى أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم ولم ترك الاستثناء فى هذا وقد قال تعالى ولا

قوله ألق عنه الخ كذا بالاصل ولعل الصواب ألق عنك ثياب السجن والبس بدليل بقية عبارته اه مصححه

عاقلين وأنبياء أيضا على قول وكيف رضى يعقوب بذلك منهم على قراءة النون (قلت) كان لعبهم المسابقة والمناضلة بقيده اما ذهبنا نستبق وسموه لعبا لانه فى صورة اللعب قال الفخر

تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه سبعة أسئلة (أجيب) عنها بأن الاصل فى جواب هذه الاسئلة أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان وانما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الاول أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الامة بقدر الامكان والثانى أنه علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى أمره أن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق والثالث أن السعى أيضا فى ايصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكن ما كان عالما بأنه يفى بهذا الامر وأيضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل وأما هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها متزكاة والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى اما اذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه وانما ترك الاستثناء لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره لعلمه أنه لاقدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلهذا المعنى ترك الاستثناء * ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلما بأنه قد أجيب بتقدير الله تعالى له (وكذلك) أى كانعامنا عليه بالخلاص من السجن (مكنا ليوسف فى الارض) أى أرض مصر (يتبوأ) أى ينزل (منها حيث يشاء) بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك فى اصبعه وقلده بسيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فى صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فأصابها فولدت له ذكرين افرائيم ومنشا فاقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى ثم بالحلى والجواهر فى السنة الثانية ثم بالدواب فى السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى السنة الرابعة ثم بالضياع والعقار فى السنة الخامسة ثم بأولادهم فى السنة السادسة ثم برقابهم فى السنة السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من هذا صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال انى أشهد الله أنى أعتقت أهل مصر

الرازى ويرد على أصل السؤال أن يقال كيف يتورعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد وهو القاء أخيهم فى الجب

عن آخرهم ووردت عليهم املاكهم وكان لا يبيع أحدا ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير
لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوى والزمخشرى وغيرهما قال الرازى
والله أعلم بحقيقة الحال وروى ان يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك الايام
فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال ان شبعت نسيت الجائع وأمر يوسف طباخ الملك
أن يجعل غداءه نصف النهار أراد بذلك أن يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين قال
البغوى فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال الله تعالى (نصيب) اى نخص (برحمتنا
من نشاء) فى الدنيا والآخرة (ولا نضيع اجر المحسنين) بل نؤتيهم أجورهم عاجلا وآجلا لان
اضاعة الاجر اما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى فالاضاعة
ممتنعة (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال الرازى
وهذا تنصيص من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان فى الزمان السابق من المتقين
وليس ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان أنه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذى قال الله
تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا من الله تعالى شهادة بانه عليه السلام كان فى ذلك
الوقت من المتقين وأيضا قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه كان من
المخلصين ٣ فثبت أن الله تعالى شهد بان يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين
والجاهل الحشوى يقول انه كان من المذنبين ولاشك أن من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه
التأكيدات كان من الاخسرين • ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى
وصل الى بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف عليه
السلام لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس
عليه ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك بنيامين
أخا يوسف لامه وأبيه فذلك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف) وكانوا عشرة وكان منزلهم
بالعربات من أرض فلسطين ثغور الشام وكانوا أهل ابل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه
السلام وقال بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه
ما تحتاجون من الطعام وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو
بتسهيل الثانية والباقون بالتحقيق ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر
(فدخلوا عليه فعرفهم) قال ابن عباس بأول نظرة اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى
تعرفوا اليه (وهم له منكرون) أى لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول أنه عليه السلام أمر حجابه
بان يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثانى أنهم حين ألقوه فى الجب كان
صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه فى البئر
وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير
الملك وكان بزى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه
السلام أمر بانزالهم واكرامهم وكانت عادته أن لا يزيد أحدا على حمل بعير وكانوا عشرة
فاعطاهم عشرة أحمال كما قال تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) أى وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد
من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى أخرى وما تزف به المرأة الى زوجها

على قصد القتل (قلت) لم يكن وقف القائم يوسف فى الجب وقت طلب تورعهم من اللعب ولا قبله وأصل السؤال انما وقع على طلب التورع المتقدم على الالقاء لكن يطلب الجواب عن القائم له فى

٣ قوله شهادة من الله تعالى الخ هكذا بالاصول التى بايدينا ومقتضى قوله فثبت الخ أن يكون حق العبارة شهادة من الله تعالى على أنه كان من المحسنين وأيضا قوله انه من عبادنا المخلصين شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين فثبت الخ اه مصححه

فقالوا ان لنا شيخا كبيرا وأخا آخر بقي معه وذكروا ان أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان أخاهم في خدمة أبيه ولابد لهما أيضا من حمل آخر من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف عليه السلام فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شئ عجيب لانكم أنتم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل ذلك على أنه أعجوبة في العقل والادب فجيئوني به حتى أراه كما قال تعالى حكاية عنه (قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم) اى الذى خلفتموه عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبروني من أنتم وما أمركم فاني أنكرت شأنكم قالوا قوم من أرض الشام أصابنا ما أصاب الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله ما نحن بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى قال وكم كنتم قالوا كنا اثني عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم أنتم ههنا قالوا عشرة قال وأين الاخر قالوا عند أبينا لانه أخو الذى هلك وأبوه يتسلى به قال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد لا يعرفنا بها أحد فقال يوسف عليه السلام فائتوني بأخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فانا أرضى بذلك فقالوا ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده ثم انه قال لهم (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخس منه شيأ وقرأ نافع بفتح الياء من أنى والباقون بالسكون وأما الياء من أوفي فجميع القراء يثبتونها في الوقف لثباتها في الرسم وحذفوها في الوصل لالتقاء الساكنين (وأنا خير المنزلين) أى المضيفين فانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازى وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى أنهم عيون وجواسيس ولو شافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفي الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام (فان لم تأتوني به) أى بأخيكم (فلا كيل) أى فلا ميرة (لكم عندى) ولم يمنعهم من غيره (ولا تقربون) نهى أو عطف على محل فلا كيل لكم أى تحرموا ولا تقربوا مني ولا تدخلوا ديارى فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب في قوله الاول والترهيب في قوله الثاني لانهم كانوا في نهاية الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا سنراود) أى بوعد لا خلف فيه حين نصل (عنه اباه) أى سنكلمه فيه ونتنازع الكلام ونحتال فيه ونتلطف في ذلك ولا ندع جهدا (وانا لفاعلون) أى ما أمرتنا به والتزمناه (و) لما أرغبهم وأرهبهم في شأن أخيهم (قال لفتيته) أى غلمانه الكيالين جمع فتى وقرأ حفص وحمزة والكسائي بألف بعد الياء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق مكسورة (اجعلوا بضاعتهم) أى التى أتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها كانت النعال والادم (في رحالهم) جمع رحل أوعيتهم التى يحملون

الجب صح ان ذلك من المعاصي ويجاب بما في الجواب عن قولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا (قوله وأوحينا اليه) أى وحى الهام لا وحى رسالة لانه يومئذ لم يكن بالغا ووحى الرسالة انما يكون بعد الاربعين

فيها الطعام (لعلهم يعرفونها) أي بضاعتهم (اذا انقلبوا) أي رجعوا (الى أهلهم) وفتحوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلف في السبب الذي من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم في رحالهم على أوجه الاول أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم الثاني أراد أن يعرف أباه أنه أكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه الثالث مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن الرابع أراد أن يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا المال الى مالكه السادس أراد به التوسعة على أبيه لان الزمان كان زمان القحط السابع رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن اخوته على شدة حاجتهم الى الطعام لؤم الثامن خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى التاسع أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام (فلما رجعوا) أي اخوة يوسف عليه السلام (الى أبيهم قالوا يا أبانا) انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤه مني السلام وقولوا له ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة وقولهم (منع منا الكيل) فيه قولان أحدهما أنهم لما طلبوا الطعام لاخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه والثاني أنهم منعوا الكيل في المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ويدل له ما قولهم (فأرسل معنا أخانا) بنيامين (نكتل) فان حمزة والكسائي قرآه بالياء أي يكتل لنفسه وهذا يدل للقول الاول والباقون بالنون أي نكتل نحن واياه وهذا يدل للقول الثاني (وانا له لحافظون) عن أن يناله مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة (قال) لهم (هل آمنكم) أي أقبل منكم الآن وفي مستقبل الزمان تأمينكم لي فيما يسوءني تأمينا مستقبلا (عليه) أي بنيامين (الا كما أمنتكم) أي في الماضي (على أخيه) يوسف عليه السلام (من قبل) فانكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لي ولم تردوه الي والامن اطمئنان القلب الى سلامة النفس فانا في هذا الامن عليه الا الله تعالى (فالله) المحيط علما وقدرة (خير حفظا) منكم ومن كل أحد ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الامور وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب على التمييز في القراءتين ويحتمل الاولى النصب على الحال اللازمة (وهو أرحم الراحمين) أي أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي بأخيه فلا يجمع علي مصيبتين (ولما) أرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة (فتحوا متاعهم) أي أوعيتهم التي حملوها من مصر (وجدوا بضاعتهم) أي ما كان معهم من كنعان لشراء القوت (ردت اليهم) والوجد ان ظهور

(قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) قال هنا بدون واستوى وقاله في القصص واستوى به لان يوسف أوحي اليه في الصغر وموسى أوحي اليه بعد أربعين سنة فقوله واستوى اشارة الى تلك

الشىء للنفس بحاسة أو ما يغنى عنها فكأنه قيل ما قالوا فقيل (قالوا) أى لابيهم عليه السلام
(يا أبانا ما) استفهامية أى أى شىء (نبغى) أى نريد جميع القراء أثبتوا الياء وقفا ووصلا لثباتها
فى الرسم فكأنه قال لهم ما الخبر فقالوا مبينا لذلك وتأكيدا للسؤال فى استصحاب أخيهم (هذه
بضاعتنا ردت الينا) هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباعنا وردّ علينا
متاعنا ولما كان التقدير ونرجع بها اليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا (ونمير أهلنا) أى
نجلب اليهم الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التى تحمل من بلد الى بلد (ونحفظ أخانا) فلا
يصيبه شىء مما تخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه (ونزداد كيل بعير) لاخينا (ذلك كيل
يسير) أى سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول
مدته بسبب الحبس والتأخير وقيل قليل فابعث أخانا معنا حتى نبدل تلك القلة بالكثرة فكأنه
قيل ما قال لهم فقيل (قال) يعقوب عليه السلام (لن أرسله) أى بنيامين كائنا (معكم) أى فى
وقت من الاوقات (حتى تؤتون موثقا) أى عهدا مؤكدا (من الله) قرأ ابن كثير باثبات الياء
بعد النون وقفا ووصلا وأبو عمرو باثبات الياء وقفا لا وصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا
وقوله (لتأتننى) أى كلكم (به) أى تحلفوا بالله لتأتننى به من الاتيان وهو المجىء فى كل حال
جواب القسم أو المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (الا) أى فى حال (أن يحاط) أى تحصل
الاحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها (بكم) فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة فى
التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام وان كان الاعتماد فى حفظه انما هو على
الله تعالى وهذا من باب اعقلها وتوكل فأجابوه الى ذلك كما قال تعالى (فلما آتوه موثقهم) بذلك
(قال الله على ما نقول) نحن وأنتم (وكيل) أى شهيد وأرسله معهم بذلك (فان قيل) لم أرسله
معهم وقد شاهد منهم ما شاهد فى يوسف عليه السلام (أجيب) بان ذلك لوجوه أحدها أنهم
كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثانى انه كان شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد
والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام الثالث لعل الله أوحى اليه وضمن حفظه
وايصاله اليه (و) لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء
رجل واحد (قال) لهم (يا بنى لا تدخلوا) اذا قدمتم الى مصر (من باب واحد) من أبوابها
(وادخلوا من أبواب) واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جدا بقوله (متفرقة) أى
تفرقا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى وقد ورد شرعنا
بذلك ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفى
رواية عن أحمد يحضره الشيطان وحسد ابن آدم وفى رواية لمسلم العين حق ولو كان شىء
سابق القدر لسبقته العين وفى رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر
وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله
التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل
واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه فى آخر النهار

الباب) و
وجهه قيل فى قوله وغلقت
الابواب لان اغلاق الباب
للاحتياط لا يتم الا باغلاق
الجميع وأما هروبه منها فلا
يكون الا الى باب واحد

فرأيته معافى وقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت وفى رواية ان بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يارسول الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يارسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذى أصيب بالعين * ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا الى بعض الاوهام أن الحذر يغنى عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام (وما أغنى) أى أدفع (عنكم) بقولى ذلك (من الله من شئ) قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن مزيدة للتأكيد واعلم أن الانسان مأمور بأن يراعى الاسباب المعتبرة فى هذا العالم بأن يجزم بأنه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مأمور بأن يحذر الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ومع ذلك يكون جازما بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل فى الوجود الا ما أراده الله تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة فى هذا العالم وقوله وما أغنى عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة من كل شئ سوى الله تعالى * ولما قصر الامر كله اليه تعالى وجب رد كل أمر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك (ان الحكم الا لله) وحده الذى ليس الحكم الا له (عليه) أى على الله وحده (توكلت) أى جعلته وكيلى فرضيت بكل ما يفعل (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) أى الثابتون فى باب التوكل فان ذلك من أعظم الواجبات من فعله فاز ومن أغفله خاب وقد ثبت بالبرهان ان لا حكم الا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى وذلك يوجب أن لا توكل الا على الله تعالى فهذا مقام شريف عال والشيخ أبو حامد الغزالى أكثر فى تقرير هذا المعنى فى كتاب التوكل من كتب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب * ولما قال يعقوب عليه السلام وما أغنى عنكم من الله من شئ صدقه الله تعالى فى ذلك فقال (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى متفرقين (ما كان) ذلك التفرق (يغنى عنهم من الله) أى من قضائه وأغرق فى النفى فقال (من شئ) أى مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه السلام فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع فى رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام وقوله تعالى (الا حاجة) استثناء منقطع أى لكن حاجة (فى نفس يعقوب) وهى لوصول الى ما أمر به شفقة عليهم (قضاها) يعقوب عليه السلام وأبرزها من نفسه الى أولاده فعملوا بها ارادة فاغنى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط (وانه) أى يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك (لذو علم) أى معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم (لما علمناه) بالوحى ونصب الحجج ولذلك قال وما أغنى عنكم من الله من شئ ولم يغتر بتدبيره * ولما كان قد يظن أن كل أحد يكون كذلك أى يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه

حتى لو تعددت أمامه لم يقصد منها أولا الا الاول فله هذا وحد الباب هنا وجهه ثم (قوله لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) كرر لعل رعاية للفواصل اذ لو قال لعلى أرجع الى الناس فيعلموا لحذف

وتعالى بقوله جل شأنه (ولكن أكثر الناس) أى لاجل ما نالهم من الاضطراب (لا يعلمون) أى ليسوا بذوى علم لما علمناهم لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به ومن أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردها الى ما تدعوهم اليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون طب لخارق * ولما أخبر تعالى عن دخولهم الى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام فقال (ولما دخلوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (على يوسف) فى القدمة الثانية باخيهم بنيامين قالوا هذا أخونا فقال أحسنتم واصبتم وستجدون خير ذلك عندى ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا أجلسنى معه فقال يوسف لقد صار أخوكم هذا وحيدا فاجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معى على فراشى كما قال تعالى (آوى) أى ضم (اليه اخاه) فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه و يشمه ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وذلك انه لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما رأى تأسفه لاخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك فقال ومن يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه و(قال انى أنا أخوك فلا تبتئس) أى لا تحزن (بما كانوا يعملون) أى بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا فلا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى قد أقدموا عليها وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشئ من ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ومد بعد النون من أنا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر ثم انه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا وكان فى المرة الاولى أبطأ فى تجهيزهم فى طول المدة ليتعرف أخبارهم من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا الى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها فلذلك أتت الفاء فى قوله (فلما جهزهم) أى أعجل جهازهم وأحسنه (بجهازهم جعل) بنفسه أو بمأذونه (السقاية) أى المشربة التى كان يشرب بها (فى رحل اخيه) أى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف عليه السلام مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازى هذا بعيد لان الاناء الذى يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب أن يقال كان ذلك الاناء شيأ له قيمة أما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا والسقاية والصواع واحد ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم اذن) أى أعلن فيهم بالنداء (مؤذن) قائلا برفيع صوته وان كانوا فى غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة (ايتها العير) أى القافلة قال أبو الهيثم كل ما سير

النون جوا انا الاول اقالت الرعاية (قوله اجعلنى على خزائن الارض) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الانبياء عليهم السلام اعظم الناس زهدا فى

عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال العير الابل خاصة باطل فقوله أيتها العير أى أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي قال الفراء كانوا أصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرأ ورش بابدال همزة مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط والباقون بالقصر (انكم لسارقون) فقفوا حتى ننظر الذى فقدناه والسرقة أخذ ما ليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله (فان قيل) هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أو ما كان بأمره فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه أن يبهت أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة (أجيب) بأجوبة الاول أنه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق بك قال رضيت بذلك وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لانه قد رضى به فلا يكون ذلك ذنبا الثانى انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب الثالث أن المنادى انما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج أن يكون كذبا الرابع ليس فى القرآن ما يدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام قال الرازى والاقرب الى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم الذين أخذوها ولما وصل اليهم الرسول قال لهم ألم نحسن ضيافتكم ونكرم مثواكم ونقيكم كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا سقاية الملك فقدناها ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى (قالوا و) الحال أنهم قد (اقبلوا عليهم) أى على جماعة الملك المنادى وغيره (ماذا) أى ما الذى (تفقدون) مما يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجود (قالوا نفقد) وكان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم (صواع الملك) والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة سموه تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذوا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت (ولمن جاء به حمل بعير) أى من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضا وجعله نظير انسان وهو ما يجرى عليه الفقهاء فى باب الوصية والجمع فى القلة على أبعرة وفى الكثرة على بعران (وأنا به زعيم) قال مجاهد هذا الزعيم هو الذى أذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الزعيم غارم واذا ورد فى شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا فى ذلك خلاف والراجح أنه ليس بشرع لنا (فان قيل) كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيأ (أجيب) بأنهم لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون ذلك جعالة أو ان مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان (قالوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (تالله) التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء فهى فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصرف فى الاسماء فلا تدخل الا على الجلالة الكريمة أو الرب مضافا للكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحمن لم يجز أى والله (لقد علمتم) أى عما جربتم من أمانتنا

الدنيا ورغبة فى الآخرة (قلت) انما طلب ذلك ليتوصل به الى امضاء حكم الله تعالى واقامة الحق وبسط العدل ونحوه ولعلمه ان أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك (قوله ولما

قبل هذا في كرن مجيئنا (ما جئنا) وأكدوا النفي باللام فقالوا (لنفسد) أي لنوقع الفساد (في الارض) أي أرض مصر (و) لقد علمتم (ما كنا) أي بوجه من الوجوه (سارقين) أي موصوفين بهذا الوصف قطعا (فان قيل) من أين علموا ذلك (أجيب) بان ذلك لعلمهم عمارا وأمن أحوالهم وقيل لانهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم كي لا تتناول شيأ من حروث الناس (قالوا) أي أصحاب يوسف عليه السلام المنادي ومن معه (فما جزاؤه) أي السارق وقيل الصواع (ان كنتم كاذبين) في قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير وشر (قالوا) وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم (جزاؤه من وجد في رحله) ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ثم أكدوا ذلك بقولهم (فهو جزاؤه) قال ابن عباس كان ذلك الزمان كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك أي فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق فاراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم اليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم (كذلك) أي الجزاء (نجزي الظالمين) بالسرقة قال أصحاب يوسف فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف عليه السلام فامر بتفتيشها بين يديه (فبدأ باوعيتهم) ففتشها (قبل وعاء أخيه) لتلا يتهم فلم يجد فيها شيأ (ثم) أي بعد تفتيش أوعيتهم والتأني في ذلك (استخرجها) أي السقاية أو الصاع لانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما نزال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه في البرية ان الذي وضع هذا الصاع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف عليه السلام * (تنبيه) * ههنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق (كذلك) أي مثل ذلك الكيد (كدنا ليوسف) خاصة بان علمناه اياه بجزائهم على كيدهم بيوسف عليه السلام في الابتداء وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله تعالى ألقى في قلب اخوته بان حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق لا جرم لما ظهر الصاع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عند نفسه ولما كانت الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته هنا القاء الانسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه فالكيد في حق الله تعالى محال على هذا المعنى وقيل المراد بالكيد ههنا ان اخوة يوسف سعوا في ابطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره وقوله تعالى (ما كان) أي

(جهزهم بجهازهم) قاله هنا بالواو وقاله بعد بالفاء لانه ذكر هنا أول مجيئهم الى يوسف فناسبه الواو الدالة على الاستئناف وذكر بعد عند انصرافهم عنه عطفا على ما

يوسف (ليأخذ أخاه في دين الملك) اي حكمه بيان للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلي ما أخذ لا أنه يستعبد وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) فيه وجهان أحدهما انه استثناء منقطع تقديره ولكن بمشيئة الله أخذه في دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام ان الاسترقاق جزاء السارق والثاني انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه في كل حال الا في حال التباسه بمشيئة الله اي اذنه في ذلك * ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعدما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم (نرفع درجات من نشاء) اي بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه أدل على العظمة فكان أليق بظهورها في هذه الآية دليل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى لما هدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك ورفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات من نشاء عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (وفوق كل ذي علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهي العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعلم وفي الآية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه في العلمية في العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه * ولما حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكأنه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل (قالوا) تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن خاصتهم (ان يسرق) ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم وكان قد قال لهم ذلك (فقد سرق أخ له من قبل) اي يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا في التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال فقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال مجاهد جاء سائل فاخذ بيضة من البيت فناولها السائل وقال وهب كان يخبأ الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه ان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقي معها منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان حكمهم ان من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فتوصلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال ابن الانباري وليس في هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم ملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازي وهذه

دخلوا انما سببه القضاء الدالة على الترتيب والتعقيب (قوله أيتها العير انكم لسارقون) ان قلت كيف جاز ليوسف ان يأمر المؤذن بان يقول ذلك مع ان فيه بهتانا واتهام من لم يسرق

الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها) اى يظهرها (لهم) والضمير للكلمة التي هي قوله (قال) اى في نفسه (أنتم شر مكانا) اى من يوسف وأخيه اى لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه (والله أعلم) منكم (بما تصفون) اى تقولون وانه ليس كما قلتم قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه الى اذنه ثم قال ان صاعي هذا يخبرني انكم كنتم اثني عشر رجلا لأب واحد وانكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين أيها الملك ان صاعك يخبرك من جعله في رحلي ثم نقره وأدناه من اذنه فقال ان صاعي غضبان وهو يقول كيف تسألوني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكانوا أولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شيء وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وروى انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة فقال اكفوني أنتم الاسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق ودخلوا على يوسف فقال روبيل لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسده حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب روبيل فمسه ويروى خذ بيده فأتني به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من مس منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل ان هنا لبذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب وروى انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تظنون ان لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم الى هذا ورأوا ان لا سبيل لهم الى تخليصه خضعوا وذلوا و(قالوا يا أيها العزيز) فخاطبوه بما يليق بالاكابر ليرق لهم (ان له) اى هذا الذي وجد الصواع في رحله (أبا شيخا كبيرا) اى في سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه (فخذ أحدنا مكانه) وأحسن الى أبيه بارساله اليه (انا نراك) اى نعلمك عالما وكالرؤية أو بحسب ما رأيناه (من المحسنين) اى العريقين في صفة الاحسان فأجر في أمرنا على عادة احسانك فكأنه قيل فما أجابهم قيل (قال معاذ الله) هو نصب على المصدر وحذف فعله وأضيف الى المفعول اى نعوذ بالذي لا مثل له معاذا عظيما من (ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل سرق متاعنا لانه لم يفعل في الصواع فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصحح اطلاق الوصف عليه ثم علله بقوله (انا اذا) اى اذا أخذنا أحدا مكانه (لظالمون) اى عريقون في الظلم في دينكم فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم * ولما استيأسهم بما قال عن اطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من الرأى فقال (فلما) دالا بالفاء على قرب زمن تلك المراجعات (استيأسوا) اى ايسوا (منه) لما رأوا من احسانه ولطفه ورحمته يأسا شديدا بما رأوا من ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله (خلصوا) اى انفردوا عن غيرهم حال كونهم (نجيا) وهو مصدر يصلح للواحد وغيره اى ذوى نجوى يناجي بعضهم بعضا فكأنه قيل فما

قوله (قالت) انما قاله بانه سرق تورية عما جرى منهم مجرى السرقة من فعلهم بيوسف فانهم لما قالوا أولا وكان ذلك القول من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام أو ان يوسف عليه السلام حكم ذلك حكم الحيل

(وأخيه) أي اطلبوا خبرهما وثانيها أنه علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة لأن أمارات الرشد والكمال ظاهرة في حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لا تخطئ وثالثها لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ورابعها قال السدي لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله وأقواله وأفعاله طمع في أن يكون هو يوسف وقال يبعد أن يظهر في الكفار مثله ثم تلطف بنيه وقال لهم (ولا تيأسوا) أي تقنطوا (من روح الله) قال ابن عباس من رحمة الله وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أي الغريقون في الكفر قال ابن عباس إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فإن اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد الانسان أن إله العالم غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر وإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا وقرأ البزي بعد التاء من تيأسوا وبعد الياء من لا ييأس بألف وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة مفتوحة قبلها ياء ساكنة * ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا إلى مصر (فلما دخلوا عليه) أي على يوسف عليه السلام (قالوا يا أيها العزيز) وكان العزيز لقب الملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا) أي من خلفناه وراءنا (الضر) أي لا يسمنا لابسة نحسها (وجئنا ببضاعة) وقالوا (مزجاة) إما لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعا وقال الحسن البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا في تلك الرداءة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام وقيل متاع الأعراب الصوف والسمن وقيل الأقط وقيل النعال والأدم وقيل إن دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التي جاؤا بها ما كان فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم سبوا من هذا الاعتذار لأنه أقرب إلى رحمة أهل الكرم قولهم (فأوف لنا الكيل) أي شفقة علينا بسبب ضعفنا (وتصدق) أي تفضل (علينا) زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله تعالى عللوا ذلك بقولهم (إن الله) أي الذي له الكمال كله (يجزي المتصدقين) أي وإن كانت على غني قوي فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف * (فائدة) * سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الأنبياء سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان ألم تسمع قوله وتصدق علينا الآية يريد أن الصدقة كانت حلالا لهم ولأبيهم وروي أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي فقال إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل علي (فإن قيل) إذا كان أبوهم أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه فلم عادوا إلى الشكوى (أجيب) بأن المتحسس يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرقق القلب فقالوا نجربه في هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا فقدموا هذه المقدمة فقال أبو إسحاق ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على إخوته فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتم فلهذا (قال) لهم (هل علمتم)

إيساوا لم ييأسوا إلى الرجوع
عن وصيته (قوله ولما أن
جاء البشير) قاله هشام في
العنكبوت آخرا في قوله
ولما أن جاءت رسلنا لوطا
بذكر أن وقال في هود ولما
جاءت رسلنا لوطا وقد

مقرونا

رأسه وقال ليت أمي لم تلدني ولم أكن حزنا على أبي (فان قيل) هذا اظهار للجزع وجار مجرى
الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام (أجيب) بانه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم
بكاؤه ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغي ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل
لذلك قوله (فهو كظيم) أي مغموم مكروب لا يظهر كربه ولقوله انما أشكو بثي وحزني الى الله
فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر وتجرع الغصة وما اظهر الشكاية
فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل روى ان يوسف عليه السلام قال لجبريل
عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي
لها ولد واحد يموت قال فهل له أجر قال نعم أجر مائة شهيد ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت
التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله
عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا على
فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان *(تنبيه)* شرف الانسان باللسان والعين والقلب
فبين تعالى أن هذه الثلاثة كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يا أسفا والعين
بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء
منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم * ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كان قائلا يقول
فما قال له أولاده فقيل (قالوا) له حنقا من ذلك (تالله تفتؤ) اي لا تفتؤ أي لا تزال (تذكر
يوسف) فجعلها تفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول الشاعر

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ويدل على حذفها أنه لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين
أو أحدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو (حتى)
الى أن (تكون حرضا) اى مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوي فيه الواحد
وغيره (أو تكون من الهالكين) اى الموتى (فان قيل) لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك
قطعا (أجيب) بانهم بنوا الامر على الظاهر قال اكثر المفسرين قائل هذا الكلام هم اخوة
يوسف وقال بعضهم ليس الاخوة بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاده وخدمه * ولما قالوا
له ذلك فكأن قائلا يقول فما قال لهم فقيل (قال) لهم (انما أشكو بثي) والبث أشد الحزن
سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر (وحزني) مطلقا وان كان سببه
خفيفا يقدر الخلق على ازالته (الى الله) المحيط بكل شيء علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع
الشكوى اليه (وأعلم من الله) أي الملك الاعلى من اللطف بنا أهل البيت (ما لا تعلمون)
فيأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب وفي ذلك اشارة الى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع
رجوعه اليه وذكروا لسبب هذا التوقع أمورا احدها أن ملك الموت أتاه فقال له يا ملك
الموت هل قبضت روح ابني يوسف قال لا يا نبي الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه من
ههنا ولذلك قال (يا بني اذهبوا فتحسسوا) أي والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من
التجسس بالجيم وقيل التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس
وهو الذي يطلب الكشف عن عورة الناس والمعنى تحسسوا خبرا (من) أخبار (يوسف

قوله (قلت) انما ييأس
من روح الله الكافر
لا المؤمن عملا بظاهر
الآية فكل من أيس من
روح الله فهو كافر حتى
يعود الى الايمان ولا نسلم
ان صاحب القصة مات

مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل وارادة الحال (التي كنا فيها) وهي مصر
عما أخبرناك به يخبرونك بصدقنا فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هي قرية من قرى مصر
كانوا ارتحلوا منها الى مصر (و) اسأل (العير) اى القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب
عليه السلام (التي أقبلنا فيها) والسؤال طلب الاخبار بأداته من الهمزة أو هل أو غيرهما
والقرية الارض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من
العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الاصل ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير * ولما كان ذلك بالانكار
لما يتحقق من كرم أبيهم أكدوه بقولهم (وانا) اى والله انا (لصادقون) في أقوالنا ولما
رجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (بل سولت)
اى زينت وسهلت (لكم أنفسكم أمرا) اى حدثتكم بأمر ففعلتموه والا فما أدرى الملك
ان السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) اى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى أو أجمل
وقدم مثل ذلك في واقعة يوسف الا انه قال فيها والله المستعان على ما تصفون وقال هنا (عسى
الله أن يأتيني بهم) اى بيوسف وشقيقه بنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر (جميعا) اى بلا
يتخلف منهم أحد وانما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه
ومحنته علم ان الله تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله
تعالى وتفرس ان هذه الافعال نشأت عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى سلامة
واجتماع ثم علل هذا بقوله (انه هو العليم) اى البليغ العلم بما خفي عنا من ذلك فيعلم أسبابه
الموصلة الى المقاصد (الحكيم) اى البليغ فيما يدبره ويقضيه (و) لما ضاق قلب يعقوب عليه
السلام بسبب الكلام الذى سمعه من ابنائه في حق بنيامين (تولى عنهم) اى انصرف بوجهه
عنهم لما قالوا الى عنده من الحزن (وقال يا أسفا) اى يا أسفي (على يوسف) اى تعال هذا أوانك
والاسف أشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما تأسف على يوسف دون أخويه
والحادث انما هو مصيبتهما لان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن
آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا
جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

فقالوا أتبكي كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت لهم ان الاسى يبعث الاسى * فدعني فهذا كله قبر مالك

ولانه كان واثقا بحياتهما دون حياته وفي حديث رواه الطبراني لم تعط أمة من الامم انا لله وانا
اليه راجعون عند المصيبة الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى الى يعقوب حين أصابه
ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا (وابيضت عيناه) اى انمحق سوادهما وبدل بياضا (من الحزن)
اى من كثرة البكاء عليه وقيل عند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت
من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره حتى صار يدرك ادراكا ضعيفا وقيل عمي وقال مقاتل لم
يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام قيل ان جبريل عليه
السلام دخل على يوسف في السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على

الله) أي من رحمته إلا القوم الكافرون (ان قلت) من المؤمنين من ييأس من روح الله لشدة مصيبته أو كثرة ذنوبه كما في قصة الذي أمر أهله اذا مات أن يحرقوه الحديث ثم ان الله تعالى

رأسه

قالوا وقيل (قال كبيرهم) في السن وهو روبيل وقيل في الفضل والعلم وهو يهوذا وقيل
شمعون وكان له الرياسة على اخوته (ألم تعلموا) مقررا لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد
توجههم في بذل الجهد في الخلاص من غضب أبيهم (ان أباكم) اى الشيخ الكبير الذى
فجعتموه في أحب ولده اليه (قد أخذ عليكم) اى قبل ان يعطيكم هذا الولد الآخر (موثقا)
اى عهدا وثيقا (من الله) في أخيكم وانما جعل حلفهم بالله موثقا منه لانه باذن منه وتأكيد
من جهته وقوله (ومن قبل ما فرطتم) في هذه الآية وجوه أظهرها ان ما مزيدة فيتعلق
الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم اى قصرتم في حق يوسف وشأنه وزيادة
ما كثيرة وبه بدأ الزمخشرى وغيره وقيل انها مصدرية في محل رفع بالابتداء والخبر هو قوله (في
يوسف) اى وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف والى هذا ذهب الفارسى وقيل غير ذلك
ولا نطيل بذكره اذ في هذا القدر كفاية (فلن ابرح) اى أفارق (الارض) اى أرض مصر (حتى
يأذن لى أبى) اى بالعود اليه (أو يحكم الله لى) بخلاص أخى (وهو خير الحاكمين) اى أعدلهم
(فان قيل) هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام
ان يعمل مثل هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجدان
أبيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من العقوق وايذاء الناس من غير ذنب لا سيما وهو يعلم انه اذا
حبس أخاه عنده بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق برسول المعصوم
المبالغة في التزوير الى هذا الحد (أجيب) بأجوبة كثيرة للعلماء وأحسنها انه انما فعل ذلك
بأمر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام
فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه وهو
المتصرف في خلقه بما يشاء فهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب
المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده ثم قال كبيرهم (ارجعوا الى أبيكم)
دونى (فقولوا) له اى متلطفين في خطابكم (يا أبانا) وأكدوا مقالتكم فانه يكرهها وقولوا
(ان ابنك سرق) (فان قيل) كيف يحكمون عليه بأنه سرق من غير بينة وهو قد أجابهم بالجواب
الشافى فقال الذى جعل الصاع في رحلى هو الذى جعل البضاعة في رحالكم (أجيب) بأنهم لما
شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في
ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا)
عليه (الا بما علمنا) ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه وأما قوله وضع الصاع في رحلى
من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بأنهم
هم الذين وضعوها في رحالهم وأما هذا الصاع فان أحدا لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصاع في
رحله فلهذا السبب غلب على ظنهم انه سرق فشهدوا بناء على الظن (وما كنا للغيب) اى ما غاب
عنا حين أعطيناك الموثق (حافظين) اى ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا
ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه سبيل وحقيقة الحال غير معلومة
لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت
في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا (واسئل القرية) اى أهلها على حذف المضاف وهو

الشرعية التى يتوصل بها
الى مصالح دينية كقوله تعالى
لايوب وخذ بيدك ضغثا
فاضرب به ولا تحنث وقول
ابراهيم في حق زوجته هى
أختى لتسلم من يد الكافر
(قوله انه لا ييأس من روح

مقررا لهم بعد ان استأنسوا به قال البقاعي والظاهر ان هذا كان بغير ترجمان (ما) اى قبح الذى (فعلتم بيوسف) أى اخيكم الذى حلتم بينه وبين أبيه (وأخيه) فى جعلكم اياه فريدا منه ذليلا بينكم ثم فى قولكم له لما وجد الصاع فى رحله لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بنى راحيل وانما قال لهم ذلك نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتعييرا وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام فى تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك وقوله (اذ أنتم جاهلون) اى فاعلون فعلهم أولانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين تلويحا الى معرفته فقد روى أنه لما قال هذا تبسم وكان فى تبسمه أمر من الحسن لا يجهله منه من رآه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك (قالوا أئنك لانت يوسف) استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب واسحق مثلها وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرأ قالون وأبو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما ألف على الاستفهام وقرأ ورش بغير ألف بينهما والتسهيل فى الثانية على الاستفهام أيضا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ولهشام وجه ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى (قال) لهم (أنا يوسف) وزادهم بقوله (وهذا أخى) بنيامين شقيقى وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا فى أمره وليبنى عليه قوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس بكل خير فى الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة (انه من يتق) اى المعاصى (ويصبر) اى على البليات وأذى الناس وقال ابن عباس يتق الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وقرأ قنبل باثبات الياء بعد القاف وقفا ووصلا واختلف المعربون فى ذلك على وجهين أجودهما أن اثبات حرف العلة فى الجزم لغة لبعض العرب وأنشدوا عليه قول قيس بن زهير

ألم يأتيك والانباء تنمى * بما لاقت لبون بنى زياد

(وقول الآخر)

هجوت زبان ثم جئت معتذرا * من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

(وقول الآخر)

اذا العجوز غضبت فطلق * ولا ترضاها ولا تملق

والثانى أنه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها فلذلك ثم باثبات لامه وسكن يصبر لتوالى الحركات وان كانت فى كلمتين وقرأ الباقون بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه وأنه من يتق ويصبر فان الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك (قالوا) مقسمين بقولهم (تالله) أى الملك الاعظم (لقد آثرك) أى اختارك (الله علينا) بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التى

العنكبوت اولا ولما جاءت رسلنا ابراهيم بجدة انقيها على جواز الامرين والقول بان ذكر ان يدل على وقوع جواب لما الا بخلاف ما اذا حذفت يدل بان آية هود وآية

تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا (وان كنا لخاطئين) أي والحال ان شأننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك فكأنه قيل ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من اهانتهم له فقيل (قال) لهم قول الكرام اقتداء باخوانه من الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (لا تثريب) اى لا لوم ولا تعنيف ولا اهلاك (عليكم اليوم) وانما خصه بالذكر لانه مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما أعفاهم من التثريب كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله (يغفر الله) أي الذي لا اله غيره (لكم) اى ما فرط منكم وعبر في هذا الدعاء بالمضارع ارشاد لهم الى الاخلاص في التوبة وورغبهم في ذلك ورجاهم بالصفة التي هي سبب الغفران فقال (وهو) تعالى (أرحم الراحمين) لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بادراك النعم روى أنهم أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك وكرامتك بكرة وعشيا ونحن نستحيي بما فرط منا فقال ان أهل مصر ينظرون الى وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم اخوتي واني من ذرية ابراهيم عليه السلام * ولما أقر أعينهم بعد اجتماع شملهم بازالة ما تخشونه دنيا وأخرى سأل عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي قالوا ابيضت عيناه من الحزن فاعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصي هذا) وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذي لبسه حين ألقي في النار عريانا فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه اسحق فلما مات اسحق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك في قصبة من فضة وسد رأسها وعلقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما ألقي في البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص والبسه اياه ففي الوقت جاءه جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم الا عوفي فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته وقال اذا وصلتم الى أبي (فالقوه على وجه أبي يأت) أي يصر (بصيرا) أي يرد اليه بصره كما كان أو يأت الي حال كونه بصيرا (وأتوني) أي أبي وأنتم (بأهلكم) اى مصاحبين لكم (أجمعين) لا يتخلف منكم أحد فرجعوا بالقميص لهذا القصد وروى أن يهوذا هو الذي حمل القميص لما لطخ بالدم فقال لا يحمل هذا غيري لافرحه كما احزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا (ولما فصلت العير) من عريش مصر وهو آخر بلاد مصر الى اول بلاد الشام (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من اهله مؤكدا لعلمه انهم ينكرون قوله (اني لاجد ريح يوسف) اوصلته اليه ريح الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية ايام أو اكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام انه ليس في الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال اهل المعاني ان الله تعالى اوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الفرج من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو في زمان المحنة صعب

العنكبوت التي ذكر فيها ان قيدتا ان شرطا وجوابا مع ان اذكرت في احداهما وحذفت من الاخرى الا ان يقال انها اذا لم تذكر لم يلزم وقوع جواب لما الا (قوله

وكل صعب نهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى أجد ريح يوسف أشم وعبر بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم (لولا أن تفندون) اى تنسبونى الى الخرف قال أبو بكر الانبارى أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند قال فى الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا أفسدت رأيه ورددته قال بعضهم

يا صاحبى دعا لومى وتفنيدى * فليس ما فات من أمر بمردود

ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك (قالوا) اى الحاضرون عنده (تالله انك لفى ضلالك) اى حبك (القديم) ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول اخوة يوسف ان أبانا لفى ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقاء اى شقاء الدنيا والمعنى انك لفى شقائك القديم بما تكابده من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات فكان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عجلوا له بشيرا فاسرع قبل وصولهم بالقميص (فلما) وزيدت (ان) لتأكيد مجيئه على تلك الحالة وزيادتها بعد لما قياس مطرد (جاء البشير) وهو يهوذا بذلك القميص (ألقاه) اى طرحه البشير (على وجهه) اى يعقوب وقيل ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) اى رجع (بصيرا) أى صيره الله بصيرا كما كان كما يقال طالت النخلة والله تعالى هو الذى أطالها ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك (قال) لبنيه (ألم أقل لكم انى اعلم من الله ما لا تعلمون) من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السهيلى لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام أعطاه فى بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهم السلام وهى يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بى فى أمورى كلها كما أحب ورضى فى دنياى وآخرتى وروى ان يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة فعند ذلك (قالوا يا أبانا) منادين بالاداة التى تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع (استغفر) اى اطلب من الله تعالى ان يغفر (لنا ذنوبنا) اى التى اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقا للاخلاص فى التوبة (انا كنا خاطئين) اى متعمدين للاثم بما ارتكبنا فى أمر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسئل له المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (سوف أستغفر) اى اطلب ان يغفر (لكم ربى) الذى أحسن الى بان يغفر لى حتى لا يفرق بينى وبينهم فى دار البقاء والربوبية ملكه وأتم الملك على الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بان يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر لان هذا الوقت أوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفى رواية أخرى له انه أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها أوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقال طاوس أخر الى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء

(وخروا له سجدا) * ان قلت كيف جاز لهم ان يسجدوا ليوسف والسجود لغير الله حرام (قلت) المراد انهم جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدان يوسف كما تقول سجدت

وقيل استغفر لهم في الحال وقوله سوف استغفر لكم معناه اني أدوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل وقيل قام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما فعلوا في حق يوسف فاوحى الله تعالى اليه اني قد غفرت لك ولهم أجمعين وعن الشعبي قال سأسأل يوسف ان عفا عنكم استغفرت لكم ربي (انه هو الغفور الرحيم) كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتقوية لرجائهم وروي أن يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتي راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب وأهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج الى مصر فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال الثوري لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى يا بني ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى) أي ضم (اليه أبويه) قال الحسن أباه وأمه وكانت حية كراما لهما لما اجتمعا به وغلب الاب في التثنية لذكورته وعن ابن عباس أنهما خالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين قال البغوي وفي بعض التفاسير ان الله تعالى أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر (فان قيل) ما معنى دخولهم عليه قبل مصر (أجيب) بأنه حين استقبلهم نزل بهم في خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) مكرما (ادخلوا مصر) أي البلد المعروف وأتى بالشرط للأمن لا للدخول فقال (ان شاء الله آمنين) من جميع ما ينوب حتى مما فرطتم في حقي وفي حق أخي روي أن يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ (و) لما استقرت بهم الدار بدخول مصر (رفع أبويه) أي أجلسهما معه (على العرش) أي السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو (وخروا له) أي يوسف والأبوان والاخوة (سجدا) أي سجود انحناء والتواضع قد يسمى سجودا كقول الشاعر

* ترى الاكم فيها سجدا للحوافر *

لا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان او أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة وكان ذلك جائزا في الامم السالفة فنسخت في هذه الشريعة وروي عن ابن عباس انه قال معناه خروا لله سجدا بين يدي يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بأنهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل في التواضع (فان قيل) هذا التأويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي

وصلت للقبلة او اللام للتعليل أي لاجله سجد والله ومنه قوله رأيتهم لي أي الكواكب لي ساجدين أي أنها سجدت لله لاجل مصلحتي والسعي في اعلاء منصبي (قوله وقد أحسن بي

من قبل) والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين أى رأيتهم ساجدين لاجلى اى انهم سجدوا لله لطلب مصلحتى والسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال قال الرازى وعندى أن هذا التأويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه ان يرضى بان يسجد له ابوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة او انهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكرا لنعمة وجدانه فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ما كنت أعرف ان الامر منصرف • عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس اول من صلى لقبلتكم • واعرف الناس بالآثار والسنن

ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال (قد جعلها ربى) اى الذى رآنى بما رصانى اليها (حقا) أى مطابقة للواقع لتأويلها وتاويل ما اخبرتنى به أنت والتأويل تفسير ما يؤول اليه معنى الكلام وعن سلمان رضى الله تعالى عنه ان ما بين رؤيا يوسف وتأويلها اربعون سنة وعن الحسن انه القى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى ابيه واقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة (وقد أحسن) اى اوقع احسانه (بى) تصديقا لما بشرتنى به من اتمام النعمة وتعديته احسن بالباء أدل على القرب من التعدية بالى وان كان أصل احسن ان يتعدى بالى كما قال تعالى وأحسن كما احسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فتعدى بالباء كقوله تعالى وبالوالدين احسانا وقال (اذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه اولها انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها أنه لما خرج من الجب لم يصر ملكا بل صير عبدا وانما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا ثالثها انه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة ولما خرج من السجن وصل الى ابيه واخوته فكان هذا أقرب الى المنفعة مع ان اللفظ محتمل للجب أيضا لكنه احتمال خفى ولما كان يعقوب وولده بارض كنعان وتحول الى بدو وقال ابن عباس ومنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام (وجاء بكم من البدو) أى من أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو اذا سكن فى البادية يروى عن عمر اذا بدونا جفونا اى تخلقنا باخلاق البدويين قال الواحدى البدو بسط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر وفى الآية دلالة على ان فعل العبد خلق الله تعالى لانه أضاف اخراجه من السجن الى الله تعالى ومجيئهم من البدو اليه (من بعد أن نزغ) أى افسد (الشيطان) بسبب الحسد (بينى وبين اخوتى) واصل النزغ دخول فى امر لافساده (فان قيل) اضافة يوسف عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان تقتضى ان فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه (أجيب) بان اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا

(اذ أخرجنى من السجن) وان لم يذكر يوسف عليه السلام نعمة الله عليه فى اخراجه من الجب مع انه اخراجه من السجن دون اعظم نعمة لان وقوعه فى الجب كان اعظم خطرا

الله لقصد تمام ثبت بذلك ان الكل من عند الله تعالى و بقضائه وقدره وليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ولما كان حصول الاجتماع بينه وبين اخوته وابويه مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال وكان فى غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير له اذ ما من صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها فاذا أراد حصول الشئ سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول (انه هو العليم) بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) أى الذى يفعل كل شئ فى وقته وعلى وجه يقتضى الحكمة روى ان يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه فلما ادخله خزانة القرطاس قال يا بنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال أمرنى جبريل بذلك قال أوما تسأله قال أنت اقرب منى اليه فسأله فقال جبريل الله امرنى بذلك لقولك واخاف ان يأكله الذئب قال فهلا خفتنى ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى يوسف عليه السلام ان يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة ثم عاد الى مصر وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ولما تم امره وعلم أنه لايدوم تاقت نفسه الى الملك الدائم فقال (رب قد آتيتنى) و فتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا (من الملك) اى بعضه بعد بعدى منه جدا وهو ملك مصر (وعلمتنى من) اى بعض (تأويل الاحاديث) طبق مابشرنى به ابى واخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل قولك والله غالب على امره ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال (فاطر) أى خالق (السموات والارض) ثم اعلمه بما هو عالم به مقصه من انه لايعول على غيره فى شئ من الاشياء (أنت وليى) اى الاقرب الى باطنا وظاهرا (فى الدنيا والآخرة) اى لاولى لى غيرك والولى يفعل لموليه الاصلح والاحسن فاحسن لى فى الآخرة اعظم مما احسنت لى فى الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته افضل ما اعطى السائلين فلهذا المعنى من أراد الدعاء لابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما اراد ان يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله (توفنى) اى اقبض روحى وافيا تاما فى جميع امرى حسا ومعنى حال كونى (مسلما) ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقا فى الاخلاص عقبه بقوله (وألحقنى بالصالحين) ونظيره مافعله الخليل عليه السلام فى قوله الذى خلقنى فهو يهدين فمن ههنا الى قوله رب هب لى حكما ثناء على الله تعالى ثم من قوله رب هب لى حكما الى آخر الكلام دعاء فكذا هنا *(تنبيه)* اختلف فى قوله توفنى مسلما هل هو طلب منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس فى رواية عطاء يريد اذا توفيتنى فتوفنى على الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه مايدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح للامرين ولا يبعد فى الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه

(قلت) لان مصيبة الحب كانت عنده اعظم لطول مدتها ولما احبته الاوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيه جبريل عليه السلام وغيره

كثيرة منها ان الخطباء والبلغاء والشعراء أطنبوا فى مذمة الدنيا الا أن حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة أمور احدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انها غير خالصة بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كانت حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يمكن تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ومنها أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة أما لذة الاكل ففيها عيوب احدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاؤها فان الانسان اذا أكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها فى نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولا شك انه شئ منفر ولما يصل الى المعدة يظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة له فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وآفة وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل من كانت همته ما يدخل فى بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل وأما لذة النكاح فما ذكر فى الاكل حاصل هنا مع أشياء أخر وهى ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى المال بطرق لا نهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها أن يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان ومنها انه عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال ومنها أنه يكون عند زوالها فى الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال فالعاقل اذا تأمل فى هذه المعانى علم قطعا انه لا صلاح له فى طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده أربح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ان ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسئلة للموت فقال له صنع الله لك خيرا كثيرا أحييت سننا وأمت بدعا وفى حياتك خير وراحة للمسلمين فقال أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (أجيب) بان حال كمال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب فى هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (فان قيل) ان يوسف عليه السلام كان من أكابر الانبياء والصلاح أول درجة المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية (أجيب) بان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال يعنى بان يلحقه بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقنى بهم فى ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام من امرأة

ولان قوله كن من الاشكال ... الجب توبيخا وتقريعا لاخوته بعد قوله لا تثريب عليكم اليوم (قوله توفنى مسلما) ان قلت كيف قال يوسف ذلك مع علمه بان كل نبى لا يموت الا مسلما (قلت)

العزيز ثلاثة افراثيم ومنشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك الخالد وتمنى الموت فلم يأت عليه أسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس في دفنه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري عليه الماء وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن في الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الآخر فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان الى أن أخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب آبائه بالشام وقد يسر الله تعالى في زيارته وزيارة آبائه في عام شرعت في هذا التفسير سنة أربع وستين وتسعمائة جمعني الله تعالى وآبائي وأهلي وأصحابي وأحبابي معهم في دار كرامته ولما تم الذي كان من أمر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الأحكم والصراط الأقوم من ابتدائه الى انتهائه قال تعالى مشيرا الى أنه دليل كاف في تصحيح نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله (ذلك) أي الذي ذكرناه لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) أي أخبار ما غاب عنك (نوحيه اليك) أي الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه اليك (و) الحال أنك (ما كنت لديهم) أي عند اخوة يوسف عليه السلام (إذ) أي حين (أجمعوا أمرهم) أي عزموا على أمر واحد وهو القاء يوسف في الجب (وهم يمكرون) أي يدبرون الأذى في الخفية بيوسف والمعنى ان هذا النبأ غيب لأنه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء واتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال انه حاضر معهم لابد وأن يكون معجزا وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم بهم لأن كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو حيان عن ابن الأنباري عن قصة يوسف عليه السلام نزلت مشروحة هذا الشرح الشافي مبينة هذا البيان الوافي فأمل صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك سبب اسلامهم فخالفوا تأميله عزاه الله تعالى بقوله (وما أكثر الناس) أي أهل مكة (ولو حرصت) على ايمانهم (بمؤمنين) لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة الى ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى (وما تسألهم عليه) أي على تبليغ هذا الكتاب الذي أوحيناه اليك وأغرق في النفي فقال (من أجر) حتى يكون سببا الى أن يتهموك أو يقولوا لولا أنزل عليه كنز يستغني به عن سؤالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوي بقوله تعالى (ان هو الا ذكر) أي عظة من الله تعالى (للعالمين) عامة ثم ان الله تعالى أخبر عنهم أنهم لما تأملوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى (وكأين) أي وكم (من آية) دالة على وحدانية الله تعالى (في السموات) كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (والأرض) من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (يمرون عليها) أي يشاهدونها (وهم عنها

قاله العلماء اظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليما للأمة وطلبا للثواب (قوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) فان قلت كيف قال ذلك مع أن

معرضون) اى لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون اذ المراد بها لم يتأملوا فى الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها ❊ ولما كان ربما قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الآيات بين ان اشراكهم مسقط لذلك بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بانه الخالق الرازق (الاوهم مشركون) بعبادتهم الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا فى العبودية وعن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى تلبية مشركى العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه أيضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل اشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان أكثر هؤلاء لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى (أفأمنوا) انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد (أن تأتيهم) فى الدنيا (غاشية) اى نقمة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله) أى الذى له الامر كله كما أتى من ذكرنا قصصهم من الامم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة وهم فى غاية الغفلة وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت اتيانها قبله كالتأكيد لقوله بغتة ❊ ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى امره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى (قل) يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحا واخلاصا (هذه) اى الدعوة الى الله تعالى التى أدعوا اليها (سبيلى) أى طريقتى التى ادعوا اليها الناس وهى توحيد الله تعالى ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدى الى ثواب الجنة (ادعوا الى الله) اى الى توحيده والايمان به (على بصيرة) اى حجة واضحة وقوله (أنا) تاكيد للمستتر فى أدعو وعلى بصيرة لانه حال منه ومبتدأ خبره على بصيرة وقوله (ومن اتبعنى) اى من آمن بى وصدق بما جاءنى عطف عليه لان كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بقدر وسعه الى الله وهذا يدل على ان الدعاء الى الله انما يحسن و يجوز مع هذا الشرط وهو ان يكون على بصيرة مما يقول و يقين فان لم يكن كذلك والا فهو محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون مايدعون اليه ❊ (فائدة) ❊ جميع القراء يثبتون الياء وقفا ووصلا لثبوتها فى الرسم (وسبحان) أى وقل سبحان (الله) تنزيها لله تعالى عما يشركون به (وما أنا من المشركين) أى الذين يتخذون مع الله ضدا وندا ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى (وما ارسلنا من قبلك) الى المكلفين (الا رجالا) اى مثل ما انك رجل لا ملائكة ولا اناثا كما قاله ابن عباس ولا من الجن كما قاله الحسن (يوحى اليهم) اى بواسطة الملائكة مثل ما يوحى اليك وقرأ حفص بعد الواو بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من اليهم حمزة على أصله وكسرها الباقون (من اهل القرى) أى من اهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من اهل البوادى لان اهل الامصار افضل وأعلم وأكمل وأعقل من اهل البوادى ومكة أم القرى لانها مجمع لجميع الناس لما أمروا به من حج البيت وكانت العرب كلهم

(قلت) معناه وما يؤمن أكثرهم بان الله خالقه ورازقه وخالق كل شئ قولا الا وهو مشرك بعبادة الاصنام فعلا او المراد به المنافقون يؤمنون بالسنتهم الايمان والشرك لا يجتمعان

بالمؤمنين فكيف تحيروا في صفات قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ثم
هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى (أفلم يسيروا) أي هؤلاء المشركون المكذبون (في الأرض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين للرسل والآيات فيحذروا تكذيبك
ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذاب الله ولما كان الله تعالى ينجي المؤمنين عند نزول العذاب
بالأمم الماضية المكذبة وما في الآخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى (ولدار الآخرة) أي ولدار
الحال الآخرة والساعة الآخرة والحياة الآخرة (خير) وهي الجنة (للذين اتقوا) الله
من حياة ما آخرها الموت وإن فرحوا فيها بالحال وإن امتدت ألف عام وكان عيشها كله رغدا
من غير آلام (أفلا يعقلون) فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعي إلى هذا السبيل الأقوم
وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لأهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهم
وللمشركين المكذبين وقوله تعالى (حتى إذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه الكلام
أي لا يغررهم تمادي أيامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم في الدنيا
ومن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وزع (وظنوا) أي أيقن
الرسل (أنهم قد كذبوا) بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائي تكذيبا لا إيمان بعده
وأما بالتخفيف كما قرأه هؤلاء فالمعنى أن الأمم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من
النصر عليهم (جاءهم نصرنا) لهم بخذلان أعدائهم (فنجي من نشاء) أي النبي والمؤمنون وقرأ
ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين
الأولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء (ولا يرد بأسنا) أي عذابنا (عن
القوم المجرمين) أي المشركين ما نزل بهم ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على
الاعتبار بها بقوله أفلم يسيروا اتبعه بأن في أحاديثهم أعظم عبرة فقال حثا على تأملها
والاستبصار بها (لقد كان في قصصهم) أي يوسف وإخوته أو في قصص الرسل (عبرة) أي عظة
عظيمة (لأولي الألباب) أي لذوي العقول المبرأة من شوائب الكدر يعبرون بها إلى
ما بعدهم لأن من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام لقادر على أن يعز محمدا صلى
الله عليه وسلم ويعلي كلمته وينصره على من عاداه كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره ولما
كان من أجل العبرة في ذلك القطع بحقية القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى
(ما كان حديثا يفترى) أي يختلق لأن الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم
لا يصح منه أن يفتريه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفتري
هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى
(ولكن تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب الإلهية المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل
ففي ذلك إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف
عليه السلام (و) زاد على ذلك بقوله (تفصيل) أي تبيين (كل شيء) أي يحتاج إليه من الدين
إذ ما من أمر ديني إلا وهو يستند من القرآن بواسطة أو بغير واسطة وقيل المراد تفصيل كل شيء من
واقعة يوسف مع أبيه وإخوته قال الواحدي وعلى التفسيرين جميعا هو من العام الذي أريد
به الخاص كقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء أي يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى وأوتيت

قوله ويشركون بقلوبهم اعتقادا (قوله أفلم يسيروا في الأرض) قال هنا وفي الحج وفي آخر غافر بالفاء وقال في الروم وفاطر وأول غافر بالواو لأن ما في الثلاثة الأول تقدمه التعجب

من كل شئ (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من انزله معجزا باهرا وقاضيا بالحق لا يزال ظاهرا وما رواه البيضاوى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد أحدا حديث موضوع والله أعلم

سورة الرعد مكية

الا ولا يزال الذين كفروا الآية و يقول الذين كفروا لست مرسلا الآية أو مدنية الا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وهى ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة أحرف (بسم الله) الحق الذى كل ما عداه باطل (الرحمن) الذى عم بالرغبة والرهبة لعموم الرحمة (الرحيم) الذى خص من شاء بما يرضاه عظيم الرهبة (المر) قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى وقال فى رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شئ من أوائل السور فى أول سورة البقرة وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرأ ورش بين بين والباقون بالامالة (تلك) أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب بأل لان خبر المبتدا اذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة وقوله تعالى (والذى انزل اليك من ربك) أى القرآن مبتدأ وخبره (الحق) أى الموضوع كل شئ منه فى موضعه على ما تدعو اليه الحكمة الواضح الذى لا يتخلف شئ منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره (ولكن اكثر الناس) أى مشركى مكة (لا يؤمنون) لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك * ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بامور أحدها قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) أى سوار ٣ جمع عمود كأدم وأديم أو عماد كاهب واهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل (ترونها) أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها فالهاء مدفنية بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة ففى ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد أى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازى وهذا التأويل فى غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة تبقى فيها على وجود الاله * (تنبيه) * الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى (ثم استوى على العرش) بالحفظ والتدبير والقهر

فى الانكار بالفاء فى قوله هنا أفامنوا ان تأتيهم غاشية وفى الحج فهى خاوية على عروشها وفى آخر غافر فأى آيات الله تنكرون وما فى الثلاثة الاخيرة

٣ قوله جمع عمود كأدم وأديم الخ فى حاشية الجمل والعامة على فتح العين والميم وهو اسم جمع وعبارة بعضهم انه جمع نظرا الى المعنى دون الصناعة وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب عمد بضمتين ومفرده يحتمل أن يكون عمادا كشهاب وشهب وكتاب وكتب وأن يكون عمودا كرسول ورسل اهـ

والقدرة أي انه من فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره وفي الاحتياج اليه وتقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف بما فيه كفاية وثانيها قوله تعالى (وسخر) أي ذلل (الشمس والقمر) لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل) منهما (يجري) في فلكه (لأجل مسمى) أي الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد واحد منها في ستة أشهر مرة أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجري لأجل مسمى هذا وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من تلك الكواكب سيرا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء وحينئذ يلزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الامر) أي يقضي أمر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد وفي ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلى العرش الى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله عز وجل والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شيء آخر فانه يشغله شأن عن شأن فالعاقل اذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الاجساد وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات * ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى (يفصل) أي يبين (الآيات) التي برزت الى الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة على امتناعه فيفرقها ويباين بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا أنه الفاعل الواحد المختار * ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله (لعلكم) يا أهل مكة (بلقاء ربكم) بالبعث (توقنون) فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه بعد موته روي أن واحدا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي لا يبعد أن يرد الارواح الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن * (تنبيه) * اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق المعرفة والدراية وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك * ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال

تقدمه التعميم بالواو في قوله في الروم أولم يتفكروا في أنفسهم وفي فاطر أولم نعمركم وفي أول غافر وأنذرهم يوم الآزفة وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من

قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية بقوله تعالى (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند أصحاب الهيئة أنها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافى كونها كرة كما ثبت بالدليل (أجيب) بان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما أن الله تعالى جعل الجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض ودحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلائل الارضية الثانى منها قوله (وجعل) أى وخلق (فيها) أى الارض (رواسى) أى جبالا ثوابت واحدها راسية أى ثابتة باقية فى حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ما هى راسية فيه وهذا لابد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس أول جبل وضع على وجه الارض جبل أبى قبيس * ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسى صارت الصفة تغنى عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل قاله أبو حيان الثالث منها قوله تعالى (وانهارا) أى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجارى الماء وأصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه الرابع منها قوله تعالى (ومن كل الثمرات) وهو متعلق بقوله تعالى (جعل فيها) أى الارض (زوجين اثنين) أى وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو اللون كالاسود والابيض أو الحجم كالصغير والكبير أو الطبيعة كالحار والبارد (فان قيل) الزوجان لابد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى اثنين (أجيب) بانه قيل انه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص فلما قال اثنين علم أنه تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد فكما أن الناس وان كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص آدم وحواء فكذا القول فى جميع الاشجار والزروع الخامس منها قوله تعالى (يغشى) أى يغطى (الليل) بظلمته (النهار) أى والنهار الليل بضوئه ليستدل فعلهما على ما قدره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل انهما بتدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين * ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال تعالى (ان فى ذلك) أى الذى وقع التحدث عنه من الآيات (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) أى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدا بقوله تعالى (وفى الارض) أى التى أنتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك (قطع) أى بقاع مختلفة (متجاورات) أى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة والاخرى سبخة لا تنبت

دونه لا يغضون شىء

* (سورة الرعد) *

(قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ختم الآية هنا بيتفكرون وختمها بعد بيعقلون لان التفكر فى الشىء سبب

وأخرى صالحة للزرع لا الشجر وأخرى بالعكس وأخرى قليلة الريع وأخرى كثيرته مع
انتظام الكل في الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى (وجنات) أي بساتين فيها أنواع
الاشجار من نخل وأعناب وغير ذلك كما قال تعالى (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع
صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في
عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعني أنهما من أصل واحد (وغير صنوان) أي متفرقات
مختلفة الاصول وهي البستان جنة لانه يستر بأشجاره الارض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو
وحفص برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين في العين
واللام والنون وعدم التنوين في الراء والباقون بالخفض في الاربعة وعدم التنوين في الراء
ولما كان الماء بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام أعجب
وأدل على الاسناد الى الواحد المسبب لا الى شئ من الاسباب قال (تسقى) قرأه ابن عامر
وعاصم بالياء على التذكير أي المذكور وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أي الجنات وما فيها
(بماء واحد) فتخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم والماء جسم
رقيق مائع به حياة كل نام وقيل في حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على
بعض في الاكل) أي في الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك وفي الشكل والرائحة والمنفعة
وغير ذلك وذلك أيضا مما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب
لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد وذلك كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم
واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم وكانت الارض طينة واحدة في
يد أي في قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء فتخرج
هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد
وكذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع
وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده
بزيادة أو نقصان قال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين
الا خسارا وقرأ حمزة والكسائي بالياء ليطابق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرأ
نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع (ان في ذلك) أي الامر العظيم الذي ذكرناه
(لآيات) أي دلالات (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر في الآيات
الدالة على وحدانيته تعالى * ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر
بعده ما يدل على المعاد بقوله تعالى (وان تعجب) أي يا أكرم الخلق من تكذيب الكفار لك
بعد أن كنت تعرف عندهم بالصادق الامين (فعجب) أي فحقيق أن يتعجب منه (قولهم) أي
منكري البعث (أئذا كنا ترابا) أي بعد الموت (أئنا لفي خلق جديد) أي نخلق بعد الموت كما
كنا قبله ولم يعلموا أن القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم (وقيل)
وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بأن الله
تعالى خالق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا قدرة الله تعالى وما ضرب لهم به
الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وقال المتكلمون

التعقل والسبب مقدم على
السبب فناسب تقدم
التفكر على التعقل (قوله
وقد يسجد من في السموات
والارض) * ان قلت
كيف قال ذلك هنا وقال
في الحج ان الله يسجد له

العجب هو الذى لا يعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء فى الفاء والباقون بالاظهار *(تنبيه)* هنا آيتان فى كل منهما همزتان فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما ألفا على الاستفهام وفى الآية الثانية بهمزة مكسورة بعدها نون مشددة على الخبر وورش كذلك الا أنه لا يدخل بين الهمزتين فى أئذا ألفا وينقل فى الثانى على أصله وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير ادخال ألف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل الثانية فيهما وأبو عمرو كذلك مع ادخال ألف بينهما وابن عامر فى الاول بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر وفى الثانى بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بهمزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا ألف بينهما فى الموضعين *(فائدة)* جميع ما فى القرآن من ذلك أحد عشر موضعا فى تسع سور والاحد عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين فى هذه السورة موضع والثانى والثالث فى سورة الاسراء والرابع فى المؤمنون والخامس فى النمل والسادس فى العنكبوت والسابع فى السجدة والثامن والتاسع فى الصافات والعاشر فى الواقعة والحادى عشر فى النازعات وأذكر ان شاء الله تعالى فى كل سورة من السور المذكورة مذهبهم فى محله (اولئك) أى البعداء من كل خير (الذين كفروا بربهم) أى غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع اللطف فاذا أنكروا معادهم فقد أنكروا بدأهم (واولئك) البعداء البغضاء (الاغلال) يوم القيامة (فى اعناقهم) بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم (واولئك) أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم (اصحاب النار هم فيها خالدون) أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون *ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن واظهار ان الذى يقوله كلام لا أصل له نزل (ويستعجلونك) أى استهزاء وتكذيبا والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشئ قبل وقته الذى يقدر له (بالسيئة) أى العذاب (قبل الحسنة) أى الرحمة وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم *(تنبيه)* قوله قبل الحسنة فيه وجهان أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة قاله أبو البقاء (وقد) أى والحال أنه قد (خلت من قبلهم المثلات) جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات أى عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس معناه لذو تجاوز عن

من فى السموات ومن فى الارض وفى النحل ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض (قلت) لانه هذا ذكر العلويات من الرعد والبرق والسحاب ثم الملائكة بتسبيحهم ثم

المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب * ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغبا فى اجابة مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم قال الله تعالى له (انما أنت منذر) أى ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الآيات (ولكل قوم هاد) أى نبى يدعوهم الى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وقرأ ابن كثير فى الوقف بياء بعد الدال وفى الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء فى الوقف والوصل مع تنوين الدال * ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك (وما تغيض) أى تنقص (الارحام) من مدة الحمل (وما تزداد) أى من مدة الحمل فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند الامام أبى حنيفة والى أربع عند الامام الشافعى والى خمس عند الامام مالك رضى الله تعالى عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقى فى بطن أمه أربع سنين ولذلك سمى هرما وقيل ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيده منهم روى ان شريكا كان رابع أربعة فى بطن أمه وقيل من نقصان الولد فيخرج ناقصا والزيادة تمام خلقه وقيل ما تنقص بالسقط عن ان يتم وما يزداد بالتمام وقيل ما تنقص بظهور دم الحيض وذلك انه اذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الامر والآية تحتمل جميع ذلك اذ لا تنافى فى هذه الاقوال ويدل لذلك قوله تعالى (وكل شئ) من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها (عنده) اى فى علمه وقدرته (بمقدار) فى كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شئ وكميته على الوجه المفصل المبين * (تنبيه) * قوله تعالى عنده يجوز أن يكون مجرور المحل صفة لشئ أو مرفوعه صفة لكل أو منصوبه ظرفا لقوله بمقدار أو ظرفا للاستقرار الذى تعلق به الجار لوقوعه خبرا (عالم الغيب) وهو ما غاب عن كل مخلوق (والشهادة) وهو ما شاهدوه وقيل الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر فى الحس (الكبير) أى العظيم (المتعال) عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وقرأ ابن كثير فى الوقف والوصل بياء بعد اللام والباقون بغير ياء وقفا ووصلا * ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الاشياء قال تعالى (سواء منكم) أى فى علمه تعالى (من أسر القول) أى أخفى معناه فى

الاصنام والكفار فبدأ بذكر من فى السموات لتقدم ذكرهم واتبعهم من فى الارض ولم يذكر من فيها استخفافا بالاصنام والكفار وفى الحج تقدم ذكر المؤمنين وسائر الاديان فقدم ذكر من فى السموات لشرفهم ثم قال ومن فى الارض لتقدم ذكر المؤمنين وفى النحل تقدم ذكر ما خلقه الله عاما ولم يكن فيه ذكر الملائكة والجن ولا الانس =

نفسه (ومن جهر به) أى أظهره فقد استوى فى علمه تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف) أى مستتر (بالليل) أى بظلامه (وسارب) أى ظاهر بذهابه فى سربه (بالنهار) والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال ابن عباس سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح فى ظلمات الليل ومن يأتى بها فى النهار الظاهر على سبيل التوارى والضمير فى (له) يعود الى من فى قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل أو للانسان (معقبات) أى ملائكة تعقبه والذى عليه الجمهور ان المراد بالملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار روى عن عثمان أنه قال يارسول الله اخبرنى عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذى على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذى على الشمال لصاحب اليمين اكتب قال لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا قال اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله واستحياءه منا فهو قوله تعالى له معقبات (من بين يديه) أى قدامه (ومن خلفه) أى وراءه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك ٣ فهذه عشرة أملاك على كل آدمى ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فهم عشرون ملكا على كل آدمى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل يحفظه من الجن والانس والهوام فى نومه ويقظته (فان قيل) الملائكة ذكور فلم ذكروا فى جمع الاناث وهو المعقبات (أجيب) بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل أبناوات ورجالات جمع أبناء ورجال ٤ والذى على التذكير قوله تعالى (يحفظونه) والثانى وهو قول الاخفش انما أنث لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر واختلف فى المراد من قوله تعالى (من امر الله) على أقوال أحدها انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا أى ذلك الحفظ من أمر الله أى مما أمر الله تعالى به فحذف الاسم وأبقى خبره ثالثها ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه أى يحفظون عليه الحسنات والسيآت (فان قيل) ما الفائدة فى تخصيص هؤلاء الملائكة مع بنى آدم وتسليطهم عليهم (أجيب) بأن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان الى الحذر من المعاصى أقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونه ازجره الحياء منهم عن الاقدام اليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه من البشر

٣ قوله فهذه عشرة الخ عبارة العلامة عبد السلام على الجوهرة وعند الطبرانى أن عثمان سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلين بالآدمى فقال لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جانبيه وآخر قابض على ناصيته فان تواضع رفعه وان تكبر وضعه واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه الا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه اه وهو ظاهر اه مصححه

٤ قوله والذى على التذكير لعله والذى يدل على التذكير اه مصححه

واذا علم أن الملائكة تحصى عليه ذلك لاجل كان ذلك أيضا رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل * ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى (ان الله) مع قدرته (لا يغير ما بقوم) أى لا يسلبهم نعمته (حتى يغيروا ما) أى الذى (بأنفسهم) من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة (واذا أراد الله بقوم سوأ) أى هلاكا وعذابا (فلا مرد له) أى لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره (وما لهم) أى ان أراد الله بهم سوأ (من دونه) أى غير الله (من وال) يلى أمرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرأ ابن كثير فى الوقف باثبات الياء بعد اللام دون الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا * ولما خوف الله تعالى بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفا) أى للمسافرين من الصواعق (وطمعا) أى للمقيم فى المطر وقيل ان كل شئ يحصل فى الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين وكذلك المطر خير فى حق من يحتاج اليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب (وينشئ) أى يخلق (السحاب الثقال) أى بالمطر * (تنبيه) * خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف أى تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه غربال الماء وهو غيم ينسحب فى السماء وهو اسم جنس جمعى واحده سحابة وأكثر المفسرين على أن الرعد فى قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده) على انه اسم للملك الذى يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه فى قوله تعالى (والملائكة) أى تسبحه (من خيفته) أى الله لانه أفرد لذكر تشريفا له كما فى قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهى آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق فى حديث آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس أنه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير أنه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفى بعض الاخبار يقول الله تعالى لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وفى رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر ٣ وانه يحوز الماء فى نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى ملك فى السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن أن الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات فى ذلك ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب وفى بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل

= بالصريح فقال ما فى السموات وما فى الارض فقال فى كل آية ما يناسبها (قوله الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قاله هنا وفى القصص والعنكبوت والروم بلفظ الله وفى الاسراء وفى سبأ فى موضعين

٣ قوله وانه يحوز كذا فى النسخة المطبوعة وفى بعض النسخ وانه يحور على صيغة جمع محور واحور اه مصححه

بجدائه وفى بعضها أنه ملك سمى به وهو الذى تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك فى البقرة وقيل هؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهر وقوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه (فيصيب بها من يشاء) فيهلكه (وهم يجادلون فى الله) حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد فى الخصومة روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات فى بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية فنزلت وعن الحسن أنه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعوننى اليه مم هو أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال أجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى وأخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم فقالوا من أين علمتم فقالوا أوحى الله تعالى الى النبى صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) واختلف المفسرون فى قوله تعالى وهو شديد المحال فقال على رضى الله عنه شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلف فى قوله تعالى (له) أى الله (دعوة الحق) فقال على دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعاء اليه دعوة الحق (والذين يدعون) أى وهم الكفار (من دونه) أى غير الله وهى الاصنام (لا يستجيبون) أى الاصنام (لهم) أى الكفار (بشىء) مما يطلبونه من نفع أو دفع ضر (الا) أى الا استجابة (كباسط) أى كاستجابة باسط (كفيه الى الماء) أى على شفير البئر يدعوه (ليبلغ فاه) أى بارتفاعه من البئر اليه (وما هو) أى الماء (ببالغه) أى فاه أبدا لانه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين لهم أبدا لان أصنامهم كذلك وقيل شبهوا فى قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشرب به فبسط كفيه ناشرا أصابعهما ولم يصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من مشربه ثم انه تعالى عمم فى أنه لا يستجاب لهم بقوله تعالى (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) أى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا آلهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالدعاء فى الحالين العبادة وقوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والارض) يحتمل أن يراد به

وفى الشورى
باللفظ الرب
باضمار لفظ الله وبزيادته
وفى ثاني
فى العنكبوت وفى
موضعى سبا وبزيادة من
عباده فى العنكبوت وفى
القصص وفى ثانى موضعى
سبا موافقة لتقدم تكرار

السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى (طوعا) للملائكة والمؤمنين من الثقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى (وكرها) للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود بالسيف وأن يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات والارض معترف بعبودية الله تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل * (تنبيه) * قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من أجله واما حال أي طائعين وكارهين واختلف في تفسير قوله تعالى (وظلالهم بالغدو) أي البكر (والآصال) أي العشايا أي تسجد فقال أكثر المفسرين كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع وظل الكافر يسجد لله تعالى وهو كاره وقال الزجاج جاء في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال عقولا وأفهاما تسجد بها لله وتخشع وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين * (تنبيه) * الغدو جمع غداة كقنى وقناة والآصال جمع الاصل والاصل جمع أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس * ولما بين تعالى ان كل من في السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عباد الاصنام بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك (من رب السموات والارض) أي من مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما (قل الله) أي أجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره ولانه البين الذي لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وروي أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله تعالى فأجاب بذلك ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله تعالى (قل) لهم (أفاتخذتم من دونه) أي غير الله (أولياء) أي أصناما تعبدونها (لا يملكون لانفسهم نفعا) يجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال في أتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوي الاعمى والبصير) قال ابن عباس يعني المشرك والمؤمن وانما مثل الكافر بالاعمى لانه لا يهتدي سبيلا وكذلك الكافر لا يهتدي سبيلا * ثم ضرب الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى (أم هل تستوي الظلمات) أي الكفر (والنور) أي الايمان الجواب لا وقرأ شعبة وحمزة والكسائي يستوي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وأما اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين (أم جعلوا لله شركاء) والهمزة للانكار وقوله تعالى (خلقوا كخلقه) صفة شركاء أي خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق) أي خلق الشركاء بخلق الله (عليهم) من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام انكار أي ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق * ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم ان الخالق كله لله لزمتهم الحجة

لفظ الله تعالى في السور الاربع ولتقدم تكرر لفظ الرب في المواضع الثلاثة ولتقدم تكرر الاضمار في الشورى وزاد في العنكبوت من عباده ولموافقته لبسط الكلام على الرزق

فقال تعالى (قل) لهؤلاء المشركين (الله خالق كل شئ) أى مما يصح أن يكون مخلوقا فهو من العموم الذى يراد به الخصوص فلا يدخل فى ذلك صفات الله تعالى واذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه فى العبادة أحد فوجب أن يتفرد بالالهية كما قال تعالى (وهو الواحد) أى الذى لا يجانسه شئ وكل ماسواه لا يخلو عن مماثل يماثله وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له (القهار) الذى كل شئ تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته * ثم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى (أنزل من السماء) أى السحاب أو السماء نفسها (ماء) أى مطرا (فسالت أودية) أى أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه وتنكيرها لان المطر يأتى على تناوب بين البقاع (بقدرها) أى بمقدارها الذى علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها فى الصغر والكبر (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى عاليا عليه هو ما على وجهه من قذر ونحوه (ومما توقدون عليه فى النار) أى من جواهر الارض الذهب والفضة والنحاس والحديد (ابتغاء) أى طلب (حلية) أى زينة (أو متاع) أى ينتفع به كالاوانى اذا أذيبت وآلات الحرب والحرث والمقصود من هذا بيان منافعها (زبد مثله) أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير ومن للابتداء أو للتبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة على أن الضمير للناس واضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب (كذلك) أى مثل هذا الضرب العلى الرتب المتين السبب (يضرب الله) أى الذى له الامر كله (الحق والباطل) أى مثلهما فانه تعالى مثل الحق فى افادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ويمكث فى الارض بأن يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنى والآبار ومثل الباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى (فأما الزبد) أى من السيل وما أوقد عليه من الجواهر (فيذهب جفاء) قال أبو حيان مضمحلا أى متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له وقال ابن الانبارى متفرقا وانتصابه على الحال (وأما ما ينفع الناس) من الماء ومن الجواهر الذى هو مثل الحق (فيمكث فى الارض) أى يثبت ويبقى لينتفع به أهلها (كذلك) أى مثل ذلك الضرب (يضرب) أى يبين (الله) الذى له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (الامثال) فيجعلها فى غاية الوضوح وان كانت فى غاية الغموض قال أهل المعانى هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق فى بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد فيبقى الماء الصافى الذى ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لا ينتفع به البتة * ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر مالاهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى (للذين استجابوا لربهم) أى أجابوه الى مادعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الاموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (الحسنى) قال ابن عباس ٣ وقال أهل المعنى الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة

المذكور فيها صح واو وزاد فى القصص من عباده موافقة لذلك وان كان لفظ الرزق فيه نفعنا وزاد من عباده فى ثانى موضعى سبأ لانه نزل فى المؤمنين وما قبله فى الكافرين وحذف

٣ قوله قال ابن عباس وقال أهل المعانى هكذا بالاصول ولينظر ما قاله ابن عباس اه مصححه

الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها في سورة أخرى وهي قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هذا مآل أهل الحق وأما مآل أهل الباطل فهو ما ذكره بقوله جل من قائل (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) أي جعلوه فكاك أنفسهم بغاية جهدهم لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الضرر والالم والتعب وكان عالكا لما يساوي عالم الاجناس والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء نفسه لان المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية في به عائدة الى ما في قوله ما في الارض والنوع الثاني من أنواع العذاب الذي أعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وهو المناقشة فيه وعن النخعي بأن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شئ وانما نوقشوا لانهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ما ذكره بقوله تعالى (ومأواهم) أي مرجعهم (جهنم) وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك كان مأواهم جهنم ثم انه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل (وبئس المهاد) أي الفراش والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم ونزل في حمزة وأبي جهل وقيل في عمار وأبي جهل (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق) أي يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار رضي الله تعالى عنهما (كمن هو أعمى) أي أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبو جهل قال ابن الخازن في تفسيره وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي لرشد (انما يتذكر) أي يتعظ (أولوا الالباب) أي أصحاب العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث الى سره ولبابه (الذين يوفون بعهد الله) أي ما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه (ولا ينقضون الميثاق) أي ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أي من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون على أنه أراد به صلة الرحم عن أبي موسى ان عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه تعالى أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وفيه قولان أحدهما وهو المشهور أنه يزاد في عمره

لفظه له في غير الغضوب وفي أول موضعي سبأ اختصارا (قوله قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب) ان قلت كيف طابق هذا الجواب قوله لولا أنزل عليه آية من ربه

زيادة حقيقية والثاني يبارك له في عمره فكأنه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تأتي يوم القيامة لها ألسنة ذلقة الرحم فتقول أي رب قطعت والامانة تقول أي رب تركت والنعمة تقول أي رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو أحسن كل الاحسان وكانت له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين (ويخشون ربهم) أي وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) اى على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله (ابتغاء) اى طلب (وجه ربهم) أي رضاه لا طلب غيره من جور أو سمعة أو رياء أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك (وأقاموا الصلوة) اى المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى أن يؤديها سرا وان كان يتهم بترك أدائها فالاولى أن يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام (ويدرؤن) أي يدفعون (بالحسنة السيئة) كالجهل بالحلم والاذى بالصبر روى عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيئ من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وروى أن شقيقا البلخي دخل على ابن المبارك متنكرا فقال له من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه قال اذا منعوا صبروا واذا أعطوا شكروا فقال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي أن يكون الامر فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم عقبى الدار) وبينها تعالى بقوله (جنات عدن) أي اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا أقام به ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى (يدخلونها) ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع (ومن صلح من آبائهم) أي الذين كانوا سببا في

(قلت) المعنى قل لهم ان الله أنزل على آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة لكن الاضلال والهداية من الله فأضلكم عن تلك الآيات وهدى اليها آخرين فلا فائدة في تكثير الآيات

ايجادهم فيشمل ذلك الآباء والامهات وان علوا (وأزواجهم وذرياتهم) أى الذين تسببوا عنهم والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى فى صفة أهل الجنة انهم يقولون ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين وفى ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك الصفات يقترن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الانساب لا تنفع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل أعمالهم قال الرازى قوله وأزواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وماروى عن سودة أنها لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يارسول الله أحشر فى جملة نسائك كالدليل على ماذكرنا اه وعلى هذا من تزوجت بغيره وقيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى فى ترغيبهم بقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم) لان الاكثار من تردد رسل الملك أعظم فى الفخر وأكثر فى السرور والعزة ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الادب والكرم قال تعالى (من كل باب) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم (سلام عليكم) أى فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) على أمر الله والباء السببية أى بسبب صبركم أو البدلية أى بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه (فان قيل) بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشرى بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوى متعلق بعليكم أو بمحذوف لا بسلام فان الخبر فاصل مع أن الزمخشرى قال ويجوز أن يتعلق بسلام أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا أظهر ورد الاول بأن الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدرى وفعل والمصدر هنا ليس كذلك * ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى (فنعم عقبى الدار) وهى المسكن فى قرارها بالابنية التى يحتاج اليها والمرافق التى ينتفع بها والعقبى الانتهاء الذى يؤدى اليه الابتداء من خير أو شر والمخصوص بالمدح محذوف أى عقباكم * ولما ذكر تعالى صفات السعداء وما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر أحوال الاشقياء وذكر مايترتب عليها من الاحوال المخزية المكربة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله) أى فيعملون بخلاف موجبه والنقض التفريق الذى ينفى تأليف البناء (من بعد ميثاقه) أى الذى أوثقه عليهم من الاقرار والقبول (ويقطعون ما) أى الذى (أمر الله به أن يوصل) وذلك فى مقابلة قوله من قبل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ماأوجب الله تعالى وصله أى لما لهم من المحاسن الجلية والخفية التى هى عين الصلاح ويدخل فى ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق (ويفسدون) أى يوقعون الفساد (فى الارض) أى فى أى جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء الى غير دين الله تعالى (أولئك) أى البعداء

والمعجزات أو هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم لان الآيات الباهرة المتكاثرة التى ظهرت على النبى صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من ان تشتبه على العاقل فلما طلبوا بعدها آيات أخر

البغضاء (لهم اللعنة) أي الطرد والبعد (ولهم سوء الدار) والدار لهم هي جهنم وليس لهم فيها الا ما يسوء الصائر اليها * ولما حكم تعالى على من نقض عهده في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله تعالى لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا فأجاب الله تعالى بقوله تعالى (الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء ويقدر) أي يضيقه على من يشاء سواء في ذلك الطائع والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان * ولما كانت السعة مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال الله تعالى (وفرحوا) أي كفار مكة فرح بطر (بالحيوة الدنيا) أي بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا) أي بكمالها (في الآخرة) أي في جنبها (الا متاع) أي حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهي ما يتعجله من تميرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا) أي هلا (أنزل عليه) أي على هذا الرسول (آية) أي علامة بينة (من ربه) أي المحسن اليه كالعصا واليد لموسى والناقة لصالح لنهتدي بها فنؤمن به * وأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله (قل) أي لهؤلاء المعاندين (ان الله يضل من يشاء) اضلاله فلا تغني عنه الآيات شيأ وان أنزلت كل آية (ويهدي) أي يرشد (اليه) أي الى دينه (من أناب) أي رجع اليه كأبي بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله تعالى في طلب الهداية وقوله تعالى (الذين آمنوا) بدل من من أناب أو خبر مبتدأ محذوف (وتطمئن) أي تسكن (قلوبهم بذكر الله) أي أنسا به واعتمادا عليه ورجاء منه أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده أو بالقرآن الذي هو أقوى المعجزات وقال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت (فان قيل) قد قال الله تعالى في سورة الأنفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين (أجيب) بأنهم اذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما (ألا بذكر الله) أي الذي له الجلال والاكرام لا بذكر غيره (تطمئن) أي تسكن (القلوب) ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ خبره (طوبى لهم) واختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعي خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازي وهذا القول ضعيف لأنه ليس في القرآن الا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن أبي هريرة وأبي الدرداء ان طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح

كان محل التعجب والانكار فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء لكن كان على صنيعكم من التصميم على الكفر فلا سبيل الى هدايتكم وان أنزلت كل آية ويهدي

الله تعالى بانواع التسبيح وعن أبي سعيد الخدري أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية ابن قرة عن أبيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة وفي رواية عن أبي هريرة انه قال ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتتفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا للضم ما قبلها مصدر الطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا (وحسن مآب) أي حسن المنقلب (كذلك) أي مثل ارسال الرسل الذين قدمنا الاشارة اليهم في آخر سورة يوسف وفي غيرها (أرسلناك في أمة) أي جماعة كثيرة (قد خلت من قبلها) أي تقدمتها (أمم) طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم بهم في عدم الاجابة حتى كانهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم (لتتلو) أي لتقرأ (عليهم) أي على أمتك (الذي أوحينا اليك) من القرآن وشرائع الدين (وهم) أي والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) أي بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شئ وقال قتادة هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعني مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن أي انهم يكفرونه ويجحدونه قال البغوي والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد ان الرحمن الذي أنكرتم معرفته (هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت) أي اعتمدت عليه في أموري كلها (واليه متاب) أي مرجعي ومرجعكم روي ان أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومي سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها وأحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول ام باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) اي نقلت عن أماكنها (أو قطعت) اي شققت (به الارض) من خشية الله تعالى عند قراءته فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) أي بأن يحيوا وجواب لو محذوف أي لكان هذا القرآن لانه في غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل تقديره لما آمنوا ونقل عن الفراء ان جواب لو هي الجملة من قوله وهم يكفرون ففي الكلام تقديم وتأخير وما بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به

لمن كان على خلاف صنيعكم (قوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ان قلت كيف طابقه قوله وجعلوا لله شركاء (قلت) فيه محذوف تقديره

الارض اوكلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم (فان قيل) لم حذفت التاء فى قوله تعالى أو كلم به الموتى وثبتت فى الفعلين قبله (أجيب) بانه من باب التغليب لان الموتى يشمل المذكر والمؤنث (بل لله الامر) اى القدرة على كل شئ (جميعا) وهذا اضراب عما تضمنته لو من معنى النفى اى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بانه لا يلين قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى (افلم ييأس الذين آمنوا) عن ايمانهم مع ما رأوا من أحوالهم وذهب أكثرهم الى أن معناه افلم يعلم الذين آمنوا (أن) اى بانه (لو يشاء الله) أى الذى له صفات الكمال (لهدى الناس جميعا) اى الى الايمان من غير آية ولكنه تعالى لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا) اى جميع الكفار (تصيبهم بما) اى بسبب ما (صنعوا قارعة) اى نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا تارة بالجدب وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف فى الكفار على قولين قيل أراد بهم جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل وقيل المراد الكفار من أهل مكة والالف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (او تحل) أى تنزل تلك القارعة (قريبا من دارهم) اى فتفزعون أمرهم وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم مكة كما حل بالحديبية (حتى يأتى وعد الله) اى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) لامتناع الكذب فى كلامه تعالى * ولما كان الكفار يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزئ بك (فامليت للذين كفروا) أى أطلت المدة بتأخير العقوبة (ثم أخذتهم) بالعقوبة (فكيف كان عقاب) أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك والاملاء الامهال بان يترك مدة من الزمان فى راحة وأمن كالبهيمة على اهاق المرعى وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى (أفمن هو قائم) أى رقيب (على كل نفس بما كسبت) أى عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ولا بد لهذا الكلام من جواب فان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لا تنفع ولا تضر دل على هذا المحذوف قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام الآية تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون الخبر مقابلا للمبتدا وقد جاء مبينا كقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى (قل سموهم) فيه

أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر كمن ليس كذلك من شركائهم التى لا تضر ولا تنفع ويدل له قوله وجعلوا لله شركاء ونحوه قوله تعالى

تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقون الاسماء والمعنى سموهم بأسمائهم الحقيقية فانهم اذا عرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك علم أنها مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ثم قيل أرجعهم عن ذلك الى الاقرار بأنهم من جملة عبيده (أم تنبئونه) أي تخبرونه (بما لا يعلم) وعلمه محيط بكل شيء (في الارض) من كونها آلهة ببرهان قاطع (أم) تسمونهم شركاء (بظاهر من القول) أي بحجة قاطعة تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشيء وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالاعجاز * ولما كان التقدير ليس لهم على شيء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بني عليه قوله تعالى (بل زين) أي وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان من شياطين الانس أو شياطين الجن (للذين كفروا مكرهم) أي أمرهم الذي أرادوا به ما يراد بالمكر من اظهار شيء وابطان غيره وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم في الباطن الا تقليد الآباء وأظهروا أنهم يعبدونهم للتقرب بهم الى الله زلفى والتشفع لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر (وصدوا) غيرهم (عن السبيل) أي طريق الهدى الذي لا يقال لغيره سبيل فان غيره عدم بل العدم خير منه فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا وليس ذلك بعجيب فان الله أضلهم (ومن يضلل الله) أي الذي له الامر كله بارادة اضلاله (فما له من هاد) وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد الدال في الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك من واق وكذا والواق * ولما أخبر الله تعالى بهذه الامور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى (لهم عذاب في الحيوة الدنيا) بالقتل والاسر والذل والاهانة واغتنام الاموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) أي أشد في المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الانواع والدوام وعدم الانقطاع ثم بين تعالى أن أحدا لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى (وما لهم من الله من واق) أي مانع يمنعهم اذا أراد بهم سوأ في الدنيا ولا في الآخرة والواقي فاعل من الوقاية وهي الحجز بما يدفع الاذية * ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى (مثل) أي صفة (الجنة) أي التي هي مقرهم (التي وعد المتقون) واختلف في اعراب ذلك على أقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليك مثل الجنة والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره (تجري من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر والرابع الخبر (أكلها) أي ما يؤكل فيها (دائم) لا ينقطع الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة أوصاف الاول تجري من تحتها أي من تحت قصورها وأشجارها الانهار الثاني أن أكلها دائم لا ينقطع أبدا بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى (وظلها) أي دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى (تلك) أي الجنة العالية الاوصاف (عقبى) أي آخر أمر (الذين اتقوا) أي الشرك ثم كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى (وعقبى) أي منتهى أمر (الكافرين النار)

أفمن شرح الله صدره للاسلام تقديره كمن قسا قلبه بدل لدلالة فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله (قوله قل انما أمرت أن أعبد الله) الى قلت كيف اتصال هذا بقوله قبله ومن

لا غير وفي ترتيب النظم من اطماع للمتقين واقناط للكافرين واختلف في قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) على قولين الاول أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن (يفرحون بما انزل اليك) من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص (ومن الاحزاب) اى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة (فان قيل) الاحزاب منكرون كل القرآن (أجيب) بانهم لا ينكرون كل ما في القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة وباهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام واصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من أرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين وقيل كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره في القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعني مشركي مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعني مسيلمة فانزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه في معرفة المبدا والمعاد وبينه بالفاظ قليلة فقال (قل) اى يا أكرم الخلق على الله تعالى (انما أمرت) اى وقع الي الامر الجازم الذي لا شك فيه ولا تغيير ممن له الامر كله (ان اعبد الله) أي وحده ولذلك قال (ولا أشرك به) شيئا (اليه) وحده (أدعو واليه مآب) أي مرجعي للجزاء لا الى غيره (وكذلك) أي كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم (أنزلناه) أي القرآن (حكما) والحكم فصل الامر على الحق (عربيا) بلسانك ولسان قومك وانما سمي القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وروى ان المشركين كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه فوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب بان يصلي الى قبلتهم بعدما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) أي الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم (بعدما جاءك من العلم) أي بانك على الحق وأن قبلتك هي الكعبة (مالك من الله من ولي) اى ناصر (ولا واق) اى مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته

* ونزل لما عير الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا) أي نساء ينكحونهن فكان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وكان لداود عليه السلام مائة امرأة (وذرية) أي أولادا فانت مثلهم وكانوا يقولون أيضا لو كان رسولا من عند الله لكان أي شيء طلبناه منه من المعجزات أتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله) أي بارادته لان المعجزة الواحدة كافية في ازالة العذر والعلة وفي اظهار الحجة والبينة وأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله

(قوله وقد ينكر الذين من) الاحزاب من ينكر بعضه (قلت) هو جواب للمنكرين معناه قل انما أمرت فيما أنزل الي بان اعبد الله ولا أشرك به فانكارهم لبعضه انكار لعبادة الله وتوحيده

تعالى ان شاء أظهرها وان لم يشأ لم يظهرها الا اعتراض لاحد عليه فى ذلك * ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (لكل أجل) أى مدة (كتاب) أى مكتوب قد أثبت فيه ان أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام والاتيان بالآيات وغيرها ثبا تا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة * ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا وما سبب ذلك الا أنه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء) أى محوه من الشرائع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه (ويثبت) ما يشاء اثباته من ذلك بان يقره ويمضى حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية الى قوله تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة *(تنبيه)* فى هذه الآية قولان أحدهما أنها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم ان كنت كتبتنى فى أهل السعادة فاثبتنى فيها وان كنت كتبت على الشقاوة فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ومثله عن ابن مسعود وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة أيام والرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروى ان الله تعالى ينزل أى أمره فى آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر فى الساعة منهن فى أم الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت والقول الثانى ان هذه الآية خاصة فى بعض الاشياء دون بعض واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يارب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يارب أشقى أم سعيد فيكتبان فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله تعالى فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو ما يشاء أى من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجئ أجله الى أجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقال السدى

(قلت) ان قات كيف ذمهم اثبت لهم مكرا ثم نفاه عنهم بقوله فلله المكر جميعا معناه ان مكر الماكرين مخلوق له ولا يضر الا بارادته فاثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه

يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت ما يشاء يعني الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقال الربيع هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها الآية وقيل ان الله تعالى يثبت في أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب وقيل هذا في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة (وعنده) تعالى (أم الكتاب) أصل الكتب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أما ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان الأول أنه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوي والسفلي يثبت فيه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولا شيء ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة والقول الثاني ان أم الكتاب أصله الذي لا يتغير منه شيء وهو الذي كتب في الأزل وقال ابن عباس في رواية عكرمة هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة على الخلق وعن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه * ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض وانبائه ليؤمن به غيره تقريبا لفصل النزاع قال تعالى (واما نرينك) يا محمد وأكده بما تأكيدا للاعلام بأنه لا حرج عليه في ضلال من ضل بعد ابلاغه (بعض الذي نعدهم) أي من العذاب وأنت حي بما تريد أو تريد أصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك من أعدائك والوعد الخبر عن خير مضمون والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى ههنا عليه وسماه وعدا لتنزيلهم اياه في طلب نزوله منزلة الوعد (أو نتوفينك) أي قبل أن نرينك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب (فانما عليك البلاغ) أي ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك ان تجازيهم ولا ان تأتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ واما فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (وعلينا الحساب) أي علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم * (تنبيه) * قال أبو حيان هنا شرطان لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسب أن يكون جزاء مرتبا عليه والتقدير واما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من أعدائك واما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك * ولما وعد الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعدهم أو يتوفاه قبل ذلك بين تعالى ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى (أولم يروا) أي كفار مكة (أنا نأتي الارض) أي

عنهم باعتبار الخلق
(سورة ابراهيم عليه
السلام)
(قوله وما أرسلنا من
رسول الا بلسان قومه)
ان ذلك هذا يقتضي
ان النبي صلى الله عليه

نقصد أرض هؤلاء الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضا بعد أرض حوالى أرضهم هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبي مثله وعطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال علي انما مثل الفقهاء كمثل الانف اذا قطعت لم تعد وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقي الاول حتى يتعلم الآخر واذا هلك الاول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد ابن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمرا كليا فقال (والله) أي الملك الاعلى (يحكم) في خلقه بما يريد له (لا معقب) أي راد لان التعقيب رد الشيء بعد فعله (لحكمه) وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره *(تنبيه)* محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا (وهو) عز وجل مع تمام القدرة (سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) أي من كفار الامم الماضية قبل مكروا بانبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فلله المكر جميعا) أي ان مكر جميع الماكرين حاصل بقضائه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه ولا يؤثر الا بتقديره فيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكأنه قيل اذا كان حدوث المكر من الله تعالى وتأثيره في الممكور به من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى أن المعنى فلله جزاء المكر وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول أظهر القولين بدليل قوله تعالى (يعلم ما تكسب كل نفس) أي ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة لعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ألهم أم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفاء على الجمع فالكاف مضمومة والفاء مفتوحة مشددة فمن قرأ الافراد أراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطاء المستهزؤن وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون

وسلم انما بعث الى العرب خاصة فكذب الجمع بينه وبين قوله قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وقوله وما أرسلناك الا كافة للناس * قالت قوم هم العرب ونزوله بلسانهم

وقال ابن عباس يريد أبا جهل قال الرازي والاول هو الصواب أي ليوافق قراءة الجمع كما مر * ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أي لكونك لا تأتي بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكأنه قيل فما أقول لهم فقال تعالى (قل) لهم (كفى بالله) الذي له الاحاطة الكاملة (شهيدا) أي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن (بيني وبينكم) يشهد بتأييد رسالتي وتصحيح مقالتي بما أظهر لي من الآية وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبهم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا أعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف في قوله تعالى (ومن عنده علم الكتاب) فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى أي أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيها شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم والثاني ان المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا أظهر كما استظهره البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه لا زيد والفقيه لانه جائز في الجملة وقيل معناه أن علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرعد أعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله حديث موضوع

مع الترجمة ليوافق الالسن كافة لحصول الغرض بذلك ولانه أبعد عن التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف (قوله ليغفر لكم من ذنوبكم) من زائدة اذ الاسلام

سورة ابراهيم عليه السلام مكية

(الا قوله تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله الآيتين وهي اثنتان وخمسون آية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (الر) تقدم الكلام عليها أول يونس وهود وقوله تعالى (كتاب) خبر لمبتدا محذوف أي هذا القرآن كتاب أو لر ان قلنا انها مبتدأ والجملة بعده صفة ويجوز أن يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة لانها موصوفة تقديرا تقديره كتاب أي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية (أنزلناه اليك) يا أشرف الخلق عند الله تعالى (لتخرج الناس) أي عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم (من الظلمات) أي الكفر وأنواع الضلالة (الى النور) أي الايمان والهدى قال الرازي والآية دالة على أن

طرق الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الجهل والكفر كثيرة وأن طريق العلم والايمان ليس الا واحدا * (تنبيه) * القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وأجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل من الدليل وقوله تعالى (باذن ربهم) متعلق بالاخراج أي بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور (الى صراط) أي طريق (العزيز) أي الغالب (الحميد) أي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله (الله) قراءتان فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلا وابتداء على انه مبتدأ خبره (الذي له ما في السموات وما في الارض) أي ملكا وخلقا وقرأ الباقون بالجر على أنه بدل أو عطف بيان وما بعده صفة * (تنبيه) * ذهب جماعة من المحققين الى أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم آخرون الى أنه لفظ مشتق قال الرازي والحق عندنا هو الاول لان الامة لما اجتمعت على أن قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا أي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على أن قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر اذ الترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور وأما الخالق الله فلا يحسن وأجيب عن ذلك بانه لا يبعد أن تذكر الصفة أولا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الارض والآية تفيد حصر ما في السموات وما في الارض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وأنه تعالى خالق لاعمال العباد لانها حاصلة في السموات والارض فوجب القول بان أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله واذا ثبت أنها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال * ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى (وويل للكافرين) أي الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله تعالى لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدأ وجاز الابتداء به لانه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى (من عذاب شديد) أي يعذبهم في الآخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين يستحبون) أي يختارون (الحيوة الدنيا على الآخرة) أي يؤثرونها عليها (ويصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها) أي السبيل (عوجا) أي معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات (في ضلال بعيد) أي عن الحق واسناد البعد الى الضلال اسناد مجازي لان البعد هم الضلال عنهم عن الباقي الى الفاني * ثم ذكر ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) أي في زمن من

يغفر ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد (قوله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) قال ذلك هنا وقال بعد وعلى الله فليتوكل المتوكلون لان الايمان سابق على التوكل

الازمان (الا بلسان) اى لغة (قومه) أما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين أن سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان هذا الانعام فى حقك أكمل وأفضل واما بالنسبة الى عامة الخلق فهوانه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا الا بلسان أولئك القوم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشرايع والوقوف على حقائقها وأبعد عن الغلط والخطا *(تنبيه)* تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل الى غير العرب من وجهين الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب مافيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثانى قالوا ان قوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم بان المراد بالقوم أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدى كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا * ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى (فيضل الله من يشاء) اضلاله (ويهدى من يشاء) هدايته فانه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل الا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادى المضل يفعل مايشاء (وهو العزيز) فى ملكه فلا راد له عن مشيئته (الحكيم) فى صنعه فلا يهدى ولا يضل الا لحكمة * ولما بين تعالى انه انما أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) اى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته (أن أخرج قومك) اى بنى اسرائيل (من الظلمات) اى الكفر والضلال (الى النور) اى الايمان والهدى *(تنبيه)* يجوز أن تكون أن مصدرية اى بان أخرج والباء فى بآياتنا للحال وهذه للتعدية ويجوز أن تكون مفسرة للرسالة بمعنى اى ويكون المعنى اى أخرج قومك من الظلمات اى قلنا له أخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم ان امشوا (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بايام العرب اى بوقائعهم وفى المثل من سره يوما يره قال الرازى معناه من رأى فى يوم سروره بمصرع غيره رأى غيره فى يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأمر الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام مثل مانزل بعاد وثمود وغيرهم من

(قوله لا يقدرون مما كسبوا على شئ) قدم مما كسبوا على مابعده لان الكسب هو المقصود بالذكر بقرينة ما قبله وان كان القياس عكس ذلك كما فى البقرة لان على

العذاب ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل بايام الله
فى حق موسى أن يذكرهم بايام المحنة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء
العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين (ان فى ذلك) اى التذكير
العظيم (لآيات) على وحدانية الله تعالى وعظمته (لكل صبار) اى كثير الصبر على الطاعة
وعن المعصية (شكور) اى كثير الشكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار
بالآيات وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات
فكانها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان الانتفاع لا يمكن حصوله الا ان
يكون صابرا شاكرا أما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة * ولما أمر الله تعالى موسى ان
يذكرهم بايام الله حكى عنه انه ذكرهم بها بقوله تعالى (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة
الله عليكم) وقوله (اذ أنجاكم من آل فرعون) ظرف للنعمة بمعنى الانعام اى اذكروا انعام
الله عليكم فى ذلك الوقت (يسومونكم سوء العذاب) بالاستعباد (ويذبحون) اى تذبيحا
كثيرا (أبناءكم) اى المولودين (ويستحيون) اى يستبقون (نساءكم) أحياء وذلك لقول
بعض الكهنة ان مولودا يولد فى بنى اسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون (فان قيل) لم
ذكرت هنا مع الواو وذكره فى سورة البقرة يذبحون بغير واو (أجيب) بانه انما حذفت
فى سورة البقرة لانه تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو
وهنا أدخل الواو فيه لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بانواع من العذاب غير التذبيح فليس
تفسيرا للعذاب (وفى ذلكم بلاء) اى انعام وابتلاء (من ربكم عظيم) لان الابتلاء يكون ابتلاء
بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) تذبيح الابناء فيه
بلاء وأما استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء (أجيب) بانهم كانوا يستخدمونهن ويتركونهن
تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى (واذ) اى واذكروا اذ (تأذن ربكم) فهو
أيضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى أذن كتوعد وأوعد غير انه أبلغ لما فى التفعل
من معنى التكلف والمبالغة (لئن شكرتم) يا بنى اسرائيل نعمتى بالتوحيد والطاعة
(لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد
المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه
الطريقة ثم قد يرتقى العبد عن تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى
النعمة ولاشك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته وأما الزيادة
فى النعمة فهى على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هى ان الشاكر يكون أبدا فى مطالعة
أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه وأما الثانية فلان الاستقراء دل على ان كل من
كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب
شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلينا وأحبابنا * ثم انه تعالى
لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى (ولئن كفرتم) أى جحدتم
النعمة بالكفر والمعصية لاعذبنكم دل عليه (ان عذابى لشديد) اى لمن كفر نعمتى ولا
يشكرها ومن عادة أكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد * ولما بين موسى ان

الاشتغال

فى ... له قد يكون رحما ... (قوله ... شئ ... السماء ماء) قاله ... وأنزل من السماء ... وقاله فى النحل هنا بدون لكم اكتفاء هنا بذكر لكم ... بعد لاسيما وقد ذكر مكررا (قوله رب انهن

الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا والآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران وأما المعبود والمشكور فانه متعال عن ان ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يا بنى اسرائيل (ومن فى الارض) وأكده بقوله تعالى (جميعا) اى من الثقلين فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم وحرمتموها الخير كله (فان الله لغنى) عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين (حميد) اى محمود فى جميع أفعاله لانه فيها متفضل عادل وقوله تعالى (ألم يأتكم) يا بنى اسرائيل (نبأ) اى خبر (الذين من قبلكم قوم نوح) وكانوا اهل الارض (و) نبأ (عاد) قوم هود وكانوا أشد الناس أبدانا (و) نبأ (ثمود) قوم صالح وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل ان يكون من كلام موسى أو كلاما مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى (والذين من بعدهم) اى بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) فيه قولان الاول ان يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور فى القرآن جملة فاما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثانى ان المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى انهم يدعون علم الانساب الى آدم عليه السلام وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس انه قال بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان فى انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد وقال تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال الرازى والقول الثانى أقرب ولما (جاءتهم) اى هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم (رسلهم بالبينات) اى الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بامور رأوها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (فردوا) اى الامم (أيديهم فى أفواههم) وفى ذلك احتمالات الاول ان الكفار ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ والثانى انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه والثالث أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع أنهم أشاروا بايديهم الى ألسنتهم والى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) اى على زعمكم اى ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثانى الذى أتوا به وقيل الضمير فى ردوا راجع للرسل عليهم السلام وفيه وجهان أحدهما ان الكفار أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام والثانى ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدى أنفسهم على أفواه أنفسهم

أضللن كثيرا من الناس) ان قلت كيف جعل الاصنام مضلة والمضل ضد ... وقد نفى عنهم الضرر بقوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم (قلت) نسبة الاضلال

فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يده على فم نفسه وغرضه ان يعرفهم انه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم (وانا لفى شك مما) اى شئ (تدعوننا) أيها الرسل (اليه) اى من الدين (مريب) اى موجب الريبة اى موقع فى الريبة والشبهة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذى يشك فيه (فان قيل) انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفى شك والشك دون الكفر (أجيب) بانهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كانهم حصل لهم شبهة توجب الشك لهم فقالوا ان لم ندع الجزم واليقين فى كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم * ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك (قالت) لهم (رسلهم) مجيبين (أفى الله شك) اى هل تشكون فى الله وهو استفهام انكار اى لا شك فى توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى (فاطر) اى خالق (السموات والارض) اى وما فيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرأ أبو عمرو ورسلهم هنا وفيما مر فى جاءتهم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع * ولما أقاموا الدليل على وجود الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة بقولهم (يدعوكم) اى الى الايمان ببعثنا وقولهم (ليغفر لكم) اللام متعلقة بيدعو اى لاجل غفران ذنوبكم كقوله

دعوت لما نابنى مسورا * فلبى فلبى يدى مسور

ويجوز أن تكون معدية كقوله دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران ذنوبكم وقوله (من ذنوبكم) قال السيوطى من زائدة فان الاسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد اه اى والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى قال الرازى والعاقل لا يجوز له المصير الى كلمة من كلام الله تعالى بانها زائدة من غير ضرورة اه وقال فى الكشاف ما علمته جاء هكذا الا فى خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال فى خطاب المؤمنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما وقفت عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين وان لا يسوى بين الفريقين فى المعاد اه قال الرازى وأما قول الكشاف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا (ويؤخركم) اى ولا يعجل بكم فعل من تهددون من الملوك فى المعاجلة فى الاهلاك لمن خالفهم بل يؤخرهم (الى أجل مسمى) اى الى وقت قد سماه وبين مقداره بعلمه كموءات أنتم آمنتم به والا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ان أنتم ما آمنتم (فان قيل) أليس قال تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فكيف قال هنا ويؤخركم الى أجل مسمى (أجيب) بان الاجل على قسمين معلق ومبرم (قالوا) اى الامم مجيبين للرسل (ان) اى ما (أنتم) أيها الرسل (الا بشر مثلنا) اى لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا ولو أرسل الله تعالى الى البشر رسلا لجعلهم من جنس اى من البشر فى زعم القائلين أفضل وقول الكشاف وهم الملائكة جار على مذهبه (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) اى ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا

اى مجاز من باب نسبة الشئ الى سببه كما يقال فتنتهم الدنيا ودواهيهم ... فهى سبب للاضلال وفاعله حقيقة هو الله (قوله ربنا اغفر لى ولوالدى) ان قلت كيف استغفر ابراهيم عليه

بسلطان مبين) اى بحجة ظاهرة على صدقكم * ولما حكى الله تعالى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى (قالت لهم رسلهم) مجيبين لهم (ان) اى ما (نحن الا بشر مثلكم) كما قلتم فسلموا أن الامر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم (ولكن الله يمن) اى يتفضل (على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته (وما كان) اى ما صح واستقام (لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله) اى الا بامره لانا عبيد مربوبون فليس الينا الاتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه وانما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) اى يثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فانا توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء عالم الغيب قلما تبالى بالاحوال الجسمانية وقلما تقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وقطعوا أطماعهم عمن سواه وعمم الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا اوليا ألا ترى الى قولهم (وما لنا ألا نتوكل على الله) اى اى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) اى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والمخلصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم وقرأ أبو عمرو بسكون الباء والباقون بالرفع وكذلك لرسلهم سكن أبو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قيل اى فرق بين التوكلين (أجيب) بان الاول لاستحداث التوكل والثانى طلب دوامه اى فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم * ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم) حين تبين لهم قصور التجائهم عليه (لنخرجنكم من أرضنا) اى التى لنا الآن الغلبة عليها (أو لتعودن فى ملتنا) اى حلفوا ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل واما عودكم الى ملتنا اى ديننا (فان قيل) قد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك (أجيب) بان العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد يقولون ما عدت أراه عاد لا يكلمنى ما عاد لفلان مال وقد أجمعت الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل أو لتعودن فى ملتنا اى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح * ولما ذكر

السلام لوالديه وهما كافران والاستغفار للكفار حرام (قلت) المعنى واغفر لوالدى ان اسلما أو أراد بهما آدم وحواء (قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون)

الكفار هذا الكلام قال تعالى (فأوحى اليهم) اى الرسل (ربهم) وقوله تعالى (لنهلكن الظالمين) اى الكافرين حكاية تقتضى اضمار القول أو اجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض) اى أرضهم (من بعدهم) اى بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم قال الزمخشرى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من آذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها ويؤذينى فيه فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته فنظرت يوما الى أبناء خالى يترددون فيها ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكرا لله تعالى (ذلك) اى النصر وايراث الارض (لمن خاف مقامى) اى موقفى وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذى يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره وأما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامى اى خافنى فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالى والمراد السلام على فلان (وخاف وعيد) قال ابن عباس ما أوعدت من العذاب وهذا يدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان العطف يقتضى المغايرة وفى تفسير قوله تعالى (واستفتحوا) قولان أحدهما طلب الفتح اى واستنصروا الله تعالى على أعدائهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثانى الفتح الحكم والقضاء أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على أموالهم وقال لوط انصرنى على القوم المفسدين وعلى القول الثانى قال الرازى فالاولى أن يكون المستفتح هم الامم وذلك أنهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (وخاب) اى خسر وهلك (كل جبار) اى متكبر عن طاعة الله وقيل هو الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل هو المتعظم فى نفسه المتكبر على اقرانه واختلفوا فى قوله تعالى (عنيد) فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى ان يقول لا اله الا الله وقيل هو المعجب بما عنده ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الاول قوله تعالى (من ورائه) اى أمامه (جهنم) اى هو صائر اليها قال أبو عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد وقال تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا اى أمامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك فيصح اطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام وقال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر

(ان قلت) كيف يحسبه النبى صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الخلق بالله (قلت) المراد دوام نهيه عن ذلك كقوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقوله ولا تدع مع الله الها آخر

* وليس وراء الله للخلق مهرب * ومعنى الآية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم الامر الثاني ماذكره تعالى بقوله (ويسقى) أي في جهنم (من ماء صديد) وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر (فان قيل) علام عطف ويسقى (أجيب) بانه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد (يتجرعه) اى يتكلف أن يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أي ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشري دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (فان قيل) كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه (أجيب) بجوابين أحدهما أن المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرع البعض وما أساغ الجميع والثاني ان الدليل الذي ذكرنا دل على وصول ذلك الشراب الى جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أي لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة الامر الثالث ماذكره تعالى بقوله تعالى (ويأتيه الموت) أي أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب (من كل مكان) أي من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ماذكره تعالى بقوله تعالى (ومن ورائه) أي ومن بين يديه بعد ذلك العذاب (عذاب غليظ) أي شديد كل وقت يستقبله أشد مما قبله وقيل هو الخلود في النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد * ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده أن سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى (مثل) اى صفة (الذين كفروا بربهم أعمالهم) اى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير واقراء ضيف وبر والدين في عدم الانتفاع بها (كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) اى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه كما قال تعالى (لا يقدرون) اى الكفار يوم الجزاء (مما كسبوا) اى عملوا في الدنيا (على شيء) اى لا يجدون له ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد (ذلك) اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون (هو الضلال البعيد) اى الخسران الكبير لان أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها * (تنبيه) * في ارتفاع قوله تعالى مثل أوجه أحدها وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى أعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد والثاني وهو مذهب الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى أعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة الثالث أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقولك صفة زيد

ونظيره في الامر قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله أو هو تهييج معناه لا تحسبن الله غافلا من كونه من الظالمين أو هو من لوازم الغفلة أو هو خبر النبي صلى الله عليه

عرض مصدر وطاله مبذول الرابع أن تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل اعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل واحد من الكفرة على الالتفات (أن الله خلق السموات) على عظمها وارتفاعها (والارض) على تباعد أقطارها واتساعها وقوله تعالى (بالحق) أى بالحكمة والوجه الذى يحق أن تخلق عليه متعلق بخلق وقرأ حمزة والكسائى بالف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير ألف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض (ان يشا يذهبكم) أيها الناس (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) أطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع فانه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى (وبرزوا) أى الخلائق من قبورهم (لله جميعا) والتعبير فيه وفيما يأتى بالماضى وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ونظيره ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار * (تنبيه) * البروز فى اللغة الظهور بعد الاستتار وهو فى حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله وهو من وجهين الاول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية الثانى انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه * ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى (فقال الضعفاء) اى الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأى (للذين استكبروا) اى المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل وقوله تعالى (انا كنا لكم تبعا) يصح أن يكون مصدرا نعت به للمبالغة أو على اضمار مضاف وأن يكون جمع تابع أى تابعين لكم فى تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم (فهل أنتم) اى فى هذا اليوم (مغنون) اى دافعون (عنا من عذاب الله) اى من انتقامه (من شئ) فان قيل فما الفرق بين من فى عذاب الله وبين من فى شئ (اجيب) بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل هل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو من بعض عذاب الله ويجوز أن يكونا للتبعيض معا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم (قالوا لو هدانا الله) اى الذى له صفات الكمال (لهديناكم) اى لو أرشدنا الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا

وسلم ممن يحسبه عاقلا لجهله بصفاته

(سورة الحجر)

(قوله وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون) ان قلت كيف وصفوه بالجنون مع قولهم نزل عليه

وكنتم لنا تبعا فاضللناكم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا (سواء علينا) أى نحن وأنتم (أجزعنا أم صبرنا) اى مستو علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (ما لنا من محيص) اى منجى ومهرب مما نحن فيه من العقاب *(تنبيه)* يحتمل ان يكون هذا من كلام المتبوعين وان يكون كلام الفريقين ويؤيد الثانى ما روى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما أيسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك *ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى (وقال الشيطان) الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) أى بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم (ووعدتكم) أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب (فأخلفتكم) أى الوعد فلم أقل شيأ الا كان زيفا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم *(تنبيه)* فى الآية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقديره ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى الثانى أن قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تنديمهم فقال (وما كان لى عليكم من سلطان) أى سلطان فى مزيدة اى قوة وقدرة أقهركم على الكفر والمعاصى وألجئكم على متابعتى وقوله (الا أن دعوتكم) استثناء منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى) محكمين الشهوات لان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى قال الرازى وعندى انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسليط اه ثم قال لهم (فلا تلومونى) أى لانه ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة (ولوموا

الذكر اى القرآن المستلزم ذلك اعترافهم بنبوته (قلت) انما قالوه استهزاء وسخرية لا اعترافا كما قال فرعون لقومه ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون اوفيه حذف اى

أنفسكم) لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (فان قيل) لم قال الشيطان فلا تلومونى وهو ملوم بسبب اقدامه على تلك الحالة والوسوسة الباطلة (أجيب) بانه أراد لا تلومونى على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم * ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم فيما يخصكم من العذاب فازيل صراخكم منه (وما أنتم بمصرخى) أى بمغيثى فيما يخصنى منه وقرأ ما عدا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل فى التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة وياء المتكلم أصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوى وهو أصل مرفوض فى مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع حركة ياء الاضافة اهـ وقوله أصل مرفوض أى متروك عند النحاة والا فهو قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليه لانها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول الفراء ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال أبو حيان هى قراءة متواترة نقلها السلف واقتفى آثارهم فيها الخلف فلا يجوز أن يقال فيها انها خطأ أو قبيحة أو رديئة وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكن قل استعمالها ونص قطرب على أنها لغة فى بنى يربوع ونص على أنها صواب أبو عمرو بن العلاء لما سئل عنها والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال (انى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوى باسناده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة يقول عيسى ذلك النبى الامى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب [3] ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظفر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير الشيطان هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أضللتنا فيقوم فيثور مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية قال فى الكشاف وقوله (ان الظالمين) أى الكافرين (لهم عذاب أليم) أى قول من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقول فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول اليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) وكونها دائمة أشير اليها

يا ايها الذى تدعى انك نزل عليك الذكر (قوله ونحن الوارثون) * ان قلت كيف قال ذلك والوارث من يتجدد له الملك بعد فناء المورث والله تعالى لم يتجدد له ملك لانه لم يزل

[3] قوله فيثور مجلسى من أطيب وقوله الآتى فيثور مجلسه أنتن هكذا بالاصول التى بايدينا واحرر لفظ الحديث اهـ مصححه

بقوله تعالى (خالدين فيها) وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين أحدهما قوله تعالى (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما والثانى قوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) لان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب يحييهم أيضا بهذه التحية كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها واسقامها وأنواع همومها وغمومها لان السلام مشتق من السلامة * ولما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثلا يبين الحال فى حكم هذين القسمين بقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر والخطاب يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وأن يكون لكل فرد من الناس اى ألم تر أيها الانسان (كيف ضرب الله) اى المحيط بكل شئ علما وقدرة (مثلا) سيره بحيث يعم نفعه والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول ثم بينه بقوله تعالى (كلمة طيبة) قال ابن عباس وأكثر المفسرين هى لا اله الا الله (كشجرة طيبة) قال ابن مسعود وأنس هى النخلة وعن ابن عباس هى شجرة فى الجنة وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ما هى قال عبد الله فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم وروى فمنعنى مكان عمر فاستحييت فقال له عمر يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة فى تشبيه الانسان بالنخلة من بين سائر الاشجار أن النخلة أشبه به من حيث انها اذا قطع رأسها يبست وسائر الاشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع رأسها وأنها تشبه الانسان بحيث انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة (أصلها ثابت) اى فى الارض (وفرعها) اى غصنها (فى السماء) اى فى جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك فى الجبل طويل فى السماء تريد ارتفاعه وشموخه (تؤتى) اى تعطى (اكلها) اى ثمرها (كل حين باذن ربها) اى بارادته والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره هنا فقال مجاهد الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة وقال قتادة ستة أشهر يعنى من حين طلعها الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعنى كل غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطرى الرطب فاكلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل كلمة الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة فى الارض وعمله يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه عال فى السماء وتنال بركته وثوابه كل وقت والمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاء بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق القلب وقول

مالكا للعالم (قال) الوارث لغة هو الباقى بعد فناء غيره وان لم يتجدد له ملك وفى الآية ونحن الوارثون بعد فناء الخلائق وان الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون

اللسان وعمل بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل المقيل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال (ويضرب الله) اى الذى له الاحاطة الكاملة (الامثال للناس لعلهم يتذكرون) اى يتعظون فان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم التام والوصول الى المطلوب * ولما ذكر مثل حال السعداء اتبعه بمثل حال الاعداء فقال (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى الحنظل وقيل الثوم وقيل الكشوث بثلاثة فى آخره قال الجوهرى نبت يتعلق باغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الارض قال الشاعر

هى الكشوث فلا أصل ولا ورق * ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وقيل شجرة الشوك (اجتثت) اى استؤصلت (من فوق الارض) اى عروقها قريبة منه (مالها من قرار) اى اصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة وعن عبادة انه قيل لبعض العلماء ماتقول فى كلمة خبيثة فقال ما اعلم لها فى الارض مستقرا ولا فى السماء مصعدا الا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة * ولما وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) انه تعالى يثبتهم بها (فى الحيوة الدنيا) اى فى القبر وقيل قبل الموت (وفى الآخرة) اى يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل فى القبر على القول الثانى * ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة اخبر بقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) اى الكفار أنه تعالى لا يهديهم للجواب الصواب (ويفعل الله مايشاء) اى ان شاء هدى وان شاء أضل لا اعتراض عليه روى عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل فى القبر يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروى عن انس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فاما المؤمن فيقول اشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث انس قال وأما المنافق او الكافر فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا ادرى كنت اقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال انه الآن يسمع خفق نعالكم اتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وانيابهما مثل صياصى البقر واصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت أعبد الله ونبى محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له فى حفرته وان كان من أهل الشك قال لا ادرى

ويسمون بذلك ايضا مجازا ثم اذا ماتوا خلصت الاملاك كلها لله تعالى عن ذلك التعلق فبهذا الاعتبار هى وارثها ونظير ذلك قوله تعالى لمن الملك اليوم والملك له ازلى وأبدى

نعمت الناس يقولون شيأ فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ احدهم فى الدنيا ما انبتت شيأ فتنهشه وتؤمر الارض فتنضم عليه حتى تختلف اضلاعه فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولاحبابنا فى الدنيا والآخرة انه كريم جواد * ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال (ألم تر) اى تنظر ونفى المخاطب ما تقدم (الى الذين بدلوا) والتبديل جعل الشئ مكان غيره (نعمت الله) اى التى اسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بان جعلوا مكان شكرها (كفرا) وهم يدعون أنهم اشكر الناس للاحسان واعلاهم همما فى الوفاء وابعدهم عن الجفاء (وأحلوا) اى انزلوا (قومهم) اى الذين تابعوهم فى الكفر باضلالهم اياهم (دار البوار) اى الهلاك مع ادعائهم انهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الاهل روى البخارى فى التفسير انهم كفار اهل مكة وقوله تعالى (جهنم) عطف بيان (يصلونها) اى يدخلونها (وبئس القرار) اى المقر هى (وجعلوا لله) اى الذين يعلمون انه لا شريك له فى خلقهم ولا رزقهم لان له الكمال كله (أندادا) اى شركاء وقوله تعالى (ليضلوا عن سبيله) اى دين الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وابو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من اضل يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم فى اتخاذ الانداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض * ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى تهديدا لهم فانهم لا يشكون فى قولك وان عاندوا (تمتعوا) بدنياكم قليلا (فان مصيركم) اى مرجعكم (الى النار) فى الآخرة ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى (قل لعبادى) فوصفهم باشرف اوصافهم واضافهم الى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما يناسبه من اذعانهم لسيدهم بقوله تعالى (الذين آمنوا) اى اوجدوا هذا الوصف (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) فيه وجهان احدهما يصح أن يكون جوابا للامر محذوف تقديره قل لعبادى الذين امنوا اقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا والثانى يصح أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه اللام اى ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ما خفت من شئ تبالا

اى تبالى به اى تكثرت به لدلالة قل عليه (سرا وعلانية) اى ينفقون اموالهم فى حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة *(تنبيه)* فى انتصاب سرا وعلانية وجوه احدها أن يكون على الحال اى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثانى على الظرف اى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر اى انفاق سر وانفاق علانية * ولما أمرهم الله تعالى باقامة الصلاة والانفاق أشار الى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل (من قبل أن يأتى يوم) اى عظيم جدا ليس كشئ من الايام التى تعرفونها (لا بيع فيه) اى فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولا خلال) اى مخالة اى صداقة تنفع فى ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول

(قوله وان علمت العدة) قال ذلك هنا بتعريف الجنس ليناسب ما قبله من التعبير بالجنس فى قوله ولقد خلقنا الانسان والجان خلقناه فسجد الملائكة وقال فى ص وان

انفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (فان قيل) كيف نفى الله تعالى المخالة فى هاتين الآيتين مع انه تعالى اثبتها فى قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (اجيب) بان الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والآية الدالة على حصول المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى * ولما طال الكلام فى وصف احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى فى حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفى حصول الشقاوة فقد ان ذلك ختم تعالى احوال الفريقين بقوله تعالى (الله) اى الملك الاعلى المحيط بكل شئ ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكرهنا عشرة انواع من الدلائل اولها قوله تعالى (الذى خلق السموات) وثانيها قوله تعالى (والارض) وهما اكبر خلقا منكم واعظم شانا وثالثها قوله تعالى (وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم) تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس * (تنبيه) * الله مبتدأ وخبره الذى خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له حال منه ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك فى سورة البقرة وفى غيرها ورابعها قوله تعالى (وسخر لكم الفلك) أى السفن (لتجرى فى البحر) أى بالركوب والحمل (بامره) أى بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى (وسخر لكم الانهار) اى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزروع والثمرات ولا فى الشراب فكان ذلك نعمة من الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر) حال كونهما (دائبين) اى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان الى اخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة وهى افضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه وثامنها وتاسعها قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان لكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار ليبتغوا من فضله وعاشرها قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) أى مما أنتم محتاجون اليه على حسب مصالحكم فانتم سائلوه بالقوة * ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما أنعم به على عباده بين أن العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) أى لا تضبطوا عددها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال واما على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى (ان الانسان) أى الكافر وقال ابن عباس يريد أبا جهل (لظلوم) أى كثير الظلم لنفسه (كفار) أى كفور لنعم ربه وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع (فان قيل) لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم كفار وفى النحل ان الله لغفور رحيم (أجيب) بانه تعالى يقول للعبد اذا حصلت للنعم

عليك اعنى بالاضافة لمناسب ما قبله من قوله لما خلقت بيدى (قوله ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا) قال هنا اخوانا لانه نزل فى أصحاب رسول الله صلى الله

الكثيرة فانت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولي وصفان عند اعطائها وهما كوني غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت كفارا فانا رحيم أعلم عجزك وتقصيرك فلا أقابل تقصيرك الا بالتوفير ولا أجازي جفاءك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدمة أن لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا يجوز عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة في انكاره عبادة الاوثان بقوله تعالى (واذ) أي واذكر لهم مذكرا بايام الله خبر ابراهيم اذ (قال ابراهيم رب) أي المحسن الي باجابة دعائي (اجعل هذا البلد) أي مكة (آمنا) أي ذا أمن وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (فان قيل) أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا (أجيب) بان المسؤل في الاول أن يجعله من جملة البلاد التي يامن أهلها ولا يخافون وفي الثاني أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها وهي الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهي الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (فان قيل) كيف أجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها (أجيب) بجوابين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على اخراب مكة (فان قيل) يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة (أجيب) بان قوله تعالى اجعل هذا البلد يعني الى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين والجواب الثاني أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى واسئل القرية أي أهلها وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الامن في بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت واذا كانت داخله الحرم استأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها (واجنبني) أي بعدني (وبني أن) أي عن أن (نعبد الاصنام) أي اجعلنا في جانب غير جانب عبادتها (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادة الاصنام (أجيب) بانه عليه الصلاة والسلام انما سأل ذلك هضما للنفس واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله في كل المطالب وفي ذلك دليل على أن عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم (فان قيل) كان كفار قريش من أبنائه مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فكيف أجيب دعاؤه (أجيب) بان المراد من كان موجودا حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم أو ان هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال عليه السلام في آخر الآية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن قاله الطبري ولذا لما سئل ابن عيينة كيف عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد أحد

عليه وسلم وقاله في غير هذه السورة بدونها لانه نزل في عامة المؤمنين (قوله فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون) حذف منه قيل قال اختصارا ما في هود قال سلام فما لبث أن جاء بعجل

من بني اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبني وبني أن نعبد الاصنام انما كانت انصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر أي يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار بضم الدال المشددة وقد تفتح قال الجوهري دوار بالضم صنم وقد يفتح فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازي وهذا الجواب ليس بقوي لانه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء الا عباد غير الله والحجر كالصنم في ذلك * ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم أنه قال (رب انهن) أي الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) بعبادتهم لها * (تنبيه) * اتفق كل الفرق على أن قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيأ البتة الا انه لما حصل عند عبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال (فمن تبعني) أي على التوحيد (فانه مني) أي فانه جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني (ومن عصاني) أي في غير الدين (فانك غفور رحيم) وهذا صريح في طلب الرحمة والمغفرة لاولئك العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مامور بالاقتداء به كما قال تعالى اتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعاء كان قبل أن يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر أن تغفر له وترحمه بان تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب فلا يمهلهم حتى يتوبوا قال الرازي واعلم أن هذه الاوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر أولا * (تنبيه) * حكى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع انه طلب من الله تعالى سبعة أمور الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد آمنا المطلوب الثاني أن يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام المطلوب الثالث قوله (ربنا اني أسكنت من ذريتي) أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول على هذا القول وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم (بواد) هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضاء منخفض بين جبال تجري فيه السيول (غير ذي زرع) أي لا يكون فيه من الزرع قط فانه حجري لا ينبت كقوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج (عند بيتك المحرم) أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه أو لانه لم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب أو لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه أو لانه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقا لانه أعتق منه فلم يستول عليه أو لانه أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل أو لانه حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة املاك وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم فرفع الى السماء السادسة وروي ان هاجر كانت امة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسمعيل فقالت سارة كنت أريد أن يهب الله لي ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدهما مني وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة

بحيث فلما رأى ابراهيم لا تصل اليهم تنكرهم وأوجس منهم خيفة (قوله لا توجل) اى لا تخف وبه عبر هو دتوسعة في التعبير عن الشيء الواحد تفننا وبين ما هنا بالاول وخص

فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع
عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل وقالت يا ابراهيم
أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت
اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا
كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه
وقال ربنا انى أسكنت من ذريتى حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضعه وتشرب
من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال
يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت عليه
ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى من أحد فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن
عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت
صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث
فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه
وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال
ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف
من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال الملك لا تخافوا الضيعة
فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من
الارض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة
من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فنظروا طائرا فقالوا
ان هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم
بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك
فقالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس قالت ذلك أم اسمعيل وهى
تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم فشب
الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت
أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل وتقدم تمام هذه القصة فى سورة البقرة ثم قال
(ربنا ليقيموا الصلوة) اللام لام كى متعلقة بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى المقفر
الذى لا شئ فيه الا لاقامة الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به
مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم
متقربين اليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين
الرحمة التى آثرت بها سكان حرمك وتكرير النداء وتوسطه للاشعار بانها المقصود بالذات
من اسكانهم هنالك والمقصود من الدعاء توفيقهم لها (فاجعل أفئدة) أى قلوبا محترقة
بالاشواق (من الناس) ومن للتبعيض والمعنى واجعل أفئدة بعض الناس (تهوى)
أى تميل (اليهم) ويدل عليه ما روى عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس
والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى

قوله وجعلوا
او افقته
وما فى هو دبالثانى او افقته
قوله خفة (قوله قدرنا
انها لمن الغابرين) اسناد
التقدير الى الملائكة
مجاز اذ المقدر حقيقة
هو الله تعالى وحده

والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال (وارزقهم من الثمرات) ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم ويحتمل أن يكون المراد ايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات كما قال تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ حتى توجد فيه الفواكه الصيفية والربيعية والخريفية فى يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجب وأن يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل تلك الثمار وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كانت الطائف من أرض فلسطين فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم (لعلهم يشكرون) يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين انه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة الطاعات واداء الواجبات * ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب الاحوال ونهاية الامور فى المستقبل فانه تعالى هو العالم بها والمحيط باسرارها فقال (ربنا انك تعلم ما نخفى) أى نسر (وما نعلن) وهذا هو المطلوب الرابع والمعنى أنك أعلم باحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا وقيل ما نخفى من الوجد بسبب حصول الفرقة بينى وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع الى من تكلنا قال الى الله أكلكم قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا واختلف فى قوله تعالى (وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) فقيل من تتمة قول ابراهيم عليه السلام يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شئ فى أى مكان والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك يفعلون ولفظة من تفيد الاستغراق كأنه قيل وما يخفى عليه شئ ما * ولما أتم ابراهيم عليه السلام ما دعا به أتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى (الحمد لله) أى المستجمع لصفات الكمال (الذى وهب لى) أى أعطانى (على الكبر) أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا لما فيه من المعجزة (اسمعيل واسحق) ومقدار ذلك السن غير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عند ما سكن اسمعيل وأمه فى ذلك الوادى وفى ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه أن يقول ذلك (أجيب) بان هذا يقتضى ان ابراهيم انما ذكر هذا الكلام فى زمن آخر لا عقب ما تقدم من الدعاء قال الرازى ويمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى *(تنبيه)* قوله على الكبر بمعنى مع كقوله

الى على ماترين من كبرى * أعلم من حيث يؤكل الكتف

يقول خواص الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك وفى ذلك اظهار لمزيد قربهم بالملك (قوله ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان فى ذلك

وهو في موضع الحال * ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح والتصريح قال (ان ربى) أى المحسن الى (لسميع الدعاء) أى لمجيبه (فان قيل) الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه (أجيب) بان هذا من قولك سمع الملك كلامى اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده * المطلوب الخامس قوله (رب اجعلنى مقيم الصلوة) أى معدلا لها ومواظبا عليها * (تنبيه) * فى الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة يدل على ان فعل المأمورات لا يحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بان ابراهيم عليه السلام كان مصرا على ان الكل من الله تعالى وقوله تعالى (ومن ذريتى) عطف على المنصوب فى اجعلنى أى واجعل بعض ذريتى كذلك لان كلمة من فى قوله ومن ذريتى للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض فلانه علم باعلام الله تعالى انه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لا ينال عهدى الظالمين * المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعا الله تعالى فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال (ربنا وتقبل دعاء) قال ابن عباس يريد عبادتى بدليل قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وقيل دعائى المذكور * المطلوب السابع قوله (ربنا) أى أيها المالك لامورنا المدبر لنا (اغفر لى) فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة ذنب (أجيب) بان المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته ثم أشرك معه أقرب الناس اليه وأحقهم بشكره فقال (ولوالدى) * فان قيل كيف جاز أن يستغفر لوالديه وكانا كافرين (أجيب) بوجوه الاول ان المنع منه لا يعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثانى أراد بوالديه آدم وحواء الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه * ثم دعا لمن تبعه فى الدين من ذريته وغيرهم بقوله (وللمؤمنين) أى العريقين فى هذا الوصف (يوم يقوم) أى يبدو ويظهر (الحساب) وقيل أراد يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر فى هذا التفسير ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة * ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله تعالى أن يصونه عن الشرك وطلب منه أن يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبا النبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله تعالى محال والمقصود من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بانه لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن سفيان ابن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من

لآية المؤمنين) * ان قلت لم جمع الآية أولا ووحدها ثانيا والقصة واحدة (قلت) جمع أولا باعتبار تعدد ما قص من حديث لوط وضيف ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما

عامه (فان قيل) كيف يليق به صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو أعلم الناس به (أجيب) بوجوه الاول أن المراد به التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله تعالى لا تدع مع الله الها آخر والثانى ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث ان المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا انه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة ثم بين تعالى انه (انما يؤخرهم) أى عذابهم (ليوم) موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى (تشخص فيه الابصار) أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى فى ذلك اليوم الصفة الثانية قوله تعالى (مهطعين) أى مسرعين الى الداعى أو مقبلين بابصارهم لا يطرفون هيبة وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها اذ الاقناع رفع الرأس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء يطرق بصره الى الارض وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد الصفة الرابعة قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أى بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم ما بين أيديهم الصفة الخامسة قوله تعالى (وأفئدتهم) أى قلوبهم (هواء) أى خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها *(تنبيه)* اختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك بانه يوم يقوم الحساب وقيل انما تحصل عندما يتميز فريق عن فريق فالسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل يحصل عند اجابة الداعى والقيام من القبور قال الرازى والاول أولى (وأنذر الناس) يا محمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (يوم يأتيهم العذاب) أى الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (فيقول الذين ظلموا) أى كفروا (ربنا أخرنا) أى بان تردنا الى الدنيا (الى أجل قريب) أى الى امد واحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا فيه (ونتبع الرسل) فيما يدعوننا اليه فيقال لهم توبيخا (أولم تكونوا أقسمتم) أى حلفتم (من قبل) فى الدنيا (ما لكم) وأكد النفى بقوله (من زوال) أى ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال فى آية أخرى وأقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لا انهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت أو عن شباب الى هرم أو عن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى (وسكنتم) فى الدنيا (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر من الامم السابقة (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) اى وظهر لكم بما تشاهدون

كان من اهلاكهم وقلب المدينة على من فيها وامطار الحجارة على من غاب منها ووحده ثانيا باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله وانها لبسبيل مقيم (قوله واقد

في منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم (وضربنا) أي بينا (لكم الأمثال) في القرآن أن عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزي والنكال مما يعلم به أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك في كتاب الله تعالى كثير * ولما ذكر تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم) أي الشديد العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم واختلف في عود الضمير في مكروا على وجوه الأول أن يعود إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور والثاني إلى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى وأنذر أي يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكره الله تعالى في قوله وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك (وعند الله مكرهم) أي ومكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه وقيل إن مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قول آخر وهو أنها نزلت في نمروذ الجبار الذي حاج إبراهيم في ربه فقال نمروذ إن كان ما يقوله إبراهيم حقا فلا أنتهي حتى أصعد إلى السماء فأعلم ما فيها ثم أمر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل له بابا من أعلاه وبابا من أسفله وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربع من التابوت عصيا أربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم إنه جلس مع صاحبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء فطارت يوما حتى أبعدت في الهواء فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الأعلى ففتح فإذا السماء كهيئتها وفتح الباب الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة ونودي أيها الطاغي أين تريد قال عكرمة كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء وقيل طائر أصابه السهم فقال كفيت إله السماء فنكس تلك العصي التي علق عليها اللحوم فتسفلت النسور وهبطت إلى الأرض فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت وظنت أن قد حدث في السماء حدث وأن القيامة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى (وإن كان مكرهم) أي من القوة والفخامة (لتزول منه الجبال) قال الرازي ولا حاجة في تأويل الآية إلى هذا فإنه لم يجئ فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الإسلام المشبهة بها في القرار والثبات وقرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الأخيرة والباقون بكسر الأولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الأولى وإن كان بحيث إنه تزول منه الجبال وقيل إن نافية واللام لتأكيد النفي (فلا تحسبن الله) الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته (مخلف وعده رسله) من النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين كما قال تعالى إنا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي (فإن قيل) هلا قال مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثاني على الأول (أجيب) بأنه تعالى قدم ذلك ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله

(كذب أصحاب الحجر المرسلين) الحجر اسم واديهم أو مدينتهم (فإن قلت) أصحابه وهم قوم صالح إنما كذبوا صالحا لأنه المرسل إليهم لا المرسلين كلهم (قلت) من كذب رسولا

تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى اذا لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله) اى ذو الجلال والاكرام (عزيز) اى غالب يقدر ولا يقدر عليه (ذو انتقام) اى ممن عصاه وقوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض) بدل من يوم يأتيهم أو ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وقوله تعالى (والسموات) عطف على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفى الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل آخر ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات والآية محتملة لكل واحد من هذين المفهومين فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى تلك الارض وانما تغير أوصافها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ٭ ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

فتتبدل اوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتستوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لاحد أخرجاه فى الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهى البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى وهو الخبز الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة كأن النار ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله ليس فيها معلم لاحد يعنى ليس فيها علامة لاحد لتبديل هيئتها وصفتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به وعن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بأرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وعن الضحاك أيضا من فضة كالصحائف وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم فى الظلمة دون الحشر قال الرازى واعلم انه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفى سجين (وبرزوا) اى خرجوا من قبورهم (لله) اى لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب (الواحد) اى الذى لا شريك له (القهار) اى الذى لا يدافعه شئ عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى (وترى) يا محمد اى تبصر (المجرمين) اى الكافرين (يومئذ) اى يوم القيامة ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمورا الصفة الاولى قوله تعالى (مقرنين) أى مشدودين (فى الاصفاد) جمع صفد وهو القيد قال

واحدا كذب جميع الرسل لاتفاقهم فى دعوة الناس الى توحيد الله تعالى (قوله فوربك لنسألنهم اجمعين) ٭ ان قلت كيف قال ذلك هنا وقال فى الرحمن فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس

الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت أي قرنت فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتضم تلك النفوس الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها اشتاكانت متجانسة وتنادي ظلمة كل واحد منها الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى (سرابيلهم) أي قمصهم جمع سربال وهو القميص (من قطران) وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى (وتغشى) أي تعلو (وجوههم النار) ونظيره قوله تعالى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم * ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس واثر هذه الاحوال يظهر في الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال في الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى (ليجزي الله) متعلق ببرزوا (كل نفس ما كسبت) اي من خير أو شر وهذا أولى من قول الواحدي المراد منه أنفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لاهل الايمان * ولما كان حساب كل نفس جديرا بان يستعظم قال (ان الله سريع الحساب) أي لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شأن وقوله تعالى (هذا) اشارة الى القرآن الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة (بلاغ) اي كان غاية الكفاية في الايصال (للناس) والموعظة لهم وقوله تعالى (ولينذروا) اي وليخوفوا (به) عطف على محذوف وذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره اي لينصحوا ولينذروا وقيل الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ (وليعلموا) اي بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى (أنما هو) اي الله (اله واحد) فيستدلوا بذلك على أن الله واحد لا شريك له (وليذكر) بادغام التاء في الاصل في الذال اي يتعظ (أولوا الالباب) أي أصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ * (تنبيه) * ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى ولينذروا به وتاليه والحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التي هي التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بمحمد وآله وفعل ذلك بوالدينا وأحبابنا وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ابراهيم أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع قال العلامة ابن جماعة في شرح منظومة ابن فرح التي أولها غرامي صحيح نوع من غرائب الجويني يكفر واضع الحديث أي والمشهور عدم تكفيره

ولاينافي (قال) لان في يوم القيامة مواقف ففي بعضها يسئلون وفي بعضها لا يسئلون وتقدم تطبيقه في هود او لانه المراد هنا انهم يسئلون سؤال توبيخ وقوله فعلتم او نحوه وهم لا يسئلون سؤال

سورة الحجر مكية بالإجماع

وهي تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وعدد حروفها ألفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذي أسبغ نعمه على سائر بريته فعجزت عن وصفه الافكار (الرحيم) الذي خص أهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى (الر) ذكر فيه الفتح والامالة أول يونس وقيل معناه أنا الله أرى وقدمنا الكلام على أوائل السور في أول سورة البقرة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أي هذه الآيات (آيات الكتاب) أي القرآن والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (وقرآن مبين) أي مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى (ربما يود) أي يتمنى (الذين كفروا) اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين في ذلك اليوم (لو كانوا مسلمين) وقيل حين يعاينون حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمني ذلك وقيل للتقليل فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في أحيان قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد أبوا دخولها الا على الماضي (أجيب) بأن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ود وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا في طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ذرهم) أي دعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال كالتقرب في أنه طلب القرب حالا بعد حال (ويلههم الأمل) أي ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن أخذ حظهم من الطاعة ومن الاستعداد للمعاد وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية وأما الهاء الأولى فمكسورة للجميع وقفا ووصلا * ولما كان هذا أمرا لا يشتغل به الا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أي ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم في زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا قبل الأمر بالقتال * (تنبيه) * في الآية دليل على أن ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي الى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع في الدنيا من أخلاق الهالكين والأخبار في ذم الأمل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وعن علي رضي الله تعالى عنه انما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فان طول الأمل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق * ولما هددهم تعالى

استعلام واستخبار

* (سورة النحل) *

(قوله حين تريحون وحين تسرحون) قدم الاراحة على السرح مع أنها مؤخرة عنه في الواقع لأن الانعام وقت الاراحة

بآية التمتع والهاء الامل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية) أي من القرى والمراد أهلها ومن مزيدة (الا ولها كتاب معلوم) أي أجل مضروب محدود مكتوب في اللوح المحفوظ لهلاكها *(تنبيه)* المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل أن لا تدخلها الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال جاءني زيد عليه ثوب وجاءني وعليه ثوب *(فائدة)* رسم كتاب هنا باثبات الالف *ثم بين تعالى الآية السابقة بقوله تعالى (ما تسبق) وأكد الاستغراق بقوله تعالى (من أمة) وقيل من مزيدة كقولك ما جاءني من أحد أي أحد وبين ان المراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى (أجلها) أي الذي قدرناه لها (وما يستأخرون) أي عنه *(تنبيه)* انث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ في الاول وعلى المعنى في الثاني قال البقاعي وانما ذكره لئلا يصرفوه الى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتا وفي الآية دليل على أن كل من مات أو قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله مخطئ * ولما بالغ تعالى في تهديد الكفار ذكر شبههم في انكار نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر) أي القرآن في زعمه (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال به جنون واما لانه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا أنها جنون ويدل عليه قوله تعالى أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم أتبعوه ما زعموا أنه دليل على قولهم فقالوا (لوما) أي هلا (تأتينا بالملائكة) أي يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) في ادعائك الرسالة وان هذا القرآن من عند الله * ولما كان في قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثاني لانه أقرب بقوله تعالى (ما ننزل الملائكة الا بالحق) أي الا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن تأتيكم بهم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق الوحي أو العذاب وقرأ شعبة بضم التاء مع فتح الزاي ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائي بنونين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاي ورفع الملائكة وشدد التاء البزي في الوصل وأما الزاي فهي مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر (وما كانوا) أي الكفار (اذا) أي اذ تأتيهم الملائكة (منظرين) أي لزوال الامهال عنهم فيعذبوا في الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا وكان حينئذ يفوت ما قضيناه من تأخيرهم واخراج من أردنا ايمانه من أصلابهم ثم أجاب تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم (انا نحن) بما لنا من العظمة والقدرة (نزلنا) أي بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام (الذكر) أي القرآن (وانا له لحافظون) أي من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا واحدا وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها

وهي وردها عشاء الى مراحها أجل وأحسن من سرحها لانها تقبل مائلة البطون حافلة الضروع متهادية في مشيها بخلاف وقت سرحها وهو اخراجها الى المرعى (قوله ان في ذلك لآية لقوم

التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (فان قيل) فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه (أجيب) بأن جمعهم القرآن في المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا وفي هذه الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة لان الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضا أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة وقيل الضمير في له راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا له لحافظون ممن أراد به سوأ فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس * ولما أساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم في الاول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه راد عليهم (ولقد أرسلنا من قبلك) أى رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى (في شيع) اى فرق (الاولين) من باب اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين عند اشتمه المتابعة بعضهم بعضا في الاحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان (وما يأتيهم) عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل على مضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال والاصل وما كان يأتيهم (من رسول) اى على اى وجه كان (الا كانوا به) جبلة وطبعا (يستهزؤن) كاستهزاء قومك بك فاصبروا فاصبر كما صبروا (كذلك) اى مثل ادخالنا التكذيب في قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل (نسلكه) اى ندخله (في قلوب المجرمين) اى كفار مكة المستهزئين (لا يؤمنون به) اى بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن وفي الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار والسلك ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح في المطعون ومنه قوله تعالى ما سلككم في سقر وقيل الضمير في نسلكه يعود للذكر كما أن الضمير في به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذبا به غير مؤمن به قال البيضاوي وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع اليه اه وما أعدت الضمير عليه في ذلك هو ما قاله ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله تعالى (وقد خلت سنة الاولين) أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله في أن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم قال الرازي وهذا أليق بظاهر اللفظ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بادغام تاء التأنيث في السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية هو المراد في سورة الانعام في قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس الآية أى الذين يقولون لوما تأتينا بالملائكة فلو أنزلنا الملائكة (فظلوا فيه) أى فظلت الملائكة (يعرجون) أى يصعدون في الباب وهم يرونها عيانا (لقالوا) أى من

تشكرون) وحد الآية في هذه السورة في خمسة مواضع انظر المدلول ارجعها في موضعين لمناسبة قوله قبلها مسخرات (قوله وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله) قاله هنا

عتوهم فى الكفر (انما سكرت ابصارنا) أى سدت عن الابصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد (بل نحن قوم مسحورون) أى قد سحرنا محمد بذلك أى كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله وقيل الضمير فى يعرجون للمشركين أى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ الكسائى بادغام لام بل فى النون والباقون بالاظهار * ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكرى النبوة والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال مفتتحا بحرف التوقع (ولقد جعلنا) بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (فى السماء بروجا) قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت وأراد بها المنازل التى تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهى اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهى منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشترى وله القوس والحوت وزحل وله الجدى والدلو وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس فى كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس فى هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وقال عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال مجاهد هى النجوم العظام قال أبو اسحق يريد نجوم هذه البروج وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام (وزيناها) أى السماء بالشمس والقمر والنجوم والاشكال والهيآت البهية (للناظرين) أى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذى أوجد كل شئ وخلقه وصوره (وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله هذا حدث وقوله تعالى (الا من استرق السمع) بدل من كل شيطان رجيم وقيل استثناء منقطع أى لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى (فأتبعه شهاب مبين) وهو شعلة من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار

بتأخيره عن مواخر وبالواو فى وابتغوا وقاله فى فاطر بتقديم فيه وحذف الواو جريا هنا على القياس اذ الفلك مفعول أول لترى ومواخر مفعول ثان له وفيه ظرف وحقه التأخير والواو

فلا يخطئ أحدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قضى الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها الآخر الى لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء (فان قيل) اذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب يخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق (أجيب) بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهي أنواع النوع الاول قوله تعالى (والارض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال البغوي يقال انها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة (فان قيل) فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة (أجيب) بأنه ليس في الآية دلالة على شئ من ذلك لان الارض على تقدير كونها كرة فهي في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وتقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وسيأتي زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة والنازعات النوع الثاني قوله تعالى (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسي وهو كقوله تعالى وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكي لا تميد بأهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال النوع الثالث قوله تعالى (وأنبتنا فيها) واختلف في عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون في الارض وقيل الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا في المراد بالموزون فقال ابن عباس أي معلوم وقال مجاهد أي مقدار معين تقتضيه حكمته وقال الحسن أعني به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى أنه جميع ما ينبت في الارض والجبال لان ذلك نوعان أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها) أي الارض (معايش) وهي بالياء صريحة من غير مد جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم

العطف على لام العلة في قوله انا كلوا منه وقدم في قاطرفيه لمناسبة ما قبله من تقديم الجار والمجرور على ما بعده في قوله ومن كل تأكلون لحما طريا وحذف الواو لعدم المعطوف عليه

والملابس والمعادن وغيرها (و) جعلنا لكم (من لستم له برازقين) من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في أكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خلق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والالم يحصل لاحد رزق (فان قيل) صيغة من مختصة بمن يعقل (أجيب) بأنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكى أن الماء نقل في بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم فرأيت بعض تلك الوحوش رفعت رؤسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت وامتلأت الاودية * (تنبيه) * قيل لا يجوز أن يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور لا يقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما في قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض في القراآت السبع وهذا أعظم دليل * ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شئ موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى (وان) أي وما (من شئ) أي مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهي لا نهاية لها (الا عندنا خزائنه) أي قادرون على ايجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جده قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البحر والبر والخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الحفظ وقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبني آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا أي في حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره (وما ننزله) من بقاع القدرة (الا بقدر معلوم) أي على حسب المصالح وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله * ولما أتم ما أراد من آيتي السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل شئ أتبعه ما نشأ عنهما مما هو بينهما مودعا في خزائن قدرته بقوله تعالى (وأرسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المر (لواقح) أي حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وقرأ حمزة بالافراد والباقون بالجمع (فأنزلنا) أي بعظمتنا بسبب تلك السحاب التي حملتها الريح (من السماء) أي الحقيقية أو جهتها أو السحاب لان الاسباب المترتبة ١ يسند الشئ تارة الى القريب منها وتارة

هذا لك (قوله أن يخلق كمن لا يخلق) هذا من عكس التشبيه اذ مقتضى الظاهر العكس لان الخطاب لعباد الاوثان حيث سموها آلهة تشبيها به تعالى فجعلوا غير الخالق كالخالق فخولف

١ قوله المترتبة كذا بالاصل الطبع وفي بعض النسخ المتقاربة وبعض المترانية اهـ مصححه

الى البعيد (ماء) وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء (فأسقيناكموه) اى جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ماء يشرب به واسقيته اى مكنته منه ليسقى به ماشيته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله (وما أنتم له) أى لذلك الماء (بخازنين) أى ليست خزائنه بأيديكم والخزن وضع الشئ فى مكان مهيإ للحفظ فثبت أن القادر عليه واحد مختار ومن دلائل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى (وانا لنحن نحيى) أى لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيى بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وان كان أحدهما حقيقة والآخر مجازا لان الجمع جائز (ونميت) أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء (ونحن الوارثون) أى الارث التام اذا مات الخلائق الباقون بعد كل شئ كما كنا ولا شئ فليس لاحد تصرف باماتة ولا احياء فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى (ولقد علمنا المستقدمين منكم) وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم فيكون فى موته كأنه يسارع الى التقدم اليه وان كان هو وكل من أهله مجتهدا بالعلاج فى تأخيره (ولقد علمنا المستأخرين) أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون الى ذلك وان عالجوا الموت بشرب سم او نحوه أو عالجه لهم غيرهم بضربهم بسيف أو غيره فعرف من ذلك قطعا أن الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين الاموات وبالمستأخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المستبطؤن عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستأخرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها * (تنبيه) * فى سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى آخر صف فاذا ركع نظر من تحت ابطه فنزلت والثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت (وان ربك هو يحشرهم) أى المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى (انه حكيم) أى باهر الحكمة متقن فى أفعاله (عليم) وسع علمه كل شئ ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) قال الرازى والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه آدم عليه السلام ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر من انسانا الطهوره

ادر الـ

ـابهم لانهم بالغوا
ـادتها حتى صارت
ـم أصلا فى العبادة
ـفى فرعا لخفاء الانكار
ـفى ذلك لانهم هموا
ـدعلى معتقدهم

وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسي (من صلصال) أي من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار اذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا نضب عنه الماء انشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال الفرا هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازي قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لا يدري أحد ما يراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح (من حمإ) أي طين أسود منتن (مسنون) أي مصور بصورة الآدمي وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوي وفي بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيرا أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ما ذكره بعضهم ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حمإ مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره الله صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يفخر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا * ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى (والجان) قال ابن عباس هو أبو الجن كما ان آدم عليه السلام أبو البشر وابليس أبو الشياطين وفي الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره (خلقناه من قبل) أي قبل خلق الانسان (من نار السموم) أي من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازي فالريح الحارة فيها نار وبها لفح كما ورد في الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبي عن أبي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا أحدث الله تعالى أمرا خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه الآية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وأما الملائكة فخلقوا من النور * ولما ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى (واذا) أي واذكر يا أشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ (قال ربك) أي المحسن اليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك (للملائكة اني خالق بشرا) أي حيوانا

(فان قلت) المراد بمن لا يخلق الاصنام فكيف جيء بمن المختصة باولي العلم (قلت) خاطبهم على معتقدهم لانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولي العلم

كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن ابشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى (من صلصال من حمإ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) أى عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل (ونفخت فيه من روحى) أى خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل وأضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير به الروح عالما وأشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا وسيأتى الكلام على الروح ان شاء الله تعالى فى سورة سبحان عند قوله تعالى ويسألونك عن الروح (فقعوا) أى اسقطوا (له) تعظيما حال كونكم (ساجدين) وتقدم فى سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة أو ملائكة السموات أو ملائكة الارض وهل هو سجود انحناء أو غيره (فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم عند هذا بقى احتمال وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد فى وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه أجود لان أجمعين معرفة ٣ فلا يكون حالا وقوله تعالى (الا ابليس) أجمعوا على أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا فى انه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسئلة على الاستقصاء فى سورة البقرة وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) أى لآدم استئناف تقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه (قال) الله تعالى له (يا ابليس مالك ألا تكون) أى أن تكون ولا مزيدة أى ما منعك أن تكون (مع الساجدين) لآدم (قال لم أكن لاسجد لبشر) جسمانى كثيف واللام لتأكيد النفى أى لا يصح منى وينافى حالى أن أسجد وأنا ملك روحانى لبشر (خلقته من صلصال من حمإ مسنون) وهو أخس العناصر وخلقتنى من نار وهى أشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه فى سورة الاعراف * (تنبيه) * قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال فى الجواب لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضى أن الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وأن ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى من غير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم * (وأجيب) * بان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فاما اذا كانت على سبيل الاهانة والاذلال فلا (قال) الله تعالى له (فاخرج منها) أى من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام على ذلك أيضا فى سورة الاعراف (فانك رجيم) أى مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته (وان عليك اللعنة) أى هذا الطرد والابعاد (الى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد باعمالهم مثل قوله تعالى مالك يوم الدين (فان قيل) كلمة الى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد ان اللعنة لا تحصل الا الى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن

...سيره قوله تعالى الهم
...ل يشون به الآية
...وله أموات غير أحياء
...قلت ما فائدة قوله
...وصف الاصنام غير
...ياء بعد قوله أموات

...وله فلا يكون حالا انظر
...ادعى حالية اجمعون
...انه مفرد مرفوع اه

(أجيب) بجوابين الاول أن المراد التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقوله تعالى ما دامت السموات والارض في التأبيد والثاني أنه مذموم مدعو عليه باللعن في السموات والارض الى يوم القيامة من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل (قال رب) فاعترف بالعبودية والاحسان اليه (فانظرني) أي أخرني والانظار تأخير المحتاج للنظر في أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم (الى يوم يبعثون) أي الناس أراد أن يجد فسحة في الاغواء ونجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث (قال) الله تعالى مجيبا للاول دون الثاني بقوله تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الاولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن في دار الخلد (فان قيل) كيف أجابه الله تعالى الى ذلك الامهال (أجيب) بانه انما أجابه الى ذلك زيادة في بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته * ولما أجيب لذلك كأنه قيل فماذا قال فقيل (قال رب) أي أيها الموجد والمدبر لي وقوله (بما أغويتني) أي خيبتني من رحمتك الباء فيه للقسم وما مصدرية وجواب القسم (لازينن) أي أقسم باغوائك اياي لازينن لهم في الارض) حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا انه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهي من صفات الذات وهنا أقسم باغواء الله وهي من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا في القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة (ولاغوينهم) أي بالاضلال عن الطريق الجيدة بالقاء الوسوسة في قلوبهم ولاجلهم (أجمعين) على الغواية وقوله (الا عبادك منهم المخلصين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أي الذين أخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها أي الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازي والذي حمله على هذا الاستثناء انه لا يصير كاذبا في دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب في غاية الخساسة *(تنبيه)* قال رويم الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ما هو قال سر استودعته قلب من أحب من عبادي * ولما ذكر ابليس أنه يغوي بني آدم الا من عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته (قال) تعالى (هذا) أي الذي ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه (صراط) أي طريق (علي مستقيم) أي لا انحراف عنه لاني قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت * ولما قال ابليس لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء أكانوا المخلصين

(قوله) فائدة انهم أموات لا يعقب موتهم حياة احترازا عن أموات يعقب موتهم احياة كالنطفة والبيض والاجساد الميتة وذلك أبلغ في موتها كأنه قال أموات في الحال غير أحياء

اولم يكونوا المخلصين بل ومن اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعاله ولكن حصول تلك المتابعات أيضا ليس لاجل ابليس وأوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا نافيين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا بقوله تعالى (ان عبادى) أى المؤمنين كلهم (ليس لك) أى بوجه من الوجوه (عليهم سلطان) أى اتردهم كلهم عما يرضيني ونظيرهذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (الا من اتبعك) أى بتعمد منه ورغبة فى اتباعك (من الغاوين) أى ومات من غير توبة فانى جعلتك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا الخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب فى رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو الى الاقبال عليه لان ذوى الانفس الأبية والهمم العلية ينافسون فى ذلك المقام ويرونه كما هو الحق أعلى مرام (وان جهنم لموعدهم) أى الغاوين وهم ابليس ومن تبعه (أجمعين) ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى (لها) أى لجهنم (سبعة أبواب) أى سبع طبقات قال على رضى الله تعالى عنه أتدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنات على العرض ووضع النيران بعضها على بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية * (تنبيه) * تخصيص العدد لان أهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيآت فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية قال تعالى (لكل باب) أى منها (منهم) أى من الغاوين خاصة لا يشاركهم فيها مشارك (جزء) أى نصيب وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بالسكون (مقسوم) أى معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك فى الدركة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد ولما شرح الله تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا لانكار المكذبين بالبعث (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا أو قاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب

(قوله وما يشعرون أيان يبعثون) * ان قلت كيف عاب الاصنام بانهم لا يعلمون مع ان المؤمنين كذلك (قلت) معناه وما يشعر الاصنام متى يبعث عبادها فكيف تكون

والقتال ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى لان
الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية
يجب كونه مشتملا على تلك الماهية (في جنات) أي بساتين قال الرازي أما الجنات فأربعة
لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله
ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى
وقوله تعالى ولمن خاف يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى (وعيون)
قال الرازي يحتمل أن يكون المراد منها ما ذكره الله تعالى في قوله مثل الجنة التي وعد المتقون
فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من
عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار (فان قيل)
هل كل واحد من المتقين مختص بعيون أو تجري تلك العيون بعضها الى بعض (أجيب)
بان كل واحد من الوجهين محتمل فيجوز أن يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به
من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يجري
من بعضهم الى بعض لانهم يتطهرون عن الحقد والحسد وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص
برفع العين والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين في الوصل أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم
وحمزة والباقون بالضم * ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة والانس قال تعالى (ادخلوها)
أي يقال لهم ذلك (بسلام) أي سالمين من كل آفة مصحبا بكم (آمنين) من ذلك دائما ولما
كان الانس لا يكمل الا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى (ونزعنا)
أي بما لنا من العظمة والقدرة (ما في صدورهم من غل) أي حقد كامن في القلب وباطن
على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها
كامنة في القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم
يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم (اخوانا)
أي متصافين حالة كونهم (على سرر) جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو
مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد على سرر من ذهب
مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية (متقابلين) لا يرى
بعضهم قفا بعض فان التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك أن المواجهة أشرف
الاحوال وعن مجاهد رضي الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون في جميع
أحوالهم متقابلين *(تنبيه)* ليس المراد الاخوة في النسب بل المراد الاخوة في المودة
والمخالطة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد أنه قال
ما أحلى الاجتماع مع الاصحاب وما أمر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى (لا يمسهم فيها
نصب) أي اعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف او حال بعد حال او حال من الضمير في متقابلين
وقوله تعالى (وما هم منها بمخرجين) المراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان
وفوزا بلا حرمان * ولما ذكر تعالى أحوال المتقين وأحوال غيرهم اتبع ذلك بقوله تعالى
(نبئ) أي خبر يا أفضل الخلق (عبادي) اخبارا جليلا (اني أنا) أي وحدي (الغفور) أي

آلهة مع الجهل بخلاف
المؤمنين فانهم يعلمون ٣
انه يوم القيامة (قوله
ليحملوا أوزارهم
كاملة يوم القيامة ومن
أوزار الذين يضلونهم) اى
ليحملوا أوزار كفرهم

٣ هكذا بياض بالاصل

المؤمنين (الرحيم) بهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من عبادي واني والباقون بالسكون وأما الهمزة في نبئ فلم يبدلها الا حمزة في الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء في الوقف (وان عذابي) أي وعدي للعصاة (هو العذاب الاليم) أي المؤلم *(تنبيه)* في هذه الآية لطائف الاولى انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم الا ترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذي أسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيدات بالفاظ ثلاث أولها قوله تعالى اني وثانيها قوله انا وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل اني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابي هو العذاب الاليم الثالثة انه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه اشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادي كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك منها عنده تسعة وتسعين وأرسل في خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضي الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه الى قتلها وعنه صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم * ولما بالغ تعالى في تقرير النبوة ثم اردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الاشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاولياء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (ونبئهم) أي خبر يا سيد المرسلين عبادي (عن ضيف ابراهيم) وهم ملائكة اثنا عشر او عشرة او ثلاثة منهم جبريل عليه السلام (فان قيل) الضيف هو المنضم الى غيره لطلب القرى (اجيب) بان هؤلاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل أيضا ان من يدخل دار انسان و يلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل (اذ دخلوا عليه) أي ابراهيم وكان يكنى أبا الضيفان كان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد (فقالوا سلاما) أي نسلم عليك سلاما او سلمت سلاما (قال) ابراهيم عليه السلام بلسان الحال او المقال (انا) أي انا ومن عندي (منكم وجلون) أي خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل او لانهم دخلوا بغير اذن و بغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره (قالوا لا توجل) أي لا تخف (انا) رسل ربك (نبشرك بغلام) أي ولد ذكر في غاية القوة ليس كاولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (عليم) أي ذي علم كثير هو

باشرة ومثل او بعض
او زاركة من اضلوهم
بتسببهم في كفرهم ان
زائدة او تبعيضية واما
قوله تعالى ولا تزر وازرة
وزر اخرى فمعناه وزرا
لا مدخل لها فيه ولا تعلق

اسحق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدم ذكر القصة هناك باسرها (قال) ابراهيم عليه السلام (أبشرتموني) أى بالولد وقوله (على ان مسني الكبر) حال أى مع مسه اياى (فان قيل) كيف قال (فبم) أى فبأى شئ (تبشرون) أى هو الى ذلك بيانا شافيا مع انهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام (اجيب) بانه أراد ان يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة او يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه لا يحصل في حال الشيخوخة التامة وانما يحصل في حال الشباب او انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم (قالوا بشرناك بالحق) قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب ابراهيم اسحق ويخرج من صلب اسحق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم وقولهم (فلا تكن) أى بسبب تبشيرنا (من القانطين) أى الآيسين نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهى الانسان عن الشئ لا يدل على كونه فاعلا للمنهى عنه كما في قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه (قال ومن يقنط) أى ييأس من هذا اليأس ٣ (من رحمة ربه) أى الذى لم يزل احسانه عليه (الا الضالون) أى المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى اتيانهم مختفين على غير الصفة التي يأتى عليها الملك للوحى وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بانه ما ينزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسألهم عن أمرهم ايزول وجله كله ولذلك (قال) عليه السلام (فما) بفاء السبب (خطبكم) أى شأنكم قال أبو حيان والخطب لا يكاد يقال الا في الامر الشديد اه وقال الرمانى انه الامر الجليل (أيها المرسلون) فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج (قالوا انا أرسلنا) أى أرسلنا العزيز الحكيم الذى أنت أعرف الناس في هذا الزمان به (الى) اهلاك (قوم) اى ذوى منعة (مجرمين) أى كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى (الا آل لوط) فيه وجهان أحدهما انه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله تعالى (انا لمنجوهم أجمعين) اى لاعمانهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين ولآل لوط لاهلاك اولئك وانجاء هؤلاء والثانى انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم أجمعين جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائى بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثانى لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى (قدرنا) قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (انها لمن الغابرين) أى من الباقين في العذاب لكفرها *(تنبيه)* معنى التقدير في اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ لهذا أى اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أى جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أى جعل

لهما بسبب ولا غيره ونظيرها بين الآيتين سؤالا وجوابا قوله تعالى في الحجر عل خطابا كم الى قوله وانا الا مع أتقاهم (قوله فاصابهم سيآت ما عملوا) قال فيه وفى الجاثية ما عملوا وفى

٣ قوله من هذا اليأس هكذا بالاصول ولعل من زائدة من الناسخ اه مصححه

على مقدار ما يكفي في الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا (فان قيل) لم اسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع انه لله عز وجل (اجيب) بانهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا * ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هي القصة الثانية المذكورة في هذه السورة قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا وجاء أهل المدينة (قال) لهم (انكم قوم منكرون) لانهم دخلوا عليه هجما فاستنكرهم وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف ان يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله عليه السلام انكم قوم منكرون أي لا أعرفكم ولا أعرف انكم من أي الاقوام أنتم ولاي غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) اي الملائكة (بل جئناك بما) اي بالعذاب الذي (كانوا) أي قومك (فيه يمترون) اي يشكون في نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة ما يعرض له منه من حيث انه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم اكدوا ما ذكروه بقولهم (وأتيناك بالحق) اي باليقين الذي لا يشك فيه ثم اكدوا هذا التأكيد بقولهم (وانا لصادقون) اي فيما أخبرناك به (فاسر باهلك) اي فاذهب بهم في الليل (بقطع من الليل) أي في طائفة من الليل وقيل هي آخره قال الشاعر

افتحي الباب وانظري في النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

كأنه طال عليه الليل فخاطب صحيحته بذلك او كان يحب طول الليل للوصال وقرأ نافع وابن كثير بوصل همزة فاسر بعد الفاء من السرى والباقون بالقطع وهما بمعنى (واتبع ادبارهم) اي وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع على أحوالهم (ولا يلتفت منكم احد) أي لئلا يرى ما نزل بهم من البلاء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط (وامضوا حيث تؤمرون) اي الى المكان الذي أمركم الله بالمضي اليه قال ابن عباس هو الشام وقال الفضيل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم ان يمضوا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط وقيل الى الاردن وقيل الى مصر * (تنبيه) * حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولابهامها تعدى اليها الفعل من غير واسطة (وقضينا) أي واوحينا (اليه) ولما ضمن قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله وقضينا الى بني اسرائيل وقوله تعالى (ذلك الامر) مبهم تفسيره (ان دابر هؤلاء مقطوع) اي مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم احد وقوله تعالى (مصبحين) حال من هؤلاء او من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء اي يتم استئصالهم في الصباح (وجاء اهل المدينة) اي مدينة من مدائن قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة وذال معجمة واخطأ من

لزهرما كسبوا موافقة
ما قبل كل منها وبعده
وقبله وبعده اذ ما هنا
بما كانوا يعملون من سوء
تعملون مرتين وقبل
الجاثية ما كنتم تعملون
عملوا الصالحات وبعده

قال بمهملة (يستبشرون) اى باضياف لوط طمعا فيهم وليس فى الآية دليل على المكان الذى
جاؤه الا ان القصة تدل على انهم جاؤا دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر
خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط أخبرتهم بذلك قال الرازى وبالجملة فالقوم
قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار
لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار اظهار السرور ولما وصلوا اليه (قال) لهم لوط
(ان هؤلاء ضيفى) أى وحق على الرجل اكرام الضيف (ولا تفضحون) فيهم يقال فضحه
يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزم به العار واذا قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب
المحل ثم أكد ذلك بقوله (واتقوا) أى خافوا (الله) فى أمرهم (ولا تخزون) اى ولا تخجلونى
فيهم بقصدكم اياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهى الحياء أو ولا تذلونى بسببهم من الخزى
وهو الهوان (قالوا) أى قومه فى جواب قوله لهم (اولم ننهك عن العالمين) أي عن ان تضيف
أحدا من العالمين وقيل اولم ننهك ان تدخل الغرباء المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل
اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم
عنهم بقدر وسعه ثم (قال) لهم (هؤلاء بناتى) أى نساء القوم لان كل امة أولاد نبيها رجالهم
بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم هؤلاء بناتى فانكحوهن وخلوا بنى فلا تتعرضوا لهم
(ان كنتم فاعلين) اى ما أقول لكم او قضاء الشهوة والكلام فى ذلك قد مر بالاستقصاء
فى سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتى والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه
وسلم على لسان ملائكته (لعمرك) اى وحياتك وما اقسم بحياة أحد غيره وذلك يدل على انه
أكرم الخلق على الله تعالى (انهم لفى سكرتهم) أى شدة غفلتهم التى أزالت عقولهم (يعمهون)
أى يتحيرون الخطاب[*] للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك أى فكيف يعقلون قولك
ويلتفتون الى نصيحتك * (تنبيه) * لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وانهم وما فى حيزه
جواب القسم تقديره لعمرك قسمى او يمينى انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو
البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على
ألسنتهم بلعمرى ولعمرك (فأخذتهم الصيحة) اى صيحة هائلة مهلكة وهل هى صيحة جبريل
عليه السلام قال الرازى ليس فى الآية دليل على ذلك فان ثبت بدليل قوى قيل به والا فليس
فى الآية دليل الا انهم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى (مشرقين) اى داخلين فى وقت
الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول أخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن
الصيحة معقبا لها بقوله تعالى (فجعلنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (عاليها) اى مدائنهم
(سافلها) بان رفعها جبريل عليه السلام الى السماء واسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا
عليهم) اى أهل المدائن التى قلبت المدائن لاجلهم (حجارة من سجيل) اى طين طبخ بالنار
* (تنبيه) * دلت الآية الكريمة على ان الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب احدها
الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها انه جعل عاليها سافلها وثالثها انه أمطر عليهم حجارة من
سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) اى المذكور من هذه الانواع
(لآيات) اى دلالات على وحدانية الله تعالى (للمتوسمين) أى الناظرين المتفكرين جمع

شيئا ت... ما عملوا وقيل ما فى
الزمر ذوقوا ما كنتم
تكسبون وبعده فما أغنى
عنهم ما كانوا يكسبون
(قوله انما قولنا لشيء اذا
أردناه ان نقول له كن فيكون)
ان قلت * هذا يدل على

[*] قوله الخطاب للوط الخ هكذا
بالاصول التى بايدينا
ولعله اوالخطاب الخ
كما تدل عليه عبارة
الكشاف اه مصححه

متوسم وهو الناظر فى السمة حتى يعرف حقيقة الشئ بسمته (وانها) اى هذه المدائن (لبسبيل) اى طريق قريش الى الشام (مقيم) اى لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون أثره أفلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد (ان فى ذلك) اى هذا الامر العظيم (لآية) اى علامة عظيمة فى الدلالة على وحدانيته تعالى (للمؤمنين) اى كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من اولئك الجهال اما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه * ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهى قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى (وان) مخففة من الثقيلة اى وانه (كان) أى جبلة وطبعا (اصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم فى سورة الشعراء والايكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر الملتف وقال ابن عباس هى شجر المقل وقال الكلبى الايكة الغيضة أى غيضة شجر بقرب مدين (لظالمين) اى عريقين فى الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام (فانتقمنا منهم) اى بسبب ذلك قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى (وانهما) فيه قولان الاول ان المراد قرى قوم لوط والايكة والقول الثانى ان الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء ضميرهما (لبامام) اى طريق (مبين) أى واضح والامام اسم لما يؤتم به قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذى يريده * ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهى قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى (ولقد كذب اصحاب الحجر) وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة والشام (المرسلين) اى كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع وهم فى اثبات الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم اتبع ذلك قوله تعالى (وآتيناهم) اى بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام (آياتنا) اى آيات الكتاب المنزل على نبيهم او معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وقرب ولادتها وغزارة لبنها وانما اضاف الآيات اليهم وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) أى الآيات (معرضين) اى تاركيها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون فيها ثم أخبر تعالى عنهم انهم كانوا مثل هؤلاء فى الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع انهم كانوا أشد منهم فقال تعالى (وكانوا ينحتون) والنحت قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح (من الجبال) أى التى تقدم انا جعلناها هادا واى (بيوتا آمنين) عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التى لا بقاء لها على أدنى درجة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص برفع الباء والباقون بكسرها (فأخذتهم الصيحة) اى صيحة العذاب (مصبحين) اى وقت الصبح (فما اغنى) اى مادفع (عنهم) الضر والبلاء (ما كانوا يكسبون) اى يعملون من بناء البيوت

ان المعدوم شئ وعلى ان المعدوم جاز مع خطاب المعدوم عند اكثر ان الاول منتف والثانى بالاجماع العلماء (قلت) اما تسميته شيا فجاز بالاول واما الثانى

الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضى الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها ولما ذكر تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال تعالى (وما خلقنا السموات والارض) اى على ما لهما من العلو والسعة والارض على ما لها من المنافع والغرائب (وما بينهما) من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك (الا بالحق) اى الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشأة الآخرة بما يشهده من النشأة الاولى (وان الساعة) اى القيامة (لآتية) لا محالة فيجازى الله تعالى كل أحد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيآتهم بقوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) اى اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم وهذا منسوخ بآية السيف قال الرازى وهو بعيد لان المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا اه والاول جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله (ان ربك) اى المحسن اليك الآمر لك بهذا (هو) اى وحده (الخلاق) أى المتكرر منه هذا الفعل (العليم) اى البالغ العلم بكل المعلومات فليست أقوالهم وأفعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه فى أخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره ان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى أفضل خلقه بها بقوله تعالى (ولقد آتيناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما آتينا صالحا ما تقدم (سبعا) يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب من أبواب النيران السبعة وهى أم القرآن الجامعة لجميع معانى القرآن التى أمرنا باعادتها فى كل ركعة زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى تكفلنا بحفظه والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هى السبع المثانى رواه أبو هريرة وقيل المراد سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهى الاسباع وقوله تعالى (من المثانى) صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى اى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ ثنيا اى عطفته وضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه أما تسمية الفاتحة بالمثانى فلوجوه الاول أنها تثنى فى كل صلاة بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة الثانى أنها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها الثالث أنها قسمت قسمين اثنين لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين والحديث مشهور وقد ذكرنا

قوله ذلك خطاب بتكوين فلان ذلك خطاب ايجاد فيمتنع ان لا خطاب ايجاد فيمتنع ان يكون الخاطب به موجودا قبل الخطاب لانه انما يكون بالخطاب (قوله ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة) يجوز

فى وجه تسميتها صلاة عند ذكرها الرابع أنها قسمان اثنان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء الخامس أن كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وأما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بافعاله العظمى وصفاته الحسنى *(تنبيه)* من فى من المثانى اما للبيان واما للتبعيض اذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال وللبيان ان أردت الاسباع قال الزمخشرى ويجوز أن تكون كتب الله كلها مثانى لانها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى (والقرآن العظيم) أى الجامع لجميع معانى الكتب السماوية المتكفل بخيرى الدارين مع زيادات لا تحصى فيه أوجه أحدها أنه من عطف بعض الصفات على بعض أى الجامع بين هذين النعتين الثانى أنه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة واما الطوال فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه فى العموم الثالث أن الواو مقحمة * ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا بقوله تعالى (لا تمدن عينيك) اى لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات (الى ما متعنا به ازواجا منهم) اى اصنافا من الكفار والزوج فى اللغة الصنف وقد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شئ قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى فى الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبى صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن اى لم يستغن وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تمدن عينيك أى لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقيل أتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى طاعة الله تعالى فقال الله تعالى لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه القوافل السبع وقرر الواحدى هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشئ اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روى أنه نظر الى نعم بنى المصطلق وقد عبست فى أبوالها وأبعارها وهو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى أحسن ما تكون وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) نهى له عن الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى (واخفض جناحك) اى ألن جانبك (للمؤمنين) اى الصدقين فى هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله

بالسجود عن الانقياد ... والسجود على لا يعقل والسجود على الجبهة فمن يعقل ففيه جمع بين الحقيقة والمجاز وانما لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما فى آية والله خلق كل دابة من ماء لانه

عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم بقوله تعالى (وقل انى أنا النذير) من عذاب الله أن ينزل عليكم ان لم تؤمنوا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (المبين) اى البين الانذار وقوله تعالى (كما أنزلنا) اى العذاب (على المقتسمين) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعضها وقال قتادة أراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين وقال انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه ساحر وليقل بعضكم انه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا سألوه فقال أولئك فيقول صدقوا فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) نعت للمقتسمين وقال ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القرآن اجزاء فآمنوا بما وافق التوراة والانجيل وكفروا بالباقى وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبدلوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لى ويقول بعضهم سورة آل عمران لى وقيل اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين وقيل هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر وأساطير الاولين بان غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم *(تنبيه)* عضين جمع عضة وهى الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهى عاضهة وفى الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة اى الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهو الكذب والبهتان يقال عضهه عضها وعضيهة اى رماه بالبهتان وقيل جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشئ أعضيه اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك انهم جعلوا القرآن أعضاء متفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم أساطير الاولين ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) فيكون الضمير عائدا على المقتسمين لانه الاقرب ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لان ذكرهم تقدم فى قوله تعالى وقل انى أنا النذير المبين اى لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسئلون عن لا اله الا الله وقال أبو العالية يسئلون عما كانوا يعبدون وما

أراد هنا عموم كل دابة ولم يقترن بتغليب فجاء بما التى تعم النوعين وفى تلك وان أراد العموم لكنه اقترن بتغليب وهو ذكر ضمير العقلاء فى قوله فمنهم فجاء

أجابوا به المرسلين (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسئلنهم أجمعين وبين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان (أجيب) بان النفي ينصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف يسئلون في بعضها ولا يسئلون في بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال في آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاصدع) اى اجهر بما تؤمر مفارقا بين الحق والباطل وقرأ حمزة والكسائي باشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة (بما) اى بسبب ما (تؤمر) به أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة روى عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (واعرض) اى اعراض من لا يبالي (عن المشركين) بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوي وهذا منسوخ بآية القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له (انا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (كفيناك المستهزئين) اى شر الذين هم عريقون في الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وعدي بن قيس والاسود بن عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى (الذين يجعلون مع الله الها آخر) وقيل ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو (فسوف يعلمون) اى عاقبة أمرهم في الدارين ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون قال له تعالى (ولقد نعلم) اى نحقق وقوع علمنا (انك) اى على مالك من الحلم وسعة البطان (يضيق صدرك) اى يوجد ضيقه ويتجدد (بما يقولون) اى من الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن لان الجبلة البشرية والمزاج الانساني يقتضي ذلك فعند هذا قال تعالى (فسبح) ملتبسا (بحمد ربك) اى نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس فصل بامر ربك (وكن من الساجدين) اى من المصلين روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وقدمت معناه في سورة البقرة (تنبيه) اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات يتنور باطنه ويشرق عليه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع الى الطاعات فكأنه يقول يارب يجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات فانا عبدك بين يديك فافعل بي ما تشاء (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال ابن عباس يريد الموت وسمى الموت يقينا لانه أمر متيقن وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم

(قوله يجعلون تغليبا للعقلاء (قوله ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قاله هنا وفي الروم بالتاء باضمار القول اى قل لهم تمتعوا كما في قوله قل تمتعوا

وأوصاني بالصلوة والزكوة ما دمت حيا وروى البغوى بسنده عن ابن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن اجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (فان قيل) اى فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه اذا مات سقطت عنه العبادات (أجيب) بان المراد منه واعبد ربك فى جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتى درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

فانه صيركم الى النار
وقوله قل تمتع بكفرك قليلا
وقال فى العنكبوت
وليتمتعوا فسوف يعلمون
باللام والياء على القياس
اذ هو معطوف على اللام

سورة النحل مكية

الا قوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم أنها كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدنى وما سواه مكى وعن قتادة بالعكس وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على انه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها فى دقة الفهم فى ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الامور ووسمها بالنعم واضح وهى مائة وثمانية وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف (بسم الله) اى المحيط بدائرة الكمال فما شاء فعل (الرحمن) اى الذى عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره (الرحيم) اى الذى خص من شاء بنعمته النجاة عما يسخطه بما يرضاه وقوله تعالى (أتى أمر الله) فيه وجهان أحدهما أنه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة وانما أبرزه فى صورة ما وقع وانقضى تحقيقا له واصدق المخبر به والثانى أنه على بابه والمراد مقدماته وأوائله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم اى جاء أمر الله ودنا وقرب فانه يقال فى الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث اى أتى امر الله وعدا (فلا تستعجلوه) وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبى صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وروى أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا أى محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم ان القيامة قد اقتربت فامسكوا عن

بعض ما تقولون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزل اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا فكان الكفار قالوا سلمنا لك يا محمد الا أنا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزيها له (وتعالى عما يشركون) اى تبرأ سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك في ملكه وقرأ حمزة والكسائي أتى بالامالة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ حمزة والكسائي عما تشركون في الموضعين بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على ان الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم * ولما أجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الامور التي لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه في ملكه وملكوته فاجابهم الله تعالى بقوله (ينزل الملائكة) قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدي يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي والباقون بتشديدها والمراد (بالروح) الوحي أو القرآن فان القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى (من امره) اى بارادته حال من الروح (على من يشاء من عباده) وهم الانبياء (أن أنذروا) اى خوفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم (أنه) اى الشان (لا اله الا أنا) اى لا اله غيري وقوله تعالى (فاتقون) اى خافوني رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود * (تنبيه) * في قوله تعالى ان أنذروا ثلاثة أوجه أحدها انها المفسرة لان الوحي فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحي قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الثاني أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان محذوف الثالث أنها المصدرية التي من شأنها نصب المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بأن قم والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وان النبوة عطائية * ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على أنه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى (خلق السموات) اى التي هي السقف المظل (والارض) اى التي هي البساط المقل (بالحق) أى اوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته (تعالى) اى تعالى الباقات الوصف (عما يشركون) به من الاصنام * ولما كان خلق السموات والارض غير متقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى في الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى (خلق الانسان) اى هذا النوع (من نطفة) اى آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع منه بعد زوجه حواء من ماء مقيد بالدفق الى أن صيره قويا شديدا (فاذا هو خصيم) اى شديد الخصومة (مبين) اى بينها روي ان أبي

ومدخولها في قوله ليكفروا بما آتيناهم ومدخولها (قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها) اى على الارض من دابة قال ذلك هنا وقال في فاطر

ابن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال تزعم يا محمد ان الله يحيي هذا العظم بعد ما قدرم فنزلت هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم قال الخازن في تفسيره والصحيح ان الآية عامة في كل ما يقع فيه الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى *ولما كانت أشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الانسان سائر الحيوانات وأشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى (والانعام) اى الازواج الثمانية الضأن والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل يفسره (خلقها) قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال (لكم فيها دفء) اى ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار قال ويجوز أيضا ان يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال الرازي قال صاحب النظم واحسن الوجهين ان يكون الوقف عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه انه عطف عليه ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال *ولما ذكر تعالى الانعام ذكر انها أنواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء النوع الثاني قوله تعالى (ومنافع) اى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به في الاكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله تعالى (ومنها تأكلون) فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (أجيب) بان الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فليس يعتمد به في الاغلب وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب في الاكل من هذه الانعام (فان قيل) منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت منفعة اللباس عليه (أجيب) بان منفعة اللباس أكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على منفعة الاكل (ولكم فيها جمال) اى زينة (حين تريحون) اى تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) اى تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين اليها (فان قيل) لم قدمت الاراحة على التسريح (أجيب) بان الجمال في الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح أهلها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ في التفرق والانتشار للمرعى في البرية فليس في التسريح تجمل كما في الاراحة النوع الرابع قوله تعالى (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر (الى بلد) اى غير بلدكم أردتم السفر اليه (لم تكونوا بالغيه) اى غير واصلين اليه على غير الابل (الا بشق الانفس) اى الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشيء اى لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام والى مصر قال الواحدي والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لشق عليكم

بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ترك الفظ ظهرها اعتمادا على ذكرها عن الجمع بين الظاهرين في ظهرها وظاهرها بخلافه في فاطر اذ لم يذكرها بلفظها (فان قلت)

وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هذه البلاد (فان قيل) المراد من قوله تعالى والانعام خلقها لكم الابل فقط بدليل أنه وصفها الى آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل (أجيب) بان المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصل في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه أن قوله ولكم فيها جمال حاصل في البقر والغنم مثل حصوله في الابل * (تنبيه) * احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الآية فانها تدل على أن الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتو الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور اذ لا قائل بالفرق وأجاب المثبتون بانا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات (ان ربكم) اى الموجد لكم والمحسن اليكم (لرؤف) اى بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما يرضيه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد (رحيم) اى بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى (والخيل) اى الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط (والبغال) اى المتولدة بينها وبين الحمير (والحمير) اى الناهقة عطف على الانعام اى وخلق هذه الحيوانات (لتركبوها) اى لاجل ان تركبوها وفي نصب قوله تعالى (وزينة) أوجه أحدها انه مفعول من أجله وانما وصل الفعل الى الاول باللام في قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه لاختلاف شرطه في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون بخلاف الثاني الثاني انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها فهو مصدر أقيم مقام الحال الثالث أن ينتصب بتقدير فعل قدره الزمخشري بقوله وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره بقولهم وجعلها زينة الرابع أنها مصدر لفعل محذوف أى وتتزينون بها زينة * (تنبيه) * احتج القائلون وهم ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية قالوا منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله لان الله تعالى نص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل واحتج القائلون باباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعي بما روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روى عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية أكلنا في زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجابوا عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك

لآية تقتضي مؤاخذة
البرى بظلم الظالم وذلك
يحسن من الحكيم
(قلت) المراد بالظلم هنا
الكفر وبالدابة الدابة
الظالمة وهي الكافر

وانما خص هاتين المنفعتين بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى فى الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم حمل الاثقال على الخيل وقال الواحدى لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذا الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لاجل ان هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر اى وذلك فى المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازى وهذا جواب حسن متين وقال ابن الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه فى اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضى ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه ودار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير أخذنا به جمعا بين النصين *ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كقطرة فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون ألفا البيت المعمور وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة الآية بالسوس فى النبات والدود فى الفواكه وفسرها بعضهم بما أعد الله تعالى لاهل الجنة فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر *ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى (وعلى الله) اى الذى له الاحاطة بكل شئ (قصد السبيل) اى بيان الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذا أضاف اليها القصد وقال (ومنها) اى السبيل (جائر) اى حائد عن الاستقامة (فان قيل) هذه الآية تدل على ان الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت (أجيب) بان المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح (فان قيل) لم غير أسلوب الكلام حيث قال فى الاول وعلى الله قصد السبيل وفى الثانى ومنها جائر دون وعليه جائر (أجيب) بان المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى (ولو شاء) هدايتكم (لهداكم) الى قصد السبيل (أجمعين) فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازى وهذا يدل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره *ولما ذكر تعالى نعمه على

كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما (قوله فاحيا به الارض بعد موتها) فانه هنا بحذف من لعدم ذكرها قبله وليوافق ما قبلها بعد من قوله لكيلا يعلم بعد علم شيئا

عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لانه من أعظم النعم على عباده فقال (هو) اى لا غيره مما تدعى فيه الالهية (الذى أنزل) اى بقدرته الباهرة (من السماء) اما من نفسها أو من غيرها أو من جهتها أو من السحاب كما هو مشاهد (ماء) اى واحدا تحسونه بالذوق والبصر (لكم منه) اى من ذلك الماء (شراب) اى تشربونه وقد بين تعالى فى آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شئ حى (فان قيل) ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر (أجيب) بانه تعالى لم ينف أن يشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع ان يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله فى سورة المؤمنون وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الارض (ومنه) اى من الماء (شجر) اى ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلأ وفى الحديث لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ (فان قيل) قال المفسرون فى قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان المراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ماله ساق (أجيب) بان عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح ان يكون المراد بالشجر هنا ماله ساق لان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وحينئذ فاطلاق الشجر على الكلأ مجاز (فيه) اى الشجر (تسيمون) اى ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهى العلامة لانها تؤثر فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم للارسال فى المرعى * ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى (ينبت) اى الله (لكم به) اى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن وبارك فيه وثلث بذكر النخيل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانه شبيه النخيل فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ فى داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنفتح الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمار تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) بينة على ان فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك فى الوقت الذى يريده وانما تحصل معرفة ذلك (لقوم يتفكرون) فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون * ثم ذكر سبحانه وتعالى

وقاله فى العنكبوت بانبات ا
ليوافق التعبير بها فى قوله
ولئن سألتهم من نزل
من السماء ماء واثبتها
فى قوله فى الحج لكيلا يعلم
من بعد علم شيأ ليوافق
التعبير بها قبل فى قوله

أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى (وسخر لكم) أى أيها الناس لاصلاح أحوالكم (الليل) للسكنى (والنهار) للمعاش ثم ذكر آية النهار فقال (والشمس) أى لمنافع اختصاصهما ثم آية الليل فقال (والقمر) لامور علقها به (والنجوم) أى الآيات نصبها لها * ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى (مسخرات) اى بانواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها (بأمره) اى بارادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله تعالى بالاختيار ولو شاء تعالى لأقام أسبابا غيرها أو أغنى عن الاسباب وقرأ ابن عامر برفع الاربع وهى الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه حفص فى الاثنين الاخيرين والنجوم مسخرات لاغير والباقون بالنصب عطفا على ما قبله فى الثلاثة الاول وفى الرابع وهو مسخرات على الحال * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الاشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله (ان فى ذلك) اى التسخير العظيم (لآيات) اى دلالات متعددة كثيرة عظيمة (لقوم يعقلون) اى يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراده منهم وقوله تعالى (وما ذرأ) أى خلق (لكم فى الارض) عطف على الليل أى وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل انه فى موضع نصب بفعل محذوف أى وخلق هكذا قدره أبو البقاء وكأنه استبعد تسلط سخر على ذلك فقدره فعلا لائقا وقوله تعالى (مختلفا) حال منه وقوله تعالى (ألوانه) أى فى الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به (ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) أى يتعظون * (تنبيه) * ختم تعالى الآية الاولى بالتفكر لان ما فيها يحتاج الى تأمل ونظر وختم الثانية بالعقل لان مدار ما تقدم عليه وختم الثالثة بالتذكر لانه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات فى الثانية دون الاولى والثالثة لان ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الاله أولا بأجرام السموات والارض وثانيا ببدن الانسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب النبات ذكر خامسا عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى (وهو) أى لا غيره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها (الذى سخر البحر) أى ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك قال علماء الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض غائصة فى الماء فذلك هو البحر المحيط وجعل فى هذا الربع المسكون سبعة أبحر قال تعالى والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذى سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار فتسخيرها للخلق ما مر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع * الاولى قوله تعالى (لتأكلوا منه) اى بالاصطياد وغيره من لحوم الاسماك (لحما طريا) لا تجدونه منتنا ولا ألين وهو أرطب اللحوم فيسرع اليه الفساد فيبادر الى أكله عذبا ففى ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك ان السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى لانه لما خرج من البحر الملح الطعم الطرى فى غاية العذوبة علم انه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله تعالى قادر على اخراج الضد من الضد * المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه) اى بجهدكم فى الغوص وما يتبعه (حلية) اى اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ

خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (قوله نسقيكم مما فى بطونه) قال ههنا باعتبار افراد الضمير مذكرا وفى المؤمنين بطونها بجمعه مؤنثا نظرا هنا الى ان الانعام مفرد كما نقله الزمخشرى عن سيبويه

والمرجان (تلبسونها) اى نساؤكم وهن بعضكم فكأن اللابس أنتم ولان زينة النساء بالحلى
انما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم * المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) اى السفن
(مواخر) اى تمخر الماء اى تشقه بجريها (فيه) اى مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين
احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد تمخر الريح السفن يعنى أنها اذا جرت
يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعنى مملوأة متاعا وقوله تعالى (ولتبتغوا) اى لتطلبوا
عطف على تأكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك
ولتبتغوا (من فضله) اى من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول الى البلدان الشاسعة
(ولعلكم تشكرون) الله على هذه النعم التى أنتم عاجزون عنها ولا تستطيعونه * ثم انه تعالى ذكر
بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض بقوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى) أى جبالا
ثوابت (أن تميد) اى كراهة ان تميل وتضطرب (بكم) وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره
البصريون والثانى قدره الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا
روى ان الله تعالى خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ماهى بمقر أحد على ظهرها
فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى (وأنهارا) عطف على
رواسى لان الالقاء بمعنى الخلق والجعل ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى وجعل فيها رواسى
من فوقها وقال تعالى وألقيت عليك محبة منى وذكر تعالى الانهار بعد الجبال لان
معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (و) جعل لكم فيها (سبلا) اى طرقا
مختلفة تسلكون فيها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان
(لعلكم تهتدون) اى بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون
(و) جعل لكم فيها (علامات) اى من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها فى أسفاركم * ولما
كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات
الى مقام الغيبة لافهام العموم لئلا يظن ان الخطاب مخصوص والامر لا يتعداه فقال تعالى
(وبالنجم) اى الجنس (هم) اى أهل الارض كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش
ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم (يهتدون) وقدم الجار تنبيها على أن الدلالة بغيره بالنسبة
اليه سافلة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى وقيل الضمير لقريش
لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم * ولما ذكر سبحانه
وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ماذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه
الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه
تعالى المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه
الاصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ (أفمن يخلق) أى هذه الاشياء الموجودة
وغيرها (كمن لا يخلق) شيأ من ذلك بل على ايجاد شئ ما فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل
بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى (فان قيل) ذلك الزام
للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق
الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق (أجيب) بانهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى

ونم الى انه جمع كما هو الشائع
(قوله والله جعل لكم من
أنفسكم أزواجا) اى من
جنسكم كما قال الله تعالى
لقد جاءكم رسول من
أنفسكم (قوله وبنعمة الله
هم يكفرون) فالهنا زيادة

في تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق (فان قيل) من لا يخلق ان اريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود من واضحاً لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء ايضاً بما جاز وان اريد به الاصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم (اجيب) بانهم سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى اولي العلم الا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون والى قول الشاعر

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي * فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلي الى من قد هويت أطير

فاوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء وقيل للمشاكلة بينه وبين ما يخلق وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولي العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها يعني أن الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف تصح لهم العبادة لا انها لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا ولما كان هذا القدر ظاهراً غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى تدقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى (أفلا تذكرون) بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون * (تنبيه) * احتج أهل السنة بهذه الآية على أن العبد غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشياء التي يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشياء بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والعبودية لكونه تعالى خالقاً وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقاً لشيء لوجب كونه الهاً معبوداً ولما كان ذلك باطلاً علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات لا تحصى وأكثرها نعم على العباد مذكرة لهم بخالقهم قال ممتناً عليهم باحسانه من غير سبب منهم (وان تعدوا) كلكم (نعمة الله) اي انعام الملك الاعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون اليه من أمر الدنيا حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فان تتبعها يفوت الحصر (لا تحصوها) أي لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كفرها واعراضكم جملة عن شكرها والعبد وان أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصراً لان نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلاً عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها (ان الله لغفور) أي لتقصيركم في القيام بشكرها بحق النعمة كما يجب عليكم (رحيم) بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اي وما يظهرون من

هم وفي العنكبوت بدونها لان ما هنا اتصل بقوله والله جعل لكم من انفسكم ازواجا الخ وهو بالخطاب ثم انتقل الى الغيبة فقال افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم

أداه صلى الله عليه وسلم فاخبر الله تعالى بانه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لايخفى عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثانى أنه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية ان الاله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة * ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات * الاولى مذكورة فى قوله تعالى (والذين تدعون) اى تعبدون (من دون الله) اى الاصنام وتعتقدون انها آلهة وقرأ عاصم بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لايخلقون شيأ وهم يخلقون) اى يصورون من الحجارة وغيرها (فان قيل) قوله تعالى فى الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لايخلق يدل على أن هذه الاصنام لاتخلق شيأ وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور فى تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا التكرار (أجيب) بان فائدته أن المعنى المذكور فى الآية المتقدمة أنهم لايخلقون شيأ فقط والمذكور فى هذه الآية أنهم لايخلقون شيأ وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار فكانه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم فبين أولا أنها لاتخلق شيأ ثم بين ثانيا أنها كما لاتخلق غيرها فهى مخلوقة كغيرها * الصفة الثانية قوله تعالى (أموات) اى جمادات لاارواح لها (غير أحياء) اذ الاله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لايموت (فان قيل) علم من قوله أموات أنها غير أحياء فما الفائدة فى ذكره (أجيب) بان من الاموات مايعقب موته حياة كالنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا واجساد الحيوانات التى تبعث بعد موتها وأما الحجارة فاموات لايعقب موتها حياة وذلك أعرق فى موتها وقيل ذكر ذلك تأكيدا بان الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبى فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام بكون المخاطب فى غاية الغباوة فى أنه لايفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة * الصفة الثالثة قوله تعالى (ومايشعرون) أى الاصنام (أيان) اى وقت (يبعثون) اى وماتعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الاحياء تهكما بها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور مالايعلمه حى الا الحى القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله تعالى يبعث الاصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم أموات اى لابد لهم من الموت غير أحياء اى باقية حياتهم ومايشعرون اى لاعلم لهم بوقت بعثهم * ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى (الهكم) اى أيها الخلق جميعا المعبود بحق (اله) اى متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل أوان وكل زمان وكل مكان (واحد) لايقبل التعدد الذى هو مثار النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية (فالذين) اى فتسبب عن هذا أن الذين (لايؤمنون بالآخرة) اى دار الجزاء ومحل اظهار الحكم الذى هو ثمرة الملك والعدل الذى هو مدار العظمة (قلوبهم منكرة) اى جاحدة للوحدانية (وهم) اى والحال انهم بسبب انكار ذلك (مستكبرون) اى متكبرون عن الايمان بها (لاجرم) اى حقا (ان الله يعلم) علما غيبيا

يكفرون فلو ترك هم لالتبست الغيبة بالخطاب (قوله بان تبدل الياء تاء) يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ ولا يستطيعون) غلب فيه من يعقل على من لايعقل

وشاهديا (مايسرون) اى مايخفون مطلقا أو بالنسبة الى بعض الناس (وما يعلنون) اى يظهرون فيجازيهم بذلك * ولما كان فى ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى (انه) اى العالم بالسر والعلن (لا يحب المستكبرين) اى على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يارسول الله ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر الحق أنه يستكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة فى ابطال مذاهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة (واذا قيل لهم) اى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وقوله تعالى (ما) استفهامية و(ذا) موصولة اى ما الذى (أنزل ربكم) على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف فى قائل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (قالوا) مكابرين فى انزال القرآن هو (أساطير) اى أكاذيب (الاولين) مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم أقصر سورة منه مع علمهم بانهم أفصح الناس وأنه لا يكون من احد من الناس متقدم أو متأخر قول الا قالوا أبلغ منه (فان قيل) هذا كلام متناقض لانه لا يكون منزلا من ربهم وأساطير (أجيب) بانهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون واللام فى قوله تعالى (ليحملوا) لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا (أوزارهم) اى ذنوب انفسهم وانما قال تعالى (كاملة) لئلا يتوهم انه يكفر عنهم شئ بسبب البلايا التى اصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم (يوم القيامة) الذى لا شك فيه ولا محيص عن اتيانه قال الرازى وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة (و) ليحملوا أيضا (من) جنس (أوزار) الجهلة الضعفاء (الذين يضلونهم) وقوله تعالى (بغير علم) حال من مفعول يضلونهم اى يضلون من يعلم أنهم ضلال أو من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وانما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا فى الاثم وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ اخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير اذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها

فعبر بالواو والنون اذ من يعبد من يعقل كالعزير والمسيح ومن لا يعقل كالاصنام وافرد ذلك نظرا الى لفظ ما وجمع يستطيعون نظرا الى معناها كما قال وجعل لكم من الفلك

جماعة فعملوا بها فان الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة وليس المراد بان الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى *(تنبيه)* قال الواحدى لفظة من فى قوله تعالى ومن اوزار ليست للتبعيض لانها لو كانت كذلك لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ لكنها للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة اى ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعا للزمخشرى (الا ساء) اى بئس (ما يزرون) اى يحملون حملهم هذا وفى هذا وعيد وتهديد لهم (فان قيل) ان الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فى ذلك (اجيب) بان السبب فيه انه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين الاول انه صلى الله عليه وسلم تحداهم اولا بكل القرآن وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا الثانى انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية اخرى وهى قوله تعالى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا وابطلها بقوله تعالى قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه ان القرآن يشتمل على الاخبار بالغيوب وذلك لا يتأتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض * ولما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لا جرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) اى ممن رأوا آثارهم ودخلوا فى ديارهم (فأتى الله) أى أمره (بنيانهم من القواعد) أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم (فخر) أى سقط (عليهم السقف من فوقهم) وصار سبب هلاكهم وقرأ ابو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم واما الوقف فحمزة بضم الهاء على اصله والباقون بالكسر (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) اى من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل اى التشبيه والتخييل لافساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بان تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فاهب الله تعالى الريح فالقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى وهم تحته قال البغوى ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد اى أتى امره فخرب بنيانهم من أصله فخر عليه وعلى قومه السقف اى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا *(تنبيه)* قال ابن الخازن فى قول البغوى وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل

والانعام ما تركبون انشروا على ظهوره حيث افرد الضمير نظر الى لفظ ما وجمع الظهور نظرا الى معناها (فان قلت) ما فائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه (قلت) ليس فى

اليمن عرباً منهم جرهم الذين نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طائفة قديمة قبل ابراهيم عليه السلام انتهى وقد يقال انه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافي ذلك (فان قيل) مافائدة قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من فوقهم (أجيب) بانهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام بان الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها * ولما ذكر الله تعالى حال أصحاب المكر في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة بقوله عز وجل (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي يذلهم ويهينهم بعذاب النار (ويقول) لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخاً (أين شركائي) أي في زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون) أي تخالفون المؤمنين (فيهم) أي في شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها (قال) أي يقول (الذين أوتوا العلم) أي من الانبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة (ان الخزي) أي البلاء المذل (اليوم) أي يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة (والسوء) أي كل مايسوء (على الكافرين) أي العريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر وفائدة قولهم اظهار الشماتة وزيادة الاهانة وحكايته لتكون لطفا لمن سمعه *(تنبيه)* في الآية دلالة على ان ماهية الخزي وماهية السوء في يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم ويؤكده قول موسى عليه السلام انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) أي يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه عليهم السلام وقرأ حمزة في هذه الآية وفي الآية الآتية بالياء في الموضعين على التذكير لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لان لفظ الجمع مؤنث (ظالمي أنفسهم) أي بان عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم (فالقوا السلم) أي استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين (ما كنا نعمل من سوء) أي شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة (بلى) أي بل كنتم تعملون أعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى (ان الله عليم بما كنتم تعملون) أي فلا فائدة لكم في انكاركم فيجازيكم به * ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى (فادخلوا) أي أيها الكفرة (أبواب جهنم) أي أبواب طبقاتها ودركاتها (خالدين) أي مقدرين الخلود (فيها) أي جهنم لايخرجون منها وانما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم في الخزي والغم وفي ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ثم قال تعالى (فلبئس مثوى) أي مأوى (المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الرسل * ولما بين تعالى أحوال المكذبين ذكر أحوال المصدقين بقوله تعالى (وقيل للذين اتقوا) أي خافوا عقاب الله (ماذا) أي أي شيء (أنزل ربكم قالوا خيرا) أي أنزل خيرا وذلك ان أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير لك فيقول السائل أنا شر وافد ان رجعت الى قومي دون أن أدخل مكة وألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيخبرونه صدقه وانه نبي مبعوث من الله تعالى فذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم

يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقا في الرزق وغيره وبتقدير ان فيه ضميرا لا يلزم من نفي الآن انتفاء استطاعته لجواز بقاء الاستطاعة

الآية (فان قيل) لم رفع الاول وهو قولهم أساطير الاولين ونصب الثاني وهو قولهم خيرا (أجيب) بانه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير الاولين وليس هو من الانزال في شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أي أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) أي حياة طيبة أو ان للذين أتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابا حسنة مضاعفة من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة أو انه تعالى بين أن اعترافهم بذلك الاحسان في هذه الدنيا حسنة أي جزاؤهم على احسانهم هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم في الآخرة فقال (ولدار الآخرة) أي الجنة (خير) اى ما أعد الله لهم في الجنة خير مما حصل لهم في الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى (ولنعم دار المتقين) أي دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هي الدنيا لان أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقوله تعالى (جنات) أي بساتين (عدن) أي اقامة خبر مبتدا محذوف ويصح أن يكون المخصوص بالمدح (يدخلونها) أي تلك الجنات حالة كونها (تجري من تحتها) أي من تحت غرفها (الانهار) ثم كأن سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها فاجيب بان (لهم فيها ما يشاؤن) أي ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهي أبلغ من قوله تعالى وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان في قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى وعلى أن الانسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر (كذلك) أي مثل هذا الجزاء العظيم (يجزي الله) أي الذي له الكمال كله (المتقين) أي الراسخين في صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال (الذين تتوفاهم الملائكة) أي تقبض أرواحهم وقوله تعالى (طيبين) كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح في الدنيا ادخلوا الجنة وأجاب الاكثرون بما سيأتي وأدغم أبو عمرو التاء في الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملائكة (يقولون) لهم عند الموت (سلام عليكم) فتسلم عليهم أو تبلغهم السلام من الله تعالى كما روى ان العبد المؤمن اذا أشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولي الله الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة ويقال لهم في الآخرة هذا جواب الاكثرين (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أو انهم

على اكتساب القبائح
هؤلاء فانهم لا علم لكون
ولا يستطيعون ان يملكو
(قوله عبدا مملوكا لا يقدر
على شئ) فائدة ذكر مملو
بعد قوله عبدا الاحتراز عن

المباشرهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة أى هى خاصة لكم كأنكم فيها * ولما طعن الكفار فى القرآن بقولهم أساطير الاولين وذكر أنواع التهديد والوعيد ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا عاد الى بيان ان أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم وأقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة أو أتاهم أمر ربك فقال تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم وقرأ حمزة والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وتقدم توجيه ذلك (أو يأتى أمر ربك) أى يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون فى التصديق بنبوتك الا ان تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى (كذلك) أى مثل ما (فعل) هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل (الذين من قبلهم) من الامم السالفة كذبوا رسلهم فاهلكوا (وما ظلمهم الله) باهلاكهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم (فاصابهم) اى تسبب عن ظلمهم لانفسهم ان اصابهم (سيئات) اى عقوبات او جزاء سيئات (ما عملوا وحاق) اى نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) تكبرا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا فى الشر وقرأ حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح (وقال الذين أشركوا) للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) لانهم اعتقدوا أن كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم (ولا حرمنا من دونه من شئ) اى من السوائب والبحائر والحامى فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة فى مجيئك وفى ارسالك وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة الانعام فى قوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله الآية قال الله تعالى (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الامم الخالية ففى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وكذا فى قوله تعالى (فهل على الرسل الا البلاغ) أى الابلاغ (المبين) أى البين فليس عليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه * ثم بين تعالى ان البعثة أمر جرت به السنة الالهية فى الامم كلها سببا الهدى من أراد اهتداءه وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوى ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى (ولقد) أى والله لقد (بعثنا) أى بما لنا من العظمة التى من اعترض عليها قصم (فى كل أمة) من الامم الذين من قبلكم (رسولا) أى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله) أى الملك الاعلى وحده وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون فى الوصل والباقون بالضم (واجتنبوا الطاغوت) اى الاوثان ان تعبدوها (فمنهم من هدى الله) اى وفقهم للايمان بارشاده (ومنهم من حقت) اى وجبت (عليه الضلالة) اى فى علم الله تعالى فلم يشفعهم ولم يرد هداهم *(تنبيه)* فى هذه الآية أبين دليل على أن

الطرفانه عبد لله تعالى وليس علو كالفعم وقائدة لا يقدر على شئ بعد قوله مملوكا الاحتراز من المأذون له والمكاتب لقدرتهما على التصرف استقلالا (قوله هل يستوون) * ان قلت

الهادي والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما حكم به لما سبق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعى فى نظر البصيرة الا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى (فسيروا) اى فان كنتم أيها المخاطبون فى شك من أخبار الرسل فسيروا (فى الارض) اى جنسها (فانظروا) اى اذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ثم أشار تعالى بالاستفهام الى أن أحوالهم مما يجب ان يسئل عنه للاتعاظ به فقال (كيف كان عاقبة) اى آخر امر (المكذبين) اى من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم فى الكفر من أسلافكم لعلكم تعتبرون * ولما كان من المحقق انه ليس بعد الايصال فى الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد أعرض عنهم ملتفتا الى الرؤف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له (ان تحرص على هداهم) فتطلبه بغاية جدك واجتهادك وقد اضلهم الله تعالى لاتقدر على ذلك ثم قال تعالى (فان الله لا يهدى من يضل) اى من يريد ضلاله وهو معنى لمن حقت عليه الضلالة وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح الياء وكسر الدال والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول قال البيضاوى وهو أبلغ ثم قال تعالى (وما لهم) أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله (من ناصرين) أى وليس لهم أحد ينصرهم فى الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم ثم حكى الله عن هؤلاء القوم انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله (واقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لا يبعث الله من يموت) وذلك أنهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى فى قولهم بقوله تعالى (بلى) أى يبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفى والجواب عن شبهتهم ان الله تعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يكن شيأ فالذى أوجده ولم يكن شيأ قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر أى وعد ذلك وعدا وحقه حقا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك أى لا علم لهم يوصلهم لذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون أقوال الدعاة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقى منه الى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى فلذلك ترى الانسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين وقوله تعالى (ليبين لهم الذى يختلفون فيه) يتعلق بما دل عليه بلى أى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذى اختلفوا فيه هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) فى قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ وقولهم لا يبعث الله من يموت وقيل يجوز أن يتعلق بقوله ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله

لم يجمع ولم يثن مع ان المضروب به المثل اثنان مملوك ومن رزقه الله رزقا حسنا (قلت) جمع باعتبار جنسى المالك والمالكين أو نظروا الى ان أقل الجمع اثنان

مفتر بن على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة بقوله تعالى (انما قولنا) اى بمالنا من العظمة والقدرة (لشئ) ابداء واعادة (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) اى يتسبب عن ذلك القول انه يكون *(تنبيه)* قوله تعالى قولنا مبتدأ وان نقول خبره فيكون وكن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود اى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا ان نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف (فان قيل) قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال (أجيب) بان هذا تمثيل لنفى الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم لان ما أراده فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى العباد بما يعقلون وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له اما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا وأما تكذيبه فيقول ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى وليس أول الخلق باهون على من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقرأ ابن عامر والكسائى بفتح النون من يكون عطفا على نقول أو جوابا للامر والباقون بالرفع * ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهالة والجهل والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهؤلاء المهاجرين من الحسنة فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله) اى فى حقه ولوجهه لاقامة دينه (من بعد ما ظلموا) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع الله تعالى بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فاما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخر وأما صهيب فقال أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال عمر له نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نار الاطاعه (لنبوئنهم) أى لننزلنهم (فى الدنيا) دارا (حسنة) وهى المدينة وقيل لنحسنن اليهم فى الدنيا بان نفتح لهم مكة ونمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها وقيل أراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية الى الدين (ولاجر الآخرة) وهى الجنة والنظر الى وجهه الكريم (أكبر) أى أعظم (لو كانوا يعلمون) أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة

(قوله وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب) ان قلت أو للشك وهو على الله محال فما معنى ذلك (قلت) أو هنا بمعنى الواو أو للشك بالنسبة الينا أو بمعنى بل ونظير ذلك

مالالمهاجرين من الكرامة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبروا وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله به فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقرأ هذه الآية وقوله تعالى (الذين صبروا) أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله محله رفع على تقديرهم أو نصب على المدح ويجوز أن يكون تابعا للموصول قبله نعتا أو بدلا أو بيانا فمحله محله (وعلى ربهم يتوكلون) أى منقطعين اليه مفوضين الامر كله اليه *(تنبيه)* ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق وأما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه * ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا (وما أرسلنا من قبلك) يا محمد الى الامم من طوائف البشر (الا رجالا) لا ملائكة بل آدميين هم فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال (نوحى اليهم) بواسطة الملائكة نعادة الله جارية مستمرة من أول مبتدا الخلق الى الآن لم يبعث رسولا الا من البشر (فاسئلوا أهل الذكر) اى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب اهل علم وقد أرسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشرا امثالهم فاذا سألوهم فلا بد أن يخبروهم ان الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة وقال ابن عباس يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج معناه اسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق * ولما كان عندهم أحسن من ذلك سماع أخبار الامم قبلهم أشار اليه بقوله تعالى (ان كنتم) اى جبلة وطبعا (لا تعلمون) ذلك فانهم لا يعلمونه وأنتم الى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بمحذوف اى أرسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات (والزبر) أى الكتب فاسألوا اهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر وقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمى ذكرا لانه موعظة وتذكير (لتبين للناس) كافة أى بما أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت فيه جميع الخلق واللسان الذى هو أعظم الالسنة وأفصحها وقد أوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد (ما نزل) أى ما وقع تنزيله (اليهم) من هذا الشرع المؤدى الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة (ولعلهم يتفكرون) فيما أنزل اليهم اذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة فيعتبرون (فان قيل) ان هذه الآية تدل على ان

نونه الى مائة ألف أو تزيدون
وقوله كالحجارة أو أشد
قسوة وأورد على الاخير
ان بل للاضراب وهو
رجوع عن الاخبار وهو
على الله محال ويجاب بمنع
امتناع ... بناء على جواز

المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبي صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة (أجيب) بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع في تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك في الحقيقة رجوعا الى بيان النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيآت) فيه اضمار تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبالقرآن في أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر في تهديدهم أربعة أمور الاول قوله تعالى (ان يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وأصحابه فذاهم في بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثاني قوله تعالى (أو يأتيهم العذاب) على غير تلك الحال (من حيث لا يشعرون) به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى (أو يأخذهم) اى الله بعذابه (في) حالة (تقلبهم) ومشاعرهم حاضرة وقواهم مجتمعة وفي تفسير هذا التقلب وجوه أولها انه تعالى يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم في السفر كما انه قادر على اهلاكهم في الحضر (فما هم بمعجزين) اى بفائتين العذاب بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها انه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفي حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها ان الله تعالى يأخذهم في حال ما يتقلبون في قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) وفي تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو انه تعالى يهلك قرية فتخاف التي تليها فيأتيهم العذاب والثاني التخوف بمعنى التنقص اى انه تعالى ينقص شيأ بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روى ان عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون في هذه الآية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم قال شاعرنا أبو كبير

تخوف (اى تنقص) الرحل (اى رحل ناقته) منها تامكا (اى سناما) قردا
(اى مترا كما أو مرتفعا وهو بسكون الراء) كما تخوف عود النبعة السفن

والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه القسي والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشيء وهو فاعل تخوف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ومعنى البيت ان رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم أو المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة (فان ربكم) أي المحسن اليكم باهلاك من يريدوا بقاء من يريد قوله تعالى (لرؤف) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة واليه أشار بقوله تعالى (رحيم) أي حيث لم يعاجلهم بالعذاب ✲ ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم أنه مع كمال هذه

وقوع النسخ في الاخبار وهو جائز عند الاشاعرة مطلقا خلافا للمعتزلة ٣ (قوله فيه الابعثير) ٣ (قوله سرابيل تقيكم الحر) أي والبرد وانما حذفه لدلالة ضده عليه كما في قوله

٣ قوله فيه الابعثير هكذا بالاصل ولعله محرر ٥ مصححه

القدرة الباهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاقسام الاربعة بقوله تعالى (أولم يروا) قرأه حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شئ) أى من الاجرام التى لها ظل كشجر وجبل (تتفيؤ) أى تميل (ظلاله عن اليمين والشمائل) جمع شمال أى عن جانبى كل واحد منهما وشقيه استعارة من يمين الانسان وشماله لجانبى الشئ أى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقال قتادة والضحاك أما اليمين فاول النهار وأما الشمائل فآخر لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقعت الظلال فى الجانب الشرقى والظلال فى أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربى من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقى من الارض (فان قيل) ما السبب فى ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع (أجيب) باشياء الاول انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر فى اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثانى قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات الظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الامرين الثالث ان العرب اذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم * (تنبيه) * الهمزة للاستفهام وهو استفهام انكار اى قد رأوا امثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذى ومن شئ بيان لها (فان قيل) كيف بين الموصول وهو مبهم بشئ وهو مبهم بل أبهم مما قبله (أجيب) بان شيأ قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى (سجدا لله) حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع واختلف فى المراد من السجود على قولين أحدهما ان المراد منه الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال سجد للقرد فى زمانه أى اخضع له وقال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * اى متواضعة والثانى ان هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئسما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى وقيل ظل كل شئ يسجد لله سواء كان ذلك الشئ ساجدا أم لا قال الرازى والاول أقرب الى الحقائق العقلية والثانى أقرب الى الشبهات الظاهرة وقوله تعالى (وهم داخرون) اى صاغرون حال أيضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير المستتر فى سجدا فهى حال متداخلة (فان قيل) الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون (أجيب) بانه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور أشبهت العقلاء أو ان فى جملة ذلك من يعقل فغلب * ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان أشرف من الجماد رقى الحكم اليه

قوله أولم يروا قرأه الخ كذا فى نسخة صحيحة وما وقع فى الطبعة الاولى غير سديد اهـ مصحح

يملك الخير أى والشر وخص الحر والخير بالذكر لان الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحجاز والوقاية من الحر أهم عند أهله لان الحر عندهم أشد من البرد والخير مطلوب العباد من

بخصوصه فقال (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض) وقوله تعالى (من دابة) يجوز ان يكون بيانا لما في السموات وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الاناسي في الارض وان يكون بيانا لما في الارض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذى يقال له الروح وان يكون بيانا لما في الارض ويراد بما في السموات الملائكة وكرر ذكرهم بقوله تعالى (والملائكة) خصوصا من بين الساجدين لانهم أطوع الخلق وأعبدهم ويجوز ان يراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (فان قيل) سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد (أجيب) بان المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وانه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد (فان قيل) هلا جيء بمن دون ما تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم (أجيب) بانه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة العموم (وهم) اى الملائكة (لا يستكبرون) عن عبادته ثم عال تخصيصهم بقوله تعالى دلالة على انهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء (يخافون ربهم) اى الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدأ (من فوقهم) اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم أو ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون أو بيان له أو تقرير لان من خاف الله لا يستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) اى من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين الخوف والرجاء كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون من الذنوب لان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل على انهم منقادون لخالقهم وانهم ما خالفوا في أمر من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون * ولما بين تعالى ان كل ما سوى الله تعالى سواء أكان من عالم الارواح أم من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه بالنهي عن الشرك وبالامر بان كل ما سواه فهو ملكه وانه غني عن الكل بقوله تعالى (وقال الله) فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص (لا تتخذوا) اى لا تكلفوا فطرتكم الاولى السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد أن تاخذ في اعتقادها (الهين اثنين) * فان قيل انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة وأفراس أربعة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودات فيها دلالة على العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين اثنين (أجيب) باجوبة أولها قال الرازى وهو الاقرب عندى ان الشيء اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح والقول بوجود الهين مستقبح في العقول فان أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال فالمقصود من تكرار

(قوله دون الشمر ربهم (قوله ثم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون) ان قلت بل كلهم كافرون (قلت) المراد بالاكثر هنا الجميع (قوله قالوا ربنا هؤلاء

اثنين تأكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على ما فيه من القبح الثاني ان قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهي وقع عن اثبات الالهين أو عن اثبات التعدد أو عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين ظهر ان قوله لا تتخذوا نهي عن اثبات التعدد فقط الثالث في الآية تقديم وتأخير والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين الرابع ان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والذي يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى انك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية * ثم علل تعالى ذلك النهي بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال جل ذكره (انما هو) اى الاله المفهوم من لفظ الهين الذي لا يستحق غيره ان يطلق عليه هذا الضمير الا مجازا لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا على من وجوده من ذاته (اله) اى مستحق هذا الوصف على الاطلاق (واحد) لا يمكن ان يثنى بوجه ولا ان يجزأ بغاية وغير غاية لغناه المطلق عن كل شئ واحتياج كل شئ اليه * ولما دلت الدلائل على انه لا بد للعالم من اله وثبت ان القول بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا الواحد الاحد الفرد الصمد قال تعالى بعده (فاياي فارهبون) اى خافون دون غيري والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو من طريقة الالتفات لانه أبلغ في الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن ان يجيء ما قبله على لفظ المتكلم * ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له في الالهية وجب ان يكون جميع المخلوقات عبيده وفي ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى (وله) اى الله وأعاد الضمير في قوله تعالى له على الله الاسم الاعظم العلم الجامع لجميع الاسماء الحسنى (ما في السموات والارض) اى ما تعبدونه وغيره فكيف يتصور ان يكون شئ من ذلك الها وهو ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان وغيرهما (وله الدين) اى الطاعة وقوله تعالى (واصبا) أى دائما حال من الدين والعامل فيه ما في الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فطاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما أبدا وقوله تعالى (أفغير الله) أي الذي له العظمة كلها (تتقون) استفهام انكار والمعنى أنكم بعدما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج اليه في وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة من غير الله تعالى * ولما بين تعالى أن الواجب على العاقل أن لا يتقي غير الله بين أنه يجب عليه أن لا يشكر احدا الا الله تعالى بقوله تعالى (وما بكم من نعمة) أى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة في الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد أو جاه (فمن الله) هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يشكر الا الله تعالى * (تنبيه) * احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان حصل بخلق الله فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج أن الايمان من الله وأيضا النعمة عبارة عن كل

شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) * ان قلت ما فائدة قولهم ذلك مع انه تعالى عالم به (قلت) لما أنكروا الشرك بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ختم الله بافواههم وانطق جوارحهم *

مايكون منتفعا به وأعظم الاشياء في النفع هو الايمان فثبت أن الايمان نعمة و المسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية فهي اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعم الدنيوية اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الآية * ولما كان اخلاصهم له مع ادعائهم الوهية غيره أمرا مستبعدا عبر بأداة التراخي والبعد في قوله تعالى (ثم اذا مسكم) أي أصابكم أدنى مس (الضر) بزوال نعمة مما أنعم به عليكم وقال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة (فاليه) أي لا الى غيره (تجأرون) أي ترفعون أصواتكم بالاستغاثة لما ركز في فطرتكم الاولية السابقة من انه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه (ثم اذا كشف) سبحانه وتعالى (الضر) أي الذي مسكم (عنكم) ونبه على مسارعة الانسان في الكفران فقال (اذا فريق) أي جماعة هم أهل فرقة وضلال (منكم) أي أيها العباد (بربهم) الذي تفرد بالانعام عليهم (يشركون) أي يوقعون الاشراك بعبادة غيره (ليكفروا بما آتيناهم) أي من النعم * (تنبيه) * في هذه اللام وجهان الاول انها لام كي فيكون المعنى على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر الثاني أنها لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ثم انه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى (فتمتعوا) أي باجتماعكم على عبادة الاصنام وهذا اللفظ أمر والمراد منه التهديد كقوله تعالى قل آمنوا به أو لا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب * ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل أقوالهم و بين فسادها بأنواع الاول قوله تعالى (ويجعلون) أي المشركون (لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والانعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا * (تنبيه) * الضمير في قوله تعالى لما لا يعلمون عائد على الاصنام أي ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له وقيل عائد الى المشركين ومعنى لا يعلمونها أنهم يسمونها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل انها تنفعهم وتشفع لهم وليس الامر كذلك * ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (عما كنتم تفترون) على الله من أنه أمركم بذلك * (تنبيه) * في وقت السؤال احتمالان الاول انه يقع عند القرب من الموت الثاني انه يقع في الآخرة قال الرازي وهذا أولى * النوع الثاني قوله تعالى (ويجعلون لله البنات) ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله قال الرازي أظن ان العرب انما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون فاشبهوا النساء في الاستتار فاطلقوا عليهم البنات قال ابن عادل وهذا الذي ظنه ليس بشيء فان الجن أيضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات * ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى (سبحانه) وفيه وجهان الاول ان يكون المراد تنزيه

جوارحهم فقالوا عند معاينة آلهتهم وبنا هؤلاء شركاؤنا فاقروا بعد انكارهم طلبا للرحمة وفرارا من الغضب فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه

ذاته عن نسبة الولد اليه الثاني تعجيب الخلق من هذا الامر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى قيل في التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول * ولما ذكر الله تعالى ما جعلوا لله مع الغني المطلق بين ما نسبوا لانفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى (ولهم ما يشتهون) من البنين وقد يكونون أعداء أعدائهم * ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فكيف يثبته لله تعالى فقال (واذا بشر أحدهم بالانثى) اى أخبر بولادتها (ظل وجهه) اى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما ان بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح والسرور (وهو كظيم) اى مملوء غيظا على المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة في أصل اللغة الخبر الذي يغير البشرة من حزن أو سرور ثم خص في عرف اللغة بالسرور ولا يكون الا بالخبر الاول فالمراد بالبشارة هنا الاخبار كما مر وقول الرازي ان اطلاقه على الخير والشر داخل في التحقيق خلاف المشهور (يتوارى) اى يستخفى (من القوم) اى من الرجال الذين هو فيهم (من سوء ما بشر به) خوفا من التعيير وذلك ان العرب كانوا في الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة أحدهم توارى عن القوم الى ان يعلم ما ولد له فان ولد له ذكر ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما متردداما ذا يفعل بذلك الولد (أيمسكه) أي يتركه بغير قتل (على هون) هوان وذل (أم يدسه في التراب) وذكر الضمير في يمسكه ويدسه نظرا للفظ الولد أو لكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال ابن عباس قال المفسرون كانت المرأة اذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فان وضعت ذكرا أظهرته وظهر السرور على أهله وان وضعت أنثى استأذنت مستولدها فان شاء أمسكها على هون وان شاء أمرها بالقائها في الحفرة وردت التراب عليها وهي حية لتموت انتهى وعن قيس بن عاصم أنه قال يا رسول الله اني واريت ثماني بنات في الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم أعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يا نبي الله اني ذو ابل قال أهد عن كل واحدة منهن هديا وروي أن رجلا قال يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأمرت امرأتي أن تزينها فأخرجتها فلما انتهيت الى واد فيه بئر بعيدة القعر ألقيتها فيها فقالت يا أبت قتلتني فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء فقال صلى الله عليه وسلم ما كان في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما في الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا في الجاهلية مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وخوفا من أن يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان الذي منهم يريد أن يحيي ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم في البادية قال الله تعالى (ألا ساء) أي بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا في الاستنكاف من البنت الى أعظم الغايات فأولها أنه يسود وجهه وثانيها أنه يختفي من القوم من شدة نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أن النفرة عن البنت

اعلام من لا يعلم وانهم العايات واعظمهم غضب الله قالوا ذلك رجاء أن يلزم الله الاصنام ذنوبهم فيخف عنهم العذاب (قوله فالقوا) أي الشركاء كالاصنام اليهم القول فسر القول بقوله انكم لكاذبون أى

والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل أن يثبت ذلك لاله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم الكفار (مثل السوء) اى الصفة السوء بمعنى القبيحة وهى قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح (ولله المثل الاعلى) اى الصفة العليا وهى انه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (فان قيل) كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال (أجيب) بان المثل الذى يضربه الله تعالى حق وصدق والذى يذكره غيره باطل (وهو العزيز) الذى لا يمتنع عليه شئ فلا نظير له (الحكيم) الذى لا يوقع شيأ الا فى محله ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) اى بسبب كفرهم ومعاصيهم (ما ترك عليها) اى على الارض وانما أضمرذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها (من دابة) اى ان الله تعالى لو آخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض (فان قيل) اسم الناس جنس يشمل الكل فيدخل فى ذلك الانبياء فيدل ذلك على عدم عصمتهم (أجيب) بان ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور فى هذه الآية اما كل العصاة المستحقين العقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام روى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما قلت ان الحبارى تموت هزلا من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهرى وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء ولم يبق فى الارض أحد (ولكن يؤخرهم) أى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) أى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون) أى لا يؤخرون ساعة من الاجل الذى جعله الله تعالى لهم ولا ينتقصون منه *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط احدى الهمزتين مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدلها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين *النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله (ويجعلون لله ما يكرهون) لانفسهم من البنات وأراذل الاحوال والشركاء فى الرياسة ثم وصف الله تعالى جرأتهم مع ذلك بقوله تعالى (وتصف) اى وتقول (ألسنتهم الكذب) اى مع ذلك مع أنه قول لا ينبغى أن يتخيله عاقل ثم بينه بقوله تعالى (أن لهم الحسنى) اى عنده اى الجنة كقوله تعالى ولئن

عبدتمونا
فى قولكم انكم
(فان قلت) لم قالت
الاصنام للمشركين
ذلك مع انهم كانوا صادقين
فيه (قلت) قالوه لهم
لاظهار فضيحتهم حيث
عبدوا من لا يعلم بعبادتهم
(فان قلت) كيف أثبت

رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ولا جهل أعظم ولا أحكم سوأ من أن تقطع بأن من تجعل له ما تكره أن يجعل لك ما تحب فكأنه قيل مالهم عنده فقيل (لا جرم) اى لا ظن ولا تردد فى (أن لهم النار) اى هى جزاء الظالمين وقيل لا جرم بمعنى حقا (وأنهم مفرطون) اى متروكون فيها أو مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء اى متجاوزون الحد والباقون بالفتح (فان قيل) انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله (أجيب) بانهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة وقيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة وانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنيع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى (تالله) اى الملك الاعلى (لقد أرسلنا) اى بما لنا من القدرة رسلا من الماضين (الى أمم من قبلك) كما أرسلناك الى هؤلاء (فزين لهم الشيطان) اى المحترق بالغضب المطرود باللعنة (أعمالهم) الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فاهلكناهم وهذا يجرى مجرى التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالالقاء للوسوسة فى قلوبهم وليس له قدرة على أن يضل أحدا أو يهدى أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم اليوم) اى فى الدنيا وانما عبر باليوم عن زمانها أى فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية أى لا ولى لهم غيره وهو عاجز عن نصرة نفسه فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش أى زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولى هؤلاء القوم يغرهم ويغويهم وقيل يجوز أن يقدر مضاف أى فهو ولى أمثالهم والولى القرين والناصر فيكون نفيا للناصر لهم على ابلغ الوجوه (ولهم عذاب اليم) اى مؤلم فى الآخرة * ثم ذكر تعالى انه مع هذا الوعيد الشديد قد اقام الحجة وازاح العلة بقوله تعالى (وما انزلنا) اى بما لنا من العظمة من جهة العلو (عليك) يا أشرف المرسلين (الكتاب) اى القرآن (الا لتبين لهم) اى للناس (الذى اختلفوا فيه) من امر الدين مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم أشياء محرمة كالميتة (فان قيل) اللام فى لتبين لهم تدل على ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (أجيب) بانه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل وقوله تعالى (وهدى ورحمة) اى وارشادا ونعمة معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذى انزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك رحمة لهم وهم على ضلالهم نفاه بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) ونظيره قوله تعالى فى أول البقرة هدى للمتقين وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما فى قوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط * ولما انقضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكبارا

الاصنام نطقا هنا ونفاه
عنها فى قوله فى الكهف
فدعوهم فلم يستجيبوا لهم
(قلت) المثبت لهم هنا
النطق بتكذيب المشركين
فى دعوى عبادتهم لها
والمنفى عنهم فى الكهف

وما يتعلق به وختمه بما احيا به القلوب فى الايمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان أجل هذه المقاصد الالهيات شرع فى ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الاشجار وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون قوله جامعا فى الدليل بين العالم العلوى والعالم السفلى (والله) اى الذى له الامر كله (أنزل من السماء) فى الوقت الذى يريده (ماء) بالمطر والثلج والبرد (فأحيا به) اى بذلك الماء (الارض) بانواع النبات (بعد موتها) اى يبسها (ان فى ذلك) المذكور (لآية) اى دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى (لقوم يسمعون) اى سماع تدبر وانصاف ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع فلم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله (وان لكم فى الانعام لعبرة) اى اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى (نسقيكم مما فى بطونه) استئناف بيان للعبرة وافراد ضمير الضمير لان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولأمن اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم وأنثه فى سورة المؤمنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى باب ما لا ينصرف فى الاسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم ثوب أكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روى قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا ولما كان فى موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى (من بين فرث) وهو الثفل الذى نزل الى الكرش فاذا اخرج منه لم يسم فرثا (ودم لبنا خالصا) أى صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى عليه أحدهما بلون أو رائحة أو طعم روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اذا أكلت البهيمة العلف واستقر فى كرشها طحنته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد متسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبقى الفرث فى الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) أى سهل المرور فى الحلق وقيل لم يغص أحد باللبن قط *(تنبيه)* قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذى يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر بقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فاحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقرار يدل على انه تعالى قادر على ان يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات

النطق بالاجابة الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافى (قوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) ان قلت اذا كان كذلك فكيف اختلفت الائمة فى كثير من الاحكام (قلت)

الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع وفى حدوث اللبن فى الثدى واتصافه بالصفات التى باعتبارها يكون موافقا لتغذية الطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق فى أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شرابا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه فى المعدة ويجذب ما صفا منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التى لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح تارة أخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم الثانى عند تولد اللبن فى الضرع يحدث الله تعالى فى حلمة الثدى ثقبا صغيرة ومساما ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل فالحكمة فى احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا للشاربين الثالث أنه تعالى ألهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما ألقت حلمة الثدى فى فم الطفل فذلك الطفل فى الحال يأخذ فى المص ولولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى (ورزقا حسنا) كالتمر والزبيب والدبس والخل *(تنبيه)* فى تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى فى معرض الانعام (أجيب) عن ذلك بوجهين احدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية كان فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعى والشعبى الثانى أن الآية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة الى رزقا حسنا الوجه الثانى أن السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى أن يكون السكر شيأ غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ الوجه الثالث أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر

لان اكثر الاحكام ليس منصوصا عليه فيه بل بعضها منصوص عليه وبعضها مستنبط منه وطرق الاستنباط مختلفة فبعضها بالاحالة اما على السنة بقوله تعالى وما آتاكم

* جعلت اعراض الكرام سكرا * اى تنقلت باعراضهم بان جعلتها نقلا وتناولتها والنقل ماينتقل به على الشراب قال البغوى وأولى الاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل أن يحرمها عليهم وروى عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما احل من ثمرها وروى عنه ايضا السكر ما حرم منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه * ثم قال تعالى (ان فى ذلك) المذكور (لآية) اى دلالة على قدرته تعالى (لقوم يعقلون) اى يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتجون بها على وجود الاله القادر الحكيم * ولما بين تعالى أن اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر أن اخراج العسل الذى جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود بقوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وحى الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام انه تعالى قدر فى نفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه الاول ماذكر الله تعالى بقوله (أن اتخذى) اى بان اتخذى ويجوز أن تكون مفسرة لان فى الايحاء معنى القول (من الجبال بيوتا) تأوين اليها وانما سمى ما تبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبيها ببيت الانسان فتبنى البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا بآلات وانظار دقيقة الثانى انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات كأن كانت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء هذا الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون اعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك ايضا من الاعاجيب الرابع انها اذا نفرت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول وآلات الالحان وبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى أوكارها وهذه ايضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس الا على سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحى والوحى قد ورد فى حق الانبياء كقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وفى حق الاولياء قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى واوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات خاص قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء (و) اتخذى (من الشجر) أى الصالحة بيوتا (و) اتخذى (مما يعرشون) أى الناس فيبنون تلك الاماكن وذلك أن النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه أهلى وهو

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقوله وما ينطق عن الهوى أو على الاجماع بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين الآية أو على القياس بقوله فاعتبروا يا أولى الابصار

الذى يأوى الى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الاماكن حتى يأوى اليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لانها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم أو سقف ولا فى كل مكان منها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها *(تنبيه)* ظاهر قوله تعالى اتخذى أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله أمر ونهى وقال آخرون بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النمل عند قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم * ولما كان أهم شئ للحيوانات بعد الراحة من هم المقيل الأكل ثنى به فقال (ثم كلى من كل الثمرات) أى من كل ثمرة يشتهيها مرها وحلوها وذكر ذلك بحرف التراخى اشارة الى عجيب الصنع فى ذلك وتيسيره لها *(تنبيه)* لفظ من هذا للتبعيض أو لابتداء الغاية * ولما أذن لها فى ذلك كله وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة فى معاناة السير ليه نبه على خرقه العادة فى تيسيره لها بقوله تعالى (فاسلكى سبل ربك) أى الطرق التى ألهمك الله تعالى أن تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمار وقوله تعالى (ذللا) جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسر عليك وان توعرت ولا تضلى عن العود فيها وان بعدت وقيل من الضمير فى اسلكى أى منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان آخر حيث شاؤا أو أرادوا لا تستعصى عليهم وقوله تعالى (يخرج من بطونها) فيه عدول عن خطاب النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه لاجلهم (شراب) أى عسل (مختلف ألوانه) ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وقال الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب ان العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا انا نشاهد ان النحل يتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب ان كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها أى من أفواهها انتهى والاول كما قال ابن الخازن وغيره أظهر لانا نشاهد ان العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التى يأكلها النحل وكذا توجد لذتها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضده قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت ما هذه الريح التى أجدها منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلح له صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا أنه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف بطن الانسان وغيره (فيه) أى الشراب

والاعتبار النظر والاستدلال الذان يحصل بهما القياس (قوله ولنجزين الذين صبروا أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) قاله هنا بلفظ ما وفى الزمر بلفظ الذى موافقة فى كل

الذى يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود اما لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء واما للكلها بضميمته الى غيره اذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل أو بدونه بنيته وبهذا سقط ما قيل انه يضر باصحاب الصفراء وتهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور وفى رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع أن ابن عمر ما كانت قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى يشتكى بطنه فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فشفاه الله فبرأ فكأنما أنشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحى الالهى أن العسل الذى أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه فى الحال قال صدق الله يعنى فيما وعده من أن فيه شفاء للناس وكذب بطن أخيك يعنى باستعجاله لم الشفاء فى أول مرة وقال مجاهد الضمير فى فيه شفاء للناس راجع للقرآن لان فيه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس وعلى هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أى فى هذا القرآن قال الرازى وهذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان الاول أن الضمير فى قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف ألوانه وأما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب والثانى حديث أبى سعيد الخدرى المتقدم ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ان فى ذلك) أى المذكور (لآية لقوم يتفكرون) أى فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة واللطائف الخفية مثل بناء البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر فى هذه السورة اضافة الآيات الى المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها

ثم انه تعالى لما أيقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم شئ ببعض ما فى أنفسهم من الادلة على ذلك فقال (والله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (خلقكم) أى أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) أى عند انقضاء آجالكم على اختلاف الاسنان فلا يقدر الصغير أن يؤخر ولا الكبير على أن يقدم فمنكم من يموت على حال قوته (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أى أخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع فيها الانسان فى النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين

منها ما انتبه اذ قيل ما هنا انما عند الله هو خير لكم ما عندكم ينفد وما عند الله باق وقيل ما هنا أسوأ الذى والذى جاء بالصدق (قوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) الآية

النقص و يكون الهرم والخرف قال على بن أبى طالب رضى الله عنه أرذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذ بك من العجز والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفى رواية عنه كان يقول اللهم انى أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) أى ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية فى نقصان القوة والعقل وسوء الفهم *(تنبيه)* هل ذلك عام فى المسلم والكافر أو يختص بالكافر فيه قولان أحدهما انه عام والقول الثانى انه يختص اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يقال فى حقه انه رد الى أرذل العمر قال الرازى والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى أسفل السافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقال فى قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس قوله ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهذا يؤيد ما مر (ان الله عليم) بمقادير أعمارهم (قدير) يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفى ذلك تنبيه على ان تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ * ولما ذكر تعالى المفاوتة فى الاعمار المنادية بابطال الطبائع الموجبة للمسابقة الى الاعتبار لا الى الابصار للخوف كل لحظة من مصيبة الموت أتبعها بالمفاوتة فى الارزاق فقال (والله) أى الذى له الامر كله (فضل بعضكم) أيها الناس (على بعض فى الرزق) فمنكم غنى ومنكم فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوى المحتال العالم فترى أكيس الناس وأكثرهم عقلا يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك وترى أجلف الخلق وأقلهم عقلا وفهما تنفتح له أبواب الدنيا فكل شئ خطر بباله أو دار فى خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب فى ذلك هو جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا فاتقوا الله وأجملوا فى طلب الرزق وأقبلوا فى جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وأنشد سفيان بن عيينة يقول

كم من قوى قوى فى تقلبه * مهذب الرأى عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط * كأنه من خليج البحر يغترف

(وحكى) أن سليمان المهلبى أرسل الى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات

أبلغ سليمان انى عنه فى سعة * وفى غنى غير انى لست ذا مال
شحى بنفسى أنى لا أرى أحدا * يموت جوعا ولا يبقى على حال

قرئ فيها وفى قوله بعد ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة الآية ان ربك لطول الكلام بين الاخبار قبل ومثله أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون

فالعجز عن قدرها العجز بنقصه * ولا يزيد فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

(تنبيه) هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما أحضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه أن يتناول شيأ منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد ملء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل هذا الفقير في المال الا أن هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسأل الله تعالى أن يغنينا من فضله وان يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد * ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى (فما الذين فضلوا) اي في الرزق وهم الموالي (برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم) اي بجاعلي ما رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم (فهم) اي المماليك والموالي (فيه سواء) اي شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني وقيل معنى الآية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا فهم في رزقه سواء فلا تحسبن الموالي يردون ارزاقهم على مماليكهم من عند انفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق اجريته اليهم على ايديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى * ولما قرر سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال (أفبنعمة الله) في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات (يجحدون) أي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون اليهم بعض ما أنعم به عليهم فيسوون بينهم وبينه في ذلك وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة * ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من أحوال الناس ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى (والله) أي الذي له تمام القدرة وكمال العلم (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم لتستأنسوا بها ولتكون أولادكم منكم فخلق حواء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحواء فقط خلاف الدليل والمعنى أنه تعالى خلق النساء لتتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم كقوله تعالى فاقتلوا أنفسكم فسلموا على أنفسكم أي بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع

(قوله يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) * ان قلت ما معنى اضافة النفس الى النفس مع ان النفس لا نفس لها (قلت) النفس تقال للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق

الى الطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى طاعتك هذا أصله فى اللغة واختلف فيه أقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود انهم أصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فهو حفيدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبى ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه أى أولاد المرأة من الزوج الاول قال الرازى والاولى دخول الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم كانه قيل جعل لكم منهن أولادا هم بنون وهم حافدون أى جامعون بين الامرين انتهى ومع هذا فالمشهور ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث *(فائدة)* قال الاطباء وأهل الطبيعة المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة واذا انصب الى الخصية اليمنى وانصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان ذكرا فى طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى فى طبيعة الذكور وحاصل كلامهم ان الذكور غالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة وهذه العلة ضعيفة فان فى النساء من مزاجها فى غاية السخونة وفى الرجال من مزاجه فى غاية البرودة فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم * ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال (ورزقكم من الطيبات) سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أو كانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ أو الحلال ومن فى من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات فى الجنة وما طيبات الدنيا الا أنموذج منها واختلف فى تفسير قوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون) فقال ابن عباس يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا (وبنعمت الله هم يكفرون) أى بان يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم من هذه الطيبات وتحريم الخبائث *(فائدة)* رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقرأ بالامالة * ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال (ويعبدون من دون الله) أى غيره (ما لا يملك لهم رزقا) اى تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذى رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى (من السموات والارض) اما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فالمطر وأما الذى من جانب الارض فالنبات والثمار التى تخرج منها وقوله تعالى (شيأ) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه منصوب على المصدر اى لا يملك لهم

التدبير وحيلة الانسان
والمعنى الشيء وذاته كما يقال
نفس الذهب والفضة
محبوبة اى ذاتها فالمراد
بالنفس الاولى الانسان
وبالثانية ذاته فكانه قال
يوم يأتى كل انسان يجادل

ملكا أي شيأ من الملك والثاني أنه بدل من رزقا أي لا يملك لهم شيأ قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم أن الرزق شيء من الاشياء ويؤيد ذلك أن البدل لا يأتي الا لأحد معنيين البيان أو التأكيد وهذا ليس فيه بيان لانه أعم ولا تأكيد والثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك * ولما كان من لا يملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة أن يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (ولا يستطيعون) أي وليس لهم نوع استطاعة أصلا (فان قيل) انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهي لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل (أجيب) بانه عبر عنها ثانيا اعتبارا باعتقادهم انها آلهة وفي تفسير قوله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) وجهان الاول قال أكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفي ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثاني ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هؤلاء الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم كما ان أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا (ان الله) أي الذي له الامر كله ولا أمر لغيره (يعلم) أي خطأ ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) ذلك وقيل معناه وأنتم لا تعلمون ما عليكم من العذاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولو علمتموه لتركتم عبادتها * ولما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام بسلب العلم الذي هو مناط السداد عنهم أكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى (ضرب الله) أي الذي له كمال العلم وتمام القدرة (مثلا) بالاحرار والعبيد ثم أبدل من مثلا (عبدا) رقيقا وقيده بقوله تعالى (مملوكا) ليخرج الحر لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى (لا يقدر على شيء) ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبدا قوله (ومن) أي وحرا فهي نكرة موصوفة ليطابق عبدا (رزقناه منا رزقا حسنا) أي واسعا طيبا (فهو ينفق منه) دائما وهو معنى قوله تعالى (سرا وجهرا) أي يتصرف فيه كيف يشاء وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم بقوله تعالى (هل يستوون) أي هذان النوعان الممثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لا يسوغ في عقل أن يسوى بين مخلوقين أحدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من موات أو غيره وبين الله تعالى الذي له القدرة التامة على كل شيء وقيل للمثل للكافر المخذول والمؤمن الموفق *(تنبيه)* جواب هل يستوون هو لا يستوون وقوله تعالى (الحمد لله) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بأوليائه وانعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شيء من الحمد للاصنام لانه لا نعمة لها على أحد لانها جماد عاجز أي انما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه تعالى أهل المحامد والثناء الحسن فكأنهم قالوا نحن نعلم ذلك فقيل (بل أكثرهم) أي الكفار (لا يعلمون) ذلك فهم يسوونه غيره ٣ ومن نفى عنه أصل العلم الذي هو أعلى صفات الكمال كان في عداد الانعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويضربون له الامثال الباطلة ويضيفون نعمه الى غيره ثم انه

(قوله ولا تك في ضيق) قاله هنا بحذف النون وفي النمل باثباتها تشبيها لها بحروف العلة وخص ما هنا بحذفها موافقة لقوله عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسي نفسي

٣ قوله يسوونه غيره كذا بالاصل ولعله يسوونه بغيره وفي نسخة يسوون غيره ولعل صوابها يسوون غيره به فلعل السقط من النساخ اه مصحح

تعالى ضرب لعبدة الأوثان مثلا آخر بقوله تعالى (وضرب الله مثلا) ثم أبدل منه (رجلين) ثم استأنف البيان لما أجمل فقال (أحدهما أبكم) وهو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الأعرابي الأبكم الذي لا يسمع ولا يبصر ووصف الله تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى (لا يقدر على شيء) لأنه لا يفهم ولا يفهم وفي ذلك إشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى (وهو) أي ذلك الأبكم العاجز (كل على مولاه) أي ثقيل على من ولي أمره ويعوله قال أهل المعاني أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم تقطع وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الأمر اذا ثقل عليه فلم ينهض فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله (أينما يوجهه) أي يرسله ويصرفه ذلك المولى (لا يأت بخير) لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم ووبخهم الله تعالى بقوله (هل يستوي هو) أي هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع (ومن) أي ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن قوي خبير مبارك ميمون (يأمر) أي ورجل آخر يأمر بما له من العلم والقدرة (بالعدل) أي يبذل النصيحة لغيره (وهو) في نفسه ظاهرا وباطنا (على صراط) أي طريق واضح (مستقيم) أي عامل فيه بما يأمر به قيل هذا مثال المعبود بالحق الذي يكفي عابده جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الأبكم عبد لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الإسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازي أولى من الأول لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا المقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى وأما القول الثاني فضعيف أيضا لأن المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل اذا حصل التفاوت في الصفات المذكورة فإنه يحصل المقصود ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى (ولله) أي لا لغيره (غيب السموات والأرض) وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب هنا هو قيام الساعة فإن علمه غائب عن أهل السموات والأرض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى (وما أمر الساعة) وهو الوقت الذي يكون فيه البعث (إلا كلمح البصر) أي إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها والمعنى وما أمر قيام الساعة في السرعة والسهولة إلا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى (أو هو أقرب) أن لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الأجزاء التي منها تألف الحدقة ولا شك أن تلك الأجزاء كثيرة والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من

المشركين
قبل ولم يك من
وسبب نزول هذه الآية
انها نزلت تسلية للنبي صلى
الله عليه وسلم حين قتل عمه
حمزة ومثل به فقال صلى
الله عليه وسلم لأمثلن بهم
ولا صفن فأنزل الله
تعالى وإن صبرتم لهو خير

آيات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة فى آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال أوهو أقرب الآنه لما كان أسرع الاحوال والحوادث فى عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره ثم قال أوهو أقرب تنبيها على ما مر ولا شبهة فى أنه ليس المراد طريقة الشك فالمراد اذا بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الابهام على المخاطبين لانه تعالى يأتى بالساعة اما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشئ الذى تقولون فيه هو كلمح البصر أوهو أقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (ان الله) اى الملك الاعظم (على كل شئ قدير) فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة واحدة كما قدر على احيائهم فانه تعالى مهما أراده كان فى أسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قوله عز وجل (والله) اى الذى له العظمة كلها (أخرجكم) بقدرته وعلمه (من بطون أمهاتكم) حال كونكم عند الاخراج (لاتعلمون شيأ) من الاشياء فمن أوجد ذلك فالذى أخرجكم منها قادر على اخراجكم من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة والباقون بضمها وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على أخرجكم قوله تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) آلات لازالة الجهل الذى وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسوّاها وعدلها وأنتم فى البطون حيث لاتصل اليه يد ولا يتمكن من شق شئ منها آلة فالذى قدر على ذلك فى البطن ابداعا قادر على اعادته فى بطن الارض بل بطريق الاولى قال البقاعى ولعله تعالى جمعهما اى الابصار والافئدة دون السمع لان التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه مما لا يعلمه الا الله والافئدة هى القلوب التى هيأها الله تعالى للفهم واصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة للمعانى الدقيقة (لعلكم تشكرون) لتصيروا بمعارف القلوب التى وهبكموها اذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات فى حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه بان تعرفوا ما لله من العلم والقدرة فانه انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم (فان قيل) عطف وجعل لكم السمع على أخرجكم يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرين عن الاخراج من البطون مع أن الامر ليس كذلك (أجيب) بان حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا اذا حملنا السمع على الاستماع والابصار على الرؤية زال السؤال ثم انه تعالى ذكر دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى (ألم يروا الى الطير مسخرات) اى مذللات للطيران (فى جوّ السماء) اى فى الهواء بين الخافقين مما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها فى السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها والا لما أمكن ذلك لانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى مثل ما يعمل السابح فى الماء وخلق الجوّ خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا مع ذلك (ما يمسكهن) فى الجوّ عن الوقوع (الا الله) اى الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه

للعابرين الآية فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلية واثباتها فى الفعل جاء على القياس ولان الحزن ثم دون الحزن هنا

(سورة الاسراء)

في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة (ان في ذلك) المذكور (لآيات) أي دلالات (لقوم يؤمنون) وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا آخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى (والله) اى الذى له الحكمة البالغة (جعل لكم من بيوتكم) وأصل البيت المأوى ليلا ثم اتسع فيه (سكنا) اى موضعا تسكنوا فيه * (تنبيه) * البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) المتخذة من الادم ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها (تستخفونها) اى تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها (يوم ظعنكم) اى وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال فى النهار (ويوم اقامتكم) اى وقت الحضر أو وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون وأضاف قوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز (أثاثا) اى ما يلبس ويفرش (ومتاعا) اى ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل ويتزين به واختلف فى معنى قوله تعالى (الى حين) فقيل الى حين تبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم القيامة * (تنبيه) * فى نصب أثاثا وجهان أحدهما انه منصوب عطفا على بيوتا اى وجعل لكم من أصوافها أثاثا والثانى انه منصوب على الحال واعلم ان الانسان اما أن يكون مقيما أو مسافرا والمسافر اما أن يكون غنيا يستصحب معه الخيام أولا فالقسم الاول أشار اليه بقوله تعالى جعل لكم من بيوتكم سكنا وأشار الى القسم الثانى بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأشار الى القسم الثالث بقوله تعالى (والله) اى الذى له الجلال والاكرام (جعل لكم) اى من غير حاجة منه تعالى (مما خلق) من شجر وجبال وأبنية وغيرها وقوله تعالى (ظلالا) جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى (وجعل لكم) مع غناه المطلق (من الجبال أكنانا) جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها (وجعل لكم) اى امتنانا منه عليكم (سرابيل) جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره اى وسواء كان من صوف أو كتان أو قطن أو غير ذلك (تقيكم الحر) ولم يقل تعالى والبرد لتقدمه فى قوله تعالى فيها دفء وقيل انه اكتفى بأحد الضدين وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن

(قوله الذى أسرى بعبده ليلا) قال بعبده دون نبيه أو حبيبه لئلا تضل به أمته كما ضلت أمة المسيح حيث دعته الها أو لان وصفه بالعبودية المضافة الى الله تعالى أشرف

أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لانه
كان انتفاعهم بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر * ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم يكرر
لفظ جعل فقال (وسرابيل) اى دروعا من حديد وغيرها (تقيكم بأسكم) اى حربكم أى
فى الطعن والضرب فيها * ولما عدد الله تعالى أنواع نعمه قال (كذلك) اى كاتمام هذه
النعمة المتقدمة (يتم نعمته عليكم) فى الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع
والتنبيه على دقائق ذلك (لعلكم) يا أهل مكة (تسلمون) اى تخلصون لله الربوبية وتعلمون
أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع (فان
تولوا) فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة فى الكفر (فانما عليك)
يا أفضل الخلق (البلاغ المبين) هذا جواب الشرط وفى الحقيقة جواب الشرط محذوف أى
فقد تمهد عذرك بعدما اديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ
ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب فى عذره فأقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر
بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بانهم (يعرفون نعمت الله) اى الملك الاعظم التى تقدم عد بعضها فى
هذه السورة وغيرها (ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها وقال السدى نعمة الله يعنى محمدا
صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام وهو من أعظم النعم التى أنعم الله
تعالى بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه واختلف فى معنى قوله تعالى (وأكثرهم
الكافرون) مع أنهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى وأكثرهم لانه
كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل فاراد بالاكثر
البالغين الاصحاء الثانى ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن
معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه
ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع
وهذا كقوله تعالى الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا
نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال
يوم القيامة بقوله تعالى (ويوم) اى وخوفهم يوم أو واذكر لهم يوم (نبعث) بعد البعث (من
كل أمة شهيدا) هو نبيها كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على
هؤلاء شهيدا يشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله اجزاء للامر على ما يتعارفون
وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فيه وجوه أحدها
لا يؤذن لهم فى الاعتذار كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم فى كثرة
الكلام ثالثها لا يؤذن لهم فى الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم
فى حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود (فان قيل) ما معنى ثم ههنا
(أجيب) بان معناها انهم يمتحنون أى يبتلون بغير شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم منها
وانهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (ولا هم يستعتبون) اى
لا تزال عتباهم وهى ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اى ازلت

المقامات وقال ليلا منكرا
ليدل على قصر زمن الاسراء
مع ان بين مكة وبين
بيت المقدس مسيرة اربعين
ليلة لان التنكير يدل
على البعضية والحكمة
فى اسرائه صلى الله عليه

عقباه (واذا رأى الذين ظلموا) اى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) اى عذاب جهنم بعد الموقف وشهادة الشهداء (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب (ولا هم ينظرون) اى لا يمهلون * ولما بين تعالى حاصل أمرهم فى البعث وما بعده وكان من أهم المهم أمرهم فى الموقف مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى (واذا رأى) اى بالعين يوم القيامة (الذين اشركوا شركاءهم) اى الآلهة التى كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها (قالوا ربنا) اى يامن أحسن الينا اوربانا (هؤلاء شركاؤنا) أضافوهم الى أنفسهم لانه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجبة لضرهم ثم بينوا المراد بقولهم (الذين كنا ندعوا) اى نعبدهم (من دونك) ليقربونا اليك فاكرمنا لاجلهم جريا على مناهجهم فى الدنيا فى الجهل والغباوة فخاف شركاؤهم من عواقب هذا القول والاقرار عليه سطوات الغضب (فالقوا) اى الشركاء (اليهم) اى المشركين (القول) اى بادروا به حتى كان اسراعهم اليه اسراع شئ ثقيل يلقى من علو أى كدروا قولهم فقالوا (انكم لكاذبون) فى جعلنا شركاء و انكم عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم أهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا يبعد أن تنطق الاصنام بذلك يومئذ فى انهم حملوهم على الكفر والزموهم اياه كقوله وما كان لى عليكم من سلطان ألا أن دعوتكم فاستجبتم لى (وألقوا) اى الشركاء (الى الله) اى الملك الاعلى (يومئذ) اى يوم القيامة (السلم) اى الاستسلام بحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا (وضل) اى غاب (عنهم) اى الكفار (ما كانوا يفترون) اى من أن آلهتهم تشفع لهم * ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) اى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله وبرسوله (زدناهم عذابا) لصدهم (فوق العذاب) المستحق بكفرهم (بما كانوا يفسدون) اى بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا بحيات وعقارب كأمثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر أن لكل عقرب ستمائة فقرة فى كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو أن الشهادة تقع على الامم لا لهم وتكون بحضرتهم فقال (ويوم) اى وخوفهم أو واذكر لهم يوم (نبعث) اى بما لنا من القدرة (فى كل أمة) من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة (شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) اى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا) بما لنا من العظمة (بك) يا خير المرسلين (شهيدا على هؤلاء) اى الذين بعثناك اليهم وهم أهل الارض وأكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم تقيد بعثته بشئ وقال أبو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهو الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه ما قاله فى صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الاعضاء لا شك أنها من

وسلم من بيت المقدس دون مكة لانه محشر الخلائق فطوّه بقدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه أو لانه مجمع أرواح الانبياء فأراد الله تعالى ان يشرفهم بزيارته

أنفسهم وودبانه تعالى قال شهيدا عليهم فيجب ان يكون غيرهم وأيضا قال من كل أمة فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد هذه الاعضاء لا يصح وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه أزاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى (ونزلنا) أى بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم (عليك) يا خير خلق الله (الكتاب) أى القرآن الجامع للهدى (تبيانا) ى بيانا بليغا (لكل شئ) (فان قيل) كيف كان القرآن تبيانا لكل شئ (اجيب) بان المعنى من كل شئ من امور الدين حيث كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع فى قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبيانا لكل شئ (وهدى) أى من الضلالة (ورحمة) لمن آمن به وصدقه (وبشرى) بالجنة (للمسلمين) اى الموحدين خاصة * ولما استقصى سبحانه وتعالى فى شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب اتبعه بقوله (ان الله) أى الملك المستجمع لصفات الكمال (يامر بالعدل) قال ابن عباس فى بعض الروايات العدل شهادة ان لا اله الا الله (والاحسان) أداء الفرائض وقال فى رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا احببت له ان يزداد ايمانا وان كان كافرا أحببت له أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال آخرون يعنى بالعدل فى الافعال والاحسان فى الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وأصل العدل المساواة فى كل شئ من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير باكثر منه والشر بان تعفو عنه وعن الشعبى قال عيسى بن مريم انما الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك ليس الاحسان ان تحسن الى من أحسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف أعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وعن محمد بن كعب القرظى قال دعانى عمر بن عبد العزيز فقال صف لى العدل فقلت بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك (وايتاء) أى ومن الاحسان ايتاء (ذى القربى) اى القرابة القربى والبعدى فيندب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد وروى ابو سلمة عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل هذا البيت ليكونون تجارا فتنمى أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم * ولما أمر تعالى بالمكارم نهى عن المساوى بقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس أى الزنا فانه اقبح أحوال الانسان واشنعها وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة جميعها (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة (والبغى) هو الاستيلاء على الناس والتجبر عليهم قبل ان أجر

صلى الله عليه وسلم او
اسرى به منه ابتداء من
أحواله وصفاته ما يخبر به
الكفار صحيحة تلك الادلة
فيكون اخباره بذلك
مطابقا لما رأوا وشاهدوا
ودليلا على صدقه فى الاسراء

العاصى عقاباً البغى ولو أن جبلاً بغى على جبل لدك الباغى ونص تعالى على البغى مع دخوله فى المنكر اهتماماً به كما بدأ بالفحشاء لذلك وقال ابن قتيبة فى هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته خيراً من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة فى الاقوال والافعال وذكر فى مقابلته الفحشاء وهو ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من أساء اليه وذكر فى مقابلته المنكر وهو أن ينكر احسان من أحسن اليه وذكر ايتاء ذى القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر فى مقابلته البغى وهو أن يتكبر عليهم او يظلمهم حقوقهم * ولما كان هذا المذكور من أبلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى (يعظكم) اى يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول وهى العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهى الفحشاء والمنكر والبغى (لعلكم تذكرون) أى لكى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الدال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال وروى البيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود انه قال أعظم آية فى كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحى القيوم وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأكثر آية فى كتاب الله تفويضاً ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب وأشد آية فى كتاب الله تعالى رجاء قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى به او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من أهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا أمر الله تعالى به وليس من خلق سئ كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما تقررت هذه الجمل التى جمعت بجمعها المأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغاً يحصل به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدأ بما هو مع جمعه أهم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى (وأوفوا) أى أوقعوا الوفاء الذى لا وفاء فى الحقيقة غيره (بعهد الله) أى الملك الاعلى الذى عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد والبيع والايمان وغيرها من أصول الدين وفروعه (اذا عاهدتم) بتقبلكم له باذعانكم لامتثاله (ولا تنقضوا الايمان) واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى (بعد توكيدها) أى تشديدها فتحنثوا فيها وفى ذلك دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منه وقرأ أبو عمرو بادغام الدال فى التاء بخلاف عنه (و) الحال انكم (قد جعلتم الله) اى الذى له العظمة كلها (عليكم كفيلا) أى شاهداً ورقيباً

(قوله باركنا حوله) هو اعم من ان يقال باركنا عليه او فيه لافادته شمول البركة لما احاط بالمسجد من ارض الشام بالمنطوق والمسجد بمفهوم الاولى (قوله م) وان اسأتم فلها اللام للاختصاص

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام وعن جابر رضي الله عنه قال نزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الاسلام فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الاسلام (ان الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة (يعلم ما تفعلون) من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال (ولا تكونوا) أي في نقض العهد (كالتي نقضت غزلها) اى ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) أي ابرام واحكام وقوله تعالى (انكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ارقطة وقيل ريطة وتلقب بجعراء وكانت خرقاء حمقاء لها وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها وقال السدي كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فاذا أبرمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال قتادة لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما أحمق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال في قوله تعالى (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) خيانة وغدرا انتهى والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وانما كانوا يفعلون ذلك (ان) أي بسبب ان (تكون) او مخافة ان تكون وتكون يجوز ان تكون تامة فتكون (أمة) اى جماعة فاعلها وان تكون ناقصة فتكون امة اسمها و (هي) مبتدأ و (اربى) اى اكثر (من امة) خبره والجملة في محل نصب على الحال على الوجه الاول وفي موضع الخبر على الثاني واربى مأخوذ من ربا الشيء يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك (انما يبلوكم الله) الذي له الملك كله أي يختبركم (به) اى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء وانحلالكم عنه اعتمادا على كثرة انصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده من المؤمنين وغيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك ان يعاقب بالمخالفة فيضعف القوي ويقلل الكثير ويكثر القليل (وليبينن لكم) أي اذا تجلى لفصل القضاء (يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أي اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والارض وان من نوقش الحساب يهلك (ولو شاء الله) أي الملك الاعلى الذي لا أمر لاحد معه ان يجعلكم أمة واحدة لا خلاف بينكم في اصول الدين ولا فروعه (لجعلكم أمة واحدة) اى متفقة على أمر واحد وهو دين الاسلام (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى (يضل من يشاء) عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان الذي اضله على أحسن الحالات (ويهدي) بفضله (من يشاء) ولو كان على أخس الحالات والاحوال فبذلك تكونون مختلفين لا يسئل عما يفعل سبحانه وتعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسيء بعدله

او بمعنى على كما في قوله تعالى يخرون للاذقان سجدا (قوله ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا) قال ذلك هنا بلفظ كبيرا وقاله في الكهف

تعالى * ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهد والايمان مطلقا قال تعالى (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا) أى فسادا ومكرا وخديعة (بينكم) وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والالزم التكرار الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض ايمان مخصوصة أقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد نهى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان قوله تعالى (فتزل) أى فيكون ذلك سببا لان تزل (قدم) هى فى غاية العظمة (بعد ثبوتها) اى عن مركزها التى كانت به من دين اودنيا فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها الا بليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشرائعه * (تنبيه) * فتزل منصوب باضمار ان على جواب النهى وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية وسقط فى ورطة بعد سلامة او محنة بعد نعمة (وتذوقوا السوء) أى العذاب فى الدنيا (بما) أى بسبب ما (صددتم) أى أنفسكم ومنعتم غيركم بايمانكم التى قد أردتم بها الافساد وخفاء الحق (عن سبيل الله) أى دينه وذلك ان من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به (ولكم) مع ذلك (عذاب عظيم) أى ثابت غير منفك اذا دمتم على ذلك ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى (ولا تشتروا) أى ولا تكلفوا أنفسكم لجاجا وتركا للنظر أن تأخذوا وتستبدلوا (بعهد الله) الذى له الكمال كله (ثمنا قليلا) أى من حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى (انما عند الله) أى الذى له الجلال والاكرام من ثواب الدارين (هو خير لكم) ولا يعدل عن الخير الى غيره الا اهوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوى العلم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين * ثم بين ذلك بقوله تعالى (ما عندكم) أى من متاع الدنيا ولذاتها (ينفد) أى يفنى فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطا بانقطاعه (وما عند الله) أى الذى له الامر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (باق) أى دائم روى عن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقرأ ابن كثير باقى فى الوقف بالياء والباقون بغير ياء واما فى الوصل فالجميع بالتنوين (ولنجزين الذين صبروا) على الوفاء بما يرضيه من الاوامر والنواهى فى السراء والضراء (أجرهم) أى ثواب صبرهم (باحسن ما كانوا يعملون) أى بجزاء أحسن من أعمالهم او يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد ياتى بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك ان الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها الا على فعل المباحات وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم أى ولنجزين نحن والباقون بالياء أى وليجزين الله ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى الايمان بكل ما كان من شرائع الاسلام بقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن) اذ لا اعتداد باعمال الكفار فى استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب (فان قيل) من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة ذكر الذكر والانثى (اجيب) بانه ذكر دفعا للتخصيص باحد الفريقين واختلف فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) فقال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى

بلفظ حسنا موافقة الفواصل قبلها وبعدها (قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين) ان قلت لم ثنى الآية هنا وافردها فى قوله وجعلناها وابنها آية (قلت) لتباين الليل

العيش في الطاعة وقال الحسن هي القناعة لان عيش المؤمن في الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره وتدبيره تعالى وعرف ان الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الاشياء في محالها فكان المؤمن راضيا بقضاء الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف أن مصلحته في ذلك القدر الذي رزقه فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه الاصول فدائم الحرص على طلب الرزق فيكون أبدا في حزن وتعب وعناء وحرص في الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدي الحياة الطيبة انما تحصل في القبر لان المؤمن يستريح بالموت من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هي الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلاك وسعادة بلا شقاوة فاثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا في الجنة ولا مانع من ان المؤمن الكامل يحصل جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ولنجزينهم أجرهم) اى في الدنيا والآخرة (باحسن ما كانوا يعملون) اى من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون أرشده الى العمل الذي به تخلص أعماله من الوسواس بقوله تعالى (فاذا قرأت القرآن) اى أردت قراءته (فاستعذ) اى ان شئت جهرا وان شئت سرا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه والاسرار أولى في الصلاة وفي قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة (بالله) اى سل الذي له الكمال كله ان يعيذك (من الشيطان) اى المحترق باللعنة (الرجيم) اى المطرود عن الرحمة من أن يصدك بوساوسه عن اتباعه ويدخل في ذلك جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة في قلوب بني آدم باقدار الله تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة بالله تعالى هي الاعتصام به والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطاء سواء كانت القراءة في الصلاة أم في غيرها واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة في الصلاة وغيرها والصارف لهذا الامر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون ذكر تعوذ كحديث البخاري وغيره عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما منعك أن تجيبني قال كنت أصلي قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن الحمد لله رب العالمين وفي رواية الموطأ انه صلى الله عليه وسلم نادى أبيا وأنه قال له كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال أبي فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت الى آخرها وظاهر الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة واليه ذهب مالك وداود الظاهري قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس في قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أولا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصا والذي ذهب اليه الاكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت ان تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتم على ذلك فلهذا قدرت ذلك

والنهار من كل وجه ولتكررهما فناسبهما التثنية بخلاف عيسى مع أمه فانه جزء منهما ولا تكرر فيهما فناسبهما الافراد (قوله وجعلنا آية النهار مبصرة) اى مضيئة لان

فى الآية الكريمة ومثل ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام اذا أكلت فسم أى اذا أردت ان تأكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت فتأهب أى اذا أردت السفر فتأهب وأيضا الوسوسة انما تحصل فى أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف فى أبدان الانسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبين انه لاقدرة له البتة الا على الوسوسة بقوله تعالى (انه ليس له سلطان) اى بحيث لا يقدر التسلط عليه على الانفكاك عنه (على الذين آمنوا) اى بتوفيق ربهم لهم (وعلى ربهم) وحده (يتوكلون) اى على أوليائه المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثورى قال ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من أن له سلطانا على غيرهم بقوله (انما سلطانه) اى الذى يتمكن به غاية التمكن بامكان الله تعالى له (على الذين يتولونه) اى يحبونه ويطيعونه (والذين هم به) اى بالله تعالى (مشركون) وقيل الضمير راجع الى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله * ولما كان المشركون اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون ان محمدا يستهزئ بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوّله من تلقاء نفسه نزل (واذا بدلنا) اى بقدرتنا بالنسخ (آية) سهلة كالعدة بأربعة أشهر وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار أو شاقة كتحريم الخمر وايجاب الصلوات الخمس فجعلناها (مكان آية) شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات المتضمنة لاباحة الخمر والتبديل رفع الشئ ووضع غيره مكانه (والله) اى الذى له الاحاطة الشاملة (أعلم بما ينزل) من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بنسخ أو غيره (قالوا) اى الكفار (انما أنت) يا محمد (مفتر) اى متقوّل على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله أعلم بما ينزل اعتراض والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف اى هو أعلم بجميع ذلك ومصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم انما أنت مفتر اى اذا كان هو أعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمدا الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ (بل أكثرهم) وهم الذين يستمرون على الكفر (لا يعلمون) حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من الصواب فان الله تعالى أعلم بمصالح العباد كما ان الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بغيرها بضد تلك الشربة ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى (قل) لمن واجهك بذلك منهم (نزله) اى القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح باحاطة علم المتكلم به (روح القدس) اى جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد روح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم (من ربك بالحق) اى متلبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) اى ليثبت بالقرآن قلوب الذين آمنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى) اى بيانا واضحا (وبشرى

(قوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) لا ينافى قوله وكفى بنا حاسبين لان فى يوم القيامة مواقف مختلفة ففى موقف يكل الله حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط به

للمسلمين) اى المنقادين لحكمه (فان قيل) ظاهر الآية ان القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى
واذا بدلنا آية مكان آية اذ مقتضاه ان الآية لا تنسخ الا بأخرى (أجيب) بان هذه الآية دالت
على انه تعالى يبدل آية بآية ولا دلالة فيها على انه لا يبدل آية الا بآية وأيضا فجبريل عليه
السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية * ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه
القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمي مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله
تعالى (ولقد نعلم) اى علما مستمرا (أنهم يقولون انما يعلمه بشر) واختلف في البشر الذي قال
المشركون ان النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبني عامر بن لؤى يقال له يعيش
كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبني الحضرمي صاحب كتب
وكان اسمه جبرا فكانت قريش تقول عبد بني الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل
كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان
الفارسي وبالجملة فلا فائدة في تعداد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بانه يتعلم هذه
الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه فاجاب
الله تعالى عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى
(لسان الذي يلحدون) اى يميلون اليه أو يشيرون (اليه) أى انه يعلمه (أعجمي) اى لا يعرف
لغة العرب وهو مع ذلك ألكن في التأدية غير مبين (وهذا) أى القرآن (لسان عربي مبين)
اى ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجمي وروى ان الرجل الذي كانوا يشيرون اليه أسلم
وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون) اى لا يصدقون كل تصديق معترفين (بآيات الله) اى
الذي له العظمة كلها (لا يهديهم الله) اى لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم)
اى مؤلم في الآخرة ثم أخبر الله تعالى ان الكفار هم المفترون بقوله تعالى (انما يفتري الكذب
الذين لا يؤمنون بآيات الله) اى القرآن بقولهم هذا من قول البشر (وأولئك) اى البعداء
البغضاء (هم الكاذبون) اى الكاملون في الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم من الكذب
أو اولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شئ لا يحجبهم عنه مروأة ولا دين * ولما
ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقا أتبعهم صنفا منهم هم أشد كفرا بقوله تعالى (من) اى
أى مخلوق وقع له أنه (كفر بالله) اى الذي له صفات الكمال بان قال أو عمل ما يدل على الكفر
(من بعد ايمانه) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (الا من اكره) اى على التلفظ بالكفر فتلفظ
به (وقلبه مطمئن بالايمان) فلا شئ عليه لان محل الايمان هو القلب روى ان قريشا أكرهوا
عمارا وأباه ياسرا وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك أسلمت من أجل
الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما أول قتيل في الاسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما ارادوه مكرها
وهو كاره بقلبه فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بانه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا
امتلأ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم
وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فقل لهم
مثل ما قلت * (تنبيه) * في الآية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل أن يتجنب

وفي موقف يحاسبهم هو
وقيل هو الذي يحاسبهم
لا غير وقوله كفى بنفسك
اليوم عليك حسيبا اى
يكفيك أنك شاهد على
نفسك بذنوبك انه توبيخ
لا تفويض
وتقريع

عنه اعزاز الدين كما فعله أبواه ولما روى ان مسيلمة أخذ رجلين فقال للاحد هما ما تقول فى محمد فقال رسول الله قال فما تقول فى قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد فقال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيأ له واختلف الأئمة فى وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعى وأحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعى بقوله تعالى لا اكراه فى الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره اى لا أثر له ولا عبرة به وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال أيضا لا طلاق فى اغلاق اى اكراه وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها وأجيب بان الآية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة (ولكن من شرح بالكفر صدرا) اى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب) اى غضب ثم تبين جهة عظمه لكونه (من الله) أى الملك الاعظم (ولهم) أى بظواهرهم وبواطنهم (عذاب عظيم) فى الآخرة لارتدادهم على أعقابهم (ذلك) أى الوعيد العظيم (بانهم) أى بسبب أنهم (استحبوا) أى أحبوا حبا عظيما (الحيوة الدنيا) الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها (على الآخرة) الباقية الفاخرة لانهم رأوا ما فيه المؤمنون من الضيق والكافر ون من السعة (وأن الله) أى الذى له الغنى المطلق (لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل (أولئك) اى البعداء البغضاء (الذين طبع الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه (على قلوبهم) أى ختم عليها واستوثق * ولما كان التفاوت فى السمع نادرا وحده بقوله تعالى (وسمعهم) أو جمع أسماعهم ليناسب قوله تعالى (وأبصارهم) فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه المشاعر كأنهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون (وأولئك) أى الاباعد من كل خير (هم الغافلون) عما يرادبهم من العذاب فى الآخرة (لا جرم) أى لا شك (انهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى أكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم استوجبوا غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة الرابعة أن الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة انه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من أعظم الاحوال المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما أدخل الانسان فى الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران * ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من أكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى (ثم ان ربك) اى المحسن اليك (للذين هاجروا) الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى (من بعد ما فتنوا) قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء على فعل ما لم يسم فاعله ووجه القراءة الاولى انه عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى

حساب العبد الى نفسه وقيل من يرد مناقشته فى الحساب يحاسبه بنفسه ومن يرد مسامحته يكل حسابه اليه (قوله واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) اى أردنا منهم الفسق

فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ظاهراً أو أنهم لما صبروا على عذاب المشركين فكأنهم فتنوا أنفسهم وإن عاد على المشركين فهو ظاهر أي فتنوا المؤمنين لأن أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الإيمان فبين تعالى أنهم هاجروا (ثم جاهدوا وصبروا) على الطاعة (إن ربك من بعدها) أي الفتنة (لغفور) أي بليغ الإكرام (رحيم) فهو يغفر لهم ويرحمهم * (تنبيه) * حذف خبر إن الأولى لدلالة خبر الثانية عليه أو مقدر عامل (يوم) أي اذكر يوم (تأتي كل نفس) أي وإن عظم جرمها (تجادل) أي تحاجج (عن نفسها) أي لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة (فإن قيل) ما معنى النفس المضافة إلى النفس (أجيب) بأنه يقال لعين الشيء وذاته نفسه وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي فالنفس الأولى هي الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء الذين أضلونا وما كنا مشركين (وتوفى كل نفس) صالحة أو غير صالحة (ما عملت) أي جزاء من جنسه (وهم لا يظلمون) أي شيئاً ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضاً بآفات الدنيا وهي الوقوع في الجوع والخوف بقوله تعالى (وضرب الله) أي المحيط بكل شيء (مثلاً) ويبدل منه (قرية) هي مكة والمراد أهلها (كانت آمنة) أي ذات أمن ويأمن بها أهلها في زمن الخوف قال تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم والأمن في مكة كان كذلك لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض دون أهل مكة فإنهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم (مطمئنة) أي قارة بأهلها لا يحتاجون فيها إلى نجعة وانتقال بسبب زيادة الأمن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج إليه أهلها (فإن قيل) الاطمئنان هو الأمن فيلزم التكرار (أجيب) بأن قوله تعالى آمنة إشارة إلى الأمن وقوله تعالى مطمئنة أي لا يحتاجون فيها إلى نجعة كما مر وقيل إشارة تعالى بذلك إلى الصحة لأن هواء ذلك البلد كان ملائماً لأمزجتهم فلذلك اطمأنوا إليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية (يأتيها) أي على سبيل التجدد والاستمرار (رزقها رغداً) أي واسعاً طيباً (من كل مكان) بر وبحر بتيسير الله تعالى * ولما كانت السعة تجر إلى البطر غالباً نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى (فكفرت بأنعم الله) أي الذي له الكمال كله وأنعم جمع نعمة قال الزمخشري على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع وقال قطرب هي جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه أيام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس (فإن قيل) الأنعم جمع قلة فكأن تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم لم يقل تعالى كفر وابنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب (أجيب) بأن المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى فإن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة أولى وبأن الله تعالى أنعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا في إيذائه (فأذاقها الله) أي المحيط بكل شيء (لباس الجوع) بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل إن القرية غير مكة

أو أوامرنا هم بالطاعة أو كثرناهم ففسقوا يقال أمرته وآمرته بالقصر والمد في كثرته وقيده بالمترفين وإن كان الأمر لا يختص بهم لأن صلاحهم وفسادهم مستلزم لإصلاح

لانهم اضر بت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (والخوف) بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم *(تنبيه)* استعير الذوق لادراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف وأوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقول كثير عزة

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف اليه الغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار لقال ضافى الرداء أى سابغه ومعنى البيت اذا ضحك المسؤل ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق رقاب ماله وانه يعطى بلا خلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله

ينازعنى ردائى عبد عمرو * رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى * ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه لقال تعالى فى الآية وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية ما يقال فى الاستعارة وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى

اذا ما الضجيع ثنى جيدها * تثنت عليه فكانت لباسا

ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر

وقد لبست بعد الزبير مجاشع * لباس التى حاضت ولم تغسل الدما

كأن العار لما باشرهم والتصق بهم كانهم لبسوه وقوله تعالى فأذاقها نظير قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ونظيره قول الشاعر * دونك ما جنيت فاحس وذق * وقوله تعالى (بما كانوا يصنعون) يجوز أن تكون ما مصدرية اى بسبب صنعهم أو بمعنى الذى والعائد محذوف أى بسبب الذى كانوا يصنعونه والواو فى يصنعون عائد على أهل البلد وقيل قرية نظيره قوله تعالى أو هم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها * ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى (ولقد جاءهم) اى أهل هذه القرية (رسول منهم) من نسبهم يعرفونه باصله ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فاخذهم العذاب) قال ابن عباس يعنى الجوع الذى كان بمكة وقيل القتل الذى كان يوم بدر (وهم ظالمون) اى فى حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فكلوا) اى أيها المؤمنون (مما رزقكم الله) قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبى ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فاذن فى الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الرازى والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة يعنى أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله (حلالا طيبا) وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم * ولما أمرهم تعالى بأكل الحلال أمرهم بشكر النعمة بقوله تعالى (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) اى تطيعون * (تنبيه) * رسمت

غيرهم او فساده (قوله من كان يريد العاجلة) الآية * ان قلت قضيته ان من لم يترك الدنيا يكون من أهل النار وليس كذلك (قلت) المراد من لم يرد باسلامه وعبادته الا الدنيا

نعمة بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف بالإمالة وتقدم

تفسير قوله تعالى (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) في سورة البقرة فلا إعادة في تفسير ذلك وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون والباقون بالضم *(تنبيه)* حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة مذكور أيضا في سورة الأنعام عند قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه الآية وفي سورة المائدة في قوله تعالى أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم وأجمعوا على أن المراد بقوله تعالى إلا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في سورة البقرة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وقوله تعالى في المائدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم فهذه الأشياء داخلة في الميتة ثم قال تعالى وما ذبح على النصب وهو أحد الأشياء الداخلة تحت قوله تعالى وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الأربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الأربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فإن سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربعة إلا ما خصه الإجماع والدلائل العقلية القاطعة كان في محل أن يخشى عليه لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الأربعة كان مشروعا ثابتا في أول زمان مكة وآخره وأول زمان المدينة وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الأربعة قطعا للأعذار وإزالة للشبهة * ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الأربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأربعة تارة وفي النقصان عنها أخرى بقوله تعالى

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) لما لم يحله الله ولم يحرمه فإنهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضا في المحللات لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فبين الله تعالى أن المحرمات هي هذه الأربعة وبين أن الأشياء التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى *(تنبيه)* في انتصاب الكذب وجهان أحدهما قال الكسائي ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا وكذا كذا وكذا (فإن قيل) حمل الآية على هذا يؤدي إلى التكرار لأن قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) عين ذلك (أجيب) بأن قوله تعالى لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان أنه كذب على الله فأعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثير وهو أنه تعالى يذكر كلاما ويعيده بعينه مع فائدة زائدة الثاني أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا (فإن قيل) ما معنى وصف ألسنتهم الكذب (أجيب) بأن ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه وإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال أي هي جميلة وعينها تصف السحر أي هي ساحرة فلما أرادوا المبالغة

وهذا لا يكون إلا كافرا أو منافقا (قوله وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا * فإن قلت كيف قال ذلك مع أن الشاهد الواحد لا يقدر على دانق وآخر معه الألوف (قلت)

فى وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبروا بذلك * ثم انه تعالى أوعد المفترين بقوله تعالى (ان الذين يفترون على الله) اى الذى له الكمال كله (الكذب) منكم ومن غيركم (لا يفلحون) اى لا يفوزون بخير لان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه الفلاح لانه الفوز بالخير والنجاح ثم بين تعالى ان ماهم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب بقوله تعالى (متاع قليل) اى منفعة قليلة تنقطع عن قرب لفنائه وان امتد ألف عام (ولهم) بعده (عذاب أليم) اى مؤلم فى الآخرة * ولما بين تعالى ما يحل و يحرم لاهل الاسلام أتبعه ببيان ما يختص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى (وعلى الذين هادوا) اى اليهود (حرمنا) عليهم عقوبة لهم بعدواتهم وكذبهم على ربهم (ما قصصنا عليك) يا أجل المرسلين (من قبل) اى فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وما ظلمناهم) اى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا) اى دائما طبعا لهم وخلقا مستقرا (أنفسهم) خاصة (يظلمون) بالبغى والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملنا كم أنتم حيث ظلمتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة * ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هى أكبر منها جدا استجلابا لكل ظالم وبين عظمتها بحرف التراخى فقال تعالى (ثم ان ربك) اى المحسن اليك (للذين عملوا السوء) وهو يتناول كل ما لا ينبغى فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصى (بجهالة) اى بسببها أو ملتبسين بها ايم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب فكل من عمل سوأ انما يفعله بالجهالة أما الكفر فلأن أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه لولم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فلأن العالم لم تصدر منه المعصية مالم تصر الشهوة غالبة للعقل فثبت أن كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة (ثم تابوا من بعد ذلك) اى الذنب ولو كان عظيما واقتصروا على ما أذن فيه خالقهم (وأصلحوا) بالاستمرار على ذلك (ان ربك) اى المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره (من بعدها) اى التوبة (لغفور) اى بليغ الستر لما عملوا من السوء (رحيم) اى بليغ الرحمة محسن بالاكرام فضلا منه ونعمة * ولما دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها بقوله لمن أقبل اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لاجرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات الصفة الاولى قوله تعالى (ان ابراهيم كان أمة) اى لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة فى أشخاص كثيرة كقول القائل

وليس لله (اى من الله) بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

اى أن يجمع صفاتهم فى شخص واحد وقال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة واحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وعن شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله تعالى بهم عن أهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل أمة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة من أمه اذا قصده واقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيره كقوله

المراد بالعطاء هنا الرزق والله سوى فى ضمانه بين المطيع والعاصى من العباد فلا تفاوت بينهم فى اصل الرزق وانما التفاوت بينهم فى مقادير الاملاك وانما لم يمنع الله الكفار الرزق

تعالى انى جاعلك للناس اماما وقرأ هشام ان ابراهام وملة ابراهام بالالف بعد الهاء فيهما وقرأ الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى (قانتا لله) اى مطيعا له قائما باوامره الصفة الثالثة قوله تعالى (حنيفا) اى مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى (ولم يك من المشركين) اى انه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين فى الصغر والكبر وقد ابطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى ان القوه فى النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربى الذى يحيى ويميت ثم طلب من الله تعالى ان يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له زيادة الطمأنينة قال الرازى ومن وقف على علم القرآن علم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان غريقا فى بحر علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى (شاكرا لأنعمه) فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه (اجيب) بانه ذكر القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة وروى انه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم بهذا البلاء الصفة السادسة قوله تعالى (اجتباه) اى اصطفاه للنبوة واختاره لخلته الصفة السابعة قوله تعالى (وهداه الى صراط مستقيم) اى وهداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قال قتادة حببه للناس حتى ان أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر واما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول ان الله تعالى أجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل اولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) فى الجنة (فان قيل) لم لم يقل تعالى فى اعلى مقامات الصالحين (اجيب) بانه تعالى حكى عنه انه قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين فقال تعالى هنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على انه تعالى اجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى ان يكون فى اعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية اخرى وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء * ولما وصف الله تعالى ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتباعه مشيرا الى علو مرتبته بحرف التراخى بقوله تعالى (ثم أوحينا اليك) يا أشرف الرسل وقيل اتى بثم للتراخى اى لتراخى أيامه عن أيام ابراهيم عليهما افضل الصلاة والسلام (ان اتبع ملة ابراهيم) فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب فهمه ولا بعد فى ان يفهم ذلك الهجرة أيضا وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى

كما منعهم الهداية لان فى منعهم هلاكهم وقيام الحجة لهم بان يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا اسبابا منا ولانه لو منعهم الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة لكان

(حنيفا) حال من النبي صلى الله عليه وسلم ويصح ان يكون حالا من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) كرره ردا على من زعم من اليهود والنصارى انهم على دينه وقوله سبحانه وتعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فيه قولان الاول روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم أى اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (فان قيل) هل في العقل وجه يدل على ان الجمعة أفضل من السبت والاحد فان أهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم في ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولان فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا (اجيب) بان يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم في السبت هو انهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة (وان ربك) أى المحسن اليك بطواعية أصحابك لك (ليحكم بينهم) أى هؤلاء المختلفين (يوم القيامة) وهو يوم اجتماع جميع الخلائق (فيما كانوا فيه يختلفون) فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بين الشئ الذى أمره بمتابعته فيه بقوله تعالى (ادع) أى كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه (الى سبيل ربك) أى المحسن اليك بتسهيل السبيل الذى تدعو اليه واتساعه وهو الاسلام الذى هو الملة الحنيفية (بالحكمة) أى المعاملة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) أى بالدعاء الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات النافعة والاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوى عوامهم (وجادلهم) أى وجادل معانديهم (بالتي) أى بالمجادلة التي (هي أحسن) كالدعاء الى الله تعالى بآياته والدعاء الى حججه بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فان ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شبههم وقيل المراد بالحكمة القرآن أى ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وفي الامر بالمجادلة التي هي أحسن الاعراض عن أذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام القسم الاول العلماء الكاملون وهم أصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الشافية الذين

ذلك من صفات الجهلاء والله منزه عن ذلك لانه حكيم كريم ولان اعطاء الرزق لجميع العباد عدل وعدل الله عام وهبة الهداية فضل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء (قوله

يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة أى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن اى حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه (ان ربك) المحسن اليك بالتخفيف عنك (هو أعلم) اى من كل من يتوهم فيه علم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى فهو سبحانه وتعالى أعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب فى حديد بارد فما عليك الا البلاغ والدعوة وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فالى ذلك اليك وهذا قبل الامر بالقتال وذكر فى قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أقوال أحدها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا انفه واذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من ان يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط أوجع لقلبه منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانى ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان أدعك حتى تحشر من أفواج شتى اما والله لئن ظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراد وكفر عن يمينه وقال المسلمون أيضا لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم احد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب فان أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم يعنى على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب باحد القول الثانى ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفى هذه الآية أمر الله تعالى ان يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا القول الثالث ان المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال الرازى وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى ان يقال انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم

لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا) قال ذلك هنا ثم قال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ثم قال ولا تجعل مع الله الها

واسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وان يحمله طبعه على تأديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه (فان قيل) فهل تقدحون فيما روى أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية (أجيب) بأنه لا حاجة الى القدح في تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى *(تنبيه)* أمر الله تعالى برعاية العدل والانصاف في هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به أي ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له أن لا يفعل كما أنك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه أن الاولى بك أن لا تأكلها فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وهذا تصريح بان الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الانتقام وقرأ لهو قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة هو الامر الجازم بالترك وهو قوله تعالى (واصبر) لانه في المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير وأولى وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر في هذا المقام *ولما كان الصبر في هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى (وما صبرك الا بالله) أي الملك الاعظم الذي شرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي ثم ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب بقوله سبحانه وتعالى (ولا تحزن عليهم) أي في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس (ولا تك في ضيق) ولو قل كما لوح اليه بتنوين التحقير (مما يمكرون) اي من استمرار مكرهم بك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وكأنك به وقد أتى فاصبر فان الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بفتحها *(تنبيه)* هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا أن الفائدة في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى (ان الله) اى الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه (مع الذين اتقوا) اى وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي (والذين هم محسنون) في أعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجري مجرى التهديد لان في المرتبة الاولى رغبة في ترك الانتقام على سبيل الرمز وفي الثانية عدل عن الرمز

ملوما
آخر فتلقى في جهنم
مدحورا ولا تكرار فيها
لان الاولى في الدنيا والثالثة
في الآخرة والخطاب فيهما
للنبي صلى الله عليه وسلم
على الراجح والمراد به غيره
كما في آية اما يبلغن عندك

الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفي المرتبة الثالثة أمر بالصبر على سبيل الجزم وفي هذه المرتبة الرابعة كانه ذكر الوعد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا أي عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون أي في ترك أصل الانتقام فكانه تعالى قال ان أردت ان أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفي قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله وفي قوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حيان عند قرب وفاته أوص فقال انما الوصية في المال ولا مال لي ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل *(تنبيه)* قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف قال الرازي وهذا في غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب في كيفية الدعوى الى الله تعالى وترك التعدي وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه في دار الدنيا وان مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذي مات وأحسن الوصية حديث موضوع قال الرازي في آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعاني في غيب الغيب مكنونة والاسرار فيما وراء أقفال العزة مخزونة وبيد الخلائق القيل والقال والكمال ليس الا لله تعالى ذي الاكرام والاجلال

الكبرى أحدهما او كلاهما واما الثانية فخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أيضا وهو المراد به وذلك ان امرأة بعثت صبيا اليه مرة بعد أخرى سألته قميصا ولم يكن عليه ولا له

سورة الاسراء وتسمى سبحان وبني اسرائيل مكية

الا وان كادوا الآيات الثمان مائة وعشر آيات أو احدى عشرة وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك المالك لجميع الامر (الرحمن) لكل ما أوجده بعماره (الرحيم) لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى (سبحان) اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وقد يستعمل علما فيقطع عن الاضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى في مدحه عامر بن الطفيل

قد قلت لما جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر

أي العجب منه اذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبوا منه والشاهد في سبحان حيث جعله علما على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فأسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حوران فمات بها (الذي أسرى بعبده) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو أشرف عباده على الاطلاق وأحقهم بالاضافة اليه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي أسرى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرف والاسراء سير الليل وفائدة ذكره الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل في جزء يسير من الليل والى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج في الاسراء والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلي

الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ الذات متأهلا لذا قامه تعالى من الفرش الى العرش (من المسجد الحرام) اى بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل بالبراق وقيل كان نائما فى الحطيم وقيل فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب قال البقاعى وهو قول الجمهور والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد (الى المسجد الاقصى) اى بيت المقدس الذى هو بعيد المسافة حينئذ وأبعد المسجدين الاعظمين مطلقا من مكة المشرفة بينهما أربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ورأى من آياتنا الكبرى ما قدرناه كما سيأتى فى حديث المعراج ورجع بين أظهركم الى المسجد الاقرب منكم فى ذلك الجزء اليسير من الليل وأنتم تضربون أكباد الابل فى هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا * ثم وصفه تعالى بما يقتضى تعظيمه وانه أهل للقصد بقوله تعالى (الذى باركنا حوله) اى بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والارزاق والبركات وبارك تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى الى ما لم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعى ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور أفهامهم عن ادراك أدلته لو أنكروه بخلاف الاسراء فانه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التى وصفها لهم وهم قاطعون بانه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات أخبر بعد ذلك من أراد الله تعالى بالمعراج * ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى (لنريه) بعينه وقلبه (من آياتنا) أى عجائب قدرتنا السماوية والارضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض (انه) أى الله (هو السميع) لجميع الاقوال (البصير) أى العالم بأحوال عباده فيكرم ويقرب من شاء منهم وقيل انه أى هذا العبد الذى اختصصناه بالاسراء هو أى خاصة السميع أى اذنا وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصرا وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور فى قصة الاسراء واختلف هل أسرى بروحه أو بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضى الله تعالى عنها انها كانت تقول ما فقدت جسد النبى صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه والاكثرون على أنه أسرى بجسده فى اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى تربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل عليه السلام أصبت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بى الى السماء الثانية

أبيض غيره فنزعه ودفعه اليه فدخل وقت الصلاة فلم يخرج فى الحين فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك فانزل الله فتقعد ملوما أى يلومك الناس محسورا

قوله الذى هو الخ كلام غير مستقيم اه

فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل قد بعث اليه قال
قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي الى
السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد
أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد فقيل قد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي
ودعا لي بخير ثم عرج بي الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم فاذا هو مستند
الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى
السدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله
ما غشيها انغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها قال صلى الله عليه وسلم
فأوحى الى عبده ما أوحى وفرض على في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى
موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك
فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك واني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى
ربي فقلت له أي رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت
قد حط عني خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لان أمتك
لا تطيق ذلك قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هي
خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها
كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها
كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله
التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت رواه الشيخان
وروى أنه قال بعد ذلك ولكن أرضى وأسلم فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت
عن عبادي ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروى أنه لما وصل الى
سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان يا جبريل قال
أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور
ثم أوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة التي أنت
عليها وأمتك قال ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة يوم فرجعت فمررت على موسى وساق
الحديث ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم رأيت ربي عز وجل قال هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أي مكشوفا وقيل مقطوعا
عن الخروج الى الجماعة
(قوله اما يبلغن عندك
الكبر أحدهما أو كلاهما)
فائدة ذكر عندك انهما
يكبران في بيته وكنفه
ويكونان كلا عليه لا كافل

ليلة أسرى به الى بيت المقدس قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم ومنها ما رواه قتادة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الاسراء به قال بينا أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم واليقظان وذكر بين رجلين وأتيت بطست من ذهب مملوءة حكمة وايمانا فشق من النحر الى مراق البطن واستخرج قلبى فغسل ثم حشى ثم أعيد وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فاسرى به ورجع من ليلته وقص القصة على أم هانئ وقال مثل لى النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال مالك قالت أخشى أن يكذبك الناس وقومك ان أخبرتهم قال وان كذبونى فخرج اليهم وروى أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فكان بذى طوى قال يا جبريل ان قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة أسرى بى فاصبحت بمكة قطعت بامرى وعرفت أن الناس يكذبونى فروى أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم اسرى بى الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال أبو جهل يا معشر بنى كعب ابن لؤى هلم افانفضت اليه المجالس فجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتنى قال نعم انى قد أسرى بى الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم اصبحت بين أظهرنا قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا هل لك فى صاحبك يزعم أنه اسرى به الليلة الى بيت المقدس قال أوقد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا تصدقه على ذلك قال انى لاصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء فى غدوة أو روحة فسمى الصديق قال وفى القوم من كان يأتى المسجد الاقصى فقالوا فهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم قال فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتى التبس على قال فجئ بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهى أهم الينا هل لقيت منها شيأ قال نعم مررت على عير بنى فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا اليه قالوا هذه آية قال ومررت بعير بنى فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما منى فرمى بفلان فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك قالوا وهذه آية قالوا فاخبرنا عن عيرنا متى تجئ قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وما حملها وما أحمالها ومن فيها فقال هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيأ وبينه حتى أتوا كداء

قوله ولا تقربوا الزنا) هو أعم من ان يقال ولا تزنوا لقصد النهى عن مقدمات الزنا كاللمس والقبلة ونحوهما انهاهم عنه وربما كان من الشاب فى حال الصغر

فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس والله قد أشرقت فقال آخر والله وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل الذي في لونه بياض الى سواد وهو أطيب الابل لحما كما قاله الجوهري ومنها ما روى عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم وجاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي وعرج بي الى السماء فلما جئنا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال ومن هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد قال فأرسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى أتى الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا فقال أنس ابن مالك فذكر أنه وجد في السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليهما وسلم بادريس فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب أخبرني ابن حزم ان ابن عباس كان يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى اسمع فيه صريف الاقلام وروى معمر عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسري به مسرجا ملجما فاستصعب عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا وقال ابن زيد عن أبيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الى بيت المقدس قال جبريل باصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق وفي رواية أنه جاء جبريل بالبراق الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل وطار به البراق في الهواء فاخترق به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشرب فأتاه جبريل باناءين اناء من لبن واناء من خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام أصبت الفطرة أصاب الله تعالى بك أمتك ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتأول اللبن بالعلم فلما وصل الى السماء الدنيا استفتح الى أن قال ثم عرج بي الى سدرة المنتهى وأخبره جبريل ان أعمال بني آدم تنتهي الى تلك السدرة وانها مقر الارواح فهي نهاية لما ينزل مما هو فوقها ونهاية لما يعرج اليها مما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجيء اليه بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد عليه وسلمه

بالمنطوق وعن الزيادة وهم
الاولى (قوله واقدا صرفنا في
هذا القرآن) قال ذلك هنا
بحذف للناس اكتفاء
بذكره قبل بلفظ وكل انسان
الزمناه طائره في عنقه وقاله
بعد بذكره ليتميز عن اللحن

جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال له لا أقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما أسرى الله بك يا محمد الا ليريك من آياته فلا تغفل فودعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشي به الى أن ظهر لمستوى سمع فيه صرير الاقلام في الالواح وهي تكتب ما يجري به الله تعالى في خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ثم زج بي في النور زجة فافرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فعلم أن الرفرف ما تدلى الا ليكون البراق له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذي لا يتعداه وقف وكذلك الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه زج به في النور فغمره النور من جميع نواحيه وأعطى علما آخر لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث لا يدري وجهته وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني وأنا في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثله قط فرفعه الله الي لانظر اليه فما سألوني عن شئ الا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل جعد كأنه من رجال شنوأة واذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأني بالسلام وعن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش قمت الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس وذكر الحديث وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره (فان قيل) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي الانبياء بعد الموت وهم في دار الآخرة (اجيب) بان صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل أن الله تعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى أراه اياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما رؤيته موسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما حكم صلاة الانبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل هم أفضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء بعد الموت أولى وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها بالذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله تعالى خصهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بحقائق الامور وروى عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج بقصته قال فاذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال ما هذان يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به في السماء فاذا هو

بل بيان تدرجه
وقاله في الكهف بذكره
ايضا لعدم ذكره قبل وبعد
وقدم اى قوله للناس على
قوله في هذا القرآن هنا لا في
الآية الثالثة اهتماما بالتمييز
المذكور وبالناس لانهم

بنهر آخر عليه خيام من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر الذى خبأ لك ربك وذكر فى آخر حديثه أنه صلى الله عليه وسلم قال فى آخر الحديث ثم علا بى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه وذكرت عائشة ان الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النجم (فان قيل) قوله تعالى لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ما أراه الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض أى ملكها فيلزم أن يكون معراج ابراهيم أفضل من معراج محمد عليهما السلام (أجيب) بانه لما أضيفت تلك الآيات الى الله تعالى دل على انها أفضل مما رآه ابراهيم * (تنبيه) * قال النووى فى شرح مسلم قد جاء فى رواية شريك فى حديثه أوهام أنكرها عليه العلماء فيها منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء أقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا ٣ وقال الطبرانى كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء فى رجب ويقال فى رمضان قال النووى وأشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق ومما يدل على أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى أسرى بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو اسم للدابة وهى التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط فى الامور وتعاطى الاسباب وان ذلك لا يقدح فى التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير قال لى اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعنى فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بى حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن ان يقول أنا فلان ولا يقول أنا فقط فانه مكروه وفيه أن للسماء أبوابا وبوابين عليها حراسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفى الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان فى وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب بى الى السدرة المنتهى هكذا وقع فى هذه الرواية بالالف واللام وفى باقى الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من

قوله عليه خيام الخ هكذا فى النسخ ولعله محرف عن قوله عليه جنابذ من لؤلؤ وزبرجد اه

الاصل فى التكليف ولهذا اقتصر عليه فى غالب الآيات كقوله يا أيها الناس وقوله من بعد ما بيناه للناس وقوله الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وعكس فى الكهف لمناسبة قوله قبل

٣ قوله الطبرانى فى بعض النسخ الحربى بدله اه مصحح

المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهى اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهى اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهى الجرة الكبيرة التى تسع قربتين أو أكثر وقوله فرجعت الى ربى قال النووى معناه رجعت الى الموضع الذى ناجيته منه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربى معناه بين موضع مناجاة ربى وقوله فرض على أمتى خمسين صلاة الى قوله فوضع عنى خمسا وفى رواية شطرها وفى رواية عشرا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو أثبت من شريك والمراد حط عنى خمسا الى آخره ثم قال هى خمس وهن خمسون يعنى خمسين فى الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشئ قبل فعله وفى الحديث انه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره أيضا فى صغره وهو عند حليمة التى كانت ترضعه فالمراد بالشق الثانى زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطشت من ذهب قد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم استعمال الذهب أو لعل هذا كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها فى صدرى قد يقال الحكمة والايمان من المعانى والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك (أجيب) بانه يحتمل أنه جعل فى الطشت شئ يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما تسمى ايمانا وحكمة لكونه سببا لها وهذا من أحسن المجاز وقوله فى صفة آدم فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسره فى الحديث بانه نسم بنيه يعنى أرواح بنيه (فان قيل) أرواح المؤمنين فى السماء وأما أرواح الكفار فتحت الارض السفلى فكيف تكون فى السماء (أجيب) بأنه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو فى السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر بما رأى وقوله اذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى ففيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله فى ادريس مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح قد اتفق المؤرخون انه هو اخنوخ جد نوح فيكون جد النبى صلى الله عليه وسلم كما أن ابراهيم جده فكان ينبغى أن يقول بالنبى الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم (وأجيب) بأنه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح قاله القاضى عياض وقال النووى ليس فى هذا الحديث ما يمنع كون ادريس أبا لنبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان ابنا لان الانبياء اخوة والمؤمنون اخوة انتهى وانما أطلت فى بيان ذلك لان الكلام مع الاحبة يحلو ولولا خوف الملل ما اقتصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا أعلم فى الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التى فضل بها كافة الانبياء ما تضمنته هذه السورة ولكن فى هذا القدر كفاية لاولى الالباب * ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة وما جاءه صلى الله عليه وسلم

مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة الآية (قوله تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) ضمير فيهن عائد الى السموات والارض والتسبيح وهو التنزيه شامل للتسبيح

من الآيات البينات في هذا الوقت اليسير أتبعه ما فخ في السير من مصر الى الارض المقدسة من الآيات في مدد طوال موسى عليه الصلاة والسلام الذي كان أعظم الانبياء بركة على هذه الامة ليلة الاسراء لما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع أجر خمسين فقال (وآتينا) أي بعظمتنا (موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلناه) اى الكتاب بما لنا من العظمة (هدى لبنى اسرائيل) بالحمل على العدل في التوحيد والاحكام وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر الى بلاد المسجد الاقصى فأقاموا سائرين اليه أربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج الا المتقين الموفين بالعهد فقد بان الفضل بين الاسراءين كما بان الفضل بين الكتابين فذكر الاسراء أولا دليل على حذف مثله ثانيا[٣] فالآية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك كلمة التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى (ألا) أى لئلا (يتخذوا) على قراءة أبي عمرو بالياء على الغيبة وقرأ غيره بالتاء على ان لا تتخذوا كقولك كتبت اليه أن افعل كذا (من دوني وكيلا) أي ربا تكلون اليه أموركم وذلك هو التوحيد فلا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا نعمة أعظم من أن يصير المرء غريقا في بحر التوحيد وأن لا يعوّل في أمر من الامور الا على الله تعالى فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر في دلائل تنزيه الله وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله والى الله وقوله تعالى (ذرية) نصب على الاختصاص في قراءة أبي عمرو وعلى النداء عند الباقين أي يا ذرية (من حملنا) اى في السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت أديم السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى (مع نوح) ففي ذلك تذكير بانعام الله تعالى عليهم وانجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينه قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح لانه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك قال البقاعي لان الصحيح ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرية نوح ليعلم انهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة أخرى ثم انه تعالى أثنى على نوح حثا على الاقتداء به في التوحيد كما اقتدى به آباؤهم في ذلك بقوله تعالى (انه كان عبدا شكورا) أي مبالغا في الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه لما خلق له روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذي اطعمني ولو شاء أجاعني وفي رواية انه يسمي اذا أكل ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني واذا اكتسى قال الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني واذا احتذى قال الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه وفي رواية انه كان يقول الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأخرج عني أذاه وفي رواية انه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من مر به فان وجده محتاجا آثره به * ولما ذكر تعالى انعامه على بني اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبأنه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى (وقضينا) اى وأوحينا (الى بني اسرائيل) أي الى بني عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان أطوع أهل زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا[٣] (في الكتاب) أي التوراة التي قد أوصلناها اليهم على

[٣] قوله دليل على حذف مثله ثانيا هكذا في الاصول التي بايدينا والظاهر ان هنا سقطا والتقدير دليل على حذف مثله ثانيا وذكر ايتاء الكتاب ثانيا دليل على حذف مثله أولا الخ اه مصححه

بلسان المقال كما في المؤمنين وبلسان الحال كما في سائر الموجودات اذ كل موجود يدل على قدرته تعالى وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز عند الشافعي رضي الله عنه

[٣] قوله مثبوتا هنا وفيما يأتي قريبا القياس مثبتا لانه من أثبت الرباعي اه مصححه

لسان موسى عليه السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقوله تعالى (لتفسدن) جواب قسم محذوف ويجوز أن يجرى القضاء المثبوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال واقسمنا لتفسدن (في الارض) أى أرض الشام قاله السيوطى وقال الرازى أرض مصر ويوافق الاول قول البقاعى أى المقدسة التى كأنها اشرفها هى الارض (مرتين) اى افسادتين قال فى الكشاف اولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس ارمياء حين انذرهم بسخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم وقال البيضاوى الاولى مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقيل أرمياء وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام (ولتعلن) أى بما صرتم اليه من البطر النسيان للنعم (علوا كبيرا) بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم (فاذا جاء وعد اولاهما) اى أولى مرتى الفساد وهو الوقت الذى حددناه لهم الانتقام فيه (بعثنا عليكم عبادا لنا) اى لا يدان لكم بهم كما قال تعالى (اولى بأس شديد) اى اصحاب قوة فى الحرب واختلف فيهم فقال فى الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر وقال ابن عباس جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وقال البيضاوى عبادا لنا بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت الخزرى وهو بخاء فزاى مفتوحتين فراء نسبة الى الخزر وهو ضيق العين وصغرها وهو الذى قتله داود وجيل من الناس وذكر الرازى فى ذلك قولين الاول أن الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هناك فى الذل الثانى ان الله تعالى ألقى الرعب من بنى اسرائيل فى قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم أزال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا فى قتلهم وافنائهم واهلاكهم وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية قال افسدوا المرة الاولى فأرسل الله عليهم جالوت فقتلهم وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر وعن ابن مسعود قال كان أول الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازى واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الاقوام بأعيانهم بل المقصود هو انهم لما أكثروا من المعاصى سلط الله عليهم أقواما فقتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى (فجاسوا) أى ترددوا لطلبكم (خلال الديار) أى وسطها للقتل والغارة قال البيضاوى فقتلوا كبارهم وسبوا اصغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية انتهى وفى ذلك تعريض بالزمخشرى فانه قال فى كشافه (فان قلت) كيف جاز ان يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه (قلت) معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وجل اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (وكان) أى ذلك البعث ووعد العقاب به (وعدا مفعولا) أى قضاء كائنا لازما لا شك فى وقوعه ولا بد ان يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد فى زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة (وأمددناكم بأموال) تستعينون بها على قتال عدوكم (وبنين) تتقوون بهم (وجعلناكم أكثر) من عدوكم (نفيرا) أى عشيرة تنفر

(ان قلت) يمنع من شموله الثانى قوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم لانه مفقوه انما (قلت) الخطاب فيه للكفار وهم لم يفقهوا تسبيح الموجودات لانهم أثبتوا لله شريكا وزوجا وولدا بل

معكم عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو * ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم لما عصوا سلط الله عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر أنهم ان أطاعوا الله فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا على أنفسهم وقد تقرر في العقول أن الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى (ان أحسنتم) أي بفعل الطاعة على حسب الامر في الكتاب الداعي الى العدل والاحسان (أحسنتم لانفسكم) اى لان ثوابه لها (وان أسأتم) بارتكاب المحرمات والافساد (فلها) أي الاساءة لان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان أسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها او فعليها كما مر مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بان ربك أوحى لها أي اليها * (تنبيه) * قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله غالبة على غضبه بدليل أنه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين فقال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان أسأتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال (فاذا جاء وعد الآخرة) أي ثانية في الافساد وهو الوقت الذي حدده الله الانتقام فيه (ليسوؤا) اى بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤا (وجوهكم) اى يجعل آثار الاساءة بائنة فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرأ الكسائي بعد اللام بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة وأما الهمزة التي بعد الواو التي بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدها والباقون بفتح الهمزة ولا مد وقوله تعالى (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا والمراد بالمسجد الاقصى الذي سقناكم اليه من مصر في تلك المدد الطوال وأعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وأمنكم ثم جعلناه محلا لاكرام أشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض بتهديد لقريش بانهم ان لم يرجعوا بدل الله أمنهم في الحرم خوفا وعزهم ذلا وأدخل عليهم جنود الاقبل لهم بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة ببركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (كما دخلوه) اى الاعداء (أول مرة) بالسيف وبقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة (وليتبروا) أي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق (ما علوا) أي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية أي مدة علوهم (تتبيرا) أي اهلاكا قال الزجاج وكل شئ جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي وذلك بان سلط عليهم الفرس مرة اخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جردون وقيل جردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلي فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقتموني فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال يا يحيى اى خطايا الدمه

هم غافلون عن أكثر الدلائل التوحيد والنبوة والمعاد (قوله اذا كنا عظاما ورفاتا الآية) أعادها بعينها آخر السورة وليس تكرارا لان الاولى من كلامهم في الدنيا حين أنكروا

قوله والا لما كذا بالنسخ والمناسب حذف والا اهـ مصحح

تدعو ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ أي سكن وقال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازي أقوال التواريخ تشهد ان بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الاقوام انتهى * ولما انقضى ذلك كان كأنه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى (عسى ربكم أن يرحمكم) يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم ثم بعد أن أطمعهم فزعهم بقوله تعالى (وان عدتم) أي الى المعصية (عدنا) أي الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى قال القفال انما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى (وجعلنا) أي بعد ذلك بعظمتنا (جهنم) أي التي تلقى داخلها بالتجهم والكراهة (للكافرين) وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى (حصيرا) يحتمل أن يكون فعيلا بمعنى الفاعل أي جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أي جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد ينقلب بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما بطريق آخر وأما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا * ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبني اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه منه في سبب مسيره اليه في ذلك ووصفه بثلاثة أنواع من الصفات الاولى قوله تعالى (ان هذا القرآن) أي الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس (يهدي للتي) أي الى الطريق التي (هي أقوم) أي أصوب من كل طريق فقوله تعالى للتي هي أقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح أن يقدر الملة والشريعة أي يهدي الى الملة والشريعة التي هي أقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله تعالى ادفع بالتي هي احسن وقيل الى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا اله الا الله * (تنبيه) * لفظ أفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أي الله الكبير وكقولنا الاشج والناقص أعدلا بني مروان فأقوم يحتمل أن يكون كذلك وأن يبقى على ظاهره * الصفة الثانية قوله تعالى (ويبشر المؤمنين) أي الراسخين في هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله (الذين) أي يصدقون ايمانهم بأنهم (يعملون) أي على

البعث والثانية من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وانكارهم البعث فقال مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا الآية وقال هذا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وفي الكهف ذلك

سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم (الصالحات) من التقوى والاحسان (أن لهم أجرا كبيرا) هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة (فان قيل) قال هنا أجرا كبيرا وفي الكهف أجرا حسنا (أجيب) بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما * الصفة الثالثة قوله تعالى (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا) أي أحضرنا وهيأنا (لهم عذابا أليما) وهو النار في الآخرة وهو عطف على أن لهم أجرا كبيرا والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم نظيره قولك بشرت زيدا بانه سيعطى وبان عدوه سيمنع (فان قيل) كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب (أجيب) بان هذا مذكور على سبيل التهكم أو انه من باب اطلاق أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أو على يبشر باضمار يخبر (فان قيل) هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة (أجيب) بان أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبان بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم والانسان قد يقدم على ما لا فائدة فيه بينه بقوله تعالى (ويدع الانسان بالشر) عند ضجره على نفسه وأهله وماله (دعاءه) اى مثل دعائه (بالخير) ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك روى أنه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فاقبل يئن في الليل فقالت له مالك فبكى وشكا ألم القد فارخت كتافه فهرب فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فاعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله تعالى يدها فندم النبي صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما أنا بشر أغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له وقيل المراد النضر بن الحرث حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فاجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد أن محمدا كاذب فيما يقول وقيل المراد أن الانسان قد يبالغ في الدعاء طالبا الشيء قد يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشيء منبع لشره وضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها كما قال تعالى (وكان الانسان) أي الجنس (عجولا) أي يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط *(تنبيه)* حذفت واو ويدع أي التي هي لام الفعل خطا في جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا في العربية لكنها لما كانت لا تظهر في اللفظ حذفت في الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المنادي فما تغن النذر قال الفراء ولو كانت ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازي أقول هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء في أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتها في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف

جزاؤهم جهنم بما كفروا اكتفاء هنا بالاشارة ولتقدم ذكر جهنم وهي وان تقدمت في الكهف لم يكتف بالاشارة بل جمع بينها وبين العبارة لاقتران الوعيد بالوعد

فيه بقدر فهمه وقوة عقله * ولما بين تعالى ما أوصل من نعم الدين وهو القرآن أتبعه بما أوصل إليهم من نعم الدنيا فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به إلا بهاتين الآيتين (فمحونا) أي بعظمتنا الباهرة (آية الليل) أي طمسنا نورها بالظلام لتسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب إذا محي (وجعلنا) بما لنا من القدرة (آية النهار مبصرة) أي مبصرا فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقل من نور إلى ظلمة ومن الظلمة إلى النور كما أن الإنسان بجملته التي يدعو إليها طبعه وتأنيه الداعي إليه عقله من انتقال من نقصان إلى كمال ومن كمال إلى نقصان كما أن القمر الذي هو أنقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى أن الله تعالى أمر جبريل فأمر بجناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور وسأل ابن الكواء عليا رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر قال هو أثر المحو *(تنبيه)* المراد من الآيتين نفس الليل والنهار فالإضافة للبيان أي أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا أما الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام وهو من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين بذاتهما بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين في الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا إما الشمس والقمر وإما تكوير هذا على هذا وهذا على هذا * ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على ذلك بقوله تعالى (لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا شديدا (فضلا من ربكم) أي المحسن إليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا أخرى (ولتعلموا) بفصل هذا عن هذا (عدد السنين والحساب) لأن الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والأيام والشهور والسنين والعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهي الشهور والأيام والساعات وبعد هذه المراتب الأربعة لا يحصل إلا التكرار كما أنهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والألوف وليس بعدها إلا التكرار * ولما ذكر تعالى أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وقد ذكر تعالى في آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وتبيانا كاملا فلا جرم قال تعالى (وكل شيء) أي لكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) أي بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء وكقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تدمر كل شيء بأمر ربها وإنما ذكر تعالى تفصيلا لأجل توكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقا * ولما بين تعالى أنه أوصل إلى الخلق أصناف

بالملذات في قوله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ليكون الوعد والوعيد ظاهرين للمستفيدين (قوله ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)

الاشياء النافعة لهم في الدنيا والدين مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجود النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن اعماله وأقواله كما قال تعالى (وكل انسان ألزمناه) أي بعظمتنا (طائره) أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى شر اعتبروا أحوال الطير وهو انه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشئ باسم لازمه فقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه أي وكل انسان ألزمناه عمله (في عنقه) الذي هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلي في العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل في عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من مولود يولد الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد قال الرازي والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك المقدار وأن ينحرف عنه بل لا بد وأن يصل اليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى ألزمناه طائره في عنقه كناية عن كل ما قدره الله ومضى في علمه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة انتهى ملخصا ثم قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا) أي مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ لك سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وقوله تعالى (يلقاه منشورا) صفتان للكتاب وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته كذا أي استقبلته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف وأمال الالف بعد القاف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح • ثم انه اذا لقي كتابه يوم القيامة يوم العرض قيل له (اقرأ كتابك) أي بنفسك (كفى بنفسك اليوم) الذي تنكشف فيه الستور وتظهر جميع الامور (عليك حسيبا) أي حاسبا بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته أميا كنت أو قارئا ولا ترى فيه زيادة ولا نقصانا ولا تقدر أن تنكر منه حرفا وان أنكره لسانك شهدت عليك اركانك فيا لها من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدي يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (فان قيل) قد قال تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع في ذلك (أجيب) بان المراد بالحسيب هنا الشهيد أي كفى بشخصك اليوم شاهدا

(ان قلت) لم خص داود بالذكر (قلت) لانه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الانبياء وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء في زمن واحد قال تعالى وشددنا ملكه الآية

عليه أن أوان القيامة متفاوتة مختلفة في موقف يكل الله تعالى حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط بهم وفي آخر يحاسبهم هو وقوله تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان ثواب اهتدائه له لا ينجى غيره (ومن ضل فانما يضل عليها) أى اثمه عليه فلا يضر في ضلاله سواه كما قال السكاكي دلالة على ان العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله تعالى من اهتدى الى آخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد أما المجبور على احد الطرفين الممنوع عن الطرف الثاني فهذا لا يليق به هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله تعالى (ولا تزر) أى نفس (وازرة) أى آثمة أى لا تحمل (وزر) نفس (أخرى) بل انما تحمل وزرها فقط (فان قيل) وردت أن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم فاذا لم يوف يؤخذ من سيآت المظلوم وتطرح على الظالم (أجيب) بأن ذلك بسببه فهو كفعله (فان قيل) فقد وردت ان الميت يعذب ببكاء أهله (أجيب) بأن ذلك محمول على ما اذا أوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد

اذا مت فانعيني بما أنا أهله * وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك (فان قيل) ذنب الميت فيما اذا أوصى أو أمر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه (أجيب) بأن الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سيئة الخ وقال الشيخ أبو حامد ان ماذكر محمول على الكافر وغيره من أهل الذنوب ثم قال تعالى (وما كنا) أى على ما لنا من القدرة (معذبين) أحدا (حتى نبعث رسولا) يبين له ما يجب عليه فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا أمر قد تحقق بارسال آدم عليه السلام ومن بعده من الانبياء الكرام عليهم السلام في جميع الامم قال تعالى ولقد أرسلنا في كل أمة رسولا وقال تعالى وان من أمة الا خلا فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت (فان قيل) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله تعالى وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستحقاقهم العذاب لاغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لاغفال الشرائع التي لا سبيل اليها الا بالتوقيف والعمل بها لا يصح الا بعد الايمان (أجيب) بأن بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا انا كنا عن هذا غافلين فهلا بعثت الينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل وفي الآية دليل على أن لا وجوب قبل الشرع * (فائدة) * في حكم أهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة * فأما السعداء فقسم وحد الله تعالى بنور وجده في قلبه كقس بن ساعدة فانه كان يقول اذا سئل هل لهذا العالم اله البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذي لا يقدر على دفعه وقسم ألقى في نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به في عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع في كتب الانبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذي أرسل اليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران * وأما الاشقياء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد

وقال يا داود انا جعلناك خليفة في الارض الآية (ان قلت) لم ذكر الزبور هنا وعرفه في قوله ولقد كتبنا في الزبور (قلت) يجوز أن يكون الزبور من الاعلام التي تستعمل بال وبدونها

وقسم عطل بعد ما أثبت لا عن استقصاء بنظر وقسم أشرك عن تقليد محض وقسم علم الحق وعانده * واما الذي تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجوده عن نظر قاصر لضعف في مزاجه وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه وقسم عطل بعد ما أثبت لا عن نظر بلغ فيه أقصى القوة هكذا قسم محيي الدين بن عربي في الباب العاشر من الفتوحات المكية نقل ذلك عنه شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراني ونقل عن السيوطي ان أبوي النبي صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة قال وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية في الفقه والاشاعرة في الاصول ونص على ذلك الامام الشافعي رضي الله عنه وتبعه على ذلك الاصحاب قال السيوطي وقد ورد في الحديث أن الله تعالى أحيا أبويه حتى آمنا به وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي وأبو القاسم بن عساكر وأبو حفص بن شاهين والسهيلي والقرطبي والطبري وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدين الدمشقي والصفدي وغيرهم والاولى لنا الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الامر في ذلك الى الله تعالى ونقول كما قال النووي لما سئل عن طائفة ابن عربي تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون * ولما أشار تعالى الى عذاب المخالفين قرر أسبابه وعرف أنها بقدره وان قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى (واذا أردنا) أن نحيي قرية الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ألقينا في قلوب أهلها امتثال أوامرنا والتقييد باتباع رسلنا واذا أردنا (ان نهلك قرية) في الزمن المستقبل (أمرنا) أي بما لنا من القدرة التامة الشاملة (مترفيها) أي منعميها الذين لهم الامر والنهي قال الاكثرون أمرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله (ففسقوا فيها) أي خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا أن هذا مجاز ومعناه أنه يفتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا ولا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني وخالفني فان هذا كلام لا يفهم منه أني أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مأمورا بها مخالفا فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازي ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصاني يدل على أن المأمور به شيء غير المعصية من حيث ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله أمرته ففسق يدل على ان المأمور به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان به فكونه فسقا ينافي كونه مأمورا به كما أن كونه معصية ينافي كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام في غاية الظهور ولم أدر لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالاعمال الصالحة وهي الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق (فحق عليها القول) أي الذي توعدناهم به على

كالعباس والفضل أو نحوه
هنا يعني آتيناه بعض الزبور
وهي الكتب أو أراد به
ما فيه ذكر النبي صلى الله عليه
وسلم من الزبور فسمى بعض
الزبور زبورا كما سمى بعض
القرآن قرآنا في قوله تعالى

لسان رسولنا (فدمرناها تدميرا) أى أهلكناها باهلاك أهلها وتخريب ديارهم وخص المترفين بالذكر لان غيرهم يتبعهم ولانهم أسرع الى الحماقة وأقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا وروى الطبرانى وغيره حديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة الملقحة قال ذلك الجوهرى وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى أمرك هذا حقيرا فقال صلى الله عليه وسلم انه سيأمر أى سيكثر وسيكبر وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين اصبعيه الابهام والتى تليها قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث أى الشر وويل يقال لمن وقع فى هلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله تعالى (وكم أهلكنا) أى كثيرا من المعظمة وبين مدلول كم بقوله تعالى (من القرون) أى المكذبين (من بعد نوح) كعاد وثمود من الامم الماضية يخوف به الكفار أى كفار مكة قال عبد الله بن أبى أوفى القرن عشرون ومائة سنة وقيل مائة سنة وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى ان النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال الكلبى القرن ثمانون سنة وقيل أربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وكفى بربك) أى المحسن اليك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى عالما ببواطنها وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهدا فى العبادة فاذا خلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبير لتقديم متعلقه

* ولما قرر أنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم الى قسمين الاول قوله تعالى (من كان يريد العاجلة) أى الدنيا مقصورا عليها همه (عجلنا له فيها) أى العاجلة بأن نفيض عليه من منافعها (ما نشاء) أى من البسط والتقتير (لمن نريد) أى ان نفعل به ذلك فقيد تعالى الامر بقيدين أحدهما تقييد المعجل بارادته ومشيئته والثانى تقييد المعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثير منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة * (تنبيه) * لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير فى له باعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال ان الآية فى المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى (ثم جعلنا له جهنم يصلاها) أى فى الآخرة (مذموما) أى مفعولا به الذم (مدحورا) أى مدفوعا مطرودا مبعدا وان ذكره البيضاوى بصيغة قيل * ثم ذكر تعالى القسم الثانى وشرط فيه ثلاثة شروط الاول قوله تعالى (ومن أراد الآخرة) أى أراد بعمله ثواب الآخرة فانه ان لم ينو ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات الثانى قوله تعالى (وسعى لها سعيها) وذلك يقتضى أن يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الاوثان ولهم فيها تأويلات أحدها انهم يقولون اله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على اظهار

وقرآنا فرقناه (قوله قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) قاله هنا بالضمير لقرب مرجعه وهو الرب فى قوله وربك أعلم وقال فى سبا قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله بالاسم الظاهر لبعد مرجعه

عبوديته وخدمته ولكن غاية قدرتنا أن نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله بأن نشتغل بعبادة كوكب أو ملك من الملائكة ثم ان الملك أو الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلاجرم أنه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها أن تصير تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق أيضا فاسد فلاجرم لم ينتفع بها ثالثها أنه نقل عن أهل الهند انهم يتقربون الى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى وهذه الطريقة أيضا فاسدة فلاجرم لم ينتفع بها وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة الثالث قوله تعالى (وهو مؤمن) لان الشرط في كون أعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان فاذا لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم انه تعالى أخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى (فأولئك) أى العالو الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة (كان سعيهم مشكورا) أى مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له أبواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده فالحاصل أنها ان وجدت عند الولى لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال *(تنبيه)* كل من أتى بفعل اما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا واما أن يقصد به خيرات الآخرة واما أن يقصد به مجموعهما واما أن لا يقصد به واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين فى هذه الآية وأما القسم الثالث فينقسم الى ثلاثة أقسام اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا أو يكون الطلبان متعادلين فان كان طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه رأيان أحدهما أنه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى أنه قال أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه وأيضا طلب رضوان الله اما أن يكون سببا مستقلا لكونه باعثا لهم على ذلك الفعل وداعيا اليه واما أن لا يكون فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا أسند لسبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فيكون الداعى الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب أن يكون مغايرا لطلب رضوان الله فوجب أن لا يكون مقبولا الرأى الثانى أنه مقبول لان طلب الآخرة لما كان راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا وأما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أو كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على أنه غير مقبول الا أنه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة وأما القسم الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داع فهذا مبنى على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعى ام لا فالذين يقولون انه يتوقف على حصول الداعى قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا

والمراد
الضمير لو أتى به
فيهما قال ادعوا الذين
زعمتم وهم آلهة من دونه
الله أى غيره لينفعوكم
بزعمكم (فان قلت) كيف
قال من دونه مع ان المشركين
مازعموا غير الله الهادون

الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لانه عبث * ثم انه تعالى قال (كلا) أي من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة (نمد) اي بالعطاء ثم أبدل من كلا قوله تعالى (هؤلاء) أي الذين طلبوا الدنيا نمد (وهؤلاء) أي الذين طلبوا الآخرة نمد (من عطاء ربك) أي المحسن اليك ان ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الدانية التي انما هي لعب ولهو وان وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه (وما كان عطاء ربك) أي الموجد لك المدبر لامرك (محظورا) أي ممنوعا في الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار وأقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي المانع ثم انه تعالى أمر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا بقوله تعالى (انظر) أي أيها الانسان أو يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فأوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن آخر وأوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الآية وقال تعالى في آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات *(تنبيه)* كيف نصب اما على التشبيه بالظرف واما على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر وأبصر * ولما نبه تعالى على ان ما نراه من التفضيل انما هو بعض قدرته أخبر أن ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى (وللآخرة أكبر) أي أعظم (درجات وأكبر تفضيلا) من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فان كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى لانها دار المقامة روي أن قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني الى الاسلام فاسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة * ولما بين تعالى ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان وأشرف أجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشريك والاضداد بقوله تعالى (لا تجعل مع الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (الها آخر) قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى أنه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح أن يخاطب به (فتقعد) أي فيتسبب عن ذلك أن تقعد أي تصير في الدنيا قبل الآخرة (مذموما مخذولا) لان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان ولانه قد ثبت بالدليل أنه لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم الى غير الله فاستحق الذم والخذلان *(تنبيه)* قال الواحدي قوله تعالى فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصابه باضمار أن كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وأن الثاني

الله بل مع الله على وجه الشرك (قلت) في الكلام تقديم وتأخير تقديره قل ادعوا الذين من دون الله زعمتم انهم شركاء (قوله وما منعنا ان نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) أي

مسبب عن الاول كما تقرر * ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم في الايمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك أنواع الاول أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى ويحترز عن عبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (وقضى) أي أمر (ربك) أي المحسن اليك وقوله تعالى (ألا تعبدوا) أي أنت وجميع أهل دعوتك وهم جميع الناس (الا اياه) فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لاتليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره * (تنبيه) * روى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين وينـدفع ما قاله بما فسر تضى به * ولما أمر تعالى بعبادة نفسه أتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى (وبالوالدين) أي وأحسنوا أي وأوقعوا الاحسان بهما (احسانا) أي بأن تبروهما ليكون الله معكم فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون * (تنبيهان) * أحدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول أن السبب الحقيقي لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فامر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم أتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهري الثاني ان الوجود اما قديم واما محدث ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره ايضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وأيضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد منهما أمر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه أمر طبيعي أيضا فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي أكبر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وأيضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك الوقت واصلا الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وأيضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت بهذه الوجوه أنه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا بدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا (فان قيل) الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود دخوله

وما منعنا أن نرسل رسولا بالآيات التي اقترحها أهل مكة على النبي صلى الله عليه وسلم كجعل الصفا ذهبا وازالة جبال مكة ليزرعوها الا تكذيب الاولين بآي الآيات اقترحوها

فى عالم الآفات والمخافات فأى انعام للابوين على الولد حتى ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول هو الذى أدخلنى فى عالم الكون والفساد وعرضنى للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابى العلاء المعرى ماذا نكتب على قبرك فقال اكتبوا على قبرى هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد وقال فى ترك التزوج والولد

وتركت فيهم نعمة العدم التى * فيهم لقد سبقت نعيم العاجل
ولو انهم ولدوا لعانوا شدة * ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل لاسكندر استاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال أستاذى أعظم منة لانه تحمل أنواع الشدائد عند تعليمى فاوقعنى فى نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فاخرجنى الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك (أجيب) بانه وان كان له فى أول الامر طلب لذة الوقاع الا أن الاهتمام بايصال الخيرات اليه ودفع الآفات عنه من أول دخوله فى الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات (التنبيه الثانى) ان لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الاحسان الى الوالدين منها أنه تعالى قال فى الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا ثم أردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة ومنها انه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة منها انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها انه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم اى احسانا عظيما كاملا لان احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفى الامثال المشهورة ان البادئ بالبر لا يكافأ ولما كان سبحانه وتعالى عليما بما فى الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما فى السن قال تعالى (اما) مؤكدا بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماما بشأن الوالدين (يبلغن عندك الكبر) أى كأن يضطرا اليك فى حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله (أحدهما أو كلاهما) وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الغين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما وأحدهما بدل منه وكلاهما عطف عليه فاعلا أو بدلا (فان قيل) هلا كان كلاهما توكيدا لا بدلا (أجيب) بأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا لاثنين فوجب أن يكون مثله (فان قيل) لم لا يجوز أن يكون أحدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل (أجيب) بان العطف يقتضى المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل وقرأ الباقون بغير ألف وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء يشددون النون ثم انه تعالى أمر الانسان فى حق والديه بخمسة أشياء الاول منها قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) أى

قوله هذا جناه أبى الخ الذى فى ابن خلكان انه بيت شعر وهو

هذا جناه أبى على * وما جنيت على أحد

اه مصححه

على رسلهم لما أرسلناها فاهلكناهم ولو أرسلناها الى هؤلاء لكذبوا بها واستحقوا الهلاك وقد حكمنا بامهالهم ليتم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ولا نعجل بالعقوبة (فان قلت)

لا

لا تضجر منهما قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما أف أي لا تتقذرهما كما انهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية اخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الاحسان اليهما بتوحيده ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع احوال لا يكاد يدخل صبر الانسان معها فى الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا يقوم الى خدمتهما عن كسل وقرأ نافع وحفص بالتنوين فى الفاء مع الكسر وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين الثانى قوله تعالى (ولا تنهرهما) اى لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السائل فلا تنهر (فان قيل) المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فائدة ذكره (اجيب) بان المراد بالمنع من التأفيف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى (وقل لهما قولا كريما) اى حسنا جميلا طيبا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو ان يقول يا ابتاه يا اماه وسئل سعيد بن المسيب رضى الله عنه عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن عطاء انه قال هو ان يتكلم معهما بشرط أن لا يرفع اليهما بصره ولا يشد اليهما نظره وذلك أن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم (فان قيل) ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه انى أراك وقومك فى ضلال مبين مع انه عليه السلام من أعظم الناس أدبا وحلما وكرما (أجيب) بأن حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى والرابع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى لا من أجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من أجل الرحمة لهما بان لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهى وبما تقدم لهما من الاحسان اليك والمقصود المبالغة فى التواضع وهذه استعارة بليغة قال القفال وفى تقريره وجهان الاول ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثانى أن الطائر اذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع واذا اراد ترك الطيران خفض جناحيه فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين (فان قيل) كيف اضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له (أجيب) بوجهين الاول أنه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذا هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثانى أن مدار الاستعارة على الخيلان فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما فى قوله

كيف قال وما منعنا الى آخره مع انه تعالى لا يمنعه عن ارادته مانع (قلت) المنع هنا مجاز عن الترك كأنه قال وما سبب ترك الارسال بالآيات الا التكذيب الاولين (قوله وآتينا ثمود

وغداة ريح قد كشفت وقرة * اذ اصبحت بيد الشمال زمامها

فاثبت للشمال يدا وللقرة زماما ووضع زمامها في يد الشمال فكذا هنا ومن ظريف ما حكى أن أبا تمام لما نظم قوله

لا تسقني ماء الملام فانني * صب قد استعذبت ماء بكائي

جاءه رجل بقصعة وقال له أعطني شيئا من ماء الملام فقال له حتى تأتيني بريشة من جناح الذل يريد أن هذا مجاز استعاره لذلك وقال بعضهم

راشوا جناحي ثم لوه بالندى * فلم أستطع من حبهم أن أطيرا

الخامس قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) أي لا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك وهذا اذا كانا مسلمين فان كانا كافرين فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ بقوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى بل يدعو والله تعالى لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسئل بعضهم عن بر الوالدين فقال لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداثهما من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه *(تنبيه)* قد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها ما روى عن أبي هريرة انه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحسن الناس بصحبتي فقال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فادناك ٣ ومنها عنه أيضا أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روى عنه أيضا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزى ولد والدا الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال أحي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها ما رواه الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين ومنها ما روى عن أبي الدرداء أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فاحفظ ان شئت أو ضيع ومنها ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك واصل اليه ولا شئ أنفع لهم من الاستغفار ولو كان شئ أفضل منه لأمركم به في الوالدين ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ما روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما ومنها ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

(ناقة مبصرة) أي دالة كما يقال الدليل مرشد وهاد (فان قلت) ما وجه ارتباط هذا بما قبله (قلت) لما أخبرنا بان الاولين كذبوا بالآيات المقترحة بين منها ناقة صالح لان آثار ديارهم

٣ قوله من أحسن الناس الخ هكذا بالاصول التي بأيدينا والذي في صحيح مسلم من أحق الناس بحسن الصحبة قال امك ثم أمك ثم امك ثم اباك ثم ادناك ادناك وذكر روايات اخرى ليس منها هذه الرواية فليحرر لفظ الحديث اه مصححه

قوله أنفع لهم هكذا في الاصول ولو جرى على ما قبله لافرده لانه راجع الى الاموات المفهومين من الميت اه

رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ما روى ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وانه يأخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وانا قوي وفقيرا وانا غني فكنت لا امنعه شيأ من مالي واليوم انا ضعيف وهو قوي وانا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع بهذا الا بكى ثم قال للولد انت ومالك لابيك وشكا اليه آخر سوء خلق امه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة اشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين ارضعتك حولين قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها واظمأت لك نهارها قال لقد جازيتها قال ما فعلت قال حججت بها على عنقي قال ما جزيتها وعن ابن عمر انه رأى رجلا في الطواف يحمل امه ويقول

انا لها مطية لا تذعر * اذا الركائب نفرت لا تنفر
ما حملت وارضعتني اكثر * الله ربي ذو الجلال الاكبر

تظنني جزيتها يا ابن عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة * ولما كان ما ذكر في حق الوالدين عسرا جدا يحذر من التهاون به اشار بقوله تعالى (ربكم) اى المحسن اليكم في الحقيقة فانه هو الذي عطف عليكم من يربيكم وهو الذي اعانهم على ذلك (اعلم) اى من كل احد (بما في نفوسكم) من قصد البر بهما وغيره فلا يظهر احدكم غير ما يبطن فان ذلك لا ينفعه ولا ينجيه الا ان يحمل نفسه على ما يكون سببا لرحمتهما (ان تكونوا صالحين) اى متقين محسنين في نفس الامر والصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه * واشار تعالى الى انه لا يكون ذلك الا بمعالجة النفس وترجيعها كرة بعد كرة بقوله تعالى (فانه كان للاوابين) اى الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح أنفسهم عنه (غفورا) اى بالغ الستر لمن وقع منه تقصير فرجع عنه فانه صفة ورد له * ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عم بالامر بالاحسان لكل ذي قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى (وآت ذا القربى) من جهة الاب والام وان بعد (حقه) والخطاب لكل أحد أن يؤتي أقاربه حقوقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محتاجين ومحاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند الامام أبي حنيفة وقال الشافعي لا يلزم الا نفقة الوالد على ولده والولد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (و) آت (المسكين) حقه وان لم يكن قريبا (و) آت (ابن السبيل) وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقيا محسنا * ولما رغب تعالى في البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط أتبع ذلك بقوله تعالى (ولا تبذر) بتفريق المال سرفا وهو بذله فيما لا ينبغي وقد كانت الجاهلية تبذر أموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها فأمر الله تعالى بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف اليه وفي قوله تعالى (تبذيرا) تنبيه على أن الارتفاع نحو ساحة التبذير أولى من الهبوط الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حسب الهوى وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه وأما الجود فهو اتباع أمر الله تعالى في حقوق المال وعن مجاهد لو أنفق الانسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا

اليمامة باقية في بلاد العرب قريبة من حدودهم يصيرها اصادرهم وواردهم

(قوله فظلموا بها) أى بالناقة لان الباء ليست للتعدية لان الظلم يتعدى بنفسه فالمعنى فظلموا أنفسهم بقتلها أى

وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد قال أوفي الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين بقوله تعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أي على طريقتهم أوهم اخوانهم وأصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف أوهم قرناؤهم وهم في النار على سبيل التوعد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى (وكان الشيطان) أي هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر (لربه) أي الذي أحسن اليه بايجاده وتربيته (كفورا) أي ستورا لما يقدر على ستره من آياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الجنة فلا ينبغي أن يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح أفعالهم في هذا الباب وقوله تعالى (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) نزل في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب وكانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه أن يأتيه فيعطيه (فقل لهم) أي في حالة الاعراض (قولا ميسورا) أي ذا يسر بشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك أقرب الى طريق المتقين المحسنين قال أبو حيان روي انه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله انتهى وقد وقع هذا الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب ثم امر تعالى نبيه بما وصف له عباده المؤمنين في الانفاق في سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى (ولا تجعل يدك) أي بالبخل (مغلولة) أي كأنها بالمنع مشدودة بالغل (الى عنقك) أي لا تستطيع مدها أي لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط (ولا تبسطها) بالبذل (كل البسط) فتبذر بحيث لا يبقى في يدك شيء ذكر الحكماء في كتب الاخلاق أن لكل خلق طرفي افراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط في الامساك والتبذير افراط في الانفاق وهما مذمومات والمعتدل هو الوسط وعن جابر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبي فقال يا رسول الله ان أمي تستكسيك درعا أي قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبي من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف أي أخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة يظهر لنا فيها درع فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل له ان أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزع قميصه فأعطاه وقعد عريانا أي في ازار ونحوه فأذن بلال بالصلاة فانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك

بعينه (قوله وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها) ان ... هذا ... لا ... وما منعنا أن نرسل بالآيات وقوله قبل بالآيات (قلت) يدل على عدمه اراد بالآيات هنا العجب

ولا تبسطها كل البسط فتعطى جميع ما عندك * (تنبيه) * ما ذكره عن جابر تبعا الكشاف والبيضاوى والرازى وغيرهم قال الولى العراقى لم أقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ (فتقعد) اى توجد كالمقعد (ملوما) أى بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه عند نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية (محسورا) اى منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال القفال شبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كانه مطية تحمل الانسان الى آخر الشهر والسنة كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا أنفق مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر فى أقل منه بقى فى وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم فى مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ان ربك) أى المحسن اليك (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) البسط دون غيره (ويقدر) اى يضيقه سواء قبض يده أم بسطها الان الرب هو الذى يربى المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح فى الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء (انه كان بعباده خبيرا) أى بالغ الخبر (بصيرا) أى بالغ البصر عما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت فى انه ربى العباد ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا يعلمها العبد فسبحان المتصرف فى عباده كيف يشاء * ولما أتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما تبع ذلك أوصى بالفروع بقوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم) فذكرهم بلفظ الولد الذى هو داعية الى الحنو والعطف (خشية املاق) أى فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استئنافا بقوله تعالى (نحن نرزقهم واياكم) فقدم ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا من الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو أعم منه فقال تعالى (ان قتلهم) أى مطلقا لهذا أو لغيره (كان خطأ) أى اثما (كبيرا) أى عظيما وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومد بعدها مدا متصلا وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مد بعد الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرمانى الخطء بكسر ثم سكون لا يكون الا تعمدا الى خلاف الصواب والخطأ أى محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور أحدها أنهم فى غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافأة لما صدر منهما من أنواع البر الى الولد الثانى أن امتناع الآباء من البر بالاولاد يقتضى خراب العالم الثالث أن قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهى من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد فى الروح وقسوة فى القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله تعالى فى الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة عليهم وأيضا كانوا يخافون أنهن بعد كبرهن تفقد أكفاؤهن فيحتاجون الى انكاحهن من غير أكفاء وفى ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان

والدلالات وفيه تبل الآيات والشعرة المقترحة (قوله والشعرة المعونة فى القرآن) * ان قلت ليس فى القرآن امن شعرة (قلت) فيه اشعار بتقديره والشعرة المعونة المذكورة

الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضا في العاجزين من البنين وكما أنه سبحانه وتعالى يفتح أبواب الرزق على الذكور فكذلك على الاناث ٭ ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من الاسراف أتبعه به فقال تعالى (ولا تقربوا الزنا) أدنى قرب ولو بفعل شئ من مقدماته وانما أتى تعالى بالقرب بان تعظيما لما فيه من المفاسد المارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في ايجاد نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التقبيح لما للنفس من شدة الداعية اليه (انه كان فاحشة) أي فعلة ظاهرة القبح زائدته وقد تقدم احكم الله تعالى عن الفحشاء في قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء الآية (وساء) أي وبئس الزنا (سبيلا) أي طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) أي بالاسلام والعهد (الا بالحق) وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه أو زنى بعد احصانه أو قتل نفسا بغير حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين آخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه أم لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا واختلف الفقهاء في أشياء غير ذلك منها ان تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعي يقتل بشروط معلومة وعند أبي حنيفة لا يقتل التارك كالزاني ومنها أن عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب قتل الفاعل كالزاني وعند أبي حنيفة لا يوجبه ومنها أن الساحر اذا قال قتلت فلانا بسحري عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجبه وعند أبي حنيفة لا يوجبه ومنها أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعي يوجب وعند أبي حنيفة لا يوجب ومنها أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه في زمان أبي بكر رضي الله عنه ومنها أن اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكرنا أدلة يستدل بها رضي الله تعالى عنهم أجمعين ثم قال تعالى (ومن قتل مظلوما) أي بأي ظلم كان من غير أن يرتكب ما يبيح قتله (فقد جعلنا لوليه) أي سواء كان قريبا أم بعيدا (سلطانا) أي أمرا متسلطا به وقوله تعالى (ولا يسرف في القتل) قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب أي أيها الولي والباقون بالياء على الغيبة أي الولي وفسر الاسراف بوجوه الاول ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان أولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده الثاني ان الاسراف هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون أشرف القاتل ثم يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث ان الاسراف هو ان لا يكتفي بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع أعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة هذه المعاني مشتركة في كونها اسرافا واختلف في رجوع الهاء الى ماذا في قوله تعالى (انه كان منصورا)

في القرآن أو ومشاها الملعون آكلوها وهم الكفرة أو الملعونة بمعنى المذمومة وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى ان شجرت الزقوم طعام الاثيم وبقوله تعالى طلعها

فقال مجاهد راجعة الى المقتول فى قوله تعالى ومن قتل مظلوما اى ان المقتول منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة لولى المقتول اى انه منصور على القاتل باستيفاء القصاص أو الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع فى الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم اى ان القاتل يكتفى منه باستيفاء القصاص ولا يطالب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى فى تحريم طلب الزيادة منه أو انه اذا عوقب فى الدنيا بازيد مما فعل نصر فى الآخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق * ولما ذكر تعالى النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم بقوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم) عبر بالقربان الذى هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو أبلغ من قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا وفى تفسير قوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) وجهان الاول الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره الثانى روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج أكل بالمعروف واذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه والولى يبقى ولايته على اليتيم (حتى يبلغ أشده) وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم * ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة أشياء وهى الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر الاول قوله تعالى (وأوفوا بالعهد) اى اذا عاهدتم الله تعالى على فعل المأمورات وترك المنهيات أو الناس على فعل أو قول جائز وفى تفسير قوله تعالى (ان العهد كان مسؤلا) وجوه الاول ان يراد ان صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسئل القرية ثانيها ان العهد كان مسؤلا اى مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى ثالثها ان يكون هذا تخييلا كان يقال للعهد لم نكثت وهلا أوفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة باى ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثانى قوله تعالى (وأوفوا الكيل اذا كلتم) اى لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم توفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى (وزنوا) اى وزنا متلبسا (بالقسطاس) اى ميزان العدل الذى هو أقوم الموازين وزاد فى تأكيد معناه فقال (المستقيم) دون شئ من الحيف * (تنبيه) * القسطاس رومى عرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لان الاعجمى اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم فى الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بكسر القاف والباقون بضمها (ذلك) اى الامر العالى الرتبة الذى أخبرناكم به من الايفاء بالتمام والكمال (خير) لكم فى الدارين الدنيا والآخرة من التطفيف بالكيل أو الوزن من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة وان تراءى لكم ان التطفيف خير (وأحسن تأويلا) اى عاقبة فى الدارين اما فى الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان

كأنه رؤس الشياطين أو الملعونة بمعنى المبعدة لان اللعن لغة الطرد والابعاد وهذه الشجرة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة لانها فى قعر جهنم وهذا الابعاد مذكور

القليل وكم رأينا من الفقراء من اشتهر واعتقد الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتأويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وأفعل التفضيل هنا لاستعمال النصفة بارخاء العنان اى على تقدير ان يكون في كل منهما خير فهذا المعنى الذى ذكرناه أزيد خيرا والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون * ولما شرح الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهى فنهى عن ثلاثة أشياء أولها قوله تعالى (ولا تقف) اى لا تتبع أيها الانسان (ما ليس لك به علم) من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهى عن القذف وقيل المراد النهى عن الكذب وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم وتقليد أسلافهم لان الله تعالى نسبهم في تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه يقال خلفه وهو في معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال رواه الطبرانى وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة أهل النار وقال الكميت

ولا أرمى البرىء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان قفينا

بيناء قفينا للمفعول والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد *(تنبيه)* يقال قفوت أثر فلان أقفو اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لانها البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقدام الناس أو آثار أقدامهم ويستدلون بها على أحوال الناس وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمى القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان فان مشى يتبعه ويقفوه (فان قيل) ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم (أجيب) بان ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا أم ظنيا واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل في مسائل كثيرة منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وارش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن ومنها الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظن ومنها بعث الحكمين في الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها ان الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ويبنى على هذا الظن أحكام كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن ثم علل تعالى النهى مخوفا

في القرآن بقوله تعالى
انها شجرة تخرج في أصل
الجحيم (قوله أرأيتك هذا
الذى كرمت على) قال هنا
بتكرير الخطاب كنظيره
في أرأيتكم في الانعام
لدلالته على ان المخاطب به

بقوله تعالى (ان السمع والبصر) وهما طريقا الادراك (والفؤاد) الذى هو آلة الادراك ثم هو ل تعالى الامر بقوله تعالى (كل أولئك) اى هذه الاشياء العظيمة العالية النافع البديعة التكوين *(تنبيه)* أولاء وجميع أسماء الاشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الايام

يجوز فى ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى اى بعد مفارقتها والاضافة فى منزلة اللوى للبيان وهو ممدود لكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان له (كان عنه) اى بوعد لا خلف فيه (مسؤلا) بسؤال يخصه *(تنبيه)* ظاهر الآية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول ان معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسئل القرية اى أهلها والمعنى انه يقال للانسان لم سمعت مالم يحل سماعه ولم نظرت مالم يحل نظره ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه الثانى ان تقدير الآية ان أولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفى الطاعة أم فى المعصية وكذا القول فى بقية الاعضاء وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها فى مصالحها فان استعملها فى الخيرات استوجب الثواب وان استعملها فى المعاصى استحق العقاب الثالث ان الله تعالى يخلق الحياة فى الاعضاء ثم انها تسئل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحياة والنطق فى هذه الاعضاء ثم انها تسئل وروى عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى ومن شر بصرى ومن شر لسانى ومن شر قلبى ومن شر منيى قال فحفظتها قال سعد المنى ماؤه * النهى الثانى قوله تعالى (ولا تمش فى الارض) اى جنسها (مرحا) اى ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الآية النهى عن ان يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج ولا تمش فى الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال تعالى فى سورة لقمان واقصد فى مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهى عن ذلك بقوله تعالى (انك لن تخرق الارض) اى تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك (ولن تبلغ الجبال طولا) اى بتطاولك وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيأ ليس فى التذلل وفى ذلك اشارة الى ان العبد ضعيف لا يقدر على خرق أرض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكانه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى وقيل ذكر ذلك لان من مشى مختالا يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال

أمر عظيم وهو هنا كذلك لانها عند الله فمن يقوله لا يتمكن ذريته الا قليلا اغواء اكثرهم (قوله فمن أوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا) ان قلت لم خصهم

طولا انمشيت على صدرو رقدميك قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى (كل ذلك) اشارة الى مانهى عنه عما تقدم فان الذى تقدم منهيات ومأمورات و جملة ذلك من قوله تعالى لاتجعل مع الله الها آخر الى هنا خمسة وعشرون وها أنا أسردها لك تسهيلا عليك فاولها لاتجعل مع الله الها آخر وثانيها وثالثها وقضى ربك أن لاتعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهى عن عبادة غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلاتقل لهما أف سادسها ولاتنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادى عشرها والمسكين ثانى عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولاتبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولاتبسطها كل البسط سابع عشرها ولاتقتلوا أولادكم ثامن عشرها ولاتقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلايسرف فى القتل حادى عشريها وأوفوا بالعهد ثانى عشريها وأوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولاتقف ماليس لك به علم خامس عشريها ولاتمش فى الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها أوامر وبعضها نواه فالنهى عنه هو الذى قال تعالى فيه (كان سيئه عند ربك مكروها) أى يبغضه والعاقل لايفعل مايكرهه المحسن اليه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر أى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وأما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وأنث حملا على معنى كل ثم قال مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشرى ان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيأ الاترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلاتفرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث وفى نصب مكروها أوجه أحدها أنه خبر ثان لكان الثانى أنه بدل من سيئة وضعف بان البدل بالمشتق قليل الثالث أنه حال من الضمير المستتر فى عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع أنه نعت لسيئة وانما ذكر وصف سيئة لان تأنيثه وتأنيث موصوفه مجازى ورد بان ذلك انما يجوز حيث أسند الى المؤنث المجازى أما اذا أسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الاحكام المتقدمة فى الاوامر والنواهى (مما أوحى اليك) يا أشرف الخلق (ربك) أى المحسن اليك (من الحكمة) التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فالآتى بمثل هذه الشريعة لايكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه يكون داعيا الى دين الرحمن

بذلك مع ان اصحاب الشمال كذلك (قلت) لان اصحاب الشمال اذا نظروا الى ما فى كتابهم من الفضائح والقبائح اخذهم من الحياء والخجل والخوف

الثانى ان هذه الاحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار الثالث ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مرت الاشارة اليه فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان الاشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى فاتحتها قوله تعالى لا تجعل مع الله الها آخر وخاتمتها قوله تعالى (ولا تجعل مع الله الها آخر) تنبيها على ان التوحيد مبدأ الامور ومنتهاها وان من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وانه رأس الحكمة وملاكها ورتب عليه ما هو عائدة الشرك فى قوله تعالى أولا لا تجعل مع الله أى فى الدنيا وثانيا ما هو نتيجته فى العقبى فقال (فتلقى) أى فيفعل بك فى الآخرة فى الحشر (فى جهنم) من الاسراع فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من على حال كونك (ملوما) أى تلوم نفسك (مدحورا) أى مبعدا من رحمة الله * (تنبيه) * ذكره سبحانه وتعالى فى الآية الاولى بقوله تعالى مذموما مخذولا وفى هذه الآية ملوما مدحورا والفرق بين الذم واللوم هو أن يذكر له ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه فهذا هو اللوم فاول الامر يصير مذموما وآخره يصير ملوما والفرق بين المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه اى ضعفت والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته فيصير أول الامر مخذولا وآخره مدحورا وقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله والهمزة للانكار أى أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بافضل الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه (واتخذ من الملائكة اناثا) أى بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه معقولكم وعادتكم فان العبيد لا يستأثرون باجود الاشياء واصفاها من الشوائب ويكون أردؤها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الابعاض والاجزاء وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود لذاته وأيضا بتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا أشرف القسمين لانفسهم وأخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم وأيضا جعلوا الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها على أعلاها اناثا فى غاية الرخاوة * ولما كان فى هذا من البيان ما لا يخفى على انسان ولم يرجعوا اشار الى أن اهمال مثل هذا الاعراض عن امثال هذا البيان فقال تعالى (ولقد صرفنا) أى بينا بيانا عظيما بانواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام فى قوالب الوعد والوعيد والامر والنهى والمحكم والمتشابه الى غير ذلك (فى هذا القرآن) أى فى مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل قيل لفظة فى زائدة كما فى قوله تعالى وأصلح لى فى ذريتى ورد بان فى لا تزاد وما ذكر متأول كما يأتى ان شاء الله تعالى فى الاحقاف والتصريف لغة صرف الشئ

بما يوجب انقباض المنعم عن اقامة المعروف فى تكون قراءتهم كالاقراءة وامر اصحاب اليمين على العكس واما قوله تعالى ولا يظلمون فتيلا فهذا الى كل الناس لا الى اصحاب

جهة الى أخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله أبو حيان وقوله تعالى (ليذكروا) متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما (وما يزيدهم) أى التصريف (الا نفورا) أى تباعدا عن الحق وقلة طمأنينة اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادني ذلك لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا * ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء المشركين ولا تيأس من رجوع بعضهم (لو كان معه آلهة كما تقولون) من هذه الاقوال التى لو قالها أعظمكم فى حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها الصارفة لكة للعباد (اذا لابتغوا) أى طلبوا طلبا عظيما (الى ذى العرش) أى صاحب السرير الاعظم المحيط الذى من ناله كان منفردا بالتدبير (سبيلا) أى طريقا سالكا يوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض أو ليتخذوا عنده يدا تقربهم اليه وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وادغم ابو عمرو الشين من العرش فى السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل (سبحانه) اى تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة نقص (وتعالى) اى علا اعلى العلو بصفات الكمال (عما يقولون) اى من هذه النقائص التى لا يرضاها لنفسه احد من عقلاء خلقه (علوا) اى تعاليا (كبيرا) اى متباعدا غاية البعد عما يقولون فانه تعالى فى اعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجوب والبقاء لذاته *(تنبيه)* جعل العلو مصدر التعالى ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا (فان قيل) ما الفائدة فى وصف ذلك العلو بالكبير (اجيب) بان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت فى القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغنى والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استأنف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال (تسبح) اى توقع التنزيه الاعظم (له) اى الاله الاعظم الذى تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة (السموات السبع والارض) اى السبع (ومن فيهن) اى من ذوى العقول (وان) اى وما واغرق فى النفى فقال (من شئ) اى ذى عقل او غيره (الا يسبح بحمده) اى يقول سبحان الله العظيم وبحمده او يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شئ حى الا يسبح بحمده وقال قتادة يعنى الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقداد بن عدى التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطى فى جواب سؤال عن ذلك

قد خصصت آية الاسرى بمتصف * وصف الحياة كرطب الزرع والشجر
فيابس مات لا تسبيح منه كذا * ما زال عن موضع كالقطع للحجر

المشاهدة وانما خصهم بذلك لانهم يعلمون انهم لا يظلمون ويعتقدون ذلك بخلاف اصحاب الشمال فانهم يعتقدون او يظنون انهم يظلمون (قوله وما منع الناس أن)

وقال ابراهيم النخعي وان من شيء جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله تعالى حيوانا كانت أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ما روى عن ابن مسعود كنا نعد الآيات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين اصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم على ليالى بعثت انى لاعرفه الآن وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفي رواية نزل فاحتضنه وساره بشيء ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض اهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكانها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول أصح وهو المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول أصح لما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف قال البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي ان يوكل علمه اليه (ولكن لا تفقهون) أي لا تفهمون (تسبيحهم) أي لانه ليس بلغتكم (انه كان حليما غفورا) ولما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى (واذا قرأت القرآن) أي الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شيء (جعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة فالمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى كان وعده مأتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا عن أعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روى عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت تبت يدا ابى لهب جاءت امرأة ابى لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع ابى بكر رضى الله عنه فلم تره فقالت لابى بكر اين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به رأسه فقال ابو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (على قلوبهم أكنة) اى اغطية كراهة (أن يفقهوه) أي يفهموه أي يفهموا القرآن حق فهمه (وفي آذانهم وقرا) اى شيأ ثقيلا يمنع سماعهم وعن اسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ومعه ابو بكر اذ اقبلت امرأة ابى لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول مذمما ابينا ودينه قلينا وأمره عصينا فقال أبو بكر يا رسول الله معها فهر اخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت وما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت انى رأيت قريشا قد علمت انى ابنة سيدها وان صاحبك هجاني فقال ابو بكر لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ما هجاك وروى ابن عباس ان أبا سفيان والنضر بن الحرث وابا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوما

يؤمنوا ادبارهم (الهدى) قال ذلك هنا وقاله في الكهف بزيادة ويستغفروا ربهم لان المعنى هنا ما منعهم عن الايمان بمجرد الاقوالهم أبعث الله بشرا رسولا

ما أدرى ما يقول محمد غير أنى أرى شفتيه يتحرك بشئ وقال أبو سفيان انى لأرى بعض ما يقوله الا حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهى فى سورة الكهف انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وفى سورة النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين (واذا ذكرت ربك) أى المحسن اليك واليهم (فى القرآن وحده) أى مع الاعراض عن آلهتهم كأن قلت وأنت تتلو القرآن لا اله الا الله *(تنبيه)* فى نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وان كان معرفة لفظا لانه فى قوة النكرة اذ هو فى معنى منفردا والثانى أنه منصوب على الظرف (ولوا على أدبارهم نفورا) اى هربا من استماع التوحيد *(تنبيه)* فى نفورا وجهان أحدهما مصدر من غير اللفظ مؤكد لان التولى والنفور بمعنى والثانى أنه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير فى ولوا يعود الى الكفار وقيل يعود الى الشياطين وان لم يجر لهم ذكر قال المفسرون ان القوم كانوا عند استماع القرآن على أقسام منهم من كان يلهو عند استماعه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه ويساره اخوان من ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من كان اذا سمع من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين لا يفهمون منه شيأ ومنهم من اذا سمع آيات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس *ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ ايمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى (نحن أعلم) اى من كل عالم (بما يستمعون) اى يبالغون فى الاصغاء والميل لقصد السمع (به) من الآذان والقلوب أو بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن (اذ يستمعون) اى يصغون بجهدهم (اليك) اى الى قراءتك (واذ) اى حين (هم) ذو (نجوى) اى يتناجون بان يرفع كل منهم بسره الى صاحبه بعد اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى (اذ) وهو بدل من اذ قبله (يقول الظالمون) وقولهم (ان) اى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) اى مخدوعا مغلوبا على عقله وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا (فان قيل) انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح أن يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا (أجيب) بان معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين فى الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى (انظر كيف ضربوا) اى هؤلاء الضلال (لك الامثال) التى هى أبعد شئ عن صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون (فضلوا) عن الحق فى جميع ذلك (فلا) اى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يستطيعون سبيلا) اى وصولا الى طريق الحق *ولما جرت

*لا بعث ملكا وجه ولو ان التجانس يورث التآنس والتنافر يورث التنافر والمعنى فى الكهف ما منعهم عن الايمان والاستغفار الا ان تأتيهم سنة الاولين فزاد فيها

عادة القرآن باثبات التوحيد والنبوّة والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وختم بالبيان جهلهم في النبوّة مع ظهورها أتبع ذلك أمر اجلياً في ضلالهم عن السبيل في أمر المعاد وقرره غاية التقرير وحرره أتم تحرير قال تعالى مجيباً منهم (وقالوا) اى المشركون المنكرون للتوحيد والنبوّة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ويشاهدهم في كل وقت انا نحيي الارض بعد موتها وقولهم (أئذا) استفهام انكاري كانهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل في اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها فالمعنى أنبعث اذا (كنا) اى بجملة أجسامنا كونا لازما (عظاما ورفاتا) اى حطاما مكسرا مفتتا أو غبارا وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد ويؤيده أنه قد يكرر في القرآن ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفات لانه دقاق الزرع (أئنا لمبعوثون) حال كوننا مخلوقين (خلقا جديدا)

(تنبيه) * تقرير شبهة هؤلاء الضلال هي أن الانسان جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت تلك الاجزاء بسائر أجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالتراب والاجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها بأعيانها مرة أخرى هذا تقرير شبهتهم (وأجيب) عنها بانها لا تتم الا بالقدح في كمال علم الله تعالى وفي كمال قدرته فانه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل الى تلك الاجزاء بأعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت عنه هذه الشبهة بالكلية * ولما كان كأنه قيل فماذا يقال لهم في الجواب فقال (قل) لهم يا أشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل (كونوا) أصلب من التراب (حجارة) أي هي في غاية اليبس (أو حديدا) أي زائدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء * (تنبيه) * ليس المراد به أمر الزام بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل أتطمع في وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقي (أو خلقا) غير ذلك (مما يكبر) أي يعظم عظمة كبيرة (في صدوركم) أي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين انه الموت فانه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت أي لو كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من أعظم المخلوقات (فسيقولون) تماديا في الاستهزاء (من يعيدنا) اذا كنا كذلك (قل الذي فطركم) أي ابتدأ خلقكم (أول مرة) ولم تكونوا شيئا يعيدكم بالقدرة التي ابتدأ كم بها فكما لم تعجز تلك القدرة عن البداءة فهي لا تعجز عن الاعادة (فسينغضون) أي يحركون (اليك رؤسهم) تعجبا واستهزاء كانهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض (ويقولون) استهزاء (متى هو) أي البعث والقيامة قال الرازي واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث فانه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بامكانه فأما انه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدليل السمعي فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى

ويستغفرون ادبهم لا تصاله بقول سنة الاولين وهم قوم نوح وهود وصالح وشعيب حيث امروا بالاستغفار فنوح قال استغفروا ربكم انه كان غفارا وهود قال يا قوم استغفروا ربكم ثم

معرفته لانه تعالى بين في القرآن أنه لايطلع أحدا من الخلق على وقتها المعين فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربي وقال تعالى ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلاجرم قال تعالى (قل عسى أن يكون قريبا) قال المفسرون عسى من الله واجب ومعناه أنه قريب اذ كل آت قريب وأمال متى وعسى حمزة والكسائي امالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم يدعوكم) بدل من قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أي بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادي المناد من مكان قريب روى أن اسرافيل ينادي أيها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودي كما كنت (فتستجيبون) أي تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة الا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي آكد من الاجابة واختلف في معنى قوله تعالى (بحمده) فقال ابن عباس بأمره وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال أهل المعاني تستجيبون بحمده اى تستجيبون حامدين كما تقول جاء بغضبه اى جاء غضبان وركب الامير بسيفه اى وسيفه معه وقال الزمخشري بحمده حال منهم اى حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب مايشق عليه فيأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعني أنك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا حتى انك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه (وتظنون ان) اى ما (لبثتم الا قليلا) اى مع استجابتكم وطول لبثكم ولشدة ماترون من الهول تعتقدها انكم تقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يوما او بعض يوم وعن قتادة تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال مدة لبثهم في برزخ القيامة لانه لما كان عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا لبثهم في برزخ القيامة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام * ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله تعالى قل الذي فطركم أول مرة قال تعالى (وقل) يا محمد (لعبادي) اى المؤمنين لان لفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادي الذين يستمعون القول وقال تعالى فادخلي في عبادي وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله (يقولوا) للكفار الذين كانوا يؤذونهم الكلمة (التي هي أحسن) ولا يكافؤهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن بالقتال وقيل نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو وقيل أمر المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل تعالى بقوله تعالى (ان الشيطان) اى المبعد عن الرحمة المحترق باللعنة (ينزغ بينهم) اى يفسد ويغري بعضهم على بعض ويوسوس لهم لتقع بينهم المشارة والمشاقة وأصل النزغ الطعن وهم غير معصومين فيوشك ان يأتوا عملا لا يناسب الحال ثم علل تعالى هذه العلة بقوله تعالى (ان الشيطان كان) اى في قديم الزمان وأصل الطبع كونا هو مجبول عليه (للانسان عدوا) اى بليغ العداوة (مبينا) اى بين العداوة ثم فسر تعالى التي هي أحسن بما علمهم ربهم

توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا وصالح قال فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب وشعيب قال واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود (قوله قل كفى بالله

من النصفة بقوله تعالى (ربكم أعلم بكم) فعلم أن قوله تعالى ان الشيطان الى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن أبو عمرو والميم وأخفاها عند الباء بخلاف عنه وكذا أعلم بمن ثم استأنف تعالى (ان يشأ) اى رحمتكم (يرحمكم) اى بهدايتكم (أو ان يشأ) تعذيبكم (يعذبكم) اى باضلالكم فلا تحتقروا أيها المؤمنون المشركين فتقطعوا بانهم من أهل النار فتعيروهم بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تجاوزوا فيهم ما أمركم الله به من قول وفعل * ثم رقى الله الخطاب الى أعلى الخلق ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنى منه فقال تعالى (وما أرسلناك) اى مع مالنا من العظمة الغنية عن كل شئ (عليهم وكيلا) اى حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضى الله وانما أرسلناك على حسب ما نأمرك به بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وقد مر أن هذا قبل الاذن بالقتال * ولما أمرهم بأن ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى أخبر بما هو أعم من ذلك قاصرا الخطاب على أعلم خلقه بقوله تعالى (وربك) أى المحسن اليك بأن جعلك أكمل الخلق (أعلم بمن فى السموات والارض) فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم وأديانهم وأخلاقهم وأحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا) بما لنا من العظمة (بعض النبيين) سواء كانوا رسلا أم لا (على بعض) بعد أن جعلنا الكل فضلاء تقوى كل منهم واحسانه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر أحد من العرب أو بنى اسرائيل أو غيرهم تفضيلنا لهذا النبى الكريم الذى صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق فاذا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله بمد على الهمزة وتوسط وبقصر (وآتينا) موسى التوراة و(داود زبورا) وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن نؤتى محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد أن نفضله على جميع الخلق (فان قيل) ما السبب فى تخصيص داود عليه السلام بالذكر هنا (أجيب) باوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعنى ان داود أوتى ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على أن الفضل الذى ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثانى انه تعالى كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الانبياء وأن أمة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته (فان قيل) هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا فى الزبور (أجيب) بأن التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير أنه كامل فى كونه كتابا ويجوز أن يكون زبورا علما فاذا دخلت عليه أل كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود فى استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبى بعد

شهيدا بينى وبينكم) قال ذلك هنا بتقديم شهيدا على بينى وبينكم وقاله فى العنكبوت بالعكس لان ماهنا جاء على الاصل من تقديم المفعول وما فى العنكبوت جاء على خلافه

موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وروى البخارى في التفسير عن ابى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل ان يفرغ اى القرآن قال البقاعى ومن اعظم المناسبات لتخصيص دواد عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذى هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلا ذكر له فيها أصلا وأما النار فلم يذكر شئ مما يدل عليها الا الجحيم في موضع واحد وأما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع انتهى وقرأ حمزة بضم الزاى والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم) أنهم آلهة (من دونه) اى من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال الوصل وأما الابتداء فالجميع ابتدؤا بهمزة مضمومة (فلا يملكون كشف الضر) اى البؤس الذى من شانه أن يعرض الجسم كله (عنكم) حتى لا يدعوا شيأ منه (ولا تحويلا) له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقى أولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية وقيل ان المشركين اصابهم قحط شديد حتى اكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال في وصفهم (أولئك الذين يدعون) اى يدعونهم الكفار ويتألهونهم (يبتغون) اى يطلبون طلبا عظيما (الى ربهم) اى المحسن اليهم (الوسيلة) اى المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم *(تنبيه)* أولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتا أو بيانا أو بدلا والمراد باسم الاشارة الانبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون العائد على الذين محذوفا والمعنى أولئك الانبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة (أيهم أقرب) أى يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون اليه أقرب ولديه أفضل (ويرجون رحمته) رغبة فيما عنده (ويخافون عذابه) فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون أيهم أقرب الى الله تعالى فيتوسلون به ثم علل خوفهم بامر عام بقوله تعالى (ان عذاب ربك) أى المحسن اليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمتك (كان) أى كونا لازما (محذورا) جديرا بان يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية * ولما قال تعالى ان عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى (وان) أى وما (من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أى كل قرية أى أهلها الابد وان يرجع حالهم الى أحد أمرين اما الاهلاك بالموت والاستئصال واما العذاب بالقتل وأنواع البلاء وقال مقاتل أما الصالحة فالموت وأما الطالحة فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن

الاصل اتصل وصف الشهيد به وهو قوله تعالى يعلم (قوله خلق السموات والارض) ما في السموات والارض (قوله أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض قادر) وفى الاحقاف بلفظ بقادر وفى يس أوليس الذى خلق

الله تعالى في هلاكها (كان ذلك) أي الامر العظيم (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ (مسطورا) أي مكتوبا قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما أكتب قال القدر ما كان وما هو كائن الى الابد أخرجه الترمذي * ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على ايمان كل أحد يحب أن الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا في ايمانهم فأجاب الله تعالى بقوله (وما منعنا) أي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ولا يمنعها مانع (أن نرسل بالآيات) أي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قولهم فأتنا بآية كما أرسل الاولون وقال آخرون لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآيات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من أحيا الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فكان كأنه لا آيات عندهم سوى ذلك (الا) علمنا بعالم الشهادة بما وقع من (أن كذب بها) أي المقترحات (الاولون) وعلمنا في عالم الغيب ان هؤلاء مثل الاولين ان الشقي منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها وانه يقول فيها ما قال في غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج في ايمانه اليها فكم أجبنا أمة الى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم الا كفرا فأخذناهم لان سنتنا جرت انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب بها قال ابن عباس سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فأوحى الله تعالى اليه ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا أهلكتهم فقال صلى الله عليه وسلم لا أريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمته هذه الامة وتشريفها على الامم السالفة بعدم استئصالها لما يخرج من أصلاب كفرتها من خاص عباده فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ثم ذكر تعالى من تلك الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما أرسلت اليهم فأهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة) حالة كونها (مبصرة) أي مضيئة بينة جديرة بأن يستبصر بها كل من شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبي (فظلموا بها) أي ظلموا أنفسهم بتكذيبها وقال ابن قتيبة جحدوا بأنها من الله تعالى فأهلكناهم فكيف نفعلها بهؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى وخص تعالى هذه الآية بالذكر لأن آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ثم قال تعالى (وما نرسل بالآيات) أي المقترحات وغيرها (الا تخويفا) للمرسل اليهم فان خافوا نجوا والا أهلكوا بعذاب الاستئصال من كذب بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فأمر من بعث اليهم مؤخر الى يوم القيامة (فان قيل) المقصود الاعظم من اظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من اظهارها في التخويف (أجيب) بأنه لما كان هو الحامل والغالب على التصديق فكأنه هو المقصود ولما طلب القوم من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآيات المقترحات وأجاب الله تعالى بأن اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجراءة أولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من

السموات والارض بقادر لان ما هنا خبر أن وما في يس خبر ليس وخبرها تدخله الباء وما في الاحقاف خبر ان وكان القياس عدم دخول الباء فيه لكنها دخلته لتشبيه الم بليس في

عند الله لا تيت بهذه المعجزات التي اقترحناها كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له انه ينصره ويؤيده فقال تعالى (و) اذكر يا أشرف الخلق (اذ قلنا لك ان ربك) أي المتفضل بالاحسان اليك بالرفق لامتك (أحاط بالناس) علما وقدرة فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهتم باقتراحهم وامض فيما أمرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد بالناس أهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم روى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول اللهم اني أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين ورد بدرا والله كأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك) أي التي شاهدتها ليلة الاسراء (الا فتنة) أي امتحانا واختبارا (للناس) لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري في التفسير عن ابن عباس انه قال هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وتقدم أنه قول الاكثر منهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل على انها رؤيا منام ضعيف اذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة يقال رأيته بعيني رؤية ورؤيا *(فائدة)* قال بعض العلماء كانت اسراآته صلى الله عليه وسلم أربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده والباقي بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على أن الاسراء ليلة فرض الصلاة كانت بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث أنه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به في النور ولم ير معه أحدا اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدلك على أن الاسراء كان بجسمه ما وقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان قد أخبر صلى الله عليه وسلم ان شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها الى الاسراء في ذلك بقوله تعالى (والشجرة الملعونة في القرآن) لان فيها امتحانا أيضا بل قال بعض المفسرين هي على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس واختلف في هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة في قوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم فكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين الاول أن أبا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار تأكل الشجر فكيف يولد فيها الشجر والثاني قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات وما قدروا الله حق قدره من قال ذلك فان الله تعالى قادر على أن يجعل الشجر من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد

(قوله لقد علمت) النبي ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر *ان قلت كيف قال موسى عليه السلام لفرعون ذلك مع ان فرعون لم يعلم ذلك لانه لو علم ذلك لم يقل

التركي يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب الوسخ وبقيت سالمة لا تعمل فيها النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمر باحماء النار ولا يضرها ثم أقرب من ذلك انه تعالى جعل فى الشجر نارا لا تحرقه قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا (فان قيل) ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة (أجيب) عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن أصحابها على المجاز الثانى ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن فى اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا الآية وقيل هى الشيطان وقيل أبو جهل وعن ابن عباس هى الكشوث التى تتلوى بالشجر تجعل فى الشراب * ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه يرسل بالآيات تخويفا قال هنا أيضا (ونخوفهم فما يزيدهم) اى الكافرين والتخويف بالقرآن (الا طغيانا كبيرا) اى تجاوزا للحد هو فى غاية العظم فبتقدير أن يظهر الله تعالى لهم المعجزات التى اقترحوها لم يزدادوا بها الا تماديا فى الجهل والعناد فاقتضت الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال ما يقترحون من الآيات * ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد أما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج عن الايمان والدخول فى الكفر بقوله تعالى (واذ) اى واذكر اذ (قلنا) بما لنا من العظمة التى لا ينقض مرادها (للملائكة) حين خلقنا أباك آدم وفضلناه (اسجدوا لآدم) اى امتثالا لامرى (فسجدوا الا ابليس) اى ابى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى (قال) اى منكرا متكبرا (أأسجد) اى خضوعا (لمن خلقت) حال كون اصله (طينا) فكفر بنسبته لنا الى الجور متخيلا انه أفضل من ادم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع الى الاصول وان النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم وذهب عنه ان الطين أنفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذى أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى سبع سور وهى البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه فكأنه تعالى يقول ألا ترى ان أول الانبياء هو آدم عليه السلام ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما ألفا ولورش أيضا ابدال الثانية ألفا واذا وقف حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرأ هشام بالتحقيق فى الثانية والتسهيل وادخال ألف بينهما وقرأ الباقون

لموسى عليه السلام مسحورا بل كان يؤمن به (قلت) معناه لقد علمت لو نظرت نظرا صحيحا ولكنك معاند مكابر تخفى زوال دعوى الالهية لو صدقت فى قوله وانى لاظنك يا فرعون

بتحقيقهما بلا ادخال * ولما أخبر تعالى بتكبره كان كأنه قيل ان هذه الوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الاعلى فهل كان منه غير ذلك قيل (قال أرأيتك) أى أخبرنى وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش وجه ثان وهو أن يبدلها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق (هذا الذى كرمت على) لم كرمته على مع ضعفه وقوتى فكأنه قيل لقد أتى بالغاية فى اساءة الادب فما كان بعد هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد ان يجترئ أحد هذه الجراءة على الملك الاعلى (لئن أخرتن) أى أيها الملك الاعلى تأخيرا ممتدا (الى يوم القيامة) حيا متمكنا وجواب القسم الموطأ له باللام (لأحتنكن) أى بالاغواء (ذريته) أى لأستولين عليهم استيلاء من جعل فى حنك الدابة الاسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد النون فى أخرتنى عند الوصل وحذفها فى الوقف وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا وحذفها الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم * ولما علم أنه لا يقدر على الجميع قال (الا قليلا) وهم أولياؤك الذين حفظتهم منى كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (فان قيل) كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم (أجيب) بأوجه الاول انه سمع الملائكة يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فعرف هذه الاحوال الثانى انه وسوس الى آدم ولم يجد له عزما فقال الظاهر ان أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى تكون هى المستولية فى بعض أول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل فى آخر الامر ومن كان كذلك كان ما ذكره ابليس لازما له ثم كأنه قيل لقد أطال عدو الله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلك فقيل (قال) مهددا له (اذهب) أى امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه وتقدم فى الحجر انه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ فى الصور لا انه يؤخر الى يوم القيامة كما طلب وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء الموحدة فى الفاء وأظهرها الباقون * ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من أراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى (فمن تبعك منهم) أى أولاد آدم عليه السلام (فان جهنم) اى الطبقة النارية التى تجهم داخلها (جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاء اتباعك تجزون ذلك (جزاء موفورا) أى مكملا وافيا بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة * ولما طلب ابليس اللعين من الله تعالى الامهال الى يوم القيامة لاجل ان يحتنك ذرية آدم ذكر الله تعالى له أشياء الاول اذهب أى امض كأمر فانى أمهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذى هو ضد المجىء * الثانى قوله تعالى (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه وهم الذين سلطناك عليهم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله تعالى فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالى (واجلب) أى صح (عليهم) من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) واختلفوا فى الخيل والرجل على أقوال الاول روى أبو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب أو راجل فى معصية الله تعالى وعلى هذا فخيله ورجله كل من شاركه فى الدعاء الى المعصية الثانى يحتمل ان يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل الثالث المراد منه ضرب المثل

مثبورا) اى هالكا (وان ... اوملعونا او خاسرا ... قلت) كيف قال له لاظنك ... مع انه يعلم انه مثبور ... قلت) الظن هنا بمعنى العلم كما فى قوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم

كما يقال للرجل المجد في الامر جاء بالخيل والرجل قال الرازي وهذا أقرب وقال الزمخشري
هو كلام ورد مورد التمثيل مثل في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوّت بهم صوتا
يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى
استأصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي وقد تقع على
الافراس خاصة وقرأ حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب
وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد اريد به
الجمع * الرابع قوله تعالى (وشاركهم في الاموال والاولاد) أما المشاركة في الاموال فقال
مجاهد هو كل ما اصيب من حرام او انفق في حرام وقال قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة
والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما يذبحونه لآلهتهم وقال عكرمة هو تبتيكهم آذان
الانعام وقيل هو جعلهم من أموالهم شيأ لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة
بين جميع هذه الاقوال وأما المشاركة في الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمية الاولاد
بعبد شمس وعبد العزى وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم هوّدوا
اولادهم ونصروهم ومجسوهم وروى عن جعفر بن محمد ان الشيطان يقعد على ذكر
الرجل فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل ويقال في جميع
هذه الاقوال أيضا ما تقدم وروى ان رجلا قال لابن عباس ان امرأتي استيقظت وفي فرجها
شعلة نار قال ذلك من وطء الجن وفي الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يا رب أخرجتني
من الجنة لاجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال أنت مسلط قال لا استطيعه الا بك فزدني
قال استفزز من استطعت منهم بصوتك قال آدم يا رب سلطت ابليس علي وعلى ذريتي واني لا
أستطيعه الا بك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظونه قال زدني قال الحسنة بعشر أمثالها
والسيئة بمثلها قال زدني قال التوبة مفروضة مادام الروح في الجسد فقال زدني فقال يا عبادي
الذين أسرفوا الآية وفي الخبر ان ابليس قال يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قرآني قال
الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن رسولي قال الكهنة قال فما طعامي قال ما لم يذكر عليه
اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال وأين مسكني قال الحمامات قال وأين مجلسي قال
الاسواق قال وما حبائلي قال النساء قال وما أذاني قال المزمار * الخامس قوله تعالى (وعدهم)
أي من المواعيد الباطلة ما يستخفهم ويغرهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك
شفاعة الآلهة والكرامة على الله تعالى بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار
العاجل على الآجل ونحو ذلك وقوله تعالى (وما يعدهم الشيطان) من باب الالتفات واقامة
الظاهر مقام الضمير ولو جرى على سنن الكلام الاول لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله
تعالى (الا غرورا) فيه أوجه أحدها انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل
الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من أجله اى ما يعدهم من الاماني الكاذبة الا لاجل الغرور
الثالث انه مفعول به على الاتساع أي ما يعدهم الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما
يظن انه حق (فان قيل) كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء لابليس وهو يقول ان الله لا يأمر
بالفحشاء (اجيب) بان هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اعمل

وانما عبر بالظن لمقابلة قول فرعون له لاظنك قوله انى ... مسحورا كانه قال ان ظننتني مسحورا فانا أظنك مثبورا (قوله يخرون للاذقان) كرره لان الاول وقع في حال

ماشئت فسوف ترى وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ما ينزل بك * ولما قال الله تعالى له
افعل ما تقدر عليه قال تعالى (ان عبادى) أى الذين اهلتهم للاضافة الى لتقواهم وتحقق عبوديتى
بالتقوى والاحسان (ليس لك عليهم سلطان) اى فلا تقدر ان تغويهم وتحملهم على ذنب
لا يغفر فانى وفقتهم للتوكل على فكفيتهم أمرك (وكفى بربك) اى الموجد لك (وكيلا) أى
حافظا لهم منك * ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذى لا كافى غيره اتبعه بعض افعاله الدالة على
ذلك بقوله تعالى (ربكم) أى المتصرف فيكم هو (الذى يزجى) اى يجرى (لكم الفلك)
ومنها التى حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه الصلاة والسلام (فى البحر لتبتغوا) أى لتطلبوا
(من فضله) الربح وأنواع الامتعة التى لا تكون عندكم ثم انه تعالى علل ذلك بقوله عز وجل
(انه) أى فعل سبحانه وتعالى ذلك لانه (كان) أى ازلا وأبدا (بكم رحيما) حيث هيأ لكم
ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من أسبابه *(تنبيه)* الخطاب فى قوله ربكم وفى
قوله تعالى انه كان بكم عام فى حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها واما قوله تعالى
(واذا مسكم الضر) اى الشدة (فى البحر) خطاب للكفار بدليل قوله تعالى (ضل) أى غاب
عن ذكركم وخواطركم (من تدعون) أى تعبدون من الآلهة (الا اياه) وحده
فاخلصتم له الدعاء لعلمكم أنه لا ينجيكم سواه (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم بالتدريج
(الى البر أعرضتم) عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك (وكان الانسان) أى هذا النوع
(كفورا) أى جحودا للنعم بسبب انه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة
يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى (أفأمنتم) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على
محذوف تقديره أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه (أن نخسف بكم جانب البر)
نغيبكم فى أى جانب كان منه لان قدرتنا على التغييب فى الماء والتراب على السواء فعلى
العاقل أن يستوى خوفه من الله تعالى فى جميع الجوانب (أو) أمنتم أن (نرسل عليكم) من
جهة الفوق شيئا من أمرنا (حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم
لوط قال الله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح (ثم لا تجدوا لكم) أيها الناس
(وكيلا) ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا فى البحر وكيلا غيره (أم أمنتم) أى جاوزت بكم
الغباوة حدها فلم تجوزوا ذلك (أن نعيدكم فيه) أى البحر الذى يضطركم الى ذلك فنقسركم
عليه وان كرهتم (تارة أخرى) باسباب تضطركم الى أن ترجعوا فتركبوه (فنرسل عليكم
قاصفا من الريح) أى ريحا شديدة لا تمر بشئ الا قصفته فتكسر فلككم (فنغرقكم) فى
البحر الذى أعدناكم فيه بقدرتنا (بما كفرتم) أى بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة
الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم *(تنبيه)* تارة
بمعنى مرة وكرة فهى مصدر وتجمع على تير وتارات قال الشاعر

وانسان عينى يحسر الماء تارة * فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ان نخسف او نرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه الخمسة
بنون العظمة والباقون بياء الغيبة والقراءة الاولى على سبيل الالتفات من الغائب فى قوله
تعالى ربكم الى آخره والقراءة الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة * ثم ان الله تعالى ذكر نعمة

الصعود والثانى فى حال البكاء والاول واقع فى قراءة القرآن أو سماعه والثانى فى غير ذلك

(سورة الكهف)

(قوله قيما) * ان قلت ما فائدة ذكره بعد قوله ولم

اخرى رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيه أربعة أنواع النوع الاول قوله تعالى (ولقد كرمنا) أى بعظمتنا تكريما عظيما (بنى آدم) وحذف متعلق التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيده وعن الرشيد انه أحضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فاحضرت الملاعق فردها وأكل باصابعه وروى عن ابن عباس انه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على سائر الطين بالنمو وعلى النامى بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكبة على وجوهها قال بعضهم وينبغى ان يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية والا فالاشجار أطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بان سخر لهم سائر الاشياء وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس وقيل بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فأحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان وهى ولقد خلقنا الانسان الآية قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال الرازى فان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهى العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد انموذجا لك فى هذا الباب انتهى واستدل أيضا لشرف الانسان بان الموجود اما أن يكون أزليا وأبديا وهو الله تعالى واما أن لا يكون لا أزليا ولا أبديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أخس الاقسام واما أن يكون أزليا ولا يكون أبديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما أن لا يكون أزليا ولكنه يكون أبديا وهو الانسان والملك ولا شك ان هذا القسم أشرف من القسم الثانى والثالث وذلك يقتضى كون الانسان أشرف من أكثر المخلوقات * النوع الثانى قوله تعالى (وحملناهم فى البر) على الدواب وغيرها (و) فى (البحر) على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه او حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الارض ولم نغرقهم فى الماء * النوع الثالث قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بالطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان * النوع الرابع قوله تعالى (وفضلناهم) فى أنفسهم باحسان الشكل وفى صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين (على كثير ممن خلقنا) أى بعظمتنا التى خلقناهم بها وأكد الفعل بالمصدر اشارة الى اعراقهم فى الفضيلة فقال تعالى (تفضيلا) * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدى فى بسيطه وقال الكلبى فضلوا على جميع الخلائق كلهم الا على

يجعل له عوجا لان نفى العوج يستلزم الاقامة (قلت) فائدته التأكيد فى وصف كتاب الله العظيم أو معنى قيما انه قائم على الكتب السماوية كلها مصدقا لها ناعضا

طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وأشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل أنبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى وأكثرهم كاذبون أى كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان والاولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوى وابن عادل أن يقال عوام الملائكة أفضل من عوام المؤمنين وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله من الملائكة عنده رواه البغوى ورواه الواحدى فى بسيطه (فان قيل) قال تعالى فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وقال فى آخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والالزم التكرار (أجيب) بأنه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة * ولما ذكر تعالى أنواع كرامات الانسان فى الدنيا شرح أحوال درجاته فى الآخرة بقوله تعالى (يوم) أى اذكر يوم (ندعوا) أى بتلك العظمة (كل أناس) أى منكم (بامامهم) الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبى امام أمته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام هنا أقوالا أحدها امامهم نبيهم وروى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فينادى يوم القيامة يا أمة ابراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى الاتباع يا اتباع نمرود يا أتباع فرعون يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر الثانى أن امامهم كتابهم الذى أنزل عليهم فينادى فى القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الانجيل الثالث امامهم كتاب أعمالهم قال تعالى وكل شئ أحصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير أن الامام جمع أم وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون آبائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وأن لا تفتضح أولاد الزنا قال وليت شعرى أيهما أبدع البدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان أما لا يجمع على امام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب (فمن أوتى) أى من المدعوين (كتابه) أى كتاب عمله (بيمينه) وهم السعداء أولوا البصائر فى الدنيا (فأولئك يقرؤن كتابهم) ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من الحسنات (ولا يظلمون) بنقص حسنة تامن ظالم ما (فتيلا) أى شيأ فى غاية القلة والحقارة بل يزادون بحسب اخلاص النيات وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال * (تنبيه) * الفتيل القشرة التى فى شق النواة تسمى بذلك لانه اذا رام الانسان اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشئ الحقير التافه ومثله القطمير وهو

البعض نمر انبها ونصب دم
بقدر تقديره لكن جعله
قيما (قوله لنعلم أى الحزبين
الخ) أى لتعلمه علم ظهور
ومشاهدة (قوله وثامنهم
كلبهم) الواو فيه زائدة
وقيل مستأنفة وقيل واو

الفتيلة التى فى ظهر النواة والنقير وهى النقرة التى فى ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذى يفتله الانسان بين سبابته وابهامه (فان قيل) لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أهل الشمال يقرؤنه (أجيب) بان أصحاب الشمال اذا اطلعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولى الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لاجرم أنهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه ثم لايقنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا منهم * ثم قال الله تعالى (ومن كان) منهم (فى هذه) أى الدار (أعمى) أى ضالا يعمل فى الافعال فعل الاعمى فى أخذ الاعيان لايهتدى الى أخذ ماينفعه وترك مايضره ولايميز بين حسن وقبيح (فهو فى الآخرة أعمى) أى أشد عمى مما كان عليه فى هذه الدار لايجد له قصدا ولايهتدى لصواب ولم يقل تعالى أشد عمى كما يقال فى الخلق اللازمة الحالة الواحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مرادبه عمى القلب الذى من شانه التزايد والحدوث فى كل لحظة شيأ بعد شئ (وأضل سبيلا) لان هذه الدار دار الاكتساب والترقى فى الاسباب وأما تلك فليس فيها شئ من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرؤا ماقبلها فقرؤا ربكم الذى يزجى لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قدرأى وعاين فهو فى الآخرة التى لم يعاين ولم يرأعمى وأضل سبيلا وعلى هذا فالاشارة فى قوله هذه الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثانى على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم * ولما عدد تعالى فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى (وان كادوا) أى قاربوا فى هذه الحياة الدنيا همامهم فى أنفسهم عن عصمة الله تعالى لك ولما كانت ان هذه هى المخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى (ليفتنونك) أى ليخالطونك مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وماهن قالوا أن لانجبى فى الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة أى لاننحنى فيها ولانكسر أصنامنا الا بايدينا ٣ وأن لاتمتعنا من اللات والعزى سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاخير فى دين لاركوع فيه ولاسجود وأما أن تكسروا أصنامكم بايديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها وفى رواية وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فابى ذلك رسول الله صلى الله

الثانية كما فى قوله وفتحت أبوابها وقال الزمخشرى وغيره هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الصفة الواقعة حالا عن المعرفة تقول جاءنى رجل

٣ قوله وان لاتمتعنا الخ هكذا بالاصول التى بايدينا والذى فى حاشية العلامة الجمل نقلا عن البيضاوى وعن الخازن أيضا وأن تمتعنا باللات سنة الخ وهو المناسب لقوله الآتى فانى غير ممتعكم اه مصححه

عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يارسول الله انا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط غيرنا
فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي صلى الله
عليه وسلم فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله تعالى هذه الآية
وقال سعيد بن جبير كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لاندعك
حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم انى
لها لكاره بعد أن يدعونى حتى استلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الآية وروى ان قريشا قالوا
له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت وان كادوا ليفتنونك
(عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى) أى لتقول (علينا
غيره) أى مالم نقله (واذا) أى لو ملت الى ما دعوك اليه (لاتخذوك) أى بغاية الرغبة (خليلا)
أى لوالوك وصافوك وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ومن
يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك أبصرت رشدك فلزمت أمر الله واستمروا
على عداهم انما التفصيل لنا لك على كل مخلوق (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا اياك
(لقد كدت) أى قاربت (تركن) أى تميل (اليهم) أى الى الاعداء (شيأ) أى ركونا (قليلا)
لمحبتك فى هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك أن تقرب من الركون فضلا
من أن تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا زيد لاهلك عمرو ومعناه
ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد
كدت تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله
مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة
الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه (اذا) أى لو قاربت الركون الموصوف
اليهم (لاذقناك ضعف) عذاب (الحيوة وضعف) عذاب (الممات) أى مثلى ما يعذب غيرك فى
الدنيا والآخرة وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ثم حذف
الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة
عذاب الآخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب فى تضعيف هذا العذاب ان أقسام
نعمة الله تعالى فى حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت
العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يانساء النبى من يات منكن بفاحشة مبينة
يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف من أسماء العذاب (ثم لاتجد لك) أى وان كنت
أعظم الخلق وأعلاهم مرتبة وهمة (علينا نصيرا) أى مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا فى
سبب نزول قوله تعالى (وان) أى وان هم (كادوا) أى الاعداء (ليستفزونك) أى ليزعجونك
بعداوتهم (من الارض ليخرجوك منها) فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما
هاجر الى المدينة حسده اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا
بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك واتبعناك وقد
علمنا أنه لايمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر

ومنه آخر وحررت بزيد
ومنه قوله
وبه وصف
وما أهلكنا من قرية الا ولها
كتاب معلوم وفائدتها
توكيد اتصال الصفة
بالموصوف والدلالة على
أن اتصافه بها أمر ثابت

رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام فيدخلون فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع وهذا قول الكلبى وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالارض أرض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض أرض مكة والآية مكية هم المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازى وهذا أليق بالآية لان ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير فى التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى أو ينفوا من الارض أى من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن أخى يوسف فلن أبرح الارض يعنى الارض التى كان قصدها لطلب الميرة (فان قيل) قال تعالى وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك يعنى أهل مكة فالمراد أهلها اذ ذكر تعالى أنهم أخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثانى (أجيب) بانهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بامر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض (واذا) أى واذا أخرجوك (لا يلبثون خلفك) أى بعد اخراجك لو أخرجوك (الا) زمنا (قليلا) وقد كان كذلك على القول الثانى فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بنى قريظة وأجلى بنى النضير بقليل وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها ألف قال الشاعر

عفت الديار (أى اندرست) خلافهم أى (خلفهم) فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا

الشواطب النساء اللاتى يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة بعدهم وانها غير مكنوسة كأنما بسط فيها سعف النخل ولما أخبره بذلك أعلمه أنه سنة فى جميع الرسل بقوله تعالى (سنة) أى كسنة أو سننا بك سنة (من قد أرسلنا قبلك) أى فى الازمان الماضية كلها (من رسلنا) أنا نهلك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم والسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من أجلهم ويدل عليه قوله تعالى (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا * ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوّات أردفها بذكر الامر بالطاعة وأشرف الطاعة بعد الايمان الصلاة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (أقم الصلوة) بفعل جميع أركانها وشرائطها بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها فانها باب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير وفناء عن كل سوى بما أشرق من أنوار الحضرة التى قد اضمحل اليها كل فان وفى ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة أعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الاولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى (لدلوك الشمس) فى هذه اللام قولان أحدهما انها بمعنى بعد أى بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم

فلما تفرقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والثانى انها على بابها لانها انما تجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه أقوال أحدها انه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر وأكثر التابعين ويدل لذلك قوله

مستقر (قوله لا مبدل لكلماته) أى من البشر والا فالله يبدلها قال تعالى ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها وقال واذا بدلنا آية مكان آية الآية (قوله فان شاء

صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول أهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثاني انه الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدي في البسيط عن علي رضي الله تعالى عنه وبه قال ابراهيم النخعي والضحاك والسدي وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها أيضا اذا غربت دالكة لانها في الحالين زائلة قال الازهري والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال في القاموس دلكت الشمس غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء فحينئذ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه أما في الظهر والمغرب فواضح لما مر وأما العصر فلان أول وقتها أول أخذ الشمس في الاصفرار وأدل دليل على ذلك أنه تعالى غيا الاقامة لوقت العشاء بقوله تعالى (الى غسق الليل) أي ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الآخرة والغاية أيضا هنا داخلة لما سيأتي وقد أجمعوا على أن المراد من قوله تعالى (وقرآن الفجر) أي صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الاغراء أي وعليك بقرآن الفجر ورد بان أسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب بالعطف على الصلاة في قوله تعالى أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وحينئذ تدخل الصلوات الخمس في هذه الآية قال ابن عادل كالرازي وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرآنا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات أيضا مشتملة عليه لانه يطول فيها في القراءة ما لا يطول في غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القراءة فيها أكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره ولما كان القيام عن المنام يشق عالى مر غيبا ظهر واغير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار قال الرازي ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يا رب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا اتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا باني قد غفرت لهم وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس أولى من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الوقت ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار وأما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس أفضل وأيضا الانسان اذا شرع في صلاة الصبح من أول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية في العالم فاذا امتدت القراءة ففي أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة

(فليؤمن ومن شاء فليكفر) * ان قلت في هذا اباحة للكفر (قلت) لا لان هذا انما ذكر تهديدا لهم بناء على ان الضمير في شاء لمن وعليه الجمهور او المعنى فمن شاء الله ايمانه آمن

للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة تشهد العقول بأنه لا يقدر على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة في تقديره تنبير العقل بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه فان اكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوأة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان يقوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بعلاجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في اكثر الامر لان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى في تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم أن الانبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع في ازالة هذا المرض * ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وأرشديته بقوله عز من قائل (ومن الليل) أي وعليك أو وقم بعض الليل (فتهجد به) أي واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلا وهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله في الصحاح والعميري به ملطاق القرآن والمراد من الآية قيام الليل للصلاة لنافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة نفل بعد نوم وكانت فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته في الابتداء بقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بما في آخرها ثم نسخ بما في الصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقي الوجوب في حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أي زيادة لك مختصة بك وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح أنه نسخ في حقه أيضا ودليل النسخ ر و ه مسلم وقد وردت أحاديث كثيرة في قيام الليل منها ما روي عن المغيرة بن شعبة أنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ومنها ما روي عن زيد بن خالد الجهني أنه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة[٣] فلهذا قيل انه أكثر الوتر وهو أحد قولي الشافعي والمرجح عنده ان اكثره احدى عشرة ركعة لما رواه أبو سلمة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة أي وترا يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة رضي الله تعالى عنها فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عيني تنام ولا ينام قلبي ومنها ما روي عن أنس بن مالك قال

ومن شاء كفره كفر بناء على ان الضمير فيه لله كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما (قوله يحلون فيها من أساور من ذهب) * ان قلت الباسها في الدنيا حرام على الرجال فكيف وعدالله

٣ قوله فذلك الخ هكذا بالاصل والعدد وهنا احدى عشرة ركعة الا ان كان المراد بقوله ثم أوتر انه أتى بثلاث ركعات فليحرر الحديث اه مصححه

ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا الا رأيناه وما نشاء ان نراه نائما الا رأيناه وفي رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ و يفطر حتى نقول لا يصوم منه شيأ ثم قال تعالى (عسى أن يبعثك ربك) اى المحسن اليك (مقاما محمودا) اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعانى لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شئ ثم حرمه كان عارا والله أكرم من ان يطمع احدا في شئ ثم لا يعطيه ذلك وأما المقام المحمود فقال الواحدى أجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى وقال حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد فلا تتكلم نفس فاول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فقال هذا هو المراد من قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل للاول أحاديث * منها ما روى عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة وانى اختبأت دعوتى شفاعتى لامتى وهى نائلة منكم ان شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيأ * ومنها ما روى عن جابر انه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة * ومنها ما روى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب أكله من الشجرة وقد نهى عنها ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب بسؤال ربه بغير علم ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتونى فاستأذن على ربى فيؤذن لى فاذا رأيته وقعت ساجدا فيدعنى ما شاء الله ان يدعنى فيقول ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع رأسى فاثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لى حدا فاخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فاقع ساجدا فيدعنى ما شاء الله ان يدعنى ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع رأسى فاثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم اشفع فيحد لى حدا فاخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة فاقول يارب ما بقى الا من حبسه القرآن اى وجب عليه الخلود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق سل تعطى

المؤمنين بها في الجنة (قلت) عادة ملوك الفرس والروم لبس الاساور والتيجان دون من عداهم فلذلك وعد الله المؤمنين بها لانهم ملوك الآخرة (قوله ودخل جنته)

واشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك والاخبار فى الشفاعة كثيرة وفى هذا القدر كفاية لاولى البصائر جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا من أهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين آمين واختلف أهل التفسير فى قوله تعالى (وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) فقال ابن عباس والحسن أدخلنى مدخل صدق المدينة وأخرجنى مخرج صدق مكة نزل حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك أخرجنى مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلنى مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به من النبوّة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخلنى مدخل صدق الجنة وأخرجنى مخرج صدق من مكة وقيل ادخلنى فى القبر مدخل صدق ادخالا مرضيا وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع لهذه الاقوال ما جرى عليه البقاعى فى تفسيره بقوله فى كل مقام تريد ادخالى فيه حسى ومعنوى دنيا وأخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه ان يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك فان ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها وأخرجنى من كل ما تخرجنى منه مخرج صدق انتهى والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره ثم سأل الله تعالى ان يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال (واجعل لى من لدنك) اى عندك (سلطانا نصيرا) اى حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه انه يعصمه من الناس بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى ألا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين كله وقال تعالى ليستخلفنهم فى الارض ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم انه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على أهل الله فكان شديدا على المرائين المنافقين لينا على المؤمنين وقال والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة الا ضربت عنقه فقال أهل مكة يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم انى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فأعز الله تعالى الاسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم أمره الله تعالى أن يخبر بالاجابة بقوله تعالى (وقل) لاوليائك وأعدائك (جاء الحق) وهو ما أمرنى به ربى وأنزله الى (وزهق) أى اضمحل وبطل وهلك (الباطل) وهو كل ما خالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى (ان الباطل) أى وان ارتفعت له دولة وصولة (كان) فى نفسه بجبلته وطبعه (زهوقا) أى لا يبقى بل يزول على أسرع الوجوه وقت ٣ وأسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الازل روى البخارى فى التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فيجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب أصنام يحجون اليها ويغزون لها

أوردها بعد تثنيتها المدل على الحصر أى لا جنة له غيرها ولا نصيب له فى جنة غيره ولم يقصد جنة معينة من الجنتين بل جنس (قوله ما كان له فى الدنيا) ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها)* ان قلت

٣ قوله على أسرع الوجوه وقت هكذا بالنسخ ولعل الطاهر وقتا بالنصب فليحرر اه مصححه

فشكا البيت الى الله تعالى فقال أى رب الى متى تعبد هذه الاصنام حولى دونك فاوحى الله تعالى الى البيت انى ساحدث لك توبة جديدة فاملؤك خدودا سجدا يدفون اليك دفيف النسور ويحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية * ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال يا على ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون ما رأينا رجلا أسحر من محمد قال الزمخشرى وشكاية البيت والوحى اليه تخييل وتمثيل * ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالامر بالصلاة ونبه على ما فيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك أتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى ما هو شفاء فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمريض * (تنبيه) * فى من هذه ثلاثة أوجه أحدها لبيان الجنس قاله الزمخشرى والبيضاوى وابن عطية وأبو البقاء ورد عليهم أبو حيان بان التى للبيان لابد ان يتقدمها ما تبينه لا ان تتقدم عليه وهنا قد وجد تقديمها عليه الثانى أنها للتبعيض وأنكره الحوفى لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفاء وأجاب أبو البقاء بان منه ما يشفى من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحى الذى لدغ بالفاتحة فشفى من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا فهو كله شفاء للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث أنها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح (و) من العجب ان هذا الشفاء (لا يزيد الظالمين) وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه باعراضهم عما يجب قبوله (الا خسارا) اى نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم أعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة فى كفرهم كما كان قبول المؤمنين له واقبالهم على تدبره زيادة فى ايمانهم وفى الدارمى عن قتادة قال ما جالس أحد القرآن فقام عنه الا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية * ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى (واذا أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (على الانسان) أى هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازى وهذا بعيد بل المراد أى نوع الانسان اذا أنعمنا عليه (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا اذ ان نوع الانسان أنه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى (ونأى) عن ذكر الله (بجانبه) اى لوى عطفه وبعد بنفسه كأنه مستغن بامره ويجوز ان يكون كناية عن الاستكبار لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه وقرأ ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون وتأخير الهمزة مثل جاء وفى هذه القراءة تخريجان أحدهما من ناء ينوء اى نهض والثانى انه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى أمكن عدم القلب فهو أولى وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون

كيف قال الكافر ذلك (ذلك) وهو ينكر البعث معناه والئن رددت الى ربى على زعمك ليعطينى هنالك خيرا منها وتقديره قوله فى فصلت والئن رجعت الى ربى ان لى عنده الحسنى وعبر

والف

وألف بعد همزة وأمال الالف بعد الهمزة السوسى وشعبة وخلاد محضة بخلاف عن السوسى وأمالها ورش بين بين وأمال الهمزة والنون محضة خلف والكسائى وفتح الباقون (واذا مسه الشر) اى هذا النوع وان قل (كان يؤسا) اى شديد اليأس مما عهده من رحمة ربه والحاصل أنه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها ونسى ذكر الله وان بقى فى الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن وكذلك ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الامن حفظه الله وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل كل) من الشاكر والكافر (يعمل على شاكلته) اى طريقته التى تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير أو شر (فربكم) اى فتسبب عن ذلك ان الذى خلقكم وصوركم (أعلم) من كل أحد (بمن هو) منكم (أهدى سبيلا) اى أوضح طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا فيعطيه الثواب وبمن هو منكم أضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه فى أصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم أمور الناس فى طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام أحمد لكن بسند منقطع عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ويسئلونك) اى تعنتا وامتحانا (عن الروح) فعن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجىء بشئ تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال ويسئلونك عن الروح (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شئ منها فليس بنبى وان أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحد فهو نبى فاسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الاول ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها وعن الروح فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحى قال مجاهد اثنتى عشرة ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشئ حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحى وشق عليه ما يقول له أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ونزل فى الفتية أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ويسئلونك عن ذى القرنين ونزل فى الروح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وقول الرازى ومن الناس من طعن فى هذه الرواية من وجوه

هنا بردت ونم برجعت توسعة فى التعبير عن (قوله الشئ تساوى بين ان ترنى أنا اقل منك مالا وولدا) فائدة ذكر أنا فى مثل ذلك حصر الخبر فى المبتدا كما فى قوله انى أنا

رذ كر من جملة ذلك كيف يليق به أن يقول انى لا أعرف هذه المسئلة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك كان علامة على نبوته قال الزمخشرى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا فى الروح الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروى عن على أنه قال ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورؤس وليسوا بملائكة ولاناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب فى الخلق الذى يحيا به الانسان قال البغوى وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم ألا ترى أن الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل قال البغوى وأولى الاقاويل أن يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا أى فى جنب علم الله تعالى *(تنبيه)* اختلف فى المخاطب بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم انت معنا فيه فقال نحن وأنتم لم تؤتوا من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شانك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده الآية قال الزمخشرى وليس ما قالوه بلازم لان القلة والكثرة يدوران مع الاضافة فيوصف الشئ بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسها الا أنها اذا أضيفت الى علم الله فهى قليلة وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك اخباره كان علما لنبوته قال البغوى والاول أصح أن الله استأثر بعلمه انتهى وعن ابى يزيد لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازى قوله تعالى قل الروح من امر ربى من فعل ربى وهذا الجواب يدل على انهم سألوه أن الروح قديمة او حادثة فقال بل هى حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على احداث الروح بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا يعنى ان الروح فى مبدا الفطرة

انى انا الله ربك وقوله (هو خير ثوابا وخير عقبا) خير هنا ليست على بابها اذ غير الله لا يثيب ولا يحمد طاعته فى العاقبة فيكون الله خيرا منه ثوابا وعقبا او ذلك على

تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهى لاتزال تكون فى التغير من حال الى حال وفى التبديل من نقصان الى كمال والتغير والتبدل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر ربى يدل على انهم سالوه ان الروح هل هى حادثة او قديمة فاجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله تعالى قل الروح من امر ربى ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد بقوله وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا ما نقوله فى هذا الباب انتهى وهو نص لطيف ولما بين سبحانه وتعالى أنهم ما آتاهم من العلم الا قليلا بين انه لو شاء ان يأخذ منهم ذلك القليل أيضا اقدر عليه بقوله تعالى (ولئن شئنا) اى ومشيئتنا لا يتعاظمها شئ واللام موطئة للقسم وأجاب عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال (لنذهبن) اى بما لنا من العظمة ذهابا محققا (بالذى أوحينا اليك) بان نمحوا حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان أمرا محالا فى العادة الا أنه تعالى قادر عليه (ثم) اى بعد الذهاب به (لا تجد لك به علينا وكيلا) اى لا تجد من تتوكل عليه فى رد شئ منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى (الا رحمة من ربك) استثناء متصل لانه مندرج فى قوله وكيلا والمعنى الا أن يرحمك ربك فيرده عليك او منقطع فتقدر لكن عند البصريين او بل رحمة من ربك عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة من ربك او بل رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن قال الرازى وهذا تنبيه على ان لله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة احدهما تسهيل ذلك العلم عليهم والثانى ابقاء حفظه عليهم فعلى كل ذى علم ان لا يغفل عن هاتين النعمتين وعن القيام بشكرهما وهما منة من الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه فى صدره ومنته عليه فى بقاء المحفوظ (فان قيل) كيف يذهب القرآن وهو كلام الله تعالى (أجيب) بان المراد محو ما فى المصاحف واذهاب ما فى الصدور وقال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل ان يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف ما فى صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما فى صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيأ ولا يجدون فى المصاحف شيأ ثم يفيضون فى الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى تحت العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولا يعمل بى وفى رواية لابن مسعود أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شئ فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا وتعلمه أبناؤنا ويعلمه ابناؤ ابنائهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما فى القلوب وقوله تعالى (ان فضله كان) أى ولم يزل (عليك كبيرا) فيه قولان احدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك ثانيهما أن المراد أن فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وقد أنعم عليك أيضا بابقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن (قل) أى لهؤلاء البعداء (لئن اجتمعت الانس) الذين تعرفونهم وتعرفون ما أوتوا من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم (والجن) الذين يأتون كهانهم ويعلمونهم بعض المغيبات عنهم

سبيل الفرض والتقدير (قوله وحشرناهم) اتى به ماضيا ٣ مع ان ما قبله مضارع ابدونهما ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة يدل على ان حشرهم كان قبل التسيير والبروز

٣ قوله مع أن ما قبله الخ هكذا بالاصل ولعل استقامة العبارة أن يقال مع أن ما قبله مضارع لان قوله ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة يدل الخ

وغيرهم وترك الملائكة لانهم لاعهد لهم بشئ من التصدى ولانهم كانوا وسايط (على ان يأتوا بمثل هذا القرآن) فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى (لا يأتون بمثله) أى لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فى أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله *(تنبيه)* فى قوله تعالى لا يأتون بمثله قولان أظهرهما انه جواب للقسم الموطأ له باللام والثانى أنه جواب للشرط واعتذر واعن رفعه بان الشرط ماض فهو كقوله

*وان أتاه خليل (اى فقير) يوم مسغبة * يقول لا غائب مالى ولا حرم

لان الشرط وقع ماضيا وناقشه أبو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب سيبويه فى مثله ان النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد أنه على حذف الفاء وهذا مذهب ثالث قال به بعض الناس (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) اى معينا بضم أقوى ما فيه الى أقوى ما فى صاحبه *(تنبيه)* قد تقدم فى سورة البقرة أن الله تعالى قال فأتوا بسورة من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفى وجه كون القرآن معجزا قولان أحدهما أنه معجز فى نفسه والثانى أنه ليس فى نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقض العادة فيكون معجزا والقول الاول أظهر (ولقد صرفنا) اى بينا بوجوه مختلفة زيادة فى التقرير والبيان (للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اى من كل معنى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه موقعا فى الانفس وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف اى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا (فأبى أكثر الناس) وهم من هم فى سورة الناس ككفار قريش قد سلبوا امعانهم (الا كفورا) اى جحودا (فان قيل) كيف جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الازيدا (أجيب) بان أبى متأول بالنفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا *ولما تبين بالدليل اعجاز القرآن على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة أنواع من المعجزات أولها (وقالوا) اى كفار قريش ومن والاهم (لن نؤمن لك حتى تفجر) أى تفجيرا عظيما (لنا من الارض ينبوعا) أى عينا غزيرة الماء من شأنها ان تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم (أو تكون لك) أنت وحدك (جنة من نخيل وعنب) أى وأشجار عنب عبر عنه بالثمرة لان الانتفاع منه بغيرها قليل (فتفجر الانهار) الجارية (خلالها) اى وسطها (تفجيرا) اى تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج الى الفساد ثالثها قولهم (أو تسقط السماء) اى نفسها (كما زعمت) فيما تتوعدنا به (علينا كسفا) اى قطعا جمع كسفة وهى القطعة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب على الحال فى القراءتين جميعا كأنه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة رابعها قولهم (أو تأتى) معك (بالله) اى الملك الاعظم

لما يذوا تلك الاهوال والعظائم كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك (قوله مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) * ان قلت كيف قال ذلك مع ان

(والملائكة قبيلا) أي عيانا ومقابلة ننظر اليه لا يخفى علينا شئ منه وقال الضحاك هو جمع قبيلة أي أصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن عادل كفيلا أي يكفلون بما تقول ضامنا قولهم (أو يكون لك) أي خاصة (بيت من زخرف) أي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها قولهم (أو ترقى) أي تصعد (في السماء) درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا (ولن نؤمن) أي نصدق مذعنين (لرقيك) أي أصلا (حتى تنزل) وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم (علينا كتابا) ومعنى كونه في رق أو نحوه بقولهم (نقرؤه) يأمرنا فيه باتباعك روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وابا البختري بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام والعاصي بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنهم بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم أن رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي بك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه الي أصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا وأشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشأم والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به وان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب فقال له عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أومن

العذاب تركه فوجب اجتناب الكبائر قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (قلت) الآية الاولى في حق الكافرين بدليل أوله والثانية تجري العموم

لك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله هذه الآية وفيها اشارة الى أنه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ لو فتح هذا الباب لزم أن لا ينتهى الامر فيه الى مقطع وكلما أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه بمعجز آخر ولا ينتهى الامر فيه الى حد ينقطع عنه عناد المعاندين وتعنت الجاهلين مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الآيات والمعجزات ما أغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع وما أشبه ذلك * ولما تم تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه أمر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء البعداء والاشقياء (سبحان ربى) أى تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من أن يأتى أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد فى القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضى والباقون قل بصيغة الامر و (هل كنت الابشرا) لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر (رسولا) كما كان من قبلى من الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على أيديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيلى فقد ذكر فى آيات أخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك * ولما أمر بما تضمن أنه كاخوانه من الرسل فى كونه بشرا أتبعه قوله عطفا على فأبى أو وقالوا (وما منع الناس) أى قريشا ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب (أن يؤمنوا) أى لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول منع (اذ جاءهم الهدى) أى الدليل القاطع على الايمان وهو القرآن وغيره من الادلة وقرأ أبو عمرو وهشام بادغام ذال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان محضة واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر (الا أن قالوا) فاعل منع أن قالوا أى منكرين عليه غاية الانكار متعجبين متهكمين (أبعث الله بشرا رسولا) لان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر ولو بعث الله تعالى رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجابهم الله تعالى بقوله (قل) أى لهؤلاء المطرودين عن الرحمة (لو كان فى الارض ملائكة يمشون) عليها كالآدميين (مطمئنين) أى مستوطنين فيها كالبشر (لنزلنا عليهم) مرة بعد مرة كما فعلنا فى تنزيل جبريل عليه السلام على الانبياء من البشر وحقق الامر بقوله تعالى (من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقى منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان رسول كل جنس ينبغى أن يكون منهم اذ الشئ عن شكله أفهم وبه آنس واليه أحن وله آلف الامن فضله الله تعالى بتغلب روحه على نفسه وبتغلب عقله على شهوته فاقدره بذلك على التلقى من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جوابا آخر بقوله عز وجل (قل كفى بالله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما وأمال الالف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (شهيدا بينى وبينكم) على أنى رسوله اليكم ليظهر المعجزات على وفق دعواهم

فى حق المؤمنين لان اجتناب الكبائر لا يتحقق مع وجود الكفر او يقال الاولى فى حق المؤمنين ايضا لكن يجوز ان تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه

وانى بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم عاندتم ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بان الرسول يجب أن يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه *(تنبيه)* شهيدا نصب على الحال أو التمييز ثم انه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذا الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق * ولما تقدم أنه تعالى أعلم بالمهتدى والضال عطف عليه قوله تعالى (ومن يهد الله) بأن يخلق الهداية فى قلبه (فهو المهتدى) لا يمكن أحدا غيره أن يضله *(تنبيه)* أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يضلل فلن تجد لهم) أى الضالين (أولياء) يهدونهم (من دونه) ولا ينفعونهم بشئ أراده الله تعالى غيره ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى (ونحشرهم) بنون العظمة أى نجمعهم بكره (يوم القيامة) الذى هو محط الحكمة (على وجوههم) سحبا بين عليها اهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أى يمشون عليها روى أبو هريرة رضى الله عنه قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام ان الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى (عميا وبكما وصما) فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال أليس قد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا عميا بكما وصما أجاب ابن عباس رضى الله تعالى عنه من وجوه الاول قال ابن عباس عميا لا يرون شيأ يسرهم صما لا يسمعون شيأ يسرهم بكما لا ينطقون بحجة الثانى قال فى رواية عطاء عميا عن النظر أى عما جعله الله تعالى لاوليائه وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا الالزام بحجة الله تعالى عليهم الا أنهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا بكما صما قال الرازى والجواب الاول أولى لان الآيات السابقة تدل على أنهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله عز وجل (مأواهم جهنم) تسعر عليهم (كلما خبت) أى أخذ لهبها فى السكون عندما كلها لحومهم وجلودهم (زدناهم سعيرا) توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كأنهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله تعالى بان لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر باظهار تاء التأنيث عند الزاى وأدغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى (ذلك) أى العذاب العظيم (جزاؤهم بانهم) أى أهل الضلالة (كفروا بآياتنا) القرآنية وغيرها

فعلم تقدر تتمة العة وعلمه
(قوله الا ابليس كان من
الجن) • فان قلت هذا يدل
على ان ابليس من الجن
وهو مناف لقوله فى البقرة
واذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا الا ابليس

وكانوا كل يوم يزددون كفراً وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا (وقالوا) انكاراً للقدرة بما (أئذا كنا عظاماً ورفاتاً) ممزقين في الارض ثم كرروا الانكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذي بطلانه أوضح من الشمس بقولهم (أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً) فنحن نريهم جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد في جلودهم ولحومهم مكرراً كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ثم أتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى (أولم يروا) أي يعلموا ويبصروا ببصائرهم علماً هو كالرؤية بعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل بعضها من الشواهد الجلائل (أن الله الذي خلق السموات) بجميع ما دل على ذلك من الحسن والاتقان والتمكن الارض مثل ذلك أفردها مريداً الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى (والارض) على كبر أجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى (قادر على أن يخلق مثلهم) فيه قولان الاول المعنى قادر على أن يخلقهم ثانياً فعبر عن خلقهم ثانياً بلفظة المثل كما يقوله المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء الثاني أن المراد قادر على أن يخلق عبيداً آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوماً غيركم قال الواحدي والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله ٭ ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيام أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه ببيان أن لوقوعه في الوجود وقتاً معلوماً عند الله وهو قوله تعالى (وجعل لهم أجلاً لا ريب) أي لا شك (فيه) وهو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفوراً) أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والجحود ٭ ولما قال الكفار لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً فطلبوا اجراء الانهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم ويتسع عيشهم بين تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء المتعنتين (لو أنتم) أي دون غيركم (تملكون خزائن) عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة (رحمة ربي) أي خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه (اذاً لأمسكتم) أي لوقع منكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها (خشية) أي مخافة عاقبة (الانفاق) أي الموصل الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري أنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري تقديره لو تملكون تجري فيه على مذهب الكوفيين من أن لو يليها الفعل مضمراً كما يليها ظاهراً والبصريون يمنعون ايلاءها مضمراً الا في شذوذ كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني وأصل هذا المثل ان امرأة عطلاء من الحلي والهيئة لطمت حاتماً على نحر الناقة وقالت له بغوة انما أردنا فصدها والفصد عندهم أن يقطع عرق من عروق [٣] ثم يجمع دمها فيشوى وقيل أصله ان المرأة المذكورة لطمت رجلاً فقال لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها اصار مثلاً يضرب للكريم يلطمه الدنيء ثم استدل على صحة هذا المعروض بالشاهد من مضمون قولهم (وكان) أي جبلة وطبعاً (الانسان) أي الذي من شأنه الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها (قتوراً) أي بخيلاً (تنبيه) ٭ فتح الياء في ربي نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد (فان قيل) قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم (أجيب) من

فانه يدل على انه من الملائكة (قلت) في ذلك قولان أحدهما انه من الجن لظاهر هذه الآية ولانه له ذرية كفرة ولانه أكفر الكفرة بخلاف الملائكة لا ذرية لهم ولا يعصون

[٣] قوله عرق من عروق هكذا بالنسخ ولعله عرق من عروق البعير أو نحو ذلك اهـ مصححه

وجوه الاول ان الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحبس مابه يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه الا أنه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت أن الاصل فى الانسان البخل الثانى أن الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ما أنفق الا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل الثالث أن المراد من هذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ولما قدم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس جحدوا الآيات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لا يمكن هداه شرع يسلى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) اى واضحات واختلف فى هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطاء هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات وقال البقاعى وهى كما فى التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد الكبار التى أنزلها الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل مامرت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار من الآدميين وجميع الحيوان ثم قال وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت

عصا قمل موت البهائم ظلمة * جراد دم ثم الضفادع والبرد

وموت بكور الآدمى وغيره * من الحى آتاه الذى عز وانفرد

قال وكأنه عد اليد مع العصا آية ولم تفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم اه وقال البيضاوى هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بنى اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظى الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقال بعضهم هى آيات الكتاب وهى أحكام يدل عليها ماروى عن صفوان ان يهوديا قال لصاحبه تعال نسأل هذا النبى فقال الآخر لاتقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لاتشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لاتعدوا فى السبت فقبلوا يديه وقالوا نشهد انك نبى قال فما منعكم أن تتبعونى قالوا ان داود دعا ربه أن لايزال فى ذريته نبى وانا نخاف ان اتبعناك أن تقتلنا اليهود وقال الرازى اعلم أنه تعالى ذكر فى القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام احدها أنه تعالى أزال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهب أعجمها وجاء فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء وخمسة أخرى وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادى عشر الحجر وهو قوله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر والثانى عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه

قوله تعالى ما سموهم لانهم عقول مجردة لاشهوة لهم ولا معصية الا عن شهوة فالاستثناء فى تلك الآية منقطع وثانيهما وهو المختار أنه من الملائكة قيل ان يعصى الله تعالى فلما

والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمس على أموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة وقوله تعالى (فاسئل) اى يا أعظم خلقنا (بني اسرائيل) يجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز أن يكون الخطاب له خاصة وأمره بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم أي فاسأل بني اسرائيل عامة الذين نبهوا قريشا على السؤال عن الروح كما في بعض الروايات وعن أهل الكهف وذي القرنين وعن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (اذ) اى عن ذلك حين (جاءهم) أي جاء آباءهم فوقع لهم من التكذيب بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك (فقال) اى فذهب الى فرعون فأمره بارسالهم معه فأبى فاظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو أن قال (له فرعون) عتوا واستكبارا (اني لاظنك يا موسى مسحورا) اى مخدوعا مغلوبا على عقلك فكل ما تشاء عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال في موضع آخر ساحر وانهم ربما أطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالمخبر عن الفعل وفي الامر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها اذ كانه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل (قال) لفرعون (لقد علمت) بفتح التاء قراءة غير الكسائي وقرأ الكسائي بضمها على اخباره عن نفسه (ما أنزل هؤلاء) اى الآيات (الا رب السموات والارض) اى خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات (بصائر) اى بينات يبصر بها صدقي وأما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند * (تنبيه) * قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على هؤلاء ان كنتم في البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك * ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون (واني) اى وان ظننتني يا فرعون مسحورا (لاظنك يا فرعون مثبورا) اى ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التي كشف عنها الغطاء فهي أوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب الى الصحة واليقين من تظاهر أماراته لان هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل أنها من عند الله وفي أنه تعالى أظهرها لاجل تصديقي وأنت منكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والبغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور (فأراد) اى فتسبب عن هذا الذي هو موجب للايمان في العادة الا أن فرعون أراد (أن يستفزهم) اى يستخف موسى ومن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من قراهم والجرح اذا سال (من الارض) بالنفي والقتل للتمكن منهم كما أراد هؤلاء أن يستفزوك منها

عصاه مضغوثة طاهانا فروى ذلك عن ابن عباس كما روى عنه أيضا انه كان من خزان الجنة وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن فكان في بعض كان عصا أو المعنى سابق علمه تعالى او من

للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد ثم أخذه تعالى بعد ترهم سطواته بما فعل بمن كان قبلهم وأكثر منهم وأشد بقوله تعالى (فأغرقناه) أى فتسبب عن ذلك ان رددنا كيده فى نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيء الا بأهله أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه فادخله البحر حين أدخل بنى اسرائيل فانجاهم وأغرق آل فرعون (ومن معه جميعا) كما جرت به سنة الله تعالى فيمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط فى البغى بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولا سيما اذا أخرج رسولنا من بين أظهرهم ففى هذه الآية وأمثالها بشارة له صلى الله عليه وسلم فى ان الله تعالى يسلك به فى النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلاة والسلام (وقلنا من بعده) أى الاغراق (لبنى اسرائيل) الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم واحسانهم (اسكنوا الارض) اى التى أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء) اى مجيأ محققا (وعد الآخرة) اى القيامة بعد أن سكنتم الارض أحياء ودفنتم فيها أمواتا (جئنا) اى بما لنا من العظمة والقدرة (بكم) منها (لفيفا) اى بعثنا كم واياهم مختلطين لا حكم لاحد على آخر ولا دفع لاحد عن آخر على غير الحالة التى كانت فى الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى والقد صرفنا قوله عز وجل (وبالحق) أى من المعانى الثابتة التى لا مرية فيها لا بغيره (انزلناه) نحن أى القرآن فهو ثابت لا يزول كما أن الباطل هو الذاهب الزائل وهذا القرآن الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ويشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النقص والتغيير والتحريف وأيضا هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وبالحق) لا بغيره (نزل) هو ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما أنزلناه سواء ضابطا محفوظا لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع فى كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى (وما أرسلناك) بأفضل الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) للمطيع (ونذيرا) للعاصى من العقاب فلا عليك الا التبشير والانذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ ثم ان الله تعالى أخبر أن الحكمة فى انزال القرآن مفرقا بقوله عز وجل (وقرآنا) أى وفصلنا أو وأنزلنا قرآنا (فرقناه) أى أنزلناه منجما فى أوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ينزل جملة (لتقرأه على الناس) أى عامة (على مكث) اى مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه) من عندنا بما لنا من العظمة (تنزيلا) بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه أتقن فى فصلها وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه فى مدة ما بين النجمين لغرارة ما فيه من المعانى ثم ان الله تعالى هددهم على لسان نبيه

الجن الذين هم من الملائكة فالاستثناء متصل ولا منافاة بين الآيتين (قوله افتتخذونه وذريته أولياء من دونى) ان قلت كيف قال ذلك مع ان الشيطان وذريته ليسوا أولياء بل اعداء الآن الاولياء هم الاصدقاء (قلت)

صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) لهؤلاء المضلين (آمنوا به) أى القرآن (أو لا تؤمنوا) فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم لانكم ان آمنتم به كان الحظ لكم والاثم تضروا الا أنفسكم فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم بالقرآن لا يزيده كالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى من قبل انزاله ممن آمن به من بنى اسرائيل تعليل له أى ان لم يؤمنوا به وأنتم أهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم (اذا يتلى عليهم) أى القرآن (يخرون للاذقان) منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخشوع والخضوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فى حوض المبالغة فقد أتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض فى معرض السجود كالمغشى عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون (أجيب) بان المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كانهم يسقطون (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان (أجيب) بأن العرب تقول اذا خر الرجل فوقع لوجهه خر للذقن ثم بين أن ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى (سجدا) اى يفعلون ذلك لما يعلمون من خشيته بما أرتوا من العلم السالف وما فى قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن (ويقولون) اى على وجه التجديد المستمر (سبحان ربنا) تنزيه الله عن خلف الوعد (ان) اى انه (كان) أى كونا لا ينفك (وعد ربنا) أى المحسن الينا بالايمان وما معه من وجوه العرفان (لمفعولا) أى دون خلف ولا بد أن يأتى جميع ما وعد به فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤن بالوعد فى قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحوه مما معناه الطعن فى قدرة الله تعالى القادر على كل شئ وقوله تعالى (ويخرون للاذقان يبكون) كرره لاختلاف الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى سماع القرآن (خشوعا) أى خضوعا وتواضعا ولين قلب ورطوبة عين * ولما طالت الكلمات فى المناظرة مع المشركين ومنكرى النبوات والجواب عن شبهاتهم أتبعها ببيان كيف يدعون الله ويطيعونه وكيف يذكرونه فى وقت الاشتغال باداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعها أبو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الآية اى ان شئتم قولوا يا الله وان شئتم قولوا يا رحمن وعن عائشة رضى الله تعالى عنها

المراد بالولاية هنا اتباع الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصى فالولاية مجاز من هذا لانه من لوازمها (قوله ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها) قاله هنا بالفاء الدالة على التعقيب لانها هنا فى الاحياء من

قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه أهل مكة فأقبلوا عليه فأنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية وعن ابن عباس ان ذكر الرحمن كان في القرآن قليلا في أول ما أنزل وكان الذين قد أسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن وكان ذكره في التوراة كثيرا كابن سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو الها واحدا وهو الآن يدعو الهين ما نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون ونزل أيضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مؤمنو أهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب أي مشركي قريش من ينكر بعضه وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب الدار فقال اني أحصنت بيتي (فان قيل) اذا قال الرجل ادع زيدا أو عمرا فهم منه كون زيد مغايرا لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة أبي جهل لعنه الله تعالى (أجيب) بأن الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال دعوته زيدا ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى وأو للتخيير فمعنى الآية ادعوا باسم الله أو ادعوا باسم الرحمن أي اذكروه بهذا الاسم أو اذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله يحمله على ملازمة كرمه بحكم الوعد من افاضة الرحمة والكرم وأيضا تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على أنهما أشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على أن قولنا الله أعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله تعالى (أياما تدعوا) عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى أيا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى (فله الاسماء الحسنى) لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم وقد قدمنا ذكر الاسماء الحسنى في الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها او بعض الاحاديث الواردة في فضلها فانظرها ووقف حمزة والكسائي على الالف بعد الياء ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف في تفسير ونزول قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) فروى عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك (وابتغ بين ذلك سبيلا) وروى أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لم تخفي صوتك فقال أناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبي صلى

الكفار فانهم ذكروا
ما ذكروا
فاعرض واغضب
وقاله في العصبية بدلالة
على التراخي لان ما هذا الذي
الاصوات من الكفار فانهم
ذكروا مرة بعد أخرى ثم

الله عليه وسلم أبابكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة هي الدعاء وروى هذا مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية انما ذلك في الدعاء والمسئلة قال عبد الله بن شداد كان أعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون فأنزل الله تعالى هذه والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت أي خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت أي انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال من لم يخافت لم يسمع أذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازي وهو بعيد * ولما أمر الله تعالى أنه لا يذكر ولا ينادى الا بأسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى (وقل الحمد لله) اى الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع الاول قوله تعالى (الذى لم يتخذ) اى لكونه محيطا بالصفات الحسنى (ولدا) والسبب فيه وجوه الاول أن الولد هو الشيء المتولد من جزء من أجزاء ذلك الشيء فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثاني أن كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده الثالث أن الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام في كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق * النوع الثاني من الصفات السلبية قوله تعالى (ولم يكن له) بوجه من الوجوه (شريك في الملك) والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ أن هذه النعم والمنافع حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر * النوع الثالث قوله تعالى (ولم يكن له ولي من الذل) أى ولم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته والسبب في اعتباره أنه لو جاز عليه ولي يلي أمره كان مستوجب الاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقوبه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذى يستحق جنس الحمد لانه كامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) أى وعظمه تعظيما على نفي اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده في صفاته روى الامام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك الى آخر السورة وعن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدونه في السراء والضراء

اعرضوا بالآيات فلم يؤمنوا ان (قوله نسيا حوتهما) قلنا كيف قال ذلك مع ان الناسي يوشع وحده (قلنا) نسبة النسيان اليهما مجاز والمراد احدهما

وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله تعالى أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم وروى أن قول العبد الله أكبر خير ٣ من الدنيا وما فيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية يقال أفصح الصبي في منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التوراة بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية فحديث موضوع

سورة الكهف مكية

الا واصبر نفسك الآية وهي مائة وعشر آيات وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله) الذي لا كفء له ولا شريك (الرحمن) الذي أقام عباده على أوضح الطرق بانزال هذا الكتاب (الرحيم) بتفضيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى (الحمد لله) تقدم الكلام عليه مستقصى في أول الفاتحة (الذي أنزل على عبده الكتاب) أي القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على انزاله تنبيها على أنه أعظم انعامه وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم أما كونه نعمة عليه فلان الله تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولا شك أن ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات فكل أحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته أن يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما في كل من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى أنه الذي أسرى به الى حضرات مجده ليريه من آياته ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول قوله تعالى (ولم يجعل له) أي فيه (عوجا) أي اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثاني قوله تعالى (قيما) قال ابن عباس يريد مستقيما أي معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازي وهذا عندي مشكل لانه لا معنى لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار بل الحق أن المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وأنه يجري مجرى

٣ قوله خير من الدنيا في بعض النسخ خير له من الدنيا

كنظيره في قوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقيل نسي موسى تفقد الحوت ويوشع ان يخبره بخبره (قوله حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) قاله بغير فاء وقال بعد حتى

من يكون فيها الاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشيء يجب أن يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لا ريب فيه وقوله تعالى قيما قائم مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون في نصب قوله تعالى قيما على أوجه الاول قال في الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى أنزل فهو داخل في حيز الصلة فانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة قال فان قلت فما فائدة الجمع بين نفي العوج واثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر قلت فائدته التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال أيضا كما مر وتعدد الحال لذي حال واحد جائز والتقدير أنزله غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث أنه حال أيضا ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جائز * ولما ذكر تعالى أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر أردفه ببيان ما لاجله أنزله بقوله عز وجل (لينذر) أي يخوف الكتاب الكافرين (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده وقرأ شعبة باسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير على أصله بضم الهاء في الوصل بواو (ويبشر المؤمنين) اى الراسخين في هذا الوصف وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة (الذين يعملون الصالحات) وهي ما أمر به خالصا له وذانك الشيئان مفتاح الايمان (أن لهم) أي بسبب أعمالهم (أجرا حسنا) هو الجنة حال كونهم (ماكثين فيه أبدا) بلا انقطاع أصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) معطوف على قوله تعالى لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني خاص بمن أثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بأنه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا هذا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر اثبات الولد لله تعالى

* (تنبيه) * الذين أثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله الثالثة اليهود الذين قالوا عزير ابن الله * ثم انه تعالى أنكر على القائلين ذلك من وجهين الاول قوله تعالى (ما لهم به) أي القول (من علم) أي أصلا لانه مما لا يمكن أن يتعلق العلم به لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى هذا المعنى

اذ القياس فلا ما قبله بالفاء لانه جعل خبرها جزاء الشرط فلم يحتج للفاء وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء وجزاء الشرط قوله قال اقتلت نفسا

وأكده بقوله (ولا لآبائهم) الذين يتخبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا الذي لا يرضيه عاقل ولو أخطؤا في تصرف دنيوي لم يتبعوهم فيه (فان قيل) اتخاذ الله ولدا محال في نفسه فكيف قيل مالهم به من علم (أجيب) بأن انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد لا يكون لانه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به الوجه الثاني (كبرت) أي مقالتهم (كلمة) أي ما أكبرها من كلمة وفي تقدير فظاعة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى (تخرج من أفواههم) أي لم يكفهم خطورها في أنفسهم وترددها في صدورهم حتى تلفظوا بها وكأن صدورهم بها على وجه التكرير كما يشير اليه التعبير بالمضارع *(تنبيه)* نصبت هذه كلمة كما يسمون القصيدة كلمة * ثم بين تعالى ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به أصلا لانه لا وجود له فقال تعالى (ان) أي ما (يقولون الا كذبا) أي قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه * ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام الالهي الذي ملأ قلبه تعظيما خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى (فلعلك باخع) أي قاتل (نفسك) من شدة الغم والوجد وأشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم بقوله عز من قائل (على آثارهم) أي حين تولوا عن التوحيد وعن اجابتك (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي القرآن المجيد وتنزيله على حسب التدريج (أسفا) منك على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب (فان قيل) ذلك يدل على حدوث القرآن (أجيب) بأنه محمول على الالفاظ وهي حادثة * ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بانهم لم يخرجوا عن مراده تعالى وأن الايمان لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل (انا) أي انا لا نفعل ذلك لانا (جعلنا ما على الارض) من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة ليس في الارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات الشامل للشجر والحيوانات وأشرف أنواع الحيوان الانسان (زينة لها) أي الارض قيل المراد أهلها أي زينة لاهلها قال الرازي ولا يمتنع أن يكون ما تحسن به الارض زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب * ولما أخبر تعالى بزينتها أخبر تعالى بعلته بقوله تعالى (لنبلوهم) أي نعاملهم معاملة المختبر (أيهم أحسن عملا) باخلاص الخدمة لربه فيصير ما كان له منهم ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر وأخفى لتقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بان من أظهر موافقة الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الامر بما آتاه منها استحق العقوبة فكأنه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد لا ينبغي أن تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق * ثم انه تعالى لما بين أنه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما بها أبدا زهد فيها بقوله تعالى (وانا لجاعلون ما عليها) من

قوله لقد جئت شيئا امرا) قاله بلفظ الامر لانه العجب والعجب كما يكون في الخير يكون في الشر وقاله بعد في قتل الغلام بلفظ نكرا لانه

زاكية بغير نفس (

جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شئ منه (صعيدا) اى قطعا تارا (جرزا) اى يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات على أن الارض أيضا لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض * ولما ان القوم تعجبوا فى قصة أصحاب الكهف وسألوها النبى صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى (أم حسبت) اى ظننت على مالك من العقل الرزين والرأى الرصين (ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) على مالزم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع انهم كانوا من العجائب ليسوا بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر فى النوم والكهف الغار الواسع فى الجبل واختلف فى الرقيم فقيل هو اسم كلبهم قال أمية بن أبى الصلت

وليس بها الا الرقيم مجاورا

وصيدهم (وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا أى فناءهم) والقوم فى الكهف هجد (أى نوم) وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم وقصصهم وجعل على باب الكهف قال البغوى وهذا أظهر الاقاويل وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا فى الجبل وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون غير أصحاب الكهف كانوا ثلاثة يطلبون الكلأ أو نحوه لاهلهم فأخذهم المطر فأووا الى الكهف فانحطت صخرة وسدت عليهم بابه فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته فقال واحد استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل فى بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته فى جانب البيت فربيت به فصيلة والفصيلة ولد الناقة اذا انفصل عن أمه فبلغت ماشاء الله فرجع الى بعد حين شيخا ضعيفا لا أعرفه وقال ان لى عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الرأس وقال آخر كان فى فضل وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا فقلت والله ماهو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال أجيبى له وأغيثى عيالك فأتت وسلمت الى نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها مالك فقالت أخاف الله تعالى فقلت لها خفتيه فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا وقال الثالث كان لى أبوان هرمان وكان لى غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع الى غنمى فحبسنى ذات يوم غيم فلم أرجع حتى أمسيت فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت فيه ومضيت اليهما فوجدتهما نائمين فشق على أن أوقظهما فوقفت جالسا محلبى على يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد قدمنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى ويسئلونك عن الروح * وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله

لا يكون الا فى الشر وقتل
النفس اعظم من مجرد خرق
السفينة فناسب كلا
ما هو فيه ولذلك قال فى خرق
السفينة الم أقل انك بحذف
لك وفى قتل الغلام الم اقل

صلى الله عليه وسلم ونصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما أصاب من
كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه فى مجلسه اذا قام وقال أنا والله يا معشر قريش أحسن
حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم قال ان
قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن
محمد وصفته فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى
قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال لهم اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية
ذهبوا فى الدهر الاول فان حديثهم عجيب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها
وسلوه عن الروح وما هى فان اخبركم فهو نبى والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا
قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد واخبراهم بما قالته اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا
عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحى وشق
عليه ذلك ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة اهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى
اياه على حزنه عليهم وفيها خبر اولئك الفتية وخبر الرجل الطواف ثم بدأ بالفتية فقال (اذ)
اى واذكر اذ (أوى الفتية) وهم اصحاب الكهف المسؤل عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل
والشباب اقبل الى الحق واهدى للسبيل من الشيوخ (الى الكهف) خائفين على ايمانهم من
قومهم الكفار واختلفوا فى سبب مصيرهم الى الكهف فقال محمد بن اسحق بن يسار مرج
أهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت
وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من
الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم
فلا يترك فى قرية نزلها احدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله ثم نزل مدينة اهل
الكهف وهى افسوس فلما نزل بها كبر على اهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه
واتخذ شرطا من الكفار وامرهم ان يتبعوهم فى اماكنهم ويخرجوهم اليه فيخيروهم بين
القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد
غير الله تعالى فيقتل فلما راى ذلك اهل الشدة فى الايمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل
فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع من اجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب
من ابوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة
والصيام والدعاء والتسبيح وكانوا من أشراف المدينة ومن أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر
بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة
وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينماهم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم أدركهم
الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم
عن أمر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح
لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤن بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث اليهم

لك ولان فى ذكره
الذى ذكر
قصد زيادة المواجهة
بالعتاب على ترك الوصية مرة
ثانية (قوله ما لم تستطع)
جاء فى الاول بالتاء على

فاتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم فى التراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى تعبد فى الارض وتجعلوا أنفسكم باسوة سراة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم واسمه مكسلمينا ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا ابدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع ما بدا لك وقال أصحابه مثل ما قال فلما قالوا ذلك أمر الملك بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سافرغ لكم وأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعنى أن أعجل لكم ذلك الا أنى أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه وترجعون الى عقولكم ثم أمر بهم فاخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيمكثوا فيه ويعبدوا الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى اذا أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا جنابى أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا أصحابه بشئ ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا فى ذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا يشترى لاصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل وأخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك مع غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا

الاصل وفى الثانى نسطع
بحذف تاء تخفيفا لانه الفرع
وعكس ذلك فى قوله فما
اسطاعوا أن يظهروه وما
استطاعوا له نقبا لان مفعول

ان بى غضبا عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لاجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا آلهتى فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة فقد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤا لرجعوا فى ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم وقال اخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا له أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدرى ما يصنع بالفتية فألقى الله تعالى فى قلبه أن يسد باب الكهف عليهم وأراد الله تعالى أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لامة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من فى القبور فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله تعالى أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وخبرهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقى دقيانوس ما بقى ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم لما أووا الى الكهف (فقالوا) أى عقب استقرارهم فيه (ربنا آتنا من لدنك) أى من عندك (رحمة) توجب لنا المغفرة والرزق والامن من عدوك (وهيئ لنا من أمرنا) أى من الامر الذى نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفى تفسير الخ وجهان الاول أن التقدير هيئ لنا أمرا ذا رشد أى حتى نصير بسببه راشدين مهتدين الثانى اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا ولما أجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى (فضربنا) أى عقب هذا القول وبسببه (على آذانهم) حجابا يمنع السماع أى أنمناهم نومة لا تنبههم الاصوات او قطعة فحذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى انه انما ضرب على آذانهم (فى الكهف) أى المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى (سنين) ظرف زمان وقوله تعالى (عددا) أى ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال الزجاج اذا قل الشئ فهم مقدار عدده فلم يحتج الى أن يعد واذا كثر احتاج الى أن يعد (ثم بعثناهم) أى أيقظناهم من ذلك النوم (لنعلم) أى لمشاهدة وقد سبق نظير هذه الآية فى القرآن كثيرا منها ما سبق فى سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفى آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك فى محله (أى الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم (أحصى لما لبثوا أمدا) واختلفوا فى الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وأصحاب الكهف وقال مجاهد الحزبان من الفتية أصحاب الكهف لما تيقظوا اختلفوا

قوله بنجلوس كذا فى أكثر النسخ وفى بعض بنخلوس بالخاء وفى الجمل بالجيم وفى حياة الحيوان ينجلوس والعلم عند الله اه مصححه

الاول اشتمل على حرف وفعل وفاعل ومفعول فناسبه الحذف تخفيفا بخلاف مفعول الثانى فانه اسم واحد وهو قوله نقبا فناسبه البقاء على الاصل

(قوله فأردت ان اعيبها)

فی أمرهم کم لبثوا ویدل له قوله تعالی قال قائل منهم کم لبثتم قالوا لبثنا یوما أو بعض یوم قالوا ربکم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وکان الذین قالوا ربکم أعلم بما لبثتم هم الذین علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفراء ان طائفتین من المسلمین فی زمان أصحاب الکهف اختلفوا فی مدة لبثهم * (تنبیه) * أحصی فعل ماض أی أیهم ضبط أمرا أوقات لبثهم واما من جعله أفعل تفضیل فقال فی الکشاف لیس بالوجه السدید وذلک ان بناءه من غیر الثلاثی المجرد لیس بقیاس ونحو أعدی من الجرب وأفلس من ابن المذلق شاذ والقیاس علی الشاذ فی غیر القرآن ممتنع فکیف به ثم قال الله تعالی (نحن) أی بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (نقص علیک) یا أشرف الخلق (نبأهم) أی خبرهم العظیم قصا ملتبسا (بالحق) أی الصدق (انهم فتیة) أی شبان (آمنوا بربهم) أی المحسن الیهم الذی تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالی بقوله (وزدناهم) بعد ان آمنوا (هدی) بما قذفناه فی قلوبهم من المعارف (وربطنا علی قلوبهم) أی قویناها فصار ما فیها من القوی مجتمعا غیر مبدد فکانت حالهم فی الجلوة حالهم فی الخلوة (اذ قاموا) ای وقت قیامهم بین یدی الجبار دقیانوس من غیر مبالاة به حین عاتبهم علی ترک عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) وذلک لانه کان یدعو الناس الی عبادة الطواغیت فثبت الله تعالی هؤلاء الفتیة حتی عصوا ذلک الجبار وأقروا بربوبیة الله تعالی وصرحوا بالبراءة من الشرک والانداد بقولهم (لن ندعو من دونه الها) لان ما سواه عاجز والله (لقد قلنا اذا) ای اذا دعونا من دونه غیره (شططا) ای قولا ذا بعد عن الحق جدا وقال مجاهد کانوا أبناء عظماء مدینتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدینة من غیر میعاد فقال رجل منهم هو أکبر القوم انی لاجد فی نفسی شیئا ما أظن أن أحدا یجده قالوا ما تجد قال أجد فی نفسی ان ربی رب السموات والارض قالوا نحن کذلک فی انفسنا فقاموا جمیعا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقال عطاء قالوا ذلک عند قیامهم من النوم قال الرازی وهو بعید لان الله تعالی استأنف قصتهم بقوله تعالی نحن نقص علیک وقال عبید بن عمیر کان أصحاب الکهف فتیانا مطوقین مسورین ذوی ذوائب وکان معهم کلب صیدهم فخرجوا فی عید لهم عظیم فی زی وموکب وأخرجوا معهم آلهتهم التی یعبدونها وقد قذف الله تعالی فی قلوب الفتیة الایمان وکان أحدهم وزیر الملک فآمنوا وأخفی کل واحد ایمانه فقالوا فی أنفسهم نخرج من بین أظهر هؤلاء القوم لا یصیبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتی انتهی الی ظل شجرة فجلس فیه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن یکون علی مثل أمره من غیر ان یظهر ذلک ثم خرج آخر فخرجوا کلهم جمیعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعکم وکل واحد یکتم صاحبه مخافة علی نفسه ثم قالوا لیخرج کل فتیین فیخلوا ثم یفشی کل واحد سره الی صاحبه ففعلوا فاذا هم جمیعا علی الایمان واذا بکهف فی الجبل قریب منهم فقال بعضهم لبعض (هؤلاء قومنا) وان کانوا أسن منا وأقوی وأجل فی الدنیا (اتخذوا من دونه آلهة) أشرکوهم معه تعالی لشبهة واهیة (لولا) أی هلا (یأتون علیهم بسلطان) ای دلیل (بین) ای ظاهر مثل ما انا نحن علی تقریر معبودنا بالادلة الظاهرة فتسبب عن عجزهم عن دلیل أنهم أظلم الظالمین فلذلک قالوا (فمن أظلم) ای لا أحد أظلم (ممن افتری) ای تعمد (علی الله) ای الملک

قاله الخضر فی خرق السفینة فاردنا وقال فی قتل الغلام فاردنا ان یبدلهما ربهما خیرا منه وفی اقامة جدار الیتیمین فاراد ربک ان یبلغا اشدهما ویستخرجا کنزهما الات الاول فی الظاهر

الاعظم (كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض (واذ) اى وحين (اعتزلتموهم) اى قومكم (وما يعبدون) أى واعتزلتم معبودهم وقوله (الا الله) يجوز ان يكون استثناء متصلا على ما روى انهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة وان يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية بانهم لم يعبدوا غير الله تعالى (فأووا الى الكهف) اى الغار الذى فى الجبل (ينشر) اى يبسط (لكم) ويوسع عليكم (ربكم) اى المحسن اليكم (من رحمته) ما يكفيكم به المهم من أمركم فى الدارين (ويهيئ لكم من أمركم) اى الذى من شأنه ان يهمكم (مرفقا) اى ما ترتفقون به وتنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائى لا يذكر فى مرفق الانسان الذى فى اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيز فى الامر وفى اليد وقيل هما لغتان الا ان الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب فى قوله تعالى (وترى الشمس) للنبى صلى الله عليه وسلم او لكل أحد وليس المراد ان من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة فى المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيتهم لرأيته على هذه الصورة (اذا طلعت تزاور) أى تميل (عن كهفهم ذات اليمين) اى ناحيته (واذا غربت تقرضهم) اى تعدل فى سيرها عنهم (ذات الشمال) أى فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرأ السوسى بامالة ألف ترى المنقلبة بعد الراء فى الاصل بخلاف عنه والباقون بالفتح فى الوصل وهم على اصولهم فى الوقف وأبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو تزاور بتشديد الزاى وتخفيف الراء مضمومة وابن عامر بسكون الزاى ولا الف بعدها وتشديد الواو على وزن تحمر والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الزاى والواو ولا خلاف فى ضم الراء ولما بين انه تعالى حفظهم من حر الشمس بين انه نعمهم بروح الهواء ولطفهم بسعة الموضع فى فضاء الغار فقال تعالى (وهم فى فجوة منه) اى فى وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب فى النبأ العجيب بقوله تعالى (ذلك) اى المذكور العظيم (من آيات الله) اى دلائل قدرته (من يهد الله) اى الذى له الملك كله بخلق هذه الهداية فى قلبه كأصحاب الكهف (فهو المهتد) فى اى زمان كان فلن تجد له مضلا مغويا وفى ذلك اشارة الى ان اهل الكهف جاهدوا فى الله واسلموا له وجوههم فلطف بهم واعانهم وارشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة وان كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذى اصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرأ نافع وابو عمرو بزيادة ياء بعد الدال فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا (ومن يضلل) أى يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه (فلن تجد له وليا) أى معينا (مرشدا) اى يرشده للحق ثم انه تعالى عطف على ما مضى بقية أمرهم بقوله تعالى (وتحسبهم) اى لو رأيتهم ايها المخاطب (ايقاظا) اى منتبهين لان اعينهم مفتحة للهواء

افساد محض واثبات انعام محض وفى الثانى افساد من حيث القتل وانعام من حيث التبديل فاسنده الى نفسه وربه كذا قيل فى الاخير والاوجه ما قيل فيه انه عبر عن نفسه

لانه يكون ابقى لها جمع يقظ بكسر القاف (وهم رقود) اى نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى (ونقلبهم) اى فى ذلك الحال فى نومهم تقلبا كثيرا بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم (ذات) اى فى الجهة التى هى صاحبة (اليمين) منهم (وذات الشمال) لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلى الارض منها بطول المكث

(تنبيه) اختلف فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة انهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون رقودا على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء قال الرازى وهذا التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لا يدل عليها وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب ما ينفعهم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فائدة تقلبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولا ثيابهم اه قال الرازى وهذا أعجب من ذلك لانه تعالى لما قدر على ان يمسك حياتهم ثلثمائة سنة وأكثر فلا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب اه وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك وأكثر بحسب العادة وأما ما ذكره من أرواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه (وكلبهم باسط ذراعيه) أى يديه اى ملقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما *(تنبيه)* باسط اسم فاعل ماض وانما عمل على حكاية الحال والكسائى يعمله ويستشهد بالآية الكريمة وأكثر المفسرين على أن الكلب من جنس الكلاب وروى عن ابن جريج أنه كان أسدا ويسمى الاسد كلبا فان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى لهب فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فافترسه الاسد وقال ابن عباس كان كلبا أغر واسمه قطمير وعن على اسمه ريان واختلف فى قوله تعالى (بالوصيد) فقال ابن عباس هو باب الكهف وقيل العتبة قال السدى والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار قال الشاعر

بارض فضاء لا يسد وصيدها * على ومعروفى بها غير منكر

وقال مجاهد والضحاك الوصيد الكهف (لو اطلعت عليهم) بكسر الواو وعلى أصل التقاء الساكنين أى وهم على تلك الحالة (لوليت منهم) حال وقوع بصرك عليهم (فرارا) لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيرا منه لما أراده بهم حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب اجله (ولملئت منهم رعبا) أى فزعا اختلف فى ذلك الرعب كان لماذا فقال الكلبى لان اعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد ان يتكلم وهم نيام وقيل من وحشة المكان وقيل لكثرة شعورهم وطول اظفارهم وتقلبهم من غير حس كالمستيقظ وقيل ان الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم

فيه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العظماء فى علوم الحكمة فلم يقدم على القتل الا لحكمة عالية (قوله وجدها تغرب فى عين حمئة) ان قلت الشمس فى السماء

ربهما فنرجمهم وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسى بابدال الهمزة ياء على اصله وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط وقرأ ابن عامر والكسائى رعبا بضم العين والباقون بسكونها (وكذلك) أى كما فعلنا بهم ماذكرنا آية (بعثناهم) اى أيقظناهم آية (ليتساءلوا بينهم) اى ليسأل بعضهم بعضا عن احوالهم فى نومهم ويقظتهم فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا يقينا على كمال قدرة الله تعالى وليستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) مستفهما من اخوانه (كم لبثتم) نائمين فى ذا الكهف من ليلة أو يوم وهذا يدل على ان هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رأى من هيئتهم أو بغير ذلك من الامارات (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لانهم دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم فلما نظروا الى طول أظفارهم وشعورهم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) فأحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى وعلم أن مثل هذا التغيير لا يحصل الا فى الايام الطويلة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون بالادغام ثم لما علموا أن الامر ملتبس عليهم لا طريق لهم الى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه) اى بفضتكم وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الراء والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ماروى أن عرفجة اتخذ أنفا من ورق ويقال لها الرقة وفى الحديث فى الرقة ربع العشر (الى المدينة) اى التى خرجتم منها وهى مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على أن السعى فى امساك الزاد أمر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب واعتقاد أن لا مسبب للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتوكلين على الانفاقات على ما فى أوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضى الله تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه أوثق عليك نفقتك وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحب الى أن يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكان من اسير أهل بلده كلما عزم قوم على حج أتوه ان يحجوا به وألحوا عليه فيعتذر اليهم ويحمد لهم بداءهم فاذا انقضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر الا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها أزكى طعاما) قال ابن عباس يريد ما حل من الذبح لان عامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم أيها أزكى طعاما اى ايها ابعد عن الغصب وكل سبب حرام وقيل أيها أطيب وألذ وقيل ايها أرخص قال الزجاج قولهم أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف اى اى اهلها أزكى اى احل وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من السياق (فليأتكم) ذلك الاحد (برزق منه) لنأكل (وليتلطف) اى وليكن فى ستر وكتمان فى دخول المدينة وشراء الاطعمة حتى لا يعرف (ولا يشعرن) اى ولا يخبرن (بكم احدا) من أهل المدينة (انهم) اى اهل المدينة (ان يظهروا) اى يطلعوا عالين (عليكم يرجموكم) اى

الرابعة وهى بقدر كرة الارض مائة وستين او وخمسين او وعشرين مرة فكيف تسعها عين فى الارض تغرب فيها (قلت) المراد وجدها فى ظنه كما يرى راكب البحر الشمس

يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في القرآن كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله لارجمنك وقوله أن ترجمون وقال الزجاج اى يقتلوكم بالرجم والرجم اخبث أنواع القتل (او يعيدوكم فى ملتهم) ان لنتم لهم (ولن تفلحوا اذا) اى ان رجعتم الى ملتهم (ابدا) بل تكونوا خاسرين قال بعض العلماء ولا خوف على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين الامرين أحدهما ما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين (فان قيل) أليس انهم لو أكرهوا على الكفر حتى أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا (أجيب) بانهم خافوا أنهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقى فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال (فان قيل) ما النكتة فى العدول عن واحدكم الى أحدكم وكل ذلك دال على الوحدة (أجيب) بان النكتة فيه أن العرب اذا قالوا أحد القوم أرادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم أرادوا رئيسهم والمراد فى القصة أى واحد كان والقرآن الكريم أنزل بلغتهم فراعى ما راعوا (وكذلك) اى ومثل ما فعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم على مر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك (أعثرنا) أى أطلعنا غيرهم (عليهم) يقال عثرت على كذا علمته وأصله أن من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثر سببا لحصول العلم فأطلق السبب على المسبب بقوله تعالى (ليعلموا) متعلق باعثرنا والضمير قيل يعود على مفعول أعثرنا المحذوف تقديره اعثرنا الناس وقيل يعود الى أهل الكهف وهذا هو الظاهر (ان وعد الله) الذى له صفات الكمال بالبعث للروح والجثة معا (حق) لان قيامهم بعد نومهم ينقلبون فيها ثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت * ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى (وان) اى وليعلموا أن (الساعة) اى آتية (لا ريب) اى لا شك (فيها) *(تنبيه)* اختلف فى السبب الذى عرف الناس واقعة أصحاب الكهف فقال محمد بن اسحق ان ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس فى مملكته فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على اهل الحق ويقولون لا حياة الا الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رماد الجلس عليه ودأب ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكى أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين وألقى الله فى نفس رجل من تلك البلد الذى فيه الكهف أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة

وله يقال له تندوسيس الذى فى حياة الحيوان يقال تاودوسيوس فليحرر اه

طالعة وغاربة فيه فذو القرنين انتهى الى آخر البنيان فى جهة الغرب فوجد عينا واسعة فظن ان الشمس تغرب فيها (فان قلت) ذو القرنين كان نبيا او تقيا حكيما

فكيف خفي عليه هذا حتى وقع في ظنه ما يستحيل وقوعه (قلت) الانبياء والحكماء لا يبعد ان يقع منهم مثل ذلك الا ترى الى ظن موسى فيما انكره على الخضر وايضا فانه

اقحمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى اذا نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة نفوسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون لها اذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا في ألوانهم شيء يكرهونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون ان ملكهم دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا ليمليخا صاحب نفقتهم انبئنا بما قال الناس في شأننا عشية أمس عند الجبار وهم يظنون انهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل لهم انهم قد ناموا أطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم يمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد ان يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا ليمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما وأتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل يمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق يمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا ان يراه احد من أهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى يمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل الايمان اذا كان أمر الايمان ظاهرا فلما رآها عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا ينظر يمينا وشمالا ثم ترك الباب وتحول الى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرفها ورأى ناسا كثيرا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعري ما هذا اما عشية أمس فكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها واما اليوم فانها ظاهرة لعلي حالم ثم يرى انه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه والله ما ادري ما هذا اما عشية امس فليس على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل واما اليوم فاسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست المدينة التي اعرف والله ما اعلم مدينة قرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقال اسمها افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا او امرا اذهب عقلي والله يحق لي ان اسرع الخروج منها قبل ان اخزى فيها او يصيبني شر فاهلك ثم انه أفاق فقال والله لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل أن يفطن بي لكان أكيس فدنا من

الذين يبيعون الطعام فاخرج الورق التي كانت معه فاعطاها رجلا منهم فقال بعني بهذا الورق طعاما فاخذها الرجل فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من أصحابه فنظر اليها ثم الى آخر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا اصاب كنزا مخبأ في الارض منذ زمان ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من اجله فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن أنهم فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل أناس آخرون يأتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق أفضلوا علي قد اخذتم ورقي فامسكوها وأما طعامكم فليس لي حاجة به فقالوا من أنت يافتى وما شانك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وانت تريد ان تخفيه انطلق معنا وارناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت واتك ان لم تفعل نأت بك السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيئا وقال قد وقعت في كل شئ احذر منه قالوا يافتى انك والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما راوه لا يتكلم اخذوا كساه وطرحوه في عنقه وجعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل اخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه اهل المدينة صغيرهم وكبيرهم جعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ما هذا الفتى من اهل هذه المدينة وما رايناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم فلما اجتمع عليه اهل المدينة وكان متيقنا ان اباه واخوته في المدينة وانه من عظماء اهلها وانهم سياتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينظر متى ياتيه بعض اهله فيخلصه من بين ايديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسي المدينة ومدبريها الذين يدبران امرها وهما رجلان صالحان اسم احدهما اريوس واسم الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع راسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض افرغ اليوم علي صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني بها عند هذا الجبار وجعل يقول في نفسه فرق ما بيني وبين اخوتي ياليتهم يعلمون مالقيت وياليتهم ياتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فانا كنا تواثقنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى وان لا نشرك به شيئا ولا نفترق في حياة ولا موت فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين ورأى انه لم يذهب به الى دقيانوس افاق وسكن عنه البكاء فاخذ اريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا منها ثم قال احدهما اين الكنز الذي وجدت يافتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شاني وما أقول لكم فقال احدهما ممن انت فقال تمليخا اما انا فكنت ارى اني من اهل هذه المدينة قالوا فمن أبوك ومن يعرفك بها فانبأهم باسم ابيه فلم يجدوا احدا يعرفه ولا اباه فقال له احدهما انت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا حتى ينفلت منكم فقال له احدهما ونظر اليه نظرا شديدا اتظن انا نرسلك ونصدقك بان هذا مال ابيك ونقش هذه الورق وضربها اكثر من ثلثمائة سنة

قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين وكرة الارض بحيث تسع عين الماء عين الشمس فلم لا يجوز ذلك ولم نعلم به القصور عقولنا عن الاحاطة بذلك (قوله فلا نقيم لهم يوم

وأنت غلام شاب وتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وإني لأظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته فلما قال ذلك قال لهم تمليخا أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عما عندي فقالوا سل لا نكتمك شيئا قال ما فعل الملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملكا هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال تمليخا إني إذا لحيران وما هو بمصدقي أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لأشتري طعاما وأتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون فانطلقوا معي إلى الكهف الذي في جبل ينجلوس أريكم أصحابي فلما سمع أريوس ما يقول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها الله تعالى لكم على يد هذا الغلام فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه أريوس واسطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه فظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث إليهم ليأتوا بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذا هم بأريوس وأصحابه وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله تعالى ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلم الناس أن الساعة آتية لا ريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس ويطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا أسماءهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجودا وحمدوا الله تعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريدا إلى ملكهم الصالح تندوسيس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله تعالى على ملكك وجعلها آية للعالمين ليكون لهم نورا وضياء وتصديقا بالبعث فاعجل إلى فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر قام ورجع إليه عقله وذهب

القيامة وزنا) أي قدرا
لحقارتهم وليس لهم حسنة
تنصب لهم لأن الميزان
إنما ينصب ليوزن به
الحسنات في مقابلة
السيئات والكافر لا حسنة

همه فقال أحدا لقه رب السموات والارض وأعبد له وأسبح لك تطوّات على وذحتى فلم تطفئ النور الذي جعلته لا تباقي وللعبد الصالح قططيوس الملك فلما أتى به أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا مدينة فسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية تندوسيس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام تندوسيس فدنا منهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم وقام الملك تندوسيس اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم وقيل ان تمليخا لما حمل الى الملك الصالح قال له الملك من أنت قال انا رجل من أهل هذه المدينة وذكر انه خرج أمس او منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية فقدوا في الزمان الاول وأن اسماءهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح فنظر في اسمائهم فاذا اسمه مكتوب فذكر اسماء الآخرين فقال تمليخا هم اصحابي فلما سمع الملك ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعوني حتى أدخل على اصحابي وابشرهم فانهم ان رأوكم معي ارعبتموهم فدخل فبشرهم فقبضت روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا اليهم * ثم وقع التنازع في أمرهم بين اهل المدينة كما قال تعالى (اذ يتنازعون) اى اهل المدينة (بينهم أمرهم) اى أمر الفتية في البناء حولهم (فقالوا) اى الكفار (ابنوا عليهم) اى حولهم (بنيانا) يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله تعالى (ربهم اعلم بهم) يجوز أن يكون من كلام الله تعالى وان يكون من كلام المتنازعين فيهم (قال الذين غلبوا على امرهم) اى امر الفتية وهم المؤمنون (لنتخذن عليهم) اى حولهم (مسجدا) يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال الاولى ان يسد باب الكهف عليهم لئلا يدخل أحد عليهم ولا يقف على أحوالهم انسان وقال الآخرون بل الاولى أن تبنى على باب الكهف مسجدا وهذا القول يدل على أن اولئك الاقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة وقيل تنازعوا في مقدار مكثهم وقيل في عددهم واسمائهم * (تنبيه) * بنيانا يجوز أن يكون مفعولا به جمع بنيانة وان يكون مصدرا * ولما ذكر اصحاب الكهف عند النبي صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف في عددهم كما قال تعالى (سيقولون) اى المتنازعون في قصتهم من اهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض اهل الكتاب (ثلاثة رابعهم كلبهم) اى هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم (ويقولون) اى بعضهم (خمسة سادسهم كلبهم) فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الاول قول اليهود والثاني قول النصارى (فان قيل) لم جاءت سين الاستقبال في الاول دون الاخيرين (اجيب) بان في ذلك وجهين ان تدخل الاخيرين في حكم السين

لدوا ما قولهم وأما من خفت موازينه فأمه هاوية فهو في من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين فانه يدخل النار لكن لا يخلد فيها

كما تقول قد أكرم وأنتم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا وان تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له * ولما كان قولهم ذلك بغير علم كان (رجما بالغيب) أي ظنا في الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول له أي لظنهم ذلك (ويقولون) أي المؤمنون (سبعة وثامنهم كلبهم) قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) وأتبع القولين الاولين بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب ان يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وان يكون القول الثالث مخالفا لهما في كونه رجما بالغيب الوجه الثاني ان الواو في قوله تعالى وثامنهم هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه آخر لتوكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين كانوا في الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وقول محمد بن اسحق انهم كانوا ثمانية مردود فكأن الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد السبع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذه الآية في ثلاث آيات وهو قوله تعالى والناهون عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله تعالى ثيبات وأبكارا قال القفال وقولهم واو الثمانية ليس بشيء بدليل قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو في النعت الثامن اه وقد يجاب بان ذلك جرى على الغالب الوجه الثالث انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول كانوا سبعة قال الرازي واسماؤهم تمليخا مكسلمينا مشلينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة ليتصرفوا في مهماته والسابع كشفطيوش وهو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وبينونس ودرنواقس وكفشططونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم افسوس * (تنبيه) في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه وقيل الاقوال الثلاثة لاهل الكتاب والقليل منهم أي ولا علم بذلك الا في قليل منهم وأكثرهم على الظن * ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة اتبعها بان نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المراء وعن الاستفتاء أما النهي عن المراء فقوله تعالى (فلا تمار) أي تجادل (فيهم) اى في شأن الفتية (الا مراء) اى جدالا (ظاهرا) أي غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما في القرآن من غير أن تكذبهم في تعيين ذلك العدد ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب

* (سورة مريم عليها السلام) *
(قوله يرثني ويرث من آل يعقوب) اى يرث العلم والنبوة لا المال لخبر نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة ووقت يتعدى

الابالتي هي أحسن واما النهي عن الاستفتاء فقوله تعالى (ولا تستفت فيهم) أى ولا تسأل (منهم) اى من أهل الكتاب اليهود (أحدا) عن قصتهم سؤال مسترشد لانه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيما أوحى اليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤل عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق * ولما سأل أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخبركم به غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما وفى رواية اخرى أربعين يوما نزل (ولا تقولن لشئ) أى لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) أى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا ان يشاء الله) أى الا متلبسا بمشيئته بأن تقول ان شاء الله والسبب في ذلك ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد ان يموت قبل مجىء الغد ولم يبعد أيضا ان بقى حيا ان يعوقه عن ذلك الفعل سائر العوائق فاذا لم يقل ان شاء الله صار كاذبا في ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه ان يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير * (تنبيه) * قال كثير من الفقهاء اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق ان شاء الله لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لا يقع الطلاق وقيل المراد الا أن يشاء الله أى الا ان يأذن لك الله تعالى في ذلك القول والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك انك تفعل الفعل الفلاني الا أن يأذن لك الله تعالى في ذلك الاخبار وقد احتج القائلون بان المعدوم شئ بهذه الآية لان الشئ الذى سيفعله غدا معدوم في الحال فوجب تسمية المعدوم بانه شئ (واجيب) بان هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيأ وعندنا ان السبب فيه انه سيصير شيأ يجوز تسميته بكونه شيأ في الحال كما قال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه والمراد سيأتى أمر الله واختلف في معنى قوله تعالى (واذكر ربك اذا نسيت) فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى في رفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو اسبوع أو يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا في مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له في الكلام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بان قوله اذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب ان يكون متصلا أما عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان أبا حنيفة خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الامام ابو حنيفة هذا يرجع عليك لانك تأخذ البيعة بالايمان أترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى عنه واستدل له بان الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال تعالى وأوفوا بالعهد

قوله بوقت غير معين كذا بالنسخ والمناسب حذف غير اه مصحح

نفسه ومن وقد جمع بينهما في الآية وقيل من للتبعيض لا للتعدية لان آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء وعلى الاول المراد من آل يعقوب الانبياء لانهم الذين لا يورثون الا العلم

فاذا أتى بالعقد أو العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات فثبت ان الدليل قيما اذا كان الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل ان الاستثناء وحده لا يفيد شيأ فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا أفاد الالتزام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت وقال وهب مكتوب في الانجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب وقال الضحاك والسدي هذا في الصلاة المنسية قال الرازي وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام في هذه القصة وجعله مستأنفا يصيرا الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز وفي قوله تعالى (وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) وجوه الاول أن يكون قوله تعالى الا ان يشاء الله ليس بحسن تركه وذكره أولى من تركه وهو قوله لأقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثاني أنه لما وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى أن يهدين ربي لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به الثالث أن قوله عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا اشارة الى قصة أصحاب الكهف اي لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة نبوتي وصدقي في ادعاء النبوة ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدا من قصة أصحاب الكهف وقد فعل الله تعالى ذلك حين آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك * ثم شرع تعالى في آية هي آخر الآيات المذكورة في قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى (ولبثوا في كهفهم) يعني نياما (ثلثمائة) اى مدة ثلثمائة (سنين) قال بعضهم هذه السنون الثلثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت في قوله (وازدادوا تسعا) اى تسع سنين لان التفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة سنة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الرازي وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائي بغير تنوين في الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا في كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها أيام أو شهور أو سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير اى لبثوا سنين ثلثمائة وأما وجه قراءة الاولى فهو أن الواجب في الاضافة أن يقال ثلثمائة سنة الا انه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى بالاخسرين أعمالا وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندي ثلثمائة درهم وتسعة الا وأنت تعني تسعة دراهم ولو أردت ثيابا أو نحوها لم يجز لانه الغاز * ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه في مدة لبثهم في الكهف بقوله تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا) اى فهو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان أهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال قل الله أعلم بما لبثوا

قوله ما هو أعظم كذا بالنسخ ولعل الاولى الى ما هو أعظم اه مصححه

قوله الى يكون والنبوة (قوله الى آخره) (ان لي غلام) لى (قال) كيف استبعد زكريا ذلك (قالت) انما قاله استكبارا والمراد (قال) اى ابى اى جواب بما أجيب به عن طلبه الولد وهو قوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى فيزداد الموقنون ايقانا ويرتدع المبطلون

يعني بعد قبض أرواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله (له غيب السموات والارض) اى
ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما فانه يغيب ما يغيب عن ادراكنا والله عز ذكره لا يغيب
عن ادراكه شيء فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى (أبصر به وأسمع) كلمة تذكر في
التعجب اى ما أبصر الله تعالى بكل موجود وما أسمعه بكل مسموع (ما لهم) أى أهل
السموات والارض (من دونه) اى الله (من ولي) اى ناصر (ولا يشرك في حكمه) اى في
قضائه (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غني بذاته عن كل أحد وقيل الحكم هنا علم
الغيب اى لا يشرك في علم غيبه احدا وقرأ ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وبسكون الكاف على
نهي كل احد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف • (تنبيه) • احتج أصحابنا
رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولي في
سورة يونس عند قوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على جواز
كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول • اما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات
الحجة الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها الحجة
الثانية قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين من الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع
سنين وأن الله تعالى كان يعصمهم من حر الشمس ومن الناس من تمسك أيضا في هذه المسئلة
بقوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك على أنه غير
السيد سليمان والسيد جبريل • وأما الاخبار فكثيرة منها ما خرج في الصحيح عن أبي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصبي في زمن
جريج وصبي آخر اما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت
له أم فكان يوما يصلي اذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي الصلاة خير
أم رؤيتها ثم يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد
ذلك على أمه فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت
لهم أنا أفتن جريجا حتى يزني بي فأتته فلم تقدر على شيء وكان هناك راع يأوي بالليل الى
صومعته فلما أعياها جريج راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من
جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه ثم نخس الغلام قال أبو هريرة كأني أنظر
الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على
ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما
كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة
فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مر بها امرأة ذكروا أنها
سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها
فقالت له أمه في ذلك فقال ان الراكب جبار من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وان هذه
قيل انها زنت ولم تزن وقيل انها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله فأحببت أن أكون
مثلها ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحيح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فآواهم المبيت الى غار فدخلوه

أو قاله تعجب فرح وسرور
لا تعجب انكار واستبعاد
المذكور وهو أبو
يعقوب وقيل هو أخو
يوسف وقيل هو أخو
زكريا وقيل هو
عمران أبي مريم عليهم
السلام (قوله قال رب

فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره ولم يفرق من شئ وشئ فيما يقسم به على الله تعالى ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يسوق بقرة اذ حمل عليها التفتت البقرة وقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وأبو بكر وعمر ومنها ما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا أو صوتا في السحاب ان اسق حديقة فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا في السحاب أن اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فانى أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسي ولاهلى ثلثا واجعل للمساكين وابناء السبيل ثلثا وانفق عليها ثلثا وأما الآثار فكثيرة أيضا ولنبدأ منها ببعض ما نقل انه ظهر على يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ما ظهر على يد بعض الصحابة أما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته الى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا بالباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب وأما عمر رضى الله تعالى عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته النوع الاول ما روى انه لما بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال على بن أبي طالب رضى الله عنه كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح يا سارية الجبل فاستندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازى قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لا جرم قدر على أن يرى من تلك المسافة البعيدة العظيم النوع الثانى ما روى أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة فكان لا يجرى حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة أيها النيل ان كنت تجرى بامر الله فاجر وان كنت انما تجرى بامرك فلا حاجة بنا اليك فالقيت تلك الخرقة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك النوع الثالث لما وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر بالدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يا نار اسكنى باذن الله فالقوها في النار فانطفأت في الحال النوع الخامس ما روى ان رسول ملك الروم جاء الى عمر وطلب داره فظن ان داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو في الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال ان اهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال في نفسه ان وجدته خاليا فاقتله واخلص

قوله ولم يفرق من شئ الخ أى لم يفرق بين شئ وشئ اه

اجعل لى آية) الآية أى علامة (ان قلت) كيف طلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله به (قلت) ليبادر الى الشكر ويتعجل السرور اذ الحبل

الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله تعالى من الارض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمرو ولم يرشيأ فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم قال الرازي وأقول هذه الواقعة رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتمويهات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لاحد من أول عهد عمر الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولا شك ان هذا من أعظم الكرامات وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فأشياء كثيرة منها ما روى عن أنس قال سرت في الطريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالي أراكم تدخلون علي وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة ومنها انه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها أن جهجاها الغفاري انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته وأما علي رضي الله تعالى عنه فأشياء كثيرة أيضا منها ما روى ان واحدا من محبيه سرق وكان عبدا أسود فأتى به الى علي فقال أسرقت فقال بلى فقطع يده فانصرف من عند علي فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء فقال ابن الكواء من قطع يدك فقال له أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان عجبا قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعنا فاذا اليد قد برئت وأما ما روى عن بعض الصحابة فشئ كثير ونذكر منها شيأ قليلا منها ما روى محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها وركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها اسد فخرج الاسد الي يريدني فقلت يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدم الاسد الي ودلني على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعني ورجع ومنها ما روى ثابت عن أنس ان اسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان في يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا احدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها ما روى انه قيل لخالد بن الوليد ان في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا على فرس ومعه خمر فقال ما هذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه فقال أتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها فلما فتحوا اذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل فقال والله هذا دعاء خالد ومنها الواقعة المشهورة وهي ان خالد بن الوليد أكل كفا من السم على اسم الله وما ضره ومنها ما روى ان ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم ما يخافه ولو انه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ ومنها ما روى ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا

لا يظهر في أول السلوك فأراد سمرقنه أول وجوده ومعجزة جعل الله آية وعن كلام الناس (قوله ولم يكن جبارا عصيا) قال ذلك هنا وقال بعده

باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها وأما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاول أنه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فجعل ايذاء الولي قائما مقام ايذائه وتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني استسقيتك فما سقيتني استطعمتك فما أطعمتني فيقول يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندي وكذا في السقي والاطعام فدلت هذه الاخبار على أن أولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز ايصال العبد الى هذه الدرجات فأي بعد أن يعطيه الله تعالى كسرة خبز أو جرعة ماء أو يسخر له كلبا أو دودة الوجه الثاني أنه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا في يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال أنا سمعه وأنا بصره وهذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء عنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة من الماء في مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل أن الله تعالى ليس أهلا لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل أن المؤمن ليس أهلا لأن يعطيه الله هذه العطية والاول قدح في قدرة الله تعالى وهو كفر والثاني باطل فان معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد في مفازة وتسخير حية أو أسد فان أعطاه المحبة والذكر والشكر من غير سؤال أولى من أن يعطيه شربة ماء في مفازة فأي بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول أن ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة فلو حصل لغير النبي لبطلت هذه الدلالة الوجه الثاني أن الله تعالى قال وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بأن الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على هذا الوجه طعن في هذه الآية وأيضا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال ان الولي ينتقل من بلده الى الحج في اليوم الواحد الوجه الثالث أن هذا الولي الذي يظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب بالبينة أم لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطالب بالدليل الظني وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعي فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل وأجيب عن الاول بأن الناس اختلفوا هل يجوز للولي دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما ان النبي يدعي المعجزة ويقطع بها والولي اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجزة يجب ظهورها والكرامة

والمعلوم جواز انتقالان
الاول في حق يحيى والثاني
في حق عيسى عليهما
السلام (قوله وسلام عليه
يوم ولد) قاله هنا في قصة
يحيى منكرا وقال بعد في
قصة عيسى والسلام

لا يجب ظهورها وأجيب عن الثانى بأن قوله تعالى وتحمل اثقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء أحوال نادرة تصير كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف وأجيب عن الثالث بان التمسك بالامور النادرة لا يعول عليه فى الشرع فلا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه ان يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون أكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أشد انواع البلاء والذى يدل على ان الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه الاول ان الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامات فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور الوجه الثانى ان من اعتقد فى نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم فى قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق فى جنب جلاله تقصير وكل شكر فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل وجدت فى بعض الكتب انه قرئ فى مجلس الاستاذ أبى على الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان الحق رفع عملك ان لا يبقى عندك مرتقى عملك فى نظرك فان بقى عملك فى نظرك فهو غير مرفوع وان لم يبق عملك فى نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع فى حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق يؤدى ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول فى آخر كل واحد منها ولا فخر اى لا أفخر بهذه الكرامات وانما أفخر بالمكرم والمعطى الوجه الرابع انه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا اى فى ثوابنا ورهبا اى من عذابنا وقيل رغبا فى وصالنا ورهبا من عقابنا قال بعض المحققين والاحسن ان يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفى هذا القدر كفاية لأولى الالباب جعلنا الله تعالى وأحبابنا من أهل ولايته بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته * ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة الى النبى صلى الله عليه وسلم على انه وحى معجز أمره ان يداوم درسه ويلازم أصحابه بقوله تعالى (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك) اى القرآن واتبع ما فيه واعمل بما فيه (لا مبدل لكلماته) اى لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وقال بعضهم مقتضى هذا أن لا يتطرق النسخ اليه وأجاب بان النسخ فى الحقيقة ليس تبديلا لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طرو الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا لا يحتاج اليه مع التفسير المذكور (وان تجد من دونه) اى الله (ملتحدا) اى ملجأ فى البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع القرآن * ونزل فى عيينة بن حصن الفزارى لما أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان الفارسى وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها فان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء

على قوله ولت معرضا لان الاول من الله والفعل منه كثير والثانى من عيسى وال للاستغراق او للعهد كما فى قوله تعالى كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول اى ذلك

اى كما قال قوم نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون فهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا او اجعل
لهم مجلسا (واصبر نفسك) اى احبسها وثبتها (مع الذين يدعون ربهم) ونظير هذه الآية
ما سبق فى سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون
وجهه ففى تلك الآية نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفى هذه الآية أمره
بمجالستهم والمصابرة معهم وفى قوله تعالى (بالغدوة والعشى) وجوه الاول انهم مواظبون
على هذا العمل فى كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى الا شتم الناس
الثانى المراد صلاة الفجر والعصر الثالث ان المراد الغداة وهو الوقت الذى ينتقل فيه
الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو
الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن اليقظة الى النوم والانسان العاقل
يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه وقرأ ابن عامر
بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وألف
بعدها والرسم فى المصحف بالواو هنا وفى سورة الانعام (يريدون) بعبادتهم (وجهه) تعالى اى
رضاه وطاعته لا شيأ من اعراض الدنيا (ولا تعد) اى تنصرف (عيناك عنهم) الى غيرهم
وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم ان يصرف بصره ونفسه عنهم لاجل رغبته
فى مجالسة الاغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى (تريد زينة الحيوة الدنيا) فى موضع الحال اى
انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ولما بالغ تعالى
فى أمره فى مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات الى أقوال الاغنياء
والمتكبرين بقوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا
اى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) اى فى طلب الشهوات (وكان أمره
فرطا) اى اسرافا وباطلا وهذا يدل على ان أشر أحوال الانسان ان يكون قلبه خاليا عن
ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعى الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر
غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان
النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان
منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق
واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا أعرض
القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض عن الحق هو المراد
بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى
أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كنت جالسا فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم
ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
ما الذى كنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت ان أصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا
وقال أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الاغنياء

السلام الموجه اليه
موجه الى (قوله فأرسلنا
اليها روحنا) اى جبريل
(فان قلت) كيف قال ذلك
مع ان اتفاق العلماء على ان
الوحى لم ينزل على امرأة
ولهذا قالوا فى قوله

بمقدار خمسمائة سنة * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يلتفت الى أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال تعالى بعده (وقل الحق) اى وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذى جئتكم به فى أمر أهل الكهف وغيرهم من هذا الوجه العربى المعرى عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر الحجج الحق كائنا (من ربكم) المحسن الحكيم فى أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسى مع المؤمنين والاعراض عمن سواهم وغير ذلك لا ما قلتموه فى أمرهم ويجوز ان يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده (فمن شاء) اى منكم ومن غيركم (فليؤمن) بهذا الذى قصصناه فيهم وفى غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وان كان فقيرا رث الهيئة ولم ينفع الا نفسه (ومن شاء) منكم ومن غيركم (فليكفر) فهو أهل لان يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضى استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة وعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن على رضى الله عنه انه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد اى فهى كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المؤمن وضرر الكفر يعود على الكافر كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها * ولما هدد السامعين بما حاصله يختار كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله أتبعه بذكر الوعيد والافعال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والاعمال الصالحة أما الوعيد فقوله تعالى (انا أعتدنا) اى هيأنا بما لنا من العظمة والقدرة (للظالمين) اى لمن أنف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقراء ومساكين وكذا كل من لم يؤمن (نارا) وهى الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين الاولى قوله تعالى (أحاط بهم) كلهم (سرادقها) اى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة من كل الجوانب وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى (وان يستغيثوا) اى يطلبوا الغوث (يغاثوا بماء) ووصف هذا الماء بصفتين الاولى قوله تعالى (كالمهل) وهو كما فى حديث مرفوع دردى الزيت وعن ابن مسعود انه دخل بيت المال وأخرج نقاعة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل وقال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذبته من نحاس أو ذهب أو فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل ان يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم أفيضوا علينا من الماء وقال تعالى فى آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذى يعم كل أبدانهم كالقميص والصفة الثانية للماء قوله تعالى (يشوى الوجوه) اى اذا قرب الى الفم للشرب يكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى (بئس الشراب) اى ذلك الماء الذى

واوحينا الى ام موسى ان
وحى الهام وقيل وحى
منام (قلت) لا نسلم ان
الوحى لم ينزل على امرأة
فقد قال مقاتل فى قوله
واوحينا الى ام موسى انه
كان وحيا بواسطة جبريل

هو كالمهل لان المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ فى احراق الاجساد مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم بقوله تعالى (وساءت) اى النار وقوله تعالى (مرتفقا) تمييز منقول من الفاعل اى قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتى فى الجنة وحسنت مرتفقا والا فاى ارتفاق فى النار ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين فقال تعالى (ان الذين آمنوا) ولما كان الايمان هو الاذعان للاوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله تعالى (وعملوا الصالحات) ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى (انا لا نضيع) اى بوجه من الوجوه (أجر من أحسن عملا) وهذه الجملة خبر ان الذين وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى أجرهم اى نثيبهم بما تضمنه (أولئك لهم جنات عدن) اى اقامة فكأنه قيل فما لهم فيها فقيل (تجرى من تحتهم) اى من تحت منازلهم (الانهار) وذلك لان أفضل المساكن ما كان يجرى فيه الانهار أو الماء فكأنه قيل ثم ماذا فقيل (يحلون فيها) وبنى الفعل للمجهول لان المقصود وجود التحلية وهى امرتهم انما يؤتيهم من الغيب فضلا من الله تعالى ولما كانت نعم الله لا يحصى نوع منها قال تعالى مبعضا (من أساور) جمع اسورة كاحمرة جمع سوار كان يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة فى بعض الاقاليم كاهل فارس وقيل من زائدة وقيل للابتداء ومن فى قوله تعالى (من ذهب) للبيان صفة لاساور وتنكيرها لتعظيم حسنها عن الاحاطة به وقيل للتبعيض ولما كان اللباس جزاء العمل فكان موجودا عندهم أسند الفعل اليهم فقال (ويلبسون ثيابا خضرا) لان الخضرة أحسن الالوان وأكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى (من سندس) وهو مارق من الديباج (واستبرق) وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وفى آية أخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة للرقيق ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم فيها بانه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى (متكئين فيها) اى لانهم فى غاية الراحة (على الارائك) جمع أريكة وهى السرير فى الحجلة وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى (نعم الثواب) اى الجزاء الجنة ولو لم يكن لها وصف غير ما عمتم فكيف ولها من الاوصاف ما لا يعلم حق علمه الا الله تعالى والى ذلك اشار بقوله تعالى (وحسنت) اى الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى (مرتفقا) اى مقرا ومرتفقا ومجلسا ولما افتخر الكفار باموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين بين الله تعالى ان ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا او الغنى فقيرا واما الذى يجب الافتخار به فطاعة الله تعالى وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور بقوله تعالى (واضرب لهم) اى لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم (مثلا) لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا واعتمدوا عليه وركنوا اليه ولم يشكروا من آتاهم اياه عليه بل أداهم الى الافتخار والتكبر على من زوى ذلك عنهم اكراما له وصيانة عنه (رجلين) الى آخر الآية واختلف فى سبب نزولها فقيل نزلت فى رجلين من أهل مكة من بنى مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الاسود بن عبد ياليل وهما ابنا عبد الاسد بن عبد ياليل وقيل

والمتفق عليه انما هو وحى الرسالة لا مطلق الوحى والوحى هنا انما هو بشارة الولد لا بالرسالة (قوله انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) ان ذلك كيف صح ذلك مع انه فات ص ٣٠٣

مثال لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بني اسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفور وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة والصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال كانا رجلين شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فقسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار واني مشتر منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم اني أخطب اليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم اني اشتري خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر اليه الآخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيأ فطرده وروى انه لما أتاه أخذ بيده فجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين أي اذكر لهم خبر رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) أي بستانين يستر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما (من أعناب) لانها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة الاولى قوله تعالى (وحففناهما) أي أطفناهما من جوانبهما (بنخل) لانها من أشجار البلاد الحارة وتصبر على الحرور بما منعت عن الاعناب بعض أسباب العاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكان النخل كالا كليل من وراء العنب *(تنبيه)* الحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال أحف به القوم أي أطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى (وجعلنا بينهما) أي أرض الجنتين (زرعا) ليحصل شمول الآفة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان أثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة في القوت فكانت الجنتان أرضا جامعة لخير الفاكهة وأفضل الاقوات وعمارتهما متواصلة متشابكة لم يتوسطهما ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الاطراف وتباعد الاكناف وحسن الهيئات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى (كلتا) أي كل واحدة من (الجنتين) المذكورتين (آتت أكلها) أي ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملا غير منسوب شيء منهما الى نقص ولا رداءة وهو معنى (ولم تظلم) أي ولم تنقص (منه شيأ) يعهد في سائر البساتين فان الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالبا والظلم النقصان تقول الرجل ظلمني حقي أي نقصني *(تنبيه)* كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد ومعرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وانما اذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف في الاحوال الثلاثة كقولك جاءني كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءني كلتا

انما يتعوذ من الفاسق
لا من التقي (قالت) معناه
ان كنت ممن يتقي الله فانت
تنتهي عني بتعوذي به
منك وقيل كان رجلا
اسمه تقي وكان فاجرا
فتعوذت منه (قوله ليهب

أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك واذا أضيفا الى المضمر كانا في الرفع بالالف وفي الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف في الاحوال الثلاثة أيضا فقوله تعالى آتت أكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى (وفجرنا خلالهما نهرا) أي وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولأوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم اي دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما الصفة الخامسة قوله تعالى (وكان له) اي صاحب الجنتين (ثمر) اي أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة أي كان مع الجنتين أشياء من الاموال ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والآلات بجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو ثمرهنا وثمره الآتي بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة ان الثمر أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة

واقد رأيت معاشرا * قد أثمروا مالا وولدا

وقال النابغة

مهلا فداء لك الاقوام كلهم * وما أثمر من مال ومن ولد

(فقال) أي هذا الكافر (لصاحبه) أي المسلم المجعول مثلا لفقراء المؤمنين (وهو) أي صاحب الجنتين (يحاوره) أي يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون الى الدنيا (أنا أكثر منك مالا) لما ترى من جناني وثماري وقرأ نافع مد الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا في الوصل وأما في الوقف فبالالف للجميع وسكن قالون وأبو عمرو والكسائي هاء وهو وضمها الباقون ورقق ورش راء يحاوره (وأعز نفرا) أي ناسا يقومون معي في المهمات وينفعون عند الضرورات لان ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى اكثر الاغنياء من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فان ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه (ودخل جنته) بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها وأفرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة واشارة الى انه لا جنة له غيرها لانه لاحظ له في الآخرة (وهو) أي والحال أنه (ظالم لنفسه) لاعتماده على ماله والاعراض عن ربه ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى (قال ما أظن أن تبيد) أي تنعدم (هذه) أي الجنة (أبدا) لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته ثم زاد في الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فانكر البعث بقوله (وما أظن الساعة قائمة) أي كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه واعتمادا عليه وقوله (ولئن رددت الى ربي) الحسن الى في هذه الدار في الساعة اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى ما يزعم صاحبه أن الساعة قائمة (لأجدن خيرا منها) اي من هذه الجنة (منقلبا) أي مرجعا لانه لم يعطني الجنة في الدنيا الا ليعطيني في الآخرة أفضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء

(لك) اي ليهب ربك لك غلاما وقرئ لأهب لك بتقدير انما أنا رسول ربك يقول لك أرسلت رسولا اليك لأهب لك فيكون حكاية عن الله لا من قول جبريل او باسناد

اكرامه عليه ومكانته عنده وانه ما أولاه الجنتين الا لاستحقاقه واستئهاله وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله ان لى عنده للحسنى لأوتين مالا وولدا (قال له صاحبه) أى المؤمن (وهو) أى والحال أن ذلك الصاحب (يحاوره) أى يراجعه منكرا عليه (أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك آدم من تراب لان خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) متولدة من أغذية أصلها تراب هى مادتك القريبة (ثم سواك) أى عدلك بعد أن أولدك وطورك فى أطوار النشأة (رجلا) أى كملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لان منشأ الشك فى كمال قدرة الله تعالى ولذلك ترتب الانكار على خلقه اياه من التراب فان من قدر على بدء خلقه مرة قدر على أن يعيده منه ولما أنكر على صاحبه أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال مؤكدا لاجل انكار صاحبه مستدركا لاجل كفرانه (لكنا) أصله لكن أنا نقلت حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها كما قال القائل

وترميننى بالطرف أى أنت مذنب * وتقليننى لكن اياك لا أقلى

أى لكن أنا لا أقليك ولما كان سبحانه وتعالى لا شئ أظهر منه ولا شئ أبطن منه أشار الى ذلك جمعا بالاضمار قبل الذكر فقال (هو) أى الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلا ويجوز أن يكون الضمير للذى خلقك (الله) أى المحيط بصفات الكمال (ربى) وحده لم يحسن الى خلقا ورزقا أحد غيره وهذا اعتقادى فى الماضى والحال وقرأ ابن عامر باثبات الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف بعد النون وقفا وحذفها وصلا (فان قيل) قوله لكنا استدراك لماذا (أجيب) بانه لقوله أكفرت فكأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال فى قول المؤمن (ولا أشرك بربى) أى المحسن الى فى عبادتى (أحدا) وجوها أحدها انى لا أرى الفقر والغنى الا منه فاحمده اذا أعطى وأصبر اذا ابتلى ولا أتكبر عندما ينعم على ولا أرى كثرة الاموال والاعوان من نفسى وذلك لان الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء وثالثها ان هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساويا بالخلق فى هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد اثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر (ولولا اذ) أى وهلا حين (دخلت جنتك قلت) عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها وفى غيرها الى الله تعالى وهو (ما شاء الله) أى الامر ما شاء الله او ما شاء الله كائن على ان ما موصولة أى وأى شئ شاء الله كان على أن ما شرطية والجواب محذوف أى اقرارا بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام على شاء أبدل الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر وأظهر اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت (لا قوة الا بالله) اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله تعالى واقداره أى لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى غير ذلك الا بالله وفى الحديث من اعطى خيرا من

اهل

الهبة الى جبريل مجازا أى لا كون سببا فى هبة الولد بواسطة النفخ فى درعك فهو من قول جبريل (قوله ولم أك بغيا) لم يقل بغية لما قاله ابن الانبارى من ان بغيا غالب فى النساء

اهل ومال فيقول عند ذلك ما شاء الله لا قوة الا بالله لم ير فيه مكروها ثم ان المؤمن لما علم الكافر بالايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) اى من جهة المال والولد يحتمل أن يكون أنا فصلا وأن يكون تأكيدا للمفعول الاول وقرأ قالون وابو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقوله تعالى (فعسى ربى) اى المحسن الى (أن يؤتين) من خزائن رزقه (خيرا من جنتك) اما فى الدنيا واما فى الآخرة لايمانى جواب الشرط (ويرسل عليها) اى جنتك (حسبانا) جمع حسبانة اى صواعق (من السماء فتصبح) بعد كونها قرة العين بما تم تربه من الاشجار والزروع (صعيدا زلقا) اى ارضا ملساء باستئصال نباتها واشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله (او يصبح ماؤها غورا) اى غائرا فى الارض لا تناله الايدى والدلاء مصدر وصف به كالزلق (فلن تستطيع له) اى للماء الغائر (طلبا) بحيث لا تقدر على رده الى موضعه ثم انه اخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال (وأحيط) اى وقعت الاحاطة بالهلاك وبنى للمفعول لان المنكر حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته (بثمره) اى الرجل المشرك كله واستؤصل هالكا ما فى السهل منه وما فى الجبل وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر قال بعض المفسرين ان الله تعالى ارسل عليها نارا فاهلكتها وغار ماؤها (فأصبح يقلب كفيه) ندما ويضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد لانه فى معنى الندم فعدى تعديته كأنه قيل فأصبح يندم (على ما انفق فيها) اى فى عمارتها وغمائها (وهى خاوية) اى ساقطة (على عروشها) اى دعائمها التى كانت تحتها فسقطت على الارض وسقطت هى فوقها وقوله تعالى (ويقول) عطف على يقلب او حال من ضميره (يا) للتنبيه (ليتنى) تمنيا لرد ما فاته لحزنه وذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك بالاعتماد على الفانى (لم اشرك بربى أحدا) كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرط فى الماضى لاجل ما فاته على الدنيا لا حرصا على الايمان لحصول الفوز فى العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة (فان قيل) ان هذا الكلام يوهم ان جنته انما هلكت بشؤم شركه وليس مرادا لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا لما قال يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا فقد ندم على الشرك ورغب فى التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا ثم قال تعالى بعده (ولم تكن له فئة) أى جماعة من نفره الذين افتخر بهم ولا من غيرهم (ينصرونه) مما وقع فيه (من دون الله) عند هلاكها (وما كان) هو (منتصرا) بنفسه بل ليس الامر فى ذلك الا لله وحده (أجيب) عن الاول بانه لما عظمت حسراته لاجل أنه أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضا فى عمره كله عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقى محروما من الدنيا والدين وعن

وكما تقول العرب رجل عدل فذكروا التاء فيه بنى فعل اجراه مجرى ما اذن وعاذ وهو فعيل بمعنى فاعل فذكروا التاء فيه كما قال فى قوله ان رحمة الله قريب من المحسنين ولو افقه

الثانى بانه انما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب فى ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرأ حمزة والكسائى يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث * ولما انتج هذا المثل قطعا أنه لا أمر لغير الله تعالى المرجو لنصر أوليائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال أعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغنائهم وحده وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك فى قوله تعالى (هنالك) أى فى مثل هذه الشدائد العظيمة (الولاية لله) أى الذى له الكمال كله وقرأ حمزة والكسائى بكسر الواو أى الملك والباقون بفتحها أى النصرة وقوله تعالى (الحق) قرأه أبو عمرو والكسائى برفع القاف على الاستئناف والقطع نعتا للولاية تنبيها على ان فزعهم فى مثل هذه الازمان اليه تعالى دون غيره برهان قاطع على انه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض الزائل من اجهل الجهل وان المؤمنين لا يضرهم فقرهم ولا يسوغ طردهم لاجله وانه يوشك ان يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقرأه الباقون بخفضها على الوصف أى الثابت الذى لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه (هو خير ثوابا) من ثواب غيره لو كان يثيب (وخير عقبا) أى عاقبة للمؤمنين وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز * ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التى أبطرتهم فكانت سببا لشقاوتهم وهم يحسبون انها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس فى قلة ثوابها وسرعة فنائها وان من تكبر كان اخس منها فقال (واضرب) أى صير (لهم) أى لهؤلاء الكفار المغترين بالعرض الفانى المفتخرين بكثرة الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى (مثل الحيوة الدنيا) مفعول اول ثم ذكر المثل بقوله تعالى (كماء) وهو المفعول الثانى (انزلناه) بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى (من السماء) تنبيها على بليغ القدرة فى امساكه فى العلو وانزاله فى وقت الحاجة (فاختلط) أى فتعقب وتسبب عن انزاله انه اختلط (به نبات الارض) أى التف بسببه حتى خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة فى كثرته ثم اذا انقطع ذلك بالمطر مدة جف ذلك النبات (فأصبح هشيما) أى يابسا متفرقة اجزاؤه (تذروه) أى تنثره وتفرقه (الرياح) فتذهب به والمعنى انه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عما قليل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (وكان الله) أى المختص بصفات الكمال (على كل شئ) من دون ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة (مقتدرا) أزلا وأبدا بتكوينه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا فأحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن تنتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به * (تنبيه) * قوله تعالى فأصبح يجوز أن يكون على بابه فان أكثر ما يطرق من الآفات صباحا كقوله تعالى فأصبح يقلب كفيه ويجوز أن يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل

الفواصل (قوله فقولى إنى نذرت للرحمن صوما) الآية مرتب على مقدر بينه وبين الشرط تقديره فاما ترين من البشر أحدا فسألك الكلام فقولى إنى نذرت الآية وبهذا

أصبحت لا أحمل السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا

* ولما بين سبحانه وتعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ادخال هذا الجزئي تحت هذا الكلي فينعقد به قياس بين الانتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض أنتج انتاجا بديهيا ان المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال * ثم ذكر تعالى مايدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال (والباقيات الصالحات خير) أي من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت أن خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وأن خيرات الآخرة رفيعة شريفة والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالا أحدها أنها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله والغزالي في تفسير هذه الزيادة وجه لطيف فقال روي أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فيه أن مراتب الثواب أعظمها هو الاستغراق في معرفة الله تعالى وفي محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل مالا يليق به وكل مالا ينبغي فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد أقر بان الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل مالا ينبغي فهو المبتدئ لكل ما ينبغي ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة فلاجرم تضاعفت درجات الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد أقر بان الذي تنزه عن كل مالا ينبغي وهو المبتدئ لكل ما ينبغي ليس في الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله أكبر فمعنى انه أكبر انه اعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فلاجرم صارت درجات الثواب اربعة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الي مما طلعت عليه الشمس وعن أبي سعيد الخدري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يارسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها أنها الصلوات الخمس ثالثها أنها الطيب من القول رابعها وهو أعمها وأولاها انها اعمال الخيرات التي تبقى ثمراتها أبد الآباد فيندرج في ذلك الصلوات واعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعا الى محبة الله تعالى ومعرفته وخدمته وأما ما دعا الى ذلك من قول او عمل الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج عن ذلك لان كل ما سوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلا وسعيا ضائعا

سقط ما قيل في ان قولها فلن أكلم اليوم انسيا كلام بعد النذر اذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده (قوله وأوصاني بالصلوة والزكوة) * ان قلت كيف أمر بذلك مع انه

وأما الحق فانه فهو الباقي الذي لا يقبل الزوال لا جرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولما كان أهم ما الى من حصل البقاء ليس لكفايته بل لمن يعقبه في الوقت حاجته قال تعالى (عند ربك) أي الجليل المواهب العالم بالعواقب وخير من المال والبنين في العاجل والآجل (ثوابا وخير) من ذلك كله (أملا) أي من جملة ما يرجوه فيها من الثواب ويرجونه بها من الامل لان ثوابها الى بقاء آمالها كل ساعة في تحقق وعلو وارتقاء وأمل المال والبنين بخلاف أحوج ما يكون اليهما وعن قتادة كل ما أريد به وجه الله تعالى خير ثوابا أي ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الامل لان صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وذكر منها أنواعا النوع الاول قوله تعالى (ويوم) أي واذكر لهم يوم (نسير) بأيسر أمر (الجبال) عن وجه الارض بعواصف القدرة كما نسير نبات الارض بعد أن صار هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب * (تنبيه) * ليس في لفظ الآية ما يدل الى أين تسير قال الرازي ويحتمل أن يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد تسير اليها كما في قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين باسناد فعل التسيير اليه تعالى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله تعالى * النوع الثاني قوله تعالى (وترى الارض) بكمالها (بارزة) لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقيل انها ابرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فاذا هي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف كما قال تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقال تعالى وأخرجت الارض أثقالها النوع الثالث قوله تعالى (وحشرناهم) اي الخلائق قهرا الى الوقت الذي تنكشف فيه الخبآت وتظهر القبائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه بصير (فلم نغادر) اي نترك (منهم) اي الاولين والآخرين (أحدا) لانه لا ذهول ولا عجز ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم (فان قيل) لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى (اجيب) بان ذلك يقال للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال العظائم كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك * ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم أنه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين ولان المخوف العرض لا لكونه من معين (وعرضوا على ربك) المحسن اليك برفع أوليائك وخفض اعدائك وقوله تعالى (صفا) حال اي مصطفين واختلف في تفسيره على وجوه الاول أن تعرض الخلق كلهم صفا واحدا لاتساع الارض ظاهرين لا يحجب

وخطاب كان طفلا بعد التكليف انما يكون بعد البلوغ والتمييز (قلت) ذلك لا يدل على أنه أوصاه بأداء ذلك في الحال بل أوصاه في الحال بالاداء بعد البلوغ والتمييز أو أن

بعضهم بعضا ثانيها الا يبعد ان يكونوا صفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا كقوله تعالى يخرجكم طفلا أي أطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما في قوله تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف أي قياما وقيل كل أمة صف ويقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي فرادى حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكري البعث (بل زعمتم أن) أي انا (لن نجعل لكم موعدا) أي مكانا ووقتا لجمعكم فيه هذا الجمع فنجز لكم ما وعدناكم به على ألسنة رسلنا فكنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار في الدنيا وشاهدتم ان القيامة والبعث حق وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا وان اول خلق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من امتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فاقول يارب اصحابي فيقول انك لا تدري ما احدثوا بعدك فاقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لي انهم لم يزالوا مدبرين على اعقابهم منذ فارقتهم وفي رواية فاقول سحقا سحقا وقوله غرلا اي قلفا الغرلة القلفة التي تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا اي بعدا قال بعض العلماء المراد بهؤلاء الذين ارتدوا من العرب بعده وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال الامر أشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائي في رواية لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث اصبحوا وتمسي حيث امسوا (ووضع) بعد العرض المستعقب للجمع بادنى اشارة (الكتاب) المضبوط فيه دقائق الاعمال وجلائلها على وجه بين لا يخفى على قارئ ولا غيره شيء منه فيوضع كتاب كل انسان في يده اما في اليمين واما في الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) اي خائفين خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة من الخلق (مما فيه) من قبائح اعمالهم وسيئ افعالهم واقوالهم (ويقولون) عندما يتم ما فيه من السيئات وقولهم (يا) للتنبيه (ويلتنا) أي هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه كناية على انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك (مال هذا الكتاب) اي أي شيء له حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا (لا يغادر) أي لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا (الا احصاها) أي عدها واثبتها في هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى انا كنا نستنسخ

الله صوره عقب ولادته بالغا مميزا بدليل قوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما انه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام وهو أقرب الى

ما كنتم تعملون * (تنبيه) * ادخال التاء في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء احترزوا من الصغائر قبل الكبائر لان الصغائر هي التي جرتهم الى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذرا من أن تقعوا في الكبائر وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فانضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي مثبتا في كتابهم (ولا يظلم ربك) أي الذي رباك بخلق القرآن (أحدا) منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي الاعداء بما يستحقونه تعذيبا لهم ويجازي أولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيما لهم روى الامام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله انه سافر الى عبد الله بن أنيس مسيرة شهر يستأذنه فاستأذن عليه قال فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته قلت حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت أن تموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس أو قال العباد حفاة عراة بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شئ ثم ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ولا ينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل النار عليه حق حتى أقتص منه حتى اللطمة قال فقلنا كيف وانا نأتي حفاة عراة بهما قال بالحسنات والسيآت وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب الله الناس في القيامة على ملة يوسف وأيوب وسليمان فيدعو المملوك فيقال ما شغلك عني فيقول جعلتني عبدا لآدمي فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك ان عبدني فيؤمر به الى النار ثم يدعو المبتلى فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا أيوب فيقول قد ابتليت هذا باشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتي ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله تعالى من الغنى والسعة فيقول ماذا عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى سليمان فيقول هذا عبدي آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لن تزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به * ولما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا باموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى (واذ) أي واذكر اذ (قلنا للملائكة) الذين هم أطوع شئ لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر باصله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين وأنا أشرف منه في الاصل والنسب فكيف أسجد له وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس هؤلاء الفقراء مع أنا أناس من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على أن هذه الطريقة هي نفسها طريقة ابليس حين أمره الله تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى (اسجدوا لآدم) سجود انحناء بلا وضع جبهة تحية له

ظاهر قوله ما دمت حيا لانا أوصاه بذلك الا بعد بلوغه وتمييزه (فان قلت) الزكاة انما تجب على الاغنياء وعيسى لم يزل فقيرا الا بما كسا مدة مكثه في الارض مع علمه تعالى بحاله

(فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل هو منقطع وابليس أبو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وكررت هذه القصة لهذا المقصود المذكور قال البيضاوي وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن أي انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذي يذكر فيه (ففسق) أي خرج بتركه السجود (عن أمر ربه) أي سيده ومالكه المحسن اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لا يعصى البتة وانما عصى ابليس لانه كان خبيثا في أصله والكلام المستقصى فيه تقدم في سورة البقرة ثم انه تعالى حذر عن اتباعه بقوله تعالى (أفتتخذونه) الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما سيأتي لابليس والهمزة للانكار والتعجب أي بعد ما فسق باحتقاركم فطرد لاجلكم فيكون ذلك سببا لان تتخذوه (وذريته) شركائي (أولياء) لكم (من دوني) تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى (وهم لكم عدو) أي أعداء حال ولما كان هذا الفعل أجدر شيء بالذم وصل به قوله تعالى (بئس للظالمين بدلا) من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه أبرز لغيره لتعليق الفعل بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ أقبل رجل فقال أخبرني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني فعلمت أن لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في احليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله دخل معه واذا أكل ولم يسم الله أكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم وعن عثمان بن أبي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني وعن أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى (ما أشهدتهم) على وجوه أحدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما أشهدت الذين اتخذتموهم أولياء (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم نفي احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق

فكيف أوصاهم (قلت) المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي لا زكاة المال (قوله وان الله ربي وربكم) قال ذلك هنا وقال في الزخرف وان الله هو ربي

بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين) أي الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لاضلالهم وذما لهم (عضدا) أي اعوانا وثانيها قال الرازي وهو الاقوى عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء من عندك فلا نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل اني ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات فالاقرب في هذه الآية هو أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار وثالثها أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم الى آخره وهؤلاء الكفار جاهلون بما جرى به القلم في الازل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقي من حكم الله بشقاوته في الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل فانه تعالى قال ما أشهدتهم الى آخره واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الامر في الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به * ولما قرر تعالى ان القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتدوا فيه بابليس عاد بعده الى التهويل بأهوال القيامة فقال (ويوم) التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة (يقول) أي الله يوم القيامة لهؤلاء الكفار تبكيتا لهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء (نادوا شركائي) أي ما عبد من دوني وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال تعالى (الذين زعمتم) انهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي (فدعوهم) تماديا في الجهل والضلال (فلم يستجيبوا لهم) أي فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بأنفسهم فضلا عن أن يمنعوهم (وجعلنا بينهم) أي المشركين والشركاء (موبقا) أي واديا من أودية جهنم لكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن عبد الله بن عمرو انه قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلال وقال الحسن البصري عداوة أي تؤول بهم الى الهلاك والتلف كقول عمر رضي الله تعالى عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا أي لا يكن حبك يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد أي وجعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه الساري لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان * ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استقرار جهلهم فقال تعالى (ورأى المجرمون) أي العريقون في الاجرام (النار) من مكان بعيد (فظنوا) ظنا (انهم مواقعوها) أي مخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة الشيء لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة (ولم) أي والحال انهم لم (يجدوا عنها مصرفا) أي مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها والموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جريا على عادتهم في الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا بغير علم وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن

قوله بزيادة هو لانه تعالى ذكر قصة عيسى عليه السلام هنا مستوفاة فاغنى ذلك عن التأكيد بخلافه ثم ولذلك قال هنا فويل للذين كفروا وفي الزخرف فويل للذين ظلموا

الساعة قائمة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الادلة التي لا شك فيها وقيل الظن
هنا بمعنى العلم واليقين * ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم واتباعهم
وبين الله تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم باطلة ذكر فيه المثلين المتقدمين ثم قال
بعده (ولقد صرفنا) وأظهر نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم الدال وادغمها الباقون (في
هذا القرآن) اى القيم الذي لا عوج فيه مع جمعه للمعاني (للناس) اى الرازين والناسين
وقوله تعالى (من كل مثل) صفة لمحذوف اى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا أو لما حوانا الكلام
وصرفناه في كل وجه من وجوه المعاني وأبديناه من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة
ما صار به لفي غرابته كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به آباط الابل في سائر البلاد بين
العباد تنسر به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى
(وكان الانسان أكثر شيء) يتأتى منه الجدل وميز الاكثرية بقوله تعالى (جدلا) أي خصومة
قال بعض المحققين والآية دالة على أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جادلوهم في الدين لان
الجدال لا يحصل الا من الطرفين ولهذا قيل أراد بالانسان الكافر وقيل الآية على العموم
قال ابن الخازن وهو الاصح وكذا قال البغوي فعن علي رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنها ليلة فقال
ألا تصليان فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى
الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيئا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول
وكان الانسان أكثر شيء جدلا وقال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله في القرآن
وقال الكلبي أراد به أبي بن خلف الجمحي * ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم بين موجبه عندهم فقال
تعالى (وما منع الناس) أي الذين جادلوا بالباطل الايمان هكذا كان الاصل ولكنه عبر عن
هذا المفعول الثاني بقوله (أن يؤمنوا) ليفيد التجديد وذمهم على الترك (اذ) أي حين (جاءهم
الهدى) أي القرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثاني معبرا بمثل
ما مضى للماضي قوله تعالى (ويستغفروا ربهم) أي لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار
والتوبة * ولما كان الاستثناء مفرغا أتى بالفاعل فقال (الا) أي طلب أن (تأتيهم سنة
الاولين) أي سنتنا فيهم وهي الاهلاك المقدر عليهم (أو) طلب أن (يأتيهم العذاب قبلا) أي
مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وقرأ الكوفيون بضم القاف والباء
الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة * ولما كان ذلك ليس الى الرسول وانما هو
الى الله تعالى نبه بقوله تعالى (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) بالثواب على أفعال الطاعة
(ومنذرين) بالعقاب على أفعال المعصية فطلب منهم الظالمون من غيرهم ما ليس اليهم
(ويجادل الذين كفروا) اي يجددون الجدال كلما أتاهم شيء من قبلنا (بالباطل) من قولهم
ما أنتم الا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لأتيتم بما نطلب منكم مع أن ذلك ليس كذلك اذ ليس
لاحد غير الله من الامر شيء (ليدحضوا به) اي ليبطلوا بجدالهم (الحق) اى القرآن والمعجزات
المثبتة لصدقهم (واتخذوا آياتي) اى القرآن (وما أنذروا) اى وانذارهم أو والذي أنذروا به
من العقاب (هزوا) اى استهزاء وقرأ حفص بالواو وقفا ووصلا وحمزة بالواو وقفا لا وصلا

إذ الكفر أشد قبحا من الظلم فكان وصفهم بالظلم الذي ذكر ابلغ في الحمل الذي استوفى فيه قصة عجب انسب من الحمل الذي أجيب فيه قصته وقال هنا اعرض عنها ونسي ما قدمت يداه

وسكن الزاي حمزة ورفعها الباقون ولحمزة في الوقف أيضا النقل * ولما حكى الله تعالى عن الكفار أحوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الخزي بقوله تعالى (ومن أظلم) اي لا احد أظلم وهو استفهام على سبيل التقرير (ممن ذكر بآيات ربه) اي المحسن اليه بها وهي القرآن (فأعرض عنها) تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الاحسان من الشاكر (ونسي ما قدمت يداه) من الكفر والمعاصي فلم يتفكر في عاقبتهما ثم علل تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى (انا جعلنا على قلوبهم) بجمع رجوعا الى أسلوب واتخذوا آياتي لانه أنص على ذم كل واحد (اكنة) اي أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيئا من الخير يصل اليها فهي لا تعي شيئا من آياتنا ودل تذكير الضمير وافراده على أن المراد بالآيات القرآن فقال (أن) أي كراهة أن (يفقهوه) أي يفهموه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا فهم لا يسمعون حق السمع ولا يعون حق الوعي (وان تدعهم) أي تكرر دعاءهم كل وقت (الى الهدى) لتنجيهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك (فلن يهتدوا) أي بسبب دعائك (اذا) أي اذا دعوتهم (أبدا) لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم ايمان ثم قال تعالى (وربك) مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه حال الوصف من الاحسان (الغفور) أي البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب اما بمحوها واما بالحلم عنها الى وقت آخر (ذو الرحمة) أي الموصوف بالرحمة الذي يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالاكرام ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى (لو يؤاخذهم) أي هؤلاء الذين عادوك وهو عالم انهم لا يؤمنون أو يعاملهم معاملة المؤاخذة (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أي في الدنيا (بل لهم موعد) وهو اما يوم القيامة واما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر ايام الفتح (لن يجدوا من دونه) أي الموعد (موئلا) أي ملجأ ينجيهم منه فاذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه بأول ظلمهم وآخره وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ وقوله تعالى (القرى) أي الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم صفته لان أسماء الاشارة توصف بأسماء الاجناس والخبر (أهلكناهم) والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم (لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون وقرأ شعبة بفتح الميم واللام اي لاهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام اي لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة (واذ) اي واذكر لهم حين (قال موسى لفتاه) يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام وانما قال فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يأخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفي الحديث ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي * (تنبيه) * أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار أنه موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوي والاول أصح واحتج له القفال بان الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى الا وأراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف عن أبي حنيفة هذا الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم

في الكهف لان معناه هنا انه تعالى ذكر قصص الانبياء فاستعملها وتدبرها واستعمل النظر فيها واستبصر بها ومعناه في الكهف انه تعالى لم يغب السموات والارض فاجعل

وأردنا به رجلا سواء قصدنا مثل أن تقول قال أبو حنيفة الدينوري   وعن سعيد بن جبير قال
قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل
فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي
ويقال انه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار نقله ابن كثير وحجة الذين قالوا موسى
هذا غير صاحب التوراة أنه يقال بعد أن أنزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات
الباهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر أكابر الانبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك الى التعلم
والاستفادة (وأجيب) بأنه لا يبعد أن يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض العلوم
فيحتاج في تعلمها الى من هو دونه وهو أمر متعارف روى البخاري حديث ان موسى قام خطيبا
في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله
تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يا رب فكيف لي به قال تأخذ حوتا فتجعله
في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال (لا أبرح) أي لا أزال
أسير في طلب العبد الذي أعلمني ربي بفضله (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي ملتقى بحر الروم وبحر
فارس مما يلي المشرق قاله قتادة أي المكان الجامع لذلك فألقاه هنالك (أو أمضي حقبا) أي
دهرا طويلا في بلوغه ان لم أظفر بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا لي في لقائه والحقب
قال في القاموس ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فسارا وتزودا حوتا
مشويا في مكتل كما أمره فكانا يأكلان منه الى ان بلغا المجمع كما قال تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما)
أي بين البحرين قال قتادة اذا فقدت الحوت فأخبرني وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج
وسقط في البحر فلما استيقظا (نسيا حوتهما) أي نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى
عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف أي نسي أحدهما كقوله
تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (فاتخذ) الحوت (سبيله في البحر) أي جعله بجعل الله (سربا)
أي مثل السرب وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك ان الله تعالى أمسك عن الحوت جري الماء
فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم ووجد ما تحته وقد ورد في حديثه في الصحيح أن الله تعالى
أحياه وأمسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان ممتدا فظن عليه
السلام ان المطلوب امامه وظن المراد بمجمع البحرين آخر فسارا (فلما جاوزا) ذلك المكان
بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثاني يوم (قال) موسى عليه السلام
(لفتاه آتنا) أي أحضر لنا (غداءنا) وهو ما يؤكل أول النهار لنتقوى به على ما حصل لنا من
الاعياء ولذلك وصل به قوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أي تعبا ولم يجد موسى النصب حتى
جاوز المكان الذي أمره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما
الموعد أو مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا (قال) له فتاه (أرأيت) أي ما دهاني وقرأ نافع
بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه آخر وهو ابدالها حرف مد وأسقطها
الكسائي والباقون بالتحقيق (اذ أوينا الى الصخرة) التي بمجمع البحرين (فاني نسيت
الحوت) أي نسيت تذكرك أمره ثم علل عدم ذكره بقوله (وما أنسانيه الا الشيطان)
بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء وأمال الألف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح
والباقون بالفتح وقوله (أن أذكره) لك في محل نصب على البدل من هاء أنسانيه بدل اشتمال أي

بصيرتك في الفكر
في مخلوقاته وتدبره بحيث
تصل اليه رقته وسمع
بصفاته وحده فناسب
تقديم السمع هنا والبصر
ثم (قوله ساتفقه والتدبر)
فان قلت الاستغفار

أنسانيه ذكره (واتخذ سبيله) أي طريقه الذي ذهب فيه (في البحر عجبا) وهو كونه كالسرب معجزة لموسى أو الخضر وذكره الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان على أن هذا النسيان ليس مفوتا لطاعة بل فيه ترقيتهما في معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية وحفظ المسبحانا على طول الزمان وغيره ذلك من الآيات الظاهرة وقوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصي وقوله وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان في هذه القصة خوارق منها احياء الحوت ومنها ايجاد ما كان أكل منه ومنها امساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه وأتباعه ببركته مثل ذلك أما اعادة ما أكل من الحوت المشوي وهو جنبه فقد روى البيهقي في أواخر دلائل النبوة عن اسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم أتى بشاة مشوية فقال لبعض أصحابه ناولني ذراعها وكان أحب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها ثم قال ناولني ذراعها فناوله ثم قال ناولني ذراعا فقال يا رسول الله انما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو سكت ما زلت تناولني ذراعا ما قلت لك ناولني ذراعا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت أوجد الله تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا وأما احياء الحوت المشوي ففي قصة الشاة المشوية المسمومة ان ذراعها أخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا أعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى ونحو ذلك أعظم من عود الحياة الى ما كان حيا وروى البيهقي في الدلائل عن عمرو بن سواد قال قال الشافعي ما أعطى الله تعالى نبيا ما أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم قلت أعطى عيسى عليه السلام احياء الموتى فقال أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم حياة الجذع الذي كان يخطب الى جنبه حين هيئ له المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك انتهى وقد ورد أشياء كثيرة من احياء الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض أمته وروى عن أنس رضي الله تعالى عنه انه قال كنا في الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته امرأة ومعها ابن لها فأضاف المرأة الى النساء وأضاف ابنها الينا فلم يلبث ان أصابه وباء المدينة فمرض أياما ثم قبض فغمضه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا ان نغسله قال ائت أمه فأعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت اللهم اني أسلمت لك طوعا وخلعت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بي عبدة الاوثان ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها قال فوالله ما انقضى كلام المرأة حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمه وأما آية الماء فرجعها الى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه جيشا واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي فحصل لهم حر شديد وجهدهم العطش قال بعض الجيش فلما مالت الشمس افر وبها صلى بنا ركعتين ثم مد يده وما نرى في السماء شيأ فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وأنشأ سحابا فأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوز خليجا في البحر

للكافر حرام فكيف وعد ابراهيم عليه السلام أباه بالاستغفار له مع انه كافر (قلت) معناه سأسأل الله لك توبة تنال بها مغفرته يعني الاسلام والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز

الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا على يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال أجيزوا بسم الله فاجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فاصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته فاجزنا وما يبل الماء حوافر دوابنا والاخبار فى ذلك كثيرة * ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذ (قال) له (ذلك) اى الامر العظيم من فقد الحوت (ما كنا نبغ) اى نريد من هذا الامر الغريب عندنا فان الله تعالى جعله موعدا فى لقاء الخضر وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائى باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف (فارتدا على آثارهما) اى فرجعا فى الطريق الذى جاآ فيه يقصانها (قصصا) اى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة قال البقاعى يدل على ان الارض كانت رملا لا علم فيه فالظاهر والله أعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فى سفينته للتعدية كما فى الحديث فان الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور فى بلاد رشيد ان الامر كان عندهم وان عندهم سمكا ذاهبا شق يقولون انه من نسل تلك السمكة والله أعلم انتهى وتقدم عن قتادة أنه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد بن كعب طنجة وقال أبى بن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما كانا بحرى علم قال ابن عادل وليس فى اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح فى الخبر الصحيح شئ فذاك والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد الحوت (فوجدا عبدا من عبادنا) مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذى جاء فى التواريخ وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه بليان بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بنى اسرائيل وقيل من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب سمى بذلك لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمى خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله وروى ان موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وانى بارضك السلام قال يا موسى أتيتك تعلمنى مما علمت رشدا وفى رواية لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفى رواية لقيه وهو يصلى ويروى لقيه وهو على طنفسة خضراء على كبد البحر وروى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبى بنى اسرائيل فقال موسى ما عرفك هذا فقال الذى بعثك الى وكان الخضر فى أيام أفريدون وكان على مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى أيام موسى وقيل ان موسى سأل ربه اى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فاى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فاى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك أعلم منى فادللنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك (آتيناه) بعظمتنا (رحمة من عندنا) اى وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبى قال البغوى عند أكثر أهل العلم اى فعندهم انه ولى (وعلمناه من لدنا) اى مما لم يجر على قوانين العادات على انه ليس مستغرب عند

كان يقول اللهم زده ... لا سلام او تب عليه وهذه ارانه وعد ذلك على انه يسلم ويستغفر به ... الاسلام او انه وعده ... قبل تحريم الاستغفار للكافر (قوله وناد ...)

أهل الاصطفاء (علماً) قذفناه في قلبه بغير واسطة وأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم اللدني فاذا سعى العبد في الرياضات بتزين الظاهر بالعبادات وتخلي النفس عن العلائق وعن الاخلاق الرذيلة بتحليتها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوى العقلية وأشرقت الانوار الالهية في جوهرة العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ثم أورد سبحانه وتعالى القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال سائل عن كل كلام يرشد اليه ماقبله وذلك انه من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال لمن ٣ كأنه سأل عن ذلك (قال له موسى) طالباً منه على سبيل التأدب والتلطف باظهار ذلك في قالب الاستئذان (هل أتبعك) اي اتباعاً بليغاً حيث توجهت والاتباع الاتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به وبين انه لا يطلب منه غير العلم بقوله (على ان تعلمن) أثبت الياء نافع وأبو عمرو وصلاً لا وقفاً وابن كثير وصلاً ووقفاً والباقون بالحذف وزاد في التعطف بالاشارة الى انه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها الى باقيه فقال (مما علمت) وبناه للمفعول لعلم المخاطبين لكونهما من الخاصين بان الفاعل هو الله تعالى وللاشارة لسهولة كل أمر الى الله تعالى (رشداً) اي علماً يرشدني الى الصواب فيما أقصده وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين * ولما أتم موسى عليه السلام العبارة عن السؤال (قال) له الخضر عليه السلام (انك) ياموسى (لن تستطيع معي صبراً) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها لا تصح ولا تستقيم وفتح الياء من معي صبراً في المواضع الثلاثة هنا حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله (وكيف تصبر) ياموسى (على مالم تحط به خبراً) أي وكيف تصبر على أمور وأنت نبي ظاهرها منكر والرجل الصالح لا يتمالك أن يصبر اذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ في الانكار وخبراً مصدر لانه في لم تحط به اي لم تخبر حقيقته (قال) له موسى عليه السلام آتياً بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه ارشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله تعالى له النفع به (ستجدني) فأكد الوعد بالسين ثم أخبر تعالى انه قوى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الامر على الوجه الذي تقدم الحث عليه في هذه السورة في قوله تعالى ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ليعلم أنه منهاج الانبياء فقال (ان شاء الله) أي الذي له صفات الكمال (صابراً) على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله عطفاً بالواو على صابراً البالغ التمكن في كل من الوصفين (ولا أعصي) اي وغير عاص (لك أمراً) تأمرني به غير مخالف لظاهر أمر الله تعالى *(تنبيه)* دلت هذه الآية الكريمة على ان موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الادب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر منها انه جعل نفسه تبعاً له بقوله هل أتبعك ومنها انه استأذن في اثبات هذه التبعية كأنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك وهذه مبالغة عظيمة في التواضع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم على أن تعلمن وهذا اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم ومنها قوله مما علمت وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم وهذا أيضاً اقرار بالتواضع كأنه يقول لا أطلب منك ان تجعلني مساوياً

٣ قوله لمن الخ كذا بالاصل ولىتأمل اه مصحح

جانب الطور الايمن) اي الذي يلي يمين موسى حين اقبل من مدين (قوله ووهبنا له من رحمتنا اخاه هرون نبيا) * ان قلت هرون كان أكبر من موسى فما معنى هبته له (قلت) معناه ان

لك فى العمل بل أطلب منك أن تعطينى جزأ من أجزاء ما علمت ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا ان موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذى كلمه الله من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا فى طلب العلم باعظم أبواب المبالغة فى التواضع وذلك يدل على ان هذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم التى علم ما فيها من البهجة والسعادة أكثر كان طلبه لها أشد فكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأشد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل الغايات وأما المعلم فان رأى ان فى التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم فى الغرور وذلك يمنعه من التعلم وروى ان موسى عليه السلام لما قال هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا قال له الخضر كفى بالتوراة علما وببنى اسرائيل شغلا فقال له موسى الله أمرنى بهذا (قال) له الخضر (فان اتبعتنى) اى صحبتنى ولم يقل اتبعنى ولكن جعل الاختيار اليه الا انه شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألنى عن شئ) أنكرته (حتى أحدث لك) خاصة (منه ذكرا) اى حتى ابدأك بوجه صوابه فانى لا أقدم على شئ الا وهو صواب جائز فى نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم مع العالم ولما تشارطا وتراضيا على الشرط تسبب عنه ذلك قوله تعالى (فانطلقا) اى موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فاذا الابطال بسفينة ركبا فيها واستمرا (حتى اذا ركبا فى السفينة) التى مرت بهما أجاب الشرط بقوله (خرقها) اى أخذ الخضر فاسا فخرق السفينة بان قلع لوحا أو لوحين من ألواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يعترض خرق بانها لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم استأنف قوله (قال) اى موسى عليه السلام منكرا لذلك لما فى ظاهره من الفساد بتلف المال المفضى الى فساد أكبر منه باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لو لم ينس لم يترك الانكار كما فعل عند قتل الغلام لان مثل ذلك غير داخل فى الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا (أخرقتها) و بين عذره فى الانكار لما فى غاية الخرق من القطاعة فقال (لتغرق أهلها) فان خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضى الى غرق أهلها وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من أهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام أهلها ثم قال له موسى والله (لقد جئت شيئا امرا) اى عظيما منكرا (قال) الخضر (ألم أقل انك) ياموسى (لن تستطيع معى صبرا) فذكره بما قال له عند الشرط (قال) موسى (لا تؤاخذنى) ياخضر (بما نسيت) اى غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال ابن عباس انه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام اى وهى التورية بشئ عن الشئ وفى الخبر ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب اى سعة فكأنه نسى شيأ آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كانت الاولى من موسى

الله تعالى أتم على موسى
عليه السلام اجابته دعوته
فيه حيث قال واجعل لى
وزيرا من أهلى هرون أخى
الآية ففيه جملة
عشرة أو ناصرا ومعينا
(قوله وجعل ساطعا) قالها

تسبانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى لا تكلفنى مشقة يقال أرهقه عسرا وأرهقته عسرا اى كلفته ذلك يقول لا تضيق على أمرى ولا تعسر متابعتك على ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وعاملنى باليسر ولا تعاملنى بالعسر وعسرا مفعول ثان لترهقنى من أرهقته كذا اذا حملته اياه وغشاه به وما فى بما نسيت مصدرية أو بمعنى الذى والعائد محذوف وروى ان الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشابه الخرق وروى ان الخضر أخذ قدحا من زجاج ورقع به خرق السفينة (فان قيل) قول موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها ان كان صادقا فى هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان نبيا وان كان كاذبا دل ذلك على صدور الذنب من موسى وأيضا فقد التزم موسى ان لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (أجيب) بان كلا منهم ما صادق فيما قال موسى بحسب ما عنده أما موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط ان يعاهد على ان لا ينهى عما يعتقده منكرا وأما الخضر فانه عقد على ما فى نفس الامر انه لا يقدم على منكر (فانطلقا) بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب (حتى اذا لقيا غلاما) قال ابن عباس لم يبلغ الحنث (فقتله) حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوى فى القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ غلاما ظريفا وضىء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدى كان أحسنهم وجها كان وجهه يتوقد حسنا قال البغوى وروينا انه أخذ رأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بيده بأصابعه الثلاثة الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى انه رضخ رأسه بالحجارة وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلا قال شعيب الجبائى وكان اسمه جيسور وقال الكلبى كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلتجئ الى أبويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه وعن ابى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا قال الرازى وليس فى القرآن كيف لقيه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان او كان منفردا وهل كان مسلما أو كافرا وهل كان بالغا او صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير اليق وان احتمل الكبير الا ان قوله بغير نفس اليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل قال البقاعى الا ان يكون شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبى الله يقول اقتلت نفسا زاكية بغير نفس الا وهو صبى قال الرازى ايضا وكيفية قتله هل قتله بان حز رأسه او بان ضرب رأسه بالجدار او بطريق آخر فليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاقسام انتهى ثم اجاب الشرط بقوله مشعرا بان شروعه فى الانكار فى هذه اسرع (قال) موسى (أقتلت) يا خضر (نفسا زاكية بغير نفس) قتلتها المكون قتلها قودا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بالف بعد الزاى وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير الف بعد الزاى وتشديد التحتية قال الكسائى الزاكية والزكية لغتان بمعنى هذه الطهارة وقال ابو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله (لقد) اظهر الدال نافع وابن كثير

وقال فى الفرقان وعمل عملا صالحا لانه تعالى اوجزهنا فى ذكر المعاصى فاوجز فى التوبة واطنب ثم فاطال (قوله لقد احصاهم وعدهم عدا) ان قلت ما فائدة ذكر

وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (جئت) في قتلك اياه (شيئا) وصرح بالانكار في قوله (نكرا) لان مباشرة الغرق سبب ولهذا قال بعضهم النكر أعظم من الامر في القبح لان قتل الغلام أعظم من خرق السفينة لانه يمكن أن لا يحصل الغرق وأما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما أنكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو أبلغ في القبح من الامر وقيل الامر أعظم لان خرق السفينة يؤدي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها ولما كانت هذه ثانية (قال) له الخضر (ألم أقل لك انك) يا موسى (لن تستطيع معي صبرا) وهذا عين ما ذكره في المسئلة الاولى الا انه هنا زاد لفظة لك (فان قيل) لم زادها هنا (أجيب) بانه زادها مكافحة بالعتاب على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل أي انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه (قال) موسى حياء منه لما أفاق بتذكيره ما حصل من فرط الوجد لامر الله تعالى فذكر أنه ما تبعه الا بامر الله تعالى (ان سألتك عن شئ بعدها) أي بعد هذه المرة وأعلم بشدة ندمه عن الانكار بقوله (فلا تصاحبني) أي لا تتركني أتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله (قد بلغت) وأشار الى أن ما وقع منه من الاخلال بالشرط من أعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال (من لدني) أي من قبلي (عذرا) باعتراضي مرتين واحتمالك لي فيهما وقد أخبر الله بحسن حالك في غزارة علمك وحسن هذه الطريقة من حيث انه اعتذر مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لابصر أعجب الاعاجيب وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة أي حياء واشفاق فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا أنه يشم الدال فتصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون (فانطلقا) أي موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر أمرا ينفذ فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على أصله بعد قتل الغلام (حتى اذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الابلة وهي أبعد أرض الله من السماء وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه أدل على الذم وقيل برقة وعن أبي هريرة بلدة بالاندلس (استطعما أهلها) أي طلبا من أهل القرية أن يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم (فأبوا أن يضيفوهما) أي أن ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه وأضافه أنزله وجعله ضيفا (فان قيل) الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله تعالى عن موسى أنه قال عند ورود ماء مدين رب اني لما أنزلت الي من خير فقير (أجيب) بان اقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد (فان قيل) لم قال حتى اذا أتيا أهل

العد بعد الاحصاء مع ان الاحصاء هو الحصر والحصر لا يكون الا بعد معرفة العدد (قلت) له معنى ثان هو العلم كقوله وأحصى كل شئ عددا أي علم عدد كل شئ فافهم هذا

قرية استطعما أهلها ولم يقل استطعماهم (أجيب) بان التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التى لا تضيف الضيف (فائدة) قال الرازى رفى كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يارسول الله نشترى بهذا الذهب ان تجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما اى أتياهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللؤم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح فى الالهية فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ولما أبوا أن يضيفوهما انصرفا (فوجدا فيها) اى القرية ولم يقل فيهم ايذانا بان المراد وصف القرية بسوء الطبع (جدارا) اى حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال مستعيرا المائل بعقل صفة من يعقل (يريد أن ينقض) اى يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب دارى تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم فى قوله

يريد الرمح صدر أبى براء * ويعدل عن دماء بنى عقيل

وقول الآخر ان دهرا يلف صدرى بجمل * لزمان يهم بالاحسان

فنى البيت الاول دليل على استعارة الارادة للمشارفة وفى الثانى دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول ان دهرا يجمع بينى وبينها لزمان قصد الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى أن يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا أتينا طائعين قال الزمخشرى ولقد بلغنى ان بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوان (فاقامه) أى سواه وفى حديث أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته وقال السدى بل طينا وجعل يبنى الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام (فان قيل) الضيافة من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه فى قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى وايضا مثل الغضب لاجل ترك الاكل فى ليلة واحدة لا يليق بادون الناس فضلا عن كليم الله تعالى (اجيب) بان تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسى موسى عليه السلام ماقاله فلا جرم (قال) موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) اى لطلبت على عملك أجرة تصرفها فى تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء واظهر ابن كثير الذال عند التاء على اصلها وادغمها ابو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء واظهر حفص الذال على اصله وادغمها الباقون * ولما كان كلام موسى هذا

اقدعليهم ويدعهم عذا

(سورة طه)

(قوله وهل اتاك حديث موسى اذ رأى نارا الآية) (ان قلت) فكيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لاهله امكثوا

متضمنا للسؤال (قال) له الخضر (هذا) اى هذا الانكار على ترك الاجر (فراق بينى وبينك) وقيل ان موسى عليه السلام لما شرط أنه ان سأله بعد ذلك سؤالا آخر حصل به الفراق حيث قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى فلما ذكر هذا السؤال فارقه، وهذا فراق بينى وبينك اى هذا الفراق المعهود الموعود (فان قيل) كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد (اجيب) بان مسوغ ذلك تكريره بالعطف بالواو ألا ترى انك لو قصرت على قولك المال بينى لم يكن كلاما حتى تقول بيننا أو بينى وبين فلان ثم قال له الخضر (سأنبئك) اى سأخبرك ياموسى قبل فراقك (بتأويل) اى بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا) لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة فى شىء واحد وهو أن احكام الانبياء عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت احكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة فى نفس الامر وذلك لان الظاهر فى أموال الناس وفى أرواحهم أنه يحرم التصرف فيها والخضر تصرف فى أموال الناس وفى أرواحهم فى المسئلة الاولى وفى الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان الاقدام على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل فى المسئلة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر ثم أخذ الخضر فى تأويل ذلك مبتدئا بالمسئلة الاولى بقوله (أما السفينة) أى التى أحسن الينا أهلها لخرقتها (فكانت لمساكين) عشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) أى يؤاجرون ويكتسبون واحتج الشافعى رضى الله عنه بهذه الآية على ان حال الفقير أشد فى الحاجة والضرر من حال المسكين لان الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة (فاردت أن أعيبها) أى ان أجعلها ذات عيب بأن تفوت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكلف أهلها لوحا أو لوحين يسدونها بذلك أسف عليهم من أن تفوتهم منفعتها بالكلية كما يعلم من قوله (وكان وراءهم) أى أمامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ وقيل خلفهم وكان طريقهم فى رجوعهم عليه (ملك) كان كافرا واسمه الجلندى وقال محمد بن اسحق اسمه سولة بن خليد (٣) الازدى وقيل اسمه هدد بن بدد (يأخذ كل سفينة) اى صالحة وحذف التقييد بذلك للعلم به (غصبا) من اصحابها ولم يكن عند اصحابها علم به فاذا مرت به تركها لعيبها فاذا جاوزته اصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار (فان قيل) قوله فاردت ان اعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه ان يتأخر عن السبب فلم قدم عليه (اجيب) بان النية به التأخير وانما قدم للعناية ولان خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها على الغصب اشارة الى ان اقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين * ثم شرع فى تأويل المسئلة الثانية بقوله (واما الغلام) الذى قتلته (فكان ابواه مؤمنين) التثنية للتغليب يريد اباه وامه فغلب المذكر وهو شائع ومنه العمران قيل ان ذلك الغلام كان باغيا وكان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان ابواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشىء من المنكرات وكان يصير ذلك سببا لوقوعهما فى الفسق وربما ادى ذلك

اشار هنا وفى القول
ولقصص ببيان ان تعلمه
وهذه ... تسع الدعوى
واحدة فغلب اصلحه
عاران موسى عليه السلام
فيها (قف) سبب
الاعراب ... موسى

(٣) قوله سولة بن خليد الخ هكذا فى النسخ والذى فى البيضاوى منولة بن جلندى الازدى فليحرر اهـ

الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا انه علم منه أنه لو صار بالغا حصلت فيه هذه المفاسد وفي الحديث انه طبع كافرا ولو عاش لارهقهما ذلك كما قال (فخشينا) أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم (أن يرهقهما) أي يغشيهما ويلحقهما (طغيانا وكفرا) أي لمحبتهما له يتبعانه في ذلك (فان قيل) هل يجوز الاقدام على قتل الانسان بمثل ذلك (أجيب) بانه اذا تأكد ذلك بوحي من الله تعالى جاز وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب اليه كيف قتله أي كيف قتل الخضر الغلام وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل رواه بمعناه مسلم * ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد تسبب عنه قوله (فاردنا) أي بقتله واراحتهما من شره (أن يبدلهما ربهما) أي المحسن اليهما باعطائهما وأخذه قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي كان فيه هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى فان قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما الله تعالى (خيرا منه زكاة) أي طهارة وبركة من الذنوب والاخلاق الرديئة وصلاحا وتقوى (وأقرب رحما) أي رحمة وعطفا عليهما وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة أي أوصل للرحم وأبر للوالدين قال الكلبي أبدلهما الله تعالى جارية تزوجها نبي من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم وقرأ نافع وابو عمرو أن يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال وقرأ ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون بالسكون * ثم شرع في تأويل المسئلة الثالثة بقوله (وأما الجدار) اى الذى انكرت باخذ الاجر عليه (فكان لغلامين) ودل على كونهما دون البلوغ بقوله (يتيمين) وكان اسم أحدهما أصرم والآخر صريما ولما كانت القرية لا تنافي التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية أولا أليق عبر بها لانها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم في ترك الضيافة ولما كانت المدينة بمعنى محل الاقامة عبر بها فقال (في المدينة) فكان التعبير بها أليق للاشارة به الى أن الناس يعملون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال (وكان تحته كنز لهما) فلذلك أقمته احتسابا واختلف في ذلك الكنز فعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق وعن سعيد بن جبير قال كان الكنز صحفا فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس قال كان لوحا من ذهب مكتوب فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن ايقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن ايقن بزوال الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا اله الا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه قال البغوي وهذا قول اكثر اهل التفسير وروى ايضا ذلك مرفوعا قال الزجاج الكنز اذا اطلق ينصرف

عليه السلام مثل هذا السؤال مع جوابه ثم يأتي هنا (قوله فلما أتاها) قاله هنا وفي القصص بلفظ أتى وفي النمل بلفظ جاء لانهما وان كانا بمعنى واحد

الى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنه كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما وقوله (وكان أبوهما صالحا) فيه تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاحه فيراعى ويراعى ذريته وكان سياحا واسمه كاشح قال ابن عباس حفظا لصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الاب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته واهل دويرات حوله فما يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب انى أصلى فاذكر ولدى فازيد فى صلاتى وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح ابيهما قال فابى وجدى خير منه قال قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون وذكروا ايضا أن ذلك الاب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها اليوم (فاراد ربك أن يبلغا) أى الغلامان (أشدهما) أى الحلم وكمال الرأى (ويستخرجا كنزهما) لينتفعا به وينفعا الصالحين • (تنبيه) • أسند الارادة فى قوله فاردت أن أعيبها الى نفسه لانه المباشر للتعيب وثانيا فى قوله فاردنا الى الله والى نفسه لان التبديل باهلاك الغلام وايجاد الله تعالى بدله وثالثا فى قوله فاراد ربك الى الله وحده لانه لا مدخل له فى بلوغ الغلامين أو لان الاول فى نفسه شر والثالث خير والثانى ممتزج أو لانه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة نفسه ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء فى علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما أضافه الى الله تعالى لان التكفل بصلاح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا لله تعالى ولاختلاف حال العارف فى الالتفات الى الوسايط (فان قيل) اليتيمان هل أحد منهما عرف حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أم لا فان كان الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثانى فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به (وأجيب) لعلهما كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ان ذلك الوصى غاب وأشرف ذلك الجدار فى غيبته على السقوط ولما قرر الخضر هذه الجوابات قال (رحمة من ربك) أى انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما تقرر (وما فعلته) اى شيأ من ذلك (عن أمرى) اى عن اجتهادى ورأيى بل بامر من له الامر وهو الله تعالى • (تنبيه) • احتج من ادعى نبوة الخضر بامور احدها قوله تعالى آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هى النبوة قال تعالى وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازى ولقائل ان يقول سلمنا ان النبوة رحمة ولكن لا يلزم ان تكون كل رحمة نبوة الثانى قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وهذا يقتضى ان الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه الله تعالى بلا واسطة البشر وجب ان يكون نبيا يعلم الامور بالوحى من الله تعالى قال الرازى وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة الثالث ان موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت والنبى لا يتبع غير نبى فى التعلم قال الرازى وهذا ايضا ضعيف لان النبى لا يتبع غير نبى فى العلوم التى باعتبارها صار نبيا اما فى غير تلك العلوم فلا الرابع انه اظهر على موسى الترفع حيث قال وكيف تصبر على ما لم

غاير بينهما لفظا توسعة فى التعبير من الشىء الى ... وخص ... بهذه السورة لكثرة التعبير بالالفاظ بجمعها ... لكثرة التعبير بغير ما فى القصص ...

نحيط به خبرا واما موسى فانه اظهر له التواضع حيث قال ولا اعصى لك امرا وهذا يدل على
على انه كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق نبي قال الرازى وهذا ايضا ضعيف
لانه يجوز ان يكون غير النبي فوق النبي فى علوم لا تتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما
فعلته عن امرى والمعنى انى فعلته بوحى من الله وهذا يدل على النبوة قال الرازى وهذا
ايضا ضعيف ظاهر الحجة السادس ما روى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام
عليك قال وعليك السلام يا نبي بنى اسرائيل فقال موسى من عرفك هذا قال الذى بعثك الى
وهذا يدل على أنه انما عرف ذلك بالوحى والوحى لا يكون الا مع النبوة قال الرازى ولقائل أن
يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات انتهى وبالجملة فالجمهور على أنه
نبى كامل واختلفوا هل هو حى أو ميت فقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم
قال البغوى وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل
الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل
وشرب وشكر الله تعالى واخطأ ذو القرنين الطريق وذهب آخرون الى انه ميت لقوله تعالى
وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة ارأيتكم
ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان الخضر حيا
لكان لا يعيش بعده * ولما بين لموسى سر تلك القضايا قال له (ذلك) اى هذا التأويل العظيم
(تأويل ما لم تسطع) يا موسى (عليه صبرا) وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفا فان اسطاع
واستطاع بمعنى واحد * (تنبيه) * من فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعمله ولا يبادر الى
انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه وان يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعى
الادب فى المقال وان ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق اصراره ثم يهاجره روى ان
موسى لما اراد ان يفارق الخضر قال له اوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به
* ولما فرغ من هذه القصة التى حاصلها انه طاف فى الارض لطلب العلم عقبها بقصة من
طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاولى اشارة الى علو درجة العلم لانه أساس كل سعادة وقوام
كل امر فقال عاطفا على ويجادل الذين كفروا بالباطل (ويسألونك) اى اليهود وقيل
مشركو مكة بأمر اليهود (عن ذى القرنين) وذكروا فى سبب تسميته بذلك وجوها الاول
قال أبو الطفيل سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين أكان نبيا أم ملكا قال لم يكن نبيا
ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أمر قومه بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات
ثم بعثه الله تعالى فأمرهم بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى
فسمى ذا القرنين فيكم مثله يعنى نفسه الثانى انه انقرض فى وقته قرنان من الناس الثالث
أنه كان صفحتا رأسه من نحاس الرابع كان على رأسه ما يشبه القرنين الخامس كان لتاجه
قرنان السادس أنه طاف قرنى الدنيا شرقها وغربها السابع كان له قرنان اى ضفيرتان
الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من
ورائه التاسع أنه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح اقرانه العاشر
أنه رأى فى المنام كأنه صعد الفلك وتعلق بطرفى الشمس وقرنيها اى جانبيها فسمى بذلك

طه لقربه ما بينهما اى من حيث قوله يا موسى انى أنا ربك وقوله فى القصص يا موسى انى أنا الله وان اختلف محلهما بلا فرق وكذا فى النمل (ان الساعة آتية) فاله عبارة فى الحج

لهذا السبب الحادي عشر أنه كان له قرنان تواريهما العمامة الثاني عشر أنه دخل النور والظلمة وذكروا في اسمه أيضا وجوها الاول اسمه مرزبان اليوناني من ولد يونان بن يافث ابن نوح الثاني اسمه اسكندر بن فيلقوس الرومي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه أقصى المشرق والمغرب وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث شمر بن عمر بن افريقيس الحميري وهو الذي بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما * ملكا علا في الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب ملك من كريم سيد

واختلفوا في نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الاول قوله تعالى انا مكنا له في الارض وحمل على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة الثاني قوله تعالى وآتيناه من كل شيء سببا وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى يا ذا القرنين اما أن تعذب الخ والذي يتكلم الله معه لا بد أن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض وأعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمروذ وبختنصر ومنهم من قال انه كان ملكا من الملائكة عن عمر رضي الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاكثر على القول الثاني ويدل له قول علي رضي الله تعالى عنه المتقدم * (تنبيه) * قد قدمنا ان اليهود امروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسئلونك عن ذي القرنين هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى (قل) أي لهؤلاء المتعنتين (سأتلو) أي أقص قصا متتابعا في مستقبل الزمان أعلمني الله تعالى به (عليكم) أي أيها البعداء والضمير في قوله تعالى (منه) لذي القرنين وقيل لله تعالى (ذكرا) أي خبرا كافيا لكم في تعرف أمره جامعا لمجامع ذكره (انا مكنا له في الارض) أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء بحيث يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها (وآتيناه) بعظمتنا (من كل شيء) يحتاج اليه في ذلك (سببا) أي وصلة توصله اليه من العلم والقدرة والآلة (فأتبع سببا) أي سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعي ولعله بدأ به لان باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو واتبع في المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر متبعا له (حتى اذا بلغ) في ذلك السير (مغرب الشمس) أي موضع غروبها (وجدها تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأة وهي الطين الاسود أي بلغ موضعا في الغرب لم يبق بعده شيء من العمران وجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة وغروبها في رأي العين كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب في البحر اذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر والا فهي أكبر من الارض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الارض قال البيضاوي ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب ولم

بحذف لام التأكيد وقاله في غافر بأن التأكيد انما يحتاج اليه اذا كان المخبر به شاكا في الخبر والمخاطبون في غافر هم الكافرون فلا تأكيد الا لام

يقل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وابن عامر بألف بعد الحاء وياء مفتوحة بعد الميم عن أبي ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب في عين حمئة وقرأ الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة واتفق ان ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة (ووجد عندها) أي عند تلك العين على الساحل المتصل بها (قوما) أي أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أي تغرب قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفارا فخيره الله تعالى بين ان يعذبهم أو يدعوهم الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى (قلنا يا ذا القرنين) اما بواسطة الملك ان كان نبيا أو بواسطة نبي زمانه ان لم يكن أو باجتهاد في شريعته (اما أن تعذب) بالقتل على كفرهم (واما أن تتخذ) أي بعد ذلك بجهدك (فيهم حسنا) بالارشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين القتل والاسر وسماه حسنا في مقابلة القتل ويؤيد الاول قوله (قال أما من ظلم) باستمراره على الكفر فانا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله والى ذلك أشار بقوله (فسوف نعذبه) بوعد لا خلاف فيه بعد طول الدعاء والترفق وقال قتادة كان يطبخ من كفر في القدور وهو العذاب المنكر (ثم يرد الى ربه) في الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أي شديدا جدا في النار وتقدم في نكرا سكون الكاف وضمها (وأما من آمن وعمل صالحا) تصديقا لما أخبر به من تصديقه (فله) في الدارين (جزاء الحسنى) أي الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة بعد الزاي منونة وتكسر في الوصل لالتقاء الساكنين قال الفرا نصبه على التفسير أي لجهة النسبة وقيل منصوب على الحال أي فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين فالاضافة للبيان قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة وعلى قراءة الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الايمان والعمل الصالح والثاني فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائي محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح والامالة بين بين (وسنقول) بوعد لا خلاف فيه بعد اختباره بالاعمال الصالحة (له) أي لاجله (من أمرنا) أي ما نأمره به (يسرا) أي قولا غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشقة كثيرة (ثم أتبع) لارادة طلوع مشرق الشمس (سببا) من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مر عليها (حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (مطلع الشمس) أي الموضع الذي تطلع عليه أولا من المعمور من الارض (وجدها تطلع على قوم) قال الجلال المحلي هم الزنج وقوله تعالى (لم نجعل لهم من دونها) أي الشمس (سترا) فيه قولان الاول انه لا شيء لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم لان أرضهم لا تحمل بنيانا قال الرازي ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش وعند

(قوله فلا
يصدنك عنها من لا يؤمن
بها) ضمير عنها وبها للساعة
والمعنى ظاهر أمن لا يؤمن
بها أو صفة موسى عليه
السلام اذ المقصود نهي
موسى عن التكذيب

عراة بها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وأحوالهم بالضد من أحوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون في أسراب لهم حتى اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثاني ان معناه لاثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا وفي كتب الهيئة ان أكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك قال الكلبي هم عراة يفرش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش احدى أذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت فلما طلعت الشمس فاذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلوني سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض وقوله تعالى (كذلك) فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها الثاني ان أمره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوي والصحيح ان معناه كما حكم في القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك في القوم الذين هم عند مطلعها (وقد أحطنا بما لديه) أي عند ذي القرنين من الآلات والجند وغيرهما (خبرا) أي علما متعلقا بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير (ثم) ان ذا القرنين لما بلغ المغرب والمشرق (أتبع سببا) آخر من جهة الشمال في ارادة ناحية السد مخرج يأجوج ومأجوج واستمر آخذا فيه (حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (بين السدين) أي بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل جبلان في أواخر الشمال وقيل هذا المكان في منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج قال الرازي والاظهر ان موضع السد في ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما كما سيأتي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس (وجد من دونهما) أي بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين (قوما) أي أمة من الناس لغتهم في غاية البعد عن لغات بقية الناس لبعد بلادهم عن بقية البلاد فهم كذلك (لا يكادون) أي لا يقربون (يفقهون) أي يفهمون (قولا) ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهمه غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما وقال ابن عباس لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم استشكل بقولهم (قالوا يا ذا القرنين) وأجيب بأنه كلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم (ان يأجوج ومأجوج) وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرأ عاصم مهموزتين كهمزة بعد الياء والميم والباقون بالالف غير مهموز وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنان

بالساعة (قوله وما تلك بيمينك يا موسى) ان قلت ما فائدة سؤاله تعالى لموسى مع انه أعلم بما في يده (قلت) فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الاجلال

وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج وقال ابن عباس فى رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى عن حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون فى خراب الارض وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفرش احدى اذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم ان ثبت لهم مخالب فى أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع وعن على رضى الله تعالى عنه أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول وقال كعب هم نادرة فى ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله تعالى انى باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهم طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وامتان بينهما عرض الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وأمم فى وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأى قوة أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم قال الله تعالى انى سأطوقك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شئ وألبسك الهيبة فلا يروعنك شئ وأسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك يهديك النور من امامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من آمن ومنهم من كفر ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه وأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله فى ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنودا كعمله فى الامتين ثم أخذ ناحية الارض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التى وسط الارض فلما كان مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الانس يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم أى وهم يأجوج ومأجوج (مفسدون فى الارض) يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلقه الله فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا يشك أنهم سيملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها وقال الكلبي فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيأ أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا

زقت الكلام معه أو اعترافه بكونها عصا وازدياد علمه بذلك الا يعترضه شك اذا قلبها الله ثعبانا انها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانا بقدرة الله تعالى (قوله هى عصاى) هو جواب موسى

قوله أربعمائة ألف فى الجمل أربعة آلاف وقوله آدم احتلم فيه أنه ما احتلم نبى قط قالت صح ما هنا معناه فاض منه سال نومه لا احتلام وعاقه اه مصحح

احتملوه وأدخلوه أرضهم وقد بالغوا وأقراهم أذى شديدا وقتلا وقيل نساهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون في الارض بعد خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أي جعلا من المال وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وألف بعدها والباقون بسكون الراء ولا ألف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك (على أن تجعل) في جميع ما (بيننا وبينهم) من الارض التي يمكن توصلهم الينا منها بما آتاك الله من الحكمة (سدا) أي حاجزا بين هذين الجبلين فلا يصلون الينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب (قال) لهم ذو القرنين (ما مكني فيه ربي) أي الحسن لي مما زوته من الاموال والرجال والتوصل الى جميع الممكن للمخلوق (خير) من خراجكم الذي تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام فما آتاني الله خير مما آتاكم وقرأ ابن كثير بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (فأعينوني بقوة) أي اني لا أريد المال بل أعينوني بأيديكم وقوتكم وبالآلات التي أتقوى بها في فعل ذلك فان ما معي انما هو للقتال وما يكون من أسبابه لا لمثل هذا (أجعل بينكم) أي بين ما تختصمون به (وبينهم ردما) أي حاجزا حصينا موثقا بعضه فوق بعض من التلاصق والتلاحم وهو أعظم من السد من قولهم ثوب ردم اذا كان رقاعا فوق رقاع قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء قالوا وما تلك الآلات قال (آتوني) أي اعطوني (زبر الحديد) أي قطعه وهو جمع زبرة كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فأتوه به وبالحطب فحفر له الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم (حتى اذا ساوى) أي بذلك البناء (بين الصدفين) أي بين جانبي الجبلين أي سوى بين طرفي الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان أي يتقابلان من قولهم صادفت الرجل لاقيته وقابلته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ والحطب والفحم و(قال) أي للعملة (انفخوا) فنفخوا (حتى اذا جعله) أي الحديد (نارا) أي كالنار (قال آتوني) أي اعطوني (أفرغ عليه قطرا) أي أصب النحاس المذاب على الحديد المحمى أصبه عليه فدخل في خلال الحديد مكان الحطب لان النار أكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال الزمخشري قيل ما بين السدين مائة فرسخ وروي ان عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع وعن قتادة قال ذكر لنا ان رجلا وفي رواية عن رجل من أهل المدينة قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة عظيمة ان كان نبيا أو كرامة ان لم يكن لان هذه الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان ان يقرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها * (تنبيه) * قطرا هو المتنازع فيه وهذه الآية أشهر أمثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على ان اعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى اذ لو كان قطرا مفعول

(فان قلت) لم زاد عليه آتوني أفرغ الخ (قلت) قال ابن عباس رضي الله عنهما انه مثل سؤال الا انما تصنع بها فأجاب بذلك أو ذكر ذلك خوفا من انه يوهم بالقائها كما أمر بالقائها التعليق

آتونی لاضمر مفعول افرغ حذرا من الالباس ثم قال تعالى (فما) ای فتسبب عن ذلك انه لما أكمل عمل الردم واحكمه ما (اسطاعوا) ای يأجوج ومأجوج وغيرهم (ان يظهروه) ای يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف (وما استطاعوا له نقبا) ای خرقا لصلابته وثخانته وزيادة التاء هنا تدل على ان العلو عليه اصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس فی علو الجبل فانهم ولو احتالوا ببناء درج من جانبهم او وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ويؤيده انهم انما يخرجون فی آخر الزمان بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافی نفی الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام احمد والترمذی فی التفسير وابن ماجه فی الفتن عن ابی رافع عن ابی هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذی عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كأشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم واراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذی عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى فيستثنی فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث وفی حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبی صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه عن ابی هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان هذا فی آخر الزمان ثم انه قيل فلما قال حين فراغه قيل (قال هذا) ای السد بمعنى الاقدار عليه (رحمة) ای نعمة (من ربی) ای المحسن الی باقداری عليه ومنع العادية (فاذا جاء وعد ربی) بقرب قيام الساعة او بوقت خروجهم (جعله دكا) ای مدكوكا مبسوطا وروی انهم يخرجون على الناس فينبعون المياه ويتحصن الناس فی حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من فی الارض وعلونا من فی السماء قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا فی رقابهم وفی رواية فی آذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم والذی نفسی بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا أخرجه الترمذی قوله قسوة وعلوا ای غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يخرج فی أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم شكرا يقال شكرت الشاة شكرا حين امتلأ ضرعها لبنا والمعنى انها تمتلئ اجسادها لحما وتسمن وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فی طائفة من النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فی طائفة النخل فقال غير الدجال اخوفنی عليكم ان يخرج وانا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتی على كل مسلم وانه شاب قطط ای شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه طافية ای بارزة وقيل مخسوفة كأنی أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث ای أفسد يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه فی الارض قال أربعون يوما

أوله لا يناسب الخ أو لانه لا يناسب ان المقام مقام فی جاها مع ان المقام مقام البطالة الذی بالكلام مع الرب تعالى ولهذا ابطل فی الجواب اذ كان يكفی نفس الجواب فيه ان يقول نعمة (قوله واضمم يدك الی جناحك الخ)

يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره أى واليوم الثانى والثالث كذلك وسكت عن ذلك العلم به من الاول قلنا يارسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درا واسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بايديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء فى دمشق بين مهرودتين أى حلتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الامات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم وهو بالتحريك دود يكون فى أنوف الابل والغنم الواحدة نغفة فيصبحون فرسى أى قتلى الواحد فريس ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله تعالى عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم حيث شاء الله تعالى ثم يرسل الله تعالى عليهم مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة وهى بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ويجمع على المزالف أيضا أى فتصير الارض كأنها مصنعة من مصانع الماء وقيل كالمرآة وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف أيضا ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل وهو بتحريك الراء والسين من الابل والغنم من عشرة الى خمسة وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة (وكان وعد ربى) الذى وعد به فى خروج يأجوج ومأجوج واحراقهم الارض وافسادهم لها واقتراب قيام الساعة (حقا) كائنا لا محالة والله أعلم تعالى على هذا آخر حكاية ذى القرنين وفى القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى بشهرزور وذكر بعضهم أن عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان من بيده عز وبقاؤه ثم انه تعالى

جعل هنا الجناح مضموما
اليه وفى القصص مضموما
فى قوله واضمم اليك
جناحك لان المراد به هنا
ما بين العضد الى الابط من
اليد اليسرى وبه ثم الكف من
اليد اليمنى فلا تنافى قوله

قال عاطفا على ما تقديره فقد بان أمر ذى القرنين أى بيانه وصدق فى قوله فاذا جاء وعد ربى فانه اذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التى نؤتيها اليأجوج ومأجوج دكا فاخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال (وتركنا بعضهم) اى يأجوج ومأجوج (يومئذ) اى حين يخرجون (يموج) اى يضطرب (فى بعض) كموج البحر أو يموج بعض الخلق فى بعض فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويؤيده (ونفخ فى الصور) أى القرن النفخة الثانية لقوله تعالى (فجمعناهم) اى الخلائق فى مكان واحد يوم القيامة قال البقاعى ويجوز أن تكون هذه الفاء فاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الاولى أى ونفخ فمات الخلائق كلهم وبليت أجسامهم وتفتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرقهم فى أقطار الارض بالسيول والرياح وغير ذلك (جمعا) فاحييناهم دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب (وعرضنا) اى أظهرنا (جهنم يومئذ) اى اذ جمعناهم لذلك (للكافرين عرضا) ظاهرا لهم كل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون لهم عنها مصرفا ثم وصفهم بما أوجب لهم ذلك بقوله تعالى (الذين كانت) كونا كانه جبلة لهم (أعينهم) وهو بدل من الكافرين (فى غطاء عن ذكرى) اى عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلنا على الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته بعد ابدائه (وكانوا) بما جبلناهم عليه (لا يستطيعون سمعا) اى لا يقدرون أن يسمعوا من النبى صلى الله عليه وسلم ما يتلو عليهم بغضاله فلا يؤمنون به * ولما بين تعالى أمر الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أتبعه بقوله تعالى (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى) من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام (من دونى) وقوله تعالى (أولياء) اى اربابا مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثانى لحسب محذوف والمعنى ظنوا أن الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبنى ولا أعاقبهم عليه كلا وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم فى المد ولما كان معنى الاستفهام الانكارى ليس الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (انا أعتدنا جهنم) التى تقدم أنا عرضناها لهم (للكافرين) اى هؤلاء وغيرهم (نزلا) اى هى معدة لهم كالنزل المعد للضيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم * ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (هل ننبئكم) اى نخبركم وأدغم الكسائى لام هل فى النون والباقون بالاظهار (بالاخسرين أعمالا) اى الذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا فيهم فقال ابن عباس وسعد بن أبى وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد قال سعد بن أبى وقاص أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب انتهى قال البقاعى وكذا قال اليهود لان الفريقين أنكروا الحشر الجسمانى وخصوه بالروحانى وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى الصوامع * (تنبيه) * أعمالا تمييز للاخسرين جمع وان كان مصدر التنوع أعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم من نجاح السعى واحسان الصنع فقال تعالى (الذين ضل) اى ضاع وبطل (سعيهم فى الحيوة الدنيا) لكفرهم

(اذهب الى فرعون) قال ههنا وقال فى الشعراء ان ائت القوم الظالمين قوم فرعون وفى القصص فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه اقتصر فى طه على فرعون لانه

•(تنبيه)• محل الموصول الجر نعتا أو بدلا أو بيانا أو النصب على الذم أو الرفع على الخبر المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى خسرانهم أنه مثلهم بمن يشترى سلعة يرجو فيها ربحا فخسر وخاب سعيه كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم واجتهادهم فى الحياة الدنيا (وهم يحسبون) أى يظنون وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر (أنهم يحسنون صنعا) أى عملا يجازون عليه لاعتقادهم أنهم على الحق •ثم بين تعالى السبب فى بطلان سعيهم بقوله تعالى (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين كفروا بآيات ربهم) أى بدلائل توحيده من القرآن وغيره (ولقائه) أى رؤيته لانه يقال لقيت فلانا أى رأيته (فان قيل) اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك فى حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله تعالى كما قال بعض المفسرين (أجيب) بأن لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول الا أن استعماله فى الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذى يقول ان المراد لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى (فحبطت) أى فبسبب جحدهم لذلك بطلت (أعمالهم) فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفى قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قولان أحدهما انا نزدرى بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندى وزن أى قدر لخسته وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا الثانى لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت وقال أبو سعيد الخدرى تأتى ناس بأعمالهم يوم القيامة عندهم فى التعظيم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ولما كان هذا سياقا دالة على أن جزاءهم أوضح من الشمس قال تعالى (ذلك) أى الامر العظيم الذى بينا من وعيدهم وحبوط عملهم ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى (جهنم) وصرح بالسببية بقوله تعالى (بما كفروا) أى بسبب كفرهم التغطية للدلائل (واتخذوا آياتى) الدالة على وحدانيتنا (ورسلى) المؤيدين بالمعجزات الطاهرات (هزوا) أى مهزوأ بهما فلم يكتفوا بالكفر الذى هو طعن فى الالهية حتى ضموا اليه الهزء الذى هو أعظم احتقارا • ولما بين سبحانه وتعالى ما لاحد قسمى أهل الجمع تقريعا عنهم بين ما للآخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا فى اتباعهم وامدادا بهم بقوله (ان الذين آمنوا) أى باشروا الايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الخصال (كانت لهم) أى فى علم الله قبل أن يخلقوا البتة أعمالهم على الاساس (جنات) أى بساتين (الفردوس) أى أعلى الجنة وأوسطها والاضافة للتبيين روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وقال كعب ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقال كعب الفردوس هو

الاصل بالنسبة الى قوله مع ... سبق طه وا كذى فى الشعراء ... فى الاضافة عن ... ذكره مفردا وجمع ... فى القصص ليوافق قوله ... فى التعدد ... وقوله واهل ...

بستان الجنة الذى فيه الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو بالرومية منقول الى اللفظ العربية وقال عكرمة هى الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هى الجنة الملتفة الاشجار (نزلا) اى منزلا كما كان السعير والاغلال لاولئك نزلا وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة (لا يبغون) اى لا يريدون أدنى ارادة (عنها حولا) اى تحويلا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى * ولما ذكر تعالى فى هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين والآخرين نبه على حال كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف الخلق للخلق (لو كان البحر) اى ماؤه على عظمته عندكم (مدادا) وهو اسم لما يمد به الشئ كالحبر للدواة والسليط للسراج (لكلمات) اى لكتب كلمات (ربى) اى المحسن الى (لنفد) اى فنى مع الضعف فناء لا تدارك له (البحر) لانه جسم متناه (قبل أن تنفد) اى تفنى وتفرغ (كلمات ربى) لان معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التانيث * ولما لم يكن أحد غيره يقدر على امداد البحر قال تعالى (ولو جئنا بمثله) اى بمثل البحر الموجود (مددا) اى زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال البغوى وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد انا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فانزل الله تعالى هذه الآية وقال البيضاوى وسبب نزولها أن اليهود قالوا فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وتقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا انتهى وقال فى الكشاف يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فانزل الله تعالى هذه الآية * ولما كانوا ربما قالوا مالك لا تحدث من هذه الكلمات بكل ما سألناه عنه قال الله تعالى (قل) يا خير الخلق لهم (انما أنا بشر) فى استبداد القدرة على ايجاد المعدوم والاخبار بالغيب (مثلكم) اى لا أمر لى ولا قدرة الا ما يقدرنى ربى عليه ولكن (يوحى لى) اى من الله تعالى الذى خصنى بالرسالة كالوحى الى الرسل قبلى (أنما الهكم) الذى يجب أن يعبد (اله واحد) لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لا منازع له لم يؤخر جواب ما سألتمونى عنه من عجز ولا من جهل هذا الذى يعنى كل أحد علمه وأما ما سألتم عنه فى أمر الروح والقصتين فالله تعالى فأمره لوجهلته ما ضركم جهله (فمن) اى فتسبب عن وحدانيته المستلزمة لتمامه (كان يرجوا لقاء ربه) اى يخاف المصير اليه وقيل يأمل رؤية ربه فالرجاء يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر

فلا كل ما ترجوا من الخير كائن * ولا كل ما ترجوا من الشر واقع

فجمع بين المعنيين (فليعمل عملا) ولو قليلا (صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك) اى ولا يكن ذلك العمل مبنيا على الاساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء (بعبادة ربه أحدا) فاذا عمل ذلك حاز خيار الدنيا والآخرة روى ان جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعمل

لساني) قال ذلك هنا وقال فى الشعراء ولا ينطلق لسانى وفى القصص وأخى هرون هو أفصح منى لسانا صرح بعقد اللسان فى طه لسبقها وكنى عنها فى الشعراء بما يقرب من

العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا له وروى أنه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فانا منه بريء وهو للذي عمله وعن سعيد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه فان الله تعالى اغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص في الطاعة *(خاتمة)* روى في فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذي وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نور يتلألأ في مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوي وعنه عليه السلام من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذي رواه الامام أحمد من قرأ أول سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وروى البغوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء ونسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا وأبصارنا وان يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا وأن يفعل ذلك بوالدينا وأولادنا وأقاربنا وأصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين وأحبابنا آمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما الى يوم الدين

سورة مريم عليها السلام مكية

وهي ثمان وتسعون آية وسبعمائة واثنان وستون كلمة
وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد (الرحمن) الذي عم نواله سائر مخلوقاته (الرحيم) بسائر خلقه واختلف في تفسير قوله تعالى (كهيعص) قال ابن عباس هو اسم من اسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من اسماء القرآن وقيل هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم السورة وقيل قسم أقسم الله به وعن الكلبي هو ثناء أثنى الله به على نفسه وعنه معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق ايديهم عالم ببريته صادق في وعده وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق وقيل انه من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وقد تقدم الكلام على

وفي القصص التصريح بحكاية مبهمة للدلالة على الكتابة عليها (قوله اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) ان قلت هذا مجمل فما فائدته (قلت) فائدته الاشارة الى أنه أبهم كل الامور عليها

ذلك فى اول سورة البقرة وقرأ نافع بإمالة الهاء والياء بين بين وأمالهما محضة شعبة والكسائى وامال الهاء محضة أبو عمرو وابن عامر وحمزة وللسوسى فى الياء خلاف فى الامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير وحفص بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء فى العين المد والتوسط وقوله تعالى (ذكر) مبتدأ محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم ذكرا وخبر محذوف المبتدا تقديره المتلو ذكرا وهذا ذكر (رحمت ربك) وقوله تعالى (عبده) مفعول رحمة لانها مصدر بنى على التاء لا انها دالة على الوحدة ورسمت بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى (زكريا) بيان له * (تنبيه) * اعلم انه تعالى ذكر فى هذه السورة قصص جملة من الانبياء * الاولى هذه القصة وهى قصة زكريا فيحتمل أن المراد من قوله تعالى رحمة ربك أنه عنى عبده زكريا ثم فى كونه رحمة وجهان أحدهما انه يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثانى أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى لما شرع له صلى الله عليه وسلم طريقته فى الاخلاص والابتهال فى جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة ويحتمل ان يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى رحم بها عبده زكريا (اذ نادى ربه نداء) مشتملا على دعاء (خفيا) اى سرا جوف الليل لانه أسرع الى الاجابة وان كان الجهر والاخفاء عند الله سيان ٣ وقيل اخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمن الشيخوخة وقيل أسره من مواليه الذين خافهم وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات (فان قيل) من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا (أجيب) بوجهين الاول انه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان صوته كان ضعيفا لنهاية ضعفه بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى القصد خفيا نظرا الى الواقع الثانى أنه دعا فى الصلاة لان الله تعالى أجابه فى الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك وكون الاجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها اخفيا * (تنبيه) * فى ناصب اذ ثلاثة أوجه أحدها انه ذكر ولم يذكر المولى غيره والثانى رحمة ولم يذكر الجلال المحلى غيره وذكر الوجهين أبو البقاء والثالث أنه بدل من زكريا بدل اشتمال لان الوقت مشتمل عليه ثم كأنه قيل ماذلك النداء فقيل (قال رب) بحذف الاداة للدلالة على غاية القرب (انى وهن) اى ضعف جدا (العظم منى) اى هذا الجنس الذى هو اقوى ما فى بدنى ولو جمع لاوهم انه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله (واشتعل الرأس) اى منى (شيبا) تمييز محول عن الفاعل اى انتشر الشيب فى شعره كما ينتشر شعاع النار فى الحطب وانى اريد ان ادعوك (ولم اكن بدعائك) اى بدعائى اياك (رب شقيا) اى خائبا فيما مضى فلا تخيبنى فيما يأتى وان كان ما ادعو به فى غاية البعد فى العادة لكنك فعلت مع ابى ابراهيم مثله فهو دعاء وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله انى وهن قوله (وانى خفت الموالى) اى الذين يلونى فى النسب كبنى العم أن يسيؤا الخلافة (من ورائى) أى فى بعض الزمان الذى بعدى (وكانت امرأتى عاقرا) لا تلد أصلا بما دل عليه فعل الكون

(فهب لى)

قوله الى الانثى كالثروة ونحوها او التعظيم والتفخيم اولا كما فى قوله فغشاها ما غشى والبيان ثانيا بقوله تعالى ان اقذفيه الآية (قوله فى رحمة ربك الى آخره) قال هنا بلفظ الرجع وقال

٣ قوله سيان هكذا بالاصول ولعله على لغة من يلزم المثنى الالف أو يجعل كان شانية والجملة خبرها اه مصححه

(فهب لى) اى فتسبب عن شيخوختى وضعفى وتعويدك لى بالاجابة وخوفى من سوء خلافة اقاربى ويأسى عن الولد عادة بعقم امرأتى وبلوغى من الكبر حد الاحرار الذى معه أتى أقول انك قادر على كل شئ هب لى (من لدنك) اى من الامور المستبطنة المستغربة التى عندك لم تجرها على مناهج العادات والاسباب المطردات (وليا) اى ابنا من صلبى (يرثنى) فى جميع ما أنا فيه من العلم والنبوة والعمل (ويرث) زيادة على ذلك (من آل يعقوب) جدامهاتهم ابيهم من المنح وفضلتهم به من النعم ومحاسن الاخلاق ومعالى الشيم فان الانبياء لا يورثون المال وقيل يرثنى الحبورة أى العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا هو بالفتح والكسر وهو أفصح يقال للعالم بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب بن اسحق عليهما السلام وقيل يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل فى المال وفى العلم والنبوة أما فى المال فلقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما فى النبوة فلقوله تعالى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب الآية وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء ولان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وخص اسم يعقوب اقتداء بيوسف اذ قال ليوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ولان اسرائيل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الاحداث وقرأ أبو عمرو والكسائى بجزم الثاء المثلثة فيهما على أنهما جواب الامر اذ تقديرهما ان تهب يرث والباقون بالضم فيهما على انهما صفة (واعترض) بان زكريا دعا الله تعالى ان يهبه ولدا يرثه مع أن يحيى قتل قبله فلم يجبه الى ارثه منه (وأجيب) بان اجابة دعاء الانبياء غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضاء الله تعالى بخلافه كما فى دعاء ابراهيم عليه السلام فى حق أبيه وكما فى دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله وسألته ان لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ولما كان من قضاء الله تعالى وقدره أن يوجد يحيى نبيا صالحا ثم يقتل اختص دعاء زكريا بايجاده دون ارثه * ولما ختم دعاءه بقوله (رب) اى ايها المحسن الى (رضيا) اى مرضيا عندك اجابه الله تعالى بقوله تعالى (يا زكريا انا نبشرك بغلام) يرث كما سألت ثم (اسمه يحيى) وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك فى آخر السورة *(تنبيه)* يحيى اسم اعجمى ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له قال تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) اى مسمى بيحيى قال قتادة والكلبى لم يسم احد قبله بيحيى *(تنبيه)* سميا مأخوذ من السمو وفيه دلالة لقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسيما وقال سعيد بن جبير وعطاء لم نجعل له شبيها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا اى مثلا والمعنى انه لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ورد هذا لان هذا يقتضى تفضيله على الانبياء قبله كابراهيم وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى أمر النساء لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا ثم كأنه قيل فما قال فى جواب هذه البشارة العظيمة فقيل (قال) عالما بصدقها طالبا للتأكيد بها وللتلذذ بترديدها وهل ذلك من امرأته

قوله فى القصص فرددناه بلفظ الرد لانهما وان اتحدا معنى لكن خص الرجع بما هنا لتقاوم ثقل الرجع خفة الكاف والرد بالقصص لتقاوم خفة الرد ثقل ضمة الهاء وليوافق قوله انا رادوه

قوله يرث كما سألت هذا يناقض ما تقدم من أنه لم يجب الى ارثه لتخلفه بكونه قتل قبل والده وعبارة العلامة الجلال قوله يرث كما سألت قد يستشكل بانه سأل ولدا يرث منه ولم يفعل ذلك لقتل يحيى فى حياة زكريا والجواب ان المراد وراثة العلم والنبوة ولو فى حياة زكريا ثم ذكر الجواب الذى تقدم فى الشرح اه

ومن غيرها وهل اذا كان منها يكونان على حالتهما من الكبر أو غيرها غير طائش ولا عجل (رب) أيها المحسن الى باجابة الدعاء دائما (أنى) اى من أين وكيف وعلى أى حال (يكون لى غلام) يولد لى فى غاية القوة والنشاط والكمال فى الذكورة (وكانت) اى والحال انه كانت (امرأتى) اذ كانت شابة (عاقرا) غير قابلة للولد وأنا وهى شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السببين فكيف بها وقد أيست قال الجلال المحلى بلغت ثمانيا وتسعين سنة (وقد بلغت) انا (من الكبر عتيا) من عتا يبس أى نهاية السن قال الجلال المحلى مائة وعشرين سنة وبما تقرر سقط ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله أنى يكون لى غلام مع أنه هو الذى طلب الغلام وقرأ حفص وحمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا بكسر عين الاول وصاد الثانى وجيم الثالث وضم الباقون وأما بكيا فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائى وضمها الباقون وأصل عتى عتوو كسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الاولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها وانما استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بان المؤثر فيه كمال القدرة وان الوسايط عند المحققين ملغاة ولذلك (قال) اى الله تعالى كما قال الاكثر ونلان زكريا انما كان يخاطب الله ويسأله بقوله رب انى وهن العظم منى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقا له بقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى وأيضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر عتيا قال (كذلك) اى الامر كذلك فهو خبر مبتدا محذوف ثم علله بقوله (قال ربك) اى الذى عودك بالاحسان فدل ذلك على أنه كلام الملك قال ابن عادل ويمكن أن يجاب بأنه يحتمل أن يحصل النداآن نداء الله تعالى ونداء الملك ثم ذكر مقول القول فقال (هو) اى خلق يحيى منكما على هذه الحالة (على) اى خاصة (هين) اى بان أرد عليك قوة الجماع وافتق رحم امرأتك للعلوق (وقد خلقتك) اى قدرتك وصورتك وأوجدتك (من قبل ولم) اى والحال أنك لم (تك شيأ) بل كنت معدوما صرفا وفيه دليل على ان المعدوم ليس بشئ ولاظهار الله تعالى هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها وقرأ حمزة والكسائى بعد القاف بنون بعدها الف والباقون بعد القاف بتاء مضمومة ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لى) على ذلك (آية) اى علامة تدلنى على وقوعه (قال آيتك) على وقوع ذلك (الا تكلم الناس) اى لا تقدر على كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى (ثلاث ليال) اى بأيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام حال كونك (سويا) من غير خرس ولا مرض وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة ايام ولياليهن عن غير ذكر الله دلالة على اخلاصه وانقطاعه وكليته الى الله تعالى دون غيره (فخرج) عقب اعلام الله تعالى له بهذا (على قومه من المحراب) اى من المسجد وهم ينتظرونه أن يفتح لهم الباب متغيرا لونه فأنكروه وهو منطلق اللسان بذكر الله تعالى منحبس عن كلام الناس فقالوا مالك يا نبى الله (فأوحى اليهم) اى اشار بشفتيه من غير نطق وقال مجاهد كتب لهم فى الارض (ان سبحوا) اى أوجدوا التنزيه والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها (بكرة وعشيا) اى أوائل النهار وأواخره على العادة فلم يمنعه من كلامه حمل امرأته بيحيى قال الجلال المحلى وبعد ولادته بسنتين قال الله

البك (قوله وسلمنا الكم فيها سلام) قاله هنا بلفظ سلام وقاله فى الزخرف بلفظ جعل لان لفظ السلوك مع السبل اكثر استعمالا من جعل فخص به لتقدمها

تعالى له (يا يحيى خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات * الاولى قوله تعالى (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس النبوة (صبيا) قال الجلال المحلى تبعا للبغوى ابن ثلاث سنين اى أحكم الله عقله فى صباه واستنبأه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرأ التوراة وهو صغير قال البغوى وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا * الصفة الثانية قوله تعالى (وحنانا) اى وآتيناه رحمة وهيبة ووقارا ورقة قلب ورزقا وبركة (من لدنا) اى من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة * الصفة الثالثة قوله تعالى (وزكاة) اى وآتيناه طهارة فى دينه قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقال قتادة هى العمل الصالح وقال الكلبى يعنى صدقة تصدق الله بها على أبويه * الصفة الرابعة قوله تعالى (وكان) اى بجبلته وطبعه (تقيا) اى مخلصا مطيعا وروى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها * الصفة الخامسة قوله تعالى (وبرا بوالديه) اى بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا * الصفة السادسة قوله تعالى (ولم يكن جبارا) اى متكبرا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادة معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع ولذلك لما تجبر ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار هو الذى لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من أنه لا يلزمه قضاء حق لاحد وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه * الصفة السابعة قوله تعالى (عصيا) أى عاقا أو عاصى ربه وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم * الصفة الثامنة قوله تعالى (وسلام عليه) منا (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) * فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة (أجيب) بوجوه الاول قال محمد بن جرير الطبرى وسلام عليه يوم ولد أى أمان من الله تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم ويوم يموت أى أمان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث أى ومن عذاب الله يوم القيامة الثانى قال ابن عيينة أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى فى محشر عظيم فاكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام فى هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أى أول ما يرى فى الدنيا ويوم يموت أى أول يوم يرى فيه أمر الآخرة ويوم يبعث حيا أى أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لانه قتل وقد قال تعالى أحياء عند ربهم يرزقون * (فروع) * الاول هذا السلام يمكن أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى * الثانى ليحيى مزية فى هذا السلام على ما لسائر الانبياء لقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال يوم ولد وليس

وبعجل الزخرف ليوافق التعبير به قبل ص ونحو بعد مرارا (قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى) أخر موسى عن هرون مع أن هرون كان وزيرا له لموافقة الفواصل (قوله لا يموت

كذلك سائر الانبياء الثالث روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام انت أفضل مني لان الله تعالى قال سلام عليه وأنا سلمت على نفسي قال الرازي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله تعالى على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمر الله تعالى انتهى ولكن بين السلامين مزية *(تنبيه)* هذه القصة قد ذكرت في آل عمران بقوله تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى أن قال هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم لان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه فدعا وقد وقعت المخالفة في ذكر ما هنا وهنالك في الالفاظ من وجوه الاول منها ان الله تعالى صرح في آل عمران بان المنادي هو الملائكة بقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة الاكثر على أن المنادي بقوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو الله تعالى (وأجيب) بان الله تعالى هو المبشر سواء كان بواسطة أم لا الثاني انه قال تعالى في آل عمران أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر فذكر أولا كبر سنه ثم عقر امرأته وفي هذه السورة قال أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بان الواو لا تقتضي الترتيب الثالث قال في آل عمران وقد بلغني الكبر وقال هنا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بان ما بلغك فقد بلغته الرابع قال في آل عمران آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا وأجيب بأن الآيتين دلتا على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن كما مر *القصة الثانية قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لان خلق الولد من شخصين فانيين أقرب الى مناهج العادات من خلق الولد لا من أب البتة وأحسن طرق التعليم والفهم الاخذ من الاقرب فالاقرب مرتقيا الى الاصعب فالاصعب أشار الى ذلك بتغيير السياق فقال عاطفا على ما تقديره اذكر هذا لهم (واذكر) بلفظ الامر (في الكتاب) أي القرآن (مريم) أي قصتها وهي ابنة عمران خالة يحيى كما في الصحيح من حديث أنس بن مالك بن صعصعة الانصاري في حديث الاسراء فلما خلصت فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ثم أبدل من مريم بدل اشتمال فقال (اذ) أي اذكر ما اتفق لها حين (انتبذت) أي كلفت نفسها أن اعتزلت وانفردت (من أهلها) حالة (مكانا شرقيا) أي شرقي بيت المقدس وقال الرازي شرقي دارها وعن ابن عباس اني لاعلم خلق الله تعالى لاي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذت ميلاد عيسى قبلة واقتصر الجلال المحلي على الشرق من الدار وتردد البيضاوي بينهما فقال شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها انتهى ويحتمل أن يكون شرقي بيت المقدس هو شرقي دارها فلا مخالفة (فاتخذت) أي اخذت بقصد وتكلف ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال (من دونهم) اى أدنى مكان من مكانهم (حجابا) اى أرسلت سترا تستتر به لغرض صحيح وليس بمذكور واختلف المفسرون فيه على وجوه أحدها أنها طلبت الخلوة كيلا تشتغل عن العبادة ثانيها انها عطشت فخرجت الى المفازة تستقي ثالثها انها كانت في منزل زوج اختها

فيما ولا يحيى) أي لا يموت فيها موتا متصلا ولا يحيى حياة متصلة بل كلما مات في مدة العذاب اعيد حيا وانما قرر لدوام العذاب والحياة زيفت لان الموت

زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت ان تجد خلوة فى الجبل لتفلى رأسها وقوبها فانفجرت لها الشمس فخرجت فجلست فى المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك كما قال تعالى (فارسلنا) لامر يدل على عظمتنا (اليها روحنا) اى جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب لئلا يشتبه عليها الامر فتقتل نفسها غما (فتمثل لها) اى تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو روحانى بصورة الجسمانى (بشرا سويا) فى خلقه حسن الشكل روى انها انها قعدت فى مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشئ يسترها وكانت تحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود اليه اذا طهرت فبينما هى فى مغتسلها أتاها جبريل بعدما لبست ثيابها فتمثل لها بصورة شاب أمرد سوى الخلق تستأنس بكلامه اذ لو أتاها فى الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه قال البيضاوى ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها اى مع ما منها الفتنة لعفتها قال الرازى وكل هذه الوجوه محتملة وليس فى اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها ٭ ولما رأت مريم جبريل نحوها (قالت انى أعوذ) ى اعتصم (بالرحمن) ربى الذى رحمته عامة لجميع خلقه (منك) اى أن تقربنى وفتح ياء انى نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم فى المد لما تفرست فيه بما أنار الله تعالى من بصيرتها وأصفى من سريرتها التقوى قالت (ان كنت تقيا) اى مؤمنا مطيعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله اى فانى عائذة منك أو نحو ذلك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها (فان قيل) انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا (أجيب) بان هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمنى اى ينبغى أن يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك هنا ينبغى أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا فى نهاية الحسن لانها علمت أنها لا تؤثر الاستعاذة الا فى التقى وهو كقوله تعالى وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين اى ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال وقيل كان فى ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء اسمه تقى فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه قال الرازى والاول هو الوجه ولما علم جبريل عليه الصلاة والسلام خوفها (قال) مجيبا لها بما معناه انى لست ممن تخشين أن يكون متهما لما كان الاجل استعاذتها (انما انا رسول ربك) اى الذى عذت به فما قالت منه ما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المنتهى للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله (ليهب لك) قرأ ورش وأبو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء اى ليهب الله تعالى لك وقرأ الباقون بالهمز أى لاهب لك وفى مجازه وجهان الاول أن الهبة لما جرت على يديه بان كان هو الذى ينفخ فى جيبها بامر الله تعالى جعل نفسه كانه هو الذى وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل قال الله تعالى فى الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس الثانى أن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة ٭ ثم بين الموهوب بقوله (غلاما) اى ولدا ذكرا فى غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله (زكيا) اى تقيا طاهرا من كل ما يدنس البشر ناميا على الخير والبركة (قالت) مريم (انى) أى من أين

الشخص لا يرتعدان عن (قوله لا تخاف دركا ولا تخشى) اى لا تخاف ادراك فرعون ولا تخشى غرقا فى البحر والا فالخوف والخشية مترادفان وغاير بينهما لفظا

وكيف (يكون لى غلام) الخ (ولم يمسسنى بشر) بنكاح (ولم أك بغيا) أى زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون الا من رجل والعادة عند أهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة للعبادة ومن يكون كذلك لابد أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ما قيل قولها ولم يمسسنى بشر يدخل تحته قولها ولم أك بغيا ولهذا اقتصر عليه فى سورة آل عمران بقولها قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر فلم تذكر البغى ويجوز أن يقال انها أفردت ذكر البغى مع دخوله فى الكلام الاول لانه أعظم ما فى بابه فهو نظيره قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال (قال) لها جبريل عليه السلام الامر (كذلك) من خلق غلام منك بغير أب ولما كان لسان الحال قائلا كيف يكون بغير سبب أجاب جبريل بقوله (قال ربك هو) أى المذكور وهو ايجاد الولد على هذه الهيئة (على) وحدى لا يقدر عليه غيرى (هين) أى بان ينفخ بامرى جبريل فيك فتحملى به ولكون ما ذكر فى معنى العلة عطف عليه (ولنجعله) بما لنا من العظمة (آية للناس) أى علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية فى يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية فى خلق البشر فانه أوجده من أنثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى وبقية أولاده من ذكر وأنثى معا (ورحمة منا) على العباد يهتدون به (وكان) ذلك كله (أمرا مقضيا) به فى على وقوله تعالى (فحملته) فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لهذه الآية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى قال تعالى فنفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لاهب لك على أحد القراءتين أنه النافخ واختلف فى كيفية نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبها فحملت حين لبسته وقيل مد الى جيب درعها أصابعه ونفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كم قميصها وقيل فى فيها وقيل نفخ جبريل نفخا من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى فى الحال وقيل نفخ فى ذيلها فدخلت النفخة فى صدرها فحملت فجاءت أختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت أنها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وقيل حملت وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قال الرازى وليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاقوال المذكورة * ثم عقب بالحمل قوله (فانتبذت به) أى فاعتزلت به وهو فى بطنها حالة (مكانا قصيا) أى بعيدا من أهلها أو من المكان الشرقى وأشار الى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب فى قوله (فأجاءها) أى فألجأها وألجأها (المخاض) وهو تحرك الولد فى بطنها للولادة

رعاية البلاغة (قوله واضل فرعون قومه وما هدى) ان قلت صدره ينفى عجزه فكيف ذكر العجز (قلت) المعنى وما هداهم بعد ما اضلهم فان المضل قد يهدى بعد اضلاله او ما هدى

(الى جذع النخلة) وهو ما برز منها من الارض ولم يبلغ الاغصان وكان تعريفها لانه لم يكن في تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب لان النخل من أقل الاشجار صبرا على البرد ولعلها ألجئت اليها دون غيرها من الاشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها لانها لا تحمل الا بالالقاح من ذكر النخل فحملها بمجرد هزها أنسب شئ باتيانها بولد من غير والد فكيف اذا كان ذلك في غير وقته وكانت يابسة مع ما لها فيها من المنافع بالاستناد اليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة النفساء وغاية في نفعها وغير ذلك والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وهو مراد الجوهري بقوله طعام الولادة قال ابن عباس الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها جدا كان كأنه قيل يا ليت شعري ما كان حالها فقيل (قالت) لما حصل عندها من خوف العار (يا ليتني مت) واشارت الى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار (قبل هذا) اى الامر العظيم وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي مت بكسر الميم والباقون بالضم (وكنت نسيا) اى شيأ من شأنه أن يطرح وينسى (منسيا) اى متروكا بالفعل لا يخطر على بال (فان قيل) لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام اليها ووعدها بان يجعلها وولدها آية للعالمين (أجيب) عن ذلك باجوبة الاول أنها تمنت ذلك استحياء من الناس فانساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى الثاني أن عادة الصالحين اذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك كما روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت أني ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر رضي الله عنه أنه اخذ تبنة من الارض فقال يا ليتني هذه التبنة ولم أكن شيأ وعن علي رضي الله عنه يوم الجمل ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده امه فثبت ان هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم الثالث لعلها قالت ذلك لئلا يقع في المعصية من يتكلم فيها والا فهي راضية بما بشرت به وقرأ حفص وحمزة نسيا بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى (فناداها من تحتها) قرأه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال الف ناداها حمزة والكسائي امالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفي المنادي اوجه احدها انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ثانيها انه جبريل عليه السلام وانه كان كالقابلة للولد ثالثها ان المنادي على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم قال الرازي والاول اقرب وصدر به البيضاوي واقتصر الجلال المحلي على الثاني و لمعنى على الاول ان الله تعالى انطقه لها حين ولدته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد في اول الامر ما بشرها به جبريل من علو شان ذلك الولد وعلى الثاني ان الله تعالى ارسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما ارسل اليها في اول الامر تذكيرا للبشارات المتقدمة والضمير في تحتها لمريم وعلى تقدير ان يكون المنادي هو

نفسه أو اضلهم عن الدين وما هداهم طريق الى البحر (قوله يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور) ان قلت المواعدة انما كانت لموسى عليه

بسى فهو ظاهر وان كان جبريل فقيل انه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها اسفل من كانها وقيل الضمير فيه للنخلة اى ناداها من تحتها (ان لا تحزنى) يجوز فى أن ان تكون مفسرة لتقدمها ما هو بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وأن تكون الناصبة ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل أن اما نصب او جر لانها على حذف حرف الجر أى ناداها بكذا (قد جعل ربك) اى المحسن اليك (تحتك) فى هذه الارض التى لا ماء جارفيها (سريا) اى جدولا من الماء تطيب به نفسك قال الرازى اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه واما الحسن وابن زيد فانهما جعلا السرى هو عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه اى اشرافهم واحتج من قال هو النهر بان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن السرى فقال هو الجدول وبقوله تعالى فكلى واشربى فدل على أنه النهر حتى يضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من قال انه عيسى بان النهر لا يكون تحتها بل الى جنبها ولا يجوز أن يجاب عنه بان المراد انه جعل النهر تحت أمرها يجرى بامرها و يقف بامرها كقول فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز وأيضا فانه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية (وأجيب) بان المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت *(تنبيه)* اذا قيل بان السرى هو النهر ففيه وجهان الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض وقيل عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى وقيل كان هنالك ماء جار قال ابن عادل والاول أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل على الحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وقيل كان هنالك نهر يابس أجرى الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة وأورقت وأثمرت وأرطبت قال أبو عبيدة والفراء السرى هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير (وهزى اليك) اى أوقعى الهز وهو جذب بتحريك (بجذع النخلة) اى التى انت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها (تساقط عليك) من أعلاها (رطبا جنيا) طريا آية أخرى عظيمة روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها رأسا وخوصا ورطبا وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف *(تنبيه)* الباء فى بجذع زائدة والمعنى هزى اليك جذع النخلة كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم قال الفراء تقول العرب هزه وهزبه وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة و بفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة اى على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس لرطبة بخلاف تخم فانه جمع لتخمة والفرق أنهم التزموا تذكيره فقالوا هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا هى التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وأنثوا التخم باعتبار الجمعية قال ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خثيم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الافعال الخارقة للعادة كرامات

السلام لانهم فكيف اضيفت اليهم (قلت) لما كانت لا تزال كائنة بالابسهم* اذ فيه صلاح دنياهم واخراهم اضيفت اليهم لهذه الملابسة (قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى)

لمريم أو ارهاص لعيسى وفي ذلك تنبيه على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها فلذلك قال (فكلي) اي من الرطب (واشربي) من السري أو كلي من الرطب واشربي من عصيره (وقري عينا) اي وطيبي نفسك وارفضي عنها ما أحزنها وقدم الاكل على الشرب لان حاجة النفساء الى الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم (فان قيل) ان مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش لان الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن روي انه أجيعت شاة فقدم اليها علف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفا من الذئب ثم كسر رجلها وقدم اليها العلف فتناولت العلف مع ألم البدن فدل ذلك على ان ألم الخوف أشد من ألم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف (أجيب) بان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الا الى التذكير مرة أخرى وقيل قري عينا بولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام وقوله (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (ترين) حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين (من البشر أحدا) ينكر عليك (فقولي) يا مريم لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة لان البريء يكون ساكنا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه (اني نذرت للرحمن) اي الذي عمت رحمته (صوما) اي امساكا عن الكلام في شأنه وغيره مع الاناسي بدليل (فلن أكلم اليوم انسيا) فان كلامي يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع وأما أنا فانزه نفسي عن مجادلة السفهاء قالوا ومن أدل الناس سفيه لم يجد مسافها فلا أكلم الا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا في شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس وروي أنه دخل أبو بكر رضي الله عنه على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم فقال أبو بكر ان الاسلام قد هدم هذا فتكلمي * (تنبيه) * اختلفوا في أنها هل قالت لهم اني نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأن تأتي بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها سكتت وأشارت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم أني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا بعد هذا الكلام (فأتت) اي فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها وزال حزنها فأتت (به) أي عيسى (قومها) وان كان فيهم قوة المحاولة لكل ما يريدون اتباعه البريء الموقن بان الله معه حالة كونها (تحمله) غير مبالية بأحد ولا مستحيية واختلفوا في أنها كيف أتت به فقيل ولدته ثم حملته في الحال الى قومها وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها الى غار ومكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها في الطريق

الآية (ان قلت) هذا سؤال عن سبب العجلة فان موسى لما وعده الله تعالى حضور جانب الطور لاخذ التوراة اختار من قومه سبعين رجلا يصحبونه الى ذلك ثم سبقهم شوقا الى ربه تعالى

فقال يا أماه أبشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين قال الرازي وليس في القرآن مايدل على التعيين ثم كأنه قيل فلما أتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل (قالوا يا مريم) ماهذا الولد لان حالها في اتيانها به أمر عجيب (لقد جئت شيأ فريا) اى عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم فهو من أفرى الجلد يقال أفريت الاديم اذا قطعته على جهة الافساد لامن فريته يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على أن مرادهم الاول قولهم بعده (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء) اى فاجرا (وما كانت أمك بغيا) اى زانية فمن أين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هرون هذا أربعة أقوال أحدها أنه رجل صالح من بنى اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وروى أن هرون هذا لمامات تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بنى اسرائيل تبركا باسمه سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا أنك مثله في الصلاح وليس المراد منه الاخوة في النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وروى المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بانبيائهم والصالحين قبلهم قال ابن كثير وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة مالايخفى على من عنده أدنى علم وكأنه غره في أول التوراة ان مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وجنوده فاعتقد أن هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدم الثاني أنه هرون أخو موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم وللهمداني يا أخا همدان اى يا واحدا منهم الثالث انه كان فاسقا في بنى اسرائيل فنسبت اليه اى شبهوها به الرابع انه كان لها أخ من أبيها يسمى هرون من صلحاء بنى اسرائيل فعيرت به قال الرازي وهذا هو الاقرب لوجهين الاول ان الاصل في الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على أخيها المسمى بهرون الثاني انها أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح فحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه أفحش (فأشارت اليه) اى لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذي يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدى لما أشارت اليه غضبوا وقالوا سخريتها بنا أشد من زناها ثم (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) لم يبلغ سن هذا الكلام الذي لا يقوله الا الا كابر العقلاء بل الانبياء والتعبير بكان يدل على انه عند الاشارة اليه لم يتوجهم الى أن يكلموه بل حين سمع المحاورة ورأى الاشارة بدأ منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابة يمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان *(تنبيه)* في كان هذه أقوال أحدها انها زائدة وهو قول أبي عبيد أي كيف نكلم من في المهد صبيا على هذا نصب

واستشهم بطاقة نبوتى ذلك فكيف طابق الجواب (ذات في الآية السؤال) تضمن شيئين انكار السؤال والسؤال عن سببها العلة واعتدار عما فيدأ موسى بالاعتدار انكره تعالى عليه بانه لم يوجد

على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صلة ثانيها أنها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف تكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير في كان قال الرازي وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار أي كيف نكلم من صار في المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها (فان قيل) كيف عرفت مريم من حال عيسى انه يتكلم (أجيب) بان جبريل أو عيسى عليه السلام لما ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على ان المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي الى زكريا أو اليها على سبيل الكرامة واختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روي أنها اخذته عليه السلام في خرقة فاتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فاشارت اليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعد لها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام في المهد وقال وهب أتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فوصف نفسه بثمان صفات * الصفة الاولى (قال اني عبد الله) أي المالك الاعظم الذي له صفات الكمال لا أعبد غيره وفي ذلك اشارة الى أن عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى * الصفة الثانية قوله تعالى (آتاني الكتاب) واختلف في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام هنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (٣) واقتصر البيضاوي على الاول والبقاعي على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرهما من الصحف الصفة الثالثة قوله (وجعلني نبيا) واختلف في معنى ذلك فقيل معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا وأتى بلفظ الماضي لجعل المحقق وقوعه كالواقع كما في قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون أوتي الانجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن ألهم التوراة وهو في بطن امه * الصفة الرابعة قوله (وجعلني مباركا) بانواع البركات (أينما) أي في أي مكان (كنت) وذكروا في تفسير المبارك وجوها أحدها ان البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتا على دين الله تعالى مستقرا عليه ثانيها انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلمت أم عيسى عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه ليك على ان لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شيء اكتب فقال أكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسألني فانا أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله والدال من أداء الحق الى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال منجحا مفلحا لاني مادمت أبقى في الدنيا أكون مستعليا على الغير بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع الى السماء رابعها مباركا على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وعن قتادة أن امرأة رأته وهو يحيي الموتى ويبرئ الاكمه

منه الاقدام بسيرا لا يعتد به عادة ثم عقبه العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله وعجلت اليك رب لترضى (قوله ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي) اي ترك ولهذا

(٣) قوله واقتصر البيضاوي على الاول الذي في البيضاوي تفسير الكتاب بالانجيل وهو الثاني هنا فلعل مراده بالاول جعل أل للجنس اه

والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدى أرضعت به فقال عيسى مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا * (تنبيه) * قوله أينما كنت يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكليف * الصفة الخامسة قوله (وأوصانى بالصلوة) له طهرة للنفس (والزكوة) طهرة للمال تعلا فى نفسى وأمر الغير (مادمت حيا) ايكون ذلك حجة على من ادعى أنه اله لانه لا شبهة فى أن من يصلى الى اله ليس باله (فان قيل) كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلا والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث (أجيب) بوجهين الاول أن ذلك لا يدل على أنه تعالى أوصاه بادائهما فى الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصانى بادائهما فى وقت وجوبهما على وهو وقت البلوغ الثانى أن عيسى لما انفصل صيره الله بالغا عاقلا تام الخلقة ويدل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول فى عيسى عليه السلام قال الرازى وهذا أقرب الى ظاهر اللفظ لقوله مادمت حيا فهذا يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه فى جميع زمان حياته (فان قيل) لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه رأوا شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجيبا فكان ينبغى أن لا يتعجبوا (أجيب) بانه تعالى جعله مع صغر جثته قوى التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان فى الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل * الصفة السادسة قوله (وبرا) أى وجعلنى بارا ولما كان السياق لبراءة والدته قال (بوالدتى) أى التى أكرمها الله تعالى باحصان الفرج والحمل بى من غير ذكر وفى ذلك اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها * الصفة السابعة قوله (ولم يجعلنى جبارا) متعاظما (شقيا) أى عاصيا بان أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق انما أفعل ذلك بمن يستحق وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال قلبى لين وانى ضعيف فى نفسى وعن بعض العلماء لا أجد العاق الا جبارا شقيا ولا أجد سيئ الملكة الا مختالا فخورا وتلا وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا * الصفة الثامنة قوله (والسلام) من الله (على) فلا يقدر أحد على ضرى (يوم ولدت) فلا يضرنى شيطان (ويوم أموت) فلا يضرنى أيضا من يولد ويموت فليس باله (ويوم أبعث حيا) يوم القيامة كما تقدم فى يحيى عليه السلام وفى ذلك اشارة الى أنه فى البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلا الا فى كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام عليه كان أتباعه كذلك ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى (ذلك) أى الذى تقدم نعته بقوله انى عبد الله الى آخره (عيسى ابن مريم) لا ما يصفه النصارى به وانهم انه الله أو ابنه أو اله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الابلغ والطريق البرهانى حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه وفى ذلك تنصيص على انه ابن هذه المرأة وقوله تعالى (قول الحق) قرأ عاصم وابن عامر بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على أنه خبر محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلال

قال بعد وعصى آدم ربه فغوى (قوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) * ان قلت الخطاب لآدم وحواء فكيف قال فتشقى دون فتشقيا (قلت) قال ذلك لان الرجل قيم امرأته

فيه بقوله تعالى (الذى فيه يمترون) أى يشكون شكاً كافرون ويجادلون به فتقول اليهود ساحر
وتقول النصارى ابن الله مع ان أمه امرأة ٣ فى غاية الوضوح ليس موضع الشك أصلا ثم دل
على كونه حقا فى كونه ابنا لامه مريم لا غيرها بقوله رداً على من ضل (ما كان) أى ماصح
ولا يتأتى ولا يتصور فى العقول ولا يصح ولا يأتى لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة (لله)
الغنى عن كل شئ (أن يتخذ من ولد) وأكده بمن لان المقام يقتضى النفى العام * ولما كان
اتخاذ الولد من النقائص أشار الى ذلك بالتنزيه العام بقوله تعالى (سبحانه) أى تنزه عن كل
نقص أى من احتياج الى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله عز وجل (اذا قضى أمرا) أى أى أمر
كان أى أراد أن يحدثه (فانما يقول له كن) أى يريده ويعلق قدرته به وقوله تعالى (فيكون)
قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير أن أو على الجواب والباقون بالرفع بتقدير هو وقوله (وان
الله ربى وربكم) اخبار عن عيسى عليه السلام انه قال ذلك وقرأ ابن عامر والكوفيون
بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجر متعلق بما بعده
والتقدير ولان الله ربى وربكم (فاعبدوه) وحده لتفرده بالاحسان كما عبدته كقوله تعالى وان
المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا والمعنى لوحدانيته أطيعوه وقيل انه عطف على الصلاة
والتقدير وأوصانى بالصلاة وبأن الله واليه ذهب الفراء (هذا) أى الذى أمرتكم به (صراط)
أى طريق (مستقيم) أى يقود الى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون
بالصاد الخالصة واختلف فى قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) فقيل هم النصارى
واختلافهم فى عيسى أهو ابن الله أو الله معه أو ثالث ثلاثة وسموا أحزابا لانهم تحزبوا ثلاث
فرق فى أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى فجعله
بعضهم ولدا وبعضهم كذابا وقيل هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا
فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عادل وهذا هو الظاهر لانه لا تخصيص فيه ويؤيده
قوله تعالى (فويل للذين كفروا) أى شدة عذاب لهم (من مشهد يوم عظيم) أى حضور يوم
القيامة وأهواله وقوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) أى ما أسمعهم وما أبصرهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم
وما أبصرهم (يوم يأتوننا) فى الآخرة لان حالهم فى شدة السمع والبصر جديرة بأن يتعجب منها
فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ويتمنون المحال من الرجوع الى الدنيا ليتداركوا فلا
يجابون الى ذلك بل يسلك بهم فى كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم وقوله تعالى (لكن
الظالمون) من اقامة الظاهر مقام المضمر اشعارا بانهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع
والنظر والاصل ولكنهم (اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى بين بذلك ضلال صموا عن
سماع الحق وعموا عن ابصاره أى اعجب منهم يا مخاطب فى سمعهم وأبصارهم فى الآخرة بعد أن
كانوا فى الدنيا صما عميا وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون ما يسوءهم ويصدع
قلوبهم ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه بقوله (وأنذرهم) أى
خوفهم (يوم الحسرة) هو يوم القيامة يتحسر فيه المسئ على ترك الاحسان والمحسن على عدم
الازدياد من الاحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يموت الا ندم قالوا
وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لا يكون

٣ قوله مع أن أمه امرأة الخ هكذا بالاصول ولعل الظاهر مع أن امرأة الخ اه مصححه

فشقاؤه يتضمن شقاءها كما ان سعادته تتضمن سعادتها أو فاله رعاية للفواصل أو لانه أراد بالشقاء الشقاء فى طلب القوت واصلاح المعاش وذلك وظيفة الرجل دون

نزع وفي قوله تعالى (إذ قضي الأمر) وجوه أحدها إذ قضي الأمر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب ثانيها إذ قضي الأمر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف ثالثها قضي الأمر فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى إذ قضي الأمر فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرح وأهل النار غما إلى غم وقوله تعالى (وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) جملتان حاليتان وفيهما قولان أحدهما أنهما حالان من الضمير المستقر في قوله في ضلال مبين أي استقروا في ضلال مبين على هاتين الحالتين السيئتين والثاني أنهما حالان من مفعول أنذرهم أي أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الأول يكون قوله وأنذرهم اعتراضا والمعنى وهم في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة وهم لا يصدقون بذلك اليوم * ولما كان الإرث هو حوز الشيء بعد موت أهله وكان سبحانه وتعالى قد قضى بموت الخلائق أجمعين وأنه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالإرث مقررا به مضمون الكلام السابق فقال مؤكدا تكذيبا لقولهم إن الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت لآخرين (إنا نحن) بعظمتنا التي اقتضت ذلك (نرث الأرض) فلا ندع بها شيئا من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل أقوى من غيره صرح به بعد دخوله فقال (ومن عليها) أي من العقلاء بأن نسلبهم جميع ما في أيديهم (وإلينا) لا إلى غيرنا (يرجعون) فنجازيهم بأعمالهم * القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب ابراهيم) أي خبره وقرأ هشام ابراهام بألف بعد الهاء والباقون بالياء وإنما أمر الله تعالى نبيه بالذكر لذلك لأنه صلى الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة الكتب فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخبارا عن الغيب ومعجزا باهرا دالا على نبوته وإنما ذكر الاعتبار بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الأول أن منكري التوحيد الذين أثبتوا توحيدا ومعبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله تعالى حيا عاقلا وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله تعالى جمادا ليس بحي ولا عاقل وهم عبدة الأوثان والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال عبدة الأوثان أعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان الثاني أن ابراهيم عليه السلام كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على قولكم إنا وجدنا آباءنا على أمة فأشرف آبائكم وأعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الأصنام والأوثان وإن كنتم مستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم إما تقليدا وإما استدلالا الثالث أن كثيرا من الكفار في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وهو أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ثم قال تعالى في صفة ابراهيم (إنه كان) جبلة وطبعا

المرأة (قوله وعصى آدم ربه فغوى) * إن قلت هل يجوز أن يقال كان آدم عاصيا غاويا أخذا من ذلك (قلت) لا إذ لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل ألا ترى

(صديقا) أى بليغ الصدق فى نفسه فى أقواله وأفعاله أى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة وسيأتى الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم فى محله ولما كانت مرتبة النبوة أرفع من مرتبة الصديقية قال تعالى (نبيا) أى استنبأه الله تعالى اذلا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى (اذ قال) بدل من ابراهيم وما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال (لابيه) آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له فى كل جملة بقوله (يا أبت) والتاء عوض عن ياء الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء فى الوصل والباقون بكسرها وأما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه أيضا أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام * النوع الاول قوله (لم تعبد) مريدا بالاستفهام المجاملة واللطف والرفق واللين والادب الجميل فى نصحه له كاشفا الامر غاية الكشف قوله (ما لا يسمع ولا يبصر) أى ليس عنده قابلية لشئ من هذين الوصفين ليرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك اذا ناديته حالا أو مآلا (ولا يغنى عنك شيأ) فى جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة فى الالهية وبيان ذلك من وجوه أحدها أن العبادة غاية التعظيم فلا تستحق الا لمن له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ما تقرر فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم وكما انه لا يجوز الاشتغال بشكر ما لم تكن منه نعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها أنها اذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها عمن يعصيها فاى فائدة فى عبادتها وهذا تنبيه على ان الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات وثالثها أن الدعاء مخ العبادة فاذا لم يسمع لو نت دعاء الداعى فاى منفعة فى عبادته واذا لم يبصر تقرب من يتقرب اليه فاى منفعة فى ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبودية الاخس وخامسها اذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فاى فائدة فى عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابراهيم عليه السلام جذاذا فاى رجاء فيها لغيرها فكانه عليه السلام قال ليست الالهية الا لرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعى اذا دعاه * النوع الثانى قوله (يا أبت انى قد جاءنى) من المعبود الحق (من العلم ما لم يأتك) منه (فاتبعنى) أى تسبب من ذلك انى أقول لك وجوبا على النهى عن المنكر ونصيحة لما لك على من الحق اجتهد فى تبعى (اهدك صراطا) أى طريقا (سويا) أى مستقيما كما لو كنت معك فى طريق محسوس واخبرتك ان أمامنا مهالك لا ينجو منها أحد وأمرتك ان تسلك مكانا غير ذلك لاطعتنى ولو عصيتنى فيه عذلك كل أحد * وبيان النوع الثالث قوله (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان الاصنام ليس لها دعوة اصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولى له فتعين ان يكون الآمر بذلك الشيطان فكأنه هو المعبود بعبادتها فى الحقيقة ثم علل هذا النهى بقوله (ان الشيطان) البعيد من كل خير المحترق باللعنة (كان للرحمن عصيا) بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين أمر بالسجود لابيك آدم عليه السلام فابى فهو عدو له

انه يجوز أن يقال تبارك الله دون متبارك ويجوز ان يقال تاب الله على آدم دون تائب (قوله ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) اى حياة فى ضيق وشدة (ان قلت)

تعالى ربه والمطيع للعاصي عاص لذلك الشيء لان صديق العدو عدو (فان قيل) هذا القول
يتوقف على اثبات امور احدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان
الشيطان عاص ورابعها انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته وخامسها ان الاعتقاد الذي كان
عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة التي تورد على الشخص أن تكون
مركبة من مقدمات معلومة ليسلمها الخصم ولعل ابراهيم كان منازعا في هذه المقدمات وكيف
والمحكي عنهما انهما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده
فكيف يسلم أن الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا
الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه (واجيب) بان الحجة
المعول عليها في ابطال مذهب آزر هو قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ
وهذا الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة فيسقط
السؤال * النوع الرابع قوله (يا ابت اني أخاف) لمحبتي لك وغيرتي عليك (أن يمسك عذاب)
اي كائن (من الرحمن) الذي هو مولى كل من تولاه لعصيانك اياه (فتكون) اي فتتسبب عن
ذلك ان تكون (للشيطان وليا) اي ناصرا وقرينا في النار ولما دعا ابراهيم عليه السلام اباه
الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان واردف تلك الدلائل بالوعظ البليغ
واورد كل ذلك مقرونا بالرفق واللطف قابله ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه
لم يذكر في مقابلة حجته الا أن (قال اراغب انت عن آلهتي) باضافتها الى نفسه فقط اشارة الى
مبالغته في تعظيمها او لرغبته عن الشيء تركه عمدا فاصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل
قوله بالرفق يا ابت بالعنف حيث لم يقل يا بني بل قال (يا ابراهيم) وقابل وعظه بالسفاهة حيث
هدده بالضرب والشتم بقوله مقسما (لئن لم تنته) عما انت عليه (لارجمنك) اي لاقتلنك
أو لارجمنك بالحجارة حتى تموت او تبعد عني او بالكلام القبيح فاحذرني (واهجرني) اي ابعد
عني بالمفارقة من الدار والبلد وهي كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اي تباعد عني
(مليا) اي دهرا طويلا الى لا اراك وقيل اهجرني بالقول ولا تخاطبني دهرا طويلا لاجل
ما صدر منك من هذا الكلام وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى
من الاذى ويقاسي من قومه من العناء ومن عمه ابي لهب من الشدائد باعظم آبائه واقاربهم
به شبها فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام ابيه اجابه بامرين احدهما أنه (قال) له مقابلا
لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم (سلام عليك) توديع
ومتاركة اي سلمت مني لا اصيبك بمكروه ما لم اومر فيك بشيء فانه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله
لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا
يدل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه يحسن مقابلة الاساءة بالاحسان
ويجوز ان يكون دعاء له بالسلامة استمالة الا ترى انه وعده بالاستغفار فيكون سلام بر ولطف
وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم استأنف قوله
(سأستغفر لك ربي) اي المحسن الي بأن اطلب لك منه غفران ذنوبك بان يوفقك للاسلام
(انه كان بي حفيا) اي مبالغا في اكرامي مرة بعد مرة وكرة في اثر كرة وقد وفى بوعده بقوله

نحن نرى المعرضين عن الايمان في أخصب عيشة (قلت) قال ابن عباس المراد بالمعيشة الضنك الحياة في المعصية وان كان في رخاء ونعمة وروي انها عذاب القبر أو المراد بها

المذكور في الشعراء واغفر لابي وهذا قبل ان يتبين له انه عدو لله كما ذكر في براءة وثانيهما أنه قال له انقياداً للامر أبيه (واعتزلكم) اي جميعاً بترك بلادكم واشار الى ان من شرط المعبود ان يكون اهلا للمناداة في الشدائد بقوله (وما تدعون) اي تعبدون (من دون الله) الذي له الكمال كله في ان يقبل عليه وحده اصاب ومن اقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر (وادعوا) اي اعبد (ربي) وحده لاستحقاقه ذلك مني ولم يقيد الاعتزال بزمن بل أشار الى أنهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ثم عاقبه بما فهم به على خشية مسماهم فقال غير جازم باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالا لربه وهضماً لنفسه (عسى ألا أكون بدعاء ربي) المنفرد بالاحسان الي (شقيا) اي كما شقيتم بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم ❊ ولما رأى من أبيه ومعاشرته ما رأى عزم على غربة مشفقة اخرى مختاراً للغربة في البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال الامام ابو سليمان الخطابي

وما غربة الانسان في شقة النوى ❊ ولكنها والله في عدم الشكل

واني غريب بين بست واهلها ❊ وان كان فيها اسرتي وبها اهلي

وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال (فلما اعتزلهم) اي بالهجرة الى الارض المقدسة (وما يعبدون من دون الله) لم يضره ذلك ديناً ولا دنيا بل نفعه وعوضه الله أولاداً كما قال تعالى (وهبنا له) كما هو شأنه في كل من ترك شيئاً لله (اسحق) ولداً له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزها سن اليأس وأخذه هو في السن الى حد لا يولد لمثله (ويعقوب) ولد الاسحق وخصهما بالذكر لانهما محل اقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه وأما اسمعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعاً الى المسجد الحرام واحيائه تلك المشاعر العظام فافرده بالذكر جاعلاً له أصلاً برأسه بقوله بعد واذكر في الكتاب اسمعيل فترك ذكره مع اسحق الذي هو اخوه لذلك ثم صرح بما وهب لا ولاده جزاء على هجرته بقوله تعالى (وكلا) أي منهما (جعلنا نبيا) عالي المقدار ويخبر بالاخبار العظيمة كما جعلنا ابراهيم عليه السلام نبيا (ووهبنا لهم) كلهم (من رحمتنا) أي شيأ منها عظيماً من النسل الطاهر والذرية الطيبة واجابة الدعاء واللطف في القضاء والبركة في المال والاولاد وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وهو الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته في قوله تعالى واجعل لي لسان صدق في الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم فقال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره أولها انه اعتزل عن الخلق على ما قال وأعتزلكم وما تدعون من الله فلا جرم بارك الله له في أولاده فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ثانيها انه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه لا جرم سماه الله أبا المسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم ثالثها تل ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه بذبح عظيم رابعها أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار برداً وسلاما عليه فقال يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم خامسها أشفق على هذه الامة فقال ربنا

…شة في جهنم (قوله ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) الكلمة قوله تعالى سبقت رحمتي غضبي أو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم او قوله تعالى

وابعث فيهم رسولا منهم لاجرم أشركها الله تعالى في الصلوات في قوله تعالى كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم سادسها وفي حق سارة في قوله تعالى وابراهيم الذي وفى لاجرم جعل موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى سابعها عادى كل الخلق في الله فقال فانهم عدو لي الا رب العالمين فاتخذه الله خليلا كما قال واتخذ الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا ما خيب على الله أحد * القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب) أي الذي لا كتاب مثله في الكمال (موسى) أي الذي أنقذ الله به بني اسرائيل من العبودية ثم ان الله تعالى وصفه بامور أحدها قوله تعالى (انه كان مخلصا) قرأه عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام أي مختارا اختاره الله تعالى واصطفاه وقيل أخلصه الله تعالى من الدنس والباقون بالكسر أي أخلص التوحيد لله والعبادة ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين ثانيها قوله تعالى (وكان رسولا) الى بني اسرائيل والقبط (نبيا) ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبئ به المرسل اليهم فيرتفع بذلك قدره فلذلك صرح بها بعد دخولها في الرسالة ضمنا اذ كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا خلافا للمعتزلة فانهم زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة الحج عند قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ثالثها قوله تعالى (وناديناه) اي بما لنا من العظمة (من جانب الطور) هو اسم جبل (الايمن) اي الذي يلي يمين موسى حين اقبل من مدين فأتيناه هناك حين كان متوجها الى مصر بانه رسولنا ثم واعدناه اليه بعد اغراق آل فرعون فكان لبني اسرائيل به من العجائب في رحمتهم بانزال الكتاب والالذاذ بالخطاب من جوف السحاب وفي اماتتهم لما طلبوا الرؤية ثم احيائهم وغير ذلك ما يجل عن الوصف رابعها قوله تعالى (وقربناه) اي بما لنا من العظمة تقريب تشريف حالة كونه (نجيا) مخبره من امرنا بلا واسطة من النجوى وهي السر والكلام بين اثنين كالسر وقيل قرب مكان اي مكانا عاليا عن ابي العالية انه قرب حتى سمع صرير القلم حيث يكتب التوراة في الالواح وقيل انجيناه من اعدائه خامسها قوله تعالى (ووهبناه) اي هبة تليق بعظمتنا (من رحمتنا) اي من اجل رحمتنا او بعض رحمتنا (اخاه) اي معاضدة اخيه وموازرته لا شخصه واخوته وذلك اجابة لدعوته واجعل لي وزيرا من اهلي هرون فانه كان اسن من موسى * (تنبيه) * اخاه مفعول او بدل على تقدير ان تكون من للتبعيض وقوله (هرون) عطف بيان وقوله (نبيا) حال منه هي المقصودة بالهبة * القصة الخامسة قصة اسمعيل عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب اسمعيل) بن ابراهيم عليهما السلام الذين هم معترفون بنبوته ومفتخرون برسالته وابوته فلزم من ذلك فساد تعليلهم انكار نبوتك بانك من البشر ثم ان الله تعالى وصف اسمعيل بامور اولها قوله تعالى (انه كان) اي جبلة وطبعا (صادق الوعد) في حق الله وفي حق غيره لمعونة الله له على ذلك بسبب انه لا يعد وعدا الا مقرونا بالاستثناء كما قال لابيه حين اخبره بامر ذبحه ستجدني ان شاء الله من الصابرين وخصه بالمدح به وان كان الانبياء كلهم كذلك لقصة الذبح فلا يلزم منه تفضيله مطلقا وروي عن ابن عباس انه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وروي ان عيسى عليه السلام قال له رجل

وما ارسلناك الا رحمة للعالمين يعني امالي أمته بتأخير العذاب عنهم وفي تأخيره اي الآية تقديم وتأخير اي ولولا كلمة سبقت من ربك واجل مسمى لكان العذاب لزاما اي لازما لهم كلزوم الامم التي قبلهم

انتظرني حتى آتيك فقال عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء الى حاجته الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه واعد رجلا ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى غروب الشمس وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادا الى اى وقت ينتظره قال فان واعده نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته فى وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة أخرى ثانيها قوله تعالى (وكان رسولا نبيا) قدمر تفسيره وثالثها قوله تعالى (وكان يأمر أهله بالصلوة) اى التى هى طهرة البدن وقرة العين وخير العون على جميع المآرب (والزكوة) اى التى هى طهرة المال كما أوصى الله تعالى بذلك جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمراد بالاهل قومه وقيل أهله جميع أمته كان رسولا الى جرهم قاله الاصفهانى والى أهل تلك البرارى بدين أبيه ابراهيم والمراد بالصلاة قال ابن عباس يريد التى افترضها الله تعالى عليهم قال البغوى وهى الحنيفية التى افترضت علينا قيل كان يبدأ بأهله فى الامر بالعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلاة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وبالزكاة قال ابن عباس انه طاعة الله والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه تعالى والظاهر كما قال ابن عادل ان الزكاة اذا قرنت بالصلاة ان يراد بها الصدقات الواجبة رابعها قوله تعالى (وكان عند ربه) بعبادته على حسب ما أمر به (مرضيا) وهذا فى نهاية المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعة بأعلى الدرجات فاقتد أنت به فانه من أجل آبائك تجمع بين طهارة القول والبدن والمال فتنال رتبة الرضا * القصة السادسة قصة ادريس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب) اى الجامع لكل ما يحتاج اليه حتى ما يحتاج اليه من قصص المتقدمين والمتأخرين (ادريس) وهو جد أبى نوح عليه السلام قيل سمى ادريس لكثرة دراسته الكتب واسمه أخنوخ ومدحه وقوله وآخر منها ممتهنة ووصفه الله تعالى بامور أحدها وثانيها قوله تعالى (انه كان صديقا نبيا) اى صادقا فى أفعاله وأقواله ومصدقا بما آتاه الله من آياته وعلى ألسنة الملائكة ثالثها قوله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) وفيه قولان أحدهما أنه من رفع المنزلة كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وثانيهما انه من رفعة المكان ثم اختلفوا فقال بعضهم رفعه الله تعالى الى السماء الرابعة وهى التى رآه النبى صلى الله عليه وسلم بها ليلة الاسراء وقيل الى الجنة وهو حى لا يموت وقالوا أربعة من الانبياء أحياء اثنان فى الارض الخضر والياس واثنان فى السماء عيسى وادريس وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة ما يرفع لجميع أهل الارض فى زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن ربه فى زيارته فاذن له فاتاه فى صورة بنى آدم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه الى طعامه فابى ان يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فانكره ادريس وقال له الليلة الثالثة انى اريد ان أعلم من أنت قال انا ملك الموت استأذنت ربى ان أصحبك فقال لى اليك حاجة

(قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) فان قلت كيف جمع بين هذين مع ان أحدهما يغنى عن الآخر (قلت) المراد بالاول السالكون وبالثانى

ال ماهى قال تقبض روحى فاوحى الله تعالى اليه ان اقبض روحه فقبض روحه وردها اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمته فاكون اشد استعدادا له ثم قال له ادريس ان لى اليك حاجة أخرى قال وماهى قال ترفعنى الى السماء لأنظر اليها والى الجنة والنار فاذن الله تعالى له فى ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال لى اليك حاجة قال وماتريد قال تسأل مالكا ان يفتح أبوابها فاردها ففعل ثم قال كما اريتنى النار فارنى الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لاتخرج قال ان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته وقال وان منكم الا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فاوحى الله تعالى الى ملك الموت باذنى دخل الجنة وباذنى لايخرج فهو حى هنالك وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه وقال كعب الاحبار ان ادريس سار ذات يوم فى حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يارب انى مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالايعرفه فقال يارب خففت عنى حر الشمس فما الذى قضيت فيه فقال تعالى ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فاذن له حتى أتى ادريس وكان ادريس يسأله فكان مماسأله أن قال له انى اخبرت انك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لى ليؤخر أجلى فازداد شكرا وعبادة فقال الملك لايؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال له لى حاجة الملك لى صديق من بنى آدم تشفع بى اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك الى ولكن ان احببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فقال انك كلمتنى فى انسان ماأراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال لاأجده يموت الاعند مطلع الشمس قال انى أتيتك وتركته هناك قال فانطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله مابقى من أجل ادريس شئ فرجع الملك فوجده ميتا ولما انقضى كشف هذه الاخبار العلية المقدار الجليلة الاسرار شرع سبحانه وتعالى فى نسب أهلها باشرف نسبهم ويذكر المنن بينهم فقال عز من قائل (أولئك) اى العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون فى هذه السورة من لدن زكريا الى ادريس وهو مبتدأ وقوله (الذين أنعم الله عليهم) بما خصهم به من مزيد القرب اليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى (من النبيين) اى المصطفين بالنبوة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الامم بيان لهم وهو فى معنى الصفة وما بعده الى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله (من ذرية ادم) اى ادريس اقرب به منه لانه جد أبى نوح (وممن حملنا مع نوح) فى السفينة اى ابراهيم ابن ابنه سام (ومن ذرية ابراهيم) اى اسمعيل واسحق ويعقوب (و) من ذرية (اسرائيل) وهو يعقوب اى موسى وهرون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لان مريم من ذريته (وممن هدينا) الى أقوم الطرق (واجتبينا) للنبوة والكرامة اى من جملتهم وخبر أولئك (اذا تتلى عليهم) من اى تال كان (آيات الرحمن خروا سجدا) لمنعم عليهم تقربا اليه نا

الواصلون أو بالاول الذين
مازالوا على الصراط المستقيم
وبالثانى الذين لم يكونوا
على الصراط المستقيم ثم
صاروا عليه أو بالاول
أهل دين الحق فى الدنيا
وبالثانى المهتدون الى

لهم من البصائر النيرة في ذكر نعمه عليهم واحسانه اليهم (وبكيا) خوفا منه وشوقا اليه فكونوا مثلهم (تنبيه) * سجدا حال مقدرة قال الزجاج لانهم وقت الخرور ليسوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الاصل وأصل بكيا بكويا قلبت الواو ياء والضمة كسرة واختلف في هذا السجود فقال بعضهم انه الصلاة وقال بعضهم سجود التلاوة على حسب ما تعبدنا به قال الرازي ثم يحتمل ان يكون المراد سجود القرآن ويحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بسجود فيفعلون ذلك لاجل ذكر السجود في الآية انتهى وروى ابن ماجه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزني قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ما اغرورقت عين بمائها الاحرم الله تعالى على النار جسدها وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحزنوا وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك ان أكون من المستكبرين عن أمرك وان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي بكيا بكسر الباء والباقون بضمها * ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح ترغيبا لنا في التأسي بهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال (فخلف من بعدهم) أي في بعض الزمان الذي بعد هؤلاء الاصفياء سريعا (خلف) في غاية الرداءة من أولادهم يقال خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء باسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما هو وارد في شعر حسان خير وعليه حمل بعض الشروح الحديث في الله خلف من كل هالك قال الشاعر

ذهب الذين يعاش في أكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وقال السدي أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة في (أضاعوا الصلوة) تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس (واتبعوا الشهوات) أي المعاصي قال ابن عباس هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) وهو كما قال وهب وابن عباس واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها كما رواه الحاكم وصححه وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول الشاعر

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

على الغي متعلق بلائما وقيل يلقون جزاء الغي كقوله يلق أثاما أي مجازاة الآثام * (تنبيه) * قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية * ولما أخبر

طريق الجنة في التحري تعارف من فكاكه قبلك واندر الناجي في ... في الآخرة

* وسورد لاحد العوم ... *

(قوله تعرب ...)

تعالى عن هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحداهم الى غسل هذه الحوبة بقوله (الا من تاب) اى مما هو عليه من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن الشهوات (وآمن) بما أخذ عليه به العهد (وعمل) بعد ايمانه تصديقا له (صالحا) من الصلوات والزكوات وغيرها (فاولئك) العالو الهمم الطاهرو الشيم (يدخلون الجنة) التى وعد المتقون (ولا يظلمون) من ظالم ما (شيأ) من أعمالهم (فان قيل) الاستثناء دل على انه لا بد من التوبة والايمان والعمل الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليهم الصلاة والزكاة أيضا غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات فى ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع انه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح (أجيب) بان هذه الصورة نادرة والاحكام انما تناط بالاعم الاغلب *(تنبيه)* فى هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل أظهرهما انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه على ان المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلى * ولما ذكر تعالى فى التائب انه يدخل الجنة وصفها بامور أحدها قوله تعالى (جنات عدن) أى اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان فى الدنيا التى لا تدوم ثم بين تعالى انها (التى وعد الرحمن عباده) الذين هو أرحم بهم وقوله (بالغيب) فيه وجهان أحدهما ان الباء حالية وفى صاحب الحال احتمالان أحدهما ضمير الجنة وهو عائد الموصول أى وعدها وهى غائبة عنهم لا يشاهدونها والثانى عباده أى وهم غائبون عنها لا يرونها انما آمنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه الثانى أن الباء سببية أى بسبب تصديق الغيب وبسبب الايمان به *ولما كان من شأن الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين أن وعده ليس كذلك بقوله تعالى (انه كان) أى كونا هو سنة ماضية (وعده مأتيا) أى مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو كقوله ان كان وعده مفعولا ثانيها قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا) وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الآخرة التى لا تكليف فيها وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى (الا سلاما) الاستثناء منقطع اى ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ويجوز ان يراد باللغو مطلق الكلام قال فى القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا اى لا يسمعون فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها) اى على ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به (بكرة وعشيا) اى على قدرهما فى الدنيا وليس فى الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور ابدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها (فان قيل) المقصود من هذه الآيات وصف الجنة باحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المستعظمة (اجيب) بوجهين الاول قال الحسن أراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما أحبوه

(ان قلت) كيف وصف الحساب بالقرب وقد مضى من وقت هذا الاخبار اكثر من ستمائة عام ولم يوجد (قلت) معناه انه قريب عند الله وان كان بعيدا عندنا كقوله انهم

في الدنيا فالذلك ذكر أساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والارائك التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة أشراف اليمن ولا شئ كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك الثاني أن المراد دوام الرزق تقول أنا عند فلان صباحا ومساء و بكرة وعشيا تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهية العيش وسعة الرزق أي لهم رزقهم متى شاؤا ❊ ولما باينت بهذه الاوصاف دار الباطل أشار الى علو رتبتها وماهو سببها بقوله تعالى (تلك الجنة) باداة البعد لعلو قدرها وعظم أمرها (التي نورث من عبادنا) أي نعطي عطاء الارث الذي لا كد فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل عمن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل النقل ارثا قاله الحسن (من كان تقيا) أي المتقين من عباده (فان قيل) الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها (أجيب) بان الآية تدل على أن الجنة يدخلها المتقي وليس فيها دلالة على ان غير المتقي لا يدخلها وأيضا صاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل الجنة فدلالة الآية على أن صاحب الكبيرة يدخلها أولى من أن تدل على أنه لا يدخلها ❊ واختلف في سبب نزول قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم (وما نتنزل الا بامر ربك) فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت الآية وقال مجاهد أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لعلي أبطأت قال قد فعلت قال ولما لا أفعل وأنتم لا تتسوكون ولا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم وقال وما نتنزل الا بامر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبي احتبس جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح وسبب سؤالهم عن ذلك ماروي ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم وسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سأل الرحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهن فان أخبركم عن خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي صلى الله عليه وسلم أبطأت حتى ساء ظني واشتقت اليك قال اني اليك أشوق ولكني عبد مامور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وأنزل قوله تعالى ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله وسورة الضحى (فان قيل) قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بامر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل (أجيب) بانه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وهذا كلام الله تعالى ثم عطف عليه قوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه ❊ ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله (له ما بين أيدينا) اي امامنا من أمور الآخرة (وما خلفنا) اي من أمور الدنيا (وما بين ذلك)

قوله بعد ازمنة قريبا وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون أو انه قريب بالنسبة الى ما مضى من الزمان أو ان المراد قربه لكل واحد في قبره وتؤيده خبر من مات

اى ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة اى له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقى من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل ان نخلق وما بين ذلك مدة الحياة وقيل ما بين أيدينا الارض اذا أردنا النزول اليها وما خلفنا السماء وما ينزل منها وما بين ذلك الهواء يريد ان ذلك كله لله فلا نقدر على شئ الا بامره (وما كان ربك) المحسن اليك (نسيا) بمعنى ناسيا اى تاركا لك بتأخير الوحى عنك لقوله تعالى ما ودعك ربك وما قلى اى وما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه اياك ثم استدل على ذلك بقوله (رب السموات والارض وما بينهما) فلا يجوز عليه النسيان اذ لا بد ان يمسكهما حالا بعد حال والا لبطل الامر فيهما وفيمن يتصرف والآية دالة على ان الله تعالى رب لكل شئ حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض

(تنبيه) يجوز فى رب أن يكون بدلا من ربك وأن يكون خبر مبتدأ مضمر أى هو رب وقوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدم أى لما عرفت أن ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغى من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش بابطاء الوحى وهزء الكفار بك (فان قيل) لم لم يقل واصطبر على عبادته لانها صلته فكان حقه تعديه بعلى (أجيب) بانه ضمن معنى الثبات لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكأنه قيل اثبت لها مصطبرا كقولك للمحارب اصطبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس هل تعلم له مثلا أى نظيرا فيما يقتضى العبادة والذى يقتضيها كونه منعما باصول النعم وفروعها وهى خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة وقال الكلبى هل تعلم أحدا يسمى الله غيره فانهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله تعالى على شئ *ولما أمر الله تعالى بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادة لا منفعة فيها فى الدنيا وأما فى الآخرة فقد أنكرها بعضهم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى قول منكرى الحشر فقال تعالى (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) قال الكلبى نزلت فى أبى بن خلف حين أخذ عظاما بالية ففتها بيديه ويقول زعم لكم محمد أنا نبعث بعد ما نموت وقيل نزلت فى أبى جهل وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدليل على صحة البعث بقوله (أولا يذكر الانسان) اى المجترئ بهذا الانكار على ربه (انا خلقناه من قبل) اى من قبل جدله (ولم يك شيئا) أصلا وأنا بمقتضى ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال مشددة وكذا الكاف (فان قيل) كيف أمر الله الانسان بالتذكر مع ان التذكر هو

(قوله قامت قيامتهم) (قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) قال هنا من ربهم وفى الشعراء من الرحمن لان الرب أنسب [illegible] من الرحمن لان الرب [illegible] مضافا بخلاف الرحمن لم يأت مضافا غالبا

العلم بأعادته من قبل ثم تخلله عدم (أجيب) بأن المراد أولا يتذكر فيعلم خصوصا إذا قرئ أولا يذكر مشددا أما إذا قرئ مخففا فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لأن كل أحد يعلم أنه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم إنه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه أولها قوله تعالى (فوربك) أي المحسن إليك بالانتقام منهم (لنحشرنهم) بعد البعث (والشياطين) الذين يضلونهم بأن نحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم أمران أحدهما أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثاني في إقسام الله باسمه مضافا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى فورب السماء والأرض إنه لحق والواو في والشياطين يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع وهو أولى ثانيها قوله تعالى (ثم لنحضرنهم) بعد طول الوقوف (حول جهنم) من خارجها ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطتهم وسرورا إلى سرورهم ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغبطهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى (جثيا) حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثوو بواوين أو جثوى من جثا يجثو بجثي لغتان (فإن قيل) هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية ولأن العادة جارية بأن الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق أو لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم وإذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار (أجيب) بأنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائي بجثيا وعتيا وصليا بكسر أولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى (ثم لننزعن) أي لنأخذن أخذ بشدة وعنف (من كل شيعة) أي فرقة مرتبطة بمذهب واحد (أيهم أشد على الرحمن) الذي غمرهم بالإحسان (عتيا) أي تكبرا مجاوزا للحد والمعنى أن الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا في كفره خص بعذاب عظيم لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب ولذلك قال تعالى في جميعهم (ثم لنحن أعلم) من كل عالم (بالذين هم) بظواهرهم وبواطنهم (أولى بها) أي بجهنم (صليا) أي دخولا واحترافا فنبدأ بهم ولا يقال أولى الأمع اشتراكهم وأصله صلوي من صلي بكسر اللام وفتحها (تنبيه) في إعراب أيهم أشد أقوال كثيرة أظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه أن أيهم موصولة بمعنى الذي وأن حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر وأشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لأيهم وأيهم وصلتها في محل نصب مفعول بها ولأى أحوال أربعة ذكرتها في شرح القطر ولما كانوا بهذا الإعلام المؤكد بالإقسام من ذي الجلال والإكرام جديرين بإصغاء الأفهام لما توجه إليها من الكلام التفت إلى مقام الخطاب إفهاما للعموم فقال تعالى (وإن) أي وما (منكم) أيها الناس أحد

ولموافقة ما هنا قوله بعد
قل ربي يعلم القول ولموافقة
ما في الشعراء قوله بعد وإن
ربك لهو العزيز الرحيم
إذ الرحمن والرحيم أخوان
(فإن قلت) كيف وصف
الذكر بالحدوث مع أن

الا واردها كان) ذلك الورود (على ربك) الموجد لك المحسن اليك (حتما مقضيا) اى حتمه وقضى به لا يتركه والورود موافاة المكان واختلفوا فى معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله المتقين فيخرجهم منها ويدل على ان الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فقال ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو ان يخرجنى الله منها وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك ويدل عليه أيضا قوله تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الكفر منها ولا يجوز أن يقول ثم ننجى الذين اتقوا (ونذر الظالمين) بالكفر (فيها جثيا) على الركب الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول روى أن عبد الله بن رواحة قال اخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدور فقال صلى الله عليه وسلم يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين اتقوا فدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وعن جابر أنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول ولا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها ولان حرارة النار ليست بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لاجزاء المؤمنين يجعلها بردا وسلاما كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها وكما فى الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فيكون دما ويشربه الاسرائيلى فيكون ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة وقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال قد وردتموها وهى خامدة وخامدة بخاء معجمة أى ساكنة وروى بالجيم أى باردة ولا بد من ذلك فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين (فان قيل) فاذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم فما الفائدة فى ذلك الدخول (أجيب) بوجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منها ثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها ثالثها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقيل المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد عنها لا يوصف بانه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون وروى عن مجاهد من حم من المؤمنين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن من النار وفى رواية الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء وقوله من فيح جهنم اى وهجها وحرها وقال ابن مسعود وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها قال البغوى

الذكر الاتى هو القران وهو قديم (قلت) المراد انه محدث انزاله أو انه ذكر غير القرآن وأضيف الى الرب لانه آمر به وهاديه (قوله وأسروا النجوى) ان قلت كيف قال ذلك

والاول

والاول أصح وعليه أهل السنة وروى انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير وفي رواية من ايمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشر أمثالها فيقول له أتسخر بي وأنت الملك لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة وقوله حتى بدت نواجذه اى أنيابه وأضراسه وقيل هي أعلى الاسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل وقرأ الكسائي ننجي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم * ولما أقام تعالى الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفا على قوله ويقول الانسان (واذا تتلى عليهم) اى الناس من المؤمنين والكفار من اى تال كان (آياتنا) اى القرآن حال كونها (بينات) اى واضحات وقيل مرتلات الالفاظ ملخصات المعاني وقيل ظاهرات الاعجاز (قال الذين كفروا) بآيات ربهم البينة جهلا منهم ونظرا الى ظاهر الحياة الدنيا الذي هو مبلغهم من العلم (للذين آمنوا) اى لاجلهم أو مواجهة لهم اعراضا عن الاستدلال بالآيات بالاقبال على هذه الشبهة الواهية وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا من قولهم (اى الفريقين) نحن بما لنا من الاتساع أم أنتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن من حالنا لان الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في الذل وأعداءه المعرضين عن خدمته في العز والراحة وانما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل ذلك هو النضر بن الحرث وذووه من قريش للذين آمنوا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين اى الفريقين (خير مقاما) اى موضع قيام أو اقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها وفي كلتا القراءتين يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان اما من قام ثلاثيا أو من أقام * (تنبيه) * قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا أخير منه ولا أشر منه لان هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا الا في فعل التعجب فقالوا ما أخير زيدا وأشر عمرا وما أخير زيدا وما أشر عمرا وانما علة في اثباتهما في فعل التعجب ان استعمال هذين اللفظين اسما أكثر من استعمالهما فعلا فحذفت الهمزة في موضع الكثرة وبقيت على أصلها في موضع القلة (وأحسن نديا) اى مجلسا ومتحدثا والندي المجلس يقال ندي وناد والجمع الأندية ومنه وتأتون في ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع ناديه ويقال

مع أن الجوى المبارزة (قلت) بالغوا في اخفاء المبارزة بحيث لم يفهم احد تناجيهم وصار ذم تفصيلا ولا اجمالا (قوله وما أرسلنا نبيا) قطعها جنف من نبيا لحذفها

ندوت القوم أندرهم اذا اجتمعوا فى مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم فجعلوا ذلك الاختصاص بالانعام والاحسان دليلا على رضا الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا عن أن فى ذلك مع التكذيب بالبعث تمكذيبا بما يشاهدونه من القدرة على العتاب باحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا لاهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به (وكم أهلكنا قبلهم) ثم بين ابهام كم بقوله (من قرن) شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم (هم) اى أهل تلك القرون (أحسن) من هؤلاء (أثاثا) اى أمتعة (ورئيا) اى منظرا ولو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيب الله لوجب أن لا يصل الى هؤلاء غم فى الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بابدال الهمزياء وادغامها فى الياء وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وله فيها الادغام والاظهار * (تنبيه) * كم مفعول أهلكنا مقدم واجب التقديم لان له صدر الكلام لانها اما استفهامية او خبرية وهى محمولة على الاستفهامية اى كثيرا من القرون أهلكنا من قرن تمييز لكم مبين لها وانما سمى أهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون من بعدهم وقول البيضاوى وهم احسن صفة لكم تبع فيه الزمخشرى وغيره ورد بان كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم أحسن فى محل جر صفة القرن وجمعه نظرا الى المعنى لان القرن مشتمل على أفراد كثيرة * ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المفتخرين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم هذا الذى افتخرتم به لا يدل على حسن الحال فى الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى انه (من كان فى الضلالة) مثلكم كوا الاستدراج بسط له فى الدنيا وطيب عيشه فى ظاهر الحال فيها ونعم بانواع الملاذ وقوله (فليمدد له الرحمن مدا) أمر بمعنى الخبر معناه فيمده فى طغيانه ويمهله فى كفره بالبسط فى الآثار والسعة فى الديار والطول فى الاعمار وانفاقها فيما يستلذ به من الاوزار ولا يرى العجلة استدراجا (حتى اذا رأوا) اى كل من كفر باعتبار (ما يوعدون) من قبل الله (اما العذاب) فى الدنيا بايدى المؤمنين وغيرهم او فى البرزخ (واما الساعة) أى القيامة التى هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون ولا شئ يشبه أهوالها وخزيها ونكالها (فسيعلمون) اذا رأوا ذلك (من هو شر مكانا) اى من جهة المكان الذى هو بلى به المقام فى قولهم خير مقاما (وأضعف جندا) اى اقل ناصرا أهم أم المؤمنون اى أضعف من جهة الجند اى الذى أشير به الى الندى فى قولهم واحسن نديا لانهم فى النار والمؤمنون فى الجنة فهذا رد عليهم فى قولهم اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا (ويزيد الله الذين اهتدوا) الى الايمان (هدى) بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوى عنهم من الدنيا لكرامتهم عنده بما بسط للضلال لهوانهم عليه * واشار الى ان مثل ما خذل أولئك بالنوال وفق هؤلاء لمحاسن الاعمال باقلال الاموال فقال عز من قائل (والباقيات الصالحات) أى الطاعات والمعارف التى شرحت لها الصدور وأنارت بها القلوب وأوصلت الى علام الغيوب (خير عند ربك) مما متع به الكفرة والخيرية هنا فى مقابلة قولهم أى الفريقين خير مقاما وقيل الباقيات الصالحات هى الصلوات وقيل التسبيح روى أبو الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا وأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله يحط الخطايا كما يحط ورق

من أوله قبل ما آمنت
قبلهم من قرية وقاله بعد
ما ذكر دا جريا على الاصل
(قوله فاسئلوا أهل الذكر)
أمر لمشركى مكة بان يسألوا
أهل الذكر أى أهل الكتاب
عمن مضى من الرسل هل

هذه الشجرة لربح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن الباقيات الصالحات وهي من كنوز الجنة فكان أبو الدرداء يقول لأعملن ذلك ولأكثرن عمله حتى اذا رآني الجاهل حسب واني مجنون قال الرازي والقول الاول أولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا يختص ببعض العبادات فهي أمر هباقية صالحة نظرا الى أثرها الذي هو الهداية ثم بين تعالى خيريتها بقوله تعالى (ثوابا) أي من جهة الثواب (وخير مردا) أي من جهة العاقبة يوم الحسرة (فان قيل) لا يجوز أن يقال هذا خير الا والمراد انه خير من غيره والذي عليه الكفار لا خير فيه أصلا (أجيب) بان المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف أحر من الشتاء بمعنى انه في حره أبلغ منه في برده فالكفرة يردون الى فناء وخسارة والمؤمنون الى ربح وبقاء ولما ذكر تعالى الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عليهم ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا في القول بالحشر فقال تعالى (أفرأيت الذي) أي الذي يعرض عن هذا اليوم ويزيد على ذلك أن (كفر بآياتنا) الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات (وقال) جراءة منه وجهلا (لأوتين) أي والله لأوتين في الساعة على تقدير قيامها (مالا وولدا) أي عظيمين فهو يحكم في جهله تحكيم القادر حتى ضم اليه قدرة العاجز وقرأ حمزة والكسائي ولدا وكذا ولدا في جميع ما في هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام في الجميع يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم أما قراءة الفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد قائم مقام الجمع وأما قراءة الضم والاسكان فقيل هي كالتي قبلها في المعنى وقيل بل هي جمع لولد نحو أسد وأسد وأنشدوا على ذلك

ولقد رأيت معاشرا * قد ثمروا مالا وولدا

وأنشدوا شاهدا على أن الولد والولد مترادفان قول الآخر

فليت فلانا كان في بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حمار

ولما كان ما ادعاه لا علم به الا لاحد أمرين لا ثالث لهما أنكر قوله ذلك بقوله تعالى (أطلع الغيب) الذي هو غائب عن كل مخلوق فهو في عزله عن الخلق كالعالم الذي لا يمكن أحدا منهم الاطلاع اليه وتفرد به الواحد القهار (أم اتخذ) أي بغاية جهده (عند الرحمن عهدا) أي بعهده عليه بأن يؤتيه ما ذكر ربطا بقدرته على وجه اليقين سبحانه وتعالى فيه عند قوله وقيل العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبي هل عهد الله اليه أن يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث قال فاني اذا مت بعثت أتيتني ثم قال اذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك وقيل صاغ له خباب حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثم فاني أوتى مالا وولدا فأعطيك حينئذ ثم انه سبحانه وتعالى بين من حيث فساد دعواه فقال تعالى (كلا) وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ أي هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه (سنكتب) أي نحفظ عليه (ما يقول) فنجازيه به في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقول (ونمد له من العذاب مدا)

كانوا بشرا أو ملائكة (فان قلت) كيف أمرهم بذلك مع انهم قالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه (قلت) لا مانع من ذلك اذ الاخبار بعدم الايمان بشئ لا يمنع أمرهم بالايمان

اى نزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه) بموته (مايقول) اى ماعنده من المال والولد (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لايصحبه مال ولاولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثم زائدا قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه * ولما تكلم سبحانه وتعالى فى مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن فى الرد على عباد الاصنام فقال (واتخذوا) اى كفار قريش (من دون الله) اى الاوثان (آلهة) يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى منعة بحيث يكونون لهم شفعاء وانصارا ينقذونهم من الهلاك * ثم اجاب تعالى بقوله تعالى (كلا) ردع وانكار لتعززهم بها (سيكفرون بعبادتهم) اى ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفى آية اخرى ما كانوا ايانا يعبدون وقيل اراد بذلك الملائكة لانهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤن منهم ويخصمونهم وهو المراد من قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقيل ان الله تعالى يحيى الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز ان يرادا الملائكة والاصنام (ويكونون عليهم ضدا) اى أعوانا واعداء (فان قيل) لم وحده وهو خبر عن جمع (أجيب) بانه اما مصدر فى الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد فى معنى الجمع قال الزمخشرى والضد العون وحد توحيده قوله عليه الصلاة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وأنهم كشئ واحد لفرط تضامهم وتوافقهم انتهى والحديث رواه أبو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل أيد * ولما ذكر تعالى ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون اليهم فقال تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم (ألم تر) اى تنظر (أنا أرسلنا) اى سلطنا (الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) الاز والهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدة الازعاج اى تغريهم على المعاصى وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات (فلا تعجل عليهم) اى تطلب عقوبتهم بان يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح انت والمسلمون من شرورهم (انما نعد لهم عدا) اى ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وانفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وعن ابن عباس كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها او كثيرها وقيل نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان * ثم بين تعالى ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال (يوم) اى واذكر يوم (نحشر المتقين) بايمانهم (الى الرحمن) اى الى محل كرامته وقوله تعالى (وفدا) حال اى وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدا ووفودا ووفادة اى قدم على سبيل التكرمة فهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الاشخاص كالصف وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب

به ولو سلم فهم وان يؤمنوا بكتاب اهل الكتاب لكن النقل المتواتر من اهل الكتاب فى أمر يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به (قوله ولا يبصرون) اى لا يعبؤن (قوله وجعلنا

وصحب وصاحب وهذا الذي قاله ليس بمذهب سيبويه لان فاعلا لا يجمع على فعل عند سيبويه واجازه الاخفش وجرى عليه الجلال المحلي فقال وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدا ركبانا وقال ابو هريرة على الابل وقال علي رضي الله تعالى عنه والله ما يحشرون على ارجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) بكفرهم (الى جهنم) وقوله تعالى (وردا) حال اي مشاة باهانة واستخفاف كانهم نعم عطاش تساق الى الماء وقيل عطاشا قد تقطعت اعناقهم من شدة العطش لان من يرد الماء لا يرد الا لعطش وحقيقة الورود المسير الى الماء وقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) الضمير فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل للمجرمين وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) استثناء متصل على القولين الاولين منقطع على الثالث والمعنى أن الشافعين لا يشفعون الا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويدخل في ذلك أهل الكبائر من المسلمين اذ كل من اتخذ عند الرحمن عهدا وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤيده ما روي عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة اني أعهد اليك باني أشهد ان لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فلا تكلني الى نفسي فانك ان تكلني الى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير واني لا أثق الا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر ولما ردّ سبحانه وتعالى على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من اثبت له ولدا بقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) اي قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ادا) قال ابن عباس اي منكرا وقال قتادة اي عظيما وقال ابن خالويه الادّ والادّة العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وأدّني الامر وآدني أثقلني وعظم علي وقرأ (تكاد السموات) نافع والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ (ينفطرن منه) أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففة والباقون بعد الياء بتاء وفتح الطاء مشددة يقال انفطر الشيء وتفطر اي تشقق وقراءة التشديد أبلغ لان التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولان اصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) اي تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) اي تسقط وتنطبق عليهم (أن) اي من اجل أن (دعوا للرحمن ولدا) قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا (فان قيل) كيف يؤثر القول في انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال

من الماء كل شيء حي) وان قلت كيف قال ذلك الشامل لقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء مع ان لنا اشياء احياء لم تخلق من الماء وهم الملائكة والجن وآدم وناقة صالح اذ الملائكة خلقت من نور والجن من

(أجيب) بوجوه الاول أن الله تعالى يقول كدت افعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا مني على من تفوه بها لولا حلمي وانى لا أعجل بالعقوبة الثانى ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها لقواعده واركانه الثالث ان السموات والارض والجبال تكاد ان تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) اى ما يليق به اتخاذ الولد لان ذلك محال اما الولادة المعروفة فلا مقالة فى امتناعها وأما التبنى فان الولد لا بد وأن يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض اما من سرور او استعانة او ذكر جميل وكل ذلك لا يصح فى حق الله تعالى (ان) اى ما (كل من فى السموات والارض) اى ان كل معبود من الملائكة فى السموات والارض من الناس منهم العزير وعيسى (الا آتى الرحمن) اى الا يجيء الى ربه (عبدا) منقادا مطيعا ذليلا خاضعا كما يفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلى من حمله على يوم القيامة خاصة والاول اولى لانه لا تخصيص فى الآية (لقد احصاهم) اى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزه علمه وقبضته وقدرته وكلهم تحت تدبيره وقهره (وعدهم عدا) اى عد اشخاصهم وأيامهم وأنفاسهم وأفعالهم فان كل شيء عنده بمقدار لا يخفى عليه شيء من أمورهم (وكلهم آتيه) اى كل واحد منهم يأتيه (يوم القيامة فردا) اى وحيدا ليس معه من الدنيا شيء من مال او نصير يمنعه * ولما رد سبحانه وتعالى على اصناف الكفرة وبالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر احوال المؤمنين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) اى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة او صداقة او اصطناع معروف أو غير ذلك وروى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل احببت فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء قد أحب الله فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم توضع له المحبة فى الارض واذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحسبه الا قال فى البغض مثل ذلك والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك اذا قوى الاسلام والمعنى سيحدث لهم فى القلوب مودة واما ان يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر من حسناتهم وروى عن كعب قال مكتوب فى التوراة لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عز وجل ينزلها على اهل السماء ثم على اهل الارض ومصداق ذلك فى القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودا وقال ابو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء * ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق المبطلين بين تعالى انه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله (فانما يسرناه) اى القرآن (بلسانك) اى العربى اى لولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك (لتبشر به المتقين) اى المؤمنين (وتنذر) اى تخوف (به قوما لدا) جمع ألد اى جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى (وكم) اى كثيرا (اهلكنا قبلهم من قرن) اى أمة من الامم الماضية بتكذيب الرسل لانهم اذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا وانه لا بد فيها من الموت وخافوا سوء

ثاره ادم من تراب وناقة صالح من حجر لا من ماء (قلت) المراد به البعض كما فى قوله تعالى وأوتيت من كل شيء وقوله وجاءهم الموج من كل مكان او المراد كل مخلوق من الماء لان الله خلق قبل

العاقبة فى الآخرة كانوا الى الحذر من المعاصى اقرب ثم اكد ذلك بقوله تعالى (هل تحس)
اى ترى وقيل تجد (منهم من احد او تسمع لهم ركزا) اى صوتا خفيا الا قال الحسن بادوا جميعا
فلم يبق منهم عين ولا اثر اى فكما اهلكنا اولئك نهلك هؤلاء ❊ (تنبيه) ❊ الركز الصوت الخفى دون
نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح اى غيبه فى الارض واخفاه ومنه الركاز وهو المال المدفون
لخفائه واستتاره والحديث الذى ذكره البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو من قرأ سورة مريم
أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء
المذكورين فيها وبعدد من دعا الله فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى حديث موضوع

سورة طه عليه الصلاة والسلام مكية

وهى مائة وخمس وثلاثون اية وعدد كلماتها الف وثلثمائة واحدى واربعون كلمة وعدد حروفها
خمسة آلاف ومائتان واثنان واربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال أعطيت السورة التى ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول واعطيت طه ويس
والطواسين من الواح موسى واعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى ذكرت فيها البقرة
من تحت العرش واعطيت المفصل نافلة

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذى عم نعمه على خلقه اجمعين (الرحيم) الذى خص
بجنته عباده المؤمنين وقرأ (طه) شعبة وحمزة والكسائى بامالة الطاء والهاء ووافقهم ورش
وابو عمرو على امالة الهاء محضة وابو عمرو ورش محضة الا هذه الهاء وقد تقدم الكلام فى الحروف
المقطعة فى اول سورة البقرة وفى هذه هنا قولان الصحيح انها من ذلك وقيل انها كلمة مفيدة
اما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه فى اول سورة البقرة والذى زاده هنا امورا
احدها قال الثعالبى الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه اقسم بالجنة والنار ثانيها يحكى
عن جعفر الصادق الطاء طهارة اهل البيت والهاء هدايتهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا
افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى رابعها مطمع الشفاعة للامة وهادى الخلق الى الملة
خامسها الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل يا طاهرا من الذنوب يا هاديا الى علام
الغيوب سادسها الطاء طول القراء والهاء هيبتهم فى قلوب الكفار قال تعالى سنلقى فى قلوب
الذين كفروا الرعب سابعها الطاء بتسعة فى الحساب والهاء بخمسة تكون اربعة عشر
ومعناها يا ايها البدر واما على القول الثانى فقيل معنى طه يا رجل وهو يروى عن ابن عباس
والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى ❊ ثم قال سعيد بن جبير بالنبطية
وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبى بلغة عك وهو بتشديد الكاف
ابن عدنان أخو معد وحكى الكلبى انك لو قلت فى عك يا رجل لم تجب حتى تقول طه وقال
السدى معناه يا فلان وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه فامر
ان يطأ الارض بقدميه معا وقال الكلبى لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة
اجتهد فى العبادة حتى كان يراوح بين قدميه فى الصلاة لطول قيامه وكان يصلى الليل
كله فانزل الله عليه هذه الآية وأمره ان يخفف على نفسه فقال تعالى (ما انزلنا عليك القرآن

خلق الانسان جوهرة
ونظر اليها نظر هيبة
فاستحالت ماء فخلق من
ذلك الماء جميع المخلوقات
أو خلقهم من الماء اما
بواسطة او بغيرها ولهذا
قيل ان الله تعالى خلق

(لتشقى) اى لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل اى خفف عن نفسك فقد ورد انه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا ما أنزلناه لتهلك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى انه كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل لما رأى المشركون اجتهاده فى العبادة قالوا انك لتشقى حيث تركت دين آبائك اى لتتعنى وتتعب وما أنزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت واصل الشقاء فى اللغة العناء وقيل المعنى انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما أنت عليهم بوكيل اى انك لا تؤاخذ بذنبهم وقيل ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الاعداء فكانه تعالى قال لا تظن انك تبقى أبدا على هذه الحالة بل يعلو امرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل لتصير معظما مكرما وقرأ حمزة والكسائى بالامالة وأبو عمرو بين بين وورش بين اللفظين والفتح عنه ضعيف جدا وكذلك جميع رؤس آى هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى (الا تذكرة) استثناء منقطع اى لكن انزلناه تذكرة قال الزمخشرى فان قلت هل يجوز ان يكون تذكرة بدلا من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذى الا فيه بمعنى لكن (لمن يخشى) اى لمن فى قلبه خشية ورقة يتأثر بالانذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى بالتخويف منه فانه المنتفع به وقوله تعالى (تنزيلا) بدل من اللفظ بفعله الناصب له (ممن خلق الارض) اى من الله الذى خلق الارض (والسموات العلى) اى العالية الرفيعة التى لا يقدر على خلقها فى عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر وقدم الارض على السموات لانها أقرب الى الحس واظهر عنده من السموات ثم اشار الى وجه احداث الكائنات وتدبير امرها بان قصد العرش وأجرى منه الاحكام والتقادير وانزل منه الاسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى (الرحمن على العرش) وهو سرير الملك (استوى) اى استواء يليق به فانه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان واذا خلق الله الخلق لا يحتاج الى مكان فهو بالصفة التى كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف مستوفى فراجعه * ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندى والمراد الارضون السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكر الله تعالى فى قصة لقمان فتكن فى صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه الا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله تعالى البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة وورش بين اللفظين وكذا جميع رؤس آى السورة من ذوات الراء ولما كانت القدرة تابعة الارادة وهى لا تنفك عن العلم عقب

الملائكة من ريح خلقها
من الماء والجن من نار
خلقها من الماء وآدم من
تراب خلقه من الماء (قوله
كل نفس ذائقة الموت)
الى قوله والينا ترجعون
اى الى الجنة او النار

ذلك باحاطة علمه تعالى بجليات الامور وخفياتها على حد سواء فقال تعالى (وان تجهر بالقول) اى تعلن بالقول فى ذكر او دعاء فالله تعالى غنى عن الجهر به (فانه يعلم السر واخفى) قال الحسن فى السر ما أسر الرجل الى غيره وأخفى من ذلك ما أسر فى نفسه وعن ابن عباس السر ما تسر فى نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر غدا وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس السر ما اسر ابن آدم فى نفسه وأخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل ان يعلمه وقال مجاهد السر العمل الذى يسر من الناس وأخفى الوسوسة وقيل السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن أسلم يعلم أسرار العباد واخفى سره من عباده فلا يعلمه احد ولما ذكر صفاته وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الواردة بها الحديث والحسنى تانيث الاحسن وفضل اسماء الله تعالى على سائر الاسماء فى الحسن لدلالتها على معان هى اشرف المعانى وافضلها وروى ان لله تعالى اربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا هو وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلثمائة فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة وواحد مكنون من أحصاها دخل الجنة وذكر فى لا اله الا الله فضائل كثيرة أذكر بعضها وأسأل الله تعالى ان يجعلنا ومحبينا من أهلها روى انه صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان يخلق السموات والارض وهو يقول أشهد ان لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم ما زلت أشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يا رب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله فقال يا محمد ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله وقال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله عز وجل بحلمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وروى عن موسى عليه السلام انه قال يا رب علمنى شيأ أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال يا موسى لو أن السموات السبع ومن فوقهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة هى لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى السوق لا اله الا الله وحده

قال ذلك مما بالوا وموافقة للتصبيح فمازاده هنا يقوله رب لو كم باشرو لحي فتنة رقاه فى العنكبوت ترخى بهم لدلالتها على الرجوع المذكور وعن بلوى الدنيا ولم يقع شيء

لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة قال الرازي وفي النكت ينبغي لاهل لا اله الا الله ان يخلصوا الى أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرمة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرمة فهو فاجر وكذاب * وحكى ان بشرا الحافي رأى كاغدا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك فرأى في النوم كأنه نودي يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة * وذكر ان صيادا كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها في الماء وتقول انما وقعت في الشبكة لغفلتها الهنا تلك الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة الشيطان وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منه والقنا في بحار رحمتك مرة أخرى وعن محمد بن كعب القرظي قال قال موسى الهي اى خلقك أكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فاى خلقك أعظم قال الذي يلتمس الى علمه علم غيره قال فاى خلقك أعدل قال الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال وأى خلقك اعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قسمت له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أفعالنا وأعمالنا وعن الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد أين الحامدون الله كثيرا على كل حال ثم يكون الحساب على من بقى الهنا نحن حمدناك واثنينا عليك بقدر طاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين * ولما عظم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم بما كلفه أتبع ذلك بما يقوى قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر احوال الانبياء تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان فتنته كانت أعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على تحمل المكاره فقال تعالى (وهل أتاك حديث موسى) وهذا يحتمل لان يكون هذا اول ما اخبره من امر موسى فقال وهل أتاك اى لم يأتك الى الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل ان يكون قد اتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد اتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وان كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة ابلغ في ذلك كقولك لصاحبك هل بلغك عنى كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومئ اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى وقيل ان هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال المحلي تبعا للبغوي وقوله تعالى (اذ رأى) يجوز ان يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز ان ينصب باذكر مقدرا اى واذكر اذ رأى (نارا) وذلك ان موسى عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام في الرجوع من مدين الى مصر لزيارة والدته واخته فاذن له فخرج باهله وماله وكانت أيام شتاء واخذ على غير الطريق مخافة

تعبيره بواو وحذف ثم ما زاده هنا اختصارا (قوله بل فعله كبيرهم هذا) قاله استهزاء وتهكما بهم استفهموا والافعال هو نفسه أو انه لما كان الحامل له على الفعل تعظيمهم

ملوك الشام وامرأته حامل في شهرها لا تدري ليلا تمشي او نهارا فسار في البرية غير عارف بطرقها فالجأه المسير الى جانب الطور الغربي الايمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد قيل كانت ليلة الجمعة واخذت امرأته في الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وجعل يقدح زنده فلا يوري فابصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) اى أقيموا في مكانكم والخطاب لامرأته وولدها والخادم ويجوز ان يكون للمرأة وحدها اخرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وايضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرأ حمزة بضم الهاء في الوصل والباقون بالكسر (اني آنست) اى أبصرت (نارا) والايناس الابصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متيقنا حققه لهم بكلمة اني ليوطن انفسهم * ولما كان الاتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلي آتيكم منها بقبس) اى شعلة في رأس فتيلة او عود ونحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء في اني ولعلي الآتية والباقون بالسكون الا ان ابن عامر فتح لعلي مع من ذكروهم على مراتبهم في المد (أو أجد على النار هدى) اى هاديا يدلني على الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار ان اهل النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد انه لصوق بمكان يقرب من زيد أو لان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها وقال بعضهم النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهي التي في الشجر الاخضر كما قال تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام وقيل ايضا النار أربعة أحدها نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام ثانيها الها حرقة بلا نور وهي نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها ثالثها لها الحرقة والنور وهي نار الدنيا رابعها لا حرقة ولا نور وهي نار الاشجار * (تنبيه) هاء وصلات هدى يفيد انفلبس فيه الا التنوين للجميع وان وقف عليها فهم على أصولهم في الفتح والامالة وبين اللفظين (فلما أتاها) اى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبي كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال أكثر المفسرين ان الذي رآه موسى لم يكن نارا بل كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لان موسى عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب ظن موسى انها نار أوقدت فاخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن باسرع من خمودها كأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فرعها فاذا خضرتها ساطعة في السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يديه على عينيه وألقيت عليه السكينة (نودي يا موسى اني

وكان كبيرها للاصنام أعظمها عندهم أسند الفعل اليه لانه السبب فيه (قوله يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم) فان قلت كيف خاطب النار مع انها

أنا ربك) قال وهب نودي من الشجرة فقيل يا موسى فاجاب سريعا ولم يدر من دعاه فقال اني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فاين أنت فقال انا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغي الا لله تعالى فايقن به وقيل انه سمع بكل اجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة من اني على تقدير الباء اي باني لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وأنشد الفارسي قول الشاعر

نادبت باسم ربيعة بن مكدم * ان المنوه باسمه الموثوق

وجوز ابن عطية ان تكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون بالكسر اما على اضمار القول كما هو رأي البصريين اي فقيل واما لان النداء في معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى انا يجوز ان يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبرانى ويجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا في قوله تعالى (فاخلع نعليك) انهما كانا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فامر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وقال عكرمة ومجاهد انما أمر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال تعالى عقبه (انك بالوادي المقدس) اي المطهر أو المبارك فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي هذا ما قاله أهل التفسير وذكر أهل الاشارة في ذلك وجوها أحدها ان النعل في النوم يعبر بالزوجة وقوله فاخلع نعليك اشارة الى انه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وان لا يبقى مشغول القلب بامرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره ان يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان الانسان حال الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه ان يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل ان يقول العالم المحسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان بالنعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب ان لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فكانه قيل لا تكن مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى وقوله تعالى (طوى) بدل أو عطف بيان وقرأ هنا وفي النازعات نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل لانه معدول عن طاو فهو مثل عمر للعدل عن عامر وقيل انه اسم أعجمي ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس باعجمي وقوله تعالى (وأنا اخترتك) اي اصطفيتك للرسالة من قومك قرأ حمزة بتشديد النون من أنا وقرأ اخترناك بنون بعدها ألف بلفظ الجمع والباقون بتاء مضمومة وقوله تعالى (فاستمع لما يوحى) اي الذي فيه نهاية الهيبة والجلالة كأنه تعالى قال لقد جاءك أمر عظيم فتاهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه وفي قوله تعالى وأنا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف * (تنبيه) * يجوز في لام لما ان تتعلق باستمع وهو أولى وان تكون مزيدة في المفعول على حد قوله تعالى ردف لكم وجوز الزمخشري ان يكون ذلك من باب التنازع ونازعه أبو حيان بانه لو كان كذلك لاعاد الضمير مع الثاني فكان يقول فاستمع له لما يوحى وأجيب عنه بان مراده

لا ... والتكوين التحويل لا يختص بمن يعقل كما قال تعالى يا جبال أوبي معه وقال فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها وقال وقيل يا أرض ابلعي ماءك الآية (قوله وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين)

التعلق المعنوى من حيث الصلاحية وأما تقدير الصناعة فلم يعنه وقوله تعالى (انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذى هو منتهى العلم والامر بالعبادة التى هى كمال العمل وفى هذه الآية دلالة على ان علم أصول الدين مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا فالفاء فى قوله تعالى فاعبدنى تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وخص الصلاة بالذكر وأفردها فى قوله تعالى (وأقم الصلوة لذكرى) للعلة التى أناط بها اقامتها وهو تذكير المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وقيل لذكرى لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها وقيل لان أذكرك بالمدح وقيل لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول وأقم الصلاة لذكرى وقيل لأن أذكرك بالثناء والمدح واجعل لك لسان صدق عليا وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى * ولما خاطب تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى أتبعه بقوله تعالى (ان الساعة آتية) اى كائنة (أكاد أخفيها) قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها غيرى من الخلق وكيف أظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا فى كتمان الشئ يقول الرجل كتمت سرى من نفسى اى أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت لان الله تعالى وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى الى ان يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية فاذا لم يعلم وقت موته لا يزل على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى أو يتوب منها فى كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد اى لا أريد أن أفعله وقال الحسن ان أكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى أكاد أخفيها اى أنا أخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى أن يكون قريبا اى هو قريب وقيل أكاد صلة فى الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

اى فما ان يتنفس قرنه وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) اى تعمل من خير أو شر متعلق بآتية واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (فلا يصدنك) اى يصرفنك (عنها من لا يؤمن بها) فقيل وهو الاقرب كما قاله الرازى انه موسى عليه السلام لان الكلام أجمع خطاب له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف أيضا فى عود هذين الضميرين على وجهين أحدهما قال أبو مسلم لا يصدنك عنها اى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها اى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة وهذا أولى لان الضمير يعود

قاله هنا بلفظ الاخسرين وفى الصافات بلفظ الاسفلين لان ما هنا تقدمه ان ابراهيم كادهم وانهم كادوه وانه غلبهم فى الكيد فخسرت تجارتهم وفى الصافات حيث كسر اصنامهم ولم

الى أقرب المذكورات وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا *(تنبيه)* المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان أحدهما ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب الثاني ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ههنا المراد نهي المخاطب عن حضوره لا أن يراه هو فالرؤية مسببة عن الحضور كما أن صد الكافر مسبب عن الرخاوة والضعف في الدين فقيل لا تكن رخوا بل كن شديدا صليبا حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه (واتبع هواه) اي ميل نفسه الى اللذات المحبوبة المخدجة لقصر نظره عن غيرها وخالف أمر الله (فتردى) اي فتهلك ان انصددت عنها وما في قوله تعالى (وما تلك بيمينك) مبتدأ استفهامية وتلك خبره وبيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى (ياموسى) تكرير لانه ذكر قبل في قوله تعالى نودي ياموسى وبعد في مواضع كألقها ياموسى لزيادة الاستئناس والتنبيه (فان قيل) السؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة في ذلك (أجيب) بان في ذلك فوائد الاولى توقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه ويريد أن يضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها الثالثة انه تعالى لما أراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه كلام نفسه ثم أورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك ياموسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة (فان قيل) هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم (أجيب) بالمنع فقد خاطبه في قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يؤهل له أحد من الخلق وأيضا ان كان موسى تكلم معه فأمة محمد يخاطبون الله تعالى في كل يوم خمس مرات على ما قاله صلى الله عليه وسلم المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم *(تنبيه)* قوله تعالى وما تلك اشارة الى العصا وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت ذكرها الرازي رحمه الله تعالى الاولى أنه تعالى لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى قلب العبد فاي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول الواحد صار الجماد ثعبانا ابتلع سحر السحرة فاي عجب لو صار القلب ثعبانا فابتلع سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فببركته انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فاذا صارت لبيد موسى

يبلغوا من امر انه صار ابهم قد سبب ذكر الاخرين وما في والصافات تقدمه قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين ... ابراهيم اليه ودعوه منه

عليه السلام هذه المنزلة فات عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية * ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك اجاب باربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال أولها (قال هي عصاى) وقدم الجواب بذلك لأنه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض ثانيها قوله (أتوكأ) أى أعتمد (عليها) اذا مشيت واذا عييت واذا وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله (وأهش) أى أخبط ورق الشجرة (بها) ليسقط (على غنمى) لتأكله فبدأ عليه السلام أولا بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله أهش بها على غنمى وكذلك فى القيامة يقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بامته فيقول أمتى أمتى رابعها قوله (ولى فيها مآرب) جمع مأربة بتثليث الراء حوائج ومنافع (أخرى) كحمل الزاد والسقى وطرد الهوام وانما أجمل فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك وقيل انقطع لسانه بالهيبة فأجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل فى المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا طلب كسره لواه بالشعبتين واذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل والزندين بفتح الزاى تثنية زند وزندة والزند العود الاعلى الذى تقدح به النار والزندة السفلى فيها ثقب فاذا جمعا قيل زندان ولم يقل زندتان واذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويكونان شمعتين بالليل واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروى عن ابن عباس أنها كانت تماشيه وتحدثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه (قال) له (ألقها) أى انبذها (ياموسى فألقاها فاذا هى حية) أى ثعبان عظيم (تسعى) أى تمشى على بطنها بسرعة وهنا نكت خفية احداها أنه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب أخرى أراد الله تعالى أن يعرفه ان فيها مآرب لا يفطن لها ولا يعرفها وانها أعظم من سائرها وآربى ثانيها كان فى رجله شىء وهو النعل وفى يده شىء وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا فاخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه تعالى قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك طالبا لحظك فلا تكن خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب تكن خالصا لى ثالثها ان موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال صفته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمر بالقائهما حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فانت فى ألف وقر من المعاصى فكيف يمكنك الوصول الى جنابه (فان قيل) كيف قال هنا حية وفى موضع آخر جان وهى الحية اللطيفة الصغيرة وقال فى موضع آخر ثعبان وهو اكبر ما يكون من الحيات (اجيب) بان الحية اسم جنس يقع على الذكر

الى اسفل مرتبة وجعلهم فى الدنيا من الاسفلين وردهم فى العقبى اسفل السافلين فناسب ذكر الاسفلين (قوله وايوب اذ نادى ربه) الآية ختم القصة هنا بقوله من

والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات كما مر والجان الدقيق وفى ذلك وجهان أحدهما انها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعبانا فاريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها الثانى أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان لقوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان قال وهب لما ألقى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هى حية تسعى صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تمشى بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بانيابها ويسمع لانيابها صريف فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودى ياموسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال) تعالى له (خذها) أى بيمينك (ولا تخف) وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله أن يكشف يده وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له الملك أرأيت ان أذن الله بما تحاذر أ كانت المدرعة تغنى عنك شيأ قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا هى عصا كما كانت ويده فى شعبتيها فى الموضع الذى كان يضعها اذا توكأ عليها كما قال تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) وقد أظهر الله تعالى فى هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده فى فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة مع الامارات التى تقدمت * (تنبيه) * فى نصب سيرتها أوجه أحدها أن تكون منصوبة على الظرف أى فى سيرتها اى طريقتها ثانيها على البدل من ها سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة اى سنعيدها صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض اى الى سيرتها وقيل غير ذلك (فان قيل) لما نودى ياموسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف (اجيب) عن ذلك باوجه احدها ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام عرف ما لقى آدم عليه السلام منها ثالثها ان مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فانه ما ظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى (واضمم يدك) اى اليمنى (الى جناحك) اى جنبك الايسر تحت العضد فى الابط (تخرج بيضاء) اى نيرة مشرقة تضىء كشعاع الشمس تغشى البصر لابد فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف من الاول والثانى وابقى مقابليهما ليدلا على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بتخرج وروى عن ابن عباس الى جناحك الى صدرك والاول اولى كما قال الرازى لانه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لانه يجنحهما اى يميلهما

عندنا وخذنها فى
هنا الان ايوب بالغ هنا فى
التضرع بقوله وانت
أرحم الراحمين فبالغ تعالى
فى الاجابة فناسب ذكر
من عندنا الان عندنا يدل
على أنه تعالى تولى ذلك

عند الطيران وجناحا الانسان عضداه فعضداه يشبهان جناحي الطير ولانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بان يكنى عنه ولا ترى أحسن ولا الطف ولا أخف للمفاصل من كنايات القران وآدابه يروى ان موسى عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى في جيبه فأدخلها في ابطه الايسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى (آية أخرى) أي معجزة ثانية حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى (لنريك) متعلق بما دل عليه آية أي دللنا بها لنريك وقوله تعالى (من آياتنا الكبرى) أي العظمى على رسالتك متعلق بمحذوف على أنه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى حال كونها من آياتنا أي بعض آياتنا واختلف أي الآيتين أعظم في الاعجاز فقال الحسن اليد لانه تعالى قال لنريك من آياتنا الكبرى والذي عليه الاكثر أن العصا أعظم اذ ليس في اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيها تغير للون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير في كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عائد الى الكلام وانه غير مختص باليد (فان قيل) لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر (أجيب) بان ذلك ذكر لرؤس الآي وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا التقدير يقوي قول القائل بان اليد أعظم آية * ولما أظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها بامره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى (اذهب) أي رسولا (الى فرعون) وبين تعالى العلة في ذلك بقوله تعالى (انه طغى) أي جاوز الحد في كفره الى أن ادعى الالهية ولهذا خصه الله تعالى بالذكر مع انه عليه السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي ونصري واني ألبستك جبة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمرك أبعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي أقسم بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك فعند ذلك (قال رب اشرح لي صدري) أي وسعه لتحمل الرسالة قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر بقوله قال رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وذلك أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه حتى يعلم ان أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة

بقيه ولا مبالغة في صـ
تناسب ذكرها العدم
دلالته على ما دل عليه
عندنا (قوله فنفخنا فيها)
أي في جيب درعها لحذف
مضافين ولهذا ذكر الضمير
في التحريم فقال فنفخنا

شوكته وكثرة جنوده وقيل اشرح لى صدرى بالفهم عنك ما أنزلت على من الوحى (ويسر) أى سهل (لى أمرى) أى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له (فان قيل) قوله لى فى اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ما جدواه والامر مستتب بدونه (أجيب) بانه قد أبهم الكلام اولا فقال اشرح لى ويسر لى فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره من أن يقول اشرح صدرى ويسر امرى على الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل (واحلل عقدة من لسانى) قال ابن عباس كان فى لسانه عليه السلام رتة وذلك ان موسى عليه السلام كان فى حجر فرعون ذات يوم فى صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته ان هذا عدوى وأراد ان يقتله فقالت له آسية انه صبى لا يعقل ولا يميز وفى رواية ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ موسى فى حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب يلعب به اذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين فى أحدهما جمر وفى الآخر جوهر فاراد ان يأخذ الجوهر فاخذ جبريل بيد موسى عليه السلام فوضعها على النار فاخذ جمرة فوضعها فى فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه فاحترق لسانه ويروى ان يده احترقت وان فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال الى الذى ابرأ يدى وقد عجزت عنها وعن بعضهم انها لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة وقيل كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى ازالته واختلفوا فى انه لم طلب حل تلك العقدة فقيل لئلا يقع خلل فى أداء الوحى وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز فى حقه واختلفوا فى زوال العقدة بكمالها فقيل بقى بعضها لقوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان فى لسان الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وضعف هذا الرازى بانه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لسانى بل قال واحلل عقدة من لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق أنه انحل أكثر العقد وبقى منها شئ وقال الزمخشرى وفى تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لسانى انه طلب حل بعضها ارادة أن يفهم عنه فهما جيدا أى ولذا قال (يفقهوا) أى يفهموا (قولى) عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لسانى صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لسانى * (تنبيه) * استدل على أن فى النطق فضيلة عظيمة بوجوه أولها قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هى الحيوان الناطق ثانيها اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

تنبيه (قوله فاعبدون وتقطعوا) قال ذلك هنا وقال فى المؤمنين فاتقون فتقطعوا لان الخطاب هنا للكفار فامرهم بالعبادة التى هى التوحيد ثم قال وتقطعوا بالواو لا بالفاء لان

لسان

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالوا ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة أى لو ذهب النطق اللساني لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه ثالثها ان فى مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض * ولما رأى موسى عليه السلام أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة قربة عظيمة فى الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله (واجعل لى وزيرا) اى معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال محمد صلى الله عليه وسلم ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله تعالى بالملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وقال أنوشروان لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير * ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة أراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله فقال (من أهلى) اى أقاربى وقوله (هرون) قال الجلال المحلى مفعول ثان وقوله (أخى) عطف بيان وذكر غيره أعاريب غير ذلك لا حاجة لنا بذكرها *(تنبيه)* الوزير مشتق من الوزر لانه يحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر لان الملك يعتصم برأيه ويلجئ اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة قال الرازى وكان هرون مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقول موسى هو أفصح منى لسانا ومنها الرفق لقول هرون يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها أنه كان أكبر سنا منه وقال ابن عادل كان أكبر سنا من موسى بأربع سنين وكان أفصح لسانا منه وأجمل وأوسم أبيض اللون وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا * ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه ان يشد أزره بقوله (اشدد به أزرى) اى أقوّى به ظهرى (وأشركه فى أمرى) اى فى النبوّة والرسالة وقرأ ابن عامر بسكون الياء من أخى وهمزة مفتوحة من أشدد وهو على مرتبته فى المد وهمزة مضمومة من أشركه وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وأشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من أشركه ثم انه تعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك) تسبيحا (كثيرا) قال الكلبى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته عما لا يليق به (ونذكرك) ذكرا (كثيرا) أى نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوز أبو البقاء أن يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف أى زمانا كثيرا (انك كنت بنا بصيرا) أى عالما بأنا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك أو بصيرا بأن الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوّة اليها أو بصيرا بوجوه مصالحنا فاعطنا ما هو الاصلح لنا * ولما سأل موسى عليه السلام ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به لا يتم الا باجابته اليها لا جرم (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) أى أعطيت جميع ما سألته منا عليك لما فيه من

مدخولها ليس مرتبا على ما قبلها بل هو واقع قبله ومن قال الخطاب مع المؤمنين فمناه دوموا على العبادة والخطاب ثم للنبى وامته بدليل قوله قبل يا أيها الرسل كلوا من

وجوه المصالح (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى أنعمنا عليك فى وقت آخر وفى ذلك تنبيه على امور أحدها كأنه تعالى قال انى راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها انى كنت ربيتك فلو منعتك الآن كان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى ثالثها انا أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك الدرجة العالية وهى منصب النبوة فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب (فان قيل) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف (أجيب) بانه انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصل اليها ما كان مستحقا الشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض فضله واحسانه (فان قيل) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة (أجيب) بانه لم يعن بمرة أخرى واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير ثم بين تلك المنة وهى ثمانية أولها قوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك) وحيا الا على وجه النبوة اذ المرأة لا تصلح للقضاء ولا للامامة ولا تلى عند أكثر العلماء تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم والوحى جاء لا بمعنى النبوة فى القرآن كثيرا قال تعالى وأوحى ربك الى النحل واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه أحدها انه رؤيا رأتها أم موسى وكان تأويلها وضع موسى فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة ثالثها المراد خطور البال وغلبته على القلب (فان قيل) هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بان الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى (أجيب) بانها لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان الالقاء فى البحر الى السلامة غلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون رابعها لعله أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض على هذا بان الامر لو كان كذلك لما لحقها الخوف (وأجيب) بان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان أمره بالذهاب اليه مرارا خامسها لعل بعض الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه سادسها لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله تعالى (ما يوحى) فمعناه ما لا يعلم الا بالوحى أو ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام ويبدل منه (ان اقذفيه) اى ألقيه (فى التابوت) اى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه) أى موسى بالتابوت (فى اليم) اى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) اى شاطئه والامر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل هو موسى فى جوف التابوت حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر النظم الذى هو أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر * (تنبيه) * اليم البحر المراد به هنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكشاف والساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان

الطيبات الآية والانبياء وأممهم مأمورون بالتقوى وأمرهم ثم قال فتقطعوا أمرهم بالفاء أى فتفرقوا فى امرهم تقطع بعد هذا القول والمراد أممهم (فرقوا) وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون)

الماء يسحله أي يحسره اذا علاه وقوله تعالى (يأخذه عدو لي وعدو له) أي فرعون جواب فليلقه وتكرير عدو للمبالغة أو لان الاول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع أي سيصير عدوا له بعد ذلك فانه لم يكن في ذلك الوقت بحيث يعادي روي انها اتخذت تابوتا قال مقاتل ان الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت في التابوت قطنا محلوجا ووضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم اذا بتابوت يجري به الماء فأمر فرعون الغلمان والجواري باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبي أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه كما قال تعالى (وألقيت عليك محبة مني) وهذه هي المنة الثانية قال الزمخشري مني لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة أي محبة خالصة أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها فلذلك احبك فرعون وآسية حتى قالت قرة عين لي ولك لا تقتلوه وروي انه كان على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من يراه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا المنة الثالثة قوله تعالى (ولتصنع على عيني) أي تربى على رعايتي وحفظي لك فانا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه اذا اعتنى به ويقول للصانع اصنع هذا على عيني أنظر اليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي *(تنبيه)* ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك ولتصنع أو على الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك وقرأ بفتح الياء نافع وابن كثير وابو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى (اذ تمشي اختك) والعامل في اذ ألقيت أو تصنع ويجوز ان يكون بدلا من اذ اوحينا واستشكل بان الوقتين مختلفان متباعدان (وأجيب) بانه يصح مع اتساع الوقت كما يصح ان يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة كذا فتقول وانا لقيته اذ ذاك وربما لقيه هو في اولها وانت في آخرها (فتقول هل أدلكم على من يكفله) يروى ان اخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك انه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا انعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كي تقر عينها) بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أي هي بفراقك أو انت بفراقها وفقد اشفاقها وروي أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع المنة الخامسة قوله تعالى (وقتلت نفسا) قال ابن عباس هو الرجل القبطي الذي قتله خطأ بأن وكزه حين استغاثه الاسرائيلي اليه قال الكسائي كان عمره اذ ذاك اثنتي عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أي من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون كما قال تعالى في آية فأصبح في المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة الى مدين المنة السادسة قوله تعالى (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أولها ان أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه في البحر في التابوت ثم منعه الرضاع الامن ثدي أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه الى مدين خائفا (فان قيل) انه تعالى عدد أنواع منته على

أي يمتنع عليهم الرجوع (ان قلت) كيف قال ذلك مع انه لابد من رجوعهم الى الله (قلت) معناه لا يرجعون عن الكفر الى الايمان او لا يرجعون بعد اهلاكهم الى الدنيا وقيل

موسى فى هذا المقام فكيف يليق به ذا الموضع وفتناك فتونا (أجيب) بجوابين الاول فتناك أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب اذا أردت تخليصه من الفضة أونحوها الثانى ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ولما كان التشديد فى المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك (فان قيل) هل يصح اطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك فتونا (أجيب) بانه لا يصح لانه صفة ذم فى العرف واسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم ما لا ينبغى المنة السابعة قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) والتقدير وفتناك فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه السلام وتزوجت بابنته وهى اما عشر أو ثمان لقوله على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته فانه قضى أوفى الاجلين والآية دالة على انه لبث عشر سنين وليس فيها ما ينفى الزيادة على العشر كما قاله الرازى وان قال ابن عادل يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل اى الاجل المشروط عليه فى تزويجه وسار بأهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر (ثم جئت على قدر) اى على القدر الذى قدرت أنك تجئ فيه لان أكلمك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى فيه للانبياء وهذا قول أكثر المفسرين أى على الموعد الذى وعده الله وقدر أنه يوحى اليه بالرسالة وهو أربعون سنة وكرر تعالى قوله (ياموسى) عقب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة الثامنة قوله تعالى (واصطنعتك) اى اخترتك (لنفسى) لامر فك فى أوامرى لئلا تشتغل الا بما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك ثم بين تعالى ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بمعجزاتى وقال ابن عباس الآيات التسع التى بعث بها موسى وقيل انهما العصا واليد لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام أوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى حكاية عن فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه (فان قيل) كيف أطلق لفظ الجمع على الاثنين (أجيب) بان العصا كانت آيات انقلابها حيوانا ثم انها فى أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم انه عليه السلام كان يدخل يده فى فمها فما كانت تضره فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد ذلك آية أخرى فدل ذلك على انها كانت آيات كثيرة وقيل الآيات العصا واليد وحل عقدة لسانه وقيل معناه أمدكما بآياتى وأظهر على أيديكما

فلا معنى حرام واجب حينئذ زائدة أى واجب رجوعهم (قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) أى عن جهنم (ان قلت) كيف يكونون مبعدين عنها وقد

من الآيات ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه (ولا تنيا) أى لا تفترا ولا تقصرا (في ذكرى) أى بتسبيح وغيره فان من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف أحدا وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف فى مقصوده ومن ذكر الله لابد أن يكون ذاكرا حسانه وذاكرا حسانه لا يفتر فى أداء أوامره وقيل لا تنيا فى ذكرى عند فرعون بان تذكرا لفرعون وقومه أن الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة (اذهبا الى فرعون انه طغى) أى بادعاء الربوبية *(تنبيه)* ذكر الله تعالى المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه فى قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى اختصارا فى الكلام وقال القفال فيه وجهان أحدهما ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر والثانى أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى أمر بالذهاب الى كل الناس من بنى اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله تعالى اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده واستبعد هذا بل الذهابان متوجهان لشئ واحد وقد حذف من كل من الذهابين ما أثبته فى الآخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاول وأثبته فى الثانى وحذف المذهوب به وهو بآياتى من الثانى وأثبته فى الاول (فقولا له قولا لينا) اى مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة فى صورة عرض ومشورة (فان قيل) لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد (أجيب) بان من عادة الجبار اذا أغلظ عليه فى الوعظ يزداد عتوا وتكبرا فامرا باللين حذرا من أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليهما واحتراما لما له من حق التربية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا هرم بعده وملكا لا يزول الا بالموت وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فاعجبه ذلك وكان لا يقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذى دعاه اليه موسى وقال أردت ان اقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد ان تعبد فغلبه على رأيه وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) متعلق باذهبا أو قولا أى باشرا الامر على رجائكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ويسعى باقصى وسعه قال الزمخشرى ولا يستقيم أن يراد ذلك فى حق الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كل ما ورد فى القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب بمعنى انه يستحيل بقاء معناه فى حق الله تعالى وقال الفراء ان لعل بمعنى كى فتتجرد العامة كما تقول اعمل لعلك تأخذ أجرتك *(فائدة)* قرأ رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا لينا فبكى يحيى وقال الهى هذا برك بمن يقول أنا الاله فكيف برك بمن يقول أنت الاله (فان قيل) ما الفائدة فى ارسالهما والمبالغة عليهما فى الاجتهاد مع علمه تعالى بانه لا يؤمن (اجيب) بان ذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث فى تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الاول أى ان لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من ان يتوهمه فيخشى ويروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسى

قال وان منكم الا واردها وورودها يقتضى القرب منها (قلت) معناه مبعدون عن ألمها وعذابها اصح ورودهم لها او معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالانجاء المذكور بعده

اليه فلا يؤمن ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه
الغرق وقال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ثم ان موسى وهرون
(قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط) أي يعجل (علينا) بالعقوبة (أو أن يطغى) أي يجاوز الحد في
الاساءة علينا (فان قيل) لما تكرر الامر من الله تعالى له بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف
هل يدل على معصية (أجيب) بان الامر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من أقوى
الدلائل على أن الامر لا يقتضي الفور (فان قيل) قوله تعالى قالا ربنا يدل على أن المتكلم
موسى وهرون ولم يكن هرون هنالك حاضرا (أجيب) بان الكلام كان مع موسى الا أنه كان
متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير في تلك
الحالة وان كان موسى وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله تعالى واذ قتلتم نفسا
فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روي ان القائل عبد الله
ابن أبي وحده (فان قيل) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري فاجابه الله تعالى
بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وهذا يدل على انه تعالى قد شرح صدره ويسر له ذلك الامر
فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (اجيب) بان
شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على
وجه لا يتطرق اليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير الخوف (قال) الله تعالى لهما
(لا تخافا انني معكما) حافظكما وناصركما (أسمع وأرى) اي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل
فافعل ما يوجبه حفظي ونصري وقال ابن عباس اسمع دعاءكما فاجيبه وأرى ما يراد بكما فامنع
ولست بغافل عنكما فلا تهتما وقال القفال قوله تعالى أسمع وأرى يحتمل ان يكون مقابلا
لقوله تعالى يفرط علينا أو أن يطغى يفرط علينا بان لا يسمع منا أو أن يطغى بان يقتلنا قال تعالى
انني معكما أسمع كلامكما فاسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما
ما تكرهانه ثم انه سبحانه وتعالى أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لانه سبحانه وتعالى قال في
المرة الاولى اذهبا الى فرعون وفي الثانية قال اذهب أنت وأخوك وفي الثالثة قال اذهب
الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فأتياه (فان قيل) انه تعالى أمرهما في الثانية بان يقولا له
قولا لينا وههنا أمرهما بقوله تعالى (فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل) اي الى
الشام (ولا تعذبهم) اي خل عنهم من استعمالك اياهم في اشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل
الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم في ذلك مع قتل الاولاد وفي هذا تغليظ من
وجوه الاول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضي انقياده لهما والتزامه طاعتهما وذلك يعظم
على الملك المتبوع الثاني قولهما فارسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه
لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال أيضا الثالث قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما
(قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة في التليين اولا والتغليظ ثانيا (اجيب) بان الانسان
اذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ حيث لم ينفع التليين (فان قيل) أليس الاولى ان يقولا
انا رسولا ربك قد جئناك بآية فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجزة مقرونا
بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه (اجيب) بان هذا اولى لانهم ما ذكروا مجموع الدعاوي ثم استدلوا

الورود (قوله وما ارسلناك
الا رحمة للعالمين) فان قلت
كيف قال ذلك مع ان النبي
صلى الله عليه وسلم لم يكن
رحمة للكافرين بل نقمة اذ
لولا ارساله اليهم ما عذبوا
بكفرهم لقوله تعالى وما كنا

على ذلك المجموع بالمعجز وقرأهما قد جئناك بآية من ربك قال الزمخشري هذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها التي هي مجيء الآية (فان قيل) ان الله تعالى ما اعطاهما الا اثنين هما العصا واليد ثم قال تعالى اذهب أنت واخوك بآياتي وذلك يدل على ثلاث آيات وقالا هنا قد جئناك بآية من ربك وذلك يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع (اجاب) القفال بان معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كانهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز ان يكون ذلك حجة واحدة او حججا كثيرة وتقدم الجواب عن التثنية والجمع وان في العصا واليد آيات وقوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يحتمل ان يكون من كلام الله تعالى كانه تعالى قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل ان يكون كلام الله قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الله في الدنيا والآخرة وان سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم ان على بمعنى اللام اي والسلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وقال تعالى في موضع آخر ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها (انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب) ما جئنا به (وتولى) أعرض عنه قال البيضاوي ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لان التهديد في أول الامر أهم وأنجع وبالواقع أليق * ولما أتياه وقالا انا رسولا ربك وبلغاه ما أمرا به (قال) لهما (فمن ربكما يا موسى) انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما معا اما لان موسى هو الاصل في الرسالة وهرون تبع ورده ووزير واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي كانت في لسان موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم فصاحة أخيه بدليل قوله هو أفصح مني لسانا فاراد أن يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين واما لانه حذف المعطوف للعلم به اي يا موسى وهرون قاله ابو البقاء ثم ان فرعون لم يشتغل مع موسى بالبطش والايذاء لما دعاه الى الله تعالى مع انه كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج معه في المناظرة لانه لو آذاه لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع في المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم * (تنبيه) * قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء وما رب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول اني انا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (فان قيل) لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما (أجيب) بانه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال أنا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال له نمروذ أنا أحيي وأميت فلم تكن الاماتة التي ذكرها ابراهيم هي الاماتة مع الاحياء التي عارضه نمروذ بها الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله

معذبين حتى نبعث رسولا
(قلت) بل كان رحمة للكافرين
أيضا من حيث ان عذاب
الاستئصال اخر عنهم ببركته
او كان رحمة عامة من حيث
انه جاء بما يسعدهم ان
اتبعوه ومن لم يتبعه فهو

تعالى ذكر فرعون هذا الكلام أى انا الرب الذى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية فى المعنى وأنه لا مشاركة بينهما ثم كأنه قيل فما أجاب به موسى فقيل (قال) مستدلا على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات (ربنا الذى أعطى كل شئ) أى من الانواع (خلقه) أى صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار والاذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك الانف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناء عنه أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل والمرأة كذلك فلم يزاوج منها شيأ غير جنسه وما هو على خلاف خلقه (ثم هدى) أى ثم عرف الله تعالى الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل اليه قال الزمخشرى ولله دره هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبا للحق * ولما خاف فرعون أن يزيد موسى فى اظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه (قال) لموسى (فما بال) أى حال (القرون) أى الامم (الاولى) كقوم نوح وهود ولوط وصالح فى عبادتهم الاوثان فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقى منهم ومن سعد أراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت اليه فلذلك (قال علمها عند ربى) استأثر به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلكم لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال هذه القرون مثبت عند ربى (فى كتاب) هو اللوح المحفوظ ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه فى علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده قوله (لا يضل ربى ولا ينسى) والضلال أن يخطئ الشئ فى مكانه فلم يهتد اليه والنسيان أن يذهب عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل أى لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل أنت وتنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال (الذى جعل لكم) فى جملة الخلق (الارض مهادا) أى فراشا * (تنبيه) * هذا الموصول فى محل رفع صفة لربى وخبر محذوف تقديره هو أو منصوب على المدح وقرأ عاصم وحمزة هنا وفى سورة الزخرف مهدا بفتح الميم وسكون الهاء أى مهدها مهدا أو تمهدونها فهى لهم كالمهاد وهو ما يمهد للصبى وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد (وسلك) أى سهل (لكم فيها سبلا) أى طرقا بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من أرض الى أرض لتبلغوا منافعها (وأنزل من السماء ماء) أى مطرا وعدل بقوله (فأخرجنا به) عن لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيها على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال قدرته والحكمة وايذانا بأنه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق (أزواجا) أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى (من نبات) بيان وصفة لازواجا وكذلك (شتى) وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق فهو مرضى جمع مريض وجرحى

القمر او المراد بالرحمة الرحيم وهو صلى الله عليه وسلم كان رحمة للكفار ايضا الاترى انهم لما شجوه وكسروا رباعيته حتى خر مغشيا عليه قال بعد افاقته اللهم اهد قومى

جمع جرحى فالفه للتأنيث أى ازواجا متفرقة ويجوز ان يكون صفة للنبات فانه من حيث انه مصدر فى الاصل يستوى فيه الواحد والجمع أى انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) والانعام جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام ورعيتها والامر للاباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أى مبيحين لكم الاكل ورعى الانعام أى وبقية الحيوانات (ان فى ذلك) أى فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أى لعبرا (لأولى النهى) اى أصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمى به العقل لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح ● ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين انها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال (منها) اى الارض (خلقناكم) ●(فان قيل) انما خلقنا من النطفة على ما بين فى سائر الآيات (أجيب) باوجه احدها انه لما خلق اصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب حسن اطلاق ذلك علينا ثانيها ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية والغذاء اما حيوانى او نباتى والحيوانى ينتهى الى نباتى والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافى كوننا مخلوقين من النطفة ثالثها روى ابن مسعود ان ملك الارحام يأتى الى الرحم حين يكتب اجل المولود ورزقه والارض التى يدفن فيها فانه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) اى مقبورين بعد الموت (ومنها نخرجكم) اى عند البعث (تارة) اى مرة (أخرى) اى بتأليف اجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب وتردهم كما كانوا احياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا ● ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى (ولقد أريناه) اى ابصرناه (آياتنا كلها) اى التسع المختصة بموسى عليه السلام ٣ وهى العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فكذب) بها وزعم انها سحر (وأبى) ان يسلم (فان قيل) قوله تعالى كلها يفيد العموم والله تعالى ما اراه جميع الآيات فان من جملة الآيات ما اظهرها على ايدى الانبياء قبل موسى عليه السلام وبعده (أجيب) بان لفظ الكل وان كان للعموم قد يستعمل فى الخصوص مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام اراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء فكذب فرعون بالكل او يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذى لزم ثم كأنه قيل كيف صنع فى تكذيبه واباءته فقيل (قال) حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهور ه وخاف ان يتبعه الناس ويتركوه وهن فى نفسه وهنا عظيما (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) اى الارض التى نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها نصارت فرائصه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه أنه على الحق وان المحق لو اراد قود الجبال لانقادت له وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وانه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه ان

قوله فانهم لا يعلمون (انه قل رب احكم) ان قلت ما فائدة قوله بالحق (قلت) ليس المراد بالحق هنا نقيض الباطل بل المراد ما وعده الله تعالى اياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين

٣ قوله وهى العصا الخ فيه أن الحجر ونتق الجبل كانا بعد غرق فرعون وعبارة الجمل وتقدم ان ثمانية منها فى الاعراف الاولى والثانية قوله فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده الخ والثالثة قوله ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وخمسة فى قوله فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وواحدة فى سورة يونس قوله ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم اه

ذلك سحر بقوله (بسحرك يا موسى) فكان ذلك مع ما ألفوه من عادتهم في الضلال صارفا لهم عن اتباع ما رأوه من البيان ثم أظهر لهم أنه يعارضه بمثل ما أتى به بقوله (فلنأتينك بسحر مثله) أي مثل سحرك يعارضه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي من الزمان والمكان (لا نخلفه) أي لا نجعله خلفا (نحن ولا أنت) أي لا نجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لا ينفك عن الآخر قال (مكانا) وآثر ذلك المكان لأجل وصفه بقوله (سوى) أي عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة الفريقين إليه فانظر إلى هذا الكلام الذي زوقه ونمقه وصنعه بما وقف به قومه عن السعادة واستمر يقودهم بعناده حتى أوردهم البحر فأغرقهم ثم في غمرات النار أحرقهم وقيل معنى سوى أي سوى هذا المكان وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها وأمال شعبة وحمزة والكسائي في الوقف محضة والباقون بالفتح وقيل المراد بالموعد الوعد لأن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان أي بل الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف وعدمه وإلى هذا المحاجة مختارين له ورد عليهم بقوله (قال موعدكم يوم الزينة) فإنه لا يطابقه * (تنبيه) * يحتمل أن قوله قال موعدكم يوم الزينة أن يكون من قول فرعون فبين الوقت وأن يكون من قول موسى عليه السلام وهذا أظهر كما قال الرازي لوجوه الأول أنه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثاني وهو أن تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه إنما يليق بالمحق الذي يعرف أن اليد له لا المبطل الذي يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس ثالثها أن قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون لموسى وهرون لزم إما أن نحمله على التعظيم أو أن أقل الجمع اثنان فالأول لا يليق بحال فرعون معهما والثاني غير جائز فإذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة النيروز وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير هو يوم عاشوراء وقيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل يوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم وبني قوله (وأن يحشر) للمفعول لأن القصد الجمع لكونه من معين (الناس) أي يجتمعوا (ضحى) أي وقت الضحوة فيكون أظهر لما يعمل وأجلى فلا يأتي الليل إلا وقد قضي الأمر وعرف المحق من المبطل ويكثر التحدث بذلك في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر (فتولى) أي أعرض (فرعون) عن موسى إلى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لأمر الله تعالى (فجمع كيده) أي مكره وحيلته وخداعه الذي دبره على موسى عليه السلام بجمع من يعمل بهم الكيد وهم السحرة حشرهم من كل فج وكان أهل مصر أسحر أهل الأرض وأكثرهم ساحرا وكانوا في ذلك الزمان أشد اعتناء بالسحر وأمهر ما كانوا أكثر (ثم أتى) للميعاد الذي وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعي على الإتيان للعيد والنظر إلى تلك المغالبة التي لم يكن مثلها ولما تشوق السامع إلى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استأنف تعالى الخبر عنه بقوله تعالى (قال لهم) أي لأهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم (موسى) حين رأى اجتماعهم ناصحا لهم (ويلكم) يا أيها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته (لا تفتروا) أي لا تتعمدوا

و وعده لا يكون إلا حقا ونظيره قوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق أو أن قوله بالحق تأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل

(على الله كذبا) باشراك أحد معه (فيسحتكم) قال مقاتل يهلككم وقال قتادة يستأصلكم (بعذاب) من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء من الاسحات وهو لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما من السحت لغة الحجاز (وقد خاب من افترى) أي خسر فرعون فانه افترى واحتال ليبقى الملك له فلم ينفعه (فتنازعوا) أي تجاذب السحرة (أمرهم بينهم) لما سمعوا هذا الكلام علما منهم أنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثله في جمع جنوده وأتباعه ثم يسلم منه الا من الله تعالى معه (وأسروا النجوى) قال الكلبي قالوا سرا ان غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد بن اسحق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر وبالغوا في اخفاء ذلك فان النجوى الاسرار لئلا يظهر فرعون وأتباعه على ذلك فكأنه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل (قالوا) أي السحرة (ان هذان لساحران) أي موسى وهرون وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ أبو عمرو بالياء بعد الذال والباقون بالالف على لغة من يجعل ألف المثنى لازما في كل حال قال أبو حيان وهي لغة لطوائف من العرب بني الحرث بن كعب وبعض كنانة وخثعم وزبيد وبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذرة وقال شاعرهم * تزود مني بين أذناه ضربة * يريد أذنيه وقال آخر

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا في المجد غايتاها

وقيل تقدير الآية انه هذان فحذف الهاء وذهب جماعة الى أن حرف ان ههنا بمعنى نعم أي نعم هذان روي أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيئا فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتني اليك فقال ابن الزبير ان وصاحبها أي نعم وشدد ابن كثير النون فكانت نجواهم تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما وتثبيطا للناس عن اتباع موسى وهرون (يريدان) أي عنادا ولاتس من دعوى الرسالة وغيرها (أن يخرجاكم) أيها الناس (من أرضكم) هذه التي ألفتموها وهي وطنكم خلفا عن سلف (بسحرهما) الذي أظهراه لكم وغيره * ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا (ويذهبا بطريقتكم المثلى) مؤنث الامثل وهو الافضل أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب باظهار مذهبهما واعلاء دينه لقوله تعالى اني أخاف أن يبدل دينكم وقيل أراد أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل فانهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى أرسل معنا بني اسرائيل وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث انهم قدوة لغيرهم (فأجمعوا كيدكم) أي من السحر وغيره فلا تدعوا منه شيئا الا جئتم به وقرأ أبو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم وفتح الميم والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم (ثم ائتوا) أي لقتال موسى وهرون (صفا) أي مصطفين لأنه أهيب في صدور الرائين * (تنبيه) * اختلفوا في عدد السحرة فقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط وسبعون من بني اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشر ألفا وقال السدي بضعة وثلاثون ألفا وقال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا وقيل اثنى عشر ألفا مع كل منهم على كل قول حبل وعصا وأقبلوا والله أعلم بعددهم وظاهر القرآن لا يدل على شيء من هذه الاقوال * ولما كان التقدير فأتوا كذلك عطف عليه قوله (وقد أفلح

ونظيره في عكسه من صفة الام قوله ويقتلون الانبياء بغير حق

(سورة الحج) ان قلت (قوله يوم ترونها) * كيف جمع ها وافرد في قوله وترى الناس سكارى

اليوم) فى هذا الجمع الذى ما اجتمع مثله قط (من استعلى) اى فاز بالمطلوب من غلب فلما أتى السحرة موسى (قالوا) له متأدبين لان لين القول مع الخصم ان لم ينفع لم يضر بل نفعهم قال بعضهم ولذلك رزقهم الله تعالى الايمان ببركته (يا موسى اما أن تلقى) اى ما معك مما تناظرنا به أولا (واما أن نكون نحن) (أول من ألقى) ما معه (قال) لهم موسى عليه السلام مقابلا لادبهم بأحسن منه ولانه فهم أن مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر فتكون له العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك لا ألقى أنا أولا (بل ألقوا) أنتم أولا فانتهزوا الفرصة لان ذلك كان مرادهم عما أفهموه من تغيير السياق والتصريح بالاول فألقوا ما معهم من الحبال والعصى (فاذا حبالهم وعصيهم) اى التى ألقوها قد فاجأت أنه (يخيل اليه) تخييلا مبتدأ (من سحرهم) اى الذى قد فاقوا به أهل الارض (أنها) اشدة اضطرابها (تسعى)* (فان قيل) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيامرهم بما هو سحر (أجيب) بأن ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله اى ان كنتم صادقين وفى القصة انهم لما ألقوا الحبال والعصى أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب ورأوا أنها تسعى وقيل لطخوها بالزئبق فلما وقعت عليها الشمس اضطربت فخيل اليهم انها تتحرك وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالياء على اسناده الى ضمير الحبال (فأوجس) أى أحس (فى نفسه خيفة موسى) عليه الصلاة والسلام (فان قيل) كيف استشعر الخوف وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ثم ان الله تعالى قال له بعد ذلك اننى معكما أسمع وأرى فكيف وقع الخوف فى قلبه (أجيب) بأوجه أحدها أنه خاف من جهة أن سحرهم من جنس معجزته أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا به الثانى أنه خوف طبع البشرية مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك الثالث لعله كان مأمورا أن لا يفعل شيأ الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الجمع فيبقى الخجل ثم انه أزال ذلك الخوف بقوله تعالى (قلنا لا تخف) من شئ من أمرهم ولا غيره ثم علل ذلك بقوله تعالى وأكده أنواعا من التأكيد لاقتضاء الحال الانكار أن يغلب أحد ما أظهروا من سحرهم لعظمه (انك أنت) خاصة (الاعلى) أى الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها (وألق ما فى يمينك) أبهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها اى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك أو تعظيما لها أى لا تحتفل بكثرة هذه الاجرام وعظمها فان فى يمينك ما هو أعظم منها أى العصا وهى التى قلنا لك أول ما شرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك يا موسى ثم أريناك منها ما أريناك (تلقف) اى تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك (ما صنعوا) أى عملوه بعد تدريب كثير وممارسة طويلة فلما ألقاها صارت أعظم حية من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت وأكلت كل ما عملوه فى الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى فأخذها فاذا هى عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيأ الا أكلته وعرفوا أنه ليس بسحر وأصل تلقف تتلقف

(قلت) لان الرؤية الارض متعلقة بالزلزلة وكل الناس يرونها والنائبة متعلقة بكون الناس سكارى فلا بد من جعل كل واحد رائيا بأنهم (قوله كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم

حذفت احدى التاءين وتاء المضارعة تحتمل التأنيث على اسناد الفعل الى العصا والخطاب
على اسناد الفعل الى السبب وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال أو الاستئناف والباقون
بسكونها وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته (انما) أى
الذى (صنعوا) اى زوّروا وافتعلوا وهالك أمره (كيد ساحر) أى كيد سحرى لا حقيقة له
ولا ثبات وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون الحاء بمعنى ذى سحر أو بتسمية الساحر
سحرا على المبالغة أو باضافة الكيد الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين
وكسر الحاء وألف بينهما (فان قيل) لم وحد الساحر ولم يجمع (أجيب) بأنه قصد من هذا
الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله تعالى
(ولا يفلح الساحر) اى هذا الجنس (حيث أتى) اى كيف ما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث
كان وقيل معناه حيث احتال فانه انما يفعل ما لا حقيقة له (فان قيل) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا
(أجيب) بانه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان الكلام
على هذا الوجه أبلغ ثم انه امتثل ما أمره به ربه من القاء العصا فكان ما وعده به سبحانه من
تلقفها ما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة فى ثخن ولا فى غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت
شيئا كثيرا فعلم كل من رأى ذلك حقيقته وبطلان ما فعل السحرة فبادر السحرة منهم الى
الخضوع لامر الله تعالى ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ولذلك قال تعالى بعد
ان ذكر مكرهم واجتهادهم فى معارضة موسى عليه السلام وحذف ذكر الالقاء وما سببه من
التلقف لان مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية (فألقى السحرة) أى فألقاهم
ما رأوا من أمر الله تعالى بغاية السرعة وبأيسر أمر (سجدا) على وجوههم لله تعالى توبة مما
صنعوا واعتابا لفرعون بسجودهم وتعظيما لما رأوا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم
السحر فلما رأوا ما فعل موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة
ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين
الذى ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر وبظهورها على يد موسى
عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى
الخضوع وهو السجود قال الاصبهانى سبحان الله ما أعظم شأنهم ألقوا حبالهم وعصيهم
للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين
فكأن قائلا قال هذا فعلهم فماذا قالوا فقيل (قالوا آمنا برب هرون وموسى) ولم يقولوا آمنا
برب العالمين لان فرعون ادعى الربوبية فى قوله انا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم
من اله غيرى فلو انهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة
اختاروا هذه العبارة والدليل على ذلك انهم لم يقتصروا على موسى بل قدموا هرون ولان
فرعون ربى موسى فى صغره فلو اقتصروا على موسى أو قدموا ذكره فربما توهم ان المراد
فرعون وذكر هرون على الاستتباع وقيل قدمه لانه أكبر سنا ولروى الآية فسبحان الله ما أعظم
أمرهم كانوا أول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية وآخره شهداء بررة روى أنهم لم يرفعوا
رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى

أعدوا فيها) قال ذلك هنا
بذكر من غم وفى السجدة
بدونه موافقة لما قبلهما
اذ ما هنا تقدمه قوله قطعت
لهم ثياب من نار الآية
وما هناك لم يتقدمه الا قوله
فأواهم النار (قوله وذوقوا

في سجودهم منازلهم التي يصيرون اليها في الجنة فكأنه قيل ما قال لهم فرعون حينئذ فقيل
(قال) لهم (آمنتم) أي بالله (له) أي مصدقين أو متبعين لموسى (قبل أن آذن لكم) في ذلك قال
ذلك ايهاما بأنه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة الى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء
الاذن ثم استأنف قوله معللا مخيلا للأتباع صدا لهم عن الاقتداء بالسحرة (انه) أي موسى
(لكبيركم) أي معلمكم (الذي علمكم السحر) أي فلم تتبعوه لظهور الحق بل لارادتكم شيأ من
المكر وافقتموه عليه قبل حضوركم في هذا الموطن وهذا على عادته في تخييل أتباعه عجبا وقفهم
عن اتباع الحق * ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة فقال مقسما (فلأقطعن) أي
بسبب مافعلتم (أيديكم) على سبيل التوزيع (وأرجلكم) أي من كل رجل يدا ورجلا وقوله
(من خلاف) حال بمعنى مختلفة أي الايدي اليمنى والارجل اليسرى (ولأصلبنكم) وعبر عن
الاستعلاء بالظرف اشارة الى تمكينهم في المصلوب عليه تمكين المظروف في ظرفه فقال (في
جذوع النخل) تشنيعا لقتلكم وردعا لامثالكم (ولتعلمن أينا) يريد نفسه لعنه الله وموسى
عليه السلام بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان في كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن
للمؤمنين وفيه تبجح باقتداره وقهره وما ألفه وضري به من تعذيب الناس بانواع العذاب
وتضييع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لان موسى لم يكن قط من التعذيب
في شئ وقيل يريد رب موسى الذي آمنوا به (أشد عذابا وأبقى) اي أدوم على مخالفته (فان قيل)
ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية وقصدها له وآل الامر أن استغاث
بموسى من شرها وعجزه عن دفعها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم الى هذا
الحد ويستهزئ بموسى في قوله أينا أشد عذابا وأبقى (أجيب) بانه كان في أشد الخوف في قلبه الا
أنه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره قال الرازي ومن استقرى أحوال
العالم علم ان العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على معاندته قوله انه لكبيركم الذي
علمكم السحر لانه كان يعلم ان موسى ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعلم من سحرته استاذ كل
واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه كان يقول مع ذلك هذه الاشياء ثم كأنه قيل فما قالوا
له فقيل (قالوا) له (لن نؤثرك) أي نختارك (على ما جاءنا) على لسان موسى (من البينات) التي
عايناها وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مثلها * ولما بدؤا بما يدل على الخالق من الفعل ترقوا الى
ذكره بعد معرفته بفعله اشارة الى علو تدرجهم فقالوا (والذي) أي ولا نؤثرك بالاتباع على الذي
(فطرنا) أي ابتدأ خلقنا اشارة الى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس وتنبيها على
عجز فرعون عند من استخفه وفي جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة واشارة وتحقير
فرعون أمر عظيم * (تنبيه) * قد علم مما تقرر ان والذي معطوف على ما وانما أخر واذكر
الباري تعالى لانه من باب الترقي من الادنى الى الاعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به
وجواب القسم محذوف أي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق * ولما تسبب عن ذلك انهم
لا يبالون به وعلموا أن ما يفعله بهم هو باذن الله تعالى قالوا له (فاقض) أي فاصنع في حكمك
الذي تضمنه (ما أنت قاض) أي فاقض الذي أنت قاضيه ثم عللوا ذلك بقولهم (انما تقضي)
أي تصنع بنا ما تريد ان قدرك الله تعالى عليه (هذه الحيوة الدنيا) النصب على الاتساع أي انما

عذاب الحريق) تقديره
وقيل لهم ذوقوا كما في
الحج وخص ما هنا
بالحذف لطول الكلام وما
في الحج بالذكر لقصره
وموافقة لذكر القول
قبله كقوله ام يقولون افتراه

حكمك فيها على الجسد خاصة فهي ساعة تعقبها راحة ونحن لانخاف الا ممن يحكم على الروح وان في الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا تعظيم الله تعالى واستهانتهم بفرعون بقولهم (انا آمنا بربنا) أى المحسن الينا طول أعمارنا مع اساءتنا بالكفر وغيره (ليغفر لنا) من غير تقيع يلحقه بالفعل أو ضرر يدركه بالترك (خطايانا) التي قابلنا بها احسانه ثم خصوا بعد العموم فقالوا (وما أكرهتنا عليه) وبينوا ذلك بقولهم (من السحر) لتعارض المعجزة فانه كان الاكمل لنا عصيانك فيه لان الله تعالى أحق بأن يتقى (فان قيل) كيف قالوا ذلك وقد جاؤا مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم الغلبة (أجيب) بأنه قد روى أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون من بني اسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر وروى أنهم رأوا موسى عليه السلام نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام بطل سحره فهذا لا نقدر على معارضته فأبى عليهم وأكرههم على المعارضة وقيل ان الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونه تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا ليعلمهم ليكون في كل وقت من يحسنه * ولما كان التقدير فربنا أهل التقوى وأهل المغفرة عطفوا عليه مستحضرين لكماله (والله) أى الجامع لصفات الكمال (خير) جزاء منك فيما وعدتنا به (وأبقى) ثوابا وعقابا قال أبو حيان والظاهر ان الله تعالى سلمهم من فرعون ويؤيده قوله تعالى ومن اتبعكما الغالبون وقال الرازي ليس في القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم ولم يثبت في الاخبار وقال البقاعي سيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في نجاتهم ثم عللوا هذا الحكم بقولهم (انه) أى الامر والشأن (من يأت ربه) أى الذى رباه وأحسن اليه بان أوجده وجعل له جميع ما يصلحه (مجرما) بان يموت على كفره (فان له جهنم) دار الاهانة (لا يموت فيها) فيستريح من عذابها بخلاف عذابك فان آخره الموت وان طال (ولا يحيى فيها) حياة هنيئة وبها يندفع ما قيل ان الجسم الحي لابد أن يبقى اما حيا أو ميتا فخلوه عن الوصفين محال وقال بعضهم ان لنا حالة ثالثة وهي كحالة المذبوح قبل أن يهدأ فلا هو حي لانه قد ذبح ذبحا لا تبقى الحياة معه ولا هو ميت لان الروح لم تفارقه بعد فهي حالة ثالثة (ومن يأته) أى ربه الذى قد أوجده ورباه (مؤمنا) أى مصدقا به (قد) ضم الى تصديق الايمان أنه (عمل) أى في الدنيا (الصالحات) أى التي أمر بها فكان صادق الايمان مستلزما لصالح الاعمال (فأولئك) أى العالو الرتبة (لهم الدرجات العلى) جمع عليا مؤنث أعلى التي لا نسبة لدرجاتك التي أوعدتناها اليها ثم بينوها بقولهم (جنات عدن) أى أعدت للاقامة وهيئت فيها أسبابها (تجري من تحتها الانهار) أى من تحت غرفها وأسرتها وأرضها فلا يراد موضع منها الا أن يجري فيه نهر الا جرى وقولهم (خالدين فيها) حال والعامل فيها معنى الاشارة أو الاستقرار (وذلك جزاء) كل (من تزكى) أى تطهر من أدناس الكفر * (تنبيه) * هذه الآيات الثلاث وهي من قوله انه من يأت ربه مجرما الى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى وقوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى ان أسر بعبادى) عطف على قوله ولقد أريناه آياتنا وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طبقة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسري بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء

قوله وقالوا أئذا ضللنا
وقل يتوفاكم (قوله ان الله
يدخل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات جنات تجري من
تحتها الانهار) كرره لانه لما
ذكر حكم أحد الخصمين
وهو فالذين كفروا قطعت

ـثلا والحكمة فى السرى بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقا
لفرعون عن طلبه وتتبعه أو ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عليه الصلاة
والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل
بعدها من سرى والباقون بسكون النون وهمزة قطع بعدها من أسرى لغتان أى أسر ببنى
اسرائيل من أرض مصر التى امنت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم فى مسيرهم بعد أن كان قد ابى
أن يطلقهم او يكف عنهم العذاب فاقصد بهم ناحية بحر القلزم (فاضرب) اى اجعل (لهم)
بالضرب بعصاك (طريقا فى البحر) والمراد بالطريق الجنس فانه كان لكل سبط طريق وقوله
(يبسا) صفة لطريقا وصف به لما يؤل اليه لانه لم يكن يبسا الا بعد أن مرت عليه الصبا فجففته
كما روى وقيل فى الاصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم وصف به
الواحد مبالغة فلما امتثل ما أمر به وأيبس الله تعالى له الارض واراد المرور بها قال الله تعالى له
(لا تخاف دركا) اى أن يدركك فرعون (ولا تخشى) غرقا وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين
الخاء على ان يكون نهيا مستأنفا والباقون برفع الفاء والف بينها وبين الخاء على انه مستأنف
فلا محل له من الاعراب أو انه فى محل نصب على الحال من فاعل اضرب اى اضرب غير خائف
(فأتبعهم فرعون بجنوده) اى وهو معهم على كثرتهم وعلوهم وقوتهم وعزتهم فكانوا كالتابع
الذى لا معنى له بدون متبوعه والمتبوع بنو اسرائيل وذلك ان موسى عليه الصلاة والسلام
خرج بهم اول الليل فاخبر فرعون بذلك فقص اثرهم والمعنى فاتبعهم فرعون نفسه ومعه
جنوده فحذف المفعول الثانى وقيل ان الباء زائدة (فغشيهم) اى فرعون وقومه (من اليم) اى
البحر (ما غشيهم) اى امر لا تحتمل العقول وصفه فاهلكهم وقطع دابرهم ولم يبق منهم أحدا
وما شاك أحدا من عبادنا المستضعفين شوكة (وأضل فرعون قومه) أى بدعائهم الى عبادته
(وما هدى) أى ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد
(تنبيه) لا بأس بذكر شئ من هذه القصة فنقول * قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون
الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وكان يوسف عليه الصلاة والسلام عهد
اليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع
العظم فاخذوه وقال موسى عليه الصلاة والسلام للعجوز احتكمى أى اطلبى لك شيأ اطلبه
فقالت أكون معك فى الجنة فلما خرجوا تبعهم فرعون وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة
ألف سوى الجنبتين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال هنا أمرت فأوحى الله تعالى اليه أن
اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى ادخلوا فيه فقالوا كيف وهى رطبة فدعا
ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم
دخلوا حتى جاوزوا البحر وأقبل فرعون الى تلك الطرق فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر
كما ترى وكان على فرس حصان فأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين
من الملائكة فسار جبريل بين يدى فرعون فابصر الحصان الفرس فاقتحم بفرعون على اثرها
فصاحت الملائكة فى الناس الحقوا حتى اذا لحق آخرهم وكادأولهم أن يخرج التقى البحر عليهم

اهـ ثياب من نار لم يكن به
من ذكر حكم الخصم والآخر
افادته وان تقدم ذكره
(قوله فنكلوا منهم) الآية
كرره لان الاول صرح على
ذبح بهيمة الانعام الشاملة

نغرقوا جميعا فرجع بنو اسرائيل حتى ينظروا اليهم وقالوا يا موسى ادع الله تعالى يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس أن جبريل قال يا محمد لو رأيتني وانا أدس فى فى فرعون الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم * ولما أنعم الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بانواع النعم ذكرأولادهم تلك النعم فناداهم بقوله تعالى (يا بنى اسرائيل) والمنادى من وجد من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما انعم به على اجدادهم زمن موسى عليه السلام ولاشك ان ازالة الضرر يجب تقديمها على ايصال المنفعة الدينية وايصال المنفعة الدينية أعظم من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ تعالى بازالة الضرر بقوله (قد أنجيناكم من عدوكم) فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية بقوله تعالى (وواعدناكم جانب الطور الايمن) أى الذى على أيمانكم فى توجهكم هذا الذى وجوهكم فيه الى بيت أبيكم ابراهيم عليه السلام وهو جانبه الذى يلى البحر وناحية مكة واليمن ووجه المنفعة فيه أنه أنزل فى ذلك القرب عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شرائعهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله تعالى (ونزلنا عليكم) بعد انزال هذا الكتاب فى هذه المواعدة لانعاش أرواحكم (المن) أى الترنجبين (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر وقوله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أمر اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة وان فسر بالحلال لان الله تعالى أنزله اليهم ولم تمسه يد الآدميين فهو أمر ايجاب وقرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء مضمومة بعد التحتية من أنجيتا وبعد الدال من وعدنا وبعد القاف من رزقنا ولا ألف فى الثلاثة والباقون بالنون وألف بعدها فى الثلاثة وأسقط أبو عمرو الالف قبل العين من وعدنا وأثبتها الباقون * ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى (ولا تطغوا فيه) اى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى بما حده الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين وقرأ الكسائى (فيحل) بضم الحاء اى ينزل والباقون بكسرها اى يجب (عليكم غضبى) اى عقوبتى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) اى هلك وقيل شقى وقيل وقع فى الهاوية وقرأ الكسائى بضم اللام الاولى وكسرها الباقون * ولما كان الانسان محل الزلل وان اجتهد رجاه واستعطفه بقوله سبحانه (وانى لغفار) اى ستار باسبال ذيل العفو (لمن تاب) اى رجع عن ذنبه من الشرك وما يقاربه (وآمن) بكل ما يجب الايمان به (وعمل صالحا) تصديقا لايمانه (ثم اهتدى) باستمراره على ذلك الى موته * (فائدة) * اعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما وصف كونه غافرا فقوله تعالى غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله تعالى وربك الغفور وأما كونه غفارا فقوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وأما الغفران فقوله تعالى غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضى فقوله تعالى فى حق داود عليه السلام فغفرنا له وأما صيغة المستقبل فقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله تعالى فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وأما لفظ

البدن والبقر والغنم والابل
مرتب على ذبح البدن خاصة
وان وافقه فى الحكم ذبح
الآخرين (قوله اذن للذين
يقاتلون) اى اذن للذين
يريدون ان يقاتلوا فى القتال

الاستغفار لقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن في الارض ويستغفرون للذين آمنوا (وههنا نكتة لطيفة) وهي ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى في مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى قال ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار فيجب على كل من ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة أن يتوب منها لهذه الآية ودلت على أن العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه * ولما أمر تعالى موسى عليه السلام بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بني اسرائيل ليذهبوا معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له (وما أعجلك عن قومك) أي لمجيء ميعاد أخذ التوراة (ياموسى قال) مجيبا له تعالى (هم أولاء) أي بالقرب مني يأتون (على أثري) أي ماشين على آثاري شيء قبل أن ينطمس وما تقدمتهم الا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم الا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض (وعجلت اليك رب لترضى) أي لتزداد عني رضا فان المسارعة الى امتثال أمرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك * (تنبيه) * في الآية سؤالات الاول قوله تعالى وما أعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال وأجيب عنه بانه كان في صورة الاستفهام ولا مانع منه الثاني أن موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يكون ممنوعا من ذلك التقدم أو لم يكن فان كان الاول كان التقدم معصية وان لم يكن فلا انكار واجيب عنه بانه عليه السلام لعله ما وجد نصا في ذلك فاجتهد فاخطأ في اجتهاده فاستوجب العتاب الثالث قوله وعجلت والعجلة مذمومة أجيب عنه بانها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على أنه انما فعل ذلك ليحصل الرضا واذا لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام أجيب عنه بان المراد تحصيل دوام الرضا أو زيادته كما مر الخامس قوله اليك يقتضي كون الله تعالى في جهة لان الى لانتهاء الغاية وأجيب عنه بانا اتفقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد مكان وعدك السادس قوله تعالى ما أعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلب زيادة رضاك او الشوق الى كلامك واما قوله هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى أجيب عنه بان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين احدهما انكار نفس العجلة والثاني السؤال عن سبب التقدم فاجاب عن السؤال عن العجلة لانه اهم فقال وعجلت اليك رب لترضى (قال) تعالى (فانا) اي تسبب عن عجلتك عنهم انا (قد فتنا) اي ابتلينا (قومك من بعدك) اي بعد فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة الف وما نجا من عبادة العجل منهم الا اثنا عشر الفا (واضلهم السامري) باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته فاطاعه بعضهم وامتنع بعضهم والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لهم السامرة وقيل كان علجا من اهل كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني اسرائيل ولم يكن منهم واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) لما اخبره ربه بذلك (الى قومه)

(قوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) لاستثناء فيه منقطع بمعنى لكن أخرجوا بقولهم ربنا الله وهو من باب تعقيب المدح

بعدما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ليال من ذى الحجة واخذ التوراة (غضبان) عليهم
(أسفا) اى حزينا بما فعلوا (قال) أى لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم (يا قوم) واستنكر
عليهم بقوله (ألم يعدكم ربكم) اى الذى احسن اليكم (وعدا حسنا) اى بانه ينزل عليكم كتابا
حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على اعدائكم الى غير ذلك من اكرامه ولما جرت
العادة بان طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال ابو العلاء احمد بن سليمان المعرى

لا أقبلنك ان طال الزمان بنا * وكم حبيب تمادى عهده فنسى

قال لهم (أفطال عليكم العهد) اى زمن لطف الله تعالى بكم فتغيرتم عما فارقتكم عليه كما تغير
أهل الرذائل والانحلال فى العزائم لضعف العقول وقلة التدبر (أم أردتم) اى بالنقض مع قرب
العهد وذكر الميثاق (أن يحل) اى يجب (عليكم) بسبب عبادة العجل (غضب من ربكم)
المحسن اليكم اى وكلا الامرين لم يكن أما الاول فواضح وأما الثانى فلا يظن باحد ارادته
والحاصل انه يقول فعلتم ما لا يفعله عاقل (فأخلفتم) اى فتسبب عن فعلكم ذلك ان أخلفتم
(موعدى) اى وعدكم اياى بالثبات على الايمان بالله والقيام على ما أمرتكم به ولما تشوف
السامع الى جوابهم استأنف ذكره فقال (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) اى بان ملكنا أمرنا اذ
لو خلينا وأمرنا ولم يسول لنا السامرى لما أخلفناه واختلف فى هذا المجيب على وجهين الاول
هم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا ما أخلفنا موعدك بامرنا كان لكم وقد يضيف
الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان
الفاعل لذلك آباءهم لا هم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه
ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة الثانى
ان هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب
فخالف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كالمالك لنا (فان قيل) كيف كان رجوع قريب
من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف
فسادها بالضرورة (أجيب) بان هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح
الميم وحمزة والكسائى بضمها والباقون بكسرها وهى لغات فى مصدر ملكت
الشئ ثم ان القوم فسروا العذر الحامل لهم على ذلك الفعل فقالوا (ولكنا حملنا) قرأ نافع وابن
كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشددة وأبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بفتح
الحاء والميم مخففة (أوزارا) اى أثقالا (من زينة القوم) اى حلى قوم فرعون استعارها منهم
بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروه لعيد كان لهم ثم لم يردوها عند الخروج مخافة أن
يعلموا به وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد غرقهم فاخذوه قال البيضاوى ولعلهم
سموها أوزارا لانها آثام فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن
أن يأخذ مال الحربى (فقذفناها) اى فى النار (فكذلك ألقى السامرى) اى ما كان معه
من المال أو من أثر الرسول روى أن موسى عليه السلام لما وعده ربه أن يكلمه استخلف على
قومه أخاه هرون وأجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامهن ليلهن ونهارهن ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه
متغير فمضغ شيئا من نبات الارض فقال له ربه أو ما علمت ان ريح الصائم أطيب من ريح المسك

قوله بما يشبه الذم كقول الشاعر
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
اى ان كان فيهم عيب فهو
هذا وهذا ليس بعيب

ارجع فهم عشرا وقيل انهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين بأيامها وقالوا قد كملت العدة فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار فاحفروا حفرة وألقوها فيها ثم أوقدوا عليها نارا فلا تكون لنا ولا لهم وكان السامرى قد رأى أثر فرس جبريل فقبض منه قبضة فمر بهرون فقال له ياسامرى ألا تلقى ما فى يدك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها على شئ الا أن تدعو الله اذا ألقيتها أن يكون ما أريد فالقاها ودعا له هرون فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما فى الحفرة وصار عجلا فهذا معنى قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا) من ذلك الحلى المذاب له جوف ليس فيه روح (له خوار) أى صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط وانما كان الريح يدخل فى دبره فيخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك وقيل انه صاغه ووضع التراب بعد صوغه فى فيه (فقالوا) أى السامرى ومن افتتن به أول ما رأوه مشيرين الى العجل (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور أو فنسى السامرى اى ترك ما كان عليه من الايمان (أفلا يرون) اى فالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن رؤية (أن) اى انه (لا يرجع اليهم قولا) والاله لا يكون ابكم (ولا يملك لهم ضرا) فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من ضرره (ولا نفعا) فيقولون ذلك رجاءه (ولقد قال لهم هرون من قبل) اى قبل رجوع موسى مستعطفا لهم (ياقوم انما فتنتم) اى وقع اختباركم فاختبرتم فى صحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه (به) اى بهذا العجل فى اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة وأكد لاجل انكارهم فقال (وان ربكم) اى الذى أخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان (الرحمن) وحده الذى فضله عام ونعمه شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهى منه تعالى قبل أن يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا نزع نعمه بمعصيته وارجوا اسباغها بطاعته (فاتبعونى) بغاية جهدكم فى الرجوع اليه (وأطيعوا أمرى) اى فى الثبات على الدين (قالوا لن نبرح عليه) اى العجل (عاكفين) اى مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) فدلهم فهم رأيه وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم فخاف أن يجاهدهم الكفار ولا يفيد ذلك شيأ مع ان موسى لم يأمره بجهاد من ضل وانما قال له واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فرأى من الاصلاح اعتزالهم الى ان يأتى *(تنبيه)* انما قال هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق اما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه بقوله اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع ابن نون انى مهلك من قومك اربعين الفا من خيارهم وماتى الف من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه غير الله فليس من الله فى شئ ومن اصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان ابن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن ابى اوفى قال خرجت اريد النبى

(قوله ولولا دفع الله الناس) الآية (ان قلت) اى منة على المؤمنين فى حفظ الصوامع والبيع والصلوات اى الكنائس عن الهدم حتى امتن عليهم فلا عيب فيهم

صلى الله عليه وسلم فاذا ابو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فاخذه عمر واذا ام الصبي تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت واخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها واقد سلك هرون في موعظته أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم رابعا بقوله وأطيعوا امرى وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شيء من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت أن هذا الترتيب أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا ولما ذكر تعالى ما قال هرون تشوقت النفس الى علم ما قال موسى فقيل (قال يا هرون) أنت نبي الله وأخي ووزيري وخليفتي فانت اولى الناس بان ألومه وأحقهم بان أعاتبه (ما منعك اذ) اى حين (رأيتهم ضلوا) عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى (ألا تتبعني) في سيرتي من الاخذ على يد الظالم طوعا او كرها * (تنبيه) * لا مزيدة للتأكيد لان الداخل الزائد في كلام كان نافيا لضد مضمونه فيفيد اثبات المضمون ونفي الضد فيكون ذلك في غاية التأكيد وأثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفا ووصلا وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا (أفعصيت) اى فتكبرت عن اتباعي فتسبب عن ذلك أنك عصيت (أمرى) وأخذ بلحيته وبرأسه يجره اليه غضبا لله تعالى فكأنه قيل ما قال له فقيل (قال) مجيبا له مستعطفا بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ماله من الرقة والشفقة (يا ابن أم) فذكرها خاصة وان كان شقيقه لانها أدعى الى العطف ولانها كانت مؤمنة ولانها قاست فيهما ما يسوؤه وهي أرق من الاب وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) اى بشعرهما * ثم علل ذلك بقوله (اني خشيت أن تقول) اذا اشتددت عليهم حتى يصل الامر الى القتال (فرقت بين بني اسرائيل) بفعلك هذا الذي لم يجد شيأ فانه من كان معك وضعفك عن ردهم (ولم ترقب قولي) اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولم تقل واردد هم ولو أدى الامر الى السيف * ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس اليه وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان رأس الهداة تشوف السامع الى ما كان من غيره فاستأنف تعالى ذكره بقوله (قال) اى موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضا عن أخيه بعد قبول عذره جاعلا ما نسب اليه سببا لسؤاله عن الحامل له عليه (فما خطبك) اى أمرك هذا العجب العظيم الذي حملك على ما صنعت وأخبرني بالذي أضللتهم به (يا سامري قال) السامري مجيبا له (بصرت) من البصر والبصيرة (بما لم يبصروا به) اى رأيت ما لم ير بنو اسرائيل وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم رجل بصير اى عالم قاله أبو عبيدة واراد أنه راى جبريل عليه السلام فاخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال (فقبضت) اى فكان ذلك سببا لان قبضت (قبضة) اى مرة من القبض أطلقها على المقبوض تسمية للمفعول بالمصدر (من أثر) فرس

بذلك (قلت) الله عليهم
فيها ان الصوامع والبيع
في حرمهم وحفظهم لان
أهلها محترمون او المراد
ابهدمت صوامع وبيع في
زمن عيسى عليه السلام

ذلك (الرسول) اى المعهود (فنبذتها) اى فى الحلى الملقى فى النار أو فى العجل (وكذلك) اى وكما
سولت لى نفسى أخذ أثره (سولت) اى حسنت وزينت (لى نفسى) نبذها فى الحلى فنبذتها
وكان منها ما كان ولم يدعنى الى ذلك داع ولا حملنى عليه حامل غير التسويل * (تنبيه) * كون
المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين وأراد بأثره التراب الذى أخذه
من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر وعن على رضى الله تعالى عنه ان جبريل عليه
السلام لما نزل ليذهب بموسى الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى انه
كيف اختص السامرى برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين الناس فقال ابن عباس
فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رباه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد
بنى اسرائيل فكانت المرأة اذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ
الملائكة الولدان ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه
جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه
حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعنى رأيت ما لم
يروه ومن فسر الابصار بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام
له خاصية الاحياء قال أبو مسلم ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فههنا وجه
آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد
يقول الرجل ان فلانا يقفو أثر فلان ويقتص أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى
عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسألة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى
العجل قال بصرت بما لم يبصروا به اى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت
قبضة من أثرك ايها الرسول اى شيأ من دينك فقذفته اى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه
السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما اورد لفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل
لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا او بماذا يأمر الامير وأما دعاؤه ان موسى رسول
مع جحده وكفره فعلى مذهب من حكى الله فيه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون
وان لم يؤمنوا بالانزال قال الرازى وهذا القول الذى ذكره ابو مسلم ليس فيه الا أنه مخالف
للمفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه أحدها أن جبريل عليه السلام ليس معهودا
باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول
لارادة جبريل كأنه تكليف بعلم الغيب وثانيها أنه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر
دابة الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها أنه لا بد من التعسف فى بيان ان السامرى
كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته وكيف عرف أن تراب حافر فرسه
له هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف انه
جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه
حال البلوغ فأى منفعة لكون جبريل مربيا له حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة * ثم ان
موسى عليه السلام لما سمع من السامرى ما ذكر (قال) له (فاذهب) اى فتسبب عن فعلك أن
أقول لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت (فان لك فى الحيوة) اى ما دمت حيا (أن تقول) لكل

وكنائس فى زمن موسى عليه
السلام ومساجد فى زمن
النبى صلى الله عليه وسلم
فالامتنان على اذعان أهل
الاديان الثلاثة لا على
المؤمنين خاصة (قوله وكذب

من رأيته (لا مساس) أي لا تمسني ولا أمسك فلا تقدر أن تنفك عن ذلك فكان يهيم في البرية مع الوحوش والسباع وإذا مس أحدا أو مسه أحد حما جميعا عاقبه الله تعالى بذلك وكان إذا لقي أحدا يقول لا مساس أي لا تقربني ولا تمسني وقال ابن عباس لا مساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحد من غيرهم أحدا منهم حما جميعا في ذلك الوقت (وإن لك) بعد الممات (موعدا) للثواب إن تبت والعقاب إن أبيت (لن تخلفه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام أي لن تغيب عنه والباقون بفتحها أي بل تبعث إليه فلا انفكاك لك عنه كما أنك في الحياة لا تقدر أن تنفك عن النفرة من الناس فاختر لنفسك ما يحلو * ولما ذكر ما لإله الحق من القدرة التامة في الدارين أتبعه عجز العجل فقال (وانظر إلى إلهك) أي بزعمك (الذي ظلت) أي دمت في مدة يسيرة جدا بما أشار إليه تخفيف التضعيف فإن أصله ظللت بلامين أولاهما مكسورة فحذفت تخفيفا (عليه عاكفا) أي مقيما تعبده (لنحرقنه) أي بالنار وبالمبرد قال البقاعي كما سلف عن نص التوراة وكان معنى ذلك أنه أحماه حتى لان فهان على المبارد (ثم لننسفنه) أي لنذرينه إذا صار سحالة (في اليم) أي في البحر الذي أغرق الله تعالى فيه آل فرعون ثم جمع الله تعالى سحالته التي هي من حليهم فجعلها في دارهم ويذكرهم بها ويجعلها من أشد العذاب عليهم وأكد الفعل إظهارا للعظمة لله تعالى لتمام أمره وملكه وتحقيقا للصدق في الوعد فقال (نسفا) قال الجلال المحلي وفعل موسى عليه السلام بعد ذبحه ما ذكره انتهى وعلى هذا لا يصح أن يبرد بالمبرد قال الرازي ويمكن أن يقال صار لحما ودما وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها * ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان أخبرهم بالحق على وجه الحصر فقال (إنما إلهكم الله) أي الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله (الذي لا إله إلا هو) أي لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لأنه (وسع كل شيء) وقوله (علما) تمييز محول عن الفاعل أي أحاط علمه بكل شيء فكل شيء إليه مفتقر وهو غني عن كل شيء وأما العجل الذي عبدوه فلا يصلح للإلهية بوجه ولا في عبادته شيء من حق * ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامري ثانيا على هذا الأسلوب الأعظم والسبيل الأقوم كان كأنه قيل هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرفيع فقيل نعم (كذلك) أي مثل هذا القص العالي في هذا النظم العزيز الغالي كقصة موسى ومن ذكر معه (نقص عليك من أنباء) أي أخبار (ما قد سبق) من الأمم زيادة في علمك وإجلالا لمقدارك وتسلية لقلبك وإذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيرا لبيناتك وزيادة في معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتتأكد الحجة على من عاند وكابر (وقد آتيناك) أي أعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك (من لدنا) أي من عندنا (ذكرا) أي كتابا هو القرآن وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ثانيها أنه يذكر فيه أنواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكير والموعظة ثالثها فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتاب أنزله ذكرا فقال فاسئلوا أهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فإنه مشتمل على أسرار كتب الله تعالى المنزلة (من أعرض عنه) فلم يؤمن به (فإنه يحمل يوم

موسى) إنما لم يقل وبنو إسرائيل أو قوم موسى عطفا على قوم نوح لأن قوم موسى لم يكذبوه بل غيرهم وهم القبط أو الإبهام في بناء الفعل للمفعول للتفخيم

القيامة وزرا) اى حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) اى فى عذاب الوزر (وساء) اى وبئس
(لهم) اى لك الحمل (يوم القيامة) وقوله (حملا) تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص بالذم
محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن أقبل عليه كان مذكرا له بكل ما يريد من العلوم
النافعة ويبدل من يوم القيامة (يوم ينفخ فى الصور) اى القرن النفخة الثانية وقرأ أبو
عمرو بنون الاولى مفتوحة وضم الفاء على اسناد الفعل الى الآمر به تعظيما له او الى النافخ
والباقون بياء مضمومة وفتح الفاء (ونحشر المجرمين) اى الكافرين (يومئذ زرقا) اى عيونهم
مع سواد وجوههم لان زرقة العيون أبغض شئ من ألوان العيون الى العرب لان الروم
أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق
العين وقيل المراد العمى لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق وقيل عطاشا لكونهم
(يتخافتون) اى يخفضون أصواتهم (بينهم) لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت
خفض الصوت واخفاؤه (ان) اى يقول بعضهم لبعض ما (لبثتم) اى مكثتم (الا عشرا) اى
من الليالى بأيامها فى الدنيا وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة قالوا
ذلك اما لاستقصار المدة الراحة فى جنب ما بدا لهم من المخاوف لان أيام السرور قصار واما لانها
ذهبت عنهم وانقضت والذاهب وان طالت مدته قصير بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله بن المعتز
أطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الآخرة فانه يستقصر اليها عمر الدنيا
ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الآخرة كما قال تعالى كم لبثتم فى الارض عدد سنين
قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسئل العادين واما غلطا ودهشة قال الله تعالى (نحن أعلم) اى
من كل أحد (بما يقولون) فى ذلك اليوم اى ليس كما قالوا (اذ يقول أمثلهم) اى أعدلهم
(طريقة) اى رأيا وعملا فى الدنيا فيما يحسبون (ان) اى ما (لبثتم الا يوما) اى مبدأ الآحاد
لا مبدأ العقود كما قال تعالى فى آية أخرى يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا
يؤفكون فلا يزالون فى افك وصرف عن الحق فى الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه
ويبعث على ما مات عليه * ولما وصف سبحانه وتعالى أمر يوم القيامة حكى سؤال من لا يؤمن
بالحشر فقال تعالى (ويسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الجبال) كيف تكون يوم القيامة قال
ابن عباس نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على
سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلا جرم أمره
الله تعالى بالجواب مقرونا بحرف التعقيب بقوله (فقل) لهم (ينسفها ربى نسفا) لان تأخير
البيان فى مثل هذه المسئلة الاصولية غير جائز وأما المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هناك فى
نحو قوله تعالى يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح
لهم خير بغير حرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القلع الذى يقلعها من أصلها ويجعلها
هباء منثورا قال الخليل ينسفها يذهبها او يطيرها وفى ضمير (فيذرها) قولان احدهما انه
ضمير الارض أضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثانى ضمير الجبال
وذلك على حذف مضاف اى فيذر مراكزها ومقارها ويذر يجوز أن يكون بمعنى يخليها
فيكون (قاعا) حالا وأن يكون بمعنى يترك التصييرية فيتعدى لاثنين فقاعا ثانيهما والقاع

وانقطع اى وكذب من
وضوح آياته وعظم
ايقاعه بطغيانه بغيره (قوله
بمعجزاته اكثر من قرية اهلكناها)
فكأين من قرية
قال ذلك ... وقال بعد
وكأين من قرية أمليت

هو

هو المكان المستوى وقيل الارض التى لابناء فيها ولا نبات وفى قوله تعالى (صفصفا) قولان أحدهما الارض الملساء والثانى المستوية والقاع والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع أقوع وأقواع وقيعان (لاترى فيها) اى الارض او مواضع الجبال (عوجا) اى انخفاضا (ولا أمتا) اى ارتفاعا بوجه من الوجوه وعبر هنا فى العوج بالكسر وهو للمعانى ولم يعبر بالفتح الذى توصف به الاعيان فان الارض أو مواضع الجبال أعيان لا معان نفيا للاعوجاج على أبلغ وجه بمعنى انك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لو جمعت أهل الهندسة فحكموا مقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك (يومئذ) اى يوم اذ نسفت الجبال (يتبعون) اى الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم (الداعى) اى الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لاعوج له) اى الداعى فى شئ من قصدهم اليه لانه ليس فى الارض ما يحوجهم الى التعويج ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء وقيل لاعوج لدعائه وهو من المقلوب اى لاعوج لهم عن دعاء الداعى لايزيغون عنه يمينا ولا شمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات) اى سكنت وذلت وتطامنت لخشوع اهلها (للرحمن) الذى عمت نعمه فيرجى كرمه ويخشى نقمه (فلا) اى فتسبب عن خشوعها أنك لا (تسمع الا همسا) اخفى ما يكون من الاصوات وقيل اخفى شئ من أصوات الاقدام فى نقلها الى المحشر كصوت اخفاف الابل فى مشيها (يومئذ) اى اذ كان ما تقدم (لاتنفع الشفاعة) احدا (الا من أذن له الرحمن) ان يشفع له (ورضى له قولا) ولو الايمان المجرد قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما سلف فى آية الكرسى بقوله (يعلم ما بين أيديهم) أى الخلائق من أمور الآخرة (وما خلفهم) من امور الدنيا وقيل ما بين أيديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الاعمال (ولا يحيطون به علما) أى لا يحيط علمهم بمعلوماته وقيل الضمير الى ما أى بعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه وقيل راجع الى الله تعالى أى ولا يحيطون بالله علما ولما ذكر خشوع الاصوات أتبعه خضوع ذويها فقال تعالى (وعنت الوجوه) اى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع أن المراد الاشخاص لشرف الوجوه ولانها أول ما يظهر فيه الذل (للحى) الذى هو مطلع على الدقائق والجلائل (القيوم) الذى لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت روى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الرازى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم (وقد خاب) اى خسر خسارة ظاهرة (من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله والظلم الشرك ولما شرح الله تعالى أحوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات) اى التى أمر الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله أحد حق قدره ولن يشاد الدين أحد الا غلبه (وهو مؤمن) ليكون بناؤها على الاساس كما فى قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات (فلا يخاف ظلما) اى بزيادة فى سيآته (ولا هضما) اى بنقص من حسناته قاله ابن عباس وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر

لها موافقة لما قبلها اذ ما هنا تقدمه معنى الاهلاك بقوله فاملت الذين كفروا ثم اخذتهم اى اهلكتهم وما دون تقدمه ويستعجلونك بالعذاب وهو يدل على ان

تعالى بالتقوى اشارة الى قبول الاعمال وجعلها سببا لذلك لحال وأما غير المؤمن فلو عمل امثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله تعالى (وكذلك) معطوف على قوله تعالى وكذلك نقص اى ومثل انزال ما ذكر (أنزلناه) اى القرآن (قرآنا) جامعا لجميع المعانى المقصودة ثم وصفه تعالى بامرين أحدهما قوله تعالى (عربيا) اى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر الثانى قوله تعالى (وصرفنا فيه من الوعيد) اى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد بهما يتعلق بتكريره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فتصير التقوى لهم ملكة (او يحدث لهم ذكرا) أى عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم عنها ولهذه النكتة أسند التقوى اليهم والاحداث الى القرآن (فتعالى الله) فى ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم (الملك) الذى لا يعجزه شئ فلا ملك فى الحقيقة غيره (الحق) اى الثابت الملك فلا زوال لكونه ملكا فى زمن ما ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ما هم عليه من الامور المتباينة * ولما شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه وتعالى متعال عن كل ما لا ينبغى موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى فلذلك قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن) أى بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) من الملك النازل به اليك من حضرتنا كما انا لم نعجل بانزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا فاستمع له ملقيا جميع تأملك اليه ولا تساوقه بالقراءة فاذا فرغ فاقرأه فانا نجمعه فى قلبك ولا نكلفك المساوقة بتلاوته (وقل رب) أيها المحسن الى بافاضة العلوم على (زدنى علما) أى سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فان ما أوحى اليك تناله لا محالة روى الترمذى عن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدنى علما ويقينا * ولما قال تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ذكر هذه القصة انجازا للوعد فقال تعالى (ولقد عهدنا) بما لنا من العظمة (الى آدم) أبى البشر أى وصيناه أن لا يأكل من الشجرة وانما عطفها على قوله تعالى وصرفنا فيه من الوعيد للدلالة على أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقهم راسخ بالنسيان (من قبل) أى فى زمن من الازمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم فى هذه السورة ذكر نسيانهم واعراضهم (فنسى) عهدنا وأكل منها (ولم نجد له عزما) أى تصميم رأى وثبات على الامر اذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره قال البيضاوى ولعل ذلك كان فى بدء أمره قبل أن يجرب الامور ويذوق اريها وشريها اه والارى العسل والشرى الحنظل قال البغوى قال أبو أمامة الباهلى لو وزن حلم آدم بحلم ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقال البيضاوى وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو وزنت احلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الاثير والحلم بالكسر الاناة والتثبت فى الامور (فان قيل) ما المراد بالنسيان (اجيب) بانه يجوز أن يراد بالنسيان الذى هو نقيض الذكر وانه لم يعن

العذاب لم يأتهم فى الوقت الاول والامهال فى الثانى
فحسن ذكر الاهلاك فى
(قوله ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فان قلت
فما فائدة ذلك مع ان القلوب

الوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الانسان بل كان يؤاخذ به وانما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى أحد قط الا بنسيان وان يراد الترك وانه ترك ما أوصى به من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقيل نسي عقوبة الله تعالى وظن أنه نهي تنزيه * (تنبيه) * هذا هو المرة الخامسة من قصة آدم في القرآن أولها في البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الكهف ثم ههنا وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس) تقدم الكلام على ذلك مفصلا في سورة البقرة وقوله تعالى (أبى) جملة مستأنفة لانها جواب سؤال مقدر أي ما منعه من السجود فاجيب بانه أبى ومفعول الاباء يجوز أن يكون مرادا وقد صرح به في الآية الاخرى في قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل رأس فاصلة ويجوز أن لا يراد أصلا وان المعنى أنه من أهل الاباء والعصيان من غير نظر الى متعلق الاباء ما هو (فقلنا) بسبب امتناعه بعد أن حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة (يا آدم ان هذا) الشيطان الذي تكبر عليك (عدو لك ولزوجك) حواء بالمد لانه امتنع وسبب تلك العداوة وجوه الاول ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله في حق آدم حسده فصار عدوا له الثاني ان آدم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضيلته بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (فان قيل) لم قال تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما منها هو الله تعالى (أجيب) بانه لما كان هو الذي فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (فان قيل) لم قال تعالى (فتشقى) أي فتتعب وتنصب في الدنيا ولم يقل فتشقيا (أجيب) بوجهين أحدهما أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على كونه رأس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل فتشقيا لانها اذا دخلت معه فوقع المعنى عليهما جميعا وعلى أولادهما جميعا كقوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ويا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فدخلوا في المعنى معه وانما كلم النبي وحده الثاني أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعي على زوجته روي أنه اهبط الى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن قال عني به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم الا شقيا ناصبا أي ولو أراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك * ولما كان الشبع والري والكسوة والكن هي الامور التي يدور عليها كفاف الناس ذكر تعالى حصول هذه الاشياء في الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفي لاضدادها بقوله تعالى (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ) أي تعطش (فيها ولا تضحى) أي لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس في الجنة بل أهلها في ظل ممدود وهذه الاشياء كلها أقسام للشقاء المذكور في قوله تعالى فتشقى (فوسوس) أي فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد في زمان أن

(قلت فائدته
في الصدور
المبالغة في التأكيد كما
في قوله يقولون بأفواههم
أو القلب هنا بمعنى العقل
كما قيل به في قوله ان في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب أي
عقل ففائدة التقييد

وسوس (اليه الشيطان) المحترق المطرود وهو ابليس اى أنهى اليه الوسوسة وأما وسوس له فمعناه لاجله فاذلك عدى تارة باللام فى قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة ماهى بقوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى قال الرازى واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله تعالى هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله تعالى فيه آدم هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك الامر على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس لعنه الله وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه الصلاة والسلام مع كمال عقله وعلمه بان الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بان ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بانه الناصر له والمربى ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى ويدل على ذلك ما ثبت فى الحديث الصحيح روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم عليه السلام أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها بيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل ان يخلقنى قال موسى باربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله على ان أعمله قبل ان يخلقنى باربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء وقال كل شئ بقدر حتى العجز والكيس ثم كان ابليس قال لآدم بلسان الحال أو المقال مشيرا الى الشجرة التى نهى عنها ما بينك وبين الملك الدائم الا أن تأكل منها (فأكلا) أى فتسبب عن قوله وتعقب ان أكل (منها) هو وزوجته متبعين لقوله ناسيين ما عهد اليهما الامر قدره الله فى الازل (فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع سوآتهما كما قال صغت قلوبكما أى فظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه (وطفقا يخصفان) أى أخذا يلزقان (عليهما من ورق الجنة) ليستترا به قال ابن عادل وهو ورق التين (وعصى آدم) بالاكل من الشجرة وان كان انما فعل المنهى نسيانا لان عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة (ربه) المحسن اليه بما لم ينله أحد من بنيه من تصويره له بيده واسجاد ملائكته له ومعاداة من

الاحتراز عن القول الضعيف بان العقل فى الدماغ (قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الرسول انسان أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه والنبى انسان

بادا (فغوى) أى فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وقيل حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لانه انما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده ويعتاده *(تنبيه)* تمسك بعضهم بقوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى فى صدور الكبيرة عنه من وجهين الاول ان العاصى اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه الثانى أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشاد ومثل هذا لا يتناول الا الفاسق المنهمك فى فسقه وأجيب بان المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فانك تقول أمرته فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم بكونه للمندوب وان كان وصف تارك المندوب بانه عاص مجاز وأجاب أبو مسلم الاصبهانى بانه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذا القول فى غوى قال الرازى والاولى عندى فى هذا الباب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد تقدم شرح ذلك فى البقرة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أن الشجرة التى نهى الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة فهو كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين أى يرونها بالاضافة الى علو أحوالهم كالسيآت (ثم اجتباه ربه) أى اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أى قبل توبته وأعاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) اى هداه لرشده حتى رجع الى الندم والاستغفار *ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وان كان قد هيأه بالاجتباء لها قال على طريق الاستئناف (قال) الرب سبحانه وتعالى الذى انتهكت حرمة داره (اهبطا) اى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما (منها) اى الجنة (جميعا) وقيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس فقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) يكون على التفسير الاول بعض الذرية لبعض عدو من ظلم بعضهم لبعض وعلى الثانى آدم وذريته وابليس وذريته وقوله تعالى (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما المزيدة (يأتينكم منى هدى) اى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) الذى أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول (فلا يضل) اى بعد ذلك عن طريق السداد فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيامة سوء الحساب وذلك ان الله تعالى يقول فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى *ولما وعد تعالى من اتبع الهدى اتبعه بوعيد من أعرض فقال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فان له معيشة ضنكا) والضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر فكانه قال له معيشة ذات ضنك واختلف فى ذلك فقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وروى أبو هريرة أن عذاب القبر للكافر قال قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية

أوحى اليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه فهو أعم من الرسول (قوله وانما يدعون من دونه هو الباطل) قاله هنا بتأكيده بهو وقاله فى لقمان بدونه لموافقة كل منهما ما قبله لان ما هنا

لكل حية تسعة رؤس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبي هو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هي أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها وعن عطاء المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لأنه غير موقن بالثواب والعقاب وروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماح وسهولة فيعيش عيشا رفيعا كما قال تعالى فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى اليه ثانيا ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب متفق عليه قال بعض الصوفية لا يعرض أحد عن ذكر ربه الا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الآية وقال تعالى وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا * ثم ذكر حال المعرض في الآخرة بقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمي ولعله جمع بذلك بين هذا وبين قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وقال عكرمة عمي عليه كل شيء الا جهنم وفي لفظ قال لا يبصر الا النار وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ويؤيد الاول قوله تعالى (قال رب لم حشرتني أعمى) في هذا اليوم (وقد كنت بصيرا) اي في الدنيا أو في أول هذا اليوم فكأنه قيل بم أجيب فقيل (قال) له ربه (كذلك) اي مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال (أتتك آياتنا) واضحة نيرة (فنسيتها) فعميت عنها وتركتها غير منظور اليها (وكذلك) اي ومثل تركك اياها (اليوم تنسى) أي تترك في العمى والعذاب (وكذلك) أي ومثل هذا الجزاء الشديد (نجزي من أسرف) في متابعة هواه فتكبر عن متابعة أوامرنا (ولم يؤمن) بل كذب (بآيات ربه) وخالفها (ولعذاب الآخرة أشد) مما نعذبهم به في الدنيا والقبر لعظمه (وأبقى) فانه غير منقطع * ولما بين الله تعالى أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الافعال الواقعة في الدنيا لمن كذب الرسل فقال (أفلم يهد) أي يبين بيانا يقود الى المقصود (لهم) أي لهؤلاء الذين ترسلت اليهم أعظم رسلي وفاعل يهد مضمون قوله (كم أهلكنا) وقال أبو البقاء الفاعل ما دل عليه أهلكنا اي اهلاكنا والجملة مفسرة له وقال الزمخشري فاعل لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين اي تركنا عليه هذا الكلام ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول انتهى وكم خبرية مفعول أهلكنا (قبلهم من القرون) اي بتكذيبهم لرسلنا حال كونهم (يمشون) اي هؤلاء العرب من اهل مكة وغيرهم (في مساكنهم) اي في سفرهم الى الشام ويشاهدون آثار هلاكهم (ان في ذلك) اي الاهلاك العظيم الشأن

تقدمها تاركها ان بعضها
يقدم بعضها الالاء و بعضها
بان و بعضها قولهم قال
تاركها لا فيه شرولها قال
هنا وان الله لهو الغنى
الحميد وقال ثم ان الله هو
الغنى الحميد قوله وما جعل
عليكم في الدين من حرج)

المتوالى فى كل أمة (لآيات) عظيمات بينات (لأولى النهى) اى لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى * ولما هددهم باهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى (ولولا كلمة) اى عظيمة قاضية نافذة (سبقت) اى فى أزل الآزال (من ربك) الذى عودك بالاحسان بتأخير العذاب عنهم الى الآخرة فانه يعامل بالحلم والاناة (لكان) اى العذاب (لزاما) اى لازما أعظم لزوم لهم فى الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود ولكن غداهم لتردمن شئنا منهم ونخرج من أصلاب بعضهم من يؤمن وانما فعلنا ذلك اكراما لك ورحمة لامتك فيكثر اتباعك فيعملوا الخيرات فيكون ذلك زيادة فى شرفك والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فارجو أن أكون أكثرهم تابعا وفى رفع قوله تعالى (وأجل مسمى) وجهان أظهرهما عطفه على كلمة أى ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازما لهم وهذا ما صدر به البيضاوى والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى كان وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد واقتصر الجلال المحلى على هذا وجوزه الزمخشرى والبيضاوى وفى هذا الاجل المسمى قولان أحدهما ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر والثانى ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا كما قال الرازى أقرب قال أهل السنة له تعالى بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة اما قديمة فيلزم قدم الفعل واما حادثة فيلزم افتقارها الى علة أخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بانه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر فقال (فاصبر على ما يقولون) لك من الاستهزاء وغيره وهذا كله كان فى أول الامر ثم نسخ بآية القتال (وسبح) أى صل وقوله تعالى (بحمد ربك) حال أى وأنت حامد لربك على أنه وفقك لذلك وأعانك عليه (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى ساعاته (فسبح) أى صل المغرب والعشاء وقوله تعالى (وأطراف النهار) معطوف على محل من آناء المنصوب أى صل الظهر لان وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثانى قال ابن عباس دخلت الصلوات الخمس فى ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس والنوافل لان لزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين وأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيما فبقى قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل وقال أبو مسلم لا يبعد حمل التسبيح على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات (فان قيل) النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار ولم يقل طرفى النهار (أجيب) بوجهين أظهرهما انه انما جمع لانه يلزم فى كل نهار ويعود والثانى ان أقل الجمع اثنان وقرأ قوله تعالى (لعلك ترضى) ابو بكر والكسائى بضم التاء اى ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرأ الباقون بفتحها اى ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه * ولما كانت النفس ميالة الى الدنيا مرهونة بالحاضر من فانى العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى حريتها

(ان قلت) كيف لا حرج فيه مع ان فى قطع يد بسرقة ربع دينار ورجم محصن بزنا مرة ووجوب صوم شهرين متتابعين بفساد يوم من رمضان بوطء ونحو ذلك حرجا (قلت)

المؤذن بعلوهمتها قال تعالى مؤكدا ابدانا بصعوبة ذلك (ولا تمدن) مؤكداله بالنون الثقيلة (عينيك) اى لاتطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها (الى مامتعنا به) فى هذه الحياة الدانية (أزواجا) اى أصنافا (منهم) اى الكفرة استحسانا له وتمنيا أن يكون لك مثله والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح وقوله تعالى (زهرة الحيوة الدنيا) أى زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا أو به على تضمنه معنى أعطينا فازواجا مفعول أول وزهرة هو الثانى وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة أوجه لا حاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتعهم بقوله تعالى (لنفتنهم فيه) أى لنفعل بهم فعل المختبر فيكون سبب عذابهم فى الدنيا بالعيش الضنك لما مضى وفى الآخرة بالعذاب الاليم فصورته تغر من لم يتأمل معناه حق التأمل فما أنت فيه خير مما هم فيه (ورزق ربك) فى الجنة (خير) مما أوتوه فى الدنيا (وأبقى) أى أدوم أو ما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة أولان أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وأبقى قال الزمخشرى لان الله تعالى لا ينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى رزقا انتهى وهذا جار على مذهبه المخالف لاهل السنة من أن الحرام لا يسمى رزقا وقال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لا تأسف على مافاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال أبو رافع نزلت هذه الآية فى ضيف نزل بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى يبيع أو يستلف الى مدة فقال والله لا أفعل الا برهن فاخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم انى لامين فى السماء وانى لامين فى الارض احمل اليه درعى الحديد فنزل قوله ولا تمدن عينيك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى بن مريم عليه السلام لا تتخذوا الدنيا دارا فتتخذكم لها عبيدا * ولما أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتزكية النفس أمره بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله عز وجل (وأمر أهلك بالصلوة) اى أمر اهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما كان أبوك اسمعيل عليه السلام يدعوهم الى كل خير اذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بامر المعيشة ولا يلتفتوا الى أرباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى رضى الله عنهما كل صباح ويقول الصلاة (واصطبر) اى داوم (عليها لا نسئلك) اى نكلفك (رزقا) لنفسك ولا لغيرك (نحن نرزقك) وغيرك كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ففرغ بالك للامور الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلاطين قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزنى كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله

المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه بل فيه تخفيف فانه يكفر ما قبله من الشرك وان امتد ولا يتوقف الاتيان به على زمان أو مكان معين أو آن من كل ما يقع فيه الانسان من

ثم يتلو هذه الآية (والعاقبة) أي الجميلة المحمودة (للتقوى) أي لأهل التقوى قال ابن عباس
الذين صدقوك واتبعوك واتقوني ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر والعاقبة للمتقين
ولا مؤنة على الرزق وغيره بشيء يوازي الصلاة فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر أي
بالباء الموحدة أي اذا أحزنه فزع الى الصلاة قال ثابت وكان الانبياء عليهم الصلاة والسلام
اذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم
يقول الله تعالى تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لم تفعل ملأت صدرك
شغلا ولم أسد فقرك وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به هموم أحوال
الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك وعن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا
الا ما كتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي
راغمة * ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبها بقوله تعالى (وقالوا لولا يأتينا بآية من
ربه) فكأنه من لوازم قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وهو قولهم لولا أي هلا يأتينا بآية وقال
في موضع آخر لو ما تأتينا بآية كما أرسل الاولون * ثم أجاب الله تعالى عن رسوله صلى الله
عليه وسلم بقوله (أولم تأتهم بينة) أي بيان (ما في الصحف الاولى) من التوراة والانجيل وسائر
الكتب السماوية المشتمل عليه القرآن من أنباء الامم الماضية واهلاكهم بتكذيب الرسل
فما يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص
بالفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولو أنا أهلكناهم) معاملة لهم في
عصيانهم (بعذاب من قبله) أي هذا القرآن المذكور في الآية الماضية ومفارقهم وفي قوله
تعالى ولا تعجل بالقرآن وفي مثنى السورة في ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أو من قبل محمد صلى
الله عليه وسلم (لقالوا) أي يوم القيامة (ربنا) يا من هو متصف بالاحسان الينا (لولا) أي هلا
ولم لا (أرسلت الينا رسولا) يأمرنا بطاعتك (فنتبع) أي فيتسبب عنه أن نتبع (آياتك) التي
تجيئنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب هذا الذل (ونخزى) بالمعاصي التي عملناها على جهل
فلاجل ذلك أرسلناك اليهم واقتضيناك الحجة عليهم * ولما علم بهذا أن ايمانهم كالممتنع وجدالهم
لا ينقطع بل ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عدلوا قالوا تطلموا كان كأنه قيل فما الذي افعل
معهم فقيل (قل) لهم (كل) أي كل مني ومنكم (متربص) أي منتظر ما يؤول اليه أمري
وأمركم (فتربصوا) فانتم كالبهائم ليس لكم تأمل (فستعلمون) أي عما قريب بوعد لا خلف
فيه وهو يوم القيامة (من أصحاب الصراط) أي الطريق (السوي) أي المستقيم (ومن
اهتدى) أي من الضلال بحرص على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره أنحن أم أنتم قال
ابن عادل عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قرأ طه ويس
قبل أن يخلق آدم بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لامة ينزل عليها هذا وطوبى
لالسن تتكلم بهذا وطوبى لاجواف تحمل هذا وعن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا يس وطه انتهى ولم يذكر لذلك سندا وأما ما رواه البيضاوي

المعاصي يجب رده بخروجا في
الشرع بتوبة أو كفارة
أو رخصة او المراد نفي
الحرج الذي كان في زمن
بني اسرائيل

(سورة المؤمنون)

(قوله ثم انكم بعد ذلك

تبعاللزمخشرى من أنه صـلى الله عليه وسـلم قال من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار فحديث موضوع

سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام مكية

قال الرازى باجماع وهى مائة واحدى أو ثنتا عشرة آية وألف ومائة وستون كلمة وأربعة آلاف وثمان وتسعون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل الذى تمت قدرته وعم أمره (الرحمن) الذى ساوى بين خلقه فى رحمة ايجاده (الرحيم) الذى نجى من شاء من عباده فى معاده قال أبو جعفر بن الزبير فى برهانه لما تقدم قوله تعالى ولاتمدن عينيك الى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى قال تعالى (اقترب) أى قرب (للناس حسابهم) أى فى يوم القيامة أى فلاتمدن عينيك الى ذلك فانى جعلته فتنة وأشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب لانه لاأمة بعد هذه ينتظر أمرها وأتى بالافتعال تهويلا لتذهب النفس فى تعيينه كل مذهب (فان قيل) كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من تسعمائة عام (أجيب) بانه مقترب عند الله والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ولان كل آت وان طالت أوقات استقباله وترقبه قريب وانما البعيد هو الذى وجد وانقرض قال الشاعر

فلا زال ماتهواه أقرب من غد ＊ ولازال ماتخشاه أبعد من أمس

ولان مابقى من الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه الموعود ببعثه فى آخر الزمان وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم ختمت النبوة بى كل ذلك لاجل ان الباقى من مدة التكليف أقل من الماضى وعن ابن عباس ان المراد بالناس المشركون وهو من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو مايتلوه من صفات المشركين وهو قوله تعالى (وهم) اى والحال انهم (فى غفلة) اى عن الحساب (معرضون) عن التأهب لهذا اليوم لايتفكرون فى عاقبتهم ولا يتفطنون لما يرجع اليه خاتمة امرهم مع اقتضاء قولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسىء وأيضا ان هذه الآية نزلت فى كفار مكة ولما اخبر تعالى عن غفلتهم واعراضهم دل على ذلك بقوله (ماياتيهم) واغرق فى النفى بقوله (من ذكر) اى وحى ينبههم عن سنة الغفلة والجهل وقوله تعالى (من ربهم) صفة ذكر او صلة ياتيهم (محدث) انزاله اى مايحدث الله تعالى من تنزيل شىء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بان القرآن حادث لهذه الآية وقيل معناه ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة فى وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ماقاله النبى صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى مافى القرآن وأضافه اليه لان الله تعالى قال وماينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى (الا استمعوه) أى قصدوا سماعه وهو أجد الجد وأحق الحق (وهم) أى والحال

لمجنون) فان قلت لم اكده باللام دون قوله بعده ثم انكم يوم القيامة تبعثون مع ان المذكورين ينكرون البعث دون الموت (قلت) لما كان العطف بثم الحتاج اليه

انهم (يلعبون) أى يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء والسخرية لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب (لاهية) أى غافلة معرضة (قلوبهم) عن ذكر الله *(تنبيه)* قوله تعالى وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفتان او متداخلتان * ولما ذكر تعالى ما يظهرونه فى حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفا على استمعوه (وأسروا) اى الناس المحدث عنهم (النجوى) اى بالغوا فى اسرار كلامهم وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو وأسروا للايذان بانهم ظالمون فيما أسروا به او مبتدأ والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم وقيل جاء على لغة من قال أكلونى البراغيث وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى (هل) اى فقالوا فى تناجيهم هذا متعجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته لهم فى البشرية هل (هذا) الذى أتاكم بهذا الذكر (الا بشر مثلكم) اى فى خلقه واخلاقه من الاكل والشرب والحياة والممات فكيف يختص عنكم بالرسالة ما هذا الذى جاءكم به مما لا تقدرون على مثله الا سحر لا حقيقة له ثم تسبب عن هذا الانكار قولهم (أفتأتون السحر وأنتم) اى والحال انكم (تبصرون) باعينكم انه بشر مثلكم فكأنهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه فى ادعاء النبوة والرسالة لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا ملكا واستلزموا منه ان ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فانكروا حضوره (فان قيل) لم أسروا هذا الحديث وبالغوا فى اخفائه (أجيب) بان ذلك كان يشبه التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين فى خطب ان لا يشركوا أعداءهم فى مشورتهم ويجتهدوا فى طى سرهم عنهم ما أمكن واستطيع ومنه قول الناس استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعى فيالله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم فلم يجوزوا ان يكون ذلك عن الرحمن الداعى الى الفوز بالجنان وجزموا أنه من الشيطان الداعى الى الهوان باصطلاء النيران والعجب ايضا أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم ما يخص الله تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك انتهى ولا عجب فانها عقول اضلها باريها ثم كأنه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقال (قل) لهم (ربى) المحسن الى (يعلم القول) سواء كان سرا ام جهرا كائنا (فى السماء والارض) على حد سواء لانه لا مسافة بينه وبين شئ من ذلك (وهو السميع العليم) فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون (فان قيل) هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى وأسروا النجوى (أجيب) بان القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من ان يقول يعلم السر كما ان قوله يعلم السر آكد من ان يقول يعلم سرهم (فان قيل) لم ترك هذا الآكد فى سورة الفرقان فى قوله تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ولم يقل يعلم القول كما هنا (أجيب) بانه ليس بواجب أن يأتى بالآكد فى كل موضع ولكن يجئ بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجئ بالحسن فى موضع وبالاحسن فى غيره ليفتن الكلام افتنانا ويجمع الغاية وما دونها على أن اسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا انهم أسروا النجوى فكأنه

هذا يقتضى الاشتراك فى الحكم اكتفى به عن الحكم بالاولى (قوله لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) فانه هنا بجمع وبالواو وهاله فى الزخرف لكم فيها فاكهة كثيرة

أراد أن يقول ان ربي يعلم ما أسر ووضع القول موضع ذلك للمبالغة وثم قصد وصف ذاته بانه أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقرأ حفص وحمزة والكسائي قال بصيغة الماضي بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر * ثم انه تعالى بين أن المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى (بل قالوا) اى قال بعضهم هذا الذي قاله لكم (أضغاث أحلام) اى اخلاط احلام رآها في النوم وقال بعضهم (بل افتراه) اى اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله تعالى وقال بعضهم (بل هو) اى النبي صلى الله عليه وسلم (شاعر) فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره أو أنهم كلهم أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام ثم الى انه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا المبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد قال الزمخشري ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لاقوالهم في درج الفساد وان قولهم الثاني أفسد من الاول والثالث أفسد من الثاني وكذا الرابع افسد من الثالث * ثم انهم لما قدحوا في اعظم المعجزات طلبوا آية غيره فقالوا (فليأتنا) دليلا على رسالته (بآية كما) اى مثل ما (أرسل الاولون) بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وصحة التشبيه من حيث ان الارسال يتضمن الاتيان بالآية قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) اى قبل مشركي مكة (من قرية) اى من اهل قرية اتتهم الآيات (أهلكناها) باقتراح الآيات لما جاءتهم (أفهم يؤمنون) اى لو جئتهم بها وهم أعتى منهم وفيه دليل على ان عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو أتى به لم يؤمنوا واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم * ولما بين تعالى بطلان ما اقترحوا به في رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشرا قال تعالى عاطفا على آمنت مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (وما أرسلنا قبلك) اى في جميع الزمان الذي تقدم زمانك في جميع طوائف البشر (الا رجالا) اى لم نرسل الملائكة الى الاولين انما ارسلنا رجالا (نوحي اليهم) مثلك ثم انه تعالى امر المشركين أن يسألوا أهل الكتاب بقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) وانما احالهم على هؤلاء لانهم كانوا لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالذكر القرآن اى فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها * ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال بما قد كان بلغهم على الاجمال من أحوال موسى وعيسى وابراهيم واسمعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معبرا باداة الشك محركا لهم على المعالي (ان كنتم) اى بجبلاتكم (لا تعلمون) اى لا أهلية لكم في اقتناص علم بل كنتم اهل تقليد محض وتبع صرف * ولما بين تعالى انه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلا بين انه على سنتهم في جميع الاوصاف التي حكم بها على البشر في العيش والموت فنبه على الاول بقوله تعالى (وما جعلناهم) اى الذين اخترنا بعثتهم الى الناس لامرهم باوامرنا (جسدا) اى ذوي جسد ولحم ودم متصفين بانهم (لا يأكلون الطعام) بل جعلناهم اجسادا يأكلون ويشربون وليس ذلك بمانع من

منها تأكلون بالافراد وحذف الواو موافقة لما قبلها اذ ما هنا تقدمه جنات بالجمع وما بعد الواو معطوف على مقدر تقديره منها تدخرون ومنها تأكلون وما في الزخرف تقدمه جنة

اوساهم

ارسالهم * (فائدة) * قال ابن فارس في المجمل وفي كتاب الخليل ان الجسد لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كأنه قيل ذوي ضرب من الاجساد او على حذف المضاف اي ذوي جسد كما مر أو تأويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال البيضاوي ولذلك اي ولكون الجسد جسما ذا لون لا يطلق على الماء والهواء وهو في الماء مبني على انه لا لون له وانما يتلون بلون ظرفه او مقابله لانه جسم شفاف لكن قال الامام الرازي بل له لون ويرى ومع ذلك لا يحجب عن رؤية ما وراءه * ثم نبه على الثاني بقوله تعالى (وما كانوا خالدين) اي باجسادهم بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم وانما امتازوا عن الناس بما يأتيهم عن الله تعالى ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد فتربصوا كما اشار اليه ختم طه فانه متربص بكم وأنتم عاصون الملك الذي اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له (ثم صدقناهم الوعد) اي الذي وعدناهم باهلاكهم وهذا مثل قوله تعالى واختار موسى قومه في حذف الجار والاصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره والاصل في هذا المثل ان اعرابيا عرض بعيرا للبيع فقال له المشتري ما سنه قال بكر فاتفق انه ند فقال له صاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن به صغار الابل لا البكار فقال المشتري صدقني سن بكره واعرض فصار مثلا * (تنبيه) * اشار تعالى باداة التراخي الى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته (فانجيناهم) اي الرسل (ومن نشاء) وهم المؤمنون أو من في ابقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو واحد من ذريته ولذلك حميت العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) اي المشركين لان المشرك مسرف على نفسه (لقد انزلنا اليكم) يا معشر قريش (كتابا) اي القرآن (فيه ذكركم) اي شرفكم وصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك أو فيه مكارم الاخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الامانة والسخاء وما اشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من امر دينكم ولانه نزل بلغتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا وقيل الذكر بمعنى الوعد والوعيد (افلا تعقلون) فتؤمنوا به وفي ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل (وكم قصمنا) اي اهلكنا (من قرية) اي اهلها بغضب شديد لان القصم قطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وقوله تعالى (كانت ظالمة) اي كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما أقيمت مقامها ثم بين الغنى عنها بقوله تعالى (وانشأنا بعدها) اي بعد اهلاك اهلها (قوما آخرين) مكانهم * ثم بين حالها عند احلال البأس بها بقوله تعالى (فلما أحسوا) اي ادرك اهلها بحواسهم (بأسنا) اي عذابنا (اذا هم منها) اي القرية (يركضون) هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما ادركتهم مقدمة العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك أو مشبهين بهم من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا فناداهم لسان الحال تقريعا وتشنيعا لحالهم (لا تركضوا) او المقال والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين (وارجعوا) الى قريتكم (الى ما اترفتم) اي نعمتم (فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة والترفه * ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال (ومساكنكم) اي التي كنتم تفتخرون بها على

ونلت بالتوحيد في قوله فاكهة الجنة وليس في الجنة الا الاكل فناسب الجمع والواو وهنا والافراد وحذف الواو ثم (قوله وشجرة تخرج من طور سيناء) المراد بها شجرة الزيتون

الضيافة أو سعتم من نعمتها وعلمتم من بنائها أو حشمتم من مشاهدها (لعلكم تسألون) وفي هذا تهكم بهم وتوبيخ أي ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما يجري عليكم وينزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم فيقولوا لكم بم تأمرون وماذا ترسمون أو شيأ من دنياكم على العادة أو تسألون في الايمان كما كنتم تسألون فتأبوا بما عندكم من الانفة والحمية والعظمة أو في المهمات كما تكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فيجيبون سائلهم بما شاؤا * ولما كان كأنه قيل بم أجابوا هذا القائل قيل (قالوا) حين لا نفع اقوالهم عند نزول البأس (يا ويلنا) اشارة الى انه حل بهم لانه ينادي بالقريب توقعا به كما يقول الشخص لمن يضربه يا سيدي كأنه يستغيث به لكي يعفو عنه وذلك غباوة منهم وعمى عن الذي أحله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون الا الى السبب الاقرب ثم عللوا احلاله بهم ناكبين اعترافهم بقولهم (انا كنا) جبلة وطبعا (ظالمين) حيث كذبنا الرسل وعصينا أمر ربنا اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان هذه قرية حضور بفتح الحاء وبالضاد المعجمة وهي وحصول قريتان في بينان من اليمن تنسب اليهما الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين حصوليين وروى حضوريين بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الانبياء وهي بفتح اللام وبمثلثة وهمزة ساكنة أي يا لاهل ثاراتهم أي الطالبة بدمهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك (فما) أي فتسبب عن احلالنا بهم ذلك البأس انه ما (زالت تلك) الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة وهي قولهم يا ويلنا (دعواهم) يرددونها لا دعوى لهم غيرها لان الويل ملازم لهم غير منفك عنهم وترفعهم له غير نافعهم (حتى جعلناهم حصيدا) كالزرع المحصود بالمناجل بأن قتلوا بالسيف * (تنبيه) * حصيدا على وزن فعيل بمعنى مفعول ولذلك لم يجمع لانه يستوي فيه الجمع وغيره (خامدين) أي ميتين كخمود النار اذا طفئت وصارت رمادا (فان قيل) كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل (أجيب) بان حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان معنى قولك جعلته حلوا حامضا جعلته جامعا للطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود أو خامدين صفة لحصيدا أو حال من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر في خلق السموات والارض وما بينهما ليعتبروا فقال تعالى (وما خلقنا السماء) على علوها واحكامها (والارض) على عظمها واتساعها (وما بينهما) مما دبرناه لتمام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع (لاعبين) أي عابثين كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكيرا لذوي الاعتبار وتسببا لما ينتظم به أمر العباد في المعاش والمعاد * ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال عز وجل (لو أردنا) أي بما لنا من العظمة (ان نتخذ لهوا) أي ما يتلهى به ويلعب وقيل هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى (لاتخذناه

من

(فان قلت) لم خصها بطور سيناء مع انها تخرج من غيره ايضا (قلت) أصلها منه ثم نقلت الى غيره (قوله فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا) قال ذلك هنا بتقديم الصفة

من لدنا) اى من عندنا مما يليق ان ينسب لحضرتنا من الحور العين والملائكة بما لنا من تمام القدرة وكمال العظمة (ان كنا فاعلين) ذلك لكنا لم نفعله لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله تعالى (بل نقذف) اى نرمى (بالحق) اى الايمان (على الباطل) اى الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب بل شأننا ان نرمى بالحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من عداد اللهو (فيدمغه) اى يذهبه واستعار لدحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويرا لابطاله به واهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر ان أصل استعمالهما فى الاجسام ثم استعيرا القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسى والمستعار له عقلى (فاذا هو) فى الحال (زاهق) أى ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح المجاز من اطلاق القذف على دحض الباطل ثم عطف على ما أفادته اذا قوله تعالى (ولكم) أى واذا لكم أيها المبطلون (الويل) أى العذاب الشديد (مما تصفون) الله تعالى به مما لا يليق به من سواء أنفسكم كالزوجة والولد * (تنبيه) * ما اما مصدرية او موصولة أو موصوفة * ولما حكى الله تعالى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها بان أغراضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين بقوله تعالى (وله من فى السموات) أى الاجرام العالية وهى ما تحت العرش وجمع السماء لاقتضاء تفخيم الملك ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الارض وحدها فقال (والارض) أى له ذلك خلقا وملكا انه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات وعبر بمن تغليبا للعقلاء وقوله تعالى (ومن عنده) أى وهم الملائكة باجماع الامة ولان الله تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر مبتدأ خبره (لا يستكبرون عن عبادته) بنوع كبر طلبا ولا ايجادا وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلا لهم منزلة المقربين عند الملك * (تنبيه) * هذه العندية لشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم وعلو رتبتهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (و) مع ذلك أيضا (لا يستحسرون) أى لا يعيون والاتيان بالاستحسار الذى هو أبلغ من الحسور تنبيها على أن عبادتهم من ثقلها ودوامها حقيقة بان يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يطلبون أن ينقطعوا عنها فانتج ذلك قوله تعالى (يسبحون) أى ينزهون المستحق للتنزيه بانواع التنزيه من الاقوال والافعال (الليل والنهار) اى جميع آناتهم دائما (لا يفترون) اى عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالتنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل * ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بان يبادروا الى التوحيد فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الاعراض عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعجيب فقال تعالى (أم اتخذوا) اى بل اتخذوا فام بمعنى بل للانتقال والهمزة لانكار اتخاذهم (آلهة من الارض) ومعنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ومن ذلك حديث الامة التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربك فاشارت الى السماء فقال انها مؤمنة لانه فهم منها ان مرادها نفى الآلهة الارضية التى هى الاصنام لا اثبات ان السماء مكان الله تعالى ويجوز ان يراد آلهة من جنس الارض لانها اما ان تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من

على من قومه وقاله بعد بالعكس لانه اقتصر فى صلة الموصول على الفعل والفاعل وفيما بعد طالت فيه الصلة بزيادة العطف على الصلة مرة بعد أخرى فقدم عليها من قومه لان

بعض جواهر الارض (هم ينشرون) اى يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك وهم وان لم يصرحوا بذلك لزم من ادعائهم لها آلهة أنهم يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الانتشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى أقام البرهان القطعي على نفي الغير ببرهان التمانع وهو أشد برهان لاهل الكلام فقال (لو كان فيهما) اى السموات والارض اى في تدبيرهما (آلهة الا الله) اى غير الله تعالى (لفسدتا) أى لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الاشدق كان والله أعز على من دم ناظرى ولكن لا يجتمع فحلان في شول وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود الهين مفض الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر أراد تسكينه فاما أن يقع المرادات وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وذلك أيضا محال لان الذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما في العالم العلوى والسفلى من المخلوقات دليل على وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة في القرآن * ولما أفاد هذا الدليل انه لا يجوز أن يكون المدبر للسموات والارض الا واحدا وان ذلك الواحد لا يكون الا الله تعالى قال (فسبحان الله) اى فتعجب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال (رب) اى خالق (العرش) اى الكرسي المحيط بجميع الاجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير (عما يصفون) اى الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم بين تعالى ذلك بقوله عز وجل (لا يسئل) اى من سائل ما (عما يفعل) لعظمته وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة ان لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا مع جواز الخطا والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الارباب خالقهم ورازقهم أولى بان لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر في العقول من ان ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه تعالى الخطا (وهم يسئلون) لانهم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بان يقال لهم لم فعلتم في كل شئ فعلوه * ولما أقام الدليل ووضح السبيل وضعضع كل قال وقيل واتضحت الاباطيل كرر تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة) كرره استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم والظهار الجهلهم * ولما كان جوابهم اتخذناه ولا نرجع أمر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال (قل هاتوا برهانكم) على ما ادعيتموه من عقل أو نقل كما أتيت أنا ببرهان العقل المؤيد بالنقل * ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل أتبعه قوله مشيرا الى ما بعث الله تعالى به الرسل من الكتب (هذا ذكر) أى موعظة وشرف (من معى) ممن آمن بي وهو القرآن

تأخيره عن المفعول ملبس وتوسطه بينه وبين ما قبله ركيك (قوله ولو شاء الله لانزل ملائكة) قاله هنا بلفظ الله وفي فصلت بلفظ ربنا موافقة لما قبلهما اذ ما هنا تقدمه لفظ الله

قوله اى الكرسي تبع فيه الجلال المحلي وكتب عليه الجمل قوله الكرسي لا حاجة لهذا بل الاولى ابقاء العرش على ظاهره لان التحقيق انه جسم مغاير للكرسي اه

الذي عجزتم عن معارضته (وذكر) أي وهذا ذكر (من قبلي) من الامم الماضية وهو التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها الا الامر بالتوحيد والنهي عن الاشراك * ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق فقال تعالى (بل أكثرهم) أي هؤلاء المدعوين (لا يعلمون الحق) فلا يميزون بينه وبين الباطل بل أكثرهم جهلة والجهل أصل الشر والفساد (فهم) أي فتسبب عن جهلهم ما اقتضته السورة من أنهم (معرضون) عن التوحيد واتباع الرسل * ولما كان الارسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كان الرسالة لا يقوم بها كل واحد فكذلك الارسال لا يصلح له كل زمن أثبت الجار في قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك) وأغرق في النفي فقال (من رسول) في جميع الاولين (الا يوحى اليه) من عندنا (انه لا اله الا أنا فاعبدون) وهذا مقرر لما سبقه من آي التوحيد وقال تعالى الا أنا ولم يقل غيري لئلا يجعلوا ذلك وسيلة الى ما ادعوه من تعدد الآلهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء * ولما بين سبحانه تعالى بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند عقب ذلك براءته عن اتخاذ الولد بقوله (وقالوا اتخذ) أي تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد (الرحمن) أي الذي كل موجود من فيض نعمه (ولدا) نزل في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وقيل نزل ذلك في اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزه عن أن يكون له ولد فان ذلك يقتضي المجانسة بينه وبين الولد ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقي (بل) أي الذين جعلوهم له ولدا وهم الملائكة (عباد) من عباده أنعم عليهم بالايجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد فان العبودية تنافي الولدية (مكرمون) بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الاكرام بقوله تعالى (لا يسبقونه) أي لا يسبقون اذنه (بالقول) أي لا يقولون شيأ حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين (وهم بأمره) اذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لانهم في غاية المراقبة له تعالى فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك بعلمه بما هذا الخبر به مندرج فيه بقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أي ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدموا وأخروا ثم صرح تعالى بلازم الجملة الاولى فقال (ولا يشفعون) أي لا في الدنيا ولا في الآخرة (الا لمن ارتضى) فلا تطمعوا في شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى قال ابن عباس والضحاك الا لمن ارتضى أي لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك قول المعتزلة ان الشفاعة في الآخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة الثانية فقال (وهم من خشيته) أي لا من غيرها (مشفقون) أي خائفون وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف مع اعتناء فان عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وان عدي بعلى فبالعكس * ولما نفى تعالى الشريك مطلقا ثم مقيدا بالولدية أتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى (ومن يقل منهم) أي من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف

وما في فصلت :
دون ربنا
تقدمه لفظ الرب في رب
العالمين سابقا على لفظ الله
فناسب ذكر الله هنا وذكر
الرب ثم (قوله فبعدا للقوم
الظالمين) فاله هنا بالتعريف
وقال بعد فبعدا للقوم

كرامتهم وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم (انى اله من دونه) أى الله أى غيره والذى قال ذلك كما قال الجلال المحلى هو ابليس دعا الى عبادة نفسه وأمر بطاعتها (فذلك) أى اللعين الذى لا يصلح للتقريب اصلا (نجزيه جهنم) لظلمه (كذلك) اى مثل هذا الجزاء الفظيع جدا (نجزى الظالمين) اى المشركين * ثم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع فذكر منها ستة أنواع النوع الاول قوله تعالى (أولم ير) اى يعلم (الذين كفروا) علما هو كالمشاهدة (ان السموات والارض كانتا) ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات وجماعة الارض (رتقا) قال ابن عباس والضحاك كانتا شيأ واحدا ملتزقتين زبدة واحدة (ففتقناهما) اى فصلنا بينهما بالهواء والرتق فى اللغة السد والفتق الشق وقال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها وقال مجاهد والسدى كانت السموات رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال عكرمة وعطية كانت السموات رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق او السموات بأسرها على ان لها مدخلا فى الامطار وانما قال تعالى رتقا على التوحيد وهو نعت للسموات والارض لانه مصدر والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم بالنظر او باستفسار من العلماء ومطالعة الكتب وقرأ ابن كثير ألم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة واللام النوع الثانى من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا) اى خلقنا بما فضلته عظمتنا (من الماء) الماء هو الدافق وغيره (كل شئ حى) مجاز فى النبات وحقيقة فى الحيوان (فان قيل) قد خلق الله تعالى بعض ما هو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة (أجيب) بان هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر اى ان اكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء وقيل المراد بالماء ما نزل من السماء او نبع من الارض (أفلا يؤمنون) مع ظهور هذه الآيات الواضحات بتوحيدى النوع الثالث من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت كراهة (ان تميد) اى تتحرك (بهم) قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فارساها الله واثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فيها) اى فى الرواسى (فجاجا) اى مسالك واسعة سهلة ثم ابدل منها (سبلا) اى مذللة السلوك ولولا ذلك لتعسر أو تعذر الوصول الى بعض البلاد (لعلهم يهتدون) الى منافعهم من ديارهم وغيرها والى ما فيها من دلائل الوحدانية النوع الخامس من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا السماء) وافردها مع ارادة الجنس لان أكثر الناس لا يشاهدون منها الا السماء الدنيا ولان اللفظ للشئ الواحد أتقن (سقفا) اى للارض كالسقف للبيت (محفوظا) اى عن السقوط بالقدرة وعن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بالمشيئة وعن الشياطين بالشهب (وهم) اى أكثر الناس (عن آياتها) اى من الكواكب الكبار والصغار والرياح والامطار وغير ذلك من الدلائل التى تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية وغير ذلك من أوصاف الكمال من الجلال والجمال (معرضون) لا يتفكرون فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك فيعلمون ان خالقها

لا يؤمنون بالتنكير لان
الاول لقوم صالح بقرينة
قوله فاخذتهم الصيحة
وعرفهم تعريف عهد
وذكر الثانى خلوه عن
قرينة تقتضى تعريفه
وموافقة لتنكير ما قبله

لاشريك له النوع السادس من الدلائل قوله تعالى (وهو) أى لا غيره (الذى خلق الليل والنهار) ثم اتبعهما أعظم آيتهما بقوله تعالى (والشمس) التى هى أعظم آية النهار (والقمر) الذى هو أعظم آية الليل (كل) اى من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم (فى فلك) اى مستدير كطاحونة فى السماء (يسبحون) اى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وللتشبيه به اتى بضمير جمع من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا اى كل واحد منهم او كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ولان الغرض الدلالة على الجنس * ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) اى البقاء فى الدنيا (أفان) اى أيتمنون موتك فان (مت فهم الخالدون) فيه الاولى لا يسوا بخالدين فالجملة الاخيرة هى محل الاستفهام الانكارى وفى معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابى

وقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بكسر الميم والباقون بضمها ثم بين تعالى أن احدا لا يبقى فى هذه الدنيا بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) اى ذائقة مرارة الموت اى مرارة مفارقة روحها جسدها فلا يفرح احد ولا يحزن لموت احد بل يشتغل بما يهمه واليه الاشارة بقوله تعالى (ونبلوكم) اى نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر فى عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا فى عالم الغيب بان نخالطكم (بالشر) وهو المضار الدنيوية من الفقر والالم وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين (والخير) وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكن من المرادات وقوله تعالى (فتنة) مفعول له اى لننظر أتصبرون وتشكرون ام لا كما يفتن الذهب اذا اريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (والينا) بعد الموت لا الى غيرنا (ترجعون) فنجازيكم بما فعلتم ثم عطف تعالى على قوله واسروا النجوى قوله تعالى (واذا رآك) اى وانت أشرف الخلق (الذين كفروا ان) أى ما (يتخذونك) اى حال الرؤية (الا هزوا) اى مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا (أهذا الذى يذكر آلهتكم) اى بسوء والذكر يكون بالخير والشر فاذا دلت القرينة على احدهما اطلق عليه وذكر العدو لا يكون الا بسوء (وهم) اى والحال انهم (بذكر الرحمن) اى اذ ذكر لهم الرحمن (هم كافرون) وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا مسيلمة وهم الثانية تأكيد ونزل فى استعجالهم العذاب (خلق الانسان من عجل) كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته والعرب تقول للذى يكثر منه الشئ خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة فى لزومه له ولذلك قيل انه على القلب اى خلق العجل من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال الوعد وقال سعيد بن جبير والسدى لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من عجل والمراد بالانسان آدم وأورث أولاده العجلة وقال قوم معناه خلق الانسان يعنى آدم

وهو قرونا آخرين (قوله واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم) وما فى سبأ بلفظ بصيرا مناسبا لما قبلهما انما هما تقدمهما ابتداء الكتاب وجعل مريم وابنها آية والعلم بهما أنسب من

عليه السلام من تعجيل في خلق الله تعالى اياه لان خلقه كان بعد خلق كل شئ في آخر النهار يوم الجمعة فاسرع في خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد فلما احيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها وقال قوم من عجل أي من طين قال الشاعر

والنبع في الصخرة الصماء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهددا للمكذبين (سأريكم آياتي) اى مواعيدي بالعذاب (فلا تستعجلون) اى تطلبون أن أوجد العجلة بالعذاب أو غيره فاني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم لانها ارادة الشئ قبل أوانه (فان قيل) لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا اليس هذا من تكليف ما لا يطاق (اجيب) بان هذا كما ركب فيه الشهوة وامره ان يغلبها لانه اعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقد أراد بعض آياته وهو القتل يوم بدر (ويقولون) في استهزائهم (متى هذا الوعد) اى باتيان الآيات من الساعة ومقدماتها او غيرها (ان كنتم) فيما توعدون به (صادقين) اى عريقين في هذا الوصف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى (لو يعلم الذين كفروا) وذكر المفعول به بقوله تعالى (حين) اى وقت (لا يكفون) اى لا يدفعون (عن وجوههم) التي هي أشرف اعضائهم (النار) استسلاما وعجزا (ولا عن ظهورهم) التي هي اشد اجسامهم السياط (ولا هم ينصرون) اى لا يمنعون من العذاب في القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا ما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) اى القيامة (بغتة) اى فجأة (فتبهتهم) اى تحيرهم يقال فلان مبهوت اى متحير (فلا يستطيعون ردها) اى لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت ليأسهم منه (ولا هم ينظرون) اى يمهلون لتوبة أو معذرة * ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك أتبعه ما يدل على ان الرسل في ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا على واذا رآك (ولقد استهزئ برسل من قبلك) اى كثيرين فلك بهم اسوة وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة بدل الهمزة ياء ساكنة (فحاق) اى نزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك * ولما أعلم الله تعالى أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به أتبعه بانهم في الدنيا أيضا لولا ان الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف المرسلين للمستهزئين (من يكلؤكم) اى يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) اى من عذابه ان نزل بكم اى لا احد يفعل ذلك (بل هم عن ذكر ربهم) اى القرآن (معرضون) لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلا ان يخافوا بأسه (ام) فيها معنى الهمزة للانكار اى أ (لهم آلهة) موصوفة بانها تمنعهم مما يسوءهم (من دوننا) ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال تعالى (لا يستطيعون) اى الآلهة (نصر أنفسهم) فكيف ينصرون عابديهم (ولا هم) اى الكفار (منا) اى من عذابنا (يصحبون) اى يجارون يقال صحبك الله اى

بصرهما وما هنالك تقدمه قوله وألنا له الحديد والبصر فالانة الحديد انسب من العلم بها (قوله بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) نزل في كفار مكة والمراد بالحق التوحيد (ان قلت)

حفظك وأجارك (بل متعنا هؤلاء) اى الكفار على حقارتهم (وآباءهم) من قبلهم بالنعم استدراجا (حتى طال عليهم العمر) اى امتدت بهم ايام الدنيا بالروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وأمل كاذب وغلط ورش اللام بخلاف عنه (أفلا يرون) اى يعلمون علما هو فى وضوحه مثل الرؤية بالبصر (أنا نأتى الارض) اى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على اهلها بقتل بعض ورد بعض عن دينه الى الاسلام فهم فى نقص وأولياؤنا فى زيادة (أفهم الغالبون) اى مع مشاهدتهم لذلك ام أولياؤنا ولما ذكر سبحانه وتعالى فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم اتبعه بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المشركين (انما أنذركم) اى أخوفكم (بالوحى) اى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا انه من قبل نفسى (ولا يسمع الصم الدعاء) اى من يدعوهم (اذا ما ينذرون) اى يخوفون فهم لتركهم العمل بما سمعوه كالصم (فان قيل) الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل اذا ما ينذرون (أجيب) بانه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا أنذروا اى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام عن آيات الانذار وقرأ ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب للنبى والباقون بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفى الدعاء اذا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين وهذا فى حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى فالجميع يبتدؤن الثانية بالتحقيق ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (ولئن مستهم) اى أصابتهم (نفحة) اى دفعة خفيفة وفى ذلك مبالغات ذكر المس وما فى النفحة من معنى القلة فان أصل النفح هبوب رائحة الشئ والتاء الدالة على المرة (من عذاب ربك) المحسن اليك بنصرك عليهم من الذى ينذرون به (ليقولن) وقد ذهب عنهم أمرهم (يا ويلنا) الذى لا نرى بحضرتنا الا تزعيره (انا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعد ما أقروا بالظلم ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل فى حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على قوله تعالى بل تأتيهم بغتة (ونضع الموازين القسط) اى ذوات العدل (ليوم القيامة) اى فيه وانما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم ويجوز أن يرجع الى الموزونات وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال بالعدل والصحيح الذى عليه أئمة السلف ان الله تعالى يضع ميزانا حقيقة توزن به أعمال العباد وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشى عليه ثم أفاق فقال الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات قال يا داود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة (فان قيل) كيف توزن الاعمال مع أنها أعراض (أجيب) بان فيه طريقين احدهما أن توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات فى كفة وصحائف السيآت فى كفة والثانى أن توضع فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيآت جواهر سود مظلمة (فان قيل) هذه الآية يناقضها قوله تعالى فى الكفار فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا

كيف قال ذلك مع انهم كانوا كارهين للتوحيد (قلت) كان فيهم من ترك الايمان به انفة وتكبرا من توبيخ قومهم لئلا يقولوا ترك دين ابائه لا كراهة للحق كما يحكى عن ابى طالب وغيره

(أجيب) بأن المراد منها بالاتكرمهم ولا تعظمهم (فلا تظلم نفس شيأ) اى من نقص حسنة أو زيادة سيئة (وان كان) اى العمل (مثقال) اى وزن (حبة من خردل) أو أصغر منه وانما مثل به لانه غاية عندنا في القلة وقرأ نافع برفع اللام على ان كان تامة والباقون بالنصب وكذا في لقمان (أتينا بها) اى بوزنها ولما كان حساب الخلائق كلهم في كل ما صدر منهم أمرا باهر العقل حقره عند عظمته فقال (وكفى بنا) اى بما لنا من العظمة (حاسبين) اى محصين في كل شئ فلا يكون في الحساب أحد مثلنا ففيه توعد من جهة ان معناه انه لا يروج عليه شئ من خداع ولا يقبل غلطا ولا يضل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس وشوب منقص ووعد من جهة انه مطلع على حسن قصد وان دق وخفي * ولما تكلم سبحانه وتعالى في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكرها عشرا القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون) اى أخاه الذى سأل ربه أن يشد أزره به (الفرقان) اى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام (وضياء) بها لاظلام معه اى ليستضاء بها في ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها ألف (وذكرا) اى عظة (للمتقين) أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ومرادا بالضياء على هذين التوراة ثم بين المتقين بوصفهم بقوله تعالى (الذين يخشون) اى يخافون خوفا عظيما (ربهم) اى المحسن اليهم بعد الايجاد بالتربية وأنواع الاحسان (بالغيب) عن الناس اى في الخلاء عنهم أو بالغيب قبل ان يكشف لهم الحجاب في الجنة (وهم من الساعة) التى توضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير (مشفقون) اى خائفون لانهم لقيامها محققون ولنصب الموازين فيها عالمون * ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذى هو أشرف منه بقوله تعالى (وهذا) أى القرآن وأشار اليه بأداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم (ذكر) أى موعظة (مبارك) أى كثير خيره (أنزلناه) على أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأنتم له منكرون) أى جاحدون استفهام توبيخ * القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة (ابراهيم رشده) أى صلاحه وهداه (من قبل) أى من قبل موسى وهرون ومحمد صلى الله عليه وسلم عليهم وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال انى وجهت وجهى (وكنا به) ظاهرا وباطنا (عالمين) بانه أهل لما آتيناه لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والخصال يدوم على الرشد ويترقى فيه الى أعلى درجاته لما طبعناه عليه وفي ذلك اشارة الى أنه فعله تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات وتعلق (اذ قال) أى ابراهيم (لابيه وقومه) بالمبين اشارة الى أن قوله لما كان باذن منا ورضا لنا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم ولو لم يكن برضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر

(قوله لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) اى البعث قاله هنا بتأخير هذا عما قبله وقاله في النمل بالعكس جريا على القياس هنا من تقديم المرفوع على المنصوب وعكس ثم بيانا للجواز تقديم

يقول القول فى قوله منكرا عليهم محقرا لاصنامهم (ما هذه التماثيل) أى الصور التى صنعتموها مماثلين بها ما فيه روح الله مماثلين لها ما لا يكون الا لمن لا مثل له وهى الاصنام (التى انتم لها) أى لاجلها وحدها مع كثرة ما يشابهها او ما هو أفضل منها (عاكفون) أى مقيمون على عبادتها (فان قيل) هلا قال عليها عاكفون كقوله تعالى يعكفون على أصنام لهم (أجيب) بان اللام للاختصاص لا للتعدية ولو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على ثم انه تعالى ذكر جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بانهم (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما اقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم الى ان قلدوا اباءهم فى عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون انهم على شئ وجادون فى نصرة مذهبهم ويجادلون أهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة ان عبدة الاصنام منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم فى الجملة انه على حق ولذا (قال) ابراهيم عليه السلام (لقد كنتم) وأكده بقوله (أنتم) لاجل صحة العطف لان الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه اسكن أنت وزوجك الجنة (وآباؤكم) اى من قبلكم (فى ضلال مبين) فبين ان المقلدين والمقلدين جميعا منخرطون فى سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين الى غير دليل بل الى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم ان يكون ما هم عليه ضلالا بقوا متعجبين من تضليله اياهم فلذا (قالوا) ظنا منهم انه لم يقل لهم ذلك على ظاهره (أجئتنا) فى هذا الكلام (بالحق) الذى يطابقه الواقع (أم أنت من اللاعبين) اى تقوله على وجه المزاح والملاعبة لا على وجه الجد (قال) عليه السلام بانيا على ما قدره ليس كذلك بل هو جد وهذه التماثيل ليست أربابا (بل ربكم) أى الذى يستحق منكم اختصاصه بالعبادة (رب السموات والارض) أى مدبرهن القائم بمصالحهن (الذى فطرهن) أى خلقهن على غير مثال سبق وانتم وتماثيلكم من جملة مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم مجردة عن الهوى وقيل الضمير فى فطرهن للتماثيل قال الزمخشرى وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم واثبت للاحتجاج عليهم (وأنا على ذلكم) أى الامر البين من انه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره (من الشاهدين) أى الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يدعونه به يشهدوا الا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما تعلمتم انتم حين اضطركم السؤال فى الضلال * ولما اقام البرهان على اثبات الاله الحق أتبعه البرهان على ابطال الباطل بقوله (وتالله) وهو قسم والاصل فى القسم الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها بدلا زيادة على التأكيد التعجب (لاكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها والتأكيد وما فى التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لان ذلك كان مرأمعا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ولعمرى ان مثله صعب متعذر فى كل زمان خصوصا فى زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن * اذا الله سنى عقد شئ تيسرا * ولما كان عزمه على ايقاع الكيد فى جميع الزمان الذى يقع فيه توليهم فى اى جزء تيسر له منه اسقط

المنصوب على الرفوع وخص ما هنا بتأخير هذا جريا على الاصل بلا مقتض بخلافه وما هنالك بتقديمه همنا ... منكرى البعث واهذا قالوا بعد ان هذا الا أساطير ...

الجار فقال (بعد ان تولوا مدبرين) اى بعد ان تدبروا منطلقين الى عيدكم قال مجاهد وقتادة انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد فافشاه عليه وقال انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال ابو ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا اعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم أشتكى برجلى فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه أصغر منه والاصنام بعضها الى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الاصنام الآلهة عليها أكلناه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين ايديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفاس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الاكبر علق الفاس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا) أى فتاتا وقرأ الكسائى بكسر الجيم والباقون بضمها (الا كبيرا لهم) فانه لم يكسره ووضع الفاس فى عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان (لعلهم) اى هؤلاء الضلال (اليه) اى ابراهيم (يرجعون) عند لزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال (قالوا من فعل هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا انه لمن الظالمين) حيث وضع الاهانة فى غير موضعها فان الآلهة حقها الاكرام لا الاهانة والانتقام (قالوا) اى الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لاكيدن أصنامكم (سمعنا فتى) اى شابا من الشباب (يذكرهم) اى يعيبهم ويسبهم (يقال له ابراهيم) اى هو الذى نظن انه صنع هذا فلما بلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به) الى بيت الاصنام (على أعين الناس) اى جهرة والناس ينظرون اليه نظر الاستقصاء حتى كأنه ماش على أبصارهم متمكن منها تمكن الراكب على المركوب (لعلهم يشهدون) عليه بانه الذى فعل بالآلهة هذا الفعل كرهوا ان يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) منكرين عليه (أأنت فعلت هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا يا ابرهيم) * (تنبيه) * هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقراء الجميع على تحقيق الاولى وأما الثانية فسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما الفا قالون وأبو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الادخال بينهما ثم (قال) ابراهيم منكبا لهم وملزما بالحجة (بل فعله كبيرهم) غيرة أن يعبد معه من هو دونه وتقييده بقوله (هذا) اشارة الى الذى تركه من غير كسر * ولما أخبرهم ولم يكن احد رآه حتى يشهد على فعله وكانوا قد أحلوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال

(قوله سمعوا قول تالله) قال هنا بلفظ تالله وبعد بلفظ الله مرتين لانه فى الاول وقع فى جواب مجرور باللام فى قوله قولهن الارض فطابقه مجرورا باللام بخلاف ذلك فى الآخرين فانهما

(فاسئلوهم) أى عن الفاعل ليخبروكم به وقوله (ان كانوا ينطقون) أى على زعمكم أنهم آلهة يضرون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط أى فان قدروا على النطق أمكنت عنهم القدرة والا فلا وأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته أى انه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات وقيل فى قوله انى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب أى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين وقوله بل فعله كبيرهم هذا روى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه بل فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا ابتدأ وخبر قال البغوى وهذا تأويلات لنفى الكذب والاولى هو الاول للحديث فيه ويجوز أن يكون الله تعالى قد أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا وقال الرازى الحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب أى تسمية المعاريض كذبا لما أشبهت صورتها صورته وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمزة وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدئ قوله كبيرهم هذا * ولما ضطرهم الدليل أن يحققوا أنهم على محض الباطل (فرجعوا الى أنفسهم) بالتفكر (فقالوا) أى بعضهم لبعض (انكم أنتم الظالمون) لكونكم وضعتم العبادة فى غير موضعها لا ابراهيم فانه أصاب باهانتها (ثم نكسوا على رؤسهم) أى انقلبوا غير مستحيين مما يلزمهم من الاقرار بالسفه الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه عودهم الى الباطل بصورة جعل أسفل الشئ مستعليا على أعلاه ثم انهم قالوا فى مجادلتهم عن شركائهم والله (لقد علمت) يا ابراهيم (ما هؤلاء) لا تحبهم ولا تبرحهم (ينطقون) أى فكيف تأمرنا بسؤالهم * ولما تسبب عن قولهم هذا اقرارهم بأنهم لا قدرة فيهم تتجه لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم (قال) منكرا عليهم وموبخا لهم (أفتعبدون من دون الله) أى بدله (ما لا ينفعكم شيئا) من رزق وغيره لترجوه (ولا يضركم) شيئا ان لم تعبدوه لتخافوه (أف) أى تبا وقبحا (لكم ولما تعبدون من دون الله) أى غيره قرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتحها من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين * ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح انه لا يقربه عاقل أنكر عليهم ووبخهم بقوله (أفلا تعقلون) قبح صنيعكم وأنتم شيوخ قد مرت بكم الدهور وحنكتكم التجارب * ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل (قالوا) عادلين الى العناد واستعمال القوة الحسية (حرقوه) بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا أعظم مما فعل بآلهتكم (وانصروا آلهتكم) التى جعلها جذاذا (ان كنتم فاعلين) نصرتها قال ابن عمر ان الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هينون خسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وروى ان نمروذ وقومه حين هموا باحراقه

انما وقعا فى جواب عن الام ٣ (قوله ألم تكن آياتى تتلى عليكم) ذكره بعد قوله قد كانت آياتى تتلى عليكم لان ذلك فى الدنيا عند نزول العذاب وهو الحرب عند بعضهم ويوم

٣ قوله فى جواب عن الام هكذا بالاصل وهو غير مستقيم فلعله فى جواب خال عن الام فليتأمل اه مصحح

حبسوه في بيت ثم بنوا عليه بنيانا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له أصلاب الحطب من أصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشتري بغزلها الحطب احتسابا في دينها وكان الرجل يوصي بشراء الحطب والقائه فيه فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها وأوقدوا عليه سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى في النار وليس في أرضك من يعبدك غيره فأذن لنا في نصرته فقال عز وجل انه خليلي وليس لي خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيري فان استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وان لم يدع أحدا غيري فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن المياه فقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم حسبي الله ونعم الوكيل وروي عن كعب الاحبار ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال اما اليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبي من سؤالي علمه بحالي وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل كل شيء يطفئ النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ في النار وعن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ وقال كان ينفخ على ابراهيم * ولما أراد الله تعالى لذي له القوة جميعا سلامته منها قال تعالى (قلنا يا نار كوني) بارادتنا التي لا يتخلف عنها مراد (بردا) قال ابن عباس لو لم يقل (وسلاما) لمات ابراهيم من بردها وفي الآثار انه لم يبق يومئذ نار في الارض الا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل تعالى (على ابراهيم) لبقيت ذات برد أبدا والمعنى كوني ذات برد وسلام على ابراهيم فبولغ في ذلك حتى كأن ذاتها برد وسلام والمراد ابردي فيسلم منك ابراهيم أو ابردي بردا غير ضار قال السدي فأخذت الملائكة بضبعي ابراهيم فأقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم مني في الايام التي كنت في النار وقال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبابي ثم نظر نمروذ وأشرف على النار من صرح له فرآه جالسا في روضة

بدوعند بعضهم وهذا في الآخرة وهو في الجحيم بدليل قوله ربنا أخرجنا منها

(سورة النور)

(قوله الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم بالهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك و بين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان قمت فيها أن تضرك قال لا قال قم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعدا الى جنبك قال ذاك ملك الظل أرسله الى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة آلاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه الى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن أذبحها له فذبحها له نمروذ ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان ابراهيم اذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختار وا المعاقبة بالنار لانها أهول ما يعاقب به وافظعه ولذلك جاء فى الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شئ قدير ودفع عن ابراهيم حرها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم (وأرادوا به كيدا) اى مكرا فى اضراره بالنار و بعد خروجه منها (فجعلناهم) اى بما لنا من الجلال (الاخسرين) اى أخسر من كل خاسر عاد سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة درجته واستحقاقهم أشد العذاب وقد ارسل الله تعالى على نمروذ وعلى قومه البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فاهلكته *(فائدة)* وقع مثل هذه القصة لبعض اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابو مسلم الخولانى طلبه الاسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له اتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال اتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فامر بنار فالقى فيها ثم وجده قائما يصلى فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما وقدم المدينة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فاجلسه عمر بينه و بين ابى بكر رضى الله عنهم وقال عمر الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله (ونجيناه ولوطا) من نمروذ وقومه من أرض العراق (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) وهى الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار ومنها بعث أكثر الانبياء قال أبى بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لانه ما من ماء عذب الا و ينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس أى يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق فى الارض قاله أبو العالية وعن قتادة ان عمر رضى الله تعالى عنه قال لكعب الاحبار ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب انى وجدت فى كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشام كنز الله فى أرضه وبها كنزه من عباده وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمروذ وملئهم وآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو أخو ابراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارح وآمنت به أيضا سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى وهى بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير هى كوثى العراق وهى سرة

(ان قلت) لما قدمت المرأ[ة] فى آية حد الزنا وأخرت فى آية حد السرقة (قلت) لان الزنا انما يتولد من شهوة الوقاع وهى فى المرأ[ة] أقوى وأكثر والسرقة انما تتولد من الجسا[رة]

السوادو بها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وخرج مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى فخرج يلتمس القرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهي برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبيا الى أهلها وماقرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين أى كما أنجيناك أنت يا أشرف الخلق ويا أفضل أولاده وصديقك أبا بكر رضى الله تعالى عنه الى طيبة التى شرفناها بك وبثثنا من أنوارها فى أرجاء الارض وأقطارها مالم نبث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية فى جميع الاقطار * ولما ولد لابراهيم عليه السلام فى حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على البعث الذى السياق كله له قال تعالى (ووهبنا له) دالا على ذلك بنون العظمة (اسحق) أى من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه أى فكان ذلك دليلا على اقتدارنا على مانريد لاسيما من اعادة الخلق فى يوم الحساب ثم انه قد يظن أنه لتولده بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف لا يولد لمثله معها انفى ذلك بقوله تعالى (ويعقوب نافلة) أى ولد الاسحق زيادة على مادعا به ابراهيم عليهما السلام ثم نمى سبحانه وتعالى أولاد يعقوب وهو اسرائيل وذرياتهم الى أن ساموا النجوم عدة وباروا الجبال شدة (وكلا) من هؤلاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب وعظم رتبتهم بقوله تعالى (جعلنا صالحين) أى مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل مايرونه أو يرادون له أو يراد منهم * ثم لما ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الصلاح فى أنفسهم ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الاصلاح لغيرهم فقال تعالى معظما لامامتهم (وجعلناهم أئمة) أى أعلاما ومقاصد يقتدى بهم فى الدين لما آتيناهم من العلم والنبوة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولا يدخلون بينهما شيأ وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما بخلاف عنه فى الادخال وعدمه والباقون بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف (يهدون) أى يدعون الناس ووفقناه للهداية (بامرنا) أى باذننا (وأوحينا اليهم) أيضا (فعل) أى أن يفعلوا (الخيرات) ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العلم الى العمل قال البقاعى ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كل مايوحى اليهم وقال الزمخشرى أصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة انتهى وقوله تعالى (واقام الصلوة وايتاء الزكوة) من عطف الخاص على العام تعظيما لشأنهما لان الصلاة تقرب العبد الى الحق تعالى والزكاة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة فى الصلاة عوض عن تاء التأنيث يعنى فيكون من الغالب لا من القليل (وكانوا لنا) دائما جبلة وطبيعة (عابدين) أى موحدين مخلصين فى العبادة ولذلك قدم الصلة * القصة الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولوطا) أى وآتينا لوطا أو واذكر لوطا ثم استأنف قوله تعالى (آتيناه حكما) أى نبوة وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم (وعلما) مزينا بالعمل مما ينبغى علمه

والقوة والجراءة وهى أقوى وأكثر (فان قلت) لم قدم الرجل فى قوله الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة (قلت) لان تلك الآية فى الحد والمرأة هى الاصل فيه لما مر وهذه

للانبياء (ونجيناه من القرية) أي قرية سدوم (التي كانت) قبل انجائنا له منها (تعمل) أي أهلها الاعمال (الخبائث) من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور والتضارط في أنديتهم وغير ذلك وانما وصف القرية بصفة أهلها وأسندها اليها على حذف المضاف واقامته مقامه ويدل عليه (انهم كانوا) أي بما جبلوا عليه (قوم سوء) أي ذوي قدرة على الشر بانهماكهم في الاعمال السيئة (فاسقين) أي خارجين من كل خير (وأدخلناه) دونهم (في رحمتنا) أي في الاحوال السنية والاقوال العلية والافعال الزكية التي هي سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه من الصالحين) أي الذين سبقت لهم منا الحسنى أي لما جبلناه عليه من الخير * القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ونوحا) أي واذكر نوحا (اذ) أي حين (نادى) أي دعا الله تعالى على قومه بالهلاك بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء (من قبل) أي من قبل لوط ومن تقدمه (فاستجبنا) أي أردنا الاجابة وأوجدناها بعظمتنا (له) في ذلك النداء ثم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فنجيناه وأهله) أي الذين دام ثباتهم على الايمان وهم من كان معه في السفينة (من الكرب العظيم) أي من أذى قومه ومن الغرق والكرب الغم الشديد قاله السدي وقال أبو حيان الكرب أقصى الغم والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه بأول أحوال ما يأخذ الغريق (ونصرناه) أي منعناه (من القوم) أي المتصفين بالقوة (الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء) أي لا عمل لهم الا ما يسوء (فأغرقناهم أجمعين) لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك في الشر لم يجتمعا في قوم الا أهلكهم الله تعالى * القصة الخامسة قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى

(وداود وسليمان) ابنه أي اذكرهما واذكر شأنهما (اذ) أي حين (يحكمان في الحرث) الذي أنبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك كرما قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا قال ابن الخازن وهو أشبه بالعرف (اذ نفشت) أي انتشرت ليلا بغير راع (فيه غنم القوم) فرعته قال قتادة النفش في الليل والعمل في النهار (وكنا لحكمهم) أي الحاكمين والمتحاكمين اليهما (شاهدين) أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وقال الفراء جمع الاثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلأمه السدس وهو يريد أخوين قال ابن عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت في حرثي فأفسدته فلم تبق منه شيئا فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا وروي أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضي ويروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب

الآية في حكم النكاح والرجل هو الاصل فيه لانه الراغب والبادئ بالطلب بخلاف الزنا فان الامر فيه بالعكس غالبا (قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته) كرره لاختلاف

الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت كما قال تعالى (ففهمناها) أى الحكومة (سليمان) أى علمناه القضية وألهمناها اله * (تنبيه) * يجوز أن تكون حكومتهما بوحى الا ان حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز أن تكون باجتهاد الا أن اجتهاد سليمان أشبه بالصواب (فان قيل) ما وجه كل واحد من الحكومتين (أجيب) بان وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وعند الشافعى يبيعه فى ذلك أو يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث ووجه حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن تزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا وأبق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا (فان قيل) لو وقعت هذه الواقعة فى شريعتنا ما حكمها (أجيب) بان أبا حنيفة وأصحابه لا يرون فيها ضمانا بالليل أو بالنهار الا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار أى هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعى وأصحابه يوجبون الضمان بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ولذلك قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته فقال على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما أوهم شيأ فى أمر داود نفاه بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (آتينا حكما) أى نبوة وعملا مؤسسا على حكمة العلم (وعلما) مؤيدا بصالح العمل وعن الحسن لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ولكنه تعالى أثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعلى داود باجتهاده انتهى وهذا على الرأى الثانى وعليه أكثر المفسرين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر وهل كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد لا بعينه رأيان أظهرهما الثانى وان كان مخالفا لمفهوم الآية اذ لو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم فى الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطا بل يؤجر على اجتهاده فى طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم فى الخطا عنه موضوع * (فائدة) * من أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فاخبرتاه فقال ائتونى بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه فى الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزات الاول ما ذكره بقوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) مع صلابتها وعظمها (يسبحن) معه أى يقدسن الله تعالى ولو شئنا لجعلنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم وقال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى

الاجوبة فيه اربعة الاول محذوف تقديره لفصلكم وجواب الثانى قوله لحكم فيما افضتم الى آخره وجواب الثالث محذوف تقديره لعجل لكم العذاب وجواب الرابع

(والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة يسبحن أي يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما حملت على التسبيح وصفت به (وكنا فاعلين) أي من شأننا الفعل لامثال هذه الافاعيل ولكل شيء نريده فلا تستكثروا علينا أمرا وان كان عندكم عجبا وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الامة كان مطرف بن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره (وعلمناه صنعة لبوس) أي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قال قتادة أول من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين قال البغوي وهو أي اللبوس في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب وقوله تعالى (لكم) متعلق بعلم أو صفة للبوس وقوله تعالى (لتحصنكم من بأسكم) بدل منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراآت فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث فالضمير للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير لداود أو للبوس وقوله تعالى (فهل أنتم شاكرون) أي لنا على ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ومن بعض معجزات الثاني ما ذكره بقوله (ولسليمان) أي وسخرنا لسليمان (الريح) قال البغوي وهو هواء يتحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث (عاصفة) أي شديدة الهبوب (فان قيل) قد قال تعالى في موضع آخر تجري بأمره رخاء والرخاء اللين (أجيب) بأنها كانت تحت أمره ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت وقيل كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وقوله تعالى (تجري بأمره) أي بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاول أو حال من ضميرها (الى الارض التي باركنا فيها) أي الشام وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه الى حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشام قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه عكفت عليه الطير وقام اليه الجن والانس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله فكان اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا في روحته وشهرا في غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في ابريسم وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد الانبياء عليهم السلام على كراسي

قوله ما زكى منكم من أحد أبدا (قوله قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) فان قلت ما فائدة ذكر من في غض البصر دون حفظ الفرج (قلت) فائدته

الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومن الرواح الى الغروب وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس الانس مما يليه ثم تليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فابدله الله مكانها خيرا منها واسرع وهي الريح تجري بامره كيف يشاء فكان يغدو من ايليا فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه الف ركن في كل ركن الف بيت تركب معه فيه الجن والانس تحت كل ركن الف شيطان يرفعون ذلك الركن فاذا ارتفعت اتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدري القوم الا وقد اظلهم معه الجيوش (وكنا) اى ازلا وابدا بالاحاطة العظيمة (بكل شيء) اى من هذا وغيره من امره وغيره (عالمين) ومن علمنا ان ذلك لا يزيدهم الا تواضعا وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبي صلى الله عليه وسلم ليالي الاحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا وأعطى صلى الله عليه وسلم أعم مما أعطى جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطى صلى الله عليه وسلم التصرف في العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاختراق في اطباقه باسراء تارة وبامساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبارساله اخرى كما في احاديث كثيرة واتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض كلها فردها صلى الله عليه وسلم (ومن) اى وسخرنا لسليمان من (الشياطين) الذين هم اكثر شيء تمردا وعتوا (من يغوصون له) اى يدخلون في البحر فيخرجون منه الجواهر وغيرها من المنافع وذلك بان الله كثف اجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذي جاءه بشهاب من نار وامر جماعة من اصحابه رضي الله تعالى عنهم عفاريت اتوا الى تمر الصدقة وامكنهم الله تعالى منهم (ويعملون عملا دون ذلك) اى سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية (وكنا لهم حافظين) اى حتى لا يخرجوا عن امره وقال الزجاج معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل الليل أفسدوه وخربوه وفي القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل فاشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه * القصة السادسة قصة ايوب عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وايوب) اى واذكر ايوب ويبدل منه (اذ نادى ربه) قال وهب بن منبه كان ايوب عليه السلام رجلا من الروم وهو ايوب بن اموص بن رازح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم وكانت امه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكانت له الثنية من ارض البلقاء من اعمال حوران من ارض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من اصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل افضل منه في العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وعبد وولد

الدلالة على ان حكم النظر أخف من حكم النظر اذ جعل النظر الى الفرج او الى بعض اعضاء الحائض ولا يحل شيء من فروجهن (قوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن) الآية ان

وما ل ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان او ثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك
وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم
ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا
لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله ابليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة
والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه
رجل من اليمن يقال له اليفن ورجلان من بلده يقال لاحدهما بلدد والآخر صافر وكانوا
كهولا وكان ابليس لا يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله
تعالى عيسى عليه السلام فحجب من أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن
السموات كلها الا من استرق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب عليه
السلام وذلك حين ذكره الله تعالى واثنى عليه فادركه البغي والحسد فصعد سريعا حتى وقف
من السماء موقفا كان يقفه فقال الهي نظرت في أمر عبدك ايوب فوجدته عبدا انعمت
عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك
وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله
ابليس حتى وقع على الارض ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من
القوة فاني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال
فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار واحرقت
كل شئ آتي عليه قال له ابليس فأت الابل ورعاتها فاتى الابل وقد وضعت رؤسها ورعت في
مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها أحد الا احترق
فاحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيمه على قعود الى
أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك فاحرقتها ومن فيها غيري
قال أيوب الحمد لله الذي أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء
تركها واذا شاء نزعها وقديما كنت وطنت نفسي ومالي على الفناء قال ابليس فان الله ربك
أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول
ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان أيوب الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على أن
يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال
أيوب الحمد لله حين اعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود في التراب
وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله
عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك
الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فاخرجك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا
فقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت صحت
صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها
وصاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها وماتت رعاتها ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة
الى أيوب وهو يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول ثم رجع ابليس

قلت) لم ترك ذكر الاعمام والاخوال مع ان حكمهما مما ستفى (قلت) تركهما كما ترك محرم الرضاع او لفهمهما من بني الاخوان وبني الاخوات بالاولى او بالمساواة .

الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندى من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شئ تأتى عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق حين شرع الفدادون فى الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شئ من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الى أيوب وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يهلك أمواله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى اليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى وأحسن الثناء عليه ورضى عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف فى الموقف الذى يقف فيه وقال الهى ان أيوب يرى انك ما متعته بولده فأنت تعطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله ابليس حتى جاء بنى أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة ورفع القصر فقلبه فصاروا منكبين وانطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه فأخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤسهم تسيل دماؤهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب ان فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله عز وجل وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هون على أيوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فانك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلطه عليه الا رحمة لأيوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب فى مصلاه ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى بقل لحمه وتقطع وتغير وأنتن وأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصافر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله تعالى من الذنب الذى عوقبت عليه قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم انكم تكلمتم أيها الكهول

والجواب بانه لم يذكر من المستثنى الا من اشترك هو وابنه فى الحرمة لان من لم يشاركه ابنه فيها كالعم والخال قد يصف محرمه عند ابنه وهو ليس بمحرم لها فيفضى الى الفتنة بنقض بان

وأنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ومن
الرأي أصوب من الذي رأيتم ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق
والذمام أفضل من الذي وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم
ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم ألم تعلموا أنه أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض الى
يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه قد سخط شيئا من أمره منذ ما آتاه الله ما آتاه الى يومكم
هذا ولا أنه نزع شيئا منه من الكرامة التي أكرمه بها ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في
طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم
فقد علمتم أن الله تعالى يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك
على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه
المنزلة الا أنه أخ آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء
ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له
ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها
الكهول فقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم
ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء
الألباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم
وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك
استبقوا الى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وانهم لأبرار برآء
ومع المقصرين المفرطين وانهم لأكياس أقوياء فقال أيوب ان الله سبحانه وتعالى يزرع
الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فتى نبتت في القلب يظهرها الله تعالى على اللسان
وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد
حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ثم
أعرض عنهم أيوب عليه السلام يعني الثلاثة وقال أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا
وبكيتم قبل أن تضربوا فكيف بي لو قلت تصدقوا على بأموالكم لعل الله أن يخلصني أو قربوا
قربانا لعل الله أن يتقبله ويرضى عني وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم عوفيتم
باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى
بالعافية التي ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقروني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف
من خصمي فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام وأنتم كنتم أشد علي من مصيبتي ثم أعرض
عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به مستغفرا متضرعا اليه فقال يا رب لأي شيء خلقتني
ليتني اذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت
وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب
دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما الهي أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان
أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع بي بلاء لو سلطته على جبل
ضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي فان قضاءك هو الذي أذلني وان سلطانك هو الذي

انضا الفتنة يأتي في إباء
بعوائق وقد يدي كرابو

قمى وأنحل جسمى ولو أن ربى نزع الهيبة التى فى صدرى وأطلق لسانى حتى أتكلم بمل فى
ادلى بعذرى وأتكلم ببراءتى وأخاصم عن نفسى لرجوت أن يعافينى عند ذلك مما بى ولكنه
القانى وتعالى عنى فهو يرانى ولا أراه ويسمعنى ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده
ظلله غمام حتى ظن أصحابه انه عذاب ثم نودى يا أيوب ان الله تعالى يقول ها أنا قد دنوت منك
ولم أزل منك قريبا قم فأدل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم
مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغى أن يخاصمنى الا جبار مثلى لقد منتك
نفسك يا أيوب أمرا ما تبلغ مثله بقوتك أين انت منى يوم خلقت الارض فوضعتها على اساسها
هل كنت معى تمد باطرافها هل أنت علمت بأى مقدار قدرتها أم على اى شئ وضعت اكنافها
أبطاعتك حمل الماء الارض أم بحكمتك كانت الارض للماء غطاء أين كنت منى يوم رفعت
السماء سقفا فى الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك
ان تجرى نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها اين أنت منى يوم أنبعت
الانهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت
الارحام حتى بلغت مدتها اين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل
تدرى على أى شئ أرسيتها أم بأى مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها ام هل تدرى
أين الماء الذى أنزلت من السماء ام هل تدرى من اى شئ أنشئ السحاب ام هل تدرى اين
خزانة الثلج ام اين جبال البرد أم اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل واين خزانة الريح
وبأى لغة تتكلم الاشجار من جعل العقول فى أجواف الرجال ومن شق الاسماع والابصار
ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته فى كلام كثير
يدل على كمال قدرته ذكره لايوب فقال أيوب عليه الصلاة والسلام كل شانى وكل لسانى وكل
عقلى ورأيى وضعفت قوتى عن هذا الامر الذى تعرض لى يا الهى قد علمت ان كل الذى ذكرت
صنع يدك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت لا يعجز عنك شئ ولا يخفى عليك
خافية أذاقنى البلاء يا الهى فتكلمت فكان البلاء هو الذى أنطقنى فليت الارض انشقت بى
فذهبت فيها ولم أتكلم بشئ يسخط ربى وليتنى مت بغمى فى أشد بلائى قبل ذلك انما تكلمت
حين تكلمت لتعذرنى وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت منى فلم أعد قد وضعت يدى على
فى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى أعوذ بك اليوم منك واستجير بك من
جهد البلاء فاجرنى واستغيث بك من عقابك فاغثنى وأستعين بك على أمرى فاعنى وأتوكل
عليك فاكفنى واعتصم بك فاعصمنى واستغفرك فاغفر لى فلن أعود لشئ تكرهه منى قال
الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمى وسبقت رحمتى غضبى فقد غفرت لك فقال أيوب (انى) قد (مسنى
الضر) بتسليطك الشيطان على فى بدنى وأهلى ومالى وقد طمع الآن فى دينى وذلك انه زين
لامرأة أيوب ان تأمره ان يذبح لصنم فانه يبرأ ثم يتوب ففطن لذلك وحلف ليضربنها ان
برأ مائة جلدة وقال وهب لبث أيوب فى البلاء ثلاث سنين وروى عن أنس يرفعه ان أيوب
لبث ببلائه ثمانى عشرة سنة وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا
على كناسة لبنى اسرائيل سبع سنين وشهرا يختلفون فى الدواء ولا يقربه أحد غير امرأته

العمل بحرمه عند ابيه الآخر وابن بحر مرامها

رحمة

تصبر معه تحمد الله معه إذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على
بلائه فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيئا اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني
آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال
لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا فقال لها أنا إله
الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك لأنه أطاع إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي
سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد وأراها إياهم ببطن الوادي الذي
لقيها فيه قال وهب وقد سمعت أنه إنما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفي
مما به من البلاء وفي بعض الكتب أن ابليس قال لها اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال
والأولاد وأعافي زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله
ليفتنك عن دينك ثم أقسم إن الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسني الضر من
طمع ابليس في سجود حرمتي ودعائه إياها وإياي إلى الكفر (وأنت) أي والحال أنت (أرحم
الراحمين) فافعل بي ما يفعل الرحمن بالمضرور وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه
بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح فكان ذلك ألطف في السؤال فهو أجدى
النوال ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت يا أمير المؤمنين مشت جرذان
بيتي على العصي فقال لها ألطفت في السؤال لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها
حبا ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد أن
يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة
كما قال تعالى في آية أخرى وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروي أن ابليس اتخذ
تابوتا وجعل فيه أدوية وجلس على طريق امرأة أيوب يداوي الناس فمرت به امرأة أيوب
فقالت له إن لي مريضا أفتداويه قال نعم ولا أريد شيئا إلا أن يقول إذا شفيته أنت شفيتني
فذكرت ذلك لأيوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها
مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه
البلاء سئمها الناس فلا يستعملها أحد فالتمست له يوما من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئا
فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال مسني
الضر وقال قوم إنما قال ذلك حين قصد الدود إلى قلبه ولسانه فخشي أن يمتنع عن الذكر
والفكر وقال حبيب بن أبي ثابت لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء
أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا إليه ولم يبق إلا عيناه ورأيا أمرا عظيما
فقالا لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا والثاني أن امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه
فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعاما والثالث قول ابليس إني أداويه على أن يقول أنت
شفيتني وقيل إن ابليس وسوس إليه أن امرأته زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره
وحلف ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه مسني الضر من شماتة الأعداء وقيل قال ذلك
حين وقعت دودة من فخذه فردها إلى موضعها وقال كلي جعلني الله طعامك فعضته
عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان (فإن قيل) إن الله تعالى سماه صابرا وقد

(قوله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا)

أظهر الشكوى والجزع بقوله انى مسنى الضر ومسنى الشيطان بنصب (اجيب) بان هذا ليس شكاية انما هو دعاء بدليل قوله تعالى (فاستجبنا له) والجزع انما هو الشكوى الى الخلق وأما الشكوى الى الله تعالى فلا تكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى ان جبريل عليه السلام دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما أجدنى مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه وروى ان امرأة أيوب قالت له يوما لو دعوت الله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله ان أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ثم تسبب عن الاجابة قوله تعالى (فكشفنا) اى بما لنا من العظمة (ما به من ضر) بان أمرناه ان يركض برجله فنبع له عين من ماء كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل فاذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فامره ان يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبع عين ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كاصح ما يكون من الرجال وأجلهم فاقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة ثم جاءت اليه وهى لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا قال نعم ومالى لا أعرفه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فو الذى نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى رد لهما كل ما كان لهما كما قال تعالى (وآتيناه أهله) اى أولاده الذكور والاناث بأن أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع (ومثلهم معهم) اى من زوجته رحمة وزيد فى شبابها هذا ما دل عليه أكثر المفسرين وقيل آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله وولده الذى رده اليه اى فولد له من ولده نوافل وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وروى الضحاك عن ابن عباس رد الى امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم آتى الله تعالى أيوب فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فاما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وقال عكرمة قيل لايوب ان أهلك لك فى الآخرة وان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وروى عن أنس يرفعه كان لايوب أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فافرغت احداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا فقال ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فارسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل وخرج الدود منه جعل الله تعالى له أجنحة فطارت فجعلها الله تعالى جرادا من ذهب وأمطرت عليه فطارت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك اما يكفيك ما فى أندرك فقال هذا بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركته وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من

(ان ذات) كيف قال ذلك مع انا كراههن على الزنا

ذهب فجعل ايوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يارب ولكن لا غنى لى عن بركتك وقوله تعالى (رحمة) مفعول له اى نعمة عظيمة وتخصيصها بقوله تعالى (من عندنا) بحيث لا يشك من ينظر ذلك انا ما فعلناه الا رحمة منا له وان غيرنا لا يقدر على ذلك (وذكرى) اى عظة عظيمة (للعابدين) اى كلهم ليتأسوا به فيصبروا اذا ابتلوا ولا يظنوا أن ذلك انما نزل بهم لهوانهم ويشكروا اذا نابوا كما أثيب وقيل لرحمتنا العابدين فانا نذكرهم بالاحسان ولا ننساهم * القصة السابعة قصة اسمعيل وادريس وذى الكفل المذكورة فى قوله تعالى (واسمعيل) اى واذكر اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام الذى سخرنا له من الماء بواسطة الروح الامين ما عاش به صغيرا بعد ما كان هالكا لا محالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائما وصدقاه وهو كيمن الذبح حين رأى أبوه فى المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء وحى وفديناه بذبح عظيم (و) اذكر (ادريس) اى ابن شيث بن آدم عليهم السلام الذى أحييناه بعد موته ورفعناه مكانا عليا وهو أول نبى بعث من بنى آدم عليه السلام وتقدمت قصته فى سورة مريم (و) اذكر (ذا الكفل) سمى بذلك قال عطاء لان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أوحى الله تعالى اليه انى أريد ان أقبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل لك أن يصلى بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أنى استخلفت رجلا من الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يتقبل منى ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال انا فاستخلفه فأتاه ابليس فى صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بينى وبين قومى خصومة وانهم ظلمونى وفعلوا ما فعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فأتنى فانى آخذ حقك فانطلق وراح فكان فى مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من أنت فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال ألم أقل لك اذا قعدت فأتنى فقال انهم أخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا جلست فأتنى وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض اهله لا تدعوا هذا الرجل يقرب من هذا الباب حتى أنام فانه قد شق على النعاس فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما عياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسورها فاذا هو فى البيت يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال اما من قبلى فلم تؤت فانظر من اين أتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا بالرجل معه فى البيت فقال اتنام والخصوم ببابك فقال اعدو الله قال نعم أعييتنى ففعلت ما ترى لاغضبك فعصمك الله تعالى فسمى ذا الكفل لانه تكفل بامر فوفى به وقيل ان ابليس جاءه وقال ان لى غريما يظلمنى فاحب ان تقوم معى وتستوفى حقى منه فانطلق معه حتى

حرام وان لم يردن التحصن الشرط هنا (قات)

اذا كان فى السوق خلاه وذهب وروى انه اعتذر اليه وقال صاحبى هرب وقيل ان ذا الكفل رجل كفل ان يصلى كل ليلة مائة ركعة الى أن يقبضه الله تعالى فوفى به واختلفوا فى انه هل كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس انه الياس وقيل هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال أبو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا ولما قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى (كل) اى كل واحد منهم (من الصابرين) على ما ابتليناه به فآتيناهم ثواب الصابرين (وادخلناهم فى رحمتنا) اى فعلنا بهم من الاحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم فكان ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم من الصالحين) اى لكل ما يرضاه تعالى منهم يعنى أنهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين فى الصلاح وهم الانبياء لان صلاحهم معصوم عن كدر الفساد ۞ القصة الثامنة قصة يونس عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وذا النون) اى واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه (اذ ذهب مغاضبا) واختلفوا فى معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فاوحى الله تعالى ٣ الى شعيب النبى عليه السلام ان سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا الى هؤلاء فانى ألقى فى قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة أنبياء فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره ان يخرج فقال يونس هل امرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى اقوياء فالحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبى والملك ولقومه فاتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه اذ كشف عن قومه العذاب بعدما وعدهم به وكره ان يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع به العذاب عنهم وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وان يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله تعالى وفى بعض الاخبار انه كان من عادة قومه ان يقتلوا من جرب عليه الكذب فخشى ان يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التى تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا اى غضبان وقال الحسن انما غاضب ربه من أجل انه امره بالمسير الى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم اليه فسأل ربه ان ينظره ليتأهب فقيل له ان الامر أسرع من ذلك حتى سأله ان ينظره الى ان يأخذ نعلا ليلبسها فلم ينظره وكان فى خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فانذرهم قال التمس دابة قال الامر أعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا فلذلك أخرجه الله تعالى من أولى العزم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم (فظن ان لن نقدر عليه) اى لن نقضى عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن ان لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده

لا مفهوم له لخروجه مخرج الغالب من أن اكراههن

٣ قوله شعيب هكذا بالاصول ولعله شعياء اذ هو الذى كان فى مدة حزقيل فليحرر اه مصححه

ونقدر

ويقدر وعن ابن عباس انه دخل على معاوية فقال لقد ضربتني امواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم اجد لنفسي خلاصا الا بك قال وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية فقال او يظن نبي الله ان لن يقدر عليه قال هذا من القدر لا من القدرة وقال ابن زيد هو استفهام معناه أفظن انه يعجزه فلا يقدر عليه (فنادى) اى فاقتضت حكمتنا ان عاتبناه حتى ينس فالقى نفسه فى البحر فالتقمه الحوت فمكث فيه اربعين من بين يوم وليلة وقال عطاء سبعة ايام وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم الارض السابعة ومعناه ان يكون له طعاما فنادى (فى الظلمات) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجهم من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوتا اكبر منه فجعل فى ظلمتى بطن الحوتين وظلمة البحر (ان لا اله الا انت) ولما نزهه عن الشريك عمم قال تعالى (سبحانك) اى تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الانجاء مما انا فيه الا انت ثم افصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص ما نزه الله عنه (انى كنت من الظالمين) اى فى خروجى من بين قومى قبل الاذن فاعف عنى كما هى سيرة القادرين روى عن ابى هريرة مرفوعا اوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه ثم هوى به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ما هذا فاوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو فى بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك فامر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له) اى اجبناه (ونجيناه من الغم) اى من تلك الظلمات بتلك الكلمات (وكذلك) اى وكما نجيناه (ننجى المؤمنين) من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازى فى اللوامع وشرط كل من يلتجئ الى الله ان يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار وهذا شرط كل داع اهـ وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم وقرأ ابن عامر وابو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على ان اصله ننجى حذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها اوقع من حذف حرف المضارعة الذى لمعنى وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وهو النجاء وقرأ الباقون بنونين الثانية مخففة ساكنة مع تخفيف الجيم * (تنبيه) * اختلفوا فى متى كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد ان أخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى سورة والصافات فنبذناه بالعراء ثم ذكر بعده وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وقال آخرون انها كانت من قبل بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون * القصة التاسعة قصة زكريا

انما يكون مع ارادتهم النقص ولو وروده على سبب

عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (وزكريا) أي واذكر زكريا ويبدل منه (اذ نادى ربه) نداء الحبيب القريب فقال (رب) باسقاط أداة البعد (لا تذرني فردا) أي وحيدا من غير ولد ذكر يرث ما آتيتني من الحكمة (وانت) اي والحال انك (خير الوارثين) اي الباقي بعد فناء خلقك وكثيرا ما تمنح ارث بعض عبيدك عبيدا آخرين فات الحقيق بان تفعل في ارثي من العلم والحكمة ما احب فتهب لي ولدا تمن علي به (فاستجبنا له) بعظمتنا وان كان في حد من السن لا حراك به معه وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها انك كيف وقد جاوزت سن اليأس ولذلك عبر بما يدل على العظمة فقال تعالى (ووهبنا له يحيى) ولدا وارثا نبيا حكيما عظيما (واصلحنا له) خاصة من بين اهل ذلك الزمان (زوجه) اي جعلناها صالحة لكل خير خالصة له فاصلحناها للولادة بعد عقمها واصلحناها لزكريا بعد ان كانت سيئة الغضب سيئة الخلق فاصلحناها له ورزقناها حسن الخلق (انهم) اي الانبياء الذين سماهم الله في هذه السورة وقيل زكريا وزوجه ويحيى (كانوا) اي جبلة وطبعا (يسارعون في الخيرات) اي الطاعات مبالغون في الاسراع بها مبالغة من يسابق آخر ودل على عظيم افعالهم بقوله تعالى (ويدعوننا) مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا (رغبا) اي طمعا في رحمتنا (ورهبا) اي خوفا من عذابنا (وكانوا) اي جبلة وطبعا (لنا) خاصة (خاشعين) اي خائفين خوفا عظيما يحملهم على الخضوع والانكسار قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش عن هذه الآية فقال اما اني سألت ابراهيم فقال الا تدري قلت افدني قال بينه وبين الله اذا ارخى ستره عليه واغلق بابه فليرا الله منه خيرا لعلك ترى انه يأكل خشنا ويلبس خشنا ويطأطئ رأسه * القصة العاشرة قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (والتي) اي واذكر مريم التي (احصنت فرجها) اي حفظته من الحلال والحرام حفظا يحق له ان يذكر ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا لان ذلك غاية في العفة والصيانة والتخلي عن الملاذ الى الانقطاع الى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الامانة والاجتهاد في متانة الديانة والصحيح انها بنت بتيه (فنفخنا فيها من روحنا) اي امرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها واضاف الروح اليه تعالى تشريفا لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله * ثم بين تعالى ما خص مريم وعيسى من الآيات فقال تعالى (وجعلناها وابنها) اي قصتهما وحالهما ولذلك وحد قوله (آية للعالمين) من الجن والانس والملائكة وان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى (فان قيل) هلا قال تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين (اجيب) بما تقدم وبان الآية كانت فيهما واحدة وهي انها اتت به من غير فحل وههنا آخر القصص * ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الانبياء عليهم السلام انهم كلهم متفقون على التوحيد الذي هو اصل الدين قال تعالى (ان هذه) اي ملة الاسلام (امتكم) اي دينكم ايها المخاطبون اي يجب ان تكونوا عليها حال كونها (امة) قال البغوي واصل الامة الجماعة التي هي على مقصد واحد اه فجعل الشريعة امة لاجتماع اهلها على مقصد واحد ثم أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى (واحدة) فابطل ما سوى الاسلام من الاديان (وانا ربكم) أي المحسن اليكم لا غيري في كل زمان فانه

وهو ان الجاهلية كانوا

لا أدعوعلى طول الدهر ولا يشغلني شأن عن شأن (فاعبدون) دون غيري فانه لا كفء لي * ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وتقطعوا) اى بعض المخاطبين (أمرهم بينهم) اى تفرقوا أمر دينهم مختلفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى قال الكلبي فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض *(تنبيه)* الاصل وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عليهم فعلهم عندهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشئ ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى (كل) اى من هذه الفرق وان بالغ في التمرد (الينا) يوم القيامة (راجعون) فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم اقامة للعدل فنعطي كلا من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى الشياطين أعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى قوله تعالى فارقا بين المحسن والمسئ محققا للعدل وتشويقا الى الفضل (فمن يعمل) اى منهم الآن (من الصالحات وهو) اى والحال انه (مؤمن) اى يأتي بعمله على الاساس الصحيح (ولا كفران) اى لا جحود (لسعيه) بل يشكر ويثاب عليه *(تنبيه)* قوله تعالى فلا كفران نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول فلا نكفر سعيه (وانا له) اى لسعيه (كاتبون) اى مثبتون في صحيفة عمله وما أثبتناه فهو غير ضائع فلا يفقد منه شيأ قل أو جل ومن المعلوم ان قسيمه وهو من يعمل من السيآت وهو كافر فلا نقيم له وزنا ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو تحت مشيئتنا قال البقاعي ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا في الايمان * ولما كان هذا غير صريح في ان هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله تعالى (وحرام) اى ممنوع (على قرية) اى أهلها (أهلكناها) اى بالموت (أنهم لا يرجعون) اى الينا بان يذهبوا تحت التراب باطلا من غير احياس بل الينا بعدهم رجعوا فحبسناهم في البرزخ منعمين أو معذبين نعيما أو عذابا دون النعيم والعذاب الاكبر *(تنبيه)* ما قدرناه في الآية هو ما جرى عليه البقاعي والذي قدره الزمخشري ان معنى أهلكناها عزمنا على اهلاكها أو قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع الرجوع من الكفر الى الاسلام والانابة فتكون لا مزيدة والذي قدره الجلال المحلي ان لا زائدة اى يمتنع رجوعهم الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا قريب مما قاله ابن عباس فانه قال وحرام على قرية أهلكناها ان يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوي وقال آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا يكون لا ثابتا ومعناه واجب على أهل قرية أهلكناهم اى حكمنا باهلاكهم ان لا تتقبل أعمالهم لانهم لا يرجعون اى لا يتوبون والدليل على هذا المعنى انه تعالى قال في الآية التي قبلها ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أي يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذي قدره البيضاوي قريب مما قدره الزمخشري وكل هذه التقادير صحيحة لكن الاول أظهر وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعد الراء قال البغوي وهما لغتان مثل حل وحلال وقوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج

يكرهون اماءهم على الزنا مع ارادتهن التحصن

ومأجوج) متعلق كما قال الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام أي فهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة والمحكي هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان اسم قبيلتين من جنس الانس ويقدر قبله مضاف أي سدهما وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالالف * ثم عبر عن كثرتهم التي لا يعلمها الا هو سبحانه وتعالى بقوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (من كل حدب) أي نشز عال من الارض (ينسلون) أي يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب وفي العبارة ايماء الى أن الارض كرة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تتذاكرون قلنا نتذاكر الساعة قال انها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم (واقترب الوعد الحق) أي يوم القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة (فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم * (تنبيه) * فاذا هي اذا للمفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه والضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعني القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك وقال الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا النجوى وقولهم (يا ويلنا) اي هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا ويا للتنبيه (قد كنا) اي في الدنيا (في غفلة من هذا) اي اليوم حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن ثم أضربوا عن الغفلة فقالوا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بعدم اعتقاده ووضعنا الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله والنظر في مخايله وكذبنا الرسل وعبدنا الاوثان وقوله تعالى (انكم) خطاب لاهل مكة وأكده لانكارهم مضمون الخبر (وما تعبدون من دون الله) اي غيره من الاوثان (حصب جهنم) اي وقودها وهو ما يرمى به اليها وتهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه بالحصب والحصب في لغة أهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب وقوله تعالى (أنتم لها واردون) اي داخلون استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على ان ورودهم لاجلها (لو كان هؤلاء) اي الاوثان (آلهة) اي كما زعمتم (ما وردوها) اي ما دخل الاوثان وعابدوها النار وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة في الوصل بعد تحقيق الاولى والباقون

أو أن بمعنى اذ كما في قوله تعالى وذروا ما بقي من الربا

بحقيقتهما (وكل) اى من العابدين والمعبودين (فيها) اى فى جهنم (خالدون) لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على الآخر (فان قيل) لم قرنوا بآلهتهم (أجيب) بانهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب لانهم قدروا انهم يستشفعون بهم فى الآخرة وينتفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (فان قيل) اذا عنيت بما تعبدون الاوثان فما معنى قوله تعالى (لهم فيها زفير) اى تنفس عظيم على غاية من الشدة والمد تكاد تخرج معه النفس (أجيب) بانهم اذا كانوا هم وأوثانهم فى قرن واحد جاز أن يقال لهم زفير وان لم يكن الزافرون الا هم دون الاوثان للتغليب ولعدم الالباس (وهم فيها لا يسمعون) شيأ لشدة غليانها وقال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى أحد منهم ان أحدا يعذب فى النار غيره وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد

ان كنتم مؤمنين وقوله وانتم الاعلون ان كنتم

وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر ابن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله الآية فاقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنوا مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) اى الحكم بالموعدة البالغة فى الحسن فى الازل ومنهم من ذكر سواء أضل باحد منهم الكفار فاطروه أم لا (أولئك) اى العالو الرتبة (عنها) اى جهنم (مبعدون) برحمة الله تعالى لانهم أحسنوا فى العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان الا الاحسان وفى رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك رضى الله تعالى عنه ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وادعى جماعة ان المراد من الآية الاصنام لان الله تعالى قال وما تعبدون من دون الله ولو أراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون يروى ان عليا رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول (لا يسمعون حسيسها) اى حركتها البالغة وصوتها الشديد فكيف بما دونه لان الحس مطلق الصوت أو الصوت الخفى كما قاله البغوى فاذا زادت حروفه زاد معناه فذكر ذلك بدلا من مبعدون أو حال من ضميره للمبالغة فى ابعادهم عنها (وهم) اى الذين سبقت لهم منا الحسنى (فى ما اشتهت أنفسهم) فى الجنة كما قال تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين والشهوة

طاب النفس اللذة (خالدون) اى دائماً أبداً فى غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به * (فائدة) * فى هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك ان سرورهم ليس له زوال أكده بقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال الحسن هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وقال ابن جريج هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقال سعيد بن جبير هو أن تطبق جهنم وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم) أى تستقبلهم (الملائكة) قال البغوى على أبواب الجنة يهنئونهم وقال الجلال المحلى عند خروجهم من القبور ولا مانع أنها تستقبلهم فى الحالين ويقولون لهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم به فى الدنيا فابشروا فيه بجميع ما يسركم * ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوف بها النفس الى معرفة اليوم الذى تكون فيه قال تعالى (يوم) أى تكون هذه الاشياء يوم (نطوى السماء) طيا فتكون كأنها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذى دل عليه الفعل (كطى السجل) واختلف فى السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذى له العلو والقدرة على مكتوبه (للكتاب) أى القرطاس الذى يكتبه ويرسله الى أحد وقال السدى هو ملك يكتب أعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها وقال ابن عباس ومجاهد والاكثرون السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله فى القاموس وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الكاف والتاء على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبين الكاف والتاء ألف على الافراد فقراءة الافراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على ان المراد الجنس فجميع السموات تطوى روى عن ابن عباس انه قال يطوى الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه اى بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروى عن ابن عباس انه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا اى غير مختونين (كما بدأنا أول خلق نعيده) اى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة (وعدا) وأكد ذلك بقوله تعالى (علينا) وزاده بقوله تعالى (انا كنا) ان أزلا وأبدا على حالة لا تحول (فاعلين) اى شأننا ان نفعل ما نريد لا كلفة علينا فى شئ من ذلك ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع كتب الله تعالى المنزلة والذكر أم الكتاب الذى عنده ومعناه من بعد ما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة * وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أى أمامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها اى قبله وقرأ حمزة بضم

متوسطين (قوله ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) قاله

* قوله والذكر الخ هذا ساقط فى بعض النسخ ويحتاج فيه الى أن بعد بمعنى قبل كما فى الآتى قريبا اه مصححه

الزاى والباقون بفتحها (ان الارض) اى أرض الجنة (يرثها عبادى) وحقق ذلك ما أفادنه اضافتهم اليه بقوله تعالى (الصالحون) اى المتحققون بأخلاق أهل الذكر المقبلون على ربهم الموحدون له المشتقون من الساعة الراهبون من سطوته الراغبون فى رحمته الخاشعون له فهذا عام فى كل صالح وقال مجاهد يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد بالارض الارض المقدسة وقيل أراد بجنس الارض الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولارض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى وجرى على هذا البقاعى فى تفسيره وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها (ان فى هذا) اى القرآن كما قاله البغوى (لبلاغا) اى وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل الى ما يرجو من الثواب وقيل بلاغا أى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ وبلغة اى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازى هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة (لقوم عابدين) اى عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازى والاولى انهم الجامعون بين أمرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما أرسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) اى على حالة من الاحوال (الا) على حال كونك (رحمة للعالمين) كلهم أهل السموات وأهل الارض من الجن والانس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذى كانت تستأصل الامم به فنحن نمهلهم ونترفق بهم اظهارا لشرفك واعلاء لقدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتباكهم فى أشراك المحال ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف فى عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والآخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلان وسطهم ويموج بعضهم فى بعض من شدة ما هم فيه ويطلبون من يشفع لهم فيقصدون أكابر الانبياء نبيا نبيا عليهم الصلاة والسلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى يأتوه صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها ويقوم معه لواء الحمد فيشفعه الله تعالى وهو المقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين ولما أورد تعالى على الكفار الحجج فى ان لا إله سواه وبين انه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) اى ما يوحى الى فى أمر الاله الا وحدانيته وما الهكم الا اله واحد لم يوح الى فيما تدعون من الشركة غير ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثانى من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشرى انما لقصر الحكم على شئ أو لقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما

هنا بلفظ الواو واليكم
وقاله بعد جحيد ذنوبهم ذات

الحكم الواحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى * ولما كان الوحى الوارد على هذه السنن موجبا ان يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم (فهل أنتم مسلمون) اى منقادون لما يوحى الى من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر اى أسلموا (فان تولوا) اى لم يقبلوا ما دعوتهم اليه (فقل) اى لهم (آذنتكم) اى أعلمتكم بالحرب كرجل بينه و بين أعدائه هدنة فاحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد وأشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك وقوله (على سواء) حال من الفاعل والمفعول اى مستوين فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم ولا استبد به دونكم لتتأهبوا (وان) اى وما (أدرى أقريب) جدا بحيث يكون قربه على ما تتعارفونه (أم بعيد ما توعدون) من غلب المسلمين عليكم أو عذاب الله أو القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لامحالة ولابد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه وانما يعلمه الله تعالى (انه) تعالى (يعلم الجهر من القول) اى مما يجهرون به من المطاعن وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فان من أحوال الجهر ان ترتفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضر بها ما قاله أكثر القائلين فاعلم سبحانه وتعالى انه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شئ من ذلك ولو كثر (ويعلم ما تكتمون) مما تضمرونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى فى أول السورة قل ربى يعلم القول فى السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم و يتحقق ما أقول فتنطقون حينئذ بأنى صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن فهو من أبلغ التهديد فانه لا أبلغ من التهديد بالعلم * ولما كان الامهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال (وان) أى وما (أدرى) أن يكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم لا (لعله) أى تأخير العذاب (فتنة) أى اختبار (لكم) ليظهر ما يعلمه منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك (ومتاع) لكم تتمتعون به (الى حين) أى بلوغ مدة آجالكم التى ضربها لكم فى الازل ثم يأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون * ولما كان لله أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى الطائع وتنعيم المؤمن العاصى وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية فى البيان لهم وهم قد بلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه أمر الله تعالى أن يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى (قل رب) أيها المحسن الى (احكم) أى انجز الحكم بينى و بين قومى (بالحق) اى بالامر الذى يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرأ حفص بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضى على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الامر (فان قيل) كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لا يحكم الا بالحق (أجيب) بان الحق ههنا بمعنى العذاب فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر ونظيره قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقال أهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب أم لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب فى حكمه الحق

اتصال ما هنا بما قبله
اشداد قوله بعد موعظة

(وربنا) أى المحسن الينا أجمعين (الرحمن) اى العام الرحمة لنا ولكم بادرارها علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا أجمعين وان كنا نحن أطعناه لانا لا نقدره حق قدره ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة (المستعان) اى المطلوب منه العون (على ما تصفون) من كذبكم على الله تعالى فى قولكم اتخذ الله ولدا وعلى فى قولكم ساحر وعلى القرآن فى قولكم شعر قال الرازى روى انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك فى حروبه ولم يذكر له سندا وأما ما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اقترب حاسبه الله حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن فحديث موضوع والله تعالى أعلم بالصواب

سورة الحج مكية

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الآيتين والا هذان خصمان الست آيات فمدنيات وهى ثمان وقيل خمس أو ست أو سبع وسبعون آية

(بسم الله) أى الذى قصرت عظمته خضوع كل شئ (الرحمن) الذى عم برحمته كل موجود (الرحيم) الذى خص بفضله من شاء من عباده * ولما ختمت السورة التى قبل هذه بالترهيب من الفزع الاكبر وطى السماء واتيان ما يوعدون وكان أعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ان أريد ان ذلك عام والا فهم وغيرهم (اتقوا) أى احذروا عقاب (ربكم) أى المحسن اليكم بانواع الاحسان بان تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات * ولما أمرهم بالتقوى علل ذلك مرهبا لهم بقوله تعالى (ان زلزلة الساعة) أى حركتها الشديدة للاشياء على الاسناد المجازى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا لفاعله ويصح ان يكون الى المفعول فيه على طريق الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف فى وقتها فعن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبى عند طلوع الشمس من مغربها الذى هو أقرب الساعة (شئ عظيم) اى أمر كبير وخطب جليل وحادث هائل لا تحتمل العقول وصفه وهذه الزلزلة تقع فاكتف بجميع ما يحدث فى ذلك اليوم الذى لا بد لكم من الحشر فيه الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير (يوم ترونها) اى الزلزلة أو الساعة أو كل مرضعة أضمرها قبل الذكر تهويلا للامر وترويعا للنفس (تذهل) بسبب ذلك (كل مرضعة) اى بالفعل اى تنسى وتغفل حائرة مدهوشة والعامل فى يوم تذهل (فان قيل) لم قال تعالى مرضعة ولم يقل مرضع (أجيب) بان المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها الطفل والمرضع التى شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقال مرضعة ليدل على أن ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن

للمتقين مصروف الى الجدل السابقة من قوله

الذي أرضعته وهو الطفل فما امامصدرية أوموصولة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقطه قبل التمام رعباوفزعا *(تنبيه)* هذا ظاهر على القول الثاني وهو قول علقمة والشعبي على أن ذلك يكون عند طلوع الشمس من مغربها وأما على القول الاول وهو قول الحسن على أن ذلك يوم القيامة كيف يكون ذلك فقيل هو تصوير لهولها قاله البيضاوي وقال البقاعي في المرضعة هي من ماتت مع ابنها رضيعا وفي ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل أحد يقوم على مامات عليه وهذا أولى فاني في حال كتابتي في هذا المحل حضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله تعالى ببركته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدره لترجيح هذا الثاني وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله المحرم سنة ست وخمسين وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام ويؤيد أن هذه الزلزلة [illegible]ون بعد البعث ماروى عن أبي سعيد الخدري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد في رواية والخير في يديك فينادى بصوت ان الله يامرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب ومابعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وساق بقية الآية وهو (وترى الناس سكارى) اى لما هم فيه من الدهشة والحيرة ثم بين الله تعالى ان ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى (وماهم بسكارى) اى من الشراب ولما نفى ان يكونوا سكارى من الشراب أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة بقوله (ولكن عذاب الله) ذى العزة والجبروت (شديد) فهو الذى أوجب ان يظن بهم السكر لان هوله أذهب عقولهم وطير تمييزهم ثم الحديث عند آخر الآية فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد في رواية قالوا يارسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الاسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار واني أرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا وفي رواية اني لارجو ان تكونوا ثلثي أهل الجنة وروى عمران بن حصين رضى الله عنه ان هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلا نرأ كثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اى يوم ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار وذلك نحو حديث ابى سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من امتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب قال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف وأمال الالف بعد الراء ابو عمرو وحمزة والكسائي محضة وورش بين بين والباقون بالفتح *ونزل في النضر بن الحرث وكان كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول

وابستعفف الى آخره وفيه

الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ومن الناس) اى المذبذبين (من) لا يسعى فى اعلاء نفسه وتهذيبها فيكذب فيبوء بسوء عمله لانه (يجادل فى الله) اى فى قدرته على ذلك اليوم وفى غير ذلك بعد ان جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم (بغير علم) بل بالباطل الذى هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة (ويتبع) بغاية جهده فى جداله (كل شيطان) محترق بالسوء مبعد باللعن (مريد) اى متجرد للفساد ولا شغل له غيره قال البيضاوى وأصله العرى اى عن الساتر (كتب) اى قدر وقضى على سبيل الحتم الذى لابد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم (عليه) اى على ذلك الشيطان (انه) اى الشأن (من تولاه) اى فعل معه فعل الولى مع وليه باتباعه والاقبال على ما يزينه (فانه يضله) بما يبغض اليه من الطاعات فيخطئ سبيل الخير (ويهديه) اى بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات (الى عذاب السعير) اى النار * ثم ألزم الحجة منكرى البعث بقوله تعالى (يا أيها الناس) اى كافة ويجوز ان يراد به المنكر فقط (ان كنتم فى ريب) اى شك وتهمة وحاجة الى البيان (من البعث) وهو قيام الاجسام بارواحها كما كانت قبل مماتها فتفكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة المرتبة الاولى قوله تعالى (فانا خلقناكم) بقدرتنا التى لا يتعاظمها شئ (من تراب) لم يسبق له اتصاف بحياة فى الخلق من تراب وجهان أحدهما انا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلاة والسلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب الثانى من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية وغذاء الحيوان ينتهى الى النبات قطعا للتسلسل والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله تعالى انا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم من نطفة) وحالها أبعد شئ عن حال التراب فانها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى من ماء دافق واصلها الماء القليل قاله البغوى وأصل النطف الصب قاله البيضاوى المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم من علقة) اى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولاشك ان بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة قوله تعالى (ثم من مضغة) اى قطعة لحم صغيرة وهى فى الاصل قدر ما يمضغ (مخلقة) اى مسواة لا نقص فيها ولا عيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء (وغير مخلقة) اى وغير مسواة فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك وقال مجاهد المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وقال قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال اى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك اى رب ذكر أم انثى وشقى ام سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق بأى ارض تموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم

معطوفان بالواو فتناسب ذكرهما للعطف وذكر

الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها والذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها فكأنه تعالى يقول انما نقلنا كم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من التراب والماء أولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما أبدأه بل هو أدخل في القدرة من تلك واهون في القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بان أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر (ونقر في الارحام) اى من ذلك لذى خلقناه (ما نشاء) اتمامه (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه آخر أربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها وقوة المخلقات وضعفها وكثرة تغذيه من الدماء وقلته الى غير ذلك من أحوال وشؤن لا يعلمها الا بارئها جلت قدرته وتعالت عظمته وما لم نشأ اقراره مجته الارحام وأسقطته دون التمام أو نحرقه فيضمحل المرتبة الخامسة قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين احدهما ان نبين قدرتنا والثاني ان نقر في الارحام من نقر حتى تولدوا في حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم وعظم أجسامكم المرتبة السادسة قوله تعالى (ثم) اى نمد أجلكم (لتبلغوا) بهذا الانتقال في اسنان الاجسام من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى الكهولة (أشدكم) اى الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كأنه شدة في الامور المرتبة السابعة قوله تعالى (ومنكم من يتوفى) اى عند بلوغ الاشد أو قبله (ومنكم من يرد) بالشيخوخة وبناه للمجهول اشارة الى سهولته عليه لاستبعاده لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط (الى أرذل) أى أخس (العمر) وهو سن الهرم فتنقص جميع قواه (لكيلا يعلم من بعد علم) كان أوتيه (شيئا) اى ليعود كهيئته الاولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك من هذا فتقول فلان فما يلبث لحظة الا سألك عنه (فان قيل) هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أجيب) بان معنى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقد علم بعود الانسان في ذهاب العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق قطعا أن الذي أعاده الى ذلك قادر على اعادته بعد الممات * ولما تم هذا الدليل على

الحكم ايضا ان الآيات البينات نزلت في المخاطبين

ساعة بحكم المقدمات وأصح النتائج وكان أول الآية دفيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلا
خر على البعث مشاهدا بقوله (وترى الارض هامدة) أى يابسة ساكنة سكون الميت (فاذا
زلنا) اى بمالنا من القدرة (عليها الماء اهتزت) أى تحركت وتأهلت لاخراج النبات (وربت)
ى ارتفعت وذلك اول ما يظهر منها للعين وزدت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن
تراب والماء وقوله تعالى (وأنبتت) مجاز لان الله تعالى هو المنبت واضيف الى الارض توسعا
ى أنبتت بتقديرنا الأنواع المتنوعة (من كل زوج) اى صنف (بهيج) اى حسن نضير من اشتات
لنبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومقاديرها قال
لجلال المحلى من زائدة ولم أر من ذكر ذلك من المفسرين * (تنبيه) * فى الآية اشارة الى أن
لنبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان المؤمن يترقى من نقص الى كمال ففى
لمعاد يصل الى كماله الذى اعد له من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود فى دار السلام مبرأ
ن عوارض هذا العالم * ولما قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة
ذكر امورا خمسة احدها قوله تعالى (ذلك) اى المذكور من بدء الخلق الى آخر احياء
لارض (بان) اى بسبب ان تعلموا ان (الله) اى الجامع لأوصاف الكمال (هو) اى وحده
الحق) اى الثابت الدائم وما سواه فان ثانيها قوله تعالى (وأنه يحيي الموتى) اى قادر على ذلك
والا لما احياء النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى (وانه على كل شئ) من الخلق وغيره
(قدير) انما امره اذا اراد شيأ أن يقول له كن فيكون رابعها قوله تعالى (وان الساعة) التى
تقدم ذكرها وتقدم التحذير منها وهى حشر الخلائق كلهم (آتية لاريب) اى لا شك (فيها) اى
وجه من الوجوه مما دل عليها مما لا سبيل الى انكاره بقول من لامرد لقوله وهو حكيم لا يخلف
ميعاده ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى (وأن الله يبعث)
بالاحياء (من فى القبور) بمقتضى وعده الذى لا يقبل الخلف وقد وعد الساعة والبعث فلابد
ان يفى بما وعده * ونزل فى ابى جهل بن هشام كما قاله ابن عباس (ومن الناس من يجادل) اى
بغاية جهده (فى الله) اى فى قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان
الذى لا مثل له ولا خفاء فيه (بغير علم) أتاه عن الله تعالى على لسان أحد من اصفيائه أعم من
ان يكون كتابا أو غيره (ولا هدى) ارشده اليه أعم من كونه بضرورة أو استدلال (ولا كتاب
منير) له نور منه صح لديه انه من الله تعالى ومن المعلوم انه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله الا
بالباطل وقيل قوله تعالى ومن الناس كرر كما كررت سائر الاقاصيص وقيل الاول فى المقلدين
وهذا فى المقلدين وقوله تعالى (ثانى عطفه) حال اى لاوى عنقه تكبرا عن الايمان كما قال
تعالى واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا والعطف فى الاصل الجانب عن يمين او شمال وقوله
تعالى (ليضل عن سبيل الله) علة للجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها
(فان قيل) على قراءة الضم ما كان غرضه فى جداله الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به
وما كان على قراءة الفتح مهتديا حتى اذا جادل خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال (أجيب)
عن الاول بان جداله لما أدى الى الضلال جعل كأنه غرضه وعن الثانى بان الهدى لما
كان معرضا له وتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال الباطل جعل كالخارج من الهدى

فى الجمل السابقة وماذكر بعد خال عن ذلك فتأمله

الى الضلال * ولما ذكر فعله وثمرته ذكر ما أعدله عليه فى الدنيا بقوله تعالى (له فى الدنيا خزى) اى اهانة وذل وان طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله ان لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه وما أعدله عليه فى الآخرة بقوله تعالى (ونذيقه يوم القيامة) الذى يجمع فيه الخلائق بالاحياء بعد الموت (عذاب الحريق) اى الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغنى ان احدهم يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة ويقال له حقيقة او مجازا (ذلك) اى العذاب العظيم (بما قدمت يداك) اى بعملك ولكن جرت عادة العرب ان تضيف الاعمال الى اليد لانها آلة أكثر العمل واضافة ما يؤدى اليه الى ذلك (وأن) اى وبسبب أن (الله ليس بظلام) اى بذى ظلم ما (للعبيد) وانما هو مجازيهم على أعمالهم او ان المبالغة لكثرة العبيد * ونزل فى قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت به خيرا واطمأن به وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا فينقلب عن دينه (ومن الناس من يعبد الله) اى يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما أمر الله به من طاعته (على حرف) فهو منزله كمنزلة من يكون على حرف شفير او جبل او غيره لا استقرار له وكالذى على طرف من العسكر فان رأى غنيمة استمر وان توهم خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى (فان أصابه خير) اى من الدنيا (اطمأن به) اى بسببه وثبت على ما هو عليه (وان أصابته فتنة) اى محنة وسقم فى نفسه وماله (انقلب على وجهه) اى رجع الى الكفر وعن أبى سعيد الخدرى ان رجلا من اليهود أسلم فاصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أقلنى فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت * ولما كان انقلابه هذا مفسدة لدنياه ولآخرته قال تعالى (خسر الدنيا) بفوات ما أمله منها او يكون ذلك سبب التقتير عليه قال تعالى ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وروى ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (والآخرة) بالكفر ثم عظم مصيبته بقوله تعالى (ذلك) اى الامر العظيم (هو) اى لا غيره (الخسران المبين) اى البين اذ لا خسران مثله ثم بين هذا الخسران الذى رده الى ما كان فيه قبل الايمان الحرفى بقوله تعالى (يدعوا) اى يعبد حقيقة أو مجازا (من دون الله) اى غيره من الصنم (ما لا يضره) ان لم يعبده (وما لا ينفعه) ان عبده (ذلك) اى الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد فى التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلاله * ولما كان الاحسان جالبا للانسان لان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها بين ان ما قيل فى جانب النفع انما هو على سبيل الفرض فقال تعالى (يدعو لمن) اى من (ضره) بكونه معبودا لانه يوجب القتل والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (أقرب من نفعه) الذى يتوقع منه بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها الى الله تعالى * (تنبيه) * علم مما تقرر ان اللام فى لمن مزيدة كما قال الجلال المحلى (فان قيل) الضرر والنفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها فى الآيتين وهذا متناقض (اجيب) بان المعنى اذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر بانه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع

(قوله مثل نوره كمشكاة) الاستئناف والحذف

ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ودخوله النار
بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التى ادعاها لها وقيل الآية الاولى فى الاصنام والثانية فى
رؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى (لبئس المولى) اى الناصر هو (ولبئس
العشير) اى الصاحب هو قال الرازى وهذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل
فى الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء
ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى (ان الله) اى الجامع
لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا)
تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان
(جنات تجرى من تحتها) اى فى اى مكان من أرضها (الانهار) * ولما بين سبحانه وتعالى حال
الفريقين قال تعالى (ان الله) اى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يفعل ما يريد) من اكرام من
يطيعه واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى (من كان يظن ان لن ينصره الله فى
الدنيا والآخرة) فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن كان يظن
خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) لم يجر له
ذكر فى هذه الآية (أجيب) بان فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله تعالى ان الله
يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى من فى أول الآية لانه
المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى المذكور واذا أمكن ذلك وعلى هذا المراد بالنصر
الرزق قال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله اى من يعطنى
اعطاه الله فكانه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) اى
بحبل (الى السماء) اى سقف بيته يشده فيه وفى عنقه (ثم ليقطع) اى ليختنق به بأن يقطع
نفسه من الارض كما فى الصحاح وقيل فليمدد حبلا الى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد فى دفع
نصر النبى صلى الله عليه وسلم على الاول او يحصل رزقه على الثانى وقرأ ورش وأبو عمرو وابن
عامر بكسر اللام والباقون بسكونها (فلينظر) ببصره وبصيرته (هل يذهبن) وان اجتهد
(كيده) فى عدم نصرة النبى صلى الله عليه وسلم اوفى تحصيل رزقه (ما يغيظ) من ذلك والمعنى
فليختنق غيظا فلا بد من نصرته صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته او ان ذلك لا يغلب القسمة فان
الارزاق بيد الله لا تنال الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر فجزع
اضرب برأسك الجدار ان لم ترض هذا مت غيظا ونحو ذلك والحاصل انه ان لم يصبر طوعا صبر
كرها واختلف فى سبب نزول هذه الآية على القول الاول فذكروا فيها وجوها أحدها كان
قوم من المسلمين لشدة غيظهم على الكفار يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت
ثانيها قال مقاتل نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع
الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ثالثها ان حساده واعداءه كثيرة وكانوا
يتوقعون ان لا ينصره وان لا يعينه على اعدائه فلما شاهدوا ان الله نصره غاظهم ذلك
(وكذلك) اى ومثل ما أنزلنا هذه الآيات لبيان حكمها واظهار أسرارها (أنزلناه) اى

اى مثل صفة نوره تعالى كصفة نور مشكاة فيها

القرآن الباقي وقوله تعالى (آيات بينات) اى معجز انظمها كما كان معجز أحكامها الحال وقوله تعالى (وان الله) اى الموصوف بالاكرام كما هو موصوف بالانتقام (يهدى) اى بآياته (من يريد) اى هدايته اى يثبته على الهدى معطوف على محل أنزلناه * ولما قال تعالى وان الله يهدى من يريد أتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه وبدأ بالقسم الاول بقوله (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الاقرار باللسان الذى هو أدنى وجوه الايمان ثم شرع فى القسم الثانى بقوله تعالى (والذين هادوا) اى انتحلوا دين اليهودية (والصابئين) وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها الى صابئ عم نوح عليه السلام وقيل لخروجهم عن دين الى دين آخر واطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم فى أصول دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق ايضا على قوم أقدم من النصارى يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار اليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم وقد أفتى الاصطخرى والمحاملى بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له أموالا كثيرة فتركهم والبلاء قديم وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة (والنصارى) اى الذين انتحلوا دين النصرانية (والمجوس) قال قتادة هم عبدة الشمس والقمر والنيران قال (والذين أشركوا) هم عبدة الاوثان قال مقاتل الاديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الاسلام وخمسة للشيطان وقيل خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن بجعل الصابئين مع النصارى لانهم فرع منهم كما مر على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة (ان الله) الذى هو أحكم الحاكمين (يفصل بينهم يوم القيامة) بادخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وأدخلت ان على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التأكيد ونحوه قول جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله) اى الجامع لجميع صفات الكمال (على كل شئ) من الاشياء كلها (شهيد) اى عالم به علم مشاهدة (ألم تر) اى تعلم (أن الله يسجد له) اى يخضع منقادا لامره سبحانه مسخرا لما يريد منه تسخير من هو فى غاية الاجتهاد فى العبادة والاخلاص فيها (من فى السموات ومن فى الارض) ان خصصت بذلك العاقل افهم خضوع غيره من باب اولى وان ادخلت غير العاقل فما التغليب ثم اتبعه بأشرف ما ذكر مما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون الله او عبد شئ منه فقال تعالى (والشمس والقمر والنجوم) من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر كنانة والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طئ وعطارد اسد قاله ابو حيان وروى عن عمرو بن دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكى فاذا هو طاوس فقال أعجبت من بكائى قلت نعم قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكى من خشية الله ولا ذنب له * ثم اتبع ذلك أعلى الذوات السفلية فقال (والجبال) اى التى قد نحتت منها الاصنام (والشجر) اى التى عبد بعضها (والدواب) اى التى عبد منها البقر كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تأبى عن تدبيره (وكثير من الناس) وهم المؤمنون بزيادة الخضوع سجودا هو منه عبادة مشروعة فخوله

مصباح المصباح فى زجاجة
فى القنديل والمصباح

الثواب (وكثير) اى من الناس (حق عليه العذاب) وهم الكافرون لانهم أبوا السجود المتوقف على الايمان (ومن يهن الله) اى يشقه (فما له من مكرم) اى مسعد لانه لا قدرة لغيره أصلا (ان الله) اى الملك الاعظم (يفعل ما يشاء) من الاكرام والاهانة لا مانع له من ذلك نقل عن على رضى الله تعالى عنه انه قيل له ان رجلا يتكلم فى المشيئة فقال له على يا عبد الله خلقك الله لما يشاء أو لما شئت قال بل لما يشاء قال فيمرضك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عيناك بالسيف * ولما بين تعالى أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى (هذان خصمان) اى المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (اختصموا) اى اوقعوا الخصومة بغاية الجهد (فى ربهم) اى دينه وروى عن قيس بن عباد قال سمعت أبا ذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين وعن ابن عباس قال لما بارز على وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال أنا على وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا أكفاء كرام فقال على أدعوكم الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز على شيبة فلم يلبث أن قتله وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق عليه فأتى على فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضى على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء فنحن أولى بالله منكم وعن ابن عباس أنها نزلت كذلك لكن قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانكم تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا انهذه خصومتهم فى ربهم وقيل المؤمنون والكافرون من أى ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار لما روى عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار انما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها وعن عكرمة فقالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته وهذا القول بعيد عن السياق لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى (فالذين كفروا) وهو الفصل بينهم المعنى بقوله تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت) اى قدرت (لهم) على مقادير جثثهم (ثياب من نار) اى نيران تحيط بهم احاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يسبلون الثياب فى الدنيا تفاخرا وتكبرا وعن ابراهيم التيمى انه قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من

ا الفصلة الموقوفة والشكل: الاجوبة فى

نحاس والتبس من الآنية التي اذا حمي أشد حرارة منه وقال في قوله (يصب) اي اذا ادخلوها (من فوق رؤسهم الحميم) قال ابن النحاس يذاب على رؤسهم ولكن المشهور انه الماء الحار وعن ابن عباس ٣ لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها والجملة حال من الضمير في لهم أو خبر ثان وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا في الوصل فان وقف على رؤسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم وحمزة على أصله في الوقف على رؤسهم بتسهيل الهمزة (يصهر) اي يذاب (به) من شدة حرارته (ما في بطونهم) من شحم وغيره (والجلود) فيكون أثره في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء اذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون (ولهم مقامع) جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود حديد وقيل سوط يضرب به الوجه والرأس ليرد المضروب عن مراده ردا عنيفا ثم نفي المجاز بقوله تعالى (من حديد) اي يقمعون بها روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن مقمعا من حديد وضع في الارض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) اي من تلك الثياب أو من النار (من غم) اي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم (أعيدوا فيها) اي ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن انهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ما طمعوا في الخروج لان الأرجل مقيدة والايدي موثقة ولكن يرفعهم لهبها وترده‍م مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول أكثروا ذكر النار فان حرها شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد (و) قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أي البالغ نهاية الاحراق * ولما ذكر تعالى ما لأحد الخصمين وهم الكافرون أتبعه ما للآخر وهم المؤمنون وغير الاسلوب فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفا على الذين كفروا وأسند الادخال فيه الى الله تعالى وأكده بان احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم فقال (ان الله) اي الذي له الامر كله (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم في الايمان (جنات تجري) اي دائما (من تحتها الانهار) اي المياه الواسعة أينما أردت من أرضها جرى لك نهر في مقابلة ما يجري من فوق رؤس أهل النار عن معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (يحلون فيها) من حليت المرأة اذا لبست الحلي في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى (من أساور) صفة مفعول محذوف اي حليا من أساور ومن زائدة أو تبعيضية وأساور جمع أسورة وهي جمع سوار * ولما كان المقصود الحث على التقوى المعلية الى الانعام بالفضل شوق اليه بأعلى ما يعرف من الحلية فقال (من ذهب) وقوله تعالى (ولؤلؤا) معطوف على أساور لا على ذهب لانه لم يعهد السوار منه الا أن يراد المرصعة وعن أبي موسى الاشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما

٣ قوله وعن ابن عباس في بعض النسخ وعن أبي سعيد فليحرر اه مصححه

القصد بل فصار المعنى

وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان ادنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل أساور أو باضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وابدل الهمزة الاولى الساكنة حرف مد السوسي وأبو بكر هذا حالة الوصل وأما الوقف فحمزة يبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله أيضا فيها الروم وقوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين في الدنيا في مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار في الدنيا حريرا ولباس المؤمنين دون ذلك وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن الزبير عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تلبسوا الحرير فان من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير انتهى وفي الصحيحين أيضا عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة قال البقاعي فيوشك المتشبه بالكفار في لباسهم ان يلحقه الله بهم فلا يموت مسلما اه والاولى ان يحمل ذلك على أنه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة أو على من استحله من الرجال المكلفين (وهدوا) أي في الدنيا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة ان لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدي هو القرآن وقال عطاء هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده (وهدوا الى صراط الحميد) أي طريق الله المحمود دينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فادخلوا الجنة التي هي أشرف دار عند خير جار وحلوا فيها أشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا بشرف الطرائق عكس الكفار فانهم اثروا الفاني لحضوره وأعرضوا عن الباقي مع شرفه لغيابه فدخلوا نارا كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعدما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى (ان الذين كفروا) أي أوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف (ويصدون) وان كان مضارعا على الماضي لان المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال أو استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن الى الفقراء لا يراد حال والاستقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه فالصد ودمنهم مستمر دائم للناس (عن سبيل الله) أي عن طاعته بانقسامهم طرق مكة يقول بعضهم لمن يريد يخرج فينا ساحر وآخر يقول شاعر وآخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فانه يريد ان يردكم عن دينكم حتى قال من أسلم لم يزالوا بي حتى جعلت في أذني الكرسف مخافة ان أسمع شيئا من كلامهم وكانوا يؤذون من أسلم الى غير ذلك من أعمالهم (و) يصدون عن (المسجد الحرام) أن تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلاة والحج والاعتمار ممن هو أهل ذلك من أوليائه ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه بقوله تعالى (الذي جعلناه) بما لنا من العظمة (للناس) أي كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى (سواء العاكف) أي المقيم (فيه والباد) أي الطارئ من البادية وهو الجائي اليه من غربة وقال بعضهم يدخل في العاكف الغريب اذا جاءه للتعبد وان لم يكن

قوله ومصباح في مشكاة
زجاجة (فان قلت) لم مثل

من أهله قال الزمخشري وقد استشهد بهذا أصحاب أبي حنيفة قائلين ان المراد بالمسجد الحرام
مكة على امتناع جواز بيع دور مكة واجارتها انتهى وأيضا هو مذهب ابن عمر وعمر بن
عبد العزيز واسحق الحنظلي المعروف بابن راهويه قال البيضاوي وهو مع ضعفه معارض
بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم الآية وشرى عمر دار السجن فيها من غير نكير انتهى
ووجه الرازي الضعف بقوله لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام
او في الاكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من
الاوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى
واستدل ايضا للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له أسامة بن زيد يا رسول الله أتنزل غدا
بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور وكان عقيل ورث أبا طالب دون علي
وجعفر لانهما كانا مسلمين ولا يورث الا ما كان الميت مالكا له قال الروياني ويكره بيعها
واجارتها للخروج من الخلاف وتابعه النووي في مجموعه وقال انه خلاف الاولى لانه لم يرد فيه
نهي مقصود والاول كما قال الزركشي هو المنصوص بل اعترض على النووي فانه صرح
بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد في ذلك نهي مقصود * (تنبيه) * محل الخلاف بين
العلماء في بيع نفس الارض أما البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف اى اذا لم يكن من أجزاء
ارضها قيل ان اسحق الحنظلي ناظر الشافعي رضي الله تعالى عنه بمكة في بيع دور مكة فاستدل
الشافعي بما مر واستدل هو على المنع بقوله حدثني بعض التابعين بانها لا تباع فقال له الشافعي
لو قام غيرك مقامك لامرت بفرك أذنيه اقول لك قال الله ورسوله تقول حدثني بعض التابعين
وقال الرازي فقال اسحق فلما علمت ان الحجة لزمتني تركت قولي وقرأ حفص سواء بالنصب على
انه ثاني مفعولي جعلناه اى جعلناه مستويا العاكف فيه والباد والباقون بالرفع على ان
الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس حالا من الهاء ويصح ان يكون حالا من المستكن في
للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلناه وقرأ ورش وأبو عمرو البادي باثبات الياء بعد الدال وصلا
لا وقفا وأثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يرد فيه) اى المسجد
الحرام (بالحاد بظلم) اى بميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وقيل
الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ منهي عنه من قول أو فعل حتى شتم
الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شئ من محظورات الاحرام من قتل صيد
أو قطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك او تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد
هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام بمكة بدليل
ما روى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد
وعن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان
احدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد ان يعاتب اهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال
كنا نحدث ان من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله * (تنبيه) * قوله بالحاد بظلم
حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا
عن القصد ظالما (نذقه من عذاب اليم) اى مؤلم اى بعضه وخبر ان محذوف لدلالة جواب

الله نوره اى معرفته في
قلب المؤمن نور والمصباح

الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم فكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به فقال تعالى (واذ) اى واذكر اذ (بوأنا لابراهيم مكان البيت) اى جعلنا له مكان البيت مبوأ أى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت رفع الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله ابراهيم عليه السلام مكانه بريح ارسلها يقال لها الخجوج كشفت ما حوله فبناه على أسه القديم وقيل بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على دوري فبنى عليه وعن عطاء بن أبي رباح قال لما اهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه في الارض ورأسه في السماء يسمع تسبيح أهل السماء ودعاءهم وأنس اليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت الى الله تعالى في دعائها وقيل في صلاتها فاخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش وقيل أول من بنى البيت ابراهيم لما روى وورد في الصحيحين عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله اى مسجد وضع أولا قال المسجد الحرام قلت ثم اى قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم فسر التبوئة بقوله تعالى (ان لا تشرك بي شيأ) فابتدأ بأس العبادة ورأسها وعطف على النهي قوله تعالى (وطهر بيتي) اى عن كل ما لا يليق به من الاوثان والاقذار وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل (للطائفين) اى الذين يطوفون بالبيت (فان قيل) كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (أجيب) بان التبوئة لما كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين وقال ابن عباس للطائفين بالبيت من غير أهله (والقائمين) اى المقيمين (والركع السجود) اى المصلين من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لان المصلي لا بد أن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلاة باركانها للدلالة على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت (وأذن في الناس) اى اعلمهم ونادفيهم (بالحج) وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المخصوصة وفي المأمور بذلك قولان أحدهما وعليه أكثر المفسرين أنه ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له أذن في الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد ابراهيم الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى صعد على الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما بقي شئ سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر أو أكمة أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج احد حتى تقوم الساعة الا وقد اسمعه ذلك النداء فمن اجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين او أكثر فيحج مرتين او أكثر بذلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل أبي قبيس

دون نور والشمس مع ان نورها أتم (قلت) لان

يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتا وأوجب الحج عليكم اليه فاجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فاجابه كل من كتب له ان يحج من أصلاب الرجال وارحام الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال لما امر الله ابراهيم بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثاني ان المأمور بذلك هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بان ما جاء في القرآن وأمكن حمله على ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى لان قوله تعالى واذ بوأنا تقديره واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب امر أن يفعل ذلك في حجة الوداع روى عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر (يأتوك) اى يأتوا بيتك الذي بنيته لذلك مجيبين اصوتك باذنتنا سامعين طائعين مخبتين خاشعين من أقطار الارض كما يجيبون صوت الداعي من قبلنا اذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك (رجالا) اى مشاة على ارجلهم جمع راجل كقائم وقيام (و) ركبانا (على كل ضامر) اى بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والانثى *(تنبيه)* على كل ضامر حال معطوف على حال كأنه قال رجالا وركبانا وقوله تعالى (يأتين) صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع (من كل فج) اى طريق واسع بين جبلين (عميق) اى بعيد روى سعيد بن جبير باسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بمائة ألف حسنة وفي هذا دلالة على ان المشي افضل من الركوب وفي ذلك خلاف بين الائمة محله كتب الفقه * ولما كان الانسان ميالا الى الفوائد مشوقا الى جميل العوائد علل الاتيان بما رغبه فيه محاه من فضله ما يقصده من امر المعاش بقوله تعالى (ليشهدوا) اى ليحضروا حضورا تاما (منافع لهم) واختلف في تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي ان يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما قال الرازي أولى فيأتون لتلك المنافع ينتقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ومن مشهد الى مشهد مجموعين بالدعوة خاشعين بالهيبة خائفين من السطوة راجين للمغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون الى مساكنهم كالسائرين الى مواقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى داري النعيم والجحيم فيا أيها المصدقون بان خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فاجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله تعالى حجه على بعد أقطارهم وتنائي دارهم ممن كان موجودا في ذلك الزمان وممن كان في ظهور الآباء والامهات الاقربين والابعدين صدقوا ان الداعي من قبلنا بالنفخ في الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده أو سلطنا عليه الارض فرقناه حتى صار ترابا وما بين ذلك لان الكل علينا يسير قال الزمخشري وعن أبي حنيفة رحمه الله انه كان يفاضل بين العبادات كلها قبل ان يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص * ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تثمر الا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى (ويذكروا اسم الله) اى الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان

الاقبال والقاب في الصدر
المقصود وتقبيل النور في

ج المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسمه وا ختلف فى الايام المعلومات فى قوله تعالى (فى أيام معلومات) فالذى عليه أكثر المفسرين وهو اختيار الشافعى وأبى حنيفة انه عشر ذى الحجة واحتجوا بانها معلومة عند الناس بحرصهم على علمها من أجل ان وقت الحج فى آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام وكذلك الذبائح وقت منها وهو يوم النحر وعن ابن عباس أنها أيام التشريق وقيل يوم عرفة الى آخر أيام التشريق وقيل يوم النحر الى آخر أيام التشريق واستدل لهذا بقوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهى الابل والبقر والغنم من الهدايا والضحايا اى يذكر واسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحايا والهدايا يكون فى هذه الايام وتقدم الكلام على الايام المعدودات فى سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله فى أيام معدودات وقوله تعالى (فكلوا منها) اى من لحومها أمر اباحة وذلك أن الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيأ فامر الله تعالى بمخالفتهم واتفق العلماء على أن الهدى اذا كان تطوعا يجوز للمهدى أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله فى قصة حجة الوداع فاتى على ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ما غبر اى ما بقى وأشركه فى بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة اى بقطعة فجعلت فى قدر فطبخت فاكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم واختلفوا فى الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى أن يأكل شيأ منه قال الشافعى رضى الله عنه لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضى الله عنهما لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال احمد واسحق وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن اصحاب ابى حنيفة انه يأكل من كل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى (واطعموا البائس) اى الذى اصابه بؤس اى شدة (الفقير) اى المحتاج من ايجاب وقد قيل به فى الاول (ثم ليقضوا تفثهم) اى يزيلوا أوساخهم وشعثهم كقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) من الهدايا والضحايا (وليطوفوا) طواف الافاضة الذى به تمام التحلل (بالبيت العتيق) اى القديم لانه أول بيت وضع للناس وقال ابن عباس سمى عتيقا لان الله تعالى أعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى منه (فان قيل) قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع (أجيب) بانه ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه ابرهة فعل به ما فعل وقيل لان الله تعالى اعتقه من الغرق فانه رفع فى أيام الطوفان وقال مجاهد لانه لم يملك قط وقيل بيت كريم اى العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتاق الخيل والطير والطواف ينقسم الى ثلاثة هذا او يدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر تركه بدم لانه ركن الثانى طواف الوداع ووقته عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم الثالث طواف القدوم وهو مستحب للحاج والحلال اذا قدم مكة روت عائشة رضى الله تعالى عنها ان أول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى

والصدر فى البدن كالمصباح
والمصباح فى الشكاة والمشكاة

الله عليه وسلم انه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح أبو بكر الواو من وليوفوا وشدد الفاء وقوله تعالى (ذلك) خبر مبتدا مقدر اى الامر أو الشأن ذلك المذكور كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم اذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا وقد كان كذا (ومن يعظم) اى بغاية جهده (حرمات الله) ذى الجلال والاكرام كلها وهى ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل (فهو) اى التعظيم الحامل له على امتثال الامر فيها على وجهه واجتناب المنهى عنه كالذبح بذكر اسم غير الله والطواف عريانا (خير) كائن (له عند ربه) اى الذى أسدى اليه كل ما هو فيه من النعم في الآخرة ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم انه تعالى بين احكام الحج بقوله تعالى (وأحلت لكم الانعام) اى أكلها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم (الا ما يتلى) اى على سبيل التجديد مستمرا (عليكم) تحريمه في قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم لما عرض من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده واياكم ان تحرموا مما احل شيأ كتحريم عبدة الاوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وان تحلوا مما حرم الله شيأ كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك ولما فهم من ذلك حل السوائب ونحوها وتحريم المذبوح للانصاب وكان سبب ذلك كله الاوثان تسبب عنه قوله تعالى (فاجتنبوا) اى بغاية الجهد اقتداء بابيكم ابراهيم عليه السلام الذى تقدم الايصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة (الرجس) اى القذر الذى من حقه ان يجتنب من غير أمر ثم بينه وميزه بقوله تعالى (من الاوثان) اى الذى هو الاوثان كما تجتنب الانجاس فهو بيان للرجس وتمييز له كقولك عندى عشرون من الدراهم وسمى الاوثان رجسا وكذا الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيه يعنى انكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم ان تنفروا عن هذه الاشياء مثل تلك النفرة ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه جعل العلة في اجتنابه انه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور لان المشرك زعم ان الوثن تحق له العبادة كانه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيأ لتماديه في القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما ان الافك من أفكه اذا صرفه فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل قول الزور قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقيل هو شهادة الزور لما روى أبو داود والترمذى انه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه الكريم وقال عدلت شهادة الزور والاشراك بالله ثلاث مرات ثم تلا هذه الآية وقوله تعالى (حنفاء لله) اى مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه (غير مشركين به) تأكيد لما قبله وهما حالان من الواو (ومن يشرك) اى يوقع شيأ من الشرك (بالله) الذى له العظمة كلها بشئ

والزجاجة هى
في الزجاجة وهذا التمثيل
القنديل

من

من الاشياء في وقت من الاوقات (فكأنما خر) اى سقط (من السماء) اى العلو ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط اليه من حضيض الاشراك (فتخطفه الطير) اى تأخذه بسرعة وهو نازل في الهواء قبل ان يصل الى الارض (أو تهوي به الريح) اى حيث لم يجد في الهواء ما يمسكه (في مكان) من الارض (سحيق) بعيد فهو لا يرجى خلاصه (تنبيه) قال الزمخشري يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك بالله تعالى فقد اهلك نفسه اهلاكا ليس بعده هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة اه قوله يطوح به الباء مزيدة للتأكيد قال الجوهري طوحه اى توهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو سبب عنه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) اى الامر العظيم الكبير فمن راعاه فاز ومن حاد عنه خاب ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا القدر فقال تعالى (ومن يعظم شعائر الله) جمع شعيرة وهي البدن التي تهدى للحرم لانها من معالم الحج بان يختارها عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن الهدي والاضحية والرقبة وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه اهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابي جهل في أنفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه (فانها) اى تعظيمها ناشئ (من تقوى القلوب) فمن للابتداء فان جعلت تبعيضية فلا بد من حذف تقديره فان تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديره لانه لا بد من راجع من الجزاء الى من ليرتبط به وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى التي اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الاعضاء وسميت تلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به أنها هدي كطعن حديدة بسنامها قال البقاعي ولعله ماخوذ من الشعر لانها اذا جرحت قطع شئ من شعرها او ازيل عن محل الجرح فيكون من الازالة (لكم فيها) اى البدن (منافع) كركوبها والحمل عليها ما لا يضرها وعن ابراهيم من احتاج الى ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال أصحاب الرأي لا يركبها الا اذا اضطر اليها (الى أجل مسمى) وهو وقت نحرها (ثم محلها) اى مكان حل نحرها (الى البيت العتيق) اى عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب في قضاء المناسك الى انقضاء آجالها وبمحلها محل الناس من احرامهم الى البيت يطوفون به طواف الزيارة (ولكل أمة) اى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) اى متعبدا

لا يستقيم الا فيما ذكر اد
لان نور المعرفة آلات

وقربانا يتقربون به الى الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي منسكا هنا وفي اخر السورة بكسر السين
في الموضعين فيكون بمعنى الوضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك (ليذكروا اسم الله) اى
الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله أكبر
لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال
تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على ان القربان
يجب ان يكون من الانعام (فالهكم) اى الذى شرع هذه المناسك كلها (اله واحد) وان
اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب اختصاصه بالعبادة فلهذا
قال تعالى (فله) وحده (اسلموا) اى انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم في كل ما أمر به
أو نهى عنه (وبشر المخبتين) اى المطيعين المتواضعين من الخبت وهو المطمئن من الارض
وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا * ثم بين علاماتهم بقوله تعالى (الذين اذا ذكر الله)
اى الذى له الجلال والجمال (وجلت) اى خافت خوفا مزعجا (قلوبهم) فيظهر عليهم الخشوع
والتواضع لله تعالى (والصابرين) الذين صار الصبر عادتهم (على ما أصابهم) من الكلف
والمصائب * ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى (والمقيمي الصلوة) في أوقاتها
والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق بافعال الحج وغيره ما عسى ان يحصل ولذلك عبر
بالوصف دون الفعل اشارة الى انه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل
الا الراسخ في حبها فهم لما تمكن حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائما في صلاة
(ومما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخير من الهدايا التى يغالون في أثمانها وغير ذلك احسانا الى
خلق الله تعالى * ولما قدم تعالى الحث على التقرب بالانعام كلها وكانت الابل أعظمها خلقا
واجلها في انفسهم أمرا خصها بالذكر فقال تعالى (والبدن) اى الابل المعروفة جمع بدنة كخشب
وخشبة وانتصابه بفعل يفسره (جعلناها لكم من شعائر الله) اى من اعلام دينه التى شرعها
الله تعالى وقيل لانها تشعر وهى ان تطعن بحديدة في سنامها ليعلم بذلك أنها هدى (لكم فيها
خير) اى نفع في الدنيا وثواب في العقبى كما قال ابن عباس دنيا وأخرى وروى الترمذى وحسنه
عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن آدم يوم النحر
عملا احب الى الله من هراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيامة بقرونها واظلافها واشعارها وان الدم
ليقع من الله بمكان قبل ان يقع الى الارض فطيبوا بها نفسا وروى الدارقطنى في السنن عن ابن
عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق في شئ أفضل من نحيرة في يوم عيد
وعن بعض السلف أنه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له في ذلك فقال سمعت ربى
يقول لكم فيها خير (فاذكروا اسم الله عليها) اى على ذبحها بالتكبير حال كونها (صواف) اى
قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث (فاذا
وجبت جنوبها) اى سقطت وطابت به بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلا من وجب
الحائط وجبة سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جاء في حديث مرفوع
ولا تعجلوا النفوس أن تزهق وقوله تعالى (فكلوا منها) اى اذا كانت تطوعا أمر اباحة دفعا لما

يتوقف هو على اجتماعها
كالذهن

قد يظن أنه يحرم الأكل منها للأمر بالتقرب بها لله تعالى (وأطعموا القانع) أى المتعرض للسؤال بخشوع وانكسار (والمعتر) أى السائل وقيل بالعكس وهو قول الشافعى رحمه الله تعالى قال فى كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل والمعتر هو الزائر وقيل القانع هو الجالس فى بيته المتعفف الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة يجىء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) أى مثل هذا التسخير العظيم الذى وصفناه من نحرها قياما (سخرناها) بعظمتنا التى لولاها ما كان ذلك (لكم) وذللناها لكم مع عظمها وقوتها تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحش التى هى أصغر منها جرما وأقل قوة (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم لتعرفوا أن ما ذللها لكم الا الله تعالى فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بان لا تحرموا منها الا ما حرم عليكم ولا تحلوا منها الا ما أحل وتهدوا منها ما حث على اهدائه وتصرفوا بحسب ما أمركم * ولما حث تعالى على التقرب بها مذكورا اسمه عليها قال تعالى (لن ينال الله) الذى له صفات الكمال (لحومها) المأكولة (ولا دماؤها) المهراقة أى لا يرفعان اليه (ولكن يناله التقوى منكم) أى يرفع اليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه أى يقبله وقيل كان أهل الجاهلية اذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت * ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى (كذلك) أى التسخير العظيم (سخرها لكم) بعظمته وغناه عنكم (لتكبروا الله على ما هداكم) أى أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا فاختصر الكلام بان ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته * ثم وعد من امتثل الامر بقوله تعالى (وبشر المحسنين) أى المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (يدفع عن الذين آمنوا) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أى يبالغ فى الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعم وان كان فى الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين فلذلك قال تعالى بعده (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يكرم كما يفعل المحب (كل خوان) فى أمانته (كفور) لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم فى قتالهم بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) أى المشركين والمأذون لهم فيه وهو القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه (بأنهم) أى بسبب أنهم (ظلموا) فكانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول

والفهم والعقل واليقظة وغيرها من الصفات

لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فانزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم باعيانهم مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فاذن الله لهم فى قتال الكفار الذين منعوهم من الهجرة بانهم ظلموا واعتدوا عليهم بالايذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها * ولما كان التقدير فان الله أراد اظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى (وان الله) أى الذى هو الملك الاعلى (على نصرهم لقدير) وفى ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) الى الشعب والحبشة والمدينة (بغير حق) أوجب ذلك ما أخرجوا (الا أن يقولوا) أى بقولهم (ربنا الله) وهذا القول حق والاخراج به اخراج بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله * (تنبيه) * الذين أخرجوا مجرور نعت للذين يقاتلون أو بدل منه أو منصوب على المدح أو مرفوع خبر مبتدا محذوف (ولولا دفع الله) أى المحيط بكل شئ علما (الناس بعضهم ببعض) أى بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمانهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى (لهدمت) أى خربت (صوامع) وهى معابد صغار للرهبان مرتفعة (وبيع) كنائس للنصارى (وصلوات) أى كنائس لليهود وسميت بها لانها يصلى فيها وقيل هى كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها) أى هذه المواضع المذكورة (اسم الله) العلى العظيم (كثيرا) وتنقطع العبادات بخرابها وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيرا (فان قيل) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (أجيب) بانها أقدم فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولان الذكر آخر العمل فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الامم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون والسابقون وقيل أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء وقرأ نافع وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون (ولينصرن الله) أى الملك الاعظم (من ينصره) أى ينصر دينه وأولياءه كائنا من كان منهم أو من غيرهم وقد أنجز الله تعالى وعده بان سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله) أى الذى لا كفء له (لقوى) أى على ما يريد (عزيز) أى منيع فى سلطانه وقدرته وقوله تعالى (الذين ان مكناهم) أى بما لنا من القدرة (فى الارض) باعلائهم على ضدهم (أقاموا الصلوة) أى التى هى عماد الدين الدالة على المراقبة والاعراض عن تحصيل الفانى (وآتوا الزكوة) أى المؤذنة بالزهد فى الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل (وأمروا بالمعروف) أى الذى أمر الله تعالى ورسوله به (ونهوا عن المنكر) أى الذى نهى الله ورسوله عنه وصف للذين هاجروا وهو اخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والانصار رضى الله تعالى عنهم وعن عثمان رضى الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا * (تنبيه) * فى ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة

الخلفاء

الهدمة كان قوا القديل يتوقف على اجتماع

الخلفاء الراشدين اذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب أن يكونوا على الحق ولا يجوز حمل الآية على أمير المؤمنين على وحده لان الآية دالة على الجمع وعن الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب بدل من قوله تعالى من ينصره (ولله) أى الملك الاعلى (عاقبة الامور) أى آخر أمور الخلق ومصيرها اليه فى الآخرة فلا يكون لاحد فيها أمر حتى انه لا ينطق أحد الا باذن منه * ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن فى مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجرى مجرى التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ماهم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم) أى قبل قومك (قوم نوح) وتأنيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين فى قدرته وان كانوا من أشد الناس (وعاد) أى ذو الابدان الشداد قوم هود (وثمود) أولو الابنية الطوال فى السهول والجبال قوم صالح (وقوم ابراهيم) المتجبرون المتكبرون (وقوم لوط) الانجاس بما لم يسبقهم اليه أحد من الناس (وأصحاب مدين) أرباب الاموال المجموعة من خزائن الضلال فانت يا أشرف الخلق لست باوحدى فى التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك * ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه فكان تكذيبه فى غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين أطبقوا على تكذيبه القبط وأما قومه فما كذبه منهم الا أناس يسير فقال تعالى (وكذب موسى) وفى ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية (فاملبت للكافرين) اى أمهلتهم بتأخير العقاب عنهم الى الوقت الذى ضربته لهم وعبر عن طول الاملاء باداة التراخى لزيادة التأسية فقال تعالى (ثم أخذتهم) أخذ عزيز مقتدر ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام فى قوله تعالى (فكيف كان نكير) أى انكارى لافعالهم على انه كان فى أخذهم عبر وعجائب وأهوال وغرائب حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا والاستفهام للتقرير أى وهو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم باعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم تؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وان كانوا أمكن الناس فلا يحزنك أمرهم * (تنبيه) * أثبت ورش الياء بعد الراء من نكير فى الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا (وكأين) اى وكم (من قرية) وقيل معنى كأين رب وقوله تعالى (أهلكتها) قرأه ابو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها ألف والمراد اهلها بدليل قوله تعالى (وهى) اى والحال أنها (ظالمة) اى أهلها بكفرهم ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت هلاكها هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية تصير منهدمة حصل هلاك من فيها وان كان الاول أقرب (فهى) أى فتسبب عن اهلاكها أنها (خاوية) أى منهدمة ساقطة أى جدرانها (على عروشها) أى سقوفها اذ كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو عرش والخاوى الساقط من خوى النجم اذا سقط والخالى من خوى المنزل اذا خلا من اهله وخوى بطن الحامل * (تنبيه) * قوله على عروشها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية فيكون المعنى انها ساقطة على عروشها اى سقوفها اى تقعقعت الاخشاب

القنديل والزيت والفتيلة وغيرها اولان نور الشمس

زلا من كثرة الامطار وغير ذلك من الاشرار فسقطت ثم سقط عليها الجدران فسقطت فوق السقوف أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها واما أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هي خاوية هي على عروشها اى قائمة مظلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض فصارت فى قرار الحيطان مائلة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وقوله فهي خاوية جملة معطوفة على اهلكناها الاعلى وهى ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك ليس حال خرابها فلا محل لها ان نصبت كأين بمقدر يفسره أهلكناها لانها معطوفة على جملة اهلكناها كما مر وهي مفسرة لامحل لها وان رفعت كاين بالابتداء فمحلها رفع خبرا ثانيا لكاين والخبر الاول اهلكناها (و) كم من (بئر معطلة) اى متروكة بموت اهلها (وقصر مشيد) اى رفيع خال بموت اهله * (تنبيه) * علم مما قدرته ان بئر معطوف على قرية وهو يقوى على ان عروشها بمعنى مع أوجه ٣ وروى ان هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهى بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمروا عليهم جهلس بن جلاس وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما فارسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام نبيا فقتلوه فاهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم وقوله تعالى (أفلم يسيروا) أى كفار مكة (فى الارض) يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (فتكون) أى فتسبب عن سيرهم أن تكون (لهم قلوب) واعية (يعقلون بها) ما رأوه بابصارهم مما نزل بالمكذبين قبلهم (أو) أى أو يكون لهم ان كانوا عمى الابصار كما دل عليه جعل هذا قسيما (آذان يسمعون بها) أخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا (فانها) أى القصة (لا تعمى الابصار) ويجوز أن يكون الضمير مبهما يفسره الابصار وفى تعمى راجع اليه والمعنى ان ابصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها وانما العمى لقلوبهم كما قال تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ولا يعتد بعمى الابصار فانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب (فان قيل) فاى فائدة فى ذكر الصدور (أجيب) بان الذى قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة للبصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله فى القلب استعارة وتمثيل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تبيين وفضل تعريف ليتقرر ان مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك فقولك الذى بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لان محل المضاء هو لا غيره فكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهوا منى ولكن تعمدت به اياه بعينه تعمدا قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا فى الدنيا أعمى افأكون فى الآخرة اعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) الذى توعدتهم به تكذيبا واستهزاء (و) الحال انه (ان يخلف الله) اى الذى لا كفء له (وعده) لامتناع الخلف فيه وفى خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم

يشرق متوجها الى العالم السفلي ونور المعرفة يشرف

٣ قوله وهو يقوى الخ هكذا بالاصول التى بايدينا والعل الظاهر وهو يقوى أن على عروشها اه مصححه

ما وعدهم به ولو من بعد حين لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة وقد انجزه يوم بدر (وان يوما عند ربك) اى المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من أيام الآخرة بالعذاب (كألف سنة مما تعدون) فى الدنيا وطول ايامه حقيقة أو من حيث ان أيام الشدائد مستطالة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وكأين من قرية أمليت لها) اى امهلتها كما امهلتكم (وهى ظالمة) كظلمكم بالاستعجال وغيره (ثم أخذتها) اى بالعذاب والمراد اهلها (والى المصير) اى المرجع فينقطع كل حكم دون حكمى ففيه وعيد وتهديد (فان قيل) لم قال فكأين من قرية اهلكتها بالفاء وقال هنا بالواو (أجيب) بان الاولى وقعت بدلا عن قوله تعالى فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدم من الجملتين المعطوفتين بالواو أعنى قوله تعالى ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون * ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول وانما يطلب من المرسل أمره الله تعالى بان يديم لهم التخويف والانذار بقوله تعالى (قل) اى لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما اخبرناك به من عنادهم (يا ايها الناس) اى جميعا من قومك وغيرهم (انما أنا لكم نذير مبين) اى بين الانذار والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لان صدر الكلام وسياقه للمشركين وانما ذكر المؤمنين وثوابهم قوله (فالذين آمنوا) اى اقروا بالايمان (وعملوا) اى تصديقا لدعواهم ذلك (الصالحات لهم مغفرة) اى لما فرط منهم (ورزق) اى فى الدنيا بالغنائم وغيرها وفى الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (كريم) اى لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة فى غيظهم * ولما كان فى سياق الانذار قال معبرا بالماضى زيادة فى التخويف (والذين سعوا) اى اوقعوا السعى ولو مرة واحدة (فى آياتنا) اى القرآن بابطالها (معجزين) من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم اى ينسبونهم الى العجز ويثبطونهم عن الايمان او مقدرين عجزنا عنهم وقرأ ابن كثير وابو عمرو بتشديد الجيم بعد العين على انها حال مقدرة والباقون بالف بعد العين وتخفيف الجيم اى مسابقين مشاقين للساعين فيها بالتثبيط (أولئك) البعداء البغضاء (أصحاب الجحيم) اى النار استحقاقا بما سعوا فيسكنهم فيها ليعلموا انهم هم العاجزون * ولما لاح من ذلك ان الشيطان ألقى شبها يفاخرون فيها بجدالهم فى دين الله الذى امر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف عليه تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وما ارسلنا) اى بعظمتنا (من قبلك) ثم اكد الاستغراق بقوله تعالى (من رسول) وهو نبى أمر بالتبليغ (ولا نبى) وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور فمعنى أرسلنا اوحينا فالنبى اعم من الرسول ويدل عليه ما رواه الامام احمد من أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسل فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبى غير الرسول من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الآية عليه أيضا والرسول من يأتيه الملك والنبى يقال له ولمن يوحى اليه فى المنام (الا اذا تمنى) أى تلا على الناس ما أمره الله تعالى به أو حدثهم به واشتهى فى نفسه أن يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم (ألقى الشيطان) من التشبيه والتخييلات (فى أمنيته) أى فيما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل ما يتلقفه

متوجها الى العالم العلوى كنور المصباح ولكثرة نفع

منه أو ليائهم فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم
وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول
غرورا كما يفعل هؤلاء فيما يفترون به في وجه الشريعة أصولا وفروعا من قولهم في القرآن
شعر وسحر وكهانة وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم ان ما قتله الله تعالى بالموت
حتف أنفه أولى بالاكل مما ذبح وقولهم نحن أهل الله وسكان حرمه ولا نخرج من الحرم
فنقف في الحج بالمشعر الحرام وتقف الناس بعرفة ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه
وأما غيرنا فلا يطوف الا عاريا ذكرا كان أو أنثى الا أن يعطيه أحدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما
يريدون أن يطفؤا به نور الله تعالى وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية وانظارهم الذين الحدوا
فيها يضل الله تعالى بها من يشاء ثم يمحوها ممن أراد من عباده وما أراد من أمره (فينسخ) أي
فيتسبب عن القائه أنه ينسخ (الله) أي المحيط بكل شئ علما وقدرة (ما يلقي الشيطان) فيبطله
بايضاح أمره (ثم يحكم الله آياته) أي ثم يجعلها جلية فيما يريد منها وأدل دليل على ان هذا هو
المراد من الافتتاح بالمعاجزة في الآيات الختام بقوله عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير
(والله عليم) باحوال خلقه (حكيم) فيما يفعله بهم وقيل انه صلى الله عليه وسلم حدث نفسه
بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين لما رأى
رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم لما جاءهم به
تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات
يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن يأتيه من الله تعالى شئ لم ينفروا عنه
وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا
الى أن قال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون ومضى
رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون لسجوده
وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى
الوليد بن المغيرة وابو أحيحة سعيد بن العاص فانهما اخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على
جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش
وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا باحسن الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله تعالى
يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده فاذا جعل لها محمد نصيبا فنحن معه
فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على
الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من
الله تعالى خوفا شديدا فانزل الله تعالى هذه الآية تعزية له وكان به رحيما وسمع بذلك من كان
بارض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد اسلمت
أهل مكة فرجع اكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم أحب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم أن
الذي كانوا يتحدثون به من اسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم الا بجوار مستخفيا
فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله تعالى فغير

الزيت وخلوصه عما يخالطه غالبا وقع التشبيه

ذلك قال الرازي هذه رواية عامة المفسرين الظاهرية أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فبوجوه أحدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي ثالثها قوله تعالى وما ينطق عن الهوى وأما السنة فهو ما روي عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل فقد روى البخاري في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه أحدها أن من جوز على النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان النبي كان معظم سعيه في نفي الاوثان ثانيها قوله تعالى فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من نسخ هذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذ أراد الله تعالى احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى ثالثها وهو أقوى الوجوه لو جوزنا ذلك ارتفع الايمان عن شرعه ولجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك فيبطل قوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه وزاد الرازي أدلة أخرى على ذلك ثم قال وقد عرفنا ان هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو الذي يطمئن اليه القلب وان أطنب ابن حجر العسقلاني في صحتها ثم قال وحينئذ فيتعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق الخ انتهى وعلى القول بها قد سلك العلماء في ذلك مسالك أحسنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه فظنها من قوله وأشاعها وقال البيضاوي بعد أن ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه انتهى قال ابن الاثير والغرانيق هنا الاصنام وهي في الاصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق سمي به لبياضه قال وكانوا يزعمون أن الاصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى أي قرأ كقول حسان في حق عثمان بن عفان

تمنى كتاب الله أول ليله ۞ تمنى داود الزبور على رسل

أي على تأن وتمهل ۞ ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الالقاء ذكر العلة في ذلك بقوله تعالى (ليجعل ما يلقي الشيطان) أي في المتلو والمحدث به من تلك الشبهة في قلوب أوليائه على التفسير الاول وعلى الثاني وغيره يؤول بما يناسبه (فتنة) أي اختبارا وامتحانا (للذين في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق (والقاسية) أي الجافية (قلوبهم) عن قبول الحق وهم المشركون (وان الظالمين) أي الواضعين لاقوالهم وافعالهم في غير

في نوره دون نور الشمس مع انه اتم من نور المصباح

واضعها كفعل من هو في الظلام (لفي شقاق) أي خلاف لكونهم في شق غير شق حزب الله
العاجزين لهم في الآيات بتلك الشبهة التي تلقوها من الشيطان وجادلوا بها أولياء الرحمن (بعيد)
عن الصواب لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون
وعلى ثبوت ذكر القصة وجرى عليه الجلال المحلي فإنهم في خلاف طويل مع النبي صلى الله
عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم ثم أبطل ذلك (وليعلم الذين
أوتوا العلم) بإتقان حججه وإحكام براهينه وضعف شبه العاجزين (أنه) أي النبي الذي تلوته
أو يحدث به (الحق) أي الثابت الذي لا يمكن زواله (من ربك) أي المحسن إليك بتعليمك
إياه (فيؤمنوا به) لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة (فتخبت) أي تطمئن
وتخضع (له قلوبهم) وتسكن به نفوسهم (وإن الله) بجلاله وعظمته (لهادي الذين آمنوا)
في جميع ما يلقيه أولياء الشيطان (إلى صراط مستقيم) أي قويم وهو الإسلام يتوصلون به
إلى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك إلى سعادة الدارين
(ولا يزال الذين كفروا) أي وجد منهم الكفر وطبعوا عليه (في مرية) أي شك (منه) قال ابن
جريج أي من القرآن وقيل مما ألقى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون
ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة)
أي القيامة وقيل أشراطها وقيل الموت (بغتة) أي فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال
عكرمة والضحاك لا ليل بعده وهو يوم القيامة والأكثرون على أنه يوم بدر وسمي عقيما
لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التي لا تأتي بخير وقيل لأنه لا مثل له في
عظم أمره لقتال الملائكة فيه ويقوي التفسير الأول قوله تعالى (الملك يومئذ) أي يوم
القيامة (لله) أي المحيط بجميع صفات الكمال وحده * ولما كان كأنه قيل ما معنى اختصاصه
به وكل الأيام له قيل (يحكم بينهم) أي المؤمنين والكافرين بالأمر الفصل الذي لا حكم فيه
ظاهرا ولا باطنا لغيره كما ترونه الآن بل يمشي فيه الأمر على أتم شيء من العدل (فالذين آمنوا
وعملوا) أي وصدقوا دعواهم الإيمان بأن عملوا (الصالحات) وهي ما أمرهم الله به (في جنات
النعيم) فضلا منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للأعمال الصالحات (والذين
كفروا) أي ستروا ما أعطيناهم من المعرفة بالأدلة على وحدانيتنا (وكذبوا بآياتنا) أي
ساعين بما أعطيناهم من الفهم في تحيرها بالمجادلة بما يوحي إليهم أولياؤهم من الشياطين من
الشبه (فأولئك) أي البعداء عن أسباب الكرم (لهم عذاب مهين) أي شديد بسبب ما سعوا
في إهانة آياتنا مريدين إعزاز أنفسهم بمغالبتنا والتكبر عن آياتنا (فإن قيل) لم أدخل الفاء
في خبر الثاني دون الأول (أجيب) بأن في ذلك تنبيها على أن إثابة المؤمنين بالجنان تفضل من
الله تعالى وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم في
عذاب * ولما كان المؤمنون في حصر مع الكفار رغبهم الله في الهجرة بقوله تعالى (والذين
هاجروا في سبيل الله) أي فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب مرضاته من مكة
إلى المدينة (ثم قتلوا) في الجهاد بعد الهجرة وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف
وألحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى (أو ماتوا) أي من غير قتل (ليرزقنهم الله) أي

(أو لهو رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

الجامع لصفات الكمال (رزقا حسنا) هو رزق الجنة من حين تفارق أرواحهم أشباحهم لانهم أحياء عند ربهم (وان الله) اى الملك الاعلى القادر على الاحياء كما قدر على الاماتة (لهو خير الرازقين) فانه يرزق بغير حساب يرزق الخلق عامة البار منهم والفاجر (فان قيل) الرزق في الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين (أجيب) بان غير الله يسمى رازقا على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش اى أعطاهم أرزاقهم وان كان الرازق في الحقيقة هو الله تعالى ولما كان الرزق لا يتم الا بحسن الدار وكان ذلك من أفضل الرزق قال تعالى دالا على ختام التي قبل (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) هو الجنة يكرمون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة في الجنة من درة بيضاء لها سبعون ألف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم اى دخولا أو مكان دخول والباقون بالضم أي ادخالا أو مكان ادخال (وان الله) اى الذى عمت رحمته وتمت عظمته (لعليم) بمقاصدهم وما عملوا مما يرضيه وغيره (حليم) عما قصروا فيه من طاعته وما فرطوا في جنبه تعالى فلا يعاجل احدا بالعقوبة روى ان طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فانزل الله تعالى هاتين الآيتين (ذلك) اى الامر المقرر من صفات الله تعالى الذى قصصناه عليك (ومن عاقب) اى جازى من المؤمنين (بمثل ما عوقب به) ظلما من المشركين اى قاتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام (ثم بغى عليه) اى ظلم باخراجه من منزله قال مقاتل نزلت في قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم ان يكفوا عن القتال لاجل الشهر الحرام فابى المشركون فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله) اى الذى لا كفء له (ان الله) اى الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما (لعفو) عن المؤمنين (غفور) لهم (فان قيل) لم سمى ابتداء فعلهم عقوبة مع ان العذاب من العقب وهو منتف في الابتداء (أجيب) بانه اطلق عليه ذلك لتعلق الذى بينه وبين الثانى كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم وكما في قوله كما تدين تدان (فان قيل) كيف طابق ذكر العفو الغفور في هذا الموضع مع ان ذلك الفعل جائز للمؤمنين لانهم مظلومون (أجيب) بان المنتصر لما اتبع هواه في الانتقام واعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وبقوله تعالى فمن عفا وأصلح فاجره على الله وبقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى فكان في اعراضه عما ندب اليه نوع اساءة أدب فكانه تعالى قال عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها فانى انا الذى اذنت له فيها وفي ذكر العفو تنبيه على انه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (ذلك) اى النصر (بان الله) اى المتصف بجميع صفات الكمال (يولج) اى يدخل لاجل مصالح العباد الحسى والمحسن (الليل في النهار) فيمحو ظلامه بضيائه ولو شاء الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت مصالح النهار (ويولج النهار في الليل) فيمسح ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل أو بان يدخل كلا منهما في الآخر

(ان قلت) لم عطف البيع على التجارة مع شمولها له

فيزيده وذلك من أثر قدرته التى بها النصر (وان الله) بجلاله وعظمته (سميع) لكل ما يقال (بصير) لكل ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج الى سكون الليل ليسمع ولا لضياء النهار ليبصر لانه سبحانه وتعالى منزه عن الاغراض * ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره علله بقوله تعالى (ذلك) اى الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم (بان الله) اى القادر على كل ما أراد (هو) وحده (الحق) اى الثابت الواجب الوجود (وأن ما يدعون) اى يعبد المشركون (من دونه) وهو الاصنام (هو الباطل) الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين والباقون بالياء على الغيبة وانه مقطوع عمن ما فى الرسم (وان الله) لكونه هو الحق الذى لا كفء له (هو) وحده (العلى) اى العالى على كل شئ بقدرته (الكبير) وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وامره * ثم انه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بامور ستة الاول قوله تعالى (ألم تر) اى أيها المخاطب (أن الله) اى المحيط قدرة وعلما (أنزل من السماء ماء) اى مطرا بان يرسل رياحا فتثير سحابا فيمطر على الارض الماء (فتصبح الارض) اى بعد أن كانت مسودة يابسة ميتة جامدة (مخضرة) حية يانعة مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد (فان قيل) لم قال تعالى فتصبح ولم يقل فاصبحت (أجيب) بان ذلك لنكتة وهى افادة بقاء اثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم على فلان عام كذا فاروح واغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع (فان قيل) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (أجيب) بانه لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفى الاخضرار ووجه ذلك بان النصب بتقدير أن وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل مترقبا والرفع جزم باثباته مثاله أن تقول لصاحبك ألم ترأنى أنعمت عليك فتشكر فان نصبته فانت ناف لشكره شاك فى تفريطه فيه وان رفعته فانت مثبت لشكره وهذا وأمثاله مما يجب أن يتنبه له من اتسم بالعلم فى علم الاعراب وتوقير أهله (ان الله) اى الذى له تمام النعم وكمال العلم (لطيف) بعباده فى اخراج النبات بالماء (خبير) اى بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه احياء من أراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بارزاق عباده خبير بما فى قلوبهم من القنوط الامر الثانى قوله تعالى (له ما فى السموات) اى التى أنزل منها الماء (وما فى الارض) اى التى استقر فيها ملكا وخلقا (وان الله) اى الذى له الاحاطة التامة (لهو) اى وحده (الغنى) فى ذاته عن كل شئ (الحميد) اى المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله الامر الثالث قوله تعالى (ألم تر) اى أيها المخاطب (أن الله) ذا الجلال والاكرام (سخر لكم) فضلا منه (ما فى الارض) كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار فلولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى ذللهما الضعيف من الناس لما انتفع بهما أحد منهم الامر الرابع قوله تعالى (والفلك) اى وسخر لكم الفلك اى السفن ثم بين تسخيرها بقوله (تجرى فى البحر) العجاج المتلاطم بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل (بامره) اى باذنه الامر الخامس قوله تعالى (ويمسك السماء) اى كراهة (أن تقع على الارض) التى تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد يمكنها الثبات بها (الا باذنه) اى بمشيئته فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طى هذا العالم وايجاد عالم البقاء (ان الله) اى الذى له الخلق والامر (بالناس) اى على ظلمهم (لرؤف) اى بما

(قال) لان العبارة هى التصرف فى المال اقتصد

يحفظ من ضرائرهم (رحيم) اى حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح لهم ابواب المنافع ودفع عنهم أبواب المضار (وهو) اى وحده (الذى أحياكم) اى عن الجمادية بعد أن أوجدكم من العدم (ثم يميتكم) اى عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظا لاولى البصائر منكم (ثم يحييكم) اى يوم البعث للثواب والعقاب واظهار العدل فى الجزاء (ان الانسان) اى المشرك (لكفور) اى لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فوحد الله تعالى وقال ابن عباس هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص بن وائل وأبى بن خلف قال الرازى والاولى تعميمه فى كل المنكرين (لكل أمة) اى فى كل زمان (جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة يتعبدون بها (هم ناسكوه) اى عاملون بها وروى عنه أنه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة وقرأ حمزة والكسائى منسكا بكسر السين والباقون بفتحها (فلا ينازعنك فى الامر) اى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مالكم تأكلون مما تقتلون ولا تأكلون مما قتله الله تعالى يعنون الميتة وقال الزجاج هو نهى له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربك فلان اى فلا تضاربه وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون الا بين اثنين معناه لا تنازعهم انت (وادع) اى أوقع الدعوة لجميع الخلق (الى ربك) المحسن اليك اى الى دينه ثم علل ذلك بقوله (انك) مؤكدا له بحسب ما عندهم من الانكار (لعلى هدى) اى دين واضح (مستقيم) هو دين الاسلام (وان جادلوك) اى فى أمر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمت الحجة (فقل الله) اى الملك المحيط بالعز والعلم (أعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال ولما امر الله تعالى بالاعراض عنهم وكان ذلك شديدا على النفس لتشوفها الى النصرة رجاه فى ذلك بقوله تعالى مستأنفا تحذيرا لهم (الله) اى الذى لا كفء له (يحكم بينكم) اى بينك مع أتباعك وبينهم (يوم القيامة) الذى هو يوم التغابن (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ومن اضمر ذلك اليوم لم يبال بما حل به فهو كقوله وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون قال البغوى والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين الى خلاف ماذهب اليه الآخر (ألم تعلم أن الله) بجلال عزه وعظيم سلطانه (يعلم ما فى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ (ان ذلك) اى ما ذكر (فى كتاب) كتب فيه كل شئ حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب جزاؤه وهو اللوح المحفوظ (ان ذلك) اى علم ما ذكر (على الله) وحده (يسير) اى سهل لان علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء (ويعبدون) اى المشركون على سبيل التجدد والاستمرار (من دون الله) اى من أدنى رتبة من رتبته الذى قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال وتنزيهه عن شوائب النقص (ما لم ينزل به سلطانا) اى حجة واحدة من الحجج وهو الاصنام (وما ليس لهم به علم) حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة (وما للظالمين) اى الذين وضعوا التعبد فى غير موضعه لارتكابهم لهذا الامر العظيم الخطر وأكد النفى واستغرق المنفى باثبات الجار فقال تعالى (من نصير) اى ينصرهم من الله لا مما أشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه او يقرر مذهبهم (واذا تتلى) اى على سبيل التجدد والمبالغة من اى تال كان (عليهم آياتنا) اى

الربح والبيع اعم من ذلك فعطف عليها لئلا يتوهم

من القرآن حال كونها (بينات) لا خفاء فيها عند من له بصيرة في شيء مما دعت إليه من الأصول والفروع (تعرف في وجوه الذين كفروا) أي تلبسوا بالكفر (المنكر) أي الإنكار الذي هو منكر في نفسه فيظهر أثره في وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ * ثم بين ما لاح في وجوههم بقوله تعالى (يكادون يسطون) أي يوقعون السطوة بالبطش والعنف (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أي الدالة على أسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات في غاية الوضوح في أنها كلامنا لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى (قل أفأنبئكم) أي أفأخبركم خبرا عظيما (بشر من ذلكم) بأكره إليكم من القرآن المتلو عليكم وقوله تعالى (النار) كأنه جواب سائل قال ما هو فقيل النار أي هو النار ويجوز أن تكون مبتدأ خبره (وعدها الله الذين كفروا) جزاء لهم فبئس الموعد هي (وبئس المصير) أي النار * ولما بين تعالى أنه لا حجة لعابد غيره اتبعه بأن الحجة قائمة على أن ذلك الغير في غاية الحقارة فقال تعالى مناديا أهل العقل منبها تنبيها عاما (يا أيها الناس ضرب مثل) حاصله أن من عبد غيره من الأصنام أحقر منكم (فاستمعوا) أي أنصتوا (له) وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى (إن الذين تدعون) أي تعبدون وتدعونهم في حوائجكم وتجعلونهم آلهة (من دون الله) أي الملك الأعلى من هذه الأصنام التي أنتم بها مغترون (لن يخلقوا ذبابا) أي لا قدرة لهم على ذلك في زمن من الأزمان على حال من الأحوال مع صغره فكيف بما هو أكبر منه (ولو اجتمعوا) أي الذين زعمتموهم شركاء (له) أي الخلق فهم في هذا أمثالكم * (تنبيه) * محل ولو اجتمعوا له النصب على الحال كأنه قال تعالى يستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل الله تعالى في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خدعهم بخداعه ٣ حيث رضوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى (وإن يسلبهم الذباب) أي الذي تقدم أنهم لا قدرة لهم على خلقه وهو غاية في الحقارة (شيئا) أي من الأشياء جل أو قل (لا يستنقذوه منه) لعجزهم فكيف يجعلونهم شركاء لله هذا أمر مستغرب عبر عنه بضرب مثل * (تنبيه) * الذباب مفرد وجمعه القليل أذبة والكثير ذبان مثل غراب وأغربة وغربان وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله وعن ابن زيد كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر ويطيبونها بألوان الطيب فربما يسقط شيء منها فيأخذه طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استرداده منه (ضعف الطالب) قال الضحاك هو العابد (والمطلوب) المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل على العكس الطالب الصنم والمطلوب الذباب أي لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه * ولما أنتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبر عنه بقوله تعالى (ما قدروا الله)

القصور على جميع الجبارة أو اريد بالجبارة الشر اه القصد

٣ قوله خدعهم بخداعه في نسخة غرهم بغروره اه

اى الذى له الكمال كله (حق قدره) اى ماعظموه حق تعظيمه وماعرفوه حق معرفته ولاوصفوه حق صفته حيث اشركوا به مالا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله) اى الجامع لصفات الكمال (لقوى) على خلق الممكنات باسرها (عزيز) اى لا يغلبه شئ وآلهتهم التى يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أدناها قال الكلبى فى هذه الآية وفى نظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم حيث قالوا ان الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والارض وأجناس خلقها استلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب قال الرازى واعلم ان منشأ هذه الشبهة هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه افعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى عن العوض والدواعى واستحقاق المدح والذم خلاف ما يقوله المعتزلة قال ابو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى فهو سبحانه وتعالى خبير النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدى الذات سرمدى الصفات * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بالالهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات بقوله تعالى (الله) اى الملك الاعلى (يصطفى) اى يختار ويختص (من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام (ومن الناس) كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فاخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه (ان الله) أى الذى له الجلال والجمال (سميع) لمقالتهم (بصير) بمن يتخذه رسولا (يعلم ما بين أيديهم) اى الرسل (وما خلفهم) اى علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم فلا يعلمون شيئا الا باذنه (والى الله) أى وحده تعالى (ترجع) بغاية السهولة (الامور) يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون أمر ظاهر الاخفاء فيه ولا يصدر شئ من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى غيره وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما أثبت سبحانه وتعالى أن الملك والامر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى (يا ايها الذين امنوا) أى تلبسوا بالايمان (اركعوا) تصديقا لايمانكم (واسجدوا) أى صلوا الصلاة التى شرعتها لكم فانها رأس العبادة ليكون دليلا على صدقكم فى الاقرار بالايمان * (تنبيه) * انما خص هذين الركنين فى التعبير عن الصلاة لانهما لمخالفتهما الهيآت المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا فى أول الاسلام يركعون ولا يسجدون وقيل كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ولما خص أفضل العبادة عم بقوله تعالى (واعبدوا) أى بانواع العبادة (ربكم) أى المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية * ولما ذكر عموم العبادة أتبعها ما قد يكون أعم منها مما صورته صورتها أو قد يكون بلا نية فقال (وافعلوا الخير) أى كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالى الاخلاق فيه وبغير نية

الربع وبالمبيع المبيع
مطلقا (قوله والله خالق كل

حتى يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله تعالى قال أبو حيان بدأ تعالى بخاص وهو الصلاة ثم بعام وهو واعبدوا ربكم ثم بأعم وهو وافعلوا الخير (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء فى الجنة طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة ترج تشعر بأن الانسان قلما يخلو فى أداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذى أتى به مقبول عند الله والعواقب مستورة وكل ميسر لما خلق له *(تنبيه)* اختلف فى سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية فذهب قوم الى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق لظاهر ما فيها من الامر بالسجود وقول البيضاوى ولقوله صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأهما حديث ضعيف رواه الترمذى وضعفه وذهب قوم الى أنه لا يسجد وهو قول سفيان الثورى وقول أبى حنيفة وأصحابه لانهم يقولون قرن السجود بالركوع فى ذلك فدل ذلك على انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة * ولما كان الجهاد أساس العبادة وهو مع كونه حقيقة فى جهاد الكفار صالح لان يعم كل أمر بمعروف ونهى عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل بالسيف وغيره وكل جهاد فى تهذيب النفس واخلاص العمل ختم به فقال تعالى (وجاهدوا فى الله) أى الله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وقول البيضاوى وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حديث رواه البيهقى وضعف اسناده وقال غيره لا أصل له قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (حق جهاده) أى باستفراغ الطاقة فى كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذى أمر به من الحج والغزو وغيرهما (فان قيل) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فى الله أو حق جهادكم فى الله كما قال تعالى وجاهدوا فى الله (أجيب) بان الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لاجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبى ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم * ولما أمر الله تعالى بهذه الاوامر أتبعها ببعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى (هو اجتباكم) أى اختاركم لدينه ولنصرته وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل ودينه أشرف الاديان وكتابه أعظم الكتب وجعلكم لكونكم أتباعه خير الامم (وما جعل عليكم فى الدين) أى الذى اختاره لكم (من حرج) أى من ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله تعالى له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بانواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك ٣ فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم رواه البخارى وعن ابن عباس أنه قال الحرج ما كان على بنى اسرائيل من الآصار التى كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه

الآية

د ابن حسن تام * ان قلت لم خص الداية بالذكر مع

٣ قوله فليس فى دين الاسلام كذا فى النسخ وهى عبارة غير مستقيمة ولعل اسقط والصواب فى هذا المقام ان يقال فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص منه من الذنوب والآصار بل الخروج من الذنوب بما سبق من التوبة ونحوها لمن وفقه الله ومن الآصار بالتسهيل عند الضرورات كالقصر الخ اه

الامة وقوله تعالى (ملة أبيكم) نصب بنزع الخافض وهو الكاف أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أى اتبعوا ملة أبيكم أو على الاختصاص أى أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك الحمد لله الحميد وقوله تعالى (ابراهيم) عطف بيان (فان قيل) لم كان ابراهيم أبا للامة كلها (أجيب) بأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا لامته لان أمة الرسول فى حكم أولاده واختلف فى عود ضمير (هو) على قولين أحدهما أنه يعود على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وان لكل نبى دعوة مستجابة ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته والثانى أنه يعود على الله تعالى فى قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ان الله تعالى (سماكم المسلمين من قبل) أى فى كل الكتب المنزلة التى نزلت قبل انزال هذا القرآن (وفى هذا) أى وسماكم فى هذا القرآن الذى أنزل عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازى أقرب لانه تعالى قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أى يوم القيامة أنه بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أى ان رسلهم بلغتهم فبين أنه تعالى سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء على الناس لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا ان أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب أعطيت هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال تعالى ادعونى أستجب لكم وعن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال لم يذكر الله بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرها بهما وكررهما جميعا ولم يسمع بأمة ذكرت بالاسلام والايمان غيرها وعن مكحول ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما أمتى هو السلام وسمى أمتى المسلمين وهو المؤمن وسمى أمتى المؤمنين * (تنبيه) * فى الآية دليل على أن شهادة غير المسلم ليست مقبولة * ولما ندبهم تعالى ليكونوا خيرا لامم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فأقيموا الصلوة) التى هى أركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم أى داوموا عليها (وآتوا الزكوة) التى هى طهرة أبدانكم وصلة بينكم وبين اخوانكم (واعتصموا بالله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فى جميع ما أمركم به من المناسك التى تقدمت وغيرها ثم علل تعالى أهليته بقوله تعالى (هو) أى وحده (مولاكم) أى المتولى لجميع أموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث أن تمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى (فنعم المولى) أى هو (ونعم النصير) أى الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى أحدا كفاه كل ما أهمه واذا نصر أحدا أعلاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى وما قبله من أفعال الطاعة دليلها فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى حديث موضوع

ان غيرها مثلها كما فى قوله فى الانبياء وجعلنا من

سورة المؤمنين مكية

وهي مائة وثمان أو تسع عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون
كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله) الذي له الامر كله (الرحمن) الذي عم انعامه (الرحيم) الذي خص من أراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فانزل عليه يوما فمكث ساعة حتى سرى عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر آيات قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة روى هذا الحديث الترمذي وغيره وأنكره النسائي وغيره *(تنبيه)* قال الزمخشري قد نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (فان قيل) ما المؤمن (أجيب) بانه في اللغة هو المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين أحدهما ان كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقي دون الفاسق ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مؤمنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى (الذين هم) أي بضمائرهم وظواهرهم (في صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره الى نحو مسجده أي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره الى شيء أو يحدث بشيء من شأن الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ومن الخشوع أن يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى روى الترمذي لكن بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم ابصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب انت تخطب وانت تعبث وعنه انه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى انه صلى الله عليه وسلم قال انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال صلى الله عليه وسلم كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وقال من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي

الما كل شئ حى (قلت)

للشخص ان يحتاط فى صلاته ليوقعها على التمام فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل له فى ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة ان يعاتبنى الشافعى وان قرأتها ان يعاتبنى أبو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص من هذا الخلاف (فان قيل) لم أضيفت الصلاة اليهم (أجيب) بان الصلاة وصلة بين الله وبين عباده والمصلى هو المنتفع بها وحده وهى عدته وذخيرته فهى صلاته وأما الله تعالى فهو غنى متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها * الصفة الثالثة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم) اى بضمائرهم التى تتبعها ظواهرهم (عن اللغو) قال ابن عباس عن الشرك (معرضون) اى تاركون وقال الحسن عن المعاصى وقال الزجاج هو كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل وقيل هو كل ما لا يعنى الشخص من قول أو فعل وهو ما يستحق ان يسقط و يلغى فمدحهم الله تعالى بانهم معرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بان لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما اى اذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه * الصفة الرابعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم للزكوة فاعلون) اى مؤدون *(تنبيه)* الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين هو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى المستحق والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا لانه ما من مصدر الا ويعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل تقول للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية و يجوز ان يراد بالزكاة العين و يقدر مضاف محذوف وهو الاداء وقيل الزكاة هنا هى العمل الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة قال البقاعى والظاهر ان التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب وان أصل الزكاة كان واجبا بمكة كما قال تعالى فى سورة الانعام وآتوا حقه يوم حصاده انتهى * الصفة الخامسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لفروجهم) فى الجماع ومقدماته (حافظون) اى دائما لا يتبعونها شهوتها والفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ثم استثنى من ذلك قوله تعالى (الا على أزواجهم) اللاتى استحقوا أبضاعهن بعقد النكاح ولعلو الذكر عبر بعلى ونظيره كان زياد على البصرة اى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا وقيل على بمعنى من وجرى على ذلك البغوى (أو ما ملكت ايمانهم) رقابه من الاماء (فان قيل) هلا قال تعالى أو من ملكت (أجيب) بانه انما عبر بما لقرب الاماء مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكر ولانه اجتمع فيها وصفان احدهما الانوثة وهى مظنة نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع قال البغوى والآية فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) على ذلك اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض أو النفاس أو نحو ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى) اى طلب متعديا (وراء ذلك) العظيم المنفعة الذى وقع استثناؤه بزنا أو لواط أو استمناء بيد أو بهيمة أو غيرها (فاولئك) المبعدون من الفلاح (هم العادون) اى المبالغون فى تعدى الحدود عن سعيد ابن جبير قال عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم اى فى أيديهم وقيل يحشرون

لان القدرة فيها أعظم وأعجب منها الى غيرها (قوله

وأيديهم حبالى * الصفة السادسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لاماناتهم) اى فى الفروج وغيرها سواء كانت بينهم وبين الله تعالى كالصلاة والصيام أو بينهم و بين الخلق كالودائع والبضائع أوفى المعانى الباطنة كالاخلاص والصدق (وعهدهم راعون) اى حافظون بالقيام والرعاية والاصلاح والعهد ما عقده الشخص على نفسه فيما يقربه الى ربه و يقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد الينا *(تنبيه)* سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها وقال تعالى وتخونوا أماناتكم وانما تؤدى العيون لا المعانى ويخان المؤتمن عليه لا الامانة فى نفسها وقرأ ابن كثير لامانتهم بغير ألف بين النون والتاء على الافراد لأمن الالباس أولانها فى الاصل مصدر والباقون بالالف على الجمع * الصفة السابعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم على صلواتهم) التى وصفوا بالخشوع فيها (يحافظون) اى يواظبون عليها ولا يتركون شيأ من مفروضاتها ولا مسنوناتها يجتهدون فى كمالاتها جهدهم و يؤدونها فى أوقاتها (فان قيل) كيف كرر الصلاة أولا وآخرا (أجيب) بانهما ذكرتا مختلفان فليس بتكرير وصفوا أولا بالخشوع فى صلاتهم وآخرا بالمحافظة عليها وذلك ان لا يسهوا عنها و يؤدوها فى أوقاتها و يقيموا أركانها و يوطنوا أنفسهم بالاهتمام بها و بما ينبغى ان تتم به أوصافها وأيضا فقد وحدت أولا ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة اى صلاة كانت وجمعت آخرا على غير قراءة حمزة والكسائى فان نهما قرأ بالجمع وأما هما فقرآ بالافراد لتفاد المحافظة على أعدادها وهى الصلوات الخمس والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة وصلاة الجنازة والعيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر والضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل * ولما ذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة ذكر جزاءهم فقال تعالى (أولئك) اى البالغون من الاحسان أعلى مكان (هم الوارثون) اى المستحقون لهذا الوصف يرثون منازل أهل الجنة فى الجنة روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وقال مجاهد لكل واحد منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فاما المؤمن فيبنى منزله الذى له فى الجنة ويهدم منزله الذى له فى النار وأما الكافر فيهدم منزله الذى فى الجنة و يبنى منزله الذى له فى النار وقال بعض المفسرين معنى الوراثة هو ان يؤل أمرهم الى الجنة و ينالوها كما يؤل أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) وهو أعلى الجنة عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم أن تجعلنا ووالدينا وأحبابنا من أهله (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها ولا يموتون وأنث الفردوس بقوله تعالى فيها على تأنيث الجنة وهو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر روى أن الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد

فانهم من يمشى على بطنه الآية فيه مجاز التغليب

الفاكهة وبيد الريحان وروى أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث والمراد أن الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة الآن قال تعالى أعدت للمتقين * ولما أمر سبحانه وتعالى بالعبادات فى هذه الآيات والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الله تعالى عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا الاول الاستدلال بتقلب الانسان فى أدوار الخلقة وأدوار الفطرة وهى تسع مراتب الاولى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) اى آدم (من سلالة) هى من سللت الشئ من الشئ اى استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقوله تعالى (من طين) متعلق بسلالة وقيل المراد بالانسان هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بنى آدم وقال عكرمة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم جعلناه) أى نسله بحذف المضاف (نطفة) أى منيا من الصلب والترائب بأن خلقناه منها (فى قرار مكين) أى مستقر حصين هو الرحم *(تنبيه)* مكين فى الاصل صفة للمستقر فى الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم) أى بعد تراخ فى الزمان وعلو فى الرتبة والعظمة (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (النطفة) أى البيضاء جدا (علقة) حمراء دما غليظا شديد الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة قوله تعالى (فخلقنا) أى بما لنا من القوة والقدرة العظيمة (العلقة مضغة) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ لا شكل فيها ولا تخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى (فخلقنا المضغة) أى بتقليبها بما شئنا لها من الحرارة والامور اللطيفة الغامضة (عظاما) من رأس ورجلين وما بينهما المرتبة السادسة قوله تعالى (فكسونا) بما لنا من قوة الاختراع تلك (العظام لحما) بما ولدنا منها ترجيعا لها الى ما قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والاعصاب وقرأ ابن عامر وأبو بكر عظما والعظم بفتح العين واسكان الظاء من غير ألف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر العين وفتح الظاء وألف بعدها على الجمع قال الجلال المحلى وخلقنا فى المواضع الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى (ثم أنشأناه) أى هذا الحدث عنه بعظمتنا (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطره وغرائب حكمه لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح وثم لما بين الخلقين من التفاوت قال الزمخشرى وقد احتج به أبو حنيفة رحمه الله فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده فقال يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة اه ولما كان هذا التفصيل لتطوير الانسان سببا لتعظيم الخالق قال تعالى (فتبارك الله) اى تنزه عن كل شائبة نقص وحاز جميع صفات الكمال وأشار الى جمال الانسان بقوله تعالى (أحسن الخالقين) اى المقدرين ومميز أحسن محذوف اى خلقا روى عن عمر رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر

حيث استعمل من وهى لمن يعقل فى غيرها لوقوعه

قال فتبارك الله أحسن الخالقين وروى ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا فنزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبي يوحى الي فلحق بمكة كافرا ثم أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقني ربي في أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن الآية والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا نزل قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر والشقاوة لعبد الله بن سعد بن أبي سرح فانه قيل انه مات كافرا قال الله تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا المرتبة الثامنة قوله تعالى (ثم انكم بعد ذلك) اى الامر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة ما بين طفل ورضيع ومحتلم شديد وشاب نشيط وكهل عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤن لا يحيط بها الا اللطيف الخبير (لميتون) اى لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت وهو ميت دون اسم الفاعل وهو مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله تعالى (ثم انكم يوم القيامة) اى الذي يجمع فيه جميع الخلائق (تبعثون) للحساب والجزاء * النوع الثاني من الدلائل الاستدلال بخلق السموات وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم) في جميع جهة الفوق في ارتفاع لا تدركونه حق الادراك (سبع طرائق) أى سموات جمع طريقة لانها طرق الملائكة ومتعلقاتهم وقيل الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها وقيل لانها طرق بعضها فوق بعض كطارقة النعل وكل شئ فوقه مثله فهو طريقة (وما كنا) أى بما لنا من العظمة (عن الخلق) أى الذي خلقناه تحتها (غافلين) أى ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كآية ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ولا مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلاف وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى أمرها وما قدرناه من الكمال حسب ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة * النوع الثالث من الدلائل الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيرها في النبات وهو قوله تعالى (وأنزلنا من السماء) أى من جرمها وهو ظاهر اللفظ وعليه أكثر المفسرين أو من السحاب وسماه سماء لعلوه (ماء بقدر) اى بقدر ما يكفيهم لمعاشهم في الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ويساوت معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك لأغرقت البحار والامطار ولو كان دون ذلك لادى الى جفاف النبات والاشجار (فاسكناه) اى فجعلناه ثابتا مستقرا (في الارض) كقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس من أصناف معايشهم فاذا كان عند خروج ياجوج وماجوج أرسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود

فعيل لا لما يعمهما وهو
وفيه أيضا مجاز
كل دابة

من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى (وانا على ذهاب به لقادرون) قدرة هي في نهاية العظمة فانا كما قدرنا على ايجاده واختراعه نقدر على رفعه وازالته وزواله فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا قال البغوي وروى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد عن سابق الاسكندري عن سلمة بن علي عن مقاتل بن حيان *(تنبيه)* في تنكير ذهاب ايماء الى تكثير طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شيء اذا أراده وهو أبلغ في الايعاد من قوله تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفاده اذا لم تشكر ثم انه تعالى سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعمة الحاصلة من الماء بقوله تعالى (فانشأنا) أي فاخرجنا وأحيينا (لكم) خاصة لا لنا (به) أي بذلك الماء الذي جعلنا منه كل شيء حي (جنات) أي بساتين (من نخيل وأعناب) صرح بهذين الصنفين لشرفهما ولانهما أكثر ما عند العرب من الثمار وسمى الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة بخلاف الثاني فانه المقصود من شجرته وأشار الى غيرهما بقوله تعالى (لكم) اي خاصة (فيها) اي الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) اي ومن الجنات من ثمارها وزروعها (تأكلون) رطبا ويابسا وتمرا وزبيبا وقوله تعالى (وشجرة) عطف على جنات اي وأنشأنا لكم شجرة اي زيتونة (تخرج من طور سيناء) وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفي رواية أخرى طور سينين ولا يخلو اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء أو سينين واما ان يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن أضاف فمن كسر سين سيناء وهو نافع وابن كثير وأبو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتأنيث لانها بقعة وفعلاء لا تكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن قرأ بفتح السين وهم الباقون لم يصرفه لان الالف للتأنيث كصحراء قال مجاهد معناه البركة أي من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أي الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالقبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة النبط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (تنبت) بضم التاء الفوقية وكسر الباء الموحدة من الرباعي والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثي وقوله تعالى (بالدهن) تكون الباء على الاول زائدة وعلى الثاني معدية قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعبت في البلاد وانتشرت لان معظمها هنالك قال بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه أجل الادهان وأكملها وهو في الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذي هو أصله فيسرج ويدهن به وقوله تعالى (وصبغ للآكلين) عطف على الدهن اي ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله تعالى توقد من شجرة مباركة

* النوع الرابع من الدلائل الاستدلال باحوال الحيوانات وهو قوله تعالى (وان لكم في الانعام) وهي الابل والبقر والغنم (لعبرة) عظيمة تعتبرون بها وتستدلون بها على البعث وغيره (نسقيكم مما في بطونها) اي اللبن فجعله لكم شرابا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلتذون به من

التشبيه اذا اسناد ماذكر الى الحبشة زحف لامشى

بين الفرث والدم (ولكم فيها) أى جماعة الانعام وقدم الجار تعظيما لمنافعها حتى كأن غيرها عدم (منافع كثيرة) باستسلامها لما يراد منها مما لا يتيسر من أصغر منها وبأولادها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك من آثارها (ومنها تأكلون) اى وكما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بسهولة من غير امتناع مامن شئ من ذلك ولو شاء لمنعها وسلطها عليكم ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج أو جعله قذرا لا يؤكل ولكنه بقدرته وعلمه هيأها لما ذكر وذللها (وعليها) أى الانعام الصالحة للحمل وهى الابل والبقر وقيل المراد الابل خاصة لانها هى المحمول عليها فى العادة وقرنها بالفلك التى هى السفن فى قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) لانها سفائن البر كما يحمل على الفلك فى البحر فيحمل على هذه فى البر قال ذو الرمة فى المعنى * سفينة بر تحت خدى زمامها * قال الزمخشرى يريد صيدحه أى ناقته لان اسمها كان صيدح قال

رأيت الناس ينتجعون غيثا * فقلت لصيدح انتجعى بلالا

يريد بلال بن أبى بردة الاشعرى والى الكوفة * ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد أردفها بذكر القصص كما هو العادة فى سائر السور مبتدئا بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى بعد آدم عليهما الصلاة والسلام وكان اسمه يشكر وسمى نوحا لوجوه أحدها لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فاهلكهم الله تعالى بالطوفان فندم على ذلك ثانيها لمراجعته ربه فى شان ابنه ثالثها أنه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك (الى قومه) وهم جميع أهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين لا أنه أرسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان قال (يا قوم) ترفقا بهم (اعبدوا الله) وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال واستأنف على سبيل التعليل قوله (ما لكم من اله) اى معبود بحق (غيره) فلا تعبدوا سواه (أفلا تتقون) اى أفلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء والباقون بضمهما (فقال) اى فتسبب عن ذلك أن كذبوه بان قال (الملأ) اى الاشراف الذين تملأ رؤيتهم الصدور عظمة (الذين كفروا من قومه) لعوامهم (ما هذا) اى نوح عليه السلام (الا بشر مثلكم) اى فلا يعلم ما لا تعلمون فانكروا ان يكون بعض البشر نبيا ولم ينكروا ان يكون بعض الطين انسانا وبعض الماء علقة وبعض العلقة مضغة الى آخره فكأنه قيل ما حمله على ذلك فقالوا (يريد ان يتفضل) يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا (عليكم) لتكونوا أتباعا له ولا خصوصية له دونكم (ولو شاء الله) اى الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره (لأنزل) كذلك (ملائكة) رسلا بابلاغ الوحى الينا قال الزمخشرى وما أعجب شان الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للالوهية بحجر (ما سمعنا بهذا) اى الذى دعا اليه نوح من التوحيد (فى آبائنا الاولين) اى الامم الماضية (ان) اى ما (هو الا رجل به جنة) اى جنون ولاجله يقول ما يدعيه (فتربصوا به) اى فتسبب عن الحكم بجنونه انا نامركم بالكف عنه لانه لا حرج على مجنونه (حتى) اى الى (حين) لعله يفيق

(قوله والذين لم يبلغوا) لكنه يشبه فى السحر

واعوت فكأنه قيل فما قال نوح فقيل (قال) عند ما يئس من فلاحهم (رب انصرني) اى أعني عليهم (بما كذبون) اى بسبب تكذيبهم لى فان تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل (فأوحينا) اى فتسبب عن دعائه أن أوحينا (اليه أن اصنع الفلك) اى السفينة (بأعيننا) اى انه لا يغيب عنا شئ من أمرك ولا من أمرهم وان تعرف قدرتنا على كل شئ فتثق بحفظنا ولا تخف شيئا من أمرهم روى انه لما أوحى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر قال الجوهرى جؤجؤ الطائر والسفينة صدرهما والجمع الجآجئ ولما كان لا يعلم الصنعة قال تعالى (ووحينا) أى وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع فأن جبريل علمه عمل السفينة ووصف كيفية اتخاذها وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى سورة هود (فاذا جاء أمرنا) أى بالهلاك عقب فراغك منها أو بالركوب (وفار التنور) قال ابن عباس وجه الارض وفى القاموس التنور الكانون يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة أنه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه وعن على طلع الفجر وعن الحسن أنه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه وقيل هو مثل كقولهم حمى الوطيس والاقرب كما قال الرازى وعليه أكثر المفسرين هو التنور المعروف بتنور الخباز فيكون له فيه آية روى أنه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور فى التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل (فاسلك) أى أدخل (فيها) أى السفينة (من كل زوجين) من الحيوان (اثنين) ذكرا وأنثى وقرأ حفص بتنوين اللام من كل أى من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين تأكيد والباقون بغير تنوين فاثنين مفعول ومن متعلق باسلك وفى القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيده فى كل جنس فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما فى السفينة وروى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض (وأهلك) اى وأهل بيتك من زوجك وأولادك (الا من سبق عليه) لا له (القول منهم) بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم الثلاثة وفى سورة هود ومن آمن وما آمن معه الا قليل قيل كانوا ستة رجال ونساءهم وقيل جميع من كان فى السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء (ولا تخاطبنى) اى بالسؤال فى النجاة (فى الذين ظلموا) اى كفروا ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم مغرقون) اى قد حتم القضاء عليهم لظلمهم بالاشراك والمعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له فانه تعالى بعد ان أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا الا ضلالا ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق الا ان يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لا يقبل ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهى عنه الامر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى (فاذا استويت) اى اعتدلت (أنت ومن معك) اى من البشر وغيرهم (على الفلك) ففرغت من امتثال الامر بالحمل (فقل الحمد لله) اى الذى لا كفء له لانه مختص بصفات الحمد (الذى نجانا) بحملنا فيه

الحلم منكم) بان قالت كيف أمر الله تعالى

[illegible]
الذي نجانا من القوم الظالمين * (تنبيه) * انما قال تعالى فقل ولم يقل فقولوا لأن نوحا عليه السلام كان نبيا لهم واماما فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك أو نبي ولما أمره بهذا القول في السلامة الحمد أتبعه بالاشارة الى الوعد باسكان الارض بقوله تعالى (وقل رب أنزلني) في الفلك ثم في الارض وفي كل منزل تنزلني به وتورثني اياه (منزلا مباركا) أي يبارك لي فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي أي مكان النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاي مصدر أو اسم مكان ثم ان الله تعالى أمره أن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله تعالى (وأنت خير المنزلين) ماذكر لانك تكفي من يأتي كل ملم وتعطيه كل أمره ولما كانت هذه القصة من أغرب القصص حث على تدبرها بقوله تعالى (ان في ذلك) أي الامر العظيم من أمر نوح والسفينة واهلاك الكفار (لآيات) أي دلالات على قدرة الله تعالى وصدق الانبياء في أن المؤمنين هم المفلحون وانهم الوارثون للارض بعد الظالمين وان عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم (وان كنا) بما لنا من العظمة والوصف الثابت الدال على تمام القدرة (لمبتلين) أي فاعلين فعل المبتلي المختبر لعباده بارسال الرسل ليظهر في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره ثم نبتلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم وينقص سيئاتهم ويعلي درجاتهم ثم نجعل لهم العاقبة كما قال تعالى والعاقبة للمتقين * (تنبيه) * ان هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان واللام هي الفارقة * القصة الثانية قصة هود وقيل صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي أحدثنا وأحيينا (من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم (قرنا) أي قوما (آخرين) هم عاد قوم هود وقيل ثمود قوم صالح (فأرسلنا) أي فتعقب انشاءنا لهم وتسبب عنه انا أرسلنا (فيهم رسولا منهم) هو هود وقيل صالح قال البغوي والاول هو الاظهر وهو المروي عن ابن عباس ويشهد له حكاية الله قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على اثر قصة نوح في سورة الاعراف وسورة هود والشعراء ثم بين تعالى ما أرسل به بقوله تعالى (ان اعبدوا الله) أي وحده ولانه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى (مالكم من اله غيره أفلا تتقون) أي هذه الحالة التي أنتم عليها مخافة عقابه فتؤمنون وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بكسرها والقراءة في غيره ذكرت في يس (وقال الملأ) أي الاشراف الذين تملأ رؤيتهم الصدور (من قومه الذين كفروا) أي غطوا ما يعرفون من أدلة التوحيد والانتقام من المشركين (وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بالمصير اليها (وأترفناهم) أي والحال أنا بما لنا من العظمة نعمناهم (في الحيوة الدنيا) بالاموال والاولاد وكثرة السرور يخاطبون أتباعهم (ما هذا) أشاروا اليه تحقيرا له عند المخاطبين (الا بشر مثلكم) في الخلق والحال ثم وصفوه بما يوهم المساواة لهم في كل وصف فقالوا (يأكل مما تأكلون منه) أي من طعام الدنيا (ويشرب مما تشربون) أي من شرابها فكيف يكون رسولا دونكم وقولهم (ولئن) اللام لام قسم أي والله لئن (أطعتم بشرا مثلكم) أي فيما

يأمركم به (أيعدكم أنكم اذا) أى ان اطعتموه (لخاسرون) أى مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه ثم بينوا انكارهم بقولهم (أيعدكم أنكم اذا متم) ففارقت أرواحكم أجسادكم (وكنتم) أى وكانت أجسادكم (ترابا) باستيلاء التراب على مادون عظامكم (وعظاما) مجردة عن اللحوم والاعصاب (أنكم مخرجون) أى من تلك الحالة التى صرتم اليها فراجعون الى ما كنتم عليه من الحياة على ما كان لكم من الاجسام * (تنبيه) * قوله تعالى مخرجون خبر انكم الاولى وانكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل ثم استأنفوا التصريح بما دل عليه الكلام من استبعاد ذلك فقالوا (هيهات هيهات) اسم فعل ماض بمعنى مصدر أى بعد بعد جدا وقال ابن عباس هى كلمة بعد أى بعيد ثم كأنه قيل لأى شئ هذا الاستبعاد فقيل (لما توعدون) من الاخراج من القبور (فان قيل) ما توعدون هو المستبعد ومن حقه أن يرفع بهيهات كما ارتفع به فى قوله * فهيهات هيهات العقيق وأهله * فما هذه اللام (أجيب) بأن الزجاج قال فى تفسيره البعد لما توعدون فنزل منزلة المصدر ويصح أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام فى هيت لك لبيان المهيت به أو ان اللام زائدة للبيان * (فائدة) * وقف البزى والكسائى على هيهات الاولى والثانية بالهاء والباقون بالتاء على المرسوم وقولهم (ان هى) ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هى النفس تحمل ما حملت والمعنى لا حياة الا هذه الحياة لان ان النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت ما بعدها نفى الجنس (نموت ونحيا) أى يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم وقيل يموت قوم ويحيا قوم وقيل تموت الآباء وتحيا الابناء وقيل فى الآية تقديم وتأخير أى نحيا ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت فكأنه قيل فما هذا الكلام الذى يقوله فقيل كذب ثم حصروا أمره فى الكذب فقالوا (ان) أى ما (هو الا رجل افترى) أى تعمد (على الله) أى الملك الاعلى (كذبا) فلا يلتفت اليه (وما نحن له بمؤمنين) أى بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث والرسالة فكأنه قيل فما قال فقيل (قال رب) أى أيها المحسن الى بالرسالة وبارسالى اليهم وبغيره من أنواع النعم (انصرنى) أى أوقع لى النصر (بما كذبون) فأجابه ربه بأن (قال عما قليل) من الزمان وما زائدة وأكدت القلة بزيادتها (ليصبحن) أى ليصيرن (نادمين) أى على كفرهم وتكذيبهم اذا عاينوا العذاب (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة العذاب والهلاك كائنة (بالحق) أى الامر الثابت من العذاب الذى لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا وقيل صيحة جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق (فجعلناهم) بسبب الصيحة (غثاء) أى مطروحين ميتين كما يطرح الغثاء شبهوا فى دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله فجعله غثاء أحوى أى أسود يابسا * ولما كان هلاكهم على هذا الوجه سببا لهوانهم عبر عنه بقوله تعالى (فبعدا) أى هلاكا وطردا عن الرحمة (للقوم الظالمين) الذين وضعوا قوتهم التى كان يجب عليهم بذلها فى نصر الرسل فى خذلانهم * (تنبيه) * يحتمل هذا الدعاء عليهم والاخبار عنهم ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ونحوها وتعسا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهى من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت

الامر فى الحقيقة لا وليائهم لا يؤديهم (قوله واذا

بأفعال لا يستعمل اظهارها * القصة الثالثة المذكورة فى قوله تعالى (ثم أنشأنا) اى بعظمتنا التى لا يضرها تقديم ولا تأخير (من بعدهم) اى من بعد من قدمنا ذكره من نوح والقرن الذى بعده (قرونا) اى أقواما (آخرين) فهو سبحانه وتعالى تارة يقص علينا فى القرآن مفصلا كما تقدم وتارة يقص مجملا كما هنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام وعن ابن عباس بنى اسرائيل ثم انه تعالى أخبر بأنه لم يعجل على أحد منهم قبل الاجل الذى أجل لهم بقوله تعالى (ما تسبق من أمة أجلها) أى الذى قدرناها بأن تموت قبله (وما يستأخرون) عنه * (تنبيه) * ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ومن زائدة (ثم أرسلنا رسلنا تترا) أى متتابعين بين كل اثنين زمان طويل وقرأ أبو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون برفعها وقرأ تترا ابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بتنوين الراء على أنه مصدر بمعنى التواتر وقع حالا والباقون بغير تنوين * ولما كان كأنه قيل فكان ماذا قيل (كلما جاء أمة رسولها) أى بما أمرناه من التوحيد (كذبوه) اى كما فعل هؤلاء بك لما أمرتهم بذلك * (تنبيه) * أضاف الرسول مع الارسال الى الرسل ومع المجىء الى المرسل اليهم لان الارسال الذى هو مبدأ الامر منه والمجىء الذى هو منتهاه اليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم فى المد (فأتبعنا) القرون بسبب تكذيبهم (بعضهم بعضا) فى الاهلاك فلم يبق عند الناس منهم الا أخبارهم كما قال تعالى (وجعلناهم أحاديث) أى أخبارا يسمعونها ويتعجب منها ليكون واعظة للمستبصرين فيعلموا أنه لا يفلح الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما أحسن قول القائل

ولا شئ يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

والاحاديث تكون جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون جمع الاحدوثة التى هى مثل الاضحوكة والالعوبة وهى ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا * ولما تسبب عن تكذيبهم هلاكهم المقتضى لبعدهم قال تعالى (فبعدا للقوم) اى أقويا على ما يطلب منهم (لا يؤمنون) أى لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم الفصول الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل * القصة الرابعة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى (ثم أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (موسى وأخاه هرون بآياتنا) قال ابن عباس الآيات التسع وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والبحر والسنين ونقص الثمرات (وسلطان مبين) أى حجة بينة وهى العصا وأفردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وكونها حارسا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء فجعلت كأنها ليست بعضا لما استبدت به من الفضائل فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ويجوز أن يراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت آيات سائر الانبياء فى كونها آيات فقد فارقتها فى قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالآيات الحجج وان يراد بها المعجزات فانها آيات النبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبى قال الرازى واعلم ان

بلغ الاطفال منكم الحلم) الآية خذها بقوله

الآية تدل على أن معجزات موسى كانت معجزات هرون أيضاً وأن النبوة كما كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات (الى فرعون وملائه) أي وقومه ولكن لما كان الاطراف لا يخالفون الاشراف عدهم عدماً ومن الواضح ان التقدير أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره وأشار بقوله تعالى (فاستكبروا) الى انهم أوجدوا الكبر عن الاتباع فيما دعوهم اليه عقب الابلاغ من غير تأمل ولا تثبت وطلبوا أن لا يكونوا تحت أمر من دعاهم وأشار بالكون الى فساد جبلتهم بقوله تعالى (وكانوا قوماً) أي أقوياء (عالين) أي متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم * ولما تسبب عن استكبارهم وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى (فقالوا أنؤمن) أي بالله تعالى مصدقين (لبشرين مثلنا) أي في البشرية والأكل والشرب وغيرهما مما يعتري البشر كما قال من تقدمهم (وقومهما) أي والحال ان قومهما أي بني اسرائيل (لنا عابدون) خضوعاً وتذللاً أي في غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن أعلى منهما بهذا أو لأنه كان يدعي الالهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة (فكذبوهما) أي فرعون وملؤه موسى وهرون (فكانوا) اي فرعون وملؤه بسبب تكذيبهم (من المهلكين) أي بالغرق ببحر القلزم ولم تغن عنهم قوتهم في أنفسهم ولا قوتهم على خضوع بني اسرائيل واستعبادهم ولا ضر بني اسرائيل ضعفهم عن دفاعهم ولا ذلهم لهم وصغارهم في أيديهم * ولما كان ضلال بني اسرائيل بعد انقاذهم من عبودية فرعون وقومه أعجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد آتينا) أي بعظمتنا (موسى الكتاب) أي التوراة (لعلهم) أي قوم موسى وهرون عليهما السلام (يهتدون) من الضلالة الى المعارف والاحكام ولا يصح عود الضمير الى فرعون وملئه لان التوراة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى * القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وجعلنا) أي بعظمتنا وقدرتنا (ابن مريم) نسبه اليها تحقيقاً لكونه لا أب له وكونه بشراً محمولاً في البطن مولوداً لا يصلح لرتبة الالهية وزاد في تحقيق ذلك بقوله (وامه) وقال تعالى (آية) ولم يقل آيتين لان الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل ويحتمل ان الآية الاولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم آية وامه آية لان الله تعالى جعل مريم آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت في صغرها كما تكلم عيسى وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلقم ثدياً قط * (تنبيه) * قال بعض المفسرين ولعل في ذلك اشارة الى انه تكملت به آية القدرة على ايجاد الانسان بكل اعتبار من غير ذكر ولا انثى وهو آدم عليه السلام ومن ذكر بلا انثى وهي حواء عليها السلام ومن انثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس (وآويناهما) أي بعظمتنا (الى ربوة) أي مكان عال من الارض * (تنبيه) * قد اختلف في هذه الربوة فقال عطاء عن ابن عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هي أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلاً وقال عبد الله بن سلام هي دمشق وقال أبو هريرة هي الرملة وقال السدي هي أرض فلسطين وقال ابن زيد هي مصر وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء (ذات قرار) أي منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) أي ماء جار ظاهر تراه

يبين الله لكم آياته بالاضافة الآية وختم ما قبلها وما

قوله تكملت به آية القدرة لعله تكملت به آية القدرة والله العليم كذا بهامش

العيون *(تنبيه)* قد اختلف فى زيادة ميم معين وأصالتها فوجه من جعلها مفعولا أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا أدركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا أنه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايواء أنها امرت بابنها الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ثم رجعت الى أهلها بعد ما مات ملكهم وههنا آخر القصص وقد اختلف فى المخاطب بقوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) على وجوه أحدها أنه محمد صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها أنه عيسى عليه السلام لانه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه ثالثها أنه كل رسول خوطب بذلك ووصى به لانه تعالى فى الازل متكلم آمر ناه ولا يشترط فى الامر وجود المأمورين بل الخطاب ازلا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوى لا على انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا فى أزمنة مختلفة بل على معنى ان كلا منهم خوطب به فى زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة أنكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها وأنت خبير بأن عدم اشتراط ما ذكر انما هو فى التعلق المعنوى لا التنجيزى الذى الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع الرسل بذلك ليعتقد السامع ان أمرا خوطب به جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه وهذا كما قال الرازى أقرب لانه روى عن ام عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده صلى الله عليه وسلم الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده صلى الله عليه وسلم وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالى فأخذه ثم انها جاءته فقالت يا رسول الله لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا والمراد بالطيب الحلال وقيل طيبات الرزق الحلال الصافى القوام فالحلال هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه والصافى هو الذى لا ينسى الله فيه والقوام هو الذى يمسك النفس ويحفظ العقل وقيل المراد بالطيب المستلذ أى ما تستلذه النفس من المأكل والمشرب والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم أنه سبحانه وتعالى كما قال للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى (واعملوا صالحا) فرضا ونفلا سرا وجهرا اغيرنا تقبين من أحد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى (انى بما) أى بكل شئ (تعملون عليم) أى بالغ العلم فأجازيكم عليه وقرأ (وان هذه) بكسر الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها على تقدير واعلموا أن هذه أى ملة الاسلام وخفف النون ساكنة ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون (أمتكم) أى دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة واحدة) لاشتمالها فيها اصلا فاذا امت موحدة فهى مرضية (وأنا ربكم) أى المحسن اليكم بالخلق والرزق وحدى فمن وحدنى نجا ومن أشرك هلك هى غيرى هلك (فاتقون) أى فاحذرون (فتقطعوا) أى الامم وانما أضمرهم لوضوح ارادتهم لان الآية التى قبلها قد صرحت بأن الانبياء ومن نجا منهم أمة واحدة لا خلاف بينهما فعلم قطعا أن الضمير للامم ومن نشأ بعدهم ولذلك كان النظر الى الامر

بعدها بقوله يبين الله لكم الآيات بالتعريف

الذي كان واحدا أهم فتقدم وقوله (أمرهم) أي دينهم بعد أن كان مجتمعا متصلا (بينهم) وقوله تعالى (زبرا) حال من فاعل تقطعوا أي أحزابا متخالفين فصاروا فرقا كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور بمعنى الفرقة وقيل معنى زبرا كتبا أي تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب) أي فرقة من المتحزبين (بما لديهم) أي عندهم من ضلال وهدى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (فرحون) أي مسرورون فضلا عن أنهم راضون وقوله تعالى (فذرهم) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اترك كفار مكة (في غمرتهم) أي ضلالتهم شبهها بالماء الذي يغمر القامة لانهم مغمورون فيها (حتى حين) أي الى أن يقتلوا أو يموتوا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونهي عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره ولما كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم في بسط الارزاق من الاموال والاولاد حالة رضا نبههم أنكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة وكتبت له الحسنى وزيادة فقال تعالى (أيحسبون) اي لضعف عقولهم وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (أنما نمدهم) أي نعطيهم ونجعله مددا لهم (به من مال) نيسره لهم (وبنين) نمتعهم بهم ثم أخبر عن أن بقوله تعالى (نسارع) أي نعجل (لهم) أي به (في الخيرات) لا نفعل ذلك (بل لا يشعرون) أنهم في غاية البعد عن الخيرات نستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى في موضع آخر فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وروي عن زيد بن ميسرة أنه قال أوحى الله تعالى الى نبي من الانبياء أيفرح عبدي أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له مني ويحزن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني وعن الحسن انه لما أتى عمر رضي الله عنه بسواري كسرى فأخذهما ووضعهما في يد سراقة بن مالك فبلغا منكبه فقال عمر اللهم اني قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه في سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان أبا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكون ذلك مكرا منك ثم تلا أيحسبون الآية * ولما ذكر أهل الافتراق ذكر أهل الوفاق ووصفهم بأربع صفات الاولى قوله تعالى (ان الذين هم) اي ببواطنهم (من خشية ربهم) أي الخوف العظيم من المحسن اليهم المنعم عليهم (مشفقون) أي دائمون على الحذر الصفة الثانية قوله تعالى (والذين هم بآيات ربهم) أي القرآن (يؤمنون) أي يصدقون الصفة الثالثة قوله تعالى (والذين هم بربهم) أي الذي لا محسن اليهم غيره (لا يشركون) أي شيئا من شرك في وقت من الاوقات كما لم يشركه في الاحسان اليهم أحد * ولما أثبت لهم الايمان الخالص نفى عنهم العجب بقوله تعالى (والذين يؤتون) أي يعطون (ما آتوا) أي ما أعطوا من الصدقة والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة (وقلوبهم وجلة) أي شديدة الخوف أن لا يقبل منهم ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله تعالى (أنهم الى ربهم) أي الذي طال احسانه اليهم (راجعون) بالبعث فيجازيهم على النقير والقطمير ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد البصير ولا تنفع هنالك الندامة وليس هنالك الا الحكم العدل والحكم القاطع من جهة مالك الملك قال الحسن البصري المؤمن جمع ايمانا وخشية والمنافق جمع اساءة وأمنا * ثم أثبت لهم ما أفهم ان ضده لاضدادهم بقوله تعالى (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) أي

بأل لأنهما يشملان علامات يمكننا الوقوف

قوله ثم أخبر عن أن الخ أي لأن ما موصولة فكان حقها أن تكتب مفصولة لكن وصلت اتباعا لرسم المصحف والعائد محذوف تقديره نسارع لهم به أو فيه اهـ افاده الجمل اهـ مصححه

يبادرون الى الاعمال الصالحة قبل الموت ولما ذكر تعالى كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر أنه تعالى لا يكلف أحدا فوق طاقته بقوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أي طاقتها فمن لم يستطع أن يصلي الفرض قائما فليصل قاعدا ومن لم يستطع أن يصلي قاعدا فليصل مضطجعا ومن لم يستطع أن يصوم رمضان فليفطر لان مبنى المخلوق على العجز (ولدينا) اي وعندنا (كتاب ينطق بالحق) بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ تسطر فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها شبهه تعالى بالكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا (فان قيل) ما فائدة ذلك الكتاب مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا تخفى عليه خافية (اجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء وقد يكون في ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو تعالى (وهم) أي الخلق كلهم (لا يظلمون) أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد في سيآتهم * ثم ذكر حال الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم) أي الكفرة من الخلق (في غمرة) أي جهالة قد أغرقتها (من هذا) أي القرآن أو الذي وصف به حال هؤلاء أو من كتاب الحفظة (ولهم أعمال من دون ذلك) المذكور للمؤمنين (هم) أي الكفار (لها) أي لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) أي لابد أن يعملوها فيعذبون عليها لما سبق لهم من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أي رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقذر والاولاد (اذا هم يجأرون) أي يصيحون ويستغيثون ويجزعون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع قاله البغوي فكأنه قيل فهل يقبل اعتذارهم أو يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال أو المقال (لا تجأروا اليوم) فان الجأر غير نافع لكم * ثم علل ذلك بقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) أي بوجه من الوجوه ومن عدم نصرنا لم يجد له ناصرا ولا فائدة لجأره الا اظهار الجزع ثم علل عدم نصره لهم بقوله تعالى (قد كانت آياتي) أي من القرآن (تتلى عليكم) أي من أوليائي وهم الهداة النصحاء (فكنتم) كونا هو كالجبلة (على أعقابكم) عند تلاوتها (تنكصون) أي تعرضون مدبرين عن سماعها والعمل بها والنكوص الرجوع القهقرى (مستكبرين) عن الايمان واختلف في عود الضمير في (به) فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم أنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره وذلك أنهم يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف وقيل بالقرآن فلم يؤمنوا به وقوله تعالى (سامرا) نصب على الحال أي جماعة يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى (تهجرون) قرأه نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو الافحاش اي تفحشون وتقولون الخنى ذكر انهم كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والباقون بفتح التاء وضم الجيم اي تعرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القرآن وترفضونها وتسمون القرآن سحرا وشعرا * ثم انه تعالى لما وصف حالهم دعاهم بأن بين أن اقدامهم على هذه الامور لابد أن يكون لاحد أمور أربعة أحدها

عليها وهي في الاولى من
قبيل صلاة الفجر وحين

أن لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله تعالى (أفلم يدبروا القول) أي القرآن الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصل يدبروا يتدبروا أدغمت التاء في الدال ثانيها أن يعتقدوا ان ما جاء به الرسول أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله تعالى (أم جاءهم) في هذا القول (ما لم يأت آباءهم الاولين) الذين بعد اسمعيل وقوله ثالثها ان لا يكونوا عالمين بامانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم) اى الذى اتاهم بهذا القول الذى لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وامانته وما جاءهم به من معالى الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه اذا تحققت الحقائق نقيصة يذكرونها ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث أبي سفيان بن حرب الذى في أول البخاري في سؤال هرقل ملك الروم له عن شأنه صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت كلمتهم عليه بتسميته الامين (فهم) اى فتسبب عن جهلهم به أنهم (له) أي نفسه أو القول الذى أتى به (منكرون) فيكونوا عن جهل الحق بجهل حال الآتي به وفي هذا غاية التوبيخ لهم بجهلهم وبغباوتهم بأنهم يعرفون أنه أصدق الخلق وأعلاهم في كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى (أم يقولون) أي بعد تدبر ما أتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن (به) اى رسولهم (جنة) أي جنون فلا يوثق به ولما كانت هذه الاقسام منفية عنه فانهم أعرف الناس بهذا النبي الكريم وانه أكملهم خلقا وأشرفهم خلقا وأطهرهم شيما وأعظمهم هما وأرجحهم عقلا وأمتنهم رأيا وأرضاهم قولا وأصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى (بل) أي لم يتمسكوا عند سماع الآيات ويبصروا ويجبروا الاعتقاد شيء مما مضى وانما فعلوا ذلك لان هذا الرسول الكريم (جاءهم بالحق) أي القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام وقال الجلال المحلي الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبي ومجيء الرسول للامم الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لا جنون به وبل للانتقال (وأكثرهم) أي والحال ان أكثرهم (للحق كارهون) متابعة للاهواء الردية والشهوات البهيمية عنادا وانما قيد تعالى الحكم بالاكثر لان بعضهم يتركه جهلا وتقليدا وخوفا من أن يقال صبا أو بعضهم يتبعه توفيقا من الله تعالى وتأييدا ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدي الى الفساد العظيم بقوله تعالى (ولو اتبع الحق) أي القرآن (أهواءهم) بان جاء بما يهوونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (لفسدت السموات) على علوها واحكامها (والارض) على كثافتها واتطامها (ومن فيهن) على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم أي خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الآلهة لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (بل أتيناهم) بعظمتنا (بذكرهم) اى بالقرآن الذى فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذى تمنوه بقولهم لو أن عندنا ذكرا من الاولين (فهم عن ذكرهم) اى الذى هو شرفهم (معرضون) لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا لنفرتهم بقوله تعالى (أم تسئلهم) أي على ما جئتهم به (خرجا) اى أجرا وقرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وبعدها ألف والباقون بسكون الراء ولما كان الانكار معناه النفي حسن موقع فاء السببية في قوله تعالى

تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوة

(فخراج ربك) اى رزقه فى الدنيا وثوابه فى العقبى (خير) لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم وقرأ ابن عامر بسكون الراء والباقون بفتحها وألف بعدها قال ابو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك اداؤه قال الزمخشري والوجه ان الخرج اخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة اى الرقبة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى ام تسالهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير وقوله تعالى (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه * ولما زيف سبحانه وتعالى طريق القوم اتبعه بصحة ما جاء به الرسول عليه السلام بقوله تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد عقولهم السليمة على استقامته لا عوج فيه يوجب اتهامهم له كما تشهد له العقول الصحيحة فمن سلكه أوصله الى الغرض ففاز كل فوز * (تنبيه) * قد ألزمهم الله تعالى الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذى أرسل اليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل له سلما الى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم الى دين الاسلام الذى هو الصراط المستقيم الا مع ابراز المكنون من أدوائهم وهو اخلالهم بالتدبر والتأمل من غير برهان (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) اى بالبعث والثواب والعقاب (عن الصراط) اى الذى لا صراط غيره لانه لا موصل الى القصد غيره (لناكبون) اى عادلون منحرفون فى سائر أحوالهم سائرون على غير منهج أصلا بل خبط عشواء (ولو رحمناهم) اى عاملناهم معاملة المرحوم فى ازالة ضرره وهو معنى قوله تعالى (وكشفنا ما بهم من ضر) اى جوع أصابهم بمكة سبع سنين (للجوا) اى عادوا وتمادوا (فى طغيانهم) الذى كانوا عليه قبل هذا (يعمهون) اى يترددون (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فقد أكلوا القرث والعظام والعلهز وشكا اليه الضر فادع الله تعالى يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فانزل الله تعالى هذه الآية * (تنبيه) * العلهز وبر يخلط بدماء الحلم وكان يؤكل فى الجدب والعلهز أيضا القراد الضخم وشكا بعض الاعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم السنة فقال

ولا شئ مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل

وليس لنا الا اليك فرارنا * وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى لرفع هذه المحن فقال الله تعالى عنهم (فما استكانوا) اى خضعوا وتضرعوا وكانت جبلة لهم وأصله طلب السكون (لربهم) اى المحسن اليهم عقب المحنة (وما يتضرعون) اى يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع فى كل وقت بحيث يكون لهم عادة بل هم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتو (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا) اى صاحب (عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو قول مجاهد وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذا هم فيه) اى فى ذلك الباب مطروحون لا يقدرون منه على نوع

الفشاء وفى الاخيرة من بيوتكم

خلاص (مبلسون) متحيرون آيسون من كل خير ثم إنه سبحانه التفت إلى خطابهم وبين عظيم
نعمه من وجوه أحدها ما ذكره بقوله تعالى (وهو الذي أنشأ) أي خلق (لكم) يا من يكذب
بالآخرة (السمع) بمعنى الأسماع (والأبصار) على غير مثال سبق لتسمعوا وتبصروا ما نصب من
الآيات (والأفئدة) أي القلوب التي هي مراكز العقول لتتفكروا في الآيات وتستدلوا بها على
الوحدانية فكنتم بها أعلى من بقية الحيوان جمع فؤاد وهو القلب وإنما خص هذه الثلاثة
بالذكر لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها فإن لم يعملها فيما خلقت له
فهو بمنزلة عادمها كما قال عز وجل فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء
إذ كانوا يجحدون بآيات الله ومقصود الكلام هذه النعم وهي صفة لا يشك عاقل في أنه لو تعمد أن
يعطي آدمي شيئا منها لم يقدر على مكافأته حسن تبكيتهم في كفر النعم فقال تعالى (قليلا
ما تشكرون) أي أولاكم هذه النعم التي لا يقدر غيره على شيء منها مع ادعائكم أنكم أشكر
الناس لمن أسدى إليكم أقل ما يكون من النعم التي يقدر على مثلها كل أحد فكنتم بذلك مثل
الحيوانات العجم صما بكما عميا قال أبو مسلم ليس المراد أن لهم شكرا وإن قل لكنه كما يقال
للكفور الجاحد النعمة ما أقل شكر فلان * ثانيها ما ذكره في قوله تعالى (وهو) أي وحده (الذي
ذرأكم) أي خلقكم وبثكم (في الأرض) بالتناسل (وإليه) وحده (تحشرون) يوم النشور
ثالثها ما ذكره بقوله تعالى (وهو) أي وحده (الذي) من شأنه أنه (يحيي ويميت) فلا مانع له من
البعث ولا غيره مما يريده * رابعها ما ذكره بقوله تعالى (وله اختلاف الليل والنهار) أي التصرف
فيهما بالسواد والبياض والزيادة والنقصان (أفلا تعقلون) أي بالنظر والتأمل أن الكل منا
وأن قدرتنا تعم الممكنات كلها وأن البعث من جملتها فتعتبرون * ولما كان معنى الاستفهام
الإنكاري النفي حسن بعده قوله تعالى (بل قالوا) أي هؤلاء العرب (مثل ما قال الأولون) من
قوم نوح ومن بعدهم فقالوا ذلك تقليدا للأولين ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين أحدهما
ما ذكره بقوله تعالى (قالوا) أي منكرين البعث متعجبين من أمره (أئذا متنا وكنا) أي بالبلى بعد
الموت (ترابا وعظاما) نخرة ثم أكدوا الإنكار بقولهم (أئنا لمبعوثون) أي لمحشورون بعد
ذلك قالوا ذلك استبعادا ولم يتأملوا أنهم قبل ذلك أيضا كانوا ترابا فخلقوا ثانيهما ما ذكره بقوله
تعالى أنهم قالوا (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أي البعث بعد الموت (من قبل) كأنهم قالوا
إن هذا الوعد كما وقع منه صلى الله عليه وسلم فقد وقع قديما من سائر الأنبياء ولم يوجد مع طول
العهد وظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا ثم قالوا (إن) أي ما (هذا إلا أساطير) أي
أكاذيب (الأولين) كالأضاحيك والأعاجيب جمع أسطورة بالضم وقيل جمع أسطار جمع
سطر قال رؤبة * إني وأسطار سطرن سطرا * وهو ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له ولما
أنكروا البعث هذا الإنكار المؤكد ونحوه وهذا النفي العظيم أمره الله تعالى أن يقررهم بثلاثة
أشياء هم بها مقرون ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الإقرار بالبعث قطعا أحدها قوله
تعالى (قل) أي مجيبا لإنكارهم البعث ملزما لهم (لمن الأرض) أي على سعتها وكثرة عجائبها
(ومن فيها) على كثرتهم واختلافهم (إن كنتم) أي بما هو كالجبلة لكم (تعلمون) أي أهلا للعلم

وفيه تنبيه على أنهم أنكروا شيأ لا ينكره عاقل ولما كانوا مقرين بذلك أخبر تعالى عن
جوابهم قبل جوابهم ليكون من دلائل النبوة وأعلام الرسالة بقوله تعالى استئنافا
(سيقولون) اى قطعا ذلك كله (لله) اى المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى أمره بقوله (قل)
اى لهم اذا قالوا ذلك منكرا عليهم (أفلا تذكرون) اى فى ذلك المركوز فى طباعكم المطبوع
به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته فتصدقوا بما أخبر به من البعث الذى هو
دون ذلك وتعلموا أنه لا يصلح شئ منها وهو ملكه أن يكون شريكا له تعالى ولا ولدا وتعلموا ان
القادر على الخلق ابتداء قادر على الاحياء بعد الموت وأنه لا يصح فى الحكمة أصلا أن يترك
البعث لان أقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى
بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء الثانية فى الذال ثانيها قوله تعالى (قل) اى لهم
(من رب) اى خالق ومدبر (السموات السبع) كما تشاهدون من حركاتها وسيرها فلا كها
(ورب العرش) اى الكرسى (العظيم) كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض
(سيقولون لله) اى الذى له كل شئ ورب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما أكد الامر وزاد
لوضوح حسن التهديد على التمادى فقال تعالى (قل) اى منكرا عليهم (أفلا تتقون) أى
تحذرون عبادة غيره ثالثها قوله (قل) أمره الله تعالى بعدما قررهم العالمين العلوى والسفلى
أن يقررهم بما هو أعم وأعظم وهو قوله تعالى (من بيده) اى من تحت قدرته ومشيئته (ملكوت
كل شئ) من انس وجن وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن الاثير كانت العرب اذا كان
السيد فيهم أجار أحدا لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه ولو أجار
ما أفاد ولهذا قال تعالى (وهو يجير) اى يمنع ويغيث من شاء فيكون فى حرز لا يقدر أحد على
الدنو من ساحته (ولا يجار عليه) اى ولا يمكن أحدا أبدا أن يجير جوارا يكون مستعليا عليه
بان يكون على غير مراده بل يأخذ من أراد وان نصره جميع الخلائق ويعلى من أراد وان
تحاملت عليه كل المصائب فتبين كالشمس أنه لا شريك يمانعه ولا ولد يضارعه وانه السيد
العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن
ثم ألهبهم الى المبادرة الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) اى فى عداد من
يعلم ولذلك استأنف قوله تعالى (سيقولون لله) اى الذى بيده ذلك خاصة * (تنبيه) *
سيقولون لله الاولى لا خلاف فيها وأما الثانية والثالثة فقرأ أبو عمرو سيقولون الله بزيادة
همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الهاء والباقون بغير همز الوصل مع الترقيق وكسر الهاء
والتقدير ذلك كله لله * ولما كان جوابهم بذلك يقتضى انكار توقفهم فى الاقرار بالبعث استأنف
قوله تعالى (قل) اى لهم منكرا عليهم (فأنى تسحرون) اى فكيف بعد اقراركم بهذا كله تخدعون
وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم أنه باطل * ولما كان الانكار بمعنى النفى حسن قوله
تعالى (بل) اى ليس الامر كما يقولون بل (أتيناهم بالحق) اى بالصدق من التوحيد والوعد
بالنشور (وانهم لكاذبون) فى كل ما ادعوه من الولد والشريك وغيرهما مما بين القرآن فساده
ومن أعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى ردا عليهم (ما اتخذ الله) اى الذى لا كفء

الآيتين قوله يبين الله لكم الآيات واما بلوغ

الله من ولد) اى لامن الملائكة ولامن غيرهم لما قام من الادلة على غناه وانه لا مجانس له ولما كان الولد أخص من مطلق الشريك قال تعالى (وما كان معه) في وجه من الوجوه (من اله) يشابهه في الالوهية (اذا) لو كان معه اله آخر (لذهب كل اله بما خلق) بالتصرف فيه وحده ليتميز ماله مما لغيره (فان قيل) اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل (أجيب) بان الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين (ولعلا بعضهم) اى بعض الآلهة (على بعض) اذا تخالفت آراؤهم فلم يرض أحدهم أن يضاف ما خلقه الى غيره ولا أن يمضي فيه أمر على غير مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يكون مجبرا غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شيء ولما طابق الدليل الالزامي في نفي الشريك نزه نفسه الشريفة بما هو نتيجة ذلك من قوله تعالى (سبحان الله) اى المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص (عما يصفون) من كل ما لا يليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما سبق من الدليل على فساده ثم أقام دليلا آخر على كماله بوصفه بقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) اى ما غاب وما شوهد وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي برفع الميم على أنه خبر مبتدا محذوف تقديره هو والباقون بالخفض على أنه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل قوله تعالى (فتعالى) اى تعاظم (عما يشركون) معه من الآلهة ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل رب) اى أيها المحسن الي (اما) فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة اى ان كان لابد أن (تريني) لان ما والنون للتأكيد (ما يوعدون) من العذاب في الدنيا والآخرة (رب فلا تجعلني) بإحسانك الي (في القوم الظالمين) اى قرينا لهم في العذاب (فان قيل) كيف يجوز أن يجعل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم مع القوم الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم (أجيب) بانه يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واخباتا له واستغفاره صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وليتكم ولست بخيركم كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر ربه مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة في التضرع (وانا) اى بما لنا من العظمة (على أن نريك) اى قبل موتك (ما نعدهم) من العذاب (لقادرون) لكنا نؤخره علما بان بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون وهو صادق بما قتلوا يوم بدر أو فتح مكة ثم كأنه قال فماذا أفعل فيما أعلم من أمرهم فقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن) اى من الاقوال والافعال بالصفح والمداراة (السيئة) اذاهم اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهي منسوخة وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين أو مروأة (نحن أعلم بما يصفون) في حقك وحقنا فلو شئنا لمنعناهم منه أو عاجلناهم بالعذاب وليس أحد بأغير منا فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل * ولما أدب سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان يدفع بالتي هي أحسن علمه ما يقوى على ذلك بقوله تعالى (وقل رب) اى أيها المحسن الي (أعوذ بك) اى التجئ اليك

الاطفال فلم يذكره
علامات يمكننا الوقوف

(من همزات الشياطين) اى أن يصلوا الى بوساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على المشى وانما جمع همزات لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب) اى أيها المربى لى (أن يحضرون) فى حال من الاحوال خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الاجل لانها أحرى الاحوال وهم انما يحضرون بالسوء ولو لم تصل الى وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير بن مطعم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو لا أدرى اى صلاة هى فقال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود ولان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى أن ينفخ والموتة الجنون والمجنون يصير فى الدنيا كالميتة ثم ان الله تعالى أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند معاينة الموت بقوله تعالى (حتى) وهى هنا كما قال الجلال المحلى ابتدائية أو متعلقة بيصفون أو بكاذبون كما قال الزمخشرى وقدم المفعول ليذهب الوهم فى فاعله كل مذهب فقال (اذا جاء أحدهم الموت) فكشف له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق فى شئ من ذلك ارتياب (قال) متحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا الملائكة العذاب على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس من دأب البهائم (رب ارجعون) اى ردونى الى الدنيا دار العمل ويجوز أن يكون الجمع له تعالى والملائكة أو للتعظيم على عادة مخاطبات الاكابر سيما الملوك كقوله * ألا فارحمونى يا اله محمد * وقوله * فان شئت حرمت النساء سواكم * أو القصد تكرير الفعل للتأكيد لانه فى معنى ارجعنى كما قيل فى قفا وأطرقا فانه بمعنى قف قف وأطرق أطرق * ولما كان فى تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من اليأس قال (لعلى أعمل) اى لأن أكون على رجاء من أن أعمل (صالحا فيما تركت) اى ضيعت من الايمان بالله وتوابعه فيدخل فى الاعمال الاعمال البدنية والمالية وعنه صلى الله عليه وسلم اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما على الله وأما الكافر فيقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال قتادة ما تمنى أن يرجع الى أهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت واستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى * ولما كان القضاء قد قطع بانه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا وردا لكلامه (كلا) اى لا يكون شئ من ذلك وكأنه قيل فما حكم ما قال فقيل (انها كلمة) والمراد بالكلمة فى اللغة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض رب ارجعون الى آخره (هو قائلها) وقد عرف منه الخداع والكذب فهى كما عهد منه لا حقيقة لها فلا يجاب اليها ولا تسمع منه وهو لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم (ومن ورائهم) اى أمامهم والضمير للجماعة (برزخ)

عليها بل تقدر دعى على بعله
بذلك لخصمها بقوله سبق

اى حاجز حائل بينهم وبين الرجعة واختلف فى معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع الى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت الى البعث وقيل هو الموت وقيل هو القبر وهم فيه (الى يوم يبعثون) وهو يوم القيامة وفى هذا اقناط كلى من الرجوع الى الدنيا لما علم انه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع فيه الى حياة تكون فى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) اى القرن روى سعيد بن جبير عن ابن عباس انها النفخة الاولى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض (فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له حق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذه منهم ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم اى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون بها فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن اى قبيل أنت ولم يرد أن الانسان ينقطع نسبه (فان قيل) قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (أجيب) بان ابن عباس قال ان للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون افاقة فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (فمن ثقلت موازينه) اى بالاعمال المقبولة قال البقاعى ولعل الجمع لان لكل عمل ميزانا يعرف أنه لا يصلح له غيره وذلك أدل دليل على القدرة (فأولئك) اى خاصة قال أيضا ولعله جمع للبشارة بكثرة الناجى بعد أن أفرد للدلالة على كثرة الاعمال او على عموم الوزن لكل فرد (هم المفلحون) اى الفائزون بالنجاة والدرجات العلا (ومن خفت موازينه) لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على الايمان (فأولئك) خاصة (الذين خسروا انفسهم) لاهلاكهم اياها باتباعها شهواتها فى دار الاعمال وشغلها باهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة او خبر ثان لاولئك وهى دار لا يفك أسيرها ولا يطفأ سعيرها ثم استأنف قوله تعالى (تلفح) اى تغشى بشدة حرها وسمومها ووهجها (وجوههم النار) فتحرقها فاطلك بغيرها واللفح كالنفح الا أنه أشد تأثيرا (وهم فيها كالحون) اى عابسون قد تشمرت شفاههم العليا والسفلى عن اسنانهم وعن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته وقوله تعالى (ألم تكن آياتى) اى من القرآن على اضمار القول اى يقال لهم ألم تكن آياتى (تتلى عليكم) اى تتابع لكم قراءتها فى الدنيا شيأ فشيأ (فكنتم بها تكذبون) ثم استأنف جوابه بقوله تعالى (قالوا ربنا) اى المسبغ علينا نعمه (غلبت علينا شقوتنا) اى ملكتنا بحيث صارت أحوالها مؤدية الى سوء العاقبة (وكنا) اى بما جبلتنا عليه (قوما ضالين) فى ذلك عن

اشغلكم آياته بالاضافة اليه (قوله والقوا عدمن)

الحق أتوبا في موجبات الشقوة فكان سببا للضلال عن طريق السعادة (ربنا) يا من عودنا
بالاحسان (أخرجنا منها) أي من النار فضلا منك على عادة فضلك وردنا الى دار الدنيا لنعمل
ما يرضيك (فان عدنا) الى مثل ذلك الضلال (فانا ظالمون) لانفسنا ثم استأنف جوابهم
بأن (قال) لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين كما يقال للكلاب (اخسؤا) أي انزجروا
زجر الكلاب وانزجروا عن مخاطبتي ساكتين سكوت هوان (فيها) أي النار (ولا تكلمون)
أصلا فانكم لستم باهل لمخاطبتي لانكم لم تزالوا متصفين بالظلم فييأس القوم بعد ذلك ولا
يتكلموا بكلمة الا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبي اذا قيل لهم ذلك
انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض فانطبقت عليهم وعن ابن عباس ان لهم ست
دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول مني فينادون الدعاء الآية ٭ ان قلت كيف أباح الله تعالى بذلك
ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بانه اذا دعي الله وحده كفرتم فينادون ألفا يا مالك ليقض
علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا ربنا أخرجنا منها فيجابون أولم تكونوا أقسمتم
فينادون ألفا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا رب ارجعون فيجابون
اخسؤا فيها ولا تكلمون ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق والعواء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه
كان) أي كونا ثابتا (فريق) أي ناس قد استضعفتموهم (من عبادي) وهم المؤمنون (يقولون)
مع الاستمرار (ربنا) أي أيها المحسن الينا بالخلق والرزق (آمنا) أي أوقعنا الايمان بجميع
ما جاءتنا به الرسل (فاغفر لنا) أي استر لنا زللنا (وارحمنا) أي افعل بنا فعل الراحم (وأنت خير
الراحمين) لانك تخلص برحمتك من كل شقاء وهوان (فاتخذتموهم) أي فتسبب عن ايمانهم ان
اتخذتموهم (سخريا) أي تسخرون منهم وتستهزؤن بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين
والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر الا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل كما قيل
الخصوصية في الخصوص وعن الكسائي والفراء ان المكسور من الهزء والمضموم من
السخرة والعبودة أي تسخرونهم وتستعبدونهم قال الزمخشري والاول مذهب الخليل
وسيبويه انتهى وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام (حتى أنسوكم
ذكري) أي بأن تذكروني فتخافوني وأضاف ذلك اليهم لانهم كانوا السبب فيه لفرط اشتغالهم
بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم نزلت في كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ولما تشوفت
النفس بعد العلم بما فعل باعدائهم الى جزائهم قال الله تعالى (اني جزيتهم اليوم) أي بالنعيم
المقيم (بما صبروا) أي على عبادتي ولم يشغلهم عنها اقبالهم بأذاكم كما يشغلكم عنها التلذذكم
باهانتهم ففازوا دونكم وهو معنى قوله تعالى (انهم هم الفائزون) أي بمطلوبهم الناجون
من عذاب النار وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها
على أنه مفعول ثان لجزيتهم ثم ان الله تعالى (قال) لهم على لسان الملك المأمور بسؤالهم
تبكيتا وتوبيخا لانهم كانوا يظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا في النار
وأيقنوا أنها دائمة وانهم فيها مخلدون سألهم (كم لبثتم في الارض) على تلك الحال في الدنيا الى

كنتم تعدونها فوزا (عدد سنين) أنتم فيها ظافرون ولاعدائكم قاهرون وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي قل كم بضم القاف وسكون اللام على الامر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما خبرا وتقدم توجيهه وأظهر الثاء المثلثة عند التاء المثناة فوق نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها فيها الباقون (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يشكون في ذلك (فان قيل) كيف يصح في جوابهم ان يقولوا ذلك ولا يقع من أهل النار الكذب (أجيب) بانهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا (فاسئل العادين) اى الملائكة المحصين أعمال الخلق واعمارهم قال ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك تصغيرا للبثهم وتحقيرا لها بالاضافة الى ما وقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم

ألا ان أيام الشقاء طويلة ✽ كما ان أيام السرور قصار

وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين وترك الهمزة بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ثم (قال) الله تعالى لهم على لسان الملك (ان) أى ما (لبثتم) أى في الدنيا (الا قليلا) لان الواحد وان طال مكثه في الدنيا فانه يكون قليلا في جنب ما يلبث في الآخرة (لو انكم كنتم تعلمون) أى في عداد من يعلم في ذلك الوقت لما آثرتم الفاني على الباقي ولا قبلتم على ما ينفعكم ولتركتم أفعالكم التي لا يرضاها عاقل ولكنكم كنتم في عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائي قل أمرا والباقون قال خبرا كما تقدم مثله وتوجيهه قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على تغافلهم بقوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم) على مالنا من العظمة وقوله تعالى (عبثا) حال أى عابثين كقوله لاعبين أو مفعول له أى ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى خلقكم الا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي (و) حسبتم (أنكم الينا لا ترجعون) في الآخرة للجزاء وروى البغوي بسنده عن أنس أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم ✽ ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقولونه ويصفه به المشركون بقوله تعالى (فتعالى الله) أى الذي له الجلال والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به (الملك) اى المحيط بأهل مملكته علما وقدرة وسياسة وحفظا ورعاية (الحق) اى الذي لا يتطرق الباطل اليه في شئ في ذاته ولا في صفاته فلا زوال له ولا لملكه (لا اله الا هو) فلا يوجد له نظير أصلا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فهو متعال عن سمات النقص والعبث ثم زاد في التعيين والتأكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله تعالى (رب العرش) اى السرير المحيط بجميع الكائنات الذي تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام ولذا وصفه بالكرم فقال (الكريم) أو لنسبته الى أكرم الاكرمين ✽ ولما بين سبحانه وتعالى انه الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بان من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا بقوله تعالى (ومن يدع مع الله) اى الملك الذي لا كفء له (الها آخر) يعبده (لا برهان له به) اى بسبب دعائه

للقواعد من النساء وهن العجائز القعد من الشباب

بذلك اذا اجتهد في اقامة برهان على ذلك لم يجد ثم ذكر ان من قال ذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله تعالى (فانما حسابه) اى جزاؤه الذى لا يمكن زيادته ولا نقصه (عند ربه) اى الذى رباه ولم يربه أحد سواه الذى هو أعلم بسريرته وعلانيته فلا يخفى عليه شئ من أمره * ولما افتتح السورة بقوله قد أفلح المؤمنون ختمها بقوله (انه لا يفلح الكافرون) اى لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة * ولما شرح الله تعالى أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته بقوله تعالى (وقل رب) اى أيها المحسن الى (اغفر وارحم) اى أكرم من هذين الوصفين (وأنت خير الراحمين) فمن رحمته أفلح عما توفقه له من امتثال ما أشرت اليه أول السورة فكان من المؤمنين وكان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على الاول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسأل الله تعالى ان يكون لنا ولوالدينا ولاحبابنا ارحم راحم وخير غافر انه المتولى للسرائر والمرجو لاصلاح الضمائر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله أيضا تبعا للزمخشرى وروى ان أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم أجده

بحضرة الرجل

سورة النور مدنية

(وهى ثنتان أو أربع وستون آية)

(بسم الله) الذى تمت كلمته فبهرت قدرته (الرحمن) الذى طهرت الخلائق كلها بشمول رحمته (الرحيم) الذى شرف من اختاره بخدمته قوله تعالى (سورة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه سورة أى عظيمة أو سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ثم رغب في امتثال ما فيها مبينا أن تنويتها للتعظيم بقوله تعالى (أنزلناها) أى بما لنا من العظمة وتمام العلم والقدرة (وفرضناها) أى قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء لكثرة الفروض والباقون بالتخفيف (وأنزلنا فيها آيات) من الحدود والاحكام والمواعظ والامثال وغيرها (بينات) أى واضحات الدلالة (لعلكم تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر في السورة أحكاما كثيرة * الحكم الاول قوله تعالى (الزانية والزانى) اى غير المحصنين لرجمهما بالسنة وأل فيهما ذكر موصولة وهو مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء في خبره وهو (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) اى ضربة يقال جلده اذا ضرب جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر ولا رجم عليه لانه لا يتنصف واعلم ان الزنا من الكبائر ويدل عليه أمور أحدها ان الله تعالى قرنه

بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى أوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يامعشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة أما اللاتى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللاتى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يارسول الله اى الذنب أعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال أن تزنى بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقا لذلك والذين لايدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة أو قدرها من مقطوعها من الذكر المتصل الاصلى من الآدمى الواضح ولو أشل وغير منتشر وكان ملفوفا فى خرقة بقبل محرم فى نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة للحد مشتهى طبعا بان كان فرج آدمى حى ولا يشترط ازالة البكارة حتى لو كانت غوراء وأدخل الحشفة فيها ولم يزل بكارتها ترتب عليه حد الزنا بخلاف التحليل لابد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله عليه وسلم حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك واختلف فى اللواط هل يطلق عليه اسم الزنا أولا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان والذى عليه اكثر أصحابنا أنه غير داخل تحت اسم الزنا لانه لو حلف لايزنى فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وللشافعى فى حده قولان أصحهما أن الفاعل ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة ويغرب عاما وأما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد ويغرب والقول الثانى يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أم لا لما روى عن ابن عباس انه قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وأما اتيان البهائم فحرام باجماع الائمة واختلف فى عقوبته على أقوال أحدها حد الزنا فيرجم الفاعل المحصن ويجلد غيره ويغرب والثانى أنه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه والثالث وهو الاصح انه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس بضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض بما روى انه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله وأما السحاق من النساء واتيان المرأة الميتة والاستمناء باليد فلا يشرع فيه شئ من ذلك الا التعزير والمقيم للحد هو الامام أو نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه ولا تجوز الشفاعة فى اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى (ولا تأخذكم) اى على اى حال من الاحوال (بهما رافة) اى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها والسوسى على أصله من الابدال وقيل معنى الرأفة ان يخففوا الضرب (فى دين الله) اى الذى شرعه لكم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها روى ان عمر رضى الله عنه جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يابنى ان الله تعالى لم يأمرنا بقتلها وقد

(قوله) المراد بالشباب الزائد على ماينعم فيه

ضربت قاوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زاد فى الحض على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم تؤمنون بالله) اى الذى هو أرحم الراحمين فانه ما شرع ذلك الا رحمة للناس عموما وللزانين خصوصا فلا تزيدوا فى الحد ولا تنقصوا منه شيأ وفى الحديث يؤتى بوال نقص من الحدود سوطا فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن أبى هريرة اقامة حد بارض خير من مطر أربعين ليلة ثم اتبع ذلك بما رهبه بقوله تعالى (واليوم الآخر) الذى يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفى والجلى (وليشهد) اى وليحضر (عذابهما) اى حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة من المؤمنين) والطائفة الفرقة التى يمكن ان تكون حلقة واقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كانها الجماعة الحافة حول الشئ وعن ابن عباس فى تفسيرها أربعة الى أربعين رجلا من المصدقين بالله تعالى وعن الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا وعن مجاهد اقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس لان الاربعة هى الجماعة التى يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وسلم امر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك افضح والفاسق بين صلحاء قومه اخجل ويشهد له قول ابن عباس الى اربعين رجلا من المصدقين بالله *(تنبيه)* الضرب يكون بسوط لا حديد يجرح ولا خلق لا يؤلم ويفرق بين السياط على اعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد واتفقوا على انه يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الراس لقول ابى بكر رضى الله عنه اضرب على الراس فان الشيطان فيه ولا يشديده ويترع الثياب التى تمنع الم الضرب كالفرو ولو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل ان يضرب كل يوم سوطا او سوطين فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجب الحد على حامل لا يقام عليها حتى تضع وترضعه حتى ينفطم ويندب ان يحفر للمراة الى صدرها ان ثبت زناها بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر ان كان يرجى زواله كصداع انتظر ولا يرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده واما فى حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة وان كان جلدا اخر الى اعتدال الهواء ويقبل رجوع الزانى عن اقراره ولو فى أثناء الحد واذا مات فى الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين *الحكم الثانى* قوله تعالى (الزانى لا ينكح) اى لا يتزوج (الا زانية أو مشركة) اى المعلوم اتصافه بالزنا مقصور نكاحه على زانية أو مشركة (والزانية لا ينكحها) اى لا يتزوجها (الا زان أو مشرك) اى والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها على زان أو مشرك اذ الغالب أن المائل الى الزنا لا يرغب فى نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والانضمام والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعن على رضى الله تعالى عنه انه خطب أهل الكوفة

وعن الحسن عشرة فصاعدا لكثرة قعودها حافة بها

بعد ثلاثة أيام من مقدمه عليهم فقال يا أهل الكوفة قد علمنا شراركم من خياركم فقالوا كيف وما لك الا ثلاثة أيام فقال كان معنا شرار وخيار فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبي انه قال ان لله ملكا موكلا يجمع الاشكال بعضها الى بعض وقال القائل

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي

فان قيل لم قدمت الزانية على الزاني أولا ثم قدم عليها ثانيا (أجيب) بان تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا وأولا في ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب ومنه يبدو الطلب (وحرم ذلك) أي نكاح الزاني والزانية تحريما مشوبا فيه (على المؤمنين) واختلف العلماء في معنى الآية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا هن يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فنزلت هذه الآية وحرم ذلك على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت في نساء كن بمكة وبالمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل منهم النبي صلى الله عليه وسلم في نكاح أم مهزول فاشترطت أن تنفق عليه فنزلت هذه الآية وروى عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكان بمكة بغي يقال لها عناق وكانت صديقة له في الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا فقالت فانكحني فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد علي شيأ فنزل الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها علي وقال لا تنكحها أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا في حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني الا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني الا بزان أو مشرك وقال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضي الله عنها ان الرجل اذا زنى بامرأة ليس له ان يتزوجها لهذه الآية واذا باشرها كان زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزاني الزانية فهما زانيان أبدا وقال الحسن الزاني المجلود لا ينكح الا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها الا زان مجلود وقال سعيد بن المسيب وجماعة منهم الشافعي رحمه الله تعالى ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها الله تعالى بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم وهو جمع أيم وهي من لا زوج لها فدخلت

قتيبة (قوله ولا على انفسكم ان تاكلوا من

الزانية فى أيامى المسلمين واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر ان رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان امرأتى لاتمنع يد لامس قال طلقها قال فانى أحبها وهى جميلة قال استمتع بها وفى رواية غيره أمسكها اذا وقد أجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه ضرب رجلا وامرأة زنيا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام ولما نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة نهى عن الرمى به فقال تعالى (والذين يرمون) أى بالزنا (المحصنات) جمع محصنة وهى هنا المسلمة الحرة المكلفة العفيفة وهذا هو الحكم الثالث والذى يدل على أن المراد الرمى بالزنا أمور أحدها تقدم ذكر الزنا ثانيها أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمى رميها بضد ذلك ثالثها انعقاد الاجماع على انه لايجب الجلد بالرمى بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمى بالزنا رابعها قوله تعالى (ثم لم يأتوا) أى الى الحكام (بأربعة شهداء) أى ذكور ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير شرط الا فى الزنا وشرط القاذف الذى يحد بسبب القذف التكليف والاختيار والتزام الاحكام والعلم بالتحريم وعدم اذن المقذوف وأن يكون غير أصل وألفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فمن الصريح قوله لرجل أو امرأة زنيت او زنيت او يازانى او يازانية ولو كسر التاء فى خطاب الرجل وفتحها فى خطاب المرأة او زنيت فى الجبل ومن الكناية زنأت وزنأت فى الجبل بالهمز فان نوى بذلك القذف كان قذفا والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال واما انا فلست بزان فهذا ليس بقذف وان نواه (فان قيل) اذا كان ذلك القذف يشمل الذكر والانثى فلم كانت الآية الكريمة فى الاناث فقط (أجيب) بان الكلام فى حقهن أشنع وتنبيها على عظيم حق أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها وحد القاذف الحر ثمانون كما قال تعالى (فاجلدوهم) اى أيها المؤمنون من الائمة ونوابهم (ثمانين جلدة) لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق ولو مبعضا أو مكاتبا أربعون جلدة على النصف من الحر لآية النساء فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الآية مخصوصة بتلك اذ لا فرق بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا وحد القذف ويدل على ان المراد بالآية الاحرار قوله تعالى (ولا تقبلوا لهم) اى بعد قذفهم (شهادة) اى شهادة كانت (أبدا) للحكم بافترائهم لان العبد لاتقبل شهادته وان لم يقذف ولما كان القذف بالزنا قد افتروا عطف عليه تحذيرا من الاقدام عليه من غير تثبت (وأولئك) اى الذين تقدم ذمهم بالقذف فنزلت رتبتهم جدا (هم الفاسقون) اى المحكوم بفسقهم الثابت لهم هذا الوصف وان كان القاذف منهم محقا فى نفس الامر وفى ذلك دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفسق لايقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة وحكم هذا الاستثناء المذكور فى قوله (الا الذين تابوا) اى رجعوا عما وقعوا فيه من القذف وغيره وندموا عليه وعزموا على ان لايعودوا (من بعد ذلك) اى الامر الذى أوجب ابعادهم فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب وصلح حاله كما قال تعالى (وأصلحوا)

بيوتكم) أى من بيوت أولادكم وعيالكم والا

اى بعد التوبة بمضى مدة يظن بها حسن الحال وهى سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التى تكشف الطبائع (فان الله) اى الذى له صفات الكمال (غفور) اى ستور لهم ما اقدموا عليه لرجوعهم عنه (رحيم) اى يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم بالمرحوم فى قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد او بعده و زال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق ويروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم الى ان شهادة المحدود فى القذف لا تقبل ابدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله واولئك هم الفاسقون ويروى ذلك عن النخعى وشريح وبه قال اصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعى هو قبل ان يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف يردونها فى احسن حاليه وذهب الشعبى الى ان حد القذف يسقط بالتوبة (فان قيل) اذا قلتم بالاول فما معنى قوله تعالى ابدا (اجيب) بان معنى ابدا ما دام مصرا على القذف لان ابد كل انسان مدته على ما يليق بحاله كما يقال لا تقبل شهادة الكافر ابدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته * (تنبيهان) * الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين او اربع كالزنا فيه قولان اصحهما انه يثبت برجلين بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه واذا شهد على فعل الزنا يجب ان يذكر الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية لابيه فيظنه زنا ويوجب الحد وان يقول فى شهادته رأيت ذكره يدخل فى فرجها وان لم يقل دخول الميل فى المكحلة لكن قوله ذلك اولى فلو شهدوا مطلقا انه زنى لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة زنا ويشترط ايضا ان يفسر فى اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو فى اثناء الحد كما مر ولا فرق فى قبول الشهادة بين ان يجىء الشهود متفرقين او مجتمعين كما قاله الشافعى وقال ابو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف ولو شهد على الزنا اقل من اربعة او اربعة وفيهم الزوج لم يثبت الزنا وعليهم الحد لان شهادة الزوج لا تقبل فى حق زوجته قال ابن الرفعة فى الكفاية لامرين احدهما ان الزنا تعرض لمحل حق الزوج فان الزانى يستمتع بالمنافع المستحقة له فشهادته فى حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ما هو مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد انه جنى على عبده والثانى ان من شهد بزنا زوجته فنفس شهادته دال على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره بتلطيخ فراشه وادخال العار عليه وعلى ولده وهو ابلغ من مؤلم الضرب وفاحش السب ولو قذف رجل وجاء باربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا لم يحدوا لان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضى الا انه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك اوجبنا اعتبارها فى نفى الحد عنهم * ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات وكان لهن حكم غير ما تقدم وهو الحكم الرابع افردهن بقوله (والذين يرمون) اى بالزنا (ازواجهم) اى من المؤمنات والكافرات الحرائر والاماء (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون على صحة ما قالوه (الا انفسهم) اى غير انفسهم وهذا ربما فهم انه اذا كان الزوج احد الاربعة كفى وهذا المفهوم معطل لكونه حكاية حال واقعة لا شهود فيها وقوله تعالى فى الآية قبلها ثم لم يأتوا باربعة شهداء فانه يقتضى كون الشهداء غير الرامى بالزنا ولعلها استثناء من الشهداء لان

فانتفاء الحرج عن أكل الانسان من بيته معلوم

انما يكون بلفظ الشهادة ومذهب الشافعي أنه لا يقبل في ذلك كما قدمناه (فشهادة أحدهم) اى فالواجب شهادة أحدهم على من رماها أو فعليهم شهادة أحدهم (أربع شهادات) من خمس في مقابلة أربعة شهداء (بالله) اى مقرونة بهذا الاسم الكريم الاعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال (انه لمن الصادقين) أي فيما قذفها به وقرأ حفص وحمزة والكسائي برفع العين على أنه خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر (والخامسة ان لعنة الله) أي الملك الاعظم (عليه) أي القاذف نفسه (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به وقرأ نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب لعنة ورسمت لعنة بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء واذا وقف الكسائي أمال الهاء هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه وحصول الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم المتلاعنان لا يجتمعان أبدا وبتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد ان تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة بقوله تعالى (ويدرأ) أي يدفع (عنها) اى المقذوفة (العذاب) اى المعهود وهو الحد الذى اوجبه عليها كما تقدم (ان تشهد اربع شهادات) من خمس (بالله) الذى له جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا كما تقدم في الزوج (انه لمن الكاذبين) فيما قاله عليها (والخامسة) من الشهادات (ان غضب الله) الذى له الامر كله (عليها ان كان من الصادقين) اى فيما رماها به روى البخاري في تفسيره وغيره عن ابن عباس ان هلال بن امية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم البينة او حد في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى احدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة او حد في ظهرك فقال هلال بن أمية والذى بعثك بالحق اني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليهما فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول والله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت وقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وقد روى البخاري أيضا عن سهل بن سعد ان سبب نزولها قصة مثل هذه لعويمر رضي الله عنه وقد تقدم انه لا يمتنع ان يكون للآية الواحدة عدة أسباب معا أو متفرقة * (تنبيه) * خصت المرأة بالغضب لانه أبلغ من اللعن الذى هو الطرد لانه قد يكون بسبب غير الغضب وسبب التغليظ عليها الحث على اعترافها بالحق لما يصدق الزوج من القرينة من انه لا يتجشم فضيحة اهله المستلزم لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة الفساد وخالطة الانساب ويشترط في اللعان امر القاضي وتلقينه كلماته في الجانبين فيقول قل أشهد

(قوله فاذا دخلتم بيوتا) اى
صلوا على أنفسكم) اى

بالله الخ لان اللعان يمين واليمين لا يعتد بها قبل استحلاف القاضي وان غلب فيه معنى الشهادة فهي لا تؤدى عنده الا باذنه وان يتأخر لعانها عن لعانه لان لعانها لاسقاط الحد الذي وجب عليها بلعان الزوج كما علم مما مر ويلاعن أخرس باشارة مفهمة أو كتابة ويكرر كلمة الشهادة أربعا أو يكتبها مرة ويشير اليها أربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس فيؤثر الفصل الطويل ولا يشترط الولاء بين لعاني الزوجين ولو أبدل لفظ شهادة بحلف ونحوه أو لفظ غضب بلعن أو عكسه أو ذكره قبل تمام الشهادة لم يصح ذلك ويسن أن يتلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب أكيد والا فبعد عصر أي يوم كان وبمكان وهو أشرف بلد اللعان فبمكة بين الحجر الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم وبالمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن حائض بباب المسجد وذمي في بيعة للنصارى وكنيسة لليهود وبيت نار لمجوس لانهم يعظمونها لا بيت أصنام وثني لانه لا حرمة له وقرأ حفص والخامسة الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرأ نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب الضاد وخفض الهاء ● ولما حرم سبحانه وتعالى بهذه الجمل الاعراض والانساب فصان بذلك الدين والاموال علم أن التقدير فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولفضح المذنبين وأظهر سرائر المستخفين ففسد النظام فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله تعالى (ولولا فضل الله) أى بماله من الكرم والاتصاف بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أى بكم بالستر في ذلك (وان الله) أى الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما (تواب) بقبوله التوبة في ذلك وغيره (حكيم) يحكم الامور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الامور لفضح كل عاص ولم يوجب أربعة شهداء سترا لكم ● الحكم الخامس قصة الافك المذكورة في قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك) اى أسوأ الكذب سمي افكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشئ اذا صرفه عن جهته وذلك ان عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن أحسن وجوهه الى أقبح أضداده (فان قيل) لم ترك تسميتها (أجيب) بانه تركه تنزيها لها عن هذا المقال وابعادا لصون جانبها العلي عن هذا المراد وقوله تعالى (عصبة) خبر ان أى جماعة أقلهم عشرة وأكثرهم أربعون وكذا العصابة وقوله تعالى (منكم) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان ومن يعد منكم في عداد المؤمنين يريد عبد الله بن أبي وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لا تحسبوه شرا لكم) مستأنف أى لا تظنوا أنه فتنة ولا يصدقه أحد (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله تعالى بانزال ثمان عشرة آية في براءتكم وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتبرئة لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به

قولوا السلام اى من الله علينا وعلى عباد الله

فلم يحبه أذناه وعدة ألطاف للسامعين والتالين الى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها ولما كان لا شيء أغيظ الانسان أعظم من انتصار الملك الديان له عال ذلك بقوله تعالى (لكل امرئ منهم) أى الآفكين (ما اكتسب) أى بخوضه فيه (من الاثم) الموجب لشقائه (والذى تولى كبره) اى معظمه (منهم) اى من الخائضين وهو ابن أبي فانه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو هو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذى بمعنى الذين على هذا (له عذاب عظيم) فى الآخرة أوفى الدنيا بان جلدوا وصار ابن أبي مطرودا مشهورا بالنفاق وحسان أعمى أشل اليدين ومسطح مكفوف البصر

(تنبيه) قصة الافك معروفة فى الصحيح والسنن وغيرهما شهيرة جدا ولكن نذكر منها طرفا تبركا بذكر النبى صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وأبويها رضى الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فاقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين فآذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى واذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعدما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت انهم سيفقدونى فيرجعون الى فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن معطل السلمى ثم الذكوانى رضى الله تعالى عنه قد عرس من وراء الجيش فادلج فاصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حتى عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين فى نحر الظهيرة وهم نزول فهلك من هلك وكان الذى تولى كبر الافك منهم عبد الله بن أبى ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبنى فى وجعى انى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى فيه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاولى فى البرية وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فاقبلت أنا وأم

العالمين قال الائكة ترد عليكم هذا

مسطح حين فرغنا من شأننا نمشي فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها
بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت يا هنتاه أو لم تسمعي ما قال قالت وما قال فأخبرتني
بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت الى بيتي دخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لي ان آتي أبوي قالت وأنا أريد ان أستيقن الخبر من
قبلهما قالت فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوي فقلت لامي يا أماه ماذا يتحدث
الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر
الا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى
أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه
وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله
قالت فأما أسامة فأشار على النبي صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في
نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا وأما علي فقال
يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك قالت والذي بعثك بالحق ان
رأيت عليها أمرا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي
الداجن فتأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي
ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل
قد بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي الا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ولم
يدخل على أهلي الا معي قالت فقام سعد أخو بني عبد الاشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرك فان
كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام
سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال
لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن تقتله فقام
أسيد بن حضير ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك ٣ منافق
تجادل عن المنافقين قال فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله
صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا
وسكت قالت فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواي عندي
وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى اني لاظن أن البكاء فالق كبدي
فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست
تبكي معي قالت فبينما نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس
قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني بشيء قالت
فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا
وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان
العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقالته قلص دمعي حتى لا أحس منه بقطرة فقلت لابي أجب رسول الله عني فيما قال فقال اني والله

ان لم يكن بها أحد والا فقولوا السلام علينا (قوله

٣ قوله كأنك منافق هكذا بالاصول والذي في صحيح البخاري فانك بالفاء اه مصححه

ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لأمي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا والله لقد علمت ما سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقوني فوالله لا أجد لي ولكم مثلا الا ما قال العبد الصالح ابو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشي والله يعلم حينئذ أني بريئة والله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من اهل البيت حتى انزل الله تعالى على نبيه فاخذه ما كان يأخذه عند الوحي من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان في اليوم الشاتي من ثقل الذي انزل عليه فسجي بثوب فوالله ما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفس ابوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان اول كلمة تكلم بها أن قال ابشري يا عائشة قد برأك الله فكنت أشد ما كنت غضبا فقال لي أبواي قومي اليه فقلت والله لا اقوم اليه ولا أحمده ولا احمدكما ولا احمد الا الله الذي انزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا العشر آيات كلها فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد الذي قال لعائشة ما قال فانزل الله ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة الى مسطح التي كان ينفقها عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب ما علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهي التي تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله تعالى قالت ولما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن وضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء

وقال الحافظ ابو عمر بن عبد البر في الاستيعاب وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الافك وجلد فيه وروي عن عائشة أنها برأته من ذلك انتهى وقال غيره والله لا أظن به ذلك اصلا وان جاءت تسميته في الصحيح فقد يخطئ الثقة لاسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقل الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبي صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه والذم لاعدائه وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم ان جبريل معه وهو القائل في مدح عائشة ويكذب من نقل عنه ذلك

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره) * ان ذلك كيف

حصان رزان ماتزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب * كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها * وطهرها من كل شين وباطل
وان كان ما بلغت عني قلته * فلا رفعت سوطي الي انامل
فكيف وودي ما حييت ونصرتي * لآل رسول الله زين المحافل
له رتبة عال على الناس فضلها * تقاصر عنها سورة المتطاول

وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب فان في هذه القصة عبرة لمن اعتبر فان أهل الافك استمروا في هذا اكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يقطع الاكباد في احب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم عندا ول ما خاضوا فيه ولكنه سبحانه اراد للناس رفع الدرجات ولآخرين الهلكات ولا باس ببيان غريب هذه الالفاظ التي وقعت في هذه القصة من كلام عائشة وغيرها قولها اذن اي اعلم بالرحيل وقولها انقطعت عقد الي من جزع أظفار هو نوع من الخرز وهو الجزاء اني المعروف وقولها لم يهبلن اي لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن وقولها انما ياكلن العلقة من الطعام وهو بضم العين أي البلغة من الطعام وهي قدر ما يمسك الرمق وقولها ليس بها منهم داع ولا مجيب أي ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جوابا وقولها فيممت اي قصدت وقولها قد عرس من وراء الجيش فادلج التعريس نزول المسافر بالليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو قول القائل انا لله وانا اليه راجعون قولها خمرت اي غطيت وجهي بجلبابي اي ازاري وقولها موغرين في نحر الظهيرة الوغر شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة اي اولها وقولها والناس يفيضون اي يخوضون ويتحدثون وقولها وهو يريبني يقال رابني الشيء يريبني اي تشككت فيه وقولها ولا ارى من النبي اللطف اي الرفق بها واللطف في الافعال الرفق وفي الاقوال لين الكلام وقولها حين نقهت اي افقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول واصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف او خز وقولها فقالت تعس مسطح اي خسر وقولها يا هنتاه اي يا بلهاء كانها نسبتها الى البله وقلة المعرفة وقولها لا يرقأ اي لا ينقطع وقول بريرة ان رأيت بمعنى النفي اي ما رأيت منها امرا اغمصه عليها بالصاد المهملة اي أعيبه والداجن الشاة التي تالف البيت وتقيم به وقوله صلى الله عليه وسلم من يعذرني أي ان أنا كافئته على سوء صنيعه ان عاتبت أو عاقبت فلا تلوموني على ذلك وقولها ولكن حملته الحمية اي حمله الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة وقولها فتثاور الحيان اي ثار وانهضوا للقتال والمخاصمة وقولها فلم يزل يخفضهم اي يهون عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغار الذنوب قيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل وقولها قلص دمعي اي انقطع جريانه قوله مارام اي ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والجمانة الدرة وجمعه جمان وقولها فسري عنه اي كشف عنه وقول زينب احمي سمعي وبصري اي امنعهما عن ان اخبر بما لم اسمع ولم ابصر وقولها

عدى خالف بعن مع انه
يتعدى بنفسه (قالت) ضمن

وهي التي كانت تسامينى من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله تعالى اى منعها الله من الوقوع فى الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت كنف انثى اى ستر انثى وقول حسان فى عائشة حصان بفتح الحاء امرأة حصان اى متعففة رزان اى ثابتة ماتزن اى ترمى ولا تتهم بريبة اى امر يريب الناس وتصبح غرثى اى خائفة الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب احدا مما هو غافل وقرأ لا تحسبوه وتحسبونه ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقاب اهل الافك وكان فى المؤمنين من سمعه وسكت وفيهم من سمعه فتحدث به متعجبا من قائله أو متثبتا فى أمره وفيهم من اكذبه اتبعه سبحانه وتعالى بعتابهم فى أسلوب خطابهم مثنيا على من كذبه فقال سبحانه وتعالى محرضا (لولا) أى هلا ولم لا (اذ) أى حين (سمعتموه) أيها المدعون الايمان (ظن المؤمنون) أى منكم (والمؤمنات) وكان الاصل ظننتم أى أيها العصبة ولكنه التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء ونبه على الوصف المقتضى لحسن الظن تخويفا للذى ظن السوء من سوء الخاتمة (بانفسهم) حقيقة (خيرا) وهم ومن كذب عليها فقطعوا ببراءتها لان الانسان لا يظن فى الناس الا ما هو متصف به أو باخوانهم لان المؤمنين كالجسد الواحد وذلك نحو ما روى ان أبا أيوب الانصارى قال لام أيوب ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ قال لا قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى وصفوان خير منك (وقالوا هذا افك مبين) أى كذب بين (فان قيل) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر (أجيب) بان ذلك مبالغة فى التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح بلفظ الايمان دالا على ان الاشتراك فيه يقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن اذا سمع قالة فى أخيه أن يبنى الامر فيها على الظن لا على الشك وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير هذا افك مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة ساحته لا يقول كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه باخوانه ثم عال سبحانه وتعالى كذب الآفكين أن قال موبخا لمن اختلقه وأذاعه ملقنا لمريديه الى ظن الخير (لولا) أى هلا ولم لا (جاؤا عليه باربعة شهداء) كما تقدم أن القذف لا يباح الا بها (فاذ) أى حين (لم يأتوا بالشهداء) أى الموصوفين (فاولئك) أى البعداء من الصواب (عند الله هم الكاذبون) فقد جعل الله التفصيل بين الرمى الصادق والرمى الكاذب بثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفائها والذين رموا عائشة لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله أى فى حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الافك فلم يجدوا فى دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة فى التنكيل به اذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بام المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيبة حبيب رب العالمين ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل

يخالف معنى بعرض أو بعدل فعداه بعليه

الى كذب الخائضين فى هذا الكلام وأنهم استحقوا الملام قال عاطفا على لولا الماضية التى للتحضيض (ولولا) التى هى لامتناع الشئ لوجود غيره (فضل الله) أى المحيط بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أى معاملته لكم بمزيد الانعام والاكرام اللازم للرحمة (فى الدنيا) بقبول التوبة والمعاملة بالحلم (والآخرة) بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم (لمسكم) أى عاجلكم (فى ما أفضتم) اى أيها العصبة أى خضتم (فيه) من حديث الافك (عذاب عظيم) أى يحتقر معه اللوم والجلد *(فائدة)* فى مقطوعة فى الرسم من ما كما ترى ثم بين تعالى وقت حلول العذاب وزمان تعجيله بقوله تعالى (اذ) أى مسكم حين (تلقونه) أى تجتهدون فى تلقى أى قول هذا الكلام الفاحش والقائه (بالسنتكم) أى يرويه بعضكم عن بعض وذلك أن الرجل منهم كان يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض وحذفت من الفعل احدى التاءين (وتقولون بافواهكم) أى كلاما مختصا بالافواه فهو كلام لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه فى القلب بنوع دليل وأكد هذا المعنى بقوله تعالى (ما ليس لكم به علم) أى بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير (فان قيل) القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بافواهكم (أجيب) بان معناه أن الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم (وتحسبونه) بدليل سكوتكم عن انكاره (هينا) أى لا اثم فيه (وهو) أى والحال أنه (عند الله) أى الذى لا يبلغ أحد مقدار عظمته (عظيم) فى الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة آثام مرتبة علق بها مس العذاب العظيم تلقى الافك بالسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله تعالى عظيم (ولولا) أى وهلا ولم لا (اذ) أى حين (سمعتموه قلتم) من غير توقف ولا تلعثم (ما يكون) أى ما ينبغى وما يصح (لنا أن نتكلم بهذا) أى القول المخصوص ويجوز أن تكون الاشارة الى نوعه فان قذف آحاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق (فان قيل) كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم (أجيب) بان الظروف تنزل من الشئ منزلة نفسه لوقوعه فيها وأنها لا تنفك لها عنه فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها (فان قيل) اى فائدة فى تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا (أجيب) بان الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يذبوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم (فان قيل) ما معنى يكون والكلام بدونه ملتئم لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا (اجيب) بأن معناه ينبغى ويصح اى ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا كما تقدم تقريره ونحوه ما يكون لى أن اقول ما ليس لى بحق وقوله تعالى (سبحانك) تعجب من أن يخطر ذلك بالبال فى حال من الاحوال (فان قيل) ما معنى التعجب فى كلمة التسبيح (اجيب) بان الاصل فى ذلك أن يسبح الله تعالى عند رؤية المتعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه وقيل تنزيه فهو منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء القذفة وعن أن لا يعاقبهم وعن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة قال البيضاوى فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر اى ولهذا كانت امرأة نوح ولوط كافرتين وهذا

أو عن متعلقه بمحذوف
تقديره ويعرضون

يقتضي حل نكاح الكتابية مع أنه الأفضل له صلى الله عليه وسلم لانها تكره صحبته ولانه اشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون الكافرة أم المؤمنين ولخبر سألت ربي أن لا أزوج الا من كانت معي في الجنة فأعطاني رواه الحاكم وصحح اسناده اما التسري بالكافرة فلا يحرم لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بني قريظة ولا يشكل تعليلهم السابق من أنه اشرف أن يضع ماءه في رحم كافرة لان القصد بالنكاح اصالة التوالد فاحتيط له وبانه يلزم منه ان تكون الزوجة المشركة ام المؤمنين بخلاف الملك فيهما (هذا بهتان) اى كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة لانه في غاية الغفلة عنه لكونه أبعد الناس منه ثم هونه بقوله (عظيم) لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها • ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا ترجمه بقوله (يعظكم الله) اى يرقق قلوبكم الذى له الكمال كله فيهمل بحلمه ولا يهمل بحكمته (أن) اى كراهة أن (تعودوا لمثله أبدا) أى مادمتم أحياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) أى متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع عنه وهذا تهييج وتقريع لا أنه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة (فان قيل) هل يجوز أن يسمى الله واعظا كقوله تعالى يعظكم الله (أجيب) بانه لا يجوز كما قاله الرازى قال كما لا يجوز أن يسمى الله معلما كقوله تعالى الرحمن علم القرآن لان أسماء الله تعالى توقيفية (ويبين الله) أى بما له من صفات الكمال والاكرام (لكم الآيات) أى الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كى تتعظوا وتتأدبوا (والله) أى المحيط بجميع الكمال (عليم) أى بما يأمر به وينهى عنه (حكيم) لا يضع شيأ الا في أحكم مواضعه وان دق عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا في أمر من أوامره • ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى (ان الذين يحبون) أى يريدون وعبر بالحب اشارة الى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه الا بعيد عن الاستقامة (أن تشيع) أن تنتشر بالقول أو الفعل (الفاحشة) الفعلة الكبيرة القبح (في الذين آمنوا) اى بنسبتها اليهم وهم العصبة وقيل المنافقون (لهم عذاب أليم في الدنيا) اى بالحد للقذف (والآخرة) اى بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب (والله) اى المستجمع لصفات الجلال والجمال (يعلم) اى له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة في اظهاره او ستره او غير ذلك من جميع الامور (وانتم لا تعلمون) اى ليس لكم علم من انفسكم فاعملوا بما علمكم فلا تجاوزوه ولا تفعلوا وقيل معناه يعلم ما في قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه عليها وأنتم لا تعلمون ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم وانتم ايها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) اى بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف عليه (وان الله) اى الذى له القدرة التامة سبقت رحمته غضبه (رؤف رحيم) على حصول فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كأنه قال لعذبكم واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازى ويجوز ان يكون الخطاب عاما وقيل الجواب في قوله تعالى ما زكى منكم من احد وقرأ رؤف نافع وابن كثير وابن عامر

أو وتعدلون او هي زائدة على قول الاخفش

وحفص بعد الهمزة والباقون بقصرها (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات) أي طرق (الشيطان) بتزيينه أي لا تسلكوا مسالكه في إشاعة الفاحشة ولا في غيرها (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه) أي المتبع (يأمر بالفحشاء) أي بالقبائح من الأفعال (والمنكر) أي ما أنكره الشرع وهو كل ما يكرهه الله تعالى وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائي بضم الطاء والباقون بالسكون (ولولا فضل الله) أي الذي لا إله غيره (عليكم ورحمته) أي بكم بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وتشريع الحدود المكفرة لها (ما زكى) أي ما طهر من ذنبها (منكم من أحد أبدا) آخر الدهر والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله أنه لولا فضل الله ورحمته ما صلح منكم من أحد وقال ابن عباس الخطاب للذين خاضوا في الإفك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل بالتوبة منه (ولكن الله) أي العالم بأحوال خلقه (يزكي) أي يطهر (من يشاء) من الذنوب بقبول التوبة منها (والله سميع) أي لأقوالهم (عليم) أي بما في قلوبهم (ولا يأتل) أي يحلف افتعال من الألية وهو القسم (أولو الفضل) أي أصحاب الغنى (منكم والسعة أن) أي أن لا (يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا) عنهم في ذلك (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أي على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم قال المفسرون نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبي بكر رضي الله تعالى عنه وكان يتيما في حجره وكان ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط قال لهم أبو بكر قوموا لستم مني ولست منكم وكفى بذلك داعيا في المنع فإن الإنسان إذا أحسن إلى قريبه وكافأه بالإساءة كان أشد عليه مما إذا صدرت الإساءة من أجنبي قال الشاعر

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

فقال له مسطح نشدتك الله والإسلام والقرابة لا تحوجنا إلى أحد فما كان لنا أول الأمر من ذنب فقال ألم تتكلم فقال قد كان بعض ذلك عجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فإن الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الأرض وناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الإفك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقرأ عليه الآية فلما وصل إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم (والله غفور رحيم) أي مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه قال بلى يا رب إني أحب أن تغفر لي فذهب أبو بكر إلى بيته وأرسل إلى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله تعالى على الرأس والعين وإنما فعلت بكم ما فعلت إذ سخط الله عليكم أما إذا عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثلي ما كان له وقال والله لا أنزعها أبدا وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك أن هذا أعظم من مقاتلة الكفار لأن هذا جهاد مع النفس وذاك جهاد مع الكفار وجهاد النفس أشد من مجاهدة الكفار ولهذا روي أنه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (إن الذين يرمون المحصنات) أي العفائف (الغافلات) أي عن الفواحش وهن السليمات الصدور والنقيات القلوب بأن لا يقع في قلوبهن فعلها اللاتي ليس

فهن دهاة ولامكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العارفات قال فى ذلك القائل متغزلا

ولقد لهوت بطفلة ميالة • بلهاء تطلعنى على أسرارها

وكذلك البله من الرجال فى قوله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفطناء لم يرضوا الا بالنظر الى وجهه الكريم (المؤمنات) بالله ورسوله (لعنوا فى الدنيا والآخرة) اى عذبوا فى الدنيا بالحد وفى الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) لعظم ذنوبهم قال مقاتل هذا خاص فى عبد الله بن ابى ابن سلول المنافق وروى انه قيل لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة رضى الله تعالى عنها خاصة قال الزمخشرى ولو فليت القرآن كله وفتشت عما اوعد به العصاة لم تر ان الله عز وجل قد غلظ فى شئ تغليظه فى افك عائشة رضوان الله عليها ولا انزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما اقدم عليه ما انزل فيه على طرق مختلفة واساليب مفتنة كل واحد منها كاف فى بابه ولو لم تنزل الا هذه الثلاث آيات لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة وبان السنتهم وايديهم وارجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى (يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) اى من قول وفعل وهو يوم القيامة بما افكوا وبهتوا فانه تعالى يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) اى جزاءهم الواجب الذين هم اهله (ويعلمون) عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) حيث حقق لهم جزاءه الذى كانوا يشكون فيه فاوجز فى ذلك واشبع وفصل واجمل واكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين وعبدة الاوثان الا ما هو دونه فى الفظاعة وما ذاك الا لامر عظيم وعن ابن عباس انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة وهذا منه مبالغة وتعظيم لامر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد فقال تعالى وشهد شاهد من أهلها الآية وبرأ موسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها عليه الصلاة والسلام حين نادى (١) من تحتها انى عبد الله الآية وبرأ عائشة رضى الله تعالى عنها بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظر كيف بينها وبين تبرئة اولئك وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد آدم وخيرة الاولين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شانه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الافك وليتامل كيف غضب الله تعالى له فى حرمته وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه وقال قوم ليس لمن قذف عائشة وبقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم توبة لان الله تعالى لم يذكر فى قذفهن توبة وما ذكر من أول السورة فذاك فى قذف غيرهن (فان قيل) ان كانت عائشة هى المرادة فكيف قيل المحصنات (أجيب) بانها لما كانت أم المؤمنين جمعت ارادة لها ولبناتها من نساء الامة الموصوفات

(١) قوله من تحتها كذا بالنسخ والذى فى الكشاف من بحجرها اه مصحح

بالاحصان والغفلة والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف مالم يتب (فان قيل) ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين (أجيب) بان معناه ذو الحق المبين اى العادل الظاهر العدل الذى لا ظلم فى حكمه والمحق الذى لا يوصف بباطل ومن هذه صفته كان له أن يجازى المحسن على احسانه والمسيء على اساءته فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه وقرأ يشهد حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم ناصبه الاستقرار الذى تعلق به لهم وقرأ أبو عمرو يوفيهم الله بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا كله فى الوصل وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم (الخبيثات) اى من النساء والكلمات (للخبيثين) من الناس (والخبيثون) اى من الناس (للخبيثات) اى مما ذكر (والطيبات) اى مما ذكر (للطيبين) اى من الناس (والطيبون) اى منهم (للطيبات) اى مما ذكر فاللائق بالخبيث مثله وبالطيب مثله (أولئك) اى الطيبون والطيبات من النساء ومنهم صفوان وعائشة (مبرؤن مما يقولون) اى الخبيثون والخبيثات من النساء وقيل عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة أى اخوان (لهم) اى الطيبين والطيبات من النساء على الاول ولصفوان وعائشة على الثانى (مغفرة) اى عفو عن الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة وروى ان عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تفتخر باشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها ان جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سرقة من حرير وقال للنبى صلى الله عليه وسلم هذه زوجتك وروى انه أتى بصورتها فى راحته ومنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها أنه قبض صلى الله عليه وسلم ورأسه الشريف فى حجرها ومنها انه دفن فى بيتها ومنها انه كان ينزل عليه الوحى وهو معها فى لحاف ومنها ان براءتها نزلت من السماء ومنها أنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم وكان مسروق رحمه الله تعالى اذا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قال حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء الحكم السادس ماذكره بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اى التى تسكنونها فان المؤجر والمعير لا يدخلان الا باذن وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وفى قوله تعالى (حتى تستأنسوا) وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو خلاف الاستيحاش لان الذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فاذا أذن له فقد استأنس والمعنى حتى يؤذن لكم كقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم وهذا من باب الكناية والارداف لان هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن فوضع موضع الاذن والثانى أن يكون من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا اى تعرفت واستعلمت وقال الخليل بن أحمد الاستئناس الاستبصار من قولهم آنست نارا أى أبصرت وقيل هو أن يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح يؤذن أهل البيت وعن أبى أيوب الانصارى قال يارسول الله ما الاستئناس

قال ان يتكلم الرجل (وتسلموا على أهلها) كان يقول الواحد السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع قال قتادة المرة الاولى للتسميع والثانية ليتهيأ والثالثة ان شاء أذن وان شاء رد وهذا من محاسن الآداب فان أول مرة ربما منعهم بعض الاشتغال من الاذن وفى الثانية ربما كان هناك مانع يقتضى المنع فان لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا كان الاولى فى الاستئذان ثلاثا أن لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت ما ولابد من اذن صريح اذا كان الداخل أجنبيا أو قريبا غير محرم سواء كان الباب مغلقا أم لا وان كان محرما فان كان ساكنا مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستئذان ولكن عليه أن يشعره بدخوله بتنحنح أو شدة وطء أو نحو ذلك ليستتر العريان فان لم يكن ساكنا فان كان الباب مغلقا لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحا فوجهان والاوجه الاستئذان وعن أبى موسى الاشعرى انه أتى باب عمر فقال السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثا ثم رجع وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعلميه فانه لا يحسن ان يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل فقالها فقال ادخل وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله عز وجل عن ذلك وعلم ما هو الاحسن الاجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك قال الزمخشرى بينا أنت فى بيتك اذ رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو ممن يسمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الاذن الواعية (ذلكم خير لكم) اى من تحية الجاهلية ومن أن تدخلوا من غير استئذان وروى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أأستأذن على امى قال نعم قال انه ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال أتحب ان تراها عريانة قال الرجل لا قال فاستأذن وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) متعلق بمحذوف اى أنزل عليكم وقيل بين لكم هذا ارادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به فى باب الاستئذان وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (فان لم تجدوا فيها) اى البيوت (أحدا) يأذن لكم فى دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) اى حتى يأتى من يأذن لكم فان المانع من الدخول فيها ليس الاطلاع على العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التى تطويها الناس فى العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولانه تصرف فى ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه والا أشبه الغصب والتغلب (وان قيل لكم ارجعوا) اى بعد الاستئذان (فارجعوا) اى اذا كان فى البيت أحد وقال لكم ارجعوا فارجعوا (هو) اى الرجوع (أزكى) اى أطهر وأصلح (لكم) من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ويقدح فى قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوى مروءة مرتاضين للآداب الحسنة اذا ونهى عن ذلك لأدائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى اليها من قرع الباب

بعنف والتصيح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس وعن أبي عبيد رحمه الله تعالى ما قرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وعن قتادة رحمه الله تعالى اذا لم يؤذن له لا يقعد وراء الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يأتي باب الانصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أخبرتني فيقول هكذا أمرنا ان نطلب العلم فاذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا لما روي عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اطلع في بيت قوم فقد حل لهم أن يفقؤا عينه وفي رواية للنسائي قال لو ان امرأ اطلع عليك بغير اذن فخذفته ففقأت عينه ما كان عليك جناح ولو عرض أمر في دار من حريق أو هدم أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن (والله) اي الذي لا يخفى عليه شئ (بما تعملون) من الدخول باذن و بغير اذن (عليم) فيجازيكم عليه * ولما نزلت آية الاستئذان قالوا يا رسول الله كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها انسان فانزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) اي اثم (ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة) اي بغير استئذان منكم وذلك كبيوت الخانات والربط المسبلة (فيها متاع) اي منفعة (لكم) والمنفعة فيها بالنزول وأنواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال ابراهيم النخعي ليس على حوانيت الاسواق اذن وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى اذا جاء الى حانوت السوق يقول السلام عليكم أأدخل ثم يلج وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها (والله يعلم ما تبدون) اي تظهرون (وما تكتمون) اي تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره وفي ذلك وعيد من الله تعالى لمن دخل لفساد أو تطلع على عورات وسيأتي انهم اذا دخلوا بيوتهم سلموا على أنفسهم والحكم السابع حكم النظر المذكور في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) اي عما لا يحل لهم نظره (ويحفظوا فروجهم) اي عما لا يحل لهم فعله بها *(تنبيه)* من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش ان تكون مزيدة وأباه سيبويه (فان قيل) لم دخلت من في غض البصر دون حفظ الفرج (أجيب) بان في ذلك دلالة على أن المراد ان أمر النظر أوسع بدليل جواز النظر للمحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة وأما نظر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا ان أبيح النظر الا ما استثني منه وحظر الجماع الا ما استثني منه ويجوز ان يراد مع حفظها عن الافضاء الى ما لا يحل حفظها عن الابداء وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا هذا فانه أراد به الاستتار (فان قيل) لم قدم غض البصر على حفظ الفرج (أجيب) بان البلوى فيه أشد وروي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وعن

بريدة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية أخرجه أبو داود والترمذي وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد (ذلك) اي غض البصر وحفظ الفرج (أزكى) اي خير (لهم) لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشيخ الشبلي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عن المحرمات * ثم أخبر سبحانه وتعالى بانه خبير باحوالهم وأفعالهم بقوله تعالى (ان الله) اي الملك الذي لا يخفى عليه شئ (خبير بما يصنعون) بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) عما لا يحل لهن نظره (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن فعله بها روى عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها انها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وقوله تعالى (ولا يبدين) أي يظهرن (زينتهن) اي لغير محرم والزينة خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الاذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبي النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة للمبالغة في الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها (الا ما ظهر منها) اي من الزينة الظاهرة واختلف أهل العلم في هذه الزينة التي استثناها الله تعالى فقال سعيد بن جبير وجماعة هي الوجه والكفان وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه هي الثياب وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للاجنبي النظر اليها ان لم يخف فتنة في أحد وجهين وعليه الاكثر وانما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لانه ليس بعورة في الصلاة وسائر بدنها عورة فيها ولان سترها فيه حرج فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثاني يحرم لانه محل الفتنة ورجحها للباب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) اي يسترن الرؤس والاعناق والصدور بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فامرن بان يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور تسمية لها باسم ما يليها او يلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالنون والصاد اي سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدي على الحائط اذا وضعتها عليه قالت عائشة رضي الله تعالى عنها يرحم الله تعالى نساء المهاجرات لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها والمرط كساء من صوف أو خز

أوكان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) لبيان من يحل له الابداء ومن لا يحل له اى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للاجانب وهى ماعدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) اى فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر ولكنه يكره وقال ابن عباس لا تضعن الجلباب والخمار عنهن الا لازواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظروا الى مابين السرة والركبة وانما سومح فى الزينة الخفية لاولئك المذكورين فى الآية للحاجة المضطرة الى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة الفتنة من جهتهم ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم فى الاسفار للنزول والركوب وغير ذلك (أو نسائهن) أى المؤمنات فان الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال فلا يجوز للمسلمة أن تجرد من ثيابها عند(1) النساء الكافرات لانهن أجنبيات عن الدين فكن كالرجال الاجانب لكن يجوز أن ترى الكافرة منها مايبدو عند المهنة وقد كتب عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل النساء كلهن وللعلماء فى ذلك خلاف *(تنبيه)* العورة على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة أما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه ماعدا مابين السرة والركبة وكذلك المرأة مع المرأة وأما المرأة مع الرجل أو الرجل مع المرأة فلا ينظر أحدهما من الآخر شيأ وقيل يجوز للاجنبى أن ينظر الى وجهها وكفيها اذا أمن الفتنة ولم تكن شهوة وقيل يجوز لها أن تنظر منه ماعدا مابين السرة والركبة ويجوز لمن أراد أن يخطب حرة أن ينظر وجهها وكفيها وهى تنظر منه اذا أرادت أن تتزوج به ماعدا مابين السرة والركبة وان أراد أن يتزوج بامة جاز أن ينظر منها ماعدا مابين السرة والركبة ويحرم ان ينظر بشهوة ويحرم النظر بشهوة لكل منظور اليه الا لمن أراد ان يتزوج بها والا لحليلته ويباح النظر من الاجنبى لمعاملة وشهادة حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة على الزنا والولادة والى الثدى للشهادة على الرضاع وتعليم ومداواة بقدر الحاجة وكل ماحرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل أو قلامة ظفر من أجنبية ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين فى ثوب واحد اذا كانا عاريين وان كان كل منهما فى جانب من الفراش لخبر المتقدم ويجب التفريق بين ابن عشر سنين وأخوته وأخواته فى المضجع اذا كانا عاريين وتسن مصافحة الرجلين والمرأتين لخبر مامن مسلمين يلتقيان ويتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا وتكره مصافحة من به عاهة كجذام أو برص والمعانقة والتقبيل فى الرأس للنهى عن ذلك الا لقادم من سفر أو تباعد عهد ويسن تقبيل الطفل ولو لغير أبويه شفقة ولا بأس بتقبيل وجه الميت الصالح ويسن تقبيل يد الحى لصلاح أو علم أو زهد أو نحو ذلك ويكره لغنى أو وجاهة أو نحو ذلك وقوله تعالى (أو ماملكت أيمانهن) يعم الاماء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف غير المبعض والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة لما روى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم أتى

(1) قوله عند النساء الخ كذا فى نسخ وفى بعض عند الكافرة لانهن أجنبية فى الدين فكانت كالرجل الاجنبى اه مصحح

قوله الا لمن أراد أن يتزوج بها عمومه يشمل الامة وقد قال فيها ويحرم أن ينظر بشهوة فليحرر اه

فاطمة رضي الله تعالى عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم وما تلقى قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن عائشة انها قالت لعبدها ذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فانت حر وأما الفاسق والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبي بل قيل ان المراد بالآية الاماء وعبد المرأة كالاجنبي وبه قال ابن المسيب آخرا وقال لا تغرنكم آية النور فانها المراد بها الاماء (أو التابعين) اي الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم (غير أولي الاربة) اي أصحاب الحاجة الى النساء (من الرجال) اي ليس لهم همة الى ذلك ولا حاجة لهم في النساء لانهم بله لا يعرفون شيئا من أمرهن وقيل هم شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا أبصارهم وقيل هم الممسوحون سواء كان حرا أم لا وهو ذاهب الذكر والانثيين أما ذاهب الذكر فقط أو الانثيين فقط فكالفحل وعن أبي حنيفة لا يحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم قال الزمخشري فان قلت روي أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي فقبله قلت لا يقبل فيما تعم به البلوى الا حديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز بيع ذلك اذ لا مانع منه وقيل المراد بأولي الاربة هو الخنث وقرأ ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى (أو الطفل) بمعنى الاطفال وضع الواحد موضع الجمع لانه يقصد به الجنس ويبينه ما بعده وهو قوله تعالى (الذين لم يظهروا) اي لم يطلعوا (على عورات النساء) للجماع فيجوز لهن أن يبدين لهم ما عدا ما بين السرة والركبة قال امام الحرمين رحمه الله تعالى اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكي ما يراه فكالعدم أو بلغه من غير شهوة فكالمحرم أو بشهوة فكالبالغ (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) وذلك ان المرأة كانت تضرب برجلها الارض ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على الاخرى ليعلم أنها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا في الرجال واذا وقع النهي عن اظهار صوت الحلي فمواضع الحلي أبلغ في النهي وأوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك قال تعالى (وتوبوا الى الله) اي الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (جميعا أيه المؤمنون) اي مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره * وشروط التوبة أن يقلع الشخص عن الذنب ويندم على ما مضى منه ويعزم على ان لا يعود اليه ويرد الحقوق لاهلها وقرأ ابن عامر في الوصل أيه المؤمنون بضم الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والباقون بفتحها وأما الوقف فوقف أبو عمرو والكسائي بالالف بعد الهاء ووقف الباقون على الهاء ساكنة (لعلكم تفلحون) اي تنجون من ذلك بقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا عما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة (فان قيل) على هذا قد صحت التوبة بالاسلام لانه يجب

ما قولكم فيما يعني هذه التوبة (أجيب) بأن بعض العلماء قال ان من أذنب ذنبا ثم تاب منه لزمه كلما ذكره أن يجدد التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه على عدم العود الى أن يلقى الله تعالى والذي عليه الاكثر أنه لا يلزمه تجديدها وعن أبي بردة أنه سمع الاغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس توبوا الى ربكم فانى أتوب الى ربى كل يوم مائة مرة وعن ابن عمر قال انا كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الغفور مائة مرة وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة * ولما نهى عما يفضى الى السفاح المخل بالنسب المقتضى للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم الثامن وهو الامر بالنكاح المذكور فى قوله تعالى (وأنكحوا الايامى منكم) جمع أيم والايامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقلبا والأيم هى من ليس لها زوج بكرا كانت أو ثيبا ومن ليس له امرأة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر

فان تنكحى انكح وان تتأيمى * وان كنت أفتى منكم أتأيم

أى أقرب الى الشباب منك وأتأيم بالرفع على أنه جواب ان تتأيمى وما بينهما جملة معترضة والمعنى أوافقك فى حالتى التزوج والتأيم وان كنت أقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من العيمة والغيمة والايمة والقرم والقوم العيمة شهوة اللبن والغيمة العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجية والقرم الجل والقرم شهوة اللحم وهذا فى الاحرار والحرائر وأما غيرهم فهو قوله تعالى (والصالحين) اى المؤمنين (من عبادكم) وهو من جموع عبد (وامائكم) والخطاب للاولياء والسادة وهذا الامر أمر ندب فيستحب لمن تاقت نفسه للنكاح ووجد أهبته أن يتزوج ومن لم يجد أهبته استحب له أن يكسر شهوته بالصوم لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اى قاطع لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو أن ترض عروق الانثيين وتترك الخصيتان كما هما فشبه الصوم فى قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذى يقطع النسل والباءة بالمد مؤن النكاح وهى المهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر شهوته بالصوم فلا يكسرها بالكافور ونحوه بل يتزوج ويكره لغير التائق ان فقد الاهبة أو وجدها وكان به علة كهرم فان وجدها ولا علة به وهو غير تائق فالتخلى للعبادة أفضل من النكاح ان كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح أفضل من تركه لقوله صلى الله عليه وسلم من أحب فطرتى فليستن بسنتى وهى النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له مال يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج أحدكم عج شيطانه يا ويلاه عصم ابن آدم منى ثلثى دينه والاحاديث فى ذلك كثيرة وربما كان واجب الترك اذا أدى الى معصية أو مفسدة وعنه صلى الله عليه وسلم اذا أتى على أمتى مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس

[illegible]

[illegible] النكاح [illegible]

[illegible] وينبغي أن تكون المنكوحة بكراً إلا لعذر لقوله صلى الله عليه وسلم هلا
بكراً تلاعبها وتلاعبك ولوداً لقوله صلى الله عليه وسلم تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم
الأمم يوم القيامة وفي رواية يا عياض لا تتزوج عجوزاً ولا عاقراً فإني مكاثر وروى مسلم عن عبد الله
بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة
وقيل المراد بالصالحين الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه وقوله تعالى (إن يكونوا) أي
الأحرار (فقراء يغنهم الله) أي بالتزويج (من فضله) رد لما عساه أن يمنع من النكاح والمعنى
لا يمنعن فقر الخاطب والمخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غنية عن المال فإنه غاد ورائح
ووعد من الله تعالى بالغنى لقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا الغنى في هذه الآية لكن ينبغي
أن تكون شريطة الله تعالى غير منسية في هذا الوعد ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء الحكيم
إلا ما اقتضته الحكمة ونحوه ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب وقد
جاءت الشريطة منصوصة في قوله تعالى وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء
إن الله عليم حكيم ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنياً فأفقره
النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شيء ففنى وأصبح مسكيناً وورد التمسوا الرزق بالنكاح
وشكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل الحاجة فقال عليك بالباءة أي النكاح وعن عمر
رضي الله عنه عجبت لمن يبتغي الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول إن يكونوا فقراء يغنهم
الله من فضله وحكي عنه أنه قال عجبت لمن لم يطلب الغنى بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا
فإنه أوسع لكم في رزقكم وأوسع في أخلاقكم ويزيد الله في ثروتكم قال الزمخشري ولقد
كان عندنا رجل رازح الحال ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته فقال
كنت في أول أمري على ما علمت وذلك قبل أن أرزق ولداً فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن
الفقر فلما ولد لي الثاني ازددت خيراً فلما تتاموا ثلاثة صب الله علي الخير صباً فأصبحت إلى ما ترى
انتهى (والله) أي الذي له الأمر كله (واسع) أي ذو سعة لخلقه لا تنفد نعمه إذ لا تتناهى قدرته
(عليم) بهم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولما ذكر تعالى تزويج الحرائر والإماء ذكر حال من
يعجز عن ذلك بقوله (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً) أي وليجتهد في طلب العفة عن الزنا
والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من مهر ونفقة يوم التمكين وكسوة فصله وقيل لا يجدون
ما ينكحون (حتى يغنيهم الله) أي يوسع عليهم (من فضله) فينكحون ولما ذكر تعالى نكاح
الصالحين من العبيد والإماء حث على كتابتهم بالحكم التاسع وهو الأمر بالكتابة المذكور في
قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب) أي يطلبون الكتابة (مما ملكت أيمانكم) أي من
العبيد والإماء (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) أي أمانة وقدرة على الكسب لأداء مال الكتابة
وسبب نزول هذه الآية ما روي أن غلاماً لحويطب بن عبد العزى يقال له الصبيح سأل مولاه

أن يكاتبه فأبى فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين فأداها وقتل يوم حنين في الحرب وأركانها أربعة رقيق وصيغة وعوض وسيد وشرط في السيد كونه مختار أهل تبرع وولاء وكتابة المريض مرض الموت محسوبة من الثلث فإن خلف مثلي قيمته صحت الكتابة في كله أو مثل قيمته صحت في ثلثيه أو لم يخلف غيره صحت في ثلثه وشرط في الرقيق اختيار وعدم صبا وجنون وأن لا يتعلق به حق آدمي لازم وشرط في الصيغة لفظ يشعر بالكتابة كأن يقول السيد لمملوكه كاتبتك على ألفين في شهرين كل شهر ألف فإذا أديتهما فأنت حر فيقول العبد قبلت ذلك فلا يصح عقدها إلا مؤجلا منجما بنجمين فأكثر كما جرى عليه الصحابة فمن بعدهم فلا بد من بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا تجوز عند الشافعي رضي الله تعالى عنه بنجم واحد ولا حالا لأن العبد لا يملك شيئا فعقدها حالا يمنع من حصول الغرض لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلا وعند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه تجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود وهي سنة لا واجبة وإن طلبها الرقيق لئلا يتعطل أثر الملك وتحكم المماليك على الملاك بطلب رقيق أمين قوي على الكسب وبهما فسر الشافعي الخير في الآية واعتبرت الأمانة لئلا يضيع ما يحصله فلا يعتق والطلب والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء والناكح يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله فإن فقدت هذه الشروط أو بعضها فهي مباحة إذ لا يقوى رجاء العتق بها ولا تكره بحال لأنها عند فقدها ما ذكر قد تفضي إلى العتق ثم إن كان الرقيق فاسقا بسرقة أو نحوها وعلم سيده أنه لو كاتبه مع العجز عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها حينئذ لتضمنها التمكين من الفساد وتصح على عوض قليل وكثير ويجب أن يحط عنه قبل عتقه شيئا متمولا من النجوم أو يدفعه إليه من جنسها أو من غيرها كما قال تعالى (وآتوهم) أمر للسادة (من مال الله الذي آتاكم) ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم أيها السادة وفي معنى الإيتاء حط شيء متمول مما التزموه بل الحط أولى من الدفع لأن القصد بالحط الإعانة على العتق وهي محققة فيه موهومة في الدفع إذ قد يصرف المدفوع في جهة أخرى وكون ذلك في النجم الأخير أولى منه فيما قبله لأنه أقرب إلى العتق يروى أن عمر رضي الله تعالى عنه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية وهو أول عبد كوتب في الإسلام فأتاه بأول نجم فدفعه إليه عمر وقال استعن به على كتابتك فقال لو أخرته إلى آخر نجم فقال أخاف أن لا أدرك ذلك وكونه ربعا من النجوم أولى فإن لم تسمح به نفسه فكونه سبعا أولى روى حط الربع النسائي وغيره وحط السبع مالك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه وعند أبي حنيفة أمر للمسلمين على جهة الوجوب بإعانتهم للمكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله وفي الرقاب ولما بين تعالى ما يصح من تزويج العبيد والإماء أتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الإكراه على الزنا المذكور في قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أي إماءكم (على البغاء) أي الزنا كان لعبد الله بن أبي رأس المنافقين ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم فنزلت وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤاجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت مسيكة لمعاذة ان هذا الامر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فانزل الله هذه الآية وروى أنه جاءت احدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكيا اليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى (ان أردن تحصنا) أى تعففا عنه وهذه الارادة محل الاكراه فلا مفهوم للشرط لان الاكراه لا يتصور الا عند ارادة التحصن فأما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا وكلمة ان وايثارها على اذا ايذان بان الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر ولان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى على صورة صفة السبب وان لم تكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الايامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا) اى تطلبوا من أموال الدنيا بكسبهن وأولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور) اى لهن (رحيم) بهن وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن اى لا للمكره الا اذا تاب (فان قيل) ان المكرهة غير آثمة فلا حاجة الى المغفرة (أجيب) بان الزنا لا يباح بالاكراه فهى آثمة لكن لا حد عليها للاكراه ولما ذكر تعالى فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاث أحدها قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) اى الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فيها الاحكام والحدود وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء التحتية والباقون بفتحها لانها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة من بين بمعنى تبين أو لانها بينت الاحكام والحدود ثانيها قوله تعالى (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) اى من جنس امثالهم اى وقصة عجيبة مثل قصصهم وهى قصة عائشة رضى الله تعالى عنها فانها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ثالثها قوله تعالى (وموعظة للمتقين) اى ما وعظ به فى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون الخ وفى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه قلتم الخ وفى قوله تعالى يعظكم الله أن تعودوا الخ وتخصيصها بالمتقين لانهم المنتفعون بها ❊ واختلف فى معنى قوله تعالى (الله نور السموات والارض) فقال ابن عباس الله هادى أهل السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقال الضحاك منور السموات والارض فقال نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقال مجاهد مدبر الامور فى السموات والارض وقال أبى بن كعب والحسن وأبو العالية مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه كما يقال فلان رحمة أى منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل

اذا سار عبد الله من مرو ليلة ❊ فقد سار منها نورها وجمالها

وسبب هذا الاختلاف ان النور فى الاصل كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيران على الاجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على ضرب من التجوز كالامثلة المتقدمة أو على تقدير مضاف كقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات والارض ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور فى ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أى من الباطل الى الحق وأضاف النور الى السموات والارض لاحد معنيين اما الدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضىء له السموات والارض واما أن يراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به واختلف أيضا فى معنى قوله تعالى (مثل نوره) فقال ابن عباس مثل نوره الذى أعطى المؤمن اى مثل نور الله فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد ابن أسلم أراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تفضلا أى صفة نوره العجيبة الشأن فى الاضاءة (كمشكاة) اى كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة (فيها مصباح) اى سراج ضخم ثاقب (المصباح فى زجاجة) اى قنديل من زجاج شامى أزهر وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شئ وضوءه يزيد فى الزجاج ثم وصف الزجاجة بقوله تعالى (الزجاجة كأنها) اى النور فيها (كوكب درى) اى مضىء شبهها فى الضوء باحدى الدرارى من الكواكب الخمسة العظام وهى المشاهير المشترى والزهرة والمريخ وزحل وعطارد (فان قيل) لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر (أجيب) بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدر أى اللؤلؤ فى صفائه وحسنه وان كان الكوكب أكثر ضوأ من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما يفضل الدر سائر الحب وهمز مع المد أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى والباقون بغير همز وكل من أهل الهمز على مرتبته فى المد (توقد من شجرة مباركة زيتونة) اى ابتداء توقده من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بان رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة وهى شجرة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوأها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء والواو وبتشديد القاف على وزن تفعل على الماضى اى المصباح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف اى المصباح (لا شرقية ولا غربية) اى ليست بشرقية وحدها لا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا طلعت بل هى مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال فلان ليس أسود ولا أبيض اى ليس أسود خالصا ولا أبيض خالصا بل اجتمع فيه كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض اى اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول ابن عباس والاكثرين وقال السدى وجماعة معناه أنها ليست فى مقنأة لا تصيبها الشمس ولا

مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها الشمس ولا الظل والمقنأة بقاف ثم نون ثم همزة وهي بفتح
النون وضمها المكان الذي لا تطلع عليه الشمس وقول البيضاوي تبعا للزمخشري وفي
الحديث لا خير في شجرة في مقنأة ولا في نبات في مقنأة ولا خير فيهما في مضحى قال ابن حجر
امسة لانى لم أجده وقيل معناه انها معتدلة ليست في شرق تصيبها الحر ولا في غرب يضرها البرد
وقيل معناها هي شامية لأن الشام وسط الارض لا شرقي ولا غربي وقيل ليست هذه الشجرة من
أشجار الدنيا لانها لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى
لنوره (يكاد زيتها) اي من صفائه (يضيء ولو لم تمسسه نار) اي يكاد يتلألأ ويضيء بنفسه من
غير نار (نور على نور) اي نور المصباح على نور الزجاجة *(تنبيه)* اختلف أهل العلم في معنى
هذا التمثيل فقال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب
الاحبار أخبرني عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله
عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي
شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك
الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار وروى سالم عن عمر في هذه الآية قال المشكاة جوف النبي صلى الله
عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله تعالى فيه لا شرقية ولا غربية
لا يهودي ولا نصراني توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد
صلى الله عليهما وسلم وقال محمد بن كعب القرظي المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل عليهما
السلام والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى
وسراجا منيرا توقد من شجرة مباركة وهي ابراهيم عليه السلام سماه مباركا لان أكثر الانبياء
من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما
لان اليهود تصلي قبل المغرب والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار يكاد
محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى اليه نور على نور نبي من نسل نبي نور
محمد على نور ابراهيم عليهما السلام وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى أبو
العالية عن أبي بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح
ما جعل الله من الايمان والقرآن في قلبه توقد من شجرة مباركة وهي الاخلاص لله وحده فمثله
كمثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا اذا طلعت ولا اذا غربت
فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطي شكر
وان ابتلي صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضيء اي يكاد قلب المؤمن يعرف
الحق قبل أن يبين له لموافقته اياه نور على نور قال أبي أي فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور
وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور
الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار
ازداد ضوءا على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم
ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبي قوله تعالى نور على نور يعني ايمان المؤمن
وعمله وقال السدي نور الايمان ونور القرآن وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح

هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما قام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور (يهدي الله لنوره) قال ابن عباس دين الإسلام وقيل القرآن (من يشاء) فإن الأسباب بدون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينا وشمالا ومن لم يتدبر فهو كالأعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس (ويضرب) أي يبين (الله الأمثال للناس) تقريبا للأفهام وتسهيلا للإدراك (والله بكل شيء عليم) معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو خفيا وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها وقوله تعالى (في بيوت) يتعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بما بعده وهو يسبح أي يسبح رجال في بيوت وفي قوله فيها تكرير لقوله في بيوت كقولك زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله تعالى في تسع آيات أي سبحوا في بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي الكعبة بناها إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم وأتى فيها بجمع الكثرة دون جمع القلة للتعظيم (أذن الله أن ترفع) قال مجاهد تبنى نظيره قوله تعالى وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وقال الحسن تعظم أي فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من الأنجاس والأقذار وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح) أي يصلي (له فيها بالغدو والآصال) أي بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضة فالتي تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يقع على هذا الوقت وقيل أراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه وسلم من صلى البردين دخل الجنة أراد صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى وروى من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها (رجال لا تلهيهم تجارة) أي معاملة رابحة وقيل المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى (ولا بيع عن ذكر الله) إطلاقا لاسم الجنس على النوع كما تقول رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح أو شراء وعلى الأول ذكر مبالغة للتعظيم والتعميم بعد التخصيص وقيل التجارة لأهل الجلب تقول تجر فلان في كذا أي جلب * (تنبيه) * قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل له

ورجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبحه وحذف من قوله تعالى
(وإقام الصلوة) الهاء تخفيفا اي وإقامة الصلاة وأراد أداءها في وقتها لان من أخر الصلاة عن
وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة وإعادة ذكر إقام الصلاة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات
الخمس لانه تعالى أراد بإقامة الصلاة حفظ المواقيت روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق
فاقيمت الصلاة فقام الناس وغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد قال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية
(وإيتاء الزكوة) قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أي فيخرجون ما يجب
اخراجه من المال للمستحقين وقيل هي الاعمال الصالحة ومع ماهم عليه (يخافون يوما) هو
يوم القيامة (تتقلب) اي تضطرب (فيه القلوب) بين النجاة والهلاك (والابصار) بين ناحيتي
اليمين والشمال وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح
الابصار من الاغطية وقوله تعالى (ليجزيهم الله) متعلق بيسبح أو بلا تلهيهم أو يخافون
(أحسن ما عملوا) في الطاعات فرضها ونفلها اي ثوابه الموعود لهم من الجنة وأحسن بمعنى
حسن (ويزيدهم من فضله) مالم يستحقوه باعمالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقوله تعالى
(والله يرزق من يشاء بغير حساب) تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة
الاحسان وكمال جوده فكأنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك
يكونون في نهاية الخوف فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم و يزيدهم
الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أي
حالهم على ضد ذلك فان أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية
مخيبة في العاقبة كسراب وهو ما يرى في الفلاة وقت الضحى الاكبر شبيها بالماء الجاري وهو
ليس بماء ولكن الذي ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا وقيل هو الشعاع الذي يرى نصف
النهار في شدة الحر في البراري الذي يخيل للناظر انه الماء السارب أي الجاري فاذا قرب منه
انفش فلم ير شيأ وأما الآل فانما يكون أول النهار كانه ماء بين السماء والارض وقال البغوي
والآل ما ارتفع عن الارض وهو شعاع يرى بين السماء والارض بالغدوات شبه بالمرآة
ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشاء وهو
ما ترقرق من السراب اي جاء وذهب وقوله تعالى (بقيعة) جمع قاع وهي أرض سهلة مطمئنة
قد انفرجت عنها الجبال والآكام قاله في القاموس وقيل القيعة بمعنى القاع وهو الارض
المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب وقال الفراء جمع قاع كجار وجيرة وقال الهروي
جمعه قيعة وقيعان (يحسبه) اي يظنه (الظمآن) أي العطشان الشديد العطش من ضعف
العقل (ماء) فيقصده ولايزال سائرا (حتى اذا جاءه) اي ما قدر أنه ماء وقيل جاء الى موضع
السراب (لم يجده شيأ) مما حسبه ووجه التشبيه أن الذي جاء به الكافران كان من أفعال البر
فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد ان له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق
عليه العقاب مع أنه يعتقد ان له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا
وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه

فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده شيأ ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا (فان قيل) قوله تعالى حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله تعالى لم يجده شيأ مناقض له (أجيب) بأن معناه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان قد اجتهد أو أنه اذا جاء موضع السراب لم يجد السراب لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء فاذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء (ووجد الله عنده) اى ووجد عقاب الله الذي توعد به الكفار أو وجد زبانية الله أو وجده محاسبا اياه أو قدم على الله (فوفاه حسابه) اى جزاء عمله قيل نزلت في عتبة ابن ربيعة فانه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر بالاسلام قال ابن الخازن والاصح أن الآية عامة في حق جميع الكفار (والله سريع الحساب) لانه تعالى عالم بجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفي هذا رد على المشبهة قبحهم الله تعالى لانه تعالى لو كان متكلما بآلة كما يقولون لما صح ذلك وقوله تعالى (أو كظلمات) عطف على كسراب على حذف مضاف واحد تقديره أو كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا أخرج يده لم يكد يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول أبي علي وقال غيره على حذف مضافين تقديره أو كأعمال ذي ظلمات فقدر ذي ليصح عود الضمير اليه في قوله تعالى اذا أخرج يده وقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة وأو للتخيير فان أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والامواج والسحاب أو للتنويع فان أعمالهم ان كانت حسنة فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات أو للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة وقوله تعالى (في بحر لجي) صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجي منسوب الى اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة الماء وهي أيضا معظمه فاللجي هو العميق الكثير الماء وقوله تعالى (يغشاه) اى يغطي هذا البحر ويعلوه (موج) كائن (من فوقه موج) أي أمواج مترادفة متراكمة (من فوقه) اى الموج الثاني المركوم وقوله تعالى (سحاب) أي غيم غطى النجوم وحجب أنوارها صفة أخرى لبحر وقوله تعالى (ظلمات) أي من البحر والموجين والسحاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ويجوز أن يكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله تعالى (بعضها فوق بعض) خبره قاله الحوفي (فان قيل) لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة (أجيب) بأنها موصوفة تقديره أي ظلمات كثيرة متكاثفة وقرأ البزي سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل بتنوين سحاب وجر ظلمات والبزي جعل الموج المتراكم بمنزلة السحاب وأما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا من ظلمات الاولى والباقون بتنوين سحاب وظلمات بالرفع فيهما (اذا أخرج) اى الكائن في هذا البحر بدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر (يده) وهي أقرب ما يرى اليه في هذه الظلمات (لم يكد) أي الكائن فيه (يراها) اى لم يقرب من رؤيتها فضلا عن أن يراها كقول ذي الرمة

اذا غير النأى (اى البعد وفى نسخة الهجر) المحبين لم يكد*
رسيس الهوى (أى ثابته بمعنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح

أى يزول والمعنى لم يقرب من البراح فضلا عن أن يبرح* (تنبيه)* فى كيفية هذا التشبيه وجوه أحدها قال الحسن ان الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ثالثها أن الكافر لايدرى ولايدرى أنه لايدرى ويعتقد أنه يدرى فهذه المراتب الثلاثة شبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم خامسها ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لوذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه (ومن لم يجعل الله) أى الملك الاعظم (له نورا فما له من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له لانه تعالى قادر على ما يريد* ولما وصف تعالى أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى (ألم تر) اى تعلم علما يشبه المشاهدة فى اليقين والوثاقة بالوحى والاستدلال (أن الله) أى المتصف بصفات الكمال (يسبح له) أى ينزهه عن كل شائبة نقص (من فى السموات والارض) لان التسبيح لايرى بالبصر بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان وهذا التسبيح اما أن يكون المراد منه دلالة خلق هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال أو يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان قال الرازى والاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لايكون مكلفا لايسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لايسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار وأما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على لسان الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز أى عند أكثر العلماء فلم يبق الا القسم الاول وهو أن هذه الاشياء مشتركة فى أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها توسعا (فان قيل) فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء (أجيب) بان خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لان العجائب والغرائب فى خلقهم أكثر وهى العقل والنطق والفهم* ولما كان أمر الطير دلالته أعجب ولانها قد تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى (والطير صافات) اى باسطات أجنحتها فى جو السماء لاشبهة فى أنه لا يمسكها الا الله تعالى وامساكها فى الجو مع أنها أجرام ثقيلة واقداره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى واختلف فى عود الضمائر فى قوله تعالى (كل) أى من المخلوقات (قد علم صلاته وتسبيحه) على قولين أحدهما أنها كلها عائدة على كل أى كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها قال ابن عادل وهذا أولى لتوافق الضمائر ثانيهما ان الضمير فى علم عائد الى الله تعالى

وفي صلاته وتسبيحه على أنه عالم بكل ويدل عليه قوله تعالى (والله) أي المحيط علما وقدرة (عليم بما
يفعلون) وقيل الأظهر أن ضمير الصلاة والتسبيح [illegible] وهذا يؤيد أن الراجح التسبيح دلالة
[illegible] أنه ما بالت قال كنت جالسا عند أبي جعفر
[illegible] مطالع [illegible] وبعد طلوعها قال لا [illegible]
[illegible] الطير [illegible]
[illegible] لا [illegible] وأدبهما
[illegible] أن [illegible]
[illegible] الإنسان [illegible]
[illegible] ثم [illegible] كقصة [illegible]
بالأخرى ثم تمج فيها [illegible] وتغذيه وحكي عن [illegible] أمر عجيبة أنها
النحل وما لها من الرياسة والبيوت المسدسة التي لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين [illegible]
انتقال الكركي من طرف من أطراف العالم إلى الطرف الآخر طالبا للموافقة من الأهوية
ويقال من خواص الخيل أن كل واحد يعرف صوت الفرس الذي قاتله [illegible] وأن التماسيح
تفتح أفواهها لطائر يقع عليها يقال لها القطقاط وينظف ما بين أسنانها وعلى رأس ذلك
الطائر كالشوكة فإذا هم التمساح بالتقام ذلك الطائر تأذى من تلك الشوكة فيفتح فاه فيخرج
ذلك الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية سعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى
عن بعض الثقات المجربين للصيد أنه شاهد الحبارى تقاتل الأفعى وتنهزم منها إلى بقلة تتناول
منها ثم تعود ولا تزال كذلك وكان ذلك الشخص قاعدا في كن وكانت البقلة قريبة من مسكنه
فلما اشتغل الحبارى بالأفعى قلع البقلة فعادت الحبارى إلى منبتها فلم تجدها فأخذت تدور حول
منبتها دورانا متتابعا حتى خرت ميتة فعلم الشخص أنه يعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة هي
الجرجير البري وابن عرس يستظهر في مقاتلة الحية بأكل السذاب فإن النكهة السذابية
تنفر منها الأفعى والكلاب إذا مرضت بطونها أكلت سنبل القمح وإذا جرحت داوت الجراحة
بالسعتر الجبلي والقنافذ قد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل إلى جحرها
وكان رجل بالقسطنطينية قد أثرى بسبب أنه ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بإنذاره
وكان السبب فيه قنفذا في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صناع في اتخاذ
العش من الطين وقطع الخشب فإن أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل جناحاه قدرا
من الطين وإذا أفرخ بالغ في تعهد الفراخ وتأخذ زرقها بمناقيرها وترميها عن العش والغرانيق
تصعد في الجو عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض سحاب أو ضباب أحدثت عن أجنحتها
حفيفا مسموعا يتبع به بعضها بعضا وإذا باتت على جبل فإنها تضع رؤوسها تحت أجنحتها
إلا القائد فإنه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه وإذا سمع جرسا صاح وحال النمل في الذهاب
إلى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب وإذا كشف عن بيوتها الساتر
الذي كان يسترها وكان تحته بيض لها فإن كل نملة تأخذ بيضة في فمها وتذهب في أسرع وقت
والاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان والمقصود من ذلك أن الصلاة

من العقلاء يعجزون عن أمثال تلك الحيل واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يقال انها تسبح الله تعالى وتثني عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التي تعرفها الناس ويؤيد هذا قوله تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه السلام أوصى بنيه عند موته بلا اله الا الله فان السموات السبع والارضين السبع لو كن في حلقة مبهمة قصمتهن وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء وقال الغزالي في الاحياء روي أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وما هي يا رسول الله قال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر الى أن تصلي الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله الى يوم القيامة لك ثوابه ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله (ولله ملك السموات والارض) على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتهاء الى القديم الواجب الوجود ويدخل في هذا جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وفي قوله تعالى (والى الله) اي الذي له الاحاطة بكل شيء (المصير) دليل على المعاد وأنه لابد من مصير الكل اليه بعد الفناء والرؤية في قوله تعالى (ألم تر) بصرية (أن الله) اي ذا الجلال والجمال (يزجي سحابا) اي يسوقه برفق بعد أن أنشاه من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا قال أبو حيان وهو اسم جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة الى سحابة وهو معنى قوله تعالى (ثم يؤلف بينه) اي بين أجزائه بعد أن كان قطعا في جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة (ثم يجعله ركاما) في غاية العظمة متراكبا بعضه على بعض بعد أن كان في غاية الرقة (فترى) اي في تلك الحالة المستمرة (الودق) اي المطر (يخرج من خلاله) اي من فتوقه التي حدثت بالتراكم وارهاص بعضه في بعض (فان قيل) بين انما تدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد (أجيب) بان المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه أو على حذف مضاف اي بين أجزائه كما مر وبين قطعه فان كل قطعة سحابة وقرأ السوسي فترى في الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وأما في الوقف فابو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (وينزل من السماء) اي من الغمام وكل ما علا فهو سماء (من جبال فيها) اي في السماء وهي السحاب الذي صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى (من برد) بيان للجبال والمفعول محذوف اي ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى لابتداء الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز أن تكون الثانية لابتداء الغاية أيضا ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل والتقدير وينزل من جبال اي من جبال فيها فهو بدل اشتمال والاخيرة للتبعيض واقعة موقع المفعول (فان قيل) ما معنى من جبال فيها من برد (أجيب) بان فيه معنيين أحدهما أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الارض جبال حجر وليس في العقل قاطع يمنعه الثاني أن يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون واخفائها عند الزاي وتخفيف الزاي

والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ثم بين تعالى أن ذلك باختياره وارادته بقوله تعالى (فيصيب به) اي بكل من البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة (من يشاء) اي من الناس وغيرهم (ويصرفه عن من يشاء) صرفه عنه (فائدة) عن مقطوعة من من في الرسم ثم نبه تعالى على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النور الذي ربما كان له صاعقة فاحرقت ما لا تحرق النار بقوله تعالى (يكاد) اي يقرب (سنا) اي ضوء (برقه) وهو اضطراب النور في خلاله (يذهب) اي هو ملتبسا (بالابصار) اي الناظرة له اي يخطفها لشدة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلا على تكاثف السحاب وبشيرا بقوة المطر ونذيرا بنزول الصواعق واعلم أن البرق الذي صفته كذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم ثم ذكر تعالى ما هو أدل على الاختيار بقوله تعالى مترجما لما يشمل ما مضى وزيادة (يقلب الله) اي الذي له الامر كله بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاما والنقص تارة والزيادة أخرى مع المطر تارة والصحو أخرى (الليل والنهار) فينشأ عن ذلك التقلب من الحر والبرد والنمو والتنويع واليبس ما يبهر العقول ولهذا قال منبها على النتيجة (ان في ذلك) الامر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم (لعبرة) اي دلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته واحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزيهه عن الحاجة وما يفضي اليها (لاولي الابصار) اي لاصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده ولما استدل تعالى أولا بأحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال الحيوانات بقوله تعالى (والله) اي الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة (خلق كل دابة) اي حيوان (من ماء) وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام والخاء ولا ألف بينهما ونصب لام كل (فان قيل) كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم أعظم الحيوانات عددا وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق آدم من التراب كما قال تعالى خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا ونرى كثيرا من الحيوانات يتولد لا من نطفة (أجيب) بوجوه أحدها ما قال القفال ان من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى ثانيها ان أصل جميع المخلوقات من الماء على ما روي ان أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم قسم ذلك الماء فخلق منه النار والهواء والنور والتراب والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة فكان أصل الخلقة الماء فلهذا ذكره الله تعالى ثالثها المراد من الدابة التي تدب على وجه الارض ومسكنها هنالك فتخرج الملائكة والجن رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء أطلق عليها لفظ كل تنزيلا للغالب منزلة الكل (فان قيل) لم نكر الماء في قوله تعالى من ماء وعرفه في قوله تعالى من الماء كل شيء حي (أجيب) بأنه جاء هنا منكرا لان المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة وعرفه في قوله تعالى من الماء كل شيء حي لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة (فمنهم) اي الدواب (من يمشي على بطنه) كالحية

والحيتان والديدان واستعير المشي للزحف على البطن كما قالوا في الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان ما مشى له أمر أو هي بذلك للمشاكلة لذكر الزاحف مع الماشي (ومنهم من يمشي على رجلين) اي فقط كالآدمي والطير (ومنهم من يمشي على أربع) اي من الايدي والارجل كالنعم والوحش (فان قيل) لم حصر القسمة في هذه الثلاثة أنواع من المشي وقد نجد من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذي له أربع وأربعون رجلا الذي يسمى دخال الاذن (أجيب) بان هذا القسم الذي لم يذكر كالنادر فكان ملحقا بالعدم وقال النقاش انما اكتفى بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر من أربع لان جميع الحيوان انما اعتماده على أربع وهي قوائم مشيه وكثرة الارجل لبعض الحيوان زيادة في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه الى جميعها او بان قوله تعالى (يخلق الله ما يشاء) كالتنبيه على سائر الاقسام (فان قيل) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (أجيب) بانه قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع *(تنبيه)* انما أطلق من على غير العاقل لاختلاطه بالعاقل في المفصل بمن وهو كل دابة وكان التعبير بمن أولى ليوافق اللفظ * ولما كانت هذه الادلة ناظرة الى البعث أتم نظر وكانوا منكرين له أكد ذلك بقوله تعالى (ان الله) اي الذي له الكمال المطلق (على كل شيء) من ذلك وغيره (قدير) لانه القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فاي عقل يقف عليها وأي خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذي يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمتنع عليه شيء * ولما اتضح بهذا ماله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت أدلة الوحدانية على ساق واتسقت براهين الالوهية اي اتساق قال تعالى منبها على تلك الادلة (لقد أنزلنا) اي في هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة (آيات) اي علامات من الحكم والاحكام والادلة والامثال (مبينات) للحقائق بانواع الدلائل التي لا خفاء فيها (والله) اي الملك الاعظم (يهدي من يشاء) من عباده (الى صراط) طريق (مستقيم) هو دين الاسلام الموصل الى دار الحق والفوز بالجنة * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بالسنتهم ولكنهم لم يفعلوه بقلوبهم فقال تعالى (ويقولون) اي الذين ذمهم الله تعالى (آمنا بالله) اي الذي أوضح لنا جلاله وعظمته وكماله (وبالرسول) أي الذي علمنا كمال رسالته وعمومها بما أقام عليها من الادلة (وأطعنا) أي وأوجدنا الطاعة لله ولرسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول باداة البعد فقال تعالى (ثم يتولى) أي يرتد بانكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالا منهم عن الحق (فريق منهم) أي ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (من بعد ذلك) اي القول البعيد المؤكد مع الله الذي هو أكبر من كل شيء ومع رسوله الذي هو أشرف الخلائق (وما أولئك) اي البعداء البغضاء الذين صار والتوليهم في محل البعد (بالمؤمنين) اي المعهودين الموافقة قلوبهم السنتهم (فان قيل) انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولي فكيف يصح أن يقول في جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن

المتولى فريق منهم (أجيب) بان قوله تعالى وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى ولو رجع الى الجملة الاولى لصح ويكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم أى يرجع هذا الفريق الى الباقى فيظهر بعضهم لبعض الرجوع كما أظهروه بينهم * ولما فضحهم بما أخفوه من قولهم فبح عليهم ما أظهروه فقال تعالى معبرا بأداة التحقيق (واذا دعوا) أى الفريق الذين ادعوا الايمان من أى داع كان (الى الله) أى الى ما نصب الملك الاعظم من أحكامه (ورسوله) وأفرد الضمير فى قوله تعالى (ليحكم) وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه لان حكم رسوله هو حكمه قال الزمخشرى كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله

ومنهل من الفلا فى أوسطه * غلسته قبل القطا وفرطه

أى قبل فرط القطا (بينهم) أى بما أراه الله (اذا فريق منهم) أى ناس مجبولون على الاذى (معرضون) أى فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم لعلمهم بانك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم) أى على سبيل الفرض (الحق) أى بلا شبهة (يأتوا اليه) أى الرسول (مذعنين) أى منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم لا انهم يعلمون أنه دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله * (تنبيه) * قوله تعالى اليه يجوز تعلقه بيأتوا لان أتى وجاء قد يتعديان بالى ويجوز أن يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين فى الطاعة وصححه الزمخشرى قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ثم قسم تعالى الامر فى عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم اذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى (أفى قلوبهم مرض) أى نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال أو مرتابين فى نبوته بقوله تعالى (أم ارتابوا) أى بأن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك أو خائفين الحيف فى قضائه بقوله تعالى (أم يخافون أن يحيف) أى يجور (الله) أى الغنى عن كل شئ لان له كل شئ (عليهم ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى * ثم أضرب عن القسمين الاخيرين لتحقيق القسم الاول بقوله تعالى (بل أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الظالمون) أى الكاملون فى الظلم ووجه التقسيم أن امتناعهم اما لخلل فيهم أو فى الحاكم والثانى اما أن يكون محققا عندهم أو متوقعا وكل منهما باطل لان منصب نبوته وفرط أمانته تمنعه فتعين الاول فظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف والفصل لنفى ذلك عن غيرهم (فان قيل) اذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض والكل واحد فاى فائدة فى التعديد (أجيب) بان قوله تعالى فى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله تعالى أم ارتابوا اشارة الى انهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (فان قيل) هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم (أجيب) بانه تعالى نبههم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول وكل واحد من ذلك كفر ونفاق واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض فقال اليهودى نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا

يحيف علينا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتها في سورة النساء وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه أرض تقاسماها فوقع الى علي ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعه اياها وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى ان يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلا نأتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت الآية وقال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر ● ولما نفى تعالى عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كان كأنه سئل عن حال المؤمنين فقال تعالى (انما كان) أي دائما (قول المؤمنين) أي العريقين في ذلك الوصف (اذا دعوا) أي من أي داع كان (الى الله) أي الى ما أنزل الملك الذي لا كفء له من أحكامه (ورسوله) الذي لا ينطق عن الهوى (ليحكم) اي الرسول (بينهم) بما أراه الله تعالى أي حكومة من الحكومات لهم وعليهم (أن يقولوا سمعنا) أي الدعاء (وأطعنا) أي بالاجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع بمعنى ان المؤمنين ينبغي أن يكونوا هكذا (وأولئك) أي العالو الرتبة (هم المفلحون) الذين وصفهم الله تعالى في أول المؤمنين وهذا يدل على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد انكاره لما لا ينبغي ● ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص أتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى (ومن يطع الله) أي الذي له الامر كله (ورسوله) أي فيما ساءه وسره (ويخش الله) أي فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ليحمله ذلك على كل خير (ويتقه) اي الله فيما بقي من عمره بأن يجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعا (فأولئك) اي العالو الرتبة (هم الفائزون) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم وعن ابن عباس في تفسير هذه الآية ومن يطع الله في فرائضه ورسوله في سننه ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء وحفص بسكون القاف وقصر كسرة الهاء والباقون وخلاد في أحد وجهيه باشباع كسرة الهاء ● ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال المنافقين بقوله تعالى (وأقسموا بالله) اي الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى (جهد أيمانهم) جهد اليمين مصدر نصب على الحال وقيل مصدر مؤكد لفعله واصله يجهد فيها جهده فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافا الى المفعول كقوله تعالى فضرب الرقاب ‏ومن جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وذلك اذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها وعن ابن عباس من قال بالله فقد بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها (لئن أمرتهم) أي أمر من الامور (ليخرجن) مما هم متلبسون به من خلافه كائنا ما كان وذلك ان المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وان أقمت أقمنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى (قل) أي لهم (لا تقسموا) أي لا تحلفوا فان العلم بما أنتم عليه لا يحتاج الى الاقسام وههنا قد تم الكلام ولو كان قسمهم صادقا لما نهوا عنه لان من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه فثبت أن قسمهم كان لنفاقهم

وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه قبيح قال المتنبي

وفي اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى (طاعة معروفة) ثلاثة أوجه أحدها أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره أمرنا طاعة أو المطلوب طاعة ثانيها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي أمثل أو أولى أو خير أي طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ أي هذه الحقيقة ومعروفة هو الخبر أي معروفة منكم ومن غيركم وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها إلا أن العموم الذي تصلح له قد تخصص بإرادة الحقيقة كما قالوا في أعرف المعارف والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله وكذا المعصية لأنه ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها رواه الطبراني عن عثمان وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال لو أن رجلا دخل بيتا في جوف بيت فأدمن هناك عملا أوشك الناس أن يتحدثوا به وما من عامل عمل عملا إلا كساه الله رداء عمله إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر وعن سعيد لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان (إن الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (خبير بما تعملون) أي لا يخفى عليه شيء من سرائركم فإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم * ولما نبه تعالى على خداعهم وأشار إلى عدم الاغترار بأيمانهم أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى (قل) أي لهم (أطيعوا الله) أي الذي له الكمال المطلق (وأطيعوا الرسول) أي الذي له الرسالة المطلقة ظاهرا وباطنا وقوله تعالى (فإن تولوا) أي عن طاعته فيه حذف إحدى التاءين خطاب لهم أي فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم (فإنما عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (ما حمل) أي ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة وإذا أدى فقد خرج من عهدة التكليف (وعليكم) أي وأما أنتم فعليكم (ما حملتم) أي ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى فالنفع والضر عائد إليكم (وإن تطيعوه) بالإقبال على كل ما يأمركم به (تهتدوا) أي إلى كل خير (وما على الرسول) أي من جهة غيره (إلا البلاغ) أي وما الرسول إلا ناصح وهاد وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية ومعنى (المبين) كونه مقرونا بالآيات والمعجزات وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب وقال أبو أمامة الباهلي عليكم بالسواد الأعظم فقال رجل ما السواد الأعظم فنادى أبو أمامة هذه الآية في سورة النور فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (الذين آمنوا منكم وعملوا) أي تصديقا لإيمانهم (الصالحات) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة وقوله منكم للبيان ثم أكد غاية التأكيد بلام القسم لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك بقوله تعالى (ليستخلفنهم في الأرض) أي أرض العرب والعجم بأن يمد زمانهم وينفذ أحكامهم فيجعلهم

متصرفين في الارض تصرف الملوك في ممالكهم (كما استخلف الذين من قبلهم) اى من الامم من بني اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الاعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور ان الارض يرثها عبادي الصالحون وكما قال موسى عليه السلام ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرأ أبو بكر بضم التاء الفوقية وكسر اللام والباقون بفتح التاء واللام (وليمكنن لهم) اى في الباطن والظاهر (دينهم الذي ارتضى لهم) وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوطيده واضافه اليهم اشارة الى رسوخ أقدامهم فيه وانه الذي لا ينسخ ولما بشرهم بالتمكين أشار لهم الى مقداره بقوله تعالى (وليبدلنهم من بعد خوفهم) اى الذي كانوا عليه (أمنا) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تصبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنجز الله تعالى وعده وأظفرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعض بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا واستعبدوا أبناء القياصرة وتمكنوا شرقا وغربا مكنة لم تحصل قبلهم لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ولما قتلوا عثمان رضي الله عنه وخرجوا على علي ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامن كما أشير اليه بمن وتنكير أمنا وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلا قليلا الى ان صار في زماننا هذا الى أمر عظيم وذلك تصديق لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ثم تصير بزيزى قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها والثلاثون خلافة أبي بكر سنتان وخلافة عمر عشرة وخلافة عثمان اثنتا عشرة وخلافة علي ستة والبزيزى بكسر الباء وتشديد الزاي الاولى والقصر السلب والتغلب وقوله قطع سبيل نصب اما عطف بيان لقوله بزيزى أو بدل منه وقرأ ابن كثير وأبو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ثم اتبع ذلك بنتيجته بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه (يعبدونني) اى وحدي وقوله تعالى (لا يشركون بي شيأ) حال من الواو اى يعبدونني غير مشركين (فان قيل) فما محل يعبدونني (أجيب) بانه مستأنف لا محل له كان قائلا قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون فقال يعبدونني ويجوز أن يكون حالا عن وعدهم اى وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وأخلاقهم فمحله النصب ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى (ومن كفر) أى ارتد وكفر هذه النعمة (بعد ذلك) أى بعد الوعد أو الخلافة (فاولئك) اى البعداء من الخير (هم الفاسقون) أى الخارجون عن الدين خروجا كاملا لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه عثرة بل تقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم ملام ولا تأخذ بهم رأفة عند الانتقام كما تقدم أول السورة فيمن لزمه الجلد وقيل المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى فأولئك هم الفاسقون أى العاصون لله وقوله تعالى

(وأقيموا الصلوة) اى فانها قوام ما بينكم و بين ربكم معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول قال الزمخشري وليس يبعد ان يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال لان حق المعطوف ان يكون غير المعطوف عليه (وآتوا الزكوة) فانها قوام ما بينكم و بين اخوانكم (وأطيعوا الرسول) اى فى كل حال يامركم به وكررت طاعة الرسول تاكيدا لوجوبها (لعلكم ترحمون) اى لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم فى الحقيقة غيره والفاعل فى قوله تعالى (لا تحسبن) ضمير المخاطب اى لا تحسبن أيها المخاطب (الذين كفروا) اى وان ازدادت كثرتهم على العدو وتجاوزت عظمتهم الحد (معجزين) اى لاهل ودنا وقيل لنا (فى الارض) اى فانهم مأخوذون لامحالة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على الغيبة قال النحاس ما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الاوهو يلحن قراءة حمزة فمنهم من يقول هى لحن لانه لم يات الا بمفعول واحد ليحسبن وأجيب عن ذلك من وجهين أحدهما ان المفعول الاول محذوف تقديره ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الا ان حذف أحد المفعولين ضعيف عند البصريين ومنه قول عنترة

ولقد نزلت فلا تظنى غيره ۞ منى بمنزلة المحب المكرم

اى فلا تظنى غيره واقعا والثانى ان المفعولين هما قوله معجزين فى الارض قاله الكوفيون وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى (ومأواهم النار) أى مسكنهم معطوف على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كانه قيل الذين كفروا لا يفوتون أهل ودنا أو لا يفوتونا ومأواهم النار والمراد بهم المقسمون عليه بالله جهد أيمانهم ۞ ولما كانت سكنى الشئ لاتكون الا بعد المصير اليه قال تعالى (ولبئس المصير) اى المرجع مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية فقال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر رضى الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت فكرهته فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت واللام فى ليستأذنكم للامر وملك اليمين يشمل العبيد والاماء قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث قال الرازى والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى لان النساء فى باب العورة أشد حالا من الرجال فهو كتحريم الضرب بالقياس على حرمة التأفيف وقال ابن عباس هى فى الرجال والنساء اى البالغين أو من قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال فى الليل والنهار لدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك الى مساءتكم واختلف العلماء فى هذا الامر فقيل للندب وقيل للوجوب واستظهر (والذين) أى وليستأذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ولكنهم (لم يبلغوا الحلم) وقيده بقوله تعالى (منكم) ليخرج الكفار والارقاء وعبر عن البلوغ بالاحتلام لانه أقوى دلالة (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وقيل ثلاث

استئذانات في كل مرة فات ليحصل الاذن ويجمع المستأذن كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم (و) المرة الثانية (حين تضعون ثيابكم) أى التى للخروج بين الناس (من الظهيرة) أى شدة الحر وهو انتصاف النهار (و) المرة الثالثة (من بعد صلاة العشاء) لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم وخص هذه الاوقات لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف وأثبت من فى الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه واسقطها فى الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك بقوله تعالى (ثلاث عورات) اى اختلالات فى التستر والتحفظ (لكم) لانها من ساعات وضع الثياب والخلوة قال البيضاوى وأصل العورة الخلل ومنها اعور المكان ورجل أعور واذا بدا فيه خلل انتهى وسميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى فى الوصل ثلاث بالنصب بتقدير أوقات منصوبا بدلا من محل ما قبله قام المضاف اليه مقامه والباقون بالرفع على انها خبر مبتدا مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه اى هى أوقات ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده * ثم بين سبحانه وتعالى حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستأنفا (ليس عليكم) اى فى ترك الامر (ولا عليهم) اى المماليك والصبيان فى ترك الاستئذان (جناح) اى اثم وأصلها الميل فى الدخول عليكم فى جميع الساعات (بعدهن) اى بعد هذه الاوقات الثلاثة اذا هجموا عليكم ثم علل الاباحة فى غيرها مفرجا لفيرهم بقوله تعالى (طوافون عليكم) أى لعمل ما تحتاجون فى الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم فى الاستخدام (بعضكم) طواف (على بعض) لعمل ما يعجز عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الامر بالاستئذان لادى الى الحرج (فان قيل) بم رفع بعضكم على بعض (أجيب) بانه رفع بالابتداء وخبره على بعض أى طواف على بعض وحذف لان طوافون يدل عليه ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة (كذلك) أى كما بين ما ذكر (يبين الله) أى بما له من احاطة العلم والقدرة (لكم) أيها الامة (الآيات) فى الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته (والله) أى الذى له الاحاطة العامة بكل شئ (عليم) بكل شئ (حكيم) فيما يريده فلا يقدر أحد على نقضه وختم الآية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف فى ذلك فقال الزمخشرى عن ابن عباس انه قال آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الاذن وانى لآمر جاريتى أى زوجتى ان تستأذن على وسأله عطاء أأستأذن على اختى قال نعم وان كانت فى حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقال الناس أعظمكم بيتا وقوله واذا حضر القسمة وعن ابن مسعود عليكم ان تستأذنوا على آبائكم وامهاتكم واخوانكم وعن الشعبى ليست منسوخة فقيل له ان الناس لا يعملون بها فقال الله المستعان وعن سعيد بن جبير ان الناس يقولون هى منسوخة والله ما هى منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هى منسوخة روى البغوى عن ابن عباس انه قال لم يكن للقوم ستور ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم ما لا يحبون فامروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور

فلعل الرواية اختلفت عن ابن عباس * ولما بين تعالى حكم الصبيان والارقاء الذين هم أطوع للآمر وأقبل لكل خير أتبعه حكم البالغين من الاحرار بقوله تعالى (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) أى اذا بلغ أطفالكم الاحرار بلوغ السن الذى يكون فيه انزال المنى سواء رأى منيا أم لا واختلف فى ذلك السن فقال عامة العلماء هو خمس عشرة سنة أى قرينة تحديدية لا فرق فى ذلك بين الذكر وغيره وقال أبو حنيفة هو ثمانى عشرة سنة فى الغلام وسبع عشرة سنة فى الجارية وعن على رضى الله عنه أنه تعتبر القامة وتقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * ونما فادرك خمسة الاشبار

واعتبر غيره الانبات أى للعانة وعن عثمان رضى الله تعالى عنه أنه سأل عن غلام فقال هل اخضر ازاره أى نبت شعر عانته فاسند الاخضرار الى الازار على المجاز ولانه مما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشن عند الائمة على بلوغ ولد الكافر فقط أما اذا رأى المنى فى وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين قرينة فانا نحكم ببلوغه سواء كان ذكرا أم أنثى مسلما أم كافرا وأما الخنثى فلابد أن يمنى من فرجيه أو يحيض بالفرج ويمنى من الذكر (فليستأذنوا) اى على غيرهم فى جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) اى من الاحرار الكبار الذين جعلوا قسيما للمماليك فلا يدخل فى ذلك الارقاء فلا يستدل بذلك على أن العبد البالغ يستأذن على سيدته وقيل المراد الذين كانوا مع ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام (كذلك) أى كما بين لكم ما ذكر (يبين الله) أى الذى له الاحاطة والقدرة (لكم) أيتها الامة (آياته) أى دلالاته (والله) أى الذى يعلم السر وأخفى (عليم) اى باحوال خلقه (حكيم) اى فيما دبر لهم قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته فقال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره وعن أنس قال لما كانت صبيحة يوم احتلمت دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فاخبرته انى قد احتلمت فقال لا تدخل على النساء فما أتى على يوم كان أشد منه * ولما ذكر تعالى اقبال الشباب فى تعيين حكم الحجاب أتبعه الحكم عند ادبار الشباب فى اتقاء الظاهر من الثياب بقوله تعالى (والقواعد من النساء) أى اللاتى قعدن عن الولد والحيض من الكبر لا يلدن ولا يحضن واحدتهن قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله (اللاتى لا يرجون نكاحا) اى لا يردن الرجال لكبرهن قال ابن قتيبة سميت المرأة قاعدا اذا كبرت لانها تكثر القعود وقال ربيعة هن العجز اللواتى اذا رآهن الرجل استقذرهن فاما من كان فيها بقية من جمال وهى محل الشهوة فلا تدخل فى هذه الآية (فليس عليهن جناح) أى حرج فى (أن يضعن ثيابهن) أى الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار أما الخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من كشف العورة (غير متبرجات بزينة) أى من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن ثم ان الزينة الخفية فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج والتبرج هو ان تظهر المرأة محاسن ما ينبغى لها ان تستره * ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار أفضل الاعمال وأحسنها بقوله تعالى (وان يستعففن) اى فلا يلقين الرداء أو الجلباب (خير لهن) من الالقاء كقوله تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وأن تصدقوا خير لكم لانه

..ه عن التهمة (والله) اى الذى جلت عظمته (سميع) لقولكم (عليم) بما فى قلوبكم
اختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج) اى فى مؤاكلة غيره (ولا على
الاعرج حرج ولا على المريض حرج) كذلك فقال ابن عباس لما أنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا
لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى والعرج
وقالوا الطعام أفضل الاموال وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والاعمى لا يبصر
موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام
والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فانزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذا
تكون على بمعنى فى اى ليس فى الاعمى اى ليس عليكم فى مؤاكلة الاعمى والاعرج والمريض
حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون
عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يستقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم وعن عكرمة كانت
الانصار فى أنفسها نزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا وكان هؤلاء يقولون
الاعمى ربما أكل أكثر وربما سبقت يده الى ما سبقت عين آكله اليه وهو لا يشعر والاعرج
ربما أخذ فى مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو من رائحة تؤذى أو جرح
يبض أو نحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الآية ترخيصا لهؤلاء فى الاكل من بيوت من سمى
الله فى هذه الآية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فاذا لم يكن عنده
ما يطعمهم ذهب بهم الى بيت أبيه وبيت أمه وبعض من سمى الله تعالى فى هذه الآية فكان
أهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره فنزلت الآية وقال
سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون اليهم مفاتيح أبوابهم
ويقولون قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها
وهم غيب فانزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهؤلاء فى التخلف
عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله تعالى ولا على المريض حرج وقوله تعالى (ولا على أنفسكم
ان تأكلوا من بيوتكم) كلام مستأنف منقطع عما قبله (فان قيل) اى فائدة فى اباحة أكل
الانسان طعامه فى بيته (أجيب) بان المراد من البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل
فيه بيوت الاولاد لان بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم أنت ومالك لابيك وقال صلى الله
عليه وسلم ان أطيب ما يأكل المرء من كسبه وان ولده من كسبه وقيل لما نزل قوله تعالى
ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا ان يأكل عند أحد فانزل الله تعالى
ولا على أنفسكم ان تأكلوا من بيوتكم اى لا حرج عليكم ان تأكلوا من بيوتكم (أو بيوت
آبائكم) اى وان بعدت أنسابهم قال البقاعى ولعله جمع لذلك فانهم اصل باكم وحرمتها حرمتكم
(أو بيوت أمهاتكم) كذلك وقدم الاب لانه أجل وهو حاكم بيته دائما والمال له (أو بيوت
اخوانكم) اى من الابوين أو الاب أو الام بالنسب أو الرضاع فانهم من أولى من رضى بذلك
بعد الوالدين لانهم منكم وهم أولياء بيوتهم (أو بيوت اخواتكم) فانهن بعدهم من أولى البيت
فان كن مزوجات فلا بد من اذن الزوج (أو بيوت أعمامكم) فانهم شقائق آبائكم سواء كانوا
أشقاء أو لاب أم لام ولو أفرد العم لتوهم انه الشقيق فقط فانه أحق بالاسم (أو بيوت عماتكم)

فانهن

فانهن بعد الاعمام لضعفهن ولانهن ربما كان أولياء بيوتهن الازواج (أو بيوت أخوالكم) لانهم شقائق أمهاتكم (أو بيوت خالاتكم) أخرهن لما ذكر في العمات (أو ما ملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه ان يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتح كونها في يده وحفظه وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويجوز ان تكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس ان يطعم الشئ اليسير وقال السدي الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس ان يأكل منه وقيل أو ما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما ادخرتم وملكتم (أو صديقكم) اى أو بيوت اصدقائكم والصديق هو الذي صدق في المودة ويكون واحدا وجمعا وكذا الخليط والقطين والعدو قال ابن عباس نزلت في الحرث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل طعامك بغير اذنك فأنزل الله هذه الآية يحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص واطائب الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فاذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك وعن جعفر بن محمد من عظم حرمة الصديق ان جعله الله تعالى في الانس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والاب والابن والاخ وعن ابن عباس الصديق اكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والمعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكر وان لم يحضروا اذا علم رضا صاحب البيت باذن أو قرينة ظاهرة الحال فان ذلك يقوم مقام الاذن الصريح ولذلك خصص هؤلاء فانهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم اليه طعام فاستأذن صاحبه في الاكل منه (فان قيل) اذا كان ذلك لا بد فيه من العلم بالرضا فحينئذ لا فرق بينهم وبين غيرهم (أجيب) بان هؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة بل ينبغي أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم لا بد فيه من صريح الاذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لي ولم أر من تعرض لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والاكل من طعامه بغير اذنه لهذه الآية واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على ان من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع لان الله تعالى أباح لهم الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم (فان قيل) فيلزم ان لا يقطع اذا سرق من مال صديقه (أجيب) بان من سرق من ماله لا يكون صديقا له وقيل ان هذا كان أول الاسلام ثم نسخ فلا دليل له فيه وقرأ بيوتكم وبيوت وبيوتا ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بالكسر وقرأ حمزة والكسائي امهاتكم في الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون ٭ ولما ذكر تعالى محل الاكل ذكر حاله بقوله تعالى (ليس عليكم جناح) اى اثم (ان تأكلوا جميعا) اى مجتمعين (أو اشتاتا) اى

متفرقين واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال الأكثرون نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة وقال عطاء عن ابن عباس كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول والله اني لأجنح أي أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقال عكرمة وأبو صالح نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين أو أشتاتا متفرقين وقال الكلبي كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للأعمى طعاما وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم أن ذلك غير واجب وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض *(تنبيه)* جميعا حال من فاعل تأكلوا وأشتاتا عطف عليه وهو جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت روي أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة * ولما بين تعالى مواطن الأكل وكيفيته ذكر الحال التي عليها الداخل الى تلك المواطن أو غيرها بقوله تعالى (فاذا دخلتم) أي بسبب ذلك أو غيره (بيوتا) أي من هذه البيوت (فسلموا على أنفسكم) أي على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة جعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم وقال ابن عباس اذا لم يكن في البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم واذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا أن الملائكة ترد عليه (تحية من عند الله) أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه (مباركة) أي لأنه يرجى بها زيادة الخير والثواب (طيبة) أي تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقيل تسع سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي لشيء تركته لم تركته وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال متى لقيت من أمتي أحدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الأبرار الأوابين *(تنبيه)* تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو من باب قعدت جلوسا فكأنه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كان في البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى (كذلك يبين الله) أي الذي أحاط علمه بكل شيء (لكم الآيات) ثالثا لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وفصل الأولين بما هو المقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال تعالى (لعلكم تعقلون) أي عن الله أمره ونهيه وأدبه * ولما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل

موطن تجب الاقامة فيه و يحرم ماعداه من الاوطان قال تعالى (انما المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الذين آمنوا بالله) أى الملك الاعلى (و رسوله) اى ظاهرا و باطنا (واذا كانوا معه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) اى يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل و وصف الامر بالجمع للمبالغة أو من الاسناد المجازى لانه لما كان سببا فى جمعهم نسب الفعل اليه مجازا (لم يذهبوا) أى يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعذر لهم (حتى يستأذنوه) قال الكلبى كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين و يعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان المؤمن بعد نزولها لايخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن قال مجاهد اذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم كذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لايخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه عن المقام كأن يكونوا فى المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب الرجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان * ولما كان اعتبار الاذن كالمصدق لصحة كمال الايمان والمميز للمخلص فيه أعاده مؤكدا على أسلوب أبلغ بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك) اى تعظيما لك و رعاية للادب (أولئك) أى العالو الرتبة (الذين يؤمنون بالله) اى الذى له الامر كله (و رسوله) فانه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك * ولما نص على الاستئذان تسبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذ ذاك بقوله تعالى (فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) وهو ماتشتد الحاجة اليه (فأذن لمن شئت منهم) بالانصراف اى ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن ففى ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض الى رأيه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب وذلك انه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فأذن له وقال انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقون ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذناه أبى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال يا أبا حفص لاتنسنا من صالح دعائك ولما كان فى الاستئذان ولو لعذر قصور لان فيه تقديم الامر الدنيا على أمر الدين أمره الله تعالى بأن يستغفر لهم بقوله تعالى (واستغفر لهم الله) اى الذى له الامر كله بعد الاذن ليكون ذلك شاملا لمن صحت دعواه وغيره ثم علل ذلك ترغيبا فى الاستغفار وتطييبا للقلوب أهل الاوزار بقوله تعالى (ان الله) اى الذى لايخفى عليه شئ (غفور) اى لفرطات العباد (رحيم) اى بالتفضل عليهم * ولما ظهرت هذه السورة بعمومها وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما بهر العقول صرح بتفخيم شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى (لا تجعلوا) اى يا أيها الذين آمنوا (دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال سعيد بن جبير وجماعة معناه لاتنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يانبى الله وعلى هذا يكون المصدر مضافا لمفعوله وقال المبرد والقفال لاتجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم لبعض

[illegible]
وقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره يدل على هذا لكون الفاعل ضميرا للفاعل وقال ابن
عباس احذروا دعاء الرسول عليكم اذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره
وروى عنه ايضا لا ترفعوا اصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون اصواتهم
عند رسول الله وقول المبرد كما قال ابن عادل اقرب الى نظم الآية ولما كان بعضهم يظهر
الموافقة ويبطن المخالفة حذر من ذلك بقوله تعالى (قد يعلم الله) اى الذى لا يخفى عليه خافية
(الذين يتسللون منكم) اى يخرجون قليلا قليلا اى يجعلون ذهابهم فى غاية الخفاء وتسلل فلان
تدرج وتدخل وقوله تعالى (لواذا) حال اى ملاوذين واللواذ والملاوذة التستر يقال لاذ فلان
بكذا اذا استتر به وقال ابن عباس اى يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم
المقام فى المسجد يوم الجمعة لاستماع خطبة النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يلوذون ببعض
أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار وقد للتحقيق وتسبب عن علمه تعالى قوله تعالى
(فليحذر) اى يوقع الحذر (الذين يخالفون عن أمره) اى يعرضون عن أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم وينصرفون عنه بغير اذنه وقال أبو بكر الرازى الضمير فى أمره لله لانه يليه
وقال الجلال المحلى اى الله ورسوله وكل صحيح فان مخالفة أمر أحدهما مخالفة أمر الآخر
(أن) اى لئلا (تصيبهم فتنة) قال مجاهد بلاء فى الدنيا وعن ابن عباس فتنة قتل وعن عطاء
زلازل وأهوال وعن جعفر بن محمد يسلط الله عليهم سلطانا جائرا (أو يصيبهم عذاب أليم) اى
وجيع فى الآخرة * (تنبيه) * الآية تدل على ان الامر للوجوب لان تارك المأمور مخالف
للامر ومخالف الامر يستحق العذاب ولا معنى للوجوب الا ذلك ولما أقام تعالى الادلة على
أنه نور السموات والارض وختم بالتحذير لكل مخالف أنتج ذلك أن له كل شئ فقال تعالى (ألا ان
لله ما فى السموات والارض) خلقا وملكا وعبيدا (فان قيل) ما فائدة ذكر عبيدا بعد ملكا
(أجيب) عنه انما ذكر لئلا يتوهم أن ما لما لا يعقل فقط ولما كانت أحوالهم من جملة ما هو له
وانها بخلقه قال تعالى (قد يعلم ما أنتم) اى أيها المكلفون (عليه) اى من الموافقة والمخالفة
والاخلاص والنفاق وانما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد وذلك أن قد اذا دخلت على المضارع
كانت بمعنى ربما فوافقت ربما فى خروجها الى معنى التكثير فى نحو قول بعضهم

فان تمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

ونحوه قول زهير

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله * ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى ان جميع ما فى السموات والارض مختص به تعالى فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين
وان كانوا يجتهدون فى سترها عن العيون واخفائها وقوله تعالى (ويوم) اى ويعلم يوم
(يرجعون اليه) فيه التفات عن الخطاب اى متى تكون أو ويوم يرجع المنافقون اليه للجزاء
(فينبئهم) أى فتسبب عن ذلك أنه يخبرهم (بما عملوا) أى من الخير والشر فيجازيهم عليه
(والله) اى الذى لا تخفى عليه خافية (بكل شئ) اى من أعمالهم وغيرها (عليم) عن عائشة رضى
الله تعالى عنها وعن أبيها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف

ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه أبو عبد الله في البيع في صحيحه وأما قول البيضاوي تبعا للكشاف من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي فهو حديث موضوع

سورة الفرقان مكية

الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الى رحيما فمدني وآيها سبع وسبعون آية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له الحجة البالغة (الرحمن) الذي عم الخلق بنعمه (الرحيم) الذي وسعت رحمته كل شيء (تبارك) قال الزجاج تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله وعن ابن عباس كان معناه جاء نا بكل بركة وخير وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا يستعمل الا لله تعالى ولا يتصرف فيه ثم وصف ذاته الشريفة بما يدل على ذلك بقوله تعالى (الذي نزل الفرقان) اي القرآن والفرقان مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل ولانه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الانزال ألا ترى قوله تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث (على عبده) أي محمد صلى الله عليه وسلم وأضافه الى نفسه اضافة تشريف وفي عود ضمير (ليكون) ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على الذي نزل أي ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا الثاني أنه يعود على الفرقان أي ليكون الفرقان نذيرا وأضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه في قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم قال ابن عادل وهو بعيد لان المنذر والنذير من صفات الفاعل المخوف ووصف القرآن به مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى الثالث أنه يعود على عبده اي ليكون عبده محمد صلى الله عليه وسلم (للعالمين نذيرا) اي وبشيرا وهذا أحسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه والضمير يعود على أقرب مذكور وللعالمين متعلق بنذيرا وانما قدم لاجل الفواصل ونذيرا بمعنى منذر أي مخوف ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الانذار كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابي ونذر * (تنبيه) * المراد بالعالمين قال البقاعي اي المكلفين كلهم من الجن والانس والملائكة اه ولكن في ارساله للملائكة خلاف بين العلماء فقد نقل الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع الاجماع على أنه لم يرسل اليهم وغيره صرح بأنه أرسل اليهم ومن حفظ حجة على من لم يحفظ (فان قيل) قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة فالمذكور عقيبه لا بد وأن يكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق ذكره بهذا الموضع (أجيب) بان الانذار يجري مجرى تأديب الوالد (١) كما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الوالد أكثر كان رجوع الخلق الى الله تعالى أكثر وكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة لانه تعالى لما وصف نفسه أن يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة وقوله تعالى (الذي له ملك السموات والارض) اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه وتعالى حال حدوثها وانه تعالى

(سورة الفرقان)

(قوله تبارك) هذه كلمة لا تستعمل الا لله بلفظ الماضي وذكرت في هذه

(١) قوله كما أنه الخ كذا في النسخ ولا يخفى ما فيه والذي يستفاد من أطرافه أن يقال فالوالد كلما بالغ والده في تأديبه كان رجوعه اليه أكثر وأتم لسعادته وكذلك الخلق كلما بالغ خالقهم في انذارهم كان رجوعهم اليه اكثر وأتم لسعادتهم الاخروية اه

هو المتصرف فيها كيف يشاء فلا انكار أن يرسل رسولا الى كل من فيها *(تنبيه)* يجوز في الذى لرفع نعتا الذى الاول أو بيانا أو بدلا أو خبرا لمبتدا محذوف والنصب على المدح وما بعده يدل على أنه من تمام الصلة فليس أجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول والثاني اذا جعلنا الثاني تابعا له (ولم يتخذ ولدا) اى هو الفرد أبدا ولا يصح أن يكون غيره تعالى معبودا ووارثا للملك عنه وهذا رد على النصارى (ولم يكن له شريك في الملك) اى هو المنفرد بالالوهية واذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه الا برحمته واحسانه وفيه رد على الوثنية القائلين بعبادة النجوم والاوثان * ولما نفى تعالى الشريك فكأن قائلا يقول ههنا أقوام يعترفون بنفي الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون بخلق أفعال أنفسهم فرد الله تعالى عليهم بقوله (وخلق كل شئ) اى من شأنه أن يخلق ومنه افعال العباد والخلق هنا بمعنى الاحداث اى احدث كل شئ احداثا مراعى فيه التقدير والتسوية (فقدره تقديرا) اى هيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى احداث الله خلقا لانه لا يحدث شيأ لحكمة الاعلى وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد من غير نظر الى وجه الاشتقاق فكأنه قيل وأوجد كل شئ فقدره تقديرا في ايجاده ولم يوجده متفاوتا ولو حمل خلق كل شئ على معناه الاصلى من التقدير لصار الكلام وقدر كل شئ فقدره فلم يصر له كبير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء الى أمد معلوم واختلف في عود الضمير في قوله تعالى (واتخذوا من دونه) اى الله تعالى اى غيره (آلهة) على ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين ثانيها انه يعود على من ادعى لله شريكا وولدا لدلالة قوله تعالى ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ثالثها انه يعود على المنذرين لدلالة نذيرا عليهم * ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والعزة والعلو أردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها أنها ليست خالقة للاشياء بقوله تعالى (لا يخلقون شيأ) والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد ومنها أنها مخلوقة بقوله تعالى (وهم يخلقون) والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا وغلب العقلاء على غيرهم لان الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام التى ينحتونها ويصورونها ومنها أنها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالى (ولا يملكون) اى لا يستطيعون (لانفسهم ضرا) اى دفعه (ولا نفعا) اى جلبه ومن كان كذلك فليس باله ومنها انها لا تقدر على موت ولا حياة ولا نشور بقوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة) اى اماتة لاحد ولا احياء لاحد (ولا نشورا) اى بعثا للاموات فيجب أن يكون المعبود قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح للالهية *(تنبيه)* احتج أهل السنة بقوله تعالى لا يخلقون شيأ على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لانه تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن

السورة في ثلاثة مواضع
تعظيما لله تعالى وخصت
مواضعها بذكرها العظم
بما بعدها الاول ذكر الفرقان

بعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها * ولما تكلم تعالى أولا على التوحيد وثانيا في الرد على عبدة غيره تكلم ثالثا في مسئلة النبوة وحكى شبه الكفار في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم * الشبهة الاولى قوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى مظهر والوصف الذى حملهم على هذا القول وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في اخفائه (ان) اى ما (هذا) اى القرآن (الا افك) اى كذب مصروف عن وجهه (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أى القرآن (قوم آخرون) اى من غير قومه وهم اليهود فانهم يلقون اليه أخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا يأخذ منهم فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (فقد جاؤا) اى قائلو هذه المقالة (ظلما) وهو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب (وزورا) اى بهتونسبة ما هو برىء منه اليه وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام * (تنبيه) * جاؤا وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه على اسقاط الخافض اى جاؤا بظلم * الشبهة الثانية قوله تعالى (وقالوا أساطير الاولين) أى ما سطره الاولون من أكاذيبهم جمع أسطورة بالضم كاحدوثة أو اسطار (اكتتبها) اى تطلب كتابتها له من ذلك القوم وأخذها والمعنى ان هذا القرآن ليس من الله تعالى انما هو مما سطره الاولون الاول كاحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من أهل الكتاب (فهى) اى فتسبب عن تكلفه ذلك أنها (تملى عليه) اى تقرأ عليه ليحفظها (بكرة) قبل أن تنتشر الناس (وأصيلا) اى عشيا حين يأوون الى مساكنهم أو دائما لتكلف حفظها بالانتساخ لانه أمى لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل أو مروأة كيف وهو يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم أكثر منه مالا وأعظم أعوانا ولا يقدرون على شئ منه (فان قيل) كيف قيل اكتتبها فهى تملى عليه وانما يقال أمليت عليه فهو يكتبها (اجيب) بوجهين أحدهما أراد اكتتابها وطلبه فهى تملى عليه الثانى انها كتبت له وهو أمى فهى تملى اى تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب وقرأ فهى قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها * ثم أمره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) اى دالا على بطلان ما قالوه ومهددا لهم (أنزله الذى يعلم السر) اى الغيب (فى السموات والارض) لانه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخبارا عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه أساطير الاولين مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما يبهتونه به وهو يجازيكم على ما علم منكم وعلم منه (فان قيل) كيف يطابق هذا قوله تعالى (انه كان) اى أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أجيب بأنه لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة الا القادر على العقوبة أو هو تنبيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا

وهو القرآن المشتمل على معانى جميع كتب والثانى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم رحمه الله عليه

ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل * الشبهة الثالثة قوله تعالى (وقالوا ما لهذا الرسول) أي ما لهذا الذي يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا ما لهذا الزاعم أنه رسول ونحوه قول فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون اي ان صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا (يأكل الطعام) أي كما نأكل (ويمشي) أي ويتردد (في الاسواق) لطلب المعاش كما نمشي فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة يعنون انه يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتعيش وكذلك كانوا يقولون له لست انت بملك لانك تأكل الطعام والملك لا يأكل ولان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه في الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته في التوراة ولم يكن صخابا في الاسواق وليس شيء من ذلك ينافي النبوة ولانه لم يدع أنه ملك من الملوك ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا الى اقتراح أن يكون انسانا معه ملك حتى يسانده في الانذار والتخويف فقالوا (لولا) أي هلا (أنزل اليه ملك) أي يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أي داعيا ثم نزلوا أيضا الى أنه ان لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا (أو يلقى اليه كنز) أي ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى المشي في الاسواق لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بان يكون رجلا له بستان فقالوا (أو تكون له جنة) أي بستان (يأكل منها) أي ان لم يلق اليه كنز فلا أقل أن يكون له بستان كالمياسير فيتعيش بريعه وقرأ حمزة والكسائي بالنون أي نأكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها والباقون بالياء وقوله تعالى (وقال الظالمون) وضع فيه الظاهر موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا (ان) اي ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أي مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن الحق * ولما أنهى تعالى ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله تعالى (انظر) أي يا أفضل الخلق (كيف ضربوا لك الامثال) أي بالمسحور والمحتاج الى ما ينفقه والى ملك يقوم معك بالامر (فضلوا) أي بذلك عن جميع طرق الهدى (فلا يستطيعون) أي في الحال ولا في المآل بسبب الضلال (سبيلا) أي سلوك سبيل من السبل الموصلة الى ما يستحق أن يقصد بل هم في مجاهل موحشة ومفاوز مهلكة * ولما أثبت انهم لا علم لهم ولا قدرة ولا يمن ولا بركة أثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذي يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى (تبارك) أي ثبت ثباتا مقترنا باليمن والبركة لاثبات الاهو (الذي ان شاء) فانه لا مكره له (جعل لك) أي في الدنيا (خيرا من ذلك) أي من الذي قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان وقوله تعالى (جنات) بدل من خيرا ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعني ثم وصفها بقوله تعالى (تجري من تحتها الانهار) أي تكون أرضها عيونا نابعة أي في أي موضع أريد منه اجراء نهر جرى فهي لا تزال ريا تغني صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجه في استمرارها الى سقي (ويجعل لك قصورا) أيضا وهي جمع قصر وهو المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هي البيوت المشيدة والعرب تسمي كل بيت مشيد قصرا ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومتنزها ويجوز أن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل جنات في الآخرة وقصورا في الدنيا ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ما أشار اليه في هذه الآية الشريفة في هذه الدنيا الفانية وأخره الى الآخرة

الله له فيه وروى لولاك
يا محمد ما خلقت الكائنات
والثالث ذكر البروج
والشمس والقمر والليل

الباقية وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ما شاء في ذلك في الدنيا فأباه روي أنه عليه الصلاة والسلام قال عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهبا جاءني ملك فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فأشار الى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا ويقول آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك أن يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما أدالك شيئا فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعها لي في الآخرة فنزل تبارك الذي ان شاء الآية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل وفيه وجهان أحدهما أنه مستأنف والثاني أنه معطوف على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز في جوابه الجزم والرفع كقوله

وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لا غائب مالي ولا حرم

والباقون بالجزم ويجوز في يجعل لك اذا أدغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع * ثم أضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (بل) أي لا يظنوا أنهم كذبوا بما جئت به لانهم لا يعتقدون فيك كذبا بل (كذبوا بالساعة) أي القيامة فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوي وظنوا أن الكرامة انما هي بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر والفكر ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل (وأعتدنا) أي والحال انا أعتدنا أي هيأنا بما لنا من العظمة (لمن كذب) من هؤلاء وغيرهم (بالساعة سعيرا) أي نارا شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق في قلوب من كذبوهم من الانبياء وأتباعهم وعن الحسن أن السعير اسم من أسماء جهنم *(تنبيه)* احتج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار وهي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية (اذا رأتهم من مكان بعيد) وهو أقصى ما تمكن رؤيتها منه وقال الكلبي والسدي من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة روي أنه صلى الله عليه وسلم قال من كذب علي متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها من عينين قال نعم ألم تسمع قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وقال البيضاوي تبعا للزمخشري اذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلاة والسلام لا تراءى ناراهما أي لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز انتهى وهذا تأويل للمعتزلة بناء منهم على ان الرؤية مشروطة بالحياة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها في قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا) أي غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) أي صوتا شديدا اذ لا امتناع من انها تكون رائية مغتاظة زافرة وأشار البيضاوي الى ذلك بعد ما ذكر بقوله هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية

والنواهد ولولاها ما وجد في الارض حيوان ولا نبات (قوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا) هان قلت الخلق

أمكن ان يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقال الجلال المحلي وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى قال عبد الله بن عمر تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الاخر لوجهه وقيل اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار للانتقام منهم فنسب اليها على حذف مضاف (واذا ألقوا) أي طرحوا طرح اهانة (منها) أي النار (مكانا) ثم وصفه تعالى بقوله تعالى (ضيقا) زيادة في فظاعتها قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح (مقرنين) اى مصفدين زيادة قد قرنت أيديهم الى أعناقهم من الاغلال وقد قيل الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله تعالى الجنة بان عرضها السموات والارض وجاء في الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله تعالى على أهل النار أنواع الضيق والارهاق حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا كما روي عن ابن عباس أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهو منقول أيضا عن ابن عمر وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة في أرجلهم * (تنبيه) * مكانا منصوب على الظرف ومنها في محل نصب على الحال من مكانا لانه في الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول ألقوا وقرأ ابن كثير ضيقا بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (دعوا هنالك) اى في ذلك المكان البغيض البعيد عن الرفق (ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك وزمانك لانه لا منادم لهم غيره وليس يحضر أحدا منهم سواه قال البغوي وفي الحديث ان أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم (لا تدعوا اليوم) اى أيها الكفار (ثبورا واحدا) لانكم لا تموتون اذا حلت بكم أسباب العذاب والهلاك (وادعوا ثبورا كثيرا) أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة أو ادعوا أدعية كثيرة وقال الكلبي نزل هذا كله في أبي جهل والكفار الذين ذكروا الملك الشبه * ولما وصف تعالى العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء البعداء البغضاء (أذلك) اى المذكور من الوعيد وصفة النار (خير أم جنة الخلد) أي الاقامة الدائمة (التي وعد المتقون) اى وعدها الله تعالى لهم فالراجع الى الموصول وهو هاء وعدها محذوف (فان قيل) كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول القائل السكر أحلى أم الصبر (أجيب) بأنه يحسن في معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ويقول له هذا خير أم ذلك قال أبو مسلم جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (فان قيل) الجنة اسم لدار الخلد فأي فائدة في قوله تعالى جنة الخلد (أجيب) بأن الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ وهذا من هذا البيان أو للتمييز عن جنات الدنيا ثم حقق تعالى أمرها تأكيدا للبشارة بقوله (كانت لهم جزاء) أي ثوابا على أعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه (ومصيرا) أي مرجعا (فان قيل) ان الجنة

ومنه قوله واذ
هو التقدير
تخلق من الطين فكيف
جمع بينهما (قلت) الخلق
من الله هو الايجاد فصح

ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال تعالى كانت (أجيب) من وجهين الاول ان ما وعده الله تعالى فهو فى تحققه كالواقع الثانى انه كان مكتوبا فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم (فان قيل) لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير (اجيب) بأن ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب ومكانه كما قال تعالى بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لان النعيم لا يتم للمتنعم الا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة والا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء * (تنبيه) * المتقى يشمل من اتقى الكفر وان لم يتق المعاصى وان كان غيره أكمل * ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى (لهم فيها) أى الجنة (ما يشاؤن) من كل ما تشتهيه أنفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم وفيها ما تشتهى الانفس (فان قيل) أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك فى قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن (اجيب) بأن الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب أهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم وقوله تعالى (خالدين) منصوب على الحال اما من فاعل يشاؤن واما من فاعل لهم لوقوعه خبرا والعائد على ما محذوف أى لهم فيها الذى يشاؤنه حال كونهم خالدين وقوله تعالى (كان على ربك) أى وعدهم ما ذكر (وعدا) يدل على أن الجنة جعلت لهم بحكم الوعد والتفضل لا بحكم الاستحقاق وقوله تعالى (مسؤلا) أى مطلوبا اختلف فى السائل فالاكثر على ان المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه بها احدى ثلاث اما ان يعجل له دعوته واما أن يدخرها له فى الآخرة واما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله تعالى أكثر وروى انه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول عبدى فيقول لبيك يارب فيقول انى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى اما انك لم تدعنى بدعوة الا استجبت لك أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ودعوتنى فى حاجة أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى فى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها فيقول نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن الا بين له اما ان يكون عجل له فى الدنيا واما أن يكون ادخر له فى الآخرة فيقول المؤمن فى هذا المقام ياليته لم يكن عجل له شئ من دعائه وروى لا تعجلوا فى الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء أحد وروى ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وروى يستجاب لاحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى وروى لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لى

قوله كقوله تعالى الخ الكاف للتنظير لا للتمثيل اه مصححه

الجمع بينه وبين التقدير ولو سلم انه التقدير لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظا كما فى قوله تعالى أولئك

فيستعسر أي يثقل عنده ذلك ويدع الدعاء فليدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال محمد بن كعب القرظي الطلب من الملائكة للمؤمنين سألوا ربهم للمؤمنين بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم وقيل ان المكلفين سألوها بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعة الله كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتي كلام عندها وخطاب

*ولما ذكر تعالى حالهم في نفسهم أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى (ويوم) أي واذكر لهم يوم (نحشرهم) أي المشركين وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون بالنون واختلف في المراد بقوله تعالى (وما يعبدون من دون الله) أي غيره فقال الاكثرون من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبي من الاصنام فقيل لهم كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى (فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) أي أوقعتموهم في الضلال بامركم اياهم بعبادتكم (أم هم ضلوا السبيل) أي طريق الحق بانفسهم فاجابوا بوجهين أحدهما انه تعالى يخلق الحياة فيها ويخاطبها ثانيهما أن يكون ذلك بالكلام النفساني لا بالقول اللساني بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم في تسبيح الجماد وكلام الايدي والارجل ويجوز أن يكون السؤال عاما لهم جميعا (فان قيل) كيف صح استعمال ما في العقلاء (أجيب) على الاول بأنه أريد به الوصف كانه قيل ومعبوديهم الا ترى انك تقول اذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني أطويل أم قصير فقيه أم طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد وأما على القول الثاني فواضح وأما على القول الثالث فغلب غير العاقل لغلبة عباده أو تحقيرا (فان قيل) ما فائدة هذا السؤال مع ان الله تعالى كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه (أجيب) بان هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وقرأ ابن عامر فنقول بالنون والباقون بالياء وقرأ أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن كثير بتسهيل الثانية ولا ألف بينها وبين الاولى ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية ألفا وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون بتحقيقهما وقرأ هؤلاء ام هم نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بابدال الهمزة من أم ياء خالصة والباقون بتحقيقها (قالوا سبحانك) أي تنزيها لك عما لا يليق بك أو تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة أو أنبياء معصومون فما أبعدهم عن الضلال الذي هو مختص بابليس وجنوده أو جمادات وهي لا تقدر على شيء أو اشعارا بانهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم اضلال عبيده (ما كان ينبغي) أي يستقيم (لنا أن نتخذ) أي نتكلف أن نأخذ باختيارنا بغير ارادة منك (من دونك) أي غيرك (من أولياء) للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يستقيم لنا أن نأمر بعبادتنا (فان قيل) ما فائدة انتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل (أجيب) بان السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه *(تنبيه)* من أولياء مفعول أول ومن زائدة لتأكيد النفي وما قبله المفعول الثاني ولما تضمن كلامهم انا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال

عليهم صلوات من ربهم ورحمة (قوله واتخذوا من دونه آلهة) قاله هنا

حسن الاستدراك بقولهم (ولكن متعتهم وآباءهم) وهو أن ذكروا سببه أي أنعمت عليهم
وعلى آبائهم من قبلهم بأنواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا فجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم
عكس القضية (حتى نسوا الذكر) أي تركوا الايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه
(وكانوا) أي في علمك بما قضيت عليهم في الازل (قوما بورا) اي هلكى وهو مصدر يوصف به
ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع او جمع بائر كعائذ وعوذ وقوله (فقد كذبوكم) فيه التفات الى
العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول والمعنى فقد كذب المعبودون العابدين (بما)
اي بسبب ما (تقولون) اي ايها العابدون من انهم يستحقون العبادة وانهم يشفعون لكم
وانهم اضلوكم ولما تسبب عن تخليهم عن عبدتهم انه لا نفع في ايديهم ولا ضر قال تعالى (فما
يستطيعون) اي المعبودون (صرفا) اي لشئ من الاشياء عن احد من الناس لا انتم ولا
غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا معاداة (ولا نصرا) اي منعا لكم من الله
تعالى ان اراد بكم سوءا وهذا نظير قوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرأ
حفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (ومن يظلم) أي بالشرك (منكم) اي
ايها المكلفون (نذقه) اي بما لنا من العظمة (عذابا كبيرا) اي شديدا في الدنيا بالقتل
او الاسر او ضرب الجزية وفي الآخرة بنار جهنم * روى الضحاك عن ابن عباس انه قال لما
عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ما لهذا الرسول الى آخرها انزل الله
تعالى (وما ارسلنا قبلك) اي يا أشرف الخلق احدا (من المرسلين الا) وحالهم (انهم ليأكلون
الطعام) كما تأكل ويأكل غيرك من الآدميين (ويمشون في الاسواق) كما تفعل فهذه عادة
مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع من أخبارهم وهذا تأكيد من الله
تعالى لانهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا قد
قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق كما قال تعالى في موضع آخر ما يقال
لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك (وجعلنا) أي بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة (بعضكم) أي
ايها الناس (لبعض فتنة) أي بلية والمعنى انه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وبمناصبتهم
العداوة لهم وأقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وجعل الغنى فتنة للفقير والصحيح فتنة
للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثاني من كل مالي لا أكون كالاول وقال ابن عباس
جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم فتتبعوا الهدى
أم لا وقال مقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاصي بن وائل والنضر بن
الحرث وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم
قد أسلموا قبلهم فقالوا أنسلم فنكون مثل هؤلاء وقيل جعلناك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا
صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا فتكون ممزوجة بالدنيا وانما
بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقوله تعالى
(أتصبرون) أي على ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام بمعنى الامر أي اصبروا (وكان ربك)
أي المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى أحد سواك لا سيما بجعلك نبيا عبدا (بصيرا) أي بكل شئ
فهو عالم بالانسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علما لم يكن عنده ولكن يعلم ذلك شهادة كما يعلم علم

بالضمير وقاله في مريم وليس بلفظ الله موافقة لما قبله في المواضع الثلاثة

قوله وبمناصبتهم الخ في بعض النسخ وبمناصبتهم لهم العداوة اه مصحح

الغيب ولتقوم عليهم بذلك الحجة فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فان صبرك عليها
سعادتك وفوزك فى الدارين روى انه صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم الى من فضل
عليه فى المال والجسم فلينظر الى من هو دونه فى المال والجسم وروى انظروا الى من هو أسفل
منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم * الشبهة الرابعة
لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون
البعث قال الفراء الرجاء فى الخوف لغة تهامة ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا
أى لا تخافون لله عظمة (لولا) أى هلا ولم لا (أنزل) أى على أى وجه كان من أى منزل كان
(علينا الملائكة) كما نزلت عليه فيما يزعم وكانوا رسلا الينا وتخبرنا بصدقه (أو نرى ربنا)
بما له علينا من الاحسان وبما لنا نحن من العظمة بالقوة بالاموال وغيرها فيأمرنا بما يريد من
غير حاجة الى واسطة قال الله ردا عليهم (لقد استكبروا) أى تعظموا (فى) شأن (أنفسهم) أى
أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد فى قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان فى
صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه (وعتوا) أى تجاوزوا الحد فى الظلم (عتوا كبيرا) أى بالغا أقصى
مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم الخبيثة ما سدت
دونه مطامع النفوس القدسية واللام جواب قسم محذوف وفى فحوى هذا الفعل دليل على
التعجب من غير لفظ تعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم * ثم بين تعالى
لهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أى يوم القيامة وقال ابن
عباس عند الموت (لا بشرى) اى من البشر أصلا (يومئذ) وقوله تعالى (للمجرمين) اى
الكافرين اما ظاهر فى موضع ضمير واما لانه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم
البشرى بالجنة * (تنبيه) * فى نصب يوم أوجه أحدها أنه منصوب باضمار فعل يدل عليه قوله
تعالى لا بشرى أى يمنعون البشرى يوم يرون الثانى باذكر فيكون مفعولا به الثالث يعذبون
مقدرا ولا يجوز أن يعمل فيه نفس البشرى لوجهين أحدهما أنها مصدر والمصدر
لا يعمل فيما قبله والثانى أنها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله (ويقولون) أى
فى ذلك الوقت (حجرا محجورا) عطف على المدلول ويقول الكفرة لهم حينئذ هذه الكلمة
استعاذة وطلبا من الله تعالى أن يمنع لقاء الملائكة عنهم مع انهم كانوا يطلبون نزول
الملائكة ويقترحونه وهم اذا رأوهم عند الموت او يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم
لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة
النازلة أو نحو ذلك حجرا محجورا يضعونها موضع الاستعاذة فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة
قال سيبويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان
المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه عنه فلا يلحقه وكأن المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا
ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة الا من قال لا اله
الا الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم حرام محرم عليكم أن تكون
لكم البشرى * ولما كان المريد لابطال شئ لشدة كراهته له لا يقنع فى ابطاله بغيره بل يأتيه
بنفسه فيبطله عبر تعالى بقوله (وقدمنا) أى وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة فى ذلك

(قوله ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) قدم الضر على النفع

اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا أم في الآخرة (إلى ما عملوا من عمل) أي من مكارم الأخلاق من الجود وصلة الرحم وإغاثة الملهوف ونحو ذلك (فجعلناه) لكونه لم يؤسس على الإيمان وإنما هو للهوى والشيطان (هباء) وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار (منثورا) أي مفرقا أي مثله في عدم النفع إذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ولما بين حال أضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) أي يوم إذ يرون الملائكة (خير مستقرا) من الكفار (وأحسن مقيلا) منهم والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقال ابن عباس في هذه الآية الحساب في ذلك اليوم في أوله وقال يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس *(تنبيه)* في أفعل هنا قولان أحدهما أنها على بابها من التفضيل والمعنى أن المؤمنين خير في الآخرة مستقرا من مستقر الكفار وأحسن مقيلا من مقيلهم ولو فرض أن يكون لهم ذلك أو على أنهم خير في الآخرة منهم في الدنيا والثاني أن يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ذكروا في تفسير الشغل افتضاض الأبكار وإنما سمي مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلا مع أنه لا نوم في الجنة على طريق التشبيه * ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون قوله تعالى (ويوم تشقق السماء) أي كل سماء (بالغمام) أي كما تشقق الأرض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم *(تنبيه)* في هذه الباء ثلاثة أوجه أحدها أنها سببية أي بسبب الغمام يعني بسبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به كأنه الذي تتشقق به السماء الثاني أنها للحال أي ملتبسة بالغمام الثالث أنها بمعنى عن أي عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الأرض عنهم سراعا والباء وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس وبالقوس وقرأ أبو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم أشار تعالى إلى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى (ونزل الملائكة) أي بالتدريج بأمر حتم لا يمكنهم التخلف عنه بأمر من الأمور وغيره من الذين طلبوا أن يروهم في حال واحد (تنزيلا) في أيديهم صحائف الأعمال قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل سماء الدنيا وأهل الأرض جنا وإنسا ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يدورون على السماء التي قبلها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (فإن قيل) ثبت أن نسبة الأرض إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف تسع الأرض هؤلاء (أجيب) بعض المفسرين بأن الملائكة تكون في الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ويجوز أن الله تعالى

لمناسبة ما بعده من تقدم الموت على الحياة (قوله كانت لهم جزاء ومصيرا)

يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرأ ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاى ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة والزاى مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ثم بين تعالى ان ذلك اليوم لا يقضى فيه غيره بقوله تعالى (الملك يومئذ) اى اذ تشقق السماء بالغمام ثم وصف الملك بقوله تعالى (الحق) اى الثابت ثباتا لا يمكن زواله ثم أخبر عنه بقوله تعالى (للرحمن) اى العام الرحمة فى الدارين ومن عموم رحمته وحقيقة ملكه أن يسر قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة (فان قيل) مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة فى قوله تعالى يومئذ (أجيب) بان فى ذلك اليوم لا مالك له سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام (وكان) اى ذلك اليوم الذى تظهر فيه الملائكة الذى طلب الكفار رؤيتهم له (يوما على الكافرين عسيرا) اى شديد العسر والاستعار *(تنبيه)* هذا الخطاب يدل على انه لا يكون على المؤمنين عسيرا جاء فى الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم) اى المشرك المفرط باسفه لما يرى فيه من الاهوال معمول لمحذوف أو معطوف على يوم تشقق وأل فى الظالم تحتمل العهد والجنس لكن قال ابن عباس أراد بالظالم عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا اليه جيرانه وأشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس ودعا النبى صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال النبى صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فاكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لابى بن خلف فلما أتى ابى بن خلف قال له يا عقبة صبأت فقال لا والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فابى ان يأكل طعامى الا ان أشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له فطعم والشهادة ليست فى نفسى فقال ما انا بالذى أرضى منك أبدا الا أن تأتيه وتبصق فى وجهه وتطأ قفاه وتلطم وجهه وعينيه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا أمر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الانصارى وأما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد طعنه فى المبارزة فرجع الى مكة ومات قال الضحاك لما بصق عقبة فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم عاد بصاقه فى وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فيه حتى مات وقال الشعبى كان عقبة خليل أمية فاسلم عقبة فقال أمية وجهى من وجهك حرام ان بايعت محمدا فكفر وارتد فانزل الله تعالى ويوم يعض الظالم اى عقبة (على يديه) قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال المفسرون هذه اللفظة للتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه وهو لا يشعر حال كونه مع هذا الفعل (يقول) اى يجدد فى كل لحظة قوله (يا ليتنى اتخذت) اى أرغمت نفسى وكلفتها ان آخذ فى الدنيا (مع الرسول) اى محمد صلى

* ان قلت كيف قال فى وصف الجنة ذلك مع انها لم تكن حينئذ جزاء ومصيرا

الله عليه وسلم (سبيلا) اى طريقا الى الهدى * ولما تأسف على مجانبة الرسول ندم على مصادقة غيره بقوله (يا ويلتى) اى يا هلاكى الذى ليس لى منادم غيره لانه ليس بحضرتى سواه (ليتنى لم أتخذ فلانا) اى أبيا (خليلا) اى صديقا أوافقه فى أعماله لما عاينت من سوء عاقبتها فكنى عن اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم عليه لا محالة فجعله كناية عنه * وقرأ أبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص وادغمها الباقون ثم استأنف قوله الذى يتوقع كل سامع أن يقوله (لقد) اى والله لقد (أضلنى عن الذكر) اى صدنى عن طريق القرآن الذى لا ذكر فى الحقيقة غيره وصرفنى عنه والجملة فى موضع العلة لما قبلها (بعد اذ جاءنى) ولم يكن لى منه مانع يردنى عن الايمان به وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال والباقون بالادغام وقوله تعالى (وكان الشيطان) اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان أو الى كل من كان سببا للضلال من عتاة الجن والانس (للانسان خذولا) اى شديد الخذلان يورده ثم يسلمه الى أكره ما يكون لا ينصره ولو أراد ما استطاع بل هو فى شر من ذلك لان عليه اثمه فى نفسه ومثل اثم من أضله *(تنبيه)* حكم هذه الآية عام فى كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما أن تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقى * ولما ذكر تعالى أقوال الكفار ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقال الرسول يا رب) اى أيها المحسن الى بأنواع الاحسان وعبر بأداة البعد هضما لنفسه ومبالغة فى التضرع (ان قومى) اى قريشا الذين لهم قوة ومنعة (اتخذوا هذا القرآن) اى المقتضى للاجتماع عليه والمبادرة اليه (مهجورا) اى متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يتقبلوه وأعرضوا عن استماعه *(تنبيه)* أشار بصيغة الافتعال الى أنهم عالجوا أنفسهم فى تركه لما يشاهدون من حسن نظمه ويذوقون من لذيذ معانيه ورائق أساليبه ولطيف عجائبه وبديع غرائبه وأكثر المفسرين على أن هذا القول وقع من النبى صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أنه يقوله فى الآخرة كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية والاول أولى لان قوله تعالى (وكذلك) اى كما جعلنا لك عدوا من مشركى قومك (جعلنا لكل نبى) من الانبياء قبلك رفعة لدرجاتهم (عدوا من المجرمين) اى من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يقول له فاصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع القول منه (وكفى بربك) اى المحسن اليك (هاديا) اى يهدى بك من قضى بسعادته (ونصيرا) اى ينصرك على من حكم بشقاوته *(تنبيه)* احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبى عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر (فان قيل) قوله تعالى يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا فكان المقصود من هذا انزال العذاب فكذلك

(قلت) انما قال ذلك لان ما وعد الله به نوحا تحققه كما قد كان أوانه كذلك

ماهنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (أجيب) بأن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا لم يدع عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا كان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا الشبهة الخامسة لمنكري النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) اي الذين غطوا عداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته من أن القرآن كلام الله تعالى لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا (لولا) اي هلا (نزل عليه القرآن) اي أنزل كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قولهم (جملة) وأكدوا بقولهم (واحدة) اي من أوله الى آخره كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود لتحقق أنه من عند الله تعالى ويزيل عنا ما نتوهمه من أنه الذي يرتبه قليلا قليلا وهذا الاعتراض في غاية السقوط لان الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقا مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار اليه بقوله تعالى (كذلك) اي أنزلناه شيأ فشيأ على هذا الوجه العظيم الذي أنكروه (لنثبت به فؤادك) اي قلبك فنعيه ونحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيأ فشيأ وجزأ عقب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزله الله عليه منجما في عشرين سنة وقيل في ثلاث وعشرين سنة وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولان بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفرقا (فان قيل) ذا في كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذي تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر كذلك بانزاله مفرقا (أجيب) بأن الاشارة الى الانزال مفرقا لا الى جملة والدليل على فساد هذا الاعتراض أيضا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من أقصر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المحاربة ثم قالوا هلا أنزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كأنه قال تعالى كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلا ومعنى ترتيله قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين في تؤدة وتثبت وقال السدي فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه في اثر بعض وقال الحسن تفريقا آية بعد آية ونعمة عقب نعمة ويجوز أن يكون المعنى وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا اي اقرأه بترسل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها في صفة قراءته لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها وقيل هو أن نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ولم نفرقه في مدة متقاربة ولما كان التقدير فبطل ما أتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه (ولا يأتونك) اي يا أشرف الخلق اي المشركون (بمثل) اي باعتراض في ابطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون في تحسينه وتحبيبه وتدقيقه حتى يصير عندهم في غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى (الا جئناك) في جوابه (بالحق) اي الذي لا محيد عنه فيزهق ما أتوا به لبطلانه فيمحى ما يوردون من الشبه

اللوح المحفوظ الى الجنة جزؤهم ومصيرهم (قوله

مثلا وهي ما يدفع به الشبهة (وأحسن) أي من مثلهم (تفسيرا) أي بيانا وتفصيلا * ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى إليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن نعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته * ثم بين تعالى حال هؤلاء المعاندين في الآخرة بقوله تعالى (الذين) أي هم الذين (يحشرون) أي يجمعون قهرا ماشين مقلوبين (على وجوههم) مسحوبين (إلى جهنم) أي كأنهم لم ينظروا في الدنيا بعين الإنصاف فإن الآخرة مرآة الدنيا فمهما عمل هنا رآه هناك كما أن الدنيا مزرعة الآخرة فمهما عمل فيها حصد ثمره هناك روى البخاري أن رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة وروى البيهقي يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الوجوه وصنف على الأقدام * ولما وصف الله تعالى المتعنتين في أمر القرآن بهذا الوصف استأنف الإخبار عنهم بقوله تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء (شر) أي شر الخلق (مكانا) هو جهنم (وأضل سبيلا) أي أخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم * ولما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ذكر ذلك في معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم ذكر قصص جماعة من الأنبياء وعرفه تكذيب أممهم بأنه تسلية * القصة الأولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) أي بما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) أي معينا (فإن قيل) كونه وزيرا كالمنافي لكونه شريكا له في النبوة والرسالة (أجيب) بأنه لا منافاة بين النبوة والرسالة والوزارة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء متعددون ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضا (تنبيه) هرون بدل أو بيان أو منصوب على القطع ووزيرا مفعول ثان وقيل حال والمفعول الثاني معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام قوله تعالى (فقلنا اذهبا إلى القوم) أي الذين فيهم قوة وقدرة على ما يحاولونه وهم القبط فرعون وقومه (الذين كذبوا بآياتنا) فذهبا إليهم بالرسالة فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) أي أهلكناهم إهلاكا أي فأنت يا محمد لست أول من كذب من الرسل فلك أسوة بمن قبلك (فإن قيل) الفاء للتعقيب والإهلاك لم يحصل عقيب بعث موسى وهرون إليهم بل بعده بمدة مديدة (أجيب) بأن فاء التعقيب محمولة هنا على الحكم بالإهلاك لا على الوقوع أو على أنه على إرادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها أي أولها وآخرها لأنهما المقصودان من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم * (تنبيه) * قوله تعالى كذبوا بآياتنا إن حملنا تكذيب الآيات على الآيات الإلهية فهو ظاهر وإن حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وإن كان للماضي فالمراد به المستقبل * القصة الثانية قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وقوم) أي ودمرنا قوم (نوح لما كذبوا الرسل) كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالدعوة لأن

أرأيت من اتخذ إلهه هواه) * إن قلت لم أخر

المعجزات هي البرهان على صدقهم وهي متساوية الاقدام في كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب بشيء منها تكذيب للجميع أولم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل يقال له برهام قد مهد لهم ذلك وقرره في عقولهم ولانهم علاوا تكذيبهم بانه من البشر فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر * ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى (أغرقناهم) قال الكلبي أمطرنا عليهم السماء اربعين يوما واخرج ماء الارض ايضا تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا (وجعلناهم) اى قوم نوح في ذلك (للناس آية) اى لمن بعدهم عبرة يعتبر كل من سلك طريقهم (وأعتدنا) اى هيأنا في الآخرة (للظالمين) اى للكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى اظهر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (عذابا أليما) اى مؤلما سوى ما يحل بهم في الدنيا * القصة الثالثة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وعادا) اى ودمرنا عادا قوم هود بالريح * القصة الرابعة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وثمودا) اى ودمرنا ثمودا قوم صالح بالصيحة * القصة الخامسة المذكورة في قوله تعالى (وأصحاب الرس) اى البئر التي هي غير مطوية اى مبنية قال ابن جرير والرس في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر اى ودمرناهم بالخسف واختلف في نبيهم فقيل شعيب وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم فهلكوا جميعا وقال الكلبي الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فاهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة وقيل الرس الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل أصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ وقيل هو بتاء فوقية فخاء معجمة أو مهملة وبياء تحتية وجيم وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فاصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فاهلكوا (وقرونا) اى ودمرنا قرونا (بين ذلك) اى الامر العظيم المذكور وهو بين كل أمتين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود ثم قال الله تعالى (كثيرا) ولا يعلمها الا الله كما يقول فيه سبحانه وتعالى انه كثير وأسند البغوي في تفسير أمة وسطا في البقرة عن أبي سعيد الخدري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة العصر فما ترك شيئا الى يوم القيامة الا ذكره في مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل واطراف الحيطان قال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا الا وان هذه الامة توفي سبعين أمة هي آخرها واكرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتاسية وبيانا لشريف صفته بالعفو عن أمته (وكلا) اى من هذه الامم (ضربنا) اى بما لنا من العظمة (له الامثال) حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل (وكلا تبرنا تتبيرا) اى أهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا تكسيرا وقال الزجاج كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته (ولقد أتوا) اى هؤلاء المكذبون من قومك (على القرية التي

هو اه مع انه المفعول الاول (ذات) للعناية بتقديم الاول

أمطرت) أي وقع إمطارها ممن لا يقدر على الإمطار سواه بالحجارة ولذا قال تعالى (مطر السوء) مصدر ساء وهي قرى قوم لوط قال البغوي كانت خمس قرى فأهلك الله تعالى أربعا منها لعملهم الفاحشة ويختصر واحدة منهم وهي صغر وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث (فان قيل) لم عبر تعالى بالقرية وهي قرى (أجيب) بأنه تعالى قال ذلك تحقيرا لشأنها في جنب قدرته تعالى وإهانة لمن يريد عذابه ولاشتراكهم على الفاحشة جميعهم حتى كأنهم شيء واحد وقوله تعالى (أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون) أي لا يخافون (نشورا) أي بعثا بعد الموت لأنه استقر في أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن منهم ذلك تمكنا لا ينفع معه الاعتبار إلا من شاء الله (وإذا رأوك) أي مع ما يعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول (إن) أي ما (يتخذونك إلا هزوا) أي مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر إشارة إلى مبالغتهم في الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون (أهذا الذي بعث الله رسولا) أي في دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة وقولهم (إن) مخففة من الثقيلة أي إنه (كاد ليضلنا) أي يصرفنا (عن آلهتنا) أي عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يورد مما سبق إلى الذهن أنها حجج ومعجزات (لولا أن صبرنا) أي عالجنا من الاجتماع والتعاضد (عليها) أي على التمسك بعبادتها قال الله تعالى (وسوف يعلمون) أي في حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وإن طالت مدة الإمهال في التمكين (حين يرون العذاب) عيانا في الآخرة (من أضل سبيلا) أي أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون * ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى متعجبا من حالهم (أرأيت) أي أخبرني (من اتخذ إلهه هواه) أي أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا ينظر دليلا (فان قيل) لم أخر هواه والأصل قولك اتخذ الهوى إلها (أجيب) بأنه ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق * ولما كان لا يقدر على صرف الهوى إلا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) أي حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك (أم تحسب أن أكثرهم) أي هؤلاء المدعوين (يسمعون) أي سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم (أو يعقلون) أي كالبهائم ما يرون وإن لم يكن لهم سمع حتى تطمع في رجوعهم باختيارهم من غير قسر (فان قيل) إنه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث إليهم الرسول فإن من شرط التكليف العقل (أجيب) بأنه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيئا بل المراد أنهم لم ينتفعوا بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم إنما أنت أعمى وأصم (فان قيل) لم خص الأكثر بذلك دون الكل (أجيب) بأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق تكبرا استكبارا وخوفا على الرياسة * ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفي استأنف ما أفهمه بقوله تعالى (إن) أي ما (هم إلا كالأنعام) أي في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات (بل هم أضل) أي منها (سبيلا) لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها

قوله ويختصر الخ كذا في النسخ التي بايدينا والصواب ونجت واحدة منها كما يدل عليه كلام الجمل اه مصحح

(قوله كقولك علمت فاضلا زيدا) انما اتى به بالدقة مثلا ذكر الصفة مع ان الموصوف مؤنث نظرا

وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو الشرع الهنى والعذب الروى * ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقهم ذكر أنواعا من الدلائل على وجود الصانع أولها الاستدلال بالنظر الى حال الظل مخاطبا رأس المخلصين الناظرين هذا النظر حثا لاهل وده على مثل ذلك بقوله تعالى (ألم تر) اى تنظر (الى ربك) اى الى صنعه وقدرته (كيف مد الظل) وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس جعله ممدودا لانه ظل لا شمس معه كما قال تعالى فى ظل الجنة وظل ممدود اذ لم يكن معه شمس وان كان بينهما فرق وهو الليل لان ظل الارض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الارض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما حجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ اسماعهم (ولو شاء لجعله) اى الظل (ساكنا) اى دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقا باصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركا كما يسوق الشمس له وقال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفىء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال سمى فيأ لانه فاء من جانب المشرق الى جانب المغرب (ثم جعلنا الشمس عليه) اى الظل (دليلا) اى ان الناس يستدلون بالشمس وأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا فى مكان أو زائلا ومتسعا أو متقلصا فلولم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) اى الظل (الينا) اى الى الجهة التى أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله الى جهة غيرها والقبض جمع المنبسط من الشىء ومعناه ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت قبض الله الظل (قبضا يسيرا) اى على مهل وفى هذا القبض اليسير شيأ بعد شىء من المنافع ما لا يعد ولا يحصى ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا وقيل المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الظلال وقوله تعالى يسيرا كقوله تعالى حشر علينا يسير (فان قيل) ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها (أجيب) بان موقعها بيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثانى أعظم من الاول والثالث أعظم منهما تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت * ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو النوع الثانى قال تعالى مصرحا بهما (وهو) اى ربك المحسن اليك وحده (الذى جعل) دالا على الحق واظهارا للنعمة على الخلق (لكم الليل) اى الذى تكامل بمد الظل (لباسا) اى ساترا للاشياء شبه ظلامه باللباس فى ستره (والنوم سباتا) اى راحة للابدان بقطع المشاغل وهو عبارة عن كونه موتا أصغر طاويا لما كان من الاحساس قاطعا لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لاهل البصائر قال البغوى وغيره وأصل السبت القطع وفى جعله تعالى ذلك من الفوائد الدينية والدنيوية ما لا يعد ولا يحصى وكذا فى قوله تعالى (وجعل) اى وحده (النهار نشورا) اى

الى معنى البلدة وهو المكان
لا الى لفظها والسر فيه
تخفيف اللفظ وتقدم فى

منشورا فيه لابتغاء الرزق وغيره وفى ذلك اشارة الى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت والنشور ويحكى ان لقمان قال لابنه يابنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر * ثم ذكر النوع الثالث بقوله تعالى (وهو) اى وحده (الذى أرسل الرياح) وقرأه ابن كثير بالافراد لارادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا وغير ذلك ويسن الدعاء عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه أبوداود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى (نشرا) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين اى ناشرات للسحاب وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشور بمعنى مبشر وقرأه حمزة والكسائى بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به (بين يدى رحمته) اى قدام المطر ولما كان الماء سببا عما تحمله الريح من السحاب أتبعه بقوله تعالى (وأنزلنا) اى بما لنا من العظمة (من السماء) اى من السحاب أو الجرم المعهود (ماء) ثم أبدل منه بيانا للنعمة به فقال تعالى (طهورا) اى طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى فى آية أخرى ليطهركم به فهو اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به والسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به قال صلى الله عليه وسلم فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أراد به المطهر فالماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والخبث وذهب بعض الائمة الى أن الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل ورد بانه لو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعض منهم الى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر حتى جوز الوضوء بالماء الذى يتوضأ به مرة بعد أخرى ورد بان فعولا يأتى اسما للآلة كسحور لما يتسحر به كما مر فيجوز أن يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعا بين الادلة ثبوت ذلك لجنس الماء أو فى المحل الذى كان يمر عليه فانه يطهر كل جزء منه فان الصحابة رضى الله عنهم لم يجمعوا الماء فى أسفارهم القليلة الماء بل عدلوا عنه الى التيمم (لنحيي به) اى بالماء (بلدة ميتا) اى بالنبات وذكر ميتا باعتبار المكان (ونسقيه) اى بالماء وهو من أسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال ابن القطاع سقيتك شرابا وأسقيتك والله تعالى أسقى عباده وأرضه (مما خلقنا أنعاما) أى ابلا وبقرا وغنما (وأناسى كثيرا) جمع انسان وأصله أناسين فابدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء أو جمع انسى وقدم تعالى النبات لان به حياة الانعام والانعام على الانسان لان بها كمال حياته (فان قيل) لم خص الانعام من بين ما خلق من الحيوان (أجيب) بان الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام ولانها قنية الاناسى وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقى أنعامهم كالانعام بسقيهم (فان قيل) لم نكر الانعام والاناسى ووصفها بالكثرة (أجيب) بان جل الناس منيخون بالقرب من الاودية والانهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشون الا بما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى لنحيي به

الآية احياء الارض وفى الانعام على سقى الاناسى لان حياة الاناسى بحياة

بالمدة ميتا بريد به بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء واختلف في عود الهاء في قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم) على ثلاثة أوجه أولها قال الجمهور انها ترجع الى المطر أى صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلد ومرة ببلدة أخرى قال ابن عباس ما عام بأمطر من عام آخر ولكن الله تعالى يصرفه في الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا ما من ساعة من ليل أو نهار الا والسماء تمطر فيها فيصرفه الله تعالى حيث يشاء وروى عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الارزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافى والبحار وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لانه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد ثانيها قال أبو مسلم الضمير راجع الى المطر والسحاب والظلال وسائر ما ذكره الله من الادلة ثالثها صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ذكر انشاء السحاب وانزال المطر (ليذكروا) اى ليتفكروا ويعتبروا كمال القدرة وحق النعمة ويقوموا بشكره * (تنبيه) * أصل يذكروا يتذكروا أدغمت التاء في الذال وقرأ حمزة والكسائى بسكون الذال ورفع الكاف مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين (فأبى) اى لم يرد (أكثر الناس) اى بعبادتهم (الا كفورا) اى جحود النعمة وقلة الاكتراث بها وكفرانهم هو أنهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمزة آخره وقت النجم الذى هو على عادة العرب في اضافة المطر الى الانواء فيكره أن يقول ذلك لايهامه ان النوء فاعل المطر حقيقة فان اعتقد أنه الفاعل الحقيقة كفر وروى زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى من هو مؤمن بى وكافر بى فاما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب وأفاد تعلق الحكم بالباء أنه لو قال مطرنا في نوء كذا لم يكره ونقل الشافعى عن بعض الصحابة أنه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (ولو شئنا لبعثنا) اى بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة (في كل قرية نذيرا) أى رسولا ينذرهم من البشر أو الملائكة أو غيرهم كما قسمنا المطر عليها وانما قصرنا الامر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) فيما قصدوا من التفتير عن الدعاء بما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة أو من القلق من صادع الانذار ويخيلون لك انك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصميم (وجاهدهم) أى بالدعاء (به) أى القرآن الذى تقدم التحدث عنه في قوله تعالى ولقد صرفناه أو بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع أو بالسيف والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان (جهادا كبيرا) أى جامعا لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة

ارضهم وأنعامهم فقدم
ما هو سبب حياتهم ومعاشهم
ولان سقى الارض بماء

لان فى ذلك اقبال كثير من الناس اليك واجتماعهم عليك فيقوى أمرك ويعظم خطبك
وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم فان مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الاعداء
بالسيف * ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) أى الماءين الواسعين
الكبيرين بان خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما
التمازج (هذا عذب) أى حلو سائغ (فرات) أى شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب
الى الحلاوة ولا فرق بين ما كان منه على وجه الارض وما كان فى بطنها (وهذا ملح) اى شديد
الملوحة (أجاج) اى مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقى ولا شرب * (تنبيه) * أشار تعالى
باداة القرب فى الموضعين تنبيها على وجود الوصفين مع شدة المقاربة لا يلتبس أحدهما بالآخر
حتى انه اذا حفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا (وجعل) اى الله تعالى
(بينهما برزخا) اى حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما ثم انه تعالى أتم تقرير النعمة فى
منعهما من الاختلاط بالكلمة التى جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيها لكل منهما
بالمتعوذ بقوله تعالى (وحجرا محجورا) فكان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه
ويقول له ذلك كما قال تعالى لا يبغيان اى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالملوحة أو العذوبة
فانتفاء البغى كالتعوذ ههنا ثم جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ
منه وهو من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة (فان قيل) لا وجود للبحر العذب
فكيف ذكره الله تعالى هنا (أجيب) بان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن
البحر الاجاج البحار الكبار * ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى (وهو) اى وحده (الذى
خلق من الماء) اى المنى من الرجل والمرأة (بشرا) اى انسانا (فجعله) اى بعد ذلك بالتطوير فى
اطوار الخلقة والتدوير فى أدوار التربية (نسبا) اى ذكرا ينسب اليه (وصهرا) أى انثى
يصاهر بها فقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذبا وملحا
ونحو هذا قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وقيل النسب ما لا يحل نكاحه
والصهر ما يحل نكاحه فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها قال البغوى وقيل
وهو الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح
وقد ذكر الله تعالى أنه حرم بالنسب سبعا فى قوله تعالى فى النساء حرمت عليكم أمهاتكم
(وكان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وانزال هذا الذكر اليك (قديرا) حيث خلق من مادة
واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين ذكرا وأنثى وربما يخلق من
نطفة واحدة توأمين ذكرا وأنثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل الاخلاق
ويخذل من يشاء فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق عريقا فى النفاق * ولما ذكر تعالى
دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى (ويعبدون) أى هؤلاء الكفرة (من دون
الله) أى مما يعلمون أنه فى الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث انه لا ضر
ولا نفع الا وهو بيده (ما لا ينفعهم) بوجه من الوجوه ان عبدوه فى ازالة كربة (ولا يضرهم)
فى ازالة نعمة من نعم الله تعالى عليهم ان تركوه (وكان الكافر) أى مع علمه بضعفه وعجزه (على
ربه) أى المحسن اليه لا غيره (ظهيرا) اى معينا للشيطان من الانس والجن على أولياء الله

الضر سابق فى الوجود على
سقى الاناسى (قوله ما لا
ينفعهم ولا يضرهم) قدم

تعالى روى أنها نزلت فى أبى جهل و يجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور دين الله قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى وهذا أولى لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ولانه أوفق لظاهر قوله تعالى و يعبدون من دون الله وقيل معناه وكان الذى يفعل هذا الفعل وهو عبادة مالا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من قولهم ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت اليه وهو نحو قوله تعالى أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم * ولما كان التقدير تسلية له صلى الله عليه وسلم فالزم ما أمرك به ولا يحزنك ردهم عما هم فيه فانا ما أرسلناك عليهم وكيلا عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) يا أشرف الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) بالثواب على الايمان والطاعة (ونذيرا) اى مخوفا بالعقاب على الكفر والمعصية * ثم كأنه قيل فماذا أقول لهم اذا طعنوا فى الرسالة فقال تعالى (قل) اى لهم يا أكرم الخلق حقيقة وأعدلهم طريقة محتجا عليهم بازالة ما يكون موضعا للتهمة (ما أسألكم عليه) اى على تبليغ ما أرسلت به (من أجر) فتتهمونى أنى أدعوكم لاجله اذ لا غرض لى الا نفعكم ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى مستثنيا لان الاستثناء معيار العموم (الا من) اى الا أجر من (شاء أن يتخذ) اى يكلف نفسه ويخالف هواه و يجعل له (الى ربه سبيلا) فانه اذا اهتدى بهدايته ربه كان لى مثل أجره لا نفع لى من جهتكم الا هذا فان سميتم هذا أجرا فهو مطلوبى ولا مرية فى أنه لا ينقص أحد اشيأ من دنياه فأفاد فائدتين الاولى أنه لا طمع له أصلا فى شئ ينقصهم والثانية اظهار الشفقة البالغة حيث لم يقصد بتفهيمهم الموصل لهم الى ربهم ثوابا لنفسه وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من يشاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل و جرى على هذا الجلال المحلى وقال ابن عادل فى الاول نظر لانه لم يسند السؤال المنفى فى الظاهر الى الله تعالى انما أسنده الى المخاطبين فكيف يصح هذا التقدير انتهى وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيق الهمزتين * ولما بين تعالى أن الكفار يتظاهرون على ايذائه وأمره أن لا يطلب منهم أجرا أمره أن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وجلب جميع المنافع بقوله تعالى (وتوكل) أى أظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد فى أمرك كله ولا سيما فى مواجهتهم بالانذار وفى ردهم عن عنادهم (على الحى الذى لا يموت) فلا ضياع لمن توكل عليه فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين يموتون فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قرأها فقال لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق (وسبح) متلبسا (بحمده) أى نزهه عن كل نقص مثبتا له كل كمال وقيل صل لشكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى (وكفى به بذنوب عباده) أى ما ظهر منها وما بطن وكل ساتر اهتبد (خبيرا) أى عالما مطلقا فلا يخفى عليه خافية منها وان دق فلا عليك ان آمنوا أو كفروا وهذه الكلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم كمالا وكفى بالادب مالا وهو معنى حسبك اى لا تحتاج معه الى غيره لانه تعالى خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد * ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله

النفع على الضر وافقة
قوله قبل هذا عذب فرات
وهذا ملح اجاج (قوله قل)

عليه وسلم أن يتوكل عليه وصف تعالى نفسه بأمور منها أنه حي لا يموت ومنها أنه عالم بجميع المعلومات ومنها أنه قادر على كل الممكنات وهو قوله تعالى (الذي خلق السموات والارض) على عظمهما (وما بينهما) من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها ألا يعلم من خلق وقوله تعالى (في ستة أيام) اي من أيام الدنيا تعجيب للغبي الجاهل وتدريب للفطن العالم في الحلم والاناة والصبر على عباد الله تعالى في دعوتهم (فان قيل) الايام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال تعالى في ستة أيام (أجيب) بانه تعالى خلقها في مدة مقدارها هذه الايام (فان قيل) يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع (أجيب) بان الله تعالى خلق هذه المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيما يقدر بستة أيام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان وقيل في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بامر معلوم لا بامر مجهول (فان قيل) لم قدر الخلق والايجاد بهذا المقدار (أجيب) بانه يجب على المكلف أن يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل له ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بثمانية والشهور باثني عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات والحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى على ذلك في قوله عز وجل وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب أيضا عن أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انما خلقها في ستة أيام وهو قادر أن يخلقها في لحظة واحدة تعليما لخلقه الرفق والتثبت وقيل اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين وعن مجاهد أول الايام يوم الاحد وآخرها يوم الجمعة ولما كان تدبير هذا الملك أمرا باهرا أشار اليه باداة التراخي بقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أي شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه وأوجده ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار لانه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ويقتضي التركيب وكل ذلك على الله محال (فان قيل) يلزم من ذلك أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء (أجيب) بان كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو في اللغة سرير الملك وفي رفع قوله تعالى (الرحمن) أوجه أحدها أنه خبر الذي خلق أو خبر مبتدا مضمر أي هو الرحمن ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبتدئ الرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم الا له أو يكون بدلا من الضمير في استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي واختلف في معنى الباء في قوله تعالى (فاسئل به) على قولين أحدهما أنها على بابها وهي متعلقة بالسؤال والمراد بقوله (خبيرا) أي عالما يخبرك بحقيقته هو الله تعالى ويكون من التجريد كقوله رأيت به أسدا والمعنى فاسأل الله الخبير بالاشياء قال الزمخشري أو فاسأل بسؤاله خبيرا كقولك رأيت به أسدا أي برؤيته انتهى قال الكلبي فقوله به يعود الى ما ذكر من خلق

لا أسألكم عليه) اي على ابلاغ ما أنزل على من اجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه

السموات والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى لانه لا دليل في العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستواء على العرش ولا يعلمها أحد الا الله تعالى والثاني أن تكون الباء بمعنى عن اما مطلقا واما مع السؤال خاصة كهذه الآية وكقول علقمة بن عبدة

فان تسألوني بالنساء فانني * بصير بأدواء النساء طبيب

والضمير في به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام فعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل وانما قدم لرؤس الآي وحسن النظم وقال ابن جرير الباء في به صلة والمعنى فاسأله خبيرا وخبيرا نصب على الحال وقيل به يجري مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذي تساءلون به وقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن الا الذي باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل فاسأل بسبب سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل أمر تريده فيخبرك بحقيقة أمره ابتداء وحالا ومآلا فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين فانه ما أرسلك الا وهو عالم بهم فسيعلي كعبك عليهم ويحسن لك العاقبة وقرأ ابن كثير والكسائي بالنقل وكذا يقرأ حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وفتح الهمزة ولما ذكر تعالى احسانه اليهم وانعامه عليهم ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم بقوله (واذا قيل لهم) أي من أي قائل كان لهؤلاء الذين يتقلبون في نعمه (اسجدوا) أي اخضعوا بالصلاة وغيرها (للرحمن) أي الذي لا نعمة لكم الا منه (قالوا وما الرحمن) متجاهلين في معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل وقال ابن عربي انما عبروا بذلك اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) فعبروا عنه بعد التجاهل في أمره والانكار على الداعي اليه أيضا بأداة ما لا يعقل (وزادهم) أي هذا الامر الواضح المقتضي للاقبال والسكون شكر النعمة وطمعا في الزيادة (نفورا) أي عن الايمان والسجود *(تنبيه)* هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع والسامع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها وقرأ واذا قيل لهم هشام والكسائي بالاشمام وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأبدل ورش والسوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا ولما حكى تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود وذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن قال عز من قائل (تبارك) أي ثبت ثباتا لا نظير له (الذي جعل في السماء) التي تقدم أنها [illegible] واختلف في معنى قوله (بروجا) فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هي النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها وقال عطية العوفي هي القصور فيها الحرس كما قال تعالى ولو كنتم في بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هي الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد

اى الى ثوابه سبيلا اى [illegible] ادله على ذلك فهو استثناء منقطع واما الاستثناء فى قوله بل لا اسئلكم عليه اجرا الا

بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدى والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الاربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية (وجعل فيها) أى السماء وقيل البروج (سراجا) أى شمسا وقرأ حمزة والكسائى بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته فى ذلك من حيث انه أعظم من ألوف من السرج فهو قائم مقام الوصف كما فى الذى بعده كما سيأتى وقيل المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد (وقمرا منيرا) أى مضيئا بالليل * ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكر ما هما آيتاه بقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل) أى الذى آيته القمر (والنهار) أى الذى آيته الشمس (خلفة) أى ذوى حالة معروفة فى الاختلاف فيأتى هذا خلف ذاك بضد ماله من الاوصاف وقال ابن عباس والحسن يعنى خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال فاتتنى الصلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فان الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة (لمن أراد أن يذكر) اى يتذكر آلاء الله ويتفكر فى صنعه فيعلم أنه لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد وقرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين (أو أراد شكورا) اى شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل أحدهما دائما لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتوانى فى الامور المقدرة بالاوقات وفتر العزم الذى انما يثيره لتداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التى أحكمها العلى الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب ومن فاته بالليل كان له فى النهار مستعتب * ولما ذكر الله تعالى عباده الذى خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزبا ولم يضفهم الى اسم من اسمائه ايذانا باهانتهم لهوانهم عنده أشار الى عباده الذين أخلصهم لنفسه بقوله تعالى (وعباد الرحمن) فاضافهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق كلهم عباده وأضافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذى أنكره أولئك تبشيرا لهم ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود اشارة الى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التى أضيفوا اليها بصفات كثيرة الصفة الاولى قوله تعالى (الذين يمشون) وقال تعالى (على الارض) تذكيرا بما يصيرون اليه وحثا على السعى فى معالى الاخلاق (هونا) اى هينين أو مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون والمثل اذا عز أخوك فهن والمعنى اذا عاسر فياسر والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون لوقارهم باقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق لقوله تعالى ويمشون فى الاسواق * (تنبيه) * عباد مرفوع بالابتداء وفى خبره وجهان أحدهما الجملة الاخيرة فى آخر السورة أولئك يجزون وبه بدأ الزمخشرى والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدا والثانى أن الخبر

المودة فى القربى منسوخ بقوله تعالى قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله على ما روى عن

الذين يمشون * الصفة الثانية (وإذا خاطبهم الجاهلون) أي بما يكرهون (قالوا سلاما) أي تسلما منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر اي فتسلم منكم تسلما فاقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا سدادا من القول اي يسلمون فيه من الاثم والايذاء وليس المراد التحية لان المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ بآية القتال ولا غيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الادب والمروءة والشرع بصفة أسلم للعرض والورع وأطلق الخطاب على الاهانات أي كخطاب الجاهل وهو الذي يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الادب من قوله

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

* ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة الثالثة بقوله تعالى (والذين يبيتون) من البيتوتة قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون (لربهم) اي المحسن اليهم (سجدا) على وجوههم في الصلاة وقدمه لانه أنهى الخضوع وأخر عنه قوله تعالى (وقياما) اي على اقدامهم وان كان تطويل القيام أفضل للروي وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء قال الزمخشري والظاهر أنه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره وقيل من قرأ شيأ من القرآن في صلاة وان قل فقد بات ساجدا قائما وقال ابن عباس من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وعن عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى الصبح في جماعة كان كقيام ليلة * ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى بانهم مع ذلك خائفون وجلون وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى (والذين يقولون ربنا) اي المحسن الينا اصرف عنا عذاب جهنم قال ابن عباس يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول ثم علل سؤالهم بقوله تعالى (ان عذابها كان) اي كونا جبلت عليه (غراما) اي هلاكا وخسرانا ملحا لازما لا ينفك عنه كما قال

ان يعاقب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالي

ومنه الغريم لملازمته والحاصل انهم يبتهلون الى الله تعالى في صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم باعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم * ولما ثبت لهم هذا الوصف أتبع قوله تعالى (انها ساءت) اي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء وهي فيه معنى بئست في جميع المقام (مستقرا) اي موضع استقرار (ومقاما) اي موضع اقامة وقوله (ساءت) في حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها ويجوز أن تكون ساءت بمعنى أحزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين أو مترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم * ولما ذكر تعالى أعمالهم وأقوالهم اتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى (والذين اذا انفقوا) اي للخلق أو الخالق في واجب أو مستحب أو مباح (لم يسرفوا) اي لم يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير

ابن عباس رضي الله عنهما
أو هو استثناء منقطع كما
عليه المحققون تقديره
لكن اذكركم المودة

يضيعوا الاموال في غير حقها (ولم يقتروا) اي لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق (وكان) اي انفاقهم (بين ذلك) اي الاسراف والاقتار (قواما) اي وسطا * (تنبيه) * اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون في الاسراف والتقتير وجوها أحدها قال الرازي وهو الاقوى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقتير وبمثله أمر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط الآية قال ما عال من اقتصد وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذي لا سرف فيه قال ما سترك من الشمس وأكنك من المطر قال فما الطعام الذي لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذي لا سرف فيه قال ما ستر عورتك وأدفأك من البرد ثانيها وهو قول ابن عباس الاسراف النفقة في معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى وقال مجاهد لو أنفق احد مثل جبل أبي قبيس ذهبا في طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو أنفق صاعا في معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي وأنشدوا

ذهاب المال في حمد وخير * ذهاب لا يقال له ذهاب

وسمع رجل رجلا يقول لا خير في الاسراف فقال لا اسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله فقال النفقة بين الشيئين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه يا بني هذا أيضا مما أعده * ثالثها السرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدي الى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كفى سرفا أن لا يشتهي الرجل شيئا الا اشتراه فأكله وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وأبو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية * ولما ذكر تعالى ما تحلوا به من أصول الطاعات أتبعه بذكر ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى (والذين لا يدعون) اي رحمة لانفسهم واستعمالا للعدل (مع الله) اي الذي اختص بصفات الكمال (الها آخر) اي دعاء جليا بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم اياها أتبعه نفي قتل غيرهم بقوله سبحانه (ولا يقتلون النفس) رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله تعالى (التي حرم الله) اي منع من قتلها (الا بالحق) اي بأن تعمل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلي أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد بقوله تعالى (ولا يزنون) اي رحمة للمزني بها وللأقارب أن تنتهك حرماتهم مع رحمة لأنفسهم على أن الزنا أيضا جار الى القتل والفتن وفيه التسبب الى ايجاد نفس بالباطل كما أن القتل سبب الى

في القربى (قوله واجعلنا للمتقين اماما) لم يقل أئمة رعاية للفواصل أو تقديره واجعل كل واحد منا اماما

اعدامها بذلك وقد روى في الصحيح عن عبد الله بن مسعود انه سأل النبي صلى الله عليه وسلم اى الذنب أعظم وفي رواية أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أى قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم اى قال ان تزانى حليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية (وقد استشكل) تصديق هذه الآية للخبر من حيث ان الذى فيه قتل خاص وزنا خاص والتقييد بكونه أكبر والذى فيها مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم (وأجيب) بدفع الاشكال بانها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه الاول الاعتراض بين المبتدا الذى هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذى هو أولئك يجزون الغرفة على احدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الاعظام الثانى الاشارة باداة البعد في قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) اى هذا الفعل العظيم القبيح مع قرب المذكورات فدل على ان البعد من رتبتها وهو اشارة الى جميع ما تقدم لانه بمعنى ما ذكر فلذلك وحده وأدغم لام يفعل في الذال أبو الحرث والباقون بالاظهار الثالث التعبير باللقى مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله (يلق أثاما) دون يأثم ويلق اثما اى جزاء اثمه الرابع التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستأنفا (يضاعف) باسهل أمر (له العذاب) جزاء ما أتبع نفسه هواها الخامس التهويل بقوله تعالى (يوم القيامة) الذى هو أهول من غيره بما لا يقاس السادس الاخبار بالخلود الذى أقل درجاته أن يكون مكثا طويلا بقوله تعالى (ويخلد فيه) وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال والباقون بجزمهما وأسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على أنهما بدلان من يلق بدل اشتمال والرفع على الاستئناف السابع التصريح بقوله تعالى (مهانا) فلما أعظم الامر من هذه الاوجه علم أن كلا من هذه الذنوب كبير واذا كان الاعم كبيرا كان الاخص المذكور أعظم من مطلق الاعم لانه زاد عليه بما صار به خاصا فثبت بهذا أنها كبائر وان قتل الولد والزنا بحليلة الجار أكبر ما ذكر فوجد تصديق الآية للخبر وقرأ حفص مع ابن كثير بصلة الهاء بالياء من فيه قبل مهانا (فان قيل) ذكر أن من صفات عباد الرحمن صفات حسنة كيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا ولو كان الترتيب بالعكس كان أولى (أجيب) بان الموصوف بتلك الصفات السابقة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا وبقتل الموؤدة تدينا وبالزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر وأجاب الحسن بان المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كانه قال تعالى وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون * ولما أتم تعالى تهديد الفجار على هذه الاوزار اتبعه ترغيب الابرار الى العزيز الغفار بقوله تعالى (الا من تاب) اى رجع عن كل شئ كان فيه من هذه النقائص (وآمن) اى أوجد الاساس الذى لا يثبت عمل بدونه وهو الايمان وأكد رجوعه بقوله تعالى (وعمل عملا صالحا) اى مؤسسا على اساس الايمان (فان قيل) العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فذكرهما قبل العمل الصالح يستغنى عنه (أجيب) بانهما أفردا بالذكر لعلو شأنهما * (تنبيه) * اختلف

(قوله ويلقون فيها تحية وسلاما) جمع بين التحية والسلام مع انهما بمعنى لقوله تعالى تحيتهم يوم

فى هذا الاستثناء على وجهين أحدهما أنه استثناء متصل وهو مادل عليه كلام الجمهور لانه من الجنس والثانى أنه منقطع ورجحه أبو حيان معللا بان المستثنى منه محكوم عليه بانه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف بخلافه فى المنقطع فان التقدير لكن من تاب الى آخره فلا يلقى عذابا البتة ووجه كلام الجمهور بان ماذكر ليس بلازم اذ المقصود الاخبار بان من فعل كذا فانه يحل به ماذكر الا أن يتوب وأما اصابة أصل العذاب وعدمه فلا تعرض فى الآية له ثم زاد تعالى فى الترغيب بالاتيان بالفاء ربطا للجزاء بالشرط دليلا على انه سببه فقال تعالى (فأولئك) اى العالو المنزلة (يبدل الله) اى الذى له العظمة والكبرياء (سيآتهم حسنات) قال ابن عباس ومجاهد هذا التبديل فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكأنه تعالى يبشرهم بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وقال الزجاج ان السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت وقال سعيد بن المسيب ومكحول ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا هو ظاهر الآية ويدل له ماروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم فلا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها ههنا قال أبو هريرة فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (وكان الله) اى الذى له الجلال والاكرام على الاطلاق أزلا وأبدا (غفورا) اى ستورا الذنوب كل من تاب بهذا الشرط (رحيما) به بان يعامله بالاكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة روى البخارى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أهل الشرك ولما نزل صدرها قال أهل مكة قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التى حرم الله وأتينا الفواحش فانزل الله الامن تاب الى رحيما روى البخارى فى التفسير ان ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية ونزل قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله (ومن تاب) اى عن ذنوبه غير ماذكر (وعمل) تصديقا لادعائه التوبة (صالحا) ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفا ورغب سبحانه فى ذلك بقوله تعالى معلما أنه يصل الى الله (فانه يتوب) اى يرجع واصلا (الى الله) اى الذى له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (متابا) اى مرجوعا مرضيا عند الله بان يرغبه تعالى فى الاعمال الصالحة فلا يزال كل يوم فى زيادة بنيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا ويسهل عليه ما كان صعبا كما مر فى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال

يلقونه سلام والخبر تحية أهل الجنة فى الجنة السلام لان المراد هنا التحية سلام بعضهم على بعض أو سلام

كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها
ورجله التى يمشى بها اى يوفقه للخير فلا يسمع الا ما يرضيه وهكذا * ولما وصف سبحانه وتعالى
عباده بانهم تحلوا باصول الفضائل وتخلوا عن امهات الرذائل ورغب فى التوبة لان
الانسان لعجزه لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة اخرى وهى الصفة المذكورة فى قوله
تعالى (والذين لا يشهدون) اى لا يحضرون (الزور) اى القول المنحرف عن الصدق كذبا
كان او مقارنا بالعرض لا عن ان يتفوهوا به للتغير فلا يسمعوا او يقروا عليه فى مواعظ عيسى
ابن مريم عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين ويحتمل انهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف
المضاف واقيم المضاف اليه مقامه * وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو
والغناء وعن مجاهد اعياد المشركين ثم عطف عليه ما هو اعم منه بقوله تعالى (واذا مروا
باللغو) اى الذى ينبغى ان يطرح من الكلام القبيح وغيره (مروا كراما) اى آمرين بالمعروف
ناهين عن المنكر ان تعلق بهم امر او نهى اشارة او عبارة على حسب ما يرونه نافعا فان لم يتعلق
بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين انفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه كقوله تعالى
واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين
ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به
وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى اعرضوا عنه * ثم ذكر
الصفة الثامنة بقوله تعالى (والذين اذا ذكروا) اى ذكرهم غيرهم كائنا من كان لانهم يعرفون
الحق بنفسه لا بقائله (بآيات ربهم) اى التى وفقهم لتذكر احسانه اليهم فى حسن تربيته لهم
بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة (لم يخروا) اى لم يسقطوا (عليها صما) اى غير واعين لها
(وعميانا) اى غير مبصرين لما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر كأبى جهل والاخنس بن شريق بل
خروا ساجدين باذان واعية مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفى نفى الحال وهى صما
وعميانا دون الفعل وهو الخرور فالمراد نفى القيد دون المقيد كما تقول لا يلقانى زيد مسلما هو
نفى للسلام لا للقاء * الصفة التاسعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين يقولون) اى علما منهم
بعد اتصافهم بجميع ما مضى انهم اهل للامامة (ربنا هب لنا من ازواجنا) اللاتى قرنتهن بنا
كما قرنت بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فمدحت ازواجه فى كلامك القديم وجعلت مدحهن
يتلى على تعاقب الازمان والسنين (وذرياتنا قرة اعين) ان نراهم مطيعين لك ولا شىء أسر
للمؤمن من ان يرى حبيبه يطيع الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شىء اقر لعين المؤمن من
ان يرى زوجته واولاده يطيعون الله وعن ابن عباس هو الولد اذا رآه يكتب الفقه وخصوا
الازواج والذرية بذلك لان الاقربين اولى بالمعروف * (تنبيه) * من فى قوله تعالى من
ازواجنا يحتمل ان تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة اعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من
ازواجنا وذرياتنا ومعناه ان اجعلهم لنا قرة اعين وهو من قولهم رأيت منك اسدا اى
انت اسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح
وانما جمع القلة فى اعين لان المتقين الذين يعملون الطاعة ويسرون بها قليلون فى جنب
العاصين وقيل سألوا ان يلحق الله بهم ازواجهم وذرياتهم فى الجنة ليتم لهم سرورهم ووحد

وبالسلام
الملائكة عليهم لقوله تعالى
سلام الله عليهم او
سلام قولا من رب رحيم
المراد بالتحية اكرام الله

القرة لانها اصدر وأصلها من البرد لان العرب تتأذى من الحر وتتروح الى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار وقال الازهري معنى قرة الاعين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر الى غيره وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بالف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (واجعلنا للمتقين اماما) اى أئمة يقتدون بنا فى أمر الدين باضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو أرادوا واجعل كل واحد منا أو أرادوا جمع آم كصائم وصيام أو أرادوا اجعلنا اماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم فى الآية مايدل على ان الرياسة فى الدين يحسن أن تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدى بالمتقين ويقتدى المتقون بنا وقيل هذا من المقلوب اى واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه الآية فى العشرة المبشرين بالجنة * ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين عظم احسانه اليهم بقوله تعالى (أولئك) اى العالو الرتبة العظيمو المنزلة (يجزون) اى نفضلا من الله تعالى على ماوفقهم له من هذه الاعمال الزاكية والاحوال الصافية (الغرفة) اى الغرفات وهى العلالى فى الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى من أسماء الجنة * ولما كانت القرب فى غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بان جعلها سببا لهذا الجزاء بقوله تعالى (بما صبروا) اى أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين فى أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معانى خلالهم * ولما كان المنزل لا يطيب الا بالكرامة والسلامة قال تعالى (ويلقون فيها) اى الغرفة (تحية) اى دعاء بالحياة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم ولا يتعرى فى اخبارهم لانهم عن الله تعالى ينطقون وذلك على وجه الاعظام والاكرام مكان ما هانهم عباد الشيطان وقيل ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) اى من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من أهل رحمتك وارزقنا مارزقتهم فى دار رضوانك يا أرحم الراحمين وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقى كما قال تعالى فسوف يلقون غيا والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف اى يجعلهم الله تعالى لاقين بأيسر أمر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا (خالدين فيها) اى الغرفة لا يموتون ولا يخرجون مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ودل على علو أمرها وعظيم قدرها بايراده لها فى مظهر التعجب بقوله تعالى (حسنت) اى ما أحسنها (مستقرا) اى موضع استقرار (ومقاما) اى موضع اقامة وهذا مقابل ساءت مثله فى الاعراب * ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وأثنى عليهم من أجلها وشرح ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) اى لكفار مكة (ما يعبأ) اى ما يصنع (بكم) أيها الكافرون من عبأت الجيش اولا يعتد بكم (ربى) اى المحسن الى والبكم بربانيته المخصص لى بالاحسان برحمته وانما خص بالاضافة لاعترافه دونهم (لولا دعاؤكم) اى عبادتكم وما تضمنه لمعنى الاستفهام

لهم بالهدايا والتحف وبالسلام سلامة عليهم بالقول ولو سلم انهما بمعنى فساغ الجمع بينهما الا اختلافهما لفظا كما مر نظيره

وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم إياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (فقد كذبتم) بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم لولا دعاؤكم أي نداؤكم في الشدائد كما قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وقوله تعالى فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ويجوز أن تكون ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلي (فسوف) أي فتسبب عن تكذيبكم أن يجازيكم على ذلك ولكنه مع قدرته واختياره وقوته لا يعاجلكم بل (يكون) جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضرب لكم من الآجال (لزاما) أي لازما يحيق بكم لا محالة فاعتقدوا وتهيئوا لذلك اليوم فكل آت قريب وكل بعيد عندكم قريب عنده وعن مجاهد هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزاما قتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون وعن ابن مسعود خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة

الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب

فيها وأدخل الجنة بغير حساب حديث

موضوع والله

أعلم

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله سورة الشعراء)